

التربية في السودان

والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها

د. عبد العزيز أمين عبد المجيد

دبلوم دار العلوم، دبلوم فى التربية من جامعة إكستر، دبلوم فى اللغة الفرنسية من جامعة بيرانسون بفرنسا، درجة B.A. فى علم النفس من جامعة لندن، دبلوم فى التوجيه المهنى من معهد علم النفس الصناعى بلندن، دبلوم بدرجة الشرف من معهد اللغات الشرقية بجامعة لندن



لست أريد حين أقدم هذه الرسالة أن أزعم أننى وصلت إلى مرحلة الكمال فى العرض والكشف عن الحقائق، ولكنى أستطيع أن أقول إن هذه الرسالة هى أول رسالة من نوعها تعالج ناحية التربية فى السودان، ظهرت بالعربية أو غيرها من اللغات. وإن الجهد المضنى الذى تحملته فى سبيل إخراجها، واستخلاص حقائقها من مئات المراجع المكتوبة والشفهية لا يعزينى عنه إلا أننى أقدمها هدية منى للسودان ومصر، وأجعلها لبنة فى بناء الماضى المشترك والحاضر المشترك، والمستقبل المشترك، إن شاء الله. وأرجو بذلك أن أكون قد قدمت لبلادنا ـ وادى النيل جميعه ـ خدمة علمية هى جزء مما يجب علىَّ نحو الوطن.

ولا أستطيع هنا أن أشكر كل من تفضل فعاوننى فى هذا البحث. فهم كثيرون، ولهم جميعًا على أياد تشكر ولا تنكر. ولذلك أرجو أن أسجل لهم خالص الشكر فردا فردا، وهو شكر لا يتناسب وما غمرونى به من فضل، وتأييد.





التربية في السودان

والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها

د. عبد العزيز أمين عبد المجيد

التربية في السودان

والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها

د. عبد العزيز أمين عبد المجيد

دبلوم دار العلوم، دبلوم فى التربية من جامعة إكستر، دبلوم فى اللغة الفرنسية من جامعة بيرانسون بفرنسا، درجة B.A. فى علم النفس من جامعة لندن، دبلوم فى التوجيه المهنى من معهد علم النفس الصناعى بلندن، دبلوم بدرجة الشرف من معهد اللغات الشرقية بجامعة لندن



للنشر والتوزيع

التربية فى السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التى قامت عليها

تأليف:

د. عبدالعزيز أمين عبدالمجيد

الناشـــــر



للنشر والتوزيع

14شارع جواد حسني متفرع من شارع قصر النيل ـ القاهرة

هاتف: 23961698 0020ـ 00201227717795

Email:kenouz55@yahoo.com

التنفيذ الفنى



01065086008

رقم الإيداع: 2014/14823

الترقيم الدولى: 978-977-709-343-9



موضوع البحث

موضوع هذا البحث هو «التربية فى السودان منذ أوائل القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها» . والسبب فى تحديد مبدأ البحث بالقرن السادس عشر ما امتاز به هذا القرن من طابع خاص هو ظهور الدول العربية الإسلامية فى السودان الإسلامى سودان وادى النيل . وأعنى بهذه الدول سلطنة دارفور وكردفان اللتين[١] ظهرتا فى سنة ٨٤٨هـ (١٤٤٥م) ومملكة الفونج بجزيرة سنار وما خضع لها من مشيخات تلك المملكة التى [٢] تأسست سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م) .

ولم تصرهذه الدول التى أشرنا إليها وحدة سياسية وخاضعة لإدارة مركزية واحدة قبل الفتح المصرى فى سنة ١٢٣٦هـ (سنة ١٨٢١م) . وحتى بعد هذا التاريخ لم تدخل دارفور ضمن السودان المصرى إلا فى رمضان سنة ١٢٩١ (نوفمبر ١٨٧٤م) . وقد ظلت جزءاً من السودان المصرى نحو تسع سنوات ثم سقطت فى أيدى المهديين سنة ١٣٠٠هـ (سنة ١٨٨٣م) وبقيت مستقلة حتى بعد استرجاع السودان سنة ١٣١٦هـ (سنة ١٨٩٨م) إلى سنة ١٣٣٥هـ (سنة ١٩١٦م) .

وإذاً فلم يكن هناك حتى الفتح المصرى اسم عام يطلق على هذه الدول ، التى كانت عبارة عن أخلاط من الأجناس والقبائل تسكن مساحات واسعة ، فى الجنوب زنوج على الفطرة ، وفى الشمال عرب رحالة وقرويون مستقرون هم خليط من الجنسين [٣] .

---

(١) تاريخ السودان لنعوم شقير ص ١١٢-١١٣ الجزء الثانى .

(٢) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه لإبراهيم ود عبد الدافع (مخطوط) ص ٣ .

(3) P. The Anglo-Egyptian Sudan From within edited by.J. Hamution.

فى كتاب : The Nile From The Source To Egypt. Part I, P. 206 by Emil Ludwing.

ولم تكن هناك صلات تعارف بين ملوك الدول التى قامت فيما نسميه الآن بالسودان المصرى الإنجليزى وأمرائها . وكان =

وسودان وادى النيل بحدوده الآن [١] قسمان : القسم الشمالى ودينه الإسلام ، واللغة الرسمية والسائدة فيه هى العربية ، ويحد من الشمال بالخط ٢٢ من خطوط العرض الشمالى عند وادى حلفا ، ومن الجنوب بخط يمر بملكال ويسير مستقيمًا شرقًا إلى حدود الحبشة وغربًا مع بحر العرب حتى حدود إفريقيا الاستوائية الفرنسية . والقسم الجنوبى ودينه الوثنية . وليس له لغة واحدة مشتركة ، وإنما تتعدد لغاته بتعدد قبائله كالشلوك والنوير [٢] والدنكا .

وسيكون بحثنا مقصوراً على السودان الشمالى العربى الإسلامى فى عهوده المختلفة حتى ظهور الثورة المهدية . هذا السودان الذى قد وصل إلى مرحلة من الحضارة والثقافة يجد فيها المؤرخ مادة [٣] للكتابة : أما السودان الجنوبى فإنه كان ولا يزال فى طور بدائى ، بالرغم مما تبذله الحكومة ويبذله المبشرون لتمدينه [٤] ولذلك سوف لا نذكر عنه شيئًا .

ويسكن السودان الشمالى ثلاثة أجناس قديمة : النوبيون ، والبجاة ، والعرب . وهؤلاء الأخيرون كان دخولهم السودان قبل الإسلام فى شكل زمر صغيرة بقصد التجارة أو الهجرة ، ولكنهم دخولهم فى جماعات كبيرة حدث بعد ظهور الإسلام وفى عصور مختلفة ، ثم اختلطوا هناك بالجنسين الآخرين ، وبغيرهما من الزنوج ممن كانوا يسكنون فى الشمال وفى دارفور .

= يعرف بعضهم بعضًا معرفة قليلة . فبين النيلين الأزرق والأبيض وفى دارفور . غربى النيل الأبيض ، قامت دول لم يكن بين حكامها وحكام الدويلات الأخرى التى على النيل صلات إلا النيل الذى لم يكن جميعه صالحا للملاحة ؛ لأنهم كانوا مختلفين فى اللغة والعقيدة . وأما ملوك الفونج الذين أسسوا مملكتهم فى عهد انتشر فيه بأوروبا صيت Leonaarde da Vinoi Gervante فقد ظلت مملكتهم مدة ثلاثة قرون تحتوى على جزء من النوبة العليا . وقد سجل التاريخ أيامهم لأنهم شجعوا أئمة العلماء من جزيرة العرب وبغداد إليهم وإقامتهم فى بلاطهم .

(١) ينص اتفاق سنة ١٨٩٩ على حدود السودان المصرى الإنجليزى ، فيحده شمالا الخط ٢٢ من خطوط العرض الشمالى تقريبًا . ومن الشرق البحر الأحمر وبلاد أرتيريا والحبشة . ومن الغرب والجنوب الغربى الصحراء الكبرى وبلاد وادى الجبال المتوسطة بين نهر الكونغو وبحر الغزال . ومن هذا نجد أن التحديد غير منتظم الشكل وطوله من الشمال إلى الجنوب نحو ١٢٠٠ ميل ومن الشرق إلى الغرب نحو ١٠٠٠ ميل .

(٢) سنرى بعد أن بالسودان الشمالى لغات أخرى غير العربية ، وهذه لاتزال مستعملة حتى الآن فى لغة الحديث وإن لم يكن لها آداب مسطورة . انظر خريطة القبائل صفحة ٧ .

(٣) نعم إن السودان الشمالى قد ساهم بنصيب قليل فى تقدم الجنس البشرى . ولكنه مع ذلك كان وظل منذ العصور القديمة متصلا ـ بطريق التجارة والحروب ـ بأجناس أخرى أرقى منه ، تلك التى تقيم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط (من مذكرات لم تطبع للمستر صمويل هيللسون مدرس التاريخ سابقًا بكلية غردون) .

(٤) إن سكان النيل الأعلى وبحر الغزال من الزنوج وليس لهم تاريخ إذا أردنا بالتاريخ السجل الذى يتضمن ما كان للقوم من نشاط عام ساهموا به فى تقدم الحضارة (من مذكرات صمويل هيللسون) .

ولما كان الجزء الشمالى من سودان وادى النيل ذا صلات قديمة بمصر من قبل التاريخ . وكان قد دخل فى المسيحية كما دخلت مصر ، وأعتنق الإسلام كذلك . وكان يشبه فى ثقافته العربية الإسلامية كثيراً من الأمم الأخرى ، ولم يكن قد كُتب بعد أى شىء عن التربية فيه ، رأيت أن أتناول هذا الموضوع وأعالجه على هذه الصورة الآتية :

يشمل الموضوع ثلاثة أجزاء ، الجزءان الأول والثانى يحتويان على البحث والخرائط والصور الضرورية له . والجزء الثالث يحتوى على الوثائق والمستندات المكتوبة والشفهية التى عثرت عليها أو جمعتها .

هذا ولما كان القرن العشرون بدء عهدً جديداً فى تاريخ السودان السياسى ونظامه الاجتماعى والاقتصادى ، وكان التعليم به قد أخذ صبغة جديدة تنظمها خطة موضوعة ، وسياسة مقررة ، وكان اتجاه التعليم فى القرن العشرين يختلف عن نظمه واتجاهه فى القرون السابقة ، رأيت أن أقف ببحثى هذا عند الثورة المهدية ، وأرجو الله أن يمكننى من إصدار كتاب عن التربية والتعليم بالسودان فى عهده الأخير .

■ ■ ■

كلمة المؤلف

لقد كان فى يوم من أيام ذى الحجة سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩) ، وفى يوم من أيام عيد الأضحى ، أن تحركت بنا من الدويم سيارة لزيارة الجزيرة أبا ـ بالنيل الأبيض ـ جزيرة السيد عبد الرحمن المهدى باشا . ولم يكن قد مضى علينا فى السودان غير أشهر قلائل شغلت خلالها ـ على قصرها ـ بدراسة المهمة التى وكلت إلىّ ، مهمة إصلاح مناهج الدين واللغة العربية بالمدارس السودانية . وكنت قد أقبلت على درس هذا الموضوع بشغف ونهم ، حتى لم يكن عندى من الوقت ما أنصرف فيه ولو قليلا إلى تأمل ما حولى من طبيعة ، أو التمتع بما فيها من جمال غير مألوف فى مصر ، فكانت زيارتى للجزيرة أبا حينذاك انتزاعا مقصودا لى من البيئة العلمية التى انغمست فيها .

وسارت بنا السيارة . وكانت تمر فى الطريق بالقرى الصغيرة (الحلات) وبجماعات الرعاة من البدو والبقارة . وكان من أصحابى فى هذه الرحلة الأستاذ عبد الرحمن على طه ، نائب رئيس بخت الرضا ، وهو محدث لبق . واسترعت نظرى هذه القرى ، واسترعى نظرى الرعاة وقد بدت على وجوههم علامات البشر والسعادة والحرية ، واسترعى نظرى هذا النوع من الحياة الذى يصارع القديم البدائى المتمكن فيه ، الحديثُ الغازى له . ودار الحديث ـ والحديث ذو شجون ـ عن حياة الفلاح السودانى ، والراعى السودانى ، والعمدة السودانى ، وشيخ القبيلة السودانى ومن أخْبر من عبد الرحمن على طه بكل هؤلاء . وأنعش هذا الحديث أسئلة كانت تجول بخاطرى منذ قدومى للسودان ، ومن بين هذه الأسئلة : أهناك ـ غير مدارس الحكومة ـ مدارس أخرى تعلم أبناء الشعب؟ ومن القوامون على هذه المدارس؟ أو الكتاتيب؟ وكيف نشأت؟ ومتى بدأت؟ ولطالما سمعت لفظ «الخلوة» يردد أمامى ، أحيانا مقرونا بذكر كلمة القرآن ، وأحيانا يذكر

كلمة العلم . وكان لفظ الخلوة يحمل إلى معنى غامضا ، ولكنه مألوف . فالخلوة مكان الاختلاء ، وفى قرانا المصرية ينصرف الولى أو الصوفى عن الناس إلى خلوته للتعبد وذكر الله ، فلم إذًا يكثر فى السودان ذكر خلوة القرآن ، وخلوة العلم؟ المعنى غير واضح حقا ولكنه سيتضح يوما ما ، ستطول إقامتى بالسودان ، وسأعرف بالتدريج ما خفى على أو غمض . وهل فى الإمكان دراسة كل شىء فى وقت قصير؟

والآن والسيارة آخذة طريقها نحو قرية «قولى» مقر السيد يعقوب الحلو ، الذى سننزل عنده ظهرا للاستراحة قبل أن نصل إلى الجزيرة أبا ـ الآن يحدثنى الأستاذ عبد الرحمن عن الخلوة ، وكيف تعلم فيها القرآن ، وما كان عليه سيدنا الفقيه من صلاح وجد . وهو يحدثنى ويصر على أن المدارس الأولية الجديدة الحكومية لم تفقد من صفات الخلوة القديمة شيئًا ، ولكنها على عكس ذلك قد أصلحت من الطرق ، ومن المادة ، ومن روح المدرس وتفكيره ، ومن البناية . وهو يصر أيضا على أن النوع الجيد من الخلاوى يساعد على نشر التعليم ، بجانب ما تقوم به مدارس الحكومة . وهو يتحدث فى ثقة عن زيارات قام بها لخلوات فى شمالى السودان وشرقيه وفى كردفان ، وما كان للخلوات من أثر قديمًا وحديثًا فى نشر حفظ القرآن والعلم بين السودانيين .

ويشوقنى حديث الأستاذ عبد الرحمن ، ويفتح أمامى باب موضوع لم أشعر إلا وقد احتل بؤرة الشعور عندى . السودان إذًا غير حديث العهد بالتعليم ؛ وكيف يكون ذلك وأهله مسلمون والإسلام والعلم صنوان؟ وللمسلمين علمهم ، وأحكام دينهم ، ومن الضرورى أن تكون لهم معاهد يتعلم فيها الأبناء هذا العلم ، وهذه الأحكام . والإسلام ليس حديثا فى السودان ، إنه قديم ، ولكن متى بدأ فى هذه البلاد؟ . نعم قديم بدليل أن محمد على لما دخل هذه البلاد كان سكانها مسلمين . ومحمد على دخل السودان فى أوائل القرن الماضى . فلا أقل إذًا من أن يكون الإسلام قد دخل السودان قبل دخول محمد على ؛ نعم كانت بالسودان مدارس أثناء الحكم المصرى ، تعلّم العلوم الدينية ، وأحكام الإسلام . ولكن من أسس هذه المدارس؟ وهل كانت ثمة مدارس أيضا قبل دخول محمد على؟ ، وإذا كان الإسلام قد سبق إلى السودان دخول محمد على فمتى؟ وكيف؟ وعلى يد من؟ وهل كان لمسلمى السودان معاهد علم كتلك التى تحدثنا عنها كتب الأدب والتاريخ ، وتاريخ التربية فى البلاد الإسلامية الأخرى؟

كل هذه أسئلة جالت بخاطرى ، ووجهت للأستاذ عبد الرحمن بعضها . وكان هو يجيب فى تؤدة ودقة ، ولا يجزم بما لا يعلم . وكان أحيانا يبدى دهشة مستورة عندما أسأله بعض هذه الأسئلة ، كأنما يقول : وإذا كنت لا تعرف الجواب عما تسأل ، فلم أنت فى هذه البلاد تتصدى لإصلاح مناهج التعليم بها؟ مناهج الدين واللغة العربية؟ .

والحقيقة أن الموضوع تطور من مجرد حديث إلى مشكلة والشعور بالمشكلة ـ كما يقول رجال التربية ـ أول مراحل البحث . وإذاً فعلىّ أن أحل هذه المشكلة ، وأن أبحث التعليم فى السودان منذ نشأته ، لا بل لا بد أن أعرف أولا كيف دخل الإسلام هذه البلاد؟ ، وكيف أسس المسلمون معاهد العلم ، وكيف تطورت هذه المعاهد وما طرأ عليها من ظروف وأحداث اجتماعية وسياسية غيرت من طبيعتها ورسالتها ، إن كان قد حدث من ذلك شىء . ونويت أن أفعل هذا ، وأعلنت نيتى هذه قبل أن تقف بنا السيارة أمام بيت السيد يعقوب الحلو .

ثم ذهبت أجمع مواد مشكلتى قبل البحث ، وكانت مرحلة شاقة حقا ، فتاريخ السودان السياسى والاجتماعى غامض ، ولم يكتب فيه إلا النادر . والمؤرخون الأوربيون لم يعرفوا السودان معرفة علمية صحيحة إلا بعد الفتح المصرى ، والمؤرخون العرب من غير السودان لم يتعرضوا للسودان إلا عرضا ، ولكن فى غير استيعاب واستغراق . ولم يكتب أحد من أهل السودان تاريخهم ، اللهم إلا بعض المخطوطات التى مازالت حبيسة الحجرات ، يحرص أصحابها عليها حرص البخيل على قليل المال . لا بل إن هذه المخطوطات لم تحقّق ولم تصحّح بعد ، ويمكن أن يكون تصحيحها فى ذاته عملا علميا . وعلى أية حال فالمشكلة صارت تتمثل لى فى كل خطوة أخطوها ، وفى كل عمل أعمله ، وفى كل منظر أراه ، وفى كل زيارة أقوم بها . وصرت ـ وأنا أقرأ وأكتب لإصلاح مناهج التعليم ـ أقرأ أيضًا ، وأجمع ، وأكتب كل ما له صلة بمشكلتى . وتنقلت فى القرى والحلات الصغيرة ، زائرًا المدارس والخلاوى فى مهمتى الرسمية ، ولكنى لم أستطع أن أنسى مهمتى الأخرى غير الرسمية ، إنها مشكلة ولابد من حلها ، وأمامى الفرص وسوف تزول حتما ، فلابد من انتهازها . لابد من سؤال أهل الذكر من الشباب والكهول والشيوخ ؛ سؤالهم عن التعليم ، كيف ومتى نشأ؟ وعن الخلاوى حديثها وقديمها؟ وعن طرق التدريس . لابد من سؤالهم عن كل هذا ، وعن كل ما يمت له بصلة . فما دمت فى مرحلة

جمع المواد فلأجمع كل ما أستطيع جمعه . وكانت صعوبات كثيرة ، فى السفر لزيارات رسمية ، وأخرى شخصية . وكان حرصى على ألا تؤثر زياراتى الشخصية فى مهمتى الرسمية مبعثا لشىء من القلق . فكنت أحاول التوفيق ، مؤمنا بأن ما قد أصل إليه من حل لمشكلتى لا يقل فى قيمته عن أثر الزيارات الرسمية للمدارس التى عهد إلىّ زيارتها . وقابلت كل من قيل لى إنه على علم بموضوع بحثى . وكنت أكتب كل حديث يدور بينى وبين محدثى ، وكنت أرسم وأصور كل ما أعتقد أنه صالح لبحثى . وكنت أقرأ كما يقرأ كل باحث وألخص وأستخلص . وترامى لى أن هناك كتابا سودانيا ، تأليفا وموضوعا ، قد يكون عونا لى . وفرحت بهذا الخبر وعجلت بالحصول على الكتاب وكان جديرا بأن أحصل عليه ، إنه كتاب «طبقات ود ضيف الله فى أولياء وصالحين وعلماء وشعراء السودان» . وقد اشتمل على سير ما يقارب الثلاثمائة من هؤلاء ، فى مدة ثلاثة قرون ، من أول العاشر الهجرى إلى نهاية الثانى عشر . وهو كتاب قيم حقا ، كالبئر فى الصحراء المجدبة . ولكن العثور على البئر شىء واستنباط الماء منها شىء آخر . لقد خالطت فرحتى آلام البحث والتنقيب ، وحل معميات هذا الكتاب ؛ لأنه مكتوب بالعامية . ويا ليتها كانت العامية المألوفة لى ، أو العامية المألوفة لأهل السودان فى القرن العشرين . لقد كانت عامية محلية ، عامية أوائل القرن التاسع عشر ، لا بل أواخر الثامن عشر . وقد عفا كثير منها . والعامية فى كل اللغات سيئة الحظ ، لأنها تزول ولا تسجل كما تسجل الفصحى . وكشفت بعد ذلك أن بالكتاب أخطاء تحتاج لإصلاح ، ومن سيكون المصلح والكتاب فى نفسه ألغاز لغوية؟ ومع هذا تذرعت بالمثابرة ، وصرت أسأل ، وأناقش ، وأقارن ، وأخمن . حتى أصلحت كل ما يمكن إصلاحه . ووجدت فيه ذخيرة ثمينة كان لابد أن تنشر يوما ما . وكان لسوء الحظ أن طبع من هذا الكتاب طبعتان[1] إحداها بمطبعة مصرية مصححة بعض الشىء ، والثانية صورة طبق الأصل كما يقول الناشر . وكان اعتمادى عظيما على كتاب الطبقات هذا فى مدة القرون الثلاثة التى أشرت إليها .

ثم وليت وجهى شطر القرن التاسع عشر الذى يتميز بالحكم المصرى فى السودان ، ونبهنى الأستاذ الجليل شفيق بك غربال إلى ما فى محفوظات عابدين من وثائق قيمة ، عن هذا

(١) طبعة سليمان منديل وطبعة إبراهيم صديق .

القرن . وكانت فرحتى بالغة حين وفقت فى درسى لمجموعة وثائق السودان إلى أن أخرج لأول مرة فى تاريخ التعليم بالسودان وثائق لم تنشر ، وأن أكتب صفحة من أنصع الصفحات فى التعليم بالسودان . ومن هذه الوثائق جعلت معظم مادتى للقرن التاسع عشر .

ورأيت أن الثورة المهدية كانت انقلابا تاريخيا عظيما فى حياة البلاد السياسية والاجتماعية ، وأنها كانت بدءا لنوع جديد من الحكم ، يسمى الحكم الثنائى ، الذى له طابعه الخاص . فآثرت إذًا أن أقف ببحثى عند الثورة المهدية .

ولم أجعل عرضى للموضوع تاريخيا محضا ، بل طعّمته بوصف للحياة الاجتماعية فى البلاد ، وبشرح للحال النفسية للسكان كما عرفتها ، وكما لمستها وفهمتها من الكتب والروايات الشفهية . وحكت كل هذا فى الرسالة التى أتقدم بها الآن .

ولست أريد حين أقدم هذه الرسالة أن أزعم أننى وصلت إلى مرحلة الكمال فى العرض والكشف عن الحقائق ، ولكنى أستطيع أن أقول إن هذه الرسالة هى أول رسالة من نوعها تعالج ناحية التربية فى السودان ، ظهرت بالعربية أو غيرها من اللغات . وإن الجهد المضنى الذى تحملته فى سبيل إخراجها ، واستخلاص حقائقها من مئات المراجع المكتوبة والشفهية لا يعزينى عنه إلا أننى أقدمها هدية منى للسودان ومصر ، وأجعلها لبنة فى بناء الماضى المشترك والحاضر المشترك ، والمستقبل المشترك ، إن شاء الله . وأرجو بذلك أن أكون قد قدمت لبلادنا ـ وادى النيل جميعه ـ خدمة علمية هى جزء مما يجب علىّ نحو الوطن .

ولا أستطيع هنا أن أشكر كل من تفضل فعاوننى فى هذا البحث . فهم كثيرون ، ولهم جميعًا على أياد تشكر ولا تنكر . ولذلك أرجو أن أسجل لهم خالص الشكر فردا فردا ، وهو شكر لا يتناسب وما غمرونى به من فضل ، وتأييد .

والله أسأل أن يجعل عملى هذا مقرونا بالتوفيق .

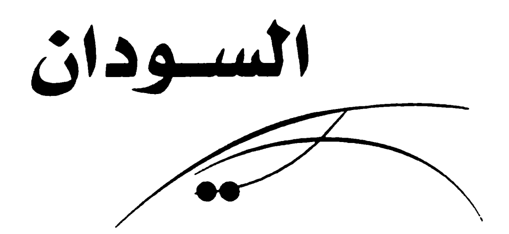
عبد العزيز أمين عبد المجيد

استاذ مساعد بمعهد التربية العالى للمعلمين

٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ (١٠ من أبريل سنة ١٩٤٦) .

■ ■ ■

السـودان



السودان جمع أسود ، وبلاد السودان هى البلاد التى يقطنها السود من إفريقيا . وقد جرت عادة مؤرخى القرون (١) الوسطى من العرب أن يطلقوا عبارة (بلاد السودان) على الأقاليم التى فى جنوب الصحراء الكبرى ومصر ، والتى تمتد من الرأس الأخضر فى المحيط الأطلنطى إلى مدينة مصوع على ساحل البحر الأحمر ، وتحد هذه الأقاليم (٢) جنوبًا بالأقطار المحيطية فى إفريقيا الغربية وبحوض نهر الكونغو الأدنى ، وكذلك بالبحيرات الاستوائية . أما فى الشرق فتحد ببلاد الحبشة والغال (٣) .

وكانت هذه البلاد إلى أول القرن التاسع عشر تشمل ممالك سنار ، ودارفور ، وداى ، وبافرمى ، وكانم ، وبرنو ، وسكوتو ، وتمبكتو ، وملى ، وتنقسم الآن مجموعة هذه البلاد إلى :

(أ) السودان الغربى ، ويشمل حوض السنغال وغمبيا ، وأعالى نهر الفلتا ، وأواسط النيجر .

(ب) السودان الأوسط ، ويشمل حوض بحيرة تشاد .

(ج) السودان الشرقى ، وهو السودان المصرى الإنجليزى (٤) .

---

(1) P. 203 Vol. VIII, Popular Encylopaedia.

(2) P. 504. Vol. Iv, Encyelopaedia Britanica, 14 th Edition.

(٣) ولم نعثر فى النقوش المصرية على أى وصف لحدود «بلاد السودان» المسماة (تانحسو) . ولم يستطع مؤرخو اليونان والعرب وجغرافيوهم أن يعطوا أية فكرة واضحة عن مدى ما يشمله السودان (صفحة ٥٣٥ من كتاب The Egyptian Sudan Part. I, by W. Budge.

(4) P. 495 Vol. IV. Encyol opaedia of Islam, 1934.

وانظر الخريطة التى فى صفحة ٤ من هذا الكتاب .

ويقول (W.G.Browne) [1] فى رحلاته «وليس هناك اسم أكثر غموضًا من اسم السودان فعند المصريين والعرب (بر السودان) يطلق على البلاد التى تفد منها القوافل عندما تصل إلى أول جزء معمور فى دارفور .

ويظهر أن دارفور هى حدود السودان الشرقية ، إذ إننى لم أسمع قطًا أحد يطلق اسم السودان على كردفان أو سنار ، ففى دارفور يطلق اسم السودان على الأقاليم الواقعة فى غربيها ، أما فى القطر المصرى فيطلق السودان على البلاد المتاخمة للقطر من الجنوب والتى يسكنها السود»

وقد كانت البلاد الواقعة جنوبى مصر تسمى عند قدماء المصريين باسم تانحسو أى أرض السودان . وقد تغير الحد الفاصل بين مصر وأرض السودان منذ القدم إلى أواخر القرن الماضى[٢] . ولما فتح العرب مصر ، وغزا عبد الله بن سعد بن أبى السرح ببلاد النوبة وانتصر عليها مع ملكها معاهدة نصت على حد أن النوبة من الشمال هى أرض أسوان[٣] ، ولما أسس الفونج مملكتهم فى جزيرة سنار ٩١٠هـ (١٥٠٥م) امتد سلطانها شمالا إلى الشلال الثالث ، وصارت البلاد الواقعة بين هذا الشلال والشلال الأول بيد الكشاف الأتراك سنة ٩٢٣هـ (سنة ١٥١٧م) بعد أن كانت خاضعة لبنى[٤] كنز منذ سنة ٤١١هـ (سنة ١٠٢٠م) . واستمرت هذه الحدود فى العهد المصرى ، وبعد إخماد الثورة المهدية واسترجاع السودان نصت اتفاقية سنة ١٨٩٩م على الحدود التى أشرنا إليها من قبل[٥] .

أما اسم السودان المصرى الإنجليزى فقد ظهر لأول مرة فى عالم السياسة سنة ١٣١٦هـ (١٩ يناير سنة ١٨٩٩) وهو اليوم الذى عقد فيه الاتفاق بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز وحكومة الجناب العالى خديو مصر على أن تفوض الرياسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف

---

(1) travels in Africa, Egypt and Syria, from 1792 - 1798 London, 1799.

(٢) راجع مجلد الملحقات صفحة واحد وفيه تجد بيانًا بالحدود بين مصر وأرض الجنوب (السودان) .

(٣) أنظر المعاهدة التى عقدت بين عبدالله بن سعد بن أبى السرح وإلى مصر سنة ٣١هـ (٦٥٢م) وبين ملك المقرة وأولها «عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبى السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته» .

(٤) صفحة ٧٣ من الجزء الثانى من تاريخ السودان لنعوم شقير . وكذلك تجد بحثًا مختصرًا عن بنى كنز فى صفحة ١٤٨ بالفقرة الخامسة عشرة من الجزء الأول من كتاب تاريخ العرب فى السودان لهارولد مكميكل .

(٥) انظر صفحة هامش واحد من هذه الرسالة .

واحد يلقب بحاكم عام السودان . ويكون تعيينه بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة[1] البريطانية ، وبذلك أصبح حكم السودان مشتركًا بين إنجلترا ومصر بعد أن كان تابعًا لمصر وحدها .

ولم يصل السودان بعد إلى تكوين وحدة جنسية . وسودان اليوم تراث أجيال (ماضية) متعاقبة من الوراثة والاختلاط والتفاعل ، كما أن سودان المستقبل سيتأثر بمخلفات ذلك الماضى وتراث هذا الحاضر ، وسكان هذه البلاد الأصليون هم السود ، أو الزنوج ، ولكن السودان من قديم الزمان كان قبلة كثير من الشعوب التى هاجرت إليه من عرب الحجاز واليمن وسكان آسيا ، ومن الأمم المجاورة كالحبشة ومصر وبربر بلاد المغرب واختلطوا بأهله بعض الاختلاط وامتزجوا بهم[2] إلى حد ما . وطبيعة أرض السودان لم تكون منه حتى الآن وحدة جغرافية فهو إذًا وحدة سياسية خلقت خلقًا .

أما أنه لم يصل بعد إلى تكوين الوحدة الجنسية فظاهر من تعدد الأجناس والقبائل التى ينتمى إليها سكانه ، والتى لاتزال محتفظة بكيانها ونظامها الاجتماعى والمعاشى ، وبلغتها[3] وتقاليدها :

نعم نجد فى شمال السودان غلبة الدم العربى ، والسحنة العربية ، والخلق العربى ، لابل واللسان العربى ، والثقافة العربية ، والدين الإسلامى العربى ، ولكن يجب ألا ننسى أن العرب قوم طارئون

---

(١) يفهم من مضمون الاتفاق المشترك أن دارفور قد صارت جزءًا من السودان ، كما كانت فى أواخر الحكم المصرى ولكن الواقع هو أن على دينار حفيد السلطان محمد فضل (المتوفى سنة ١٨٣٩م) استطاع أن يحتل الفاشر بعد قتل الخليفة عبدالله ، وأن يعلن نفسه سلطانًا على دارفور . وقد تركته حكومة السودان الحاكم الفعلى فى سلطنته على أن يدفع لها جزية سنوية (قدرها ٦٠٠٠ جنيها) وذلك بتصريح رسمى أصدرته سنة ١٩٠٠م . وقد ظل على دينار سلطانًا على دارفور حتى سنة ١٣٣٥ هـ سنة ١٩١٦ ، حين وقعت بينه وبين حكومة السودان حرب هزم فيها ، وقتل فى شهر نوفمبر من السنة المذكورة .

(٢) صفحة ٧ من كتاب «الحركة الفكرية فى السودان إلى أين يجب أن تتجه» تأليف محمد أحمد محجوب القاضى المدنى بالسودان سابقًا .

هذا وقد كان الشعور السائد بين أهل السودان أنهم عرب دما ولسانا . ولكن طبقة من الشباب المثقف صارت الآن تضرب على نغمة جديدة فيها ثقة ، وفيها اعتزاز بالنفس . من ذلك ما نشرته مجلة السودان الجديد بإمضاء . ع . مشعال بكلية الطب بالخرطوم ، بتاريخ ٦ يونيه سنة ١٩٤٣ إننا خليط من الحاميين (النوبة والبجة والبشاريين) من الساميين (العرب) من الزنوج النيليين Nitotes (الشلك و الدنكا والبنجو والزاندى) ومن أشباه الزنوج Negroid (الفور وربما الفونج) ومن الأريين (الأتراك) ومن المصريين .

(٣) انظر كتاب «سبل كسب العيش فى السودان» تأليف مجموعة كثيرة من رجال التعليم والإدارة البريطانيين والسودانيين بحكومة السودان ، ولاسيما الصفحات :

٨ ، ٢٨ ، ٤٧ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٤٧ .

على سكان السودان الأصليين ، وأن تسر بهم إلى السودان بدأ فى شكل جماعات بعد الفتح الإسلامى لمصر(١) . وقد كان فى السودان حينذاك سكان من النوبيين وهم جنس خليط من الزنوج والقوقازيين ، ومن البجاة الذين سكنوا الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر وهؤلاء من أصل حامى ، والغالب أنهم جاءوا من جزيرة العرب إلى مقرهم هذا فى العصور(٢) القديمة ، وهم يشبهون فى شكلهم الحالى قدماء المصريين الذين عاشوا قبل عهدالأسرات(٣) .

وأشهر قبائلهم أربع : البشاريين ، والهدندوة ، والأمرا ، وبنى عامر(٤) هذا إلى جانب أجناس أخرى مختلفة من الزنوج وأشباه الزنوج ، على أن الزنوج أنفسهم وهم سكان أفريقيا الأصليون قد اتصلوا فى العصور القديمة جدًا بطريق الجوار والمصاهرة بجماعات أخرى غير زنجية ، فامتزجت الدماء وأصبح من العسير الحكم على نقاوة دمائهم من عناصر أجنبية .

وإذًا فقد بدأ امتزاج العناصر الجنسية المختلفة بين سكان السودان منذ قديم العصور ، ولا يزال هذا الامتزاج مستمرًا حتى الآن . ومن المستحيل أن يجد باحث علمى جنسًا نقيًا خالصًا بين الأجناس المذكورة ، وإن كثيرًا ممن يطلقون على أنفسهم اسم «عرب» لتظهر فى وجوههم تقاطيع شبه الزنوج ، مثال ذلك البقارة وسكان دارفور ، على أن من بين السود أفرادًا تظهر فى وجوههم سيما الجنس القوقازى الأبيض ، كما نجد ذلك فى قبائل الشلوك . فمن الضرورى إذًا أن نعتبر سكان السودان يتراوحون فى أجناسهم بين قطبين ، أحدهما هو الجنس الأبيض القوقازى الخالص ، والثانى هو الجنس الأسود الزنجى الخالص . ولا يوصف عادة سكان السودان الجنوبى من السود بأنهم زنوج بل يطلق عليهم اصطلاح شبه الزنوج (Negroid) . ويجب ألا نستعمل

---

(١) ويجب قبل كل شىء ألا ننسى أنه قد تسرب إلى مصر والسودان قبل ظهور الإسلام بحقب طويلة ثلل من العرب . فقد كانت العادة أن يذهب إلى السودان ومصر تجار الذهب والعاج والرقيق والتوابل عن طريق البحر الأحمر وباب المندب وخليج السويس . وفى عهد الرومان والبطالسة زادت هجرات العرب التجار إلى القطرين المذكورين (صفحة ٤٢ من كتاب : The Anglo- Egyptian Sudan From Eithin, edited by. J. Hamilton.

(٢) انظر صفحة ٥٩٥ من :

Journal of the Royal Antiropological Institute. vol. 43. 1913.

(٣) انظر مقالة بعنوان :

Fthnological Survey of the sudan, by. E. Evans Pritchard

وهى منشورة فى ص٧٩ من كتاب : The Anglo Egyptian Sudan, From Within.

(٤) انظر الخريطة فى صفحة ٧ .

كلمة «عربى» وصفًا للفرد الذى يتميز بالتقاطيع العربية ، لأن سكان جزيرة العرب أنفسهم لايكونون جنسًا عربيا خالصًا[١] فكلمة «عربى» نستعملها فى هذه الرسالة بمعنى تاريخى حينما نشير إلى الجماعات التى هاجرت من بلاد العرب إلى السودان عن طريق مصر أو البحر الأحمر أو المغرب ، وحينمانشير إلى نسلهم ممن امتزجوا بالسكان الأصليين ، وكذلك حينما نقصد السكان الأصليين الذين اختلطوا بالعرب الطارئين ، وأخذوا عنهم لسانهم وثقافتهم .

وإذاً فنحن حينما نتناول موضوع التربية فى السودان الشمالى نتناوله بين أقوام من أجناس مختلفة ، ولهم لغات مختلفة انقرض بعضها ، وظل بعضها حيًا حتى الآن ، ومع هذا فإن الذى يغلب عليهم هو اللسان العربى والثقافة العربية والدين الإسلامى العربى[٢] .

ولابد اختلفت درجة فهمهم للغة العربية باختلاف أصولهم ، ومقدار اتصال السكان الأصليين منهم بالعرب ، والزمن الذى مر على غير العرب فى معاشرتهم للعرب ، أو امتزاجهم بهم بالمصاهرة . وإذا عرفنا أن كل السكان تقريبًا كانوا فى أول العهد الإسلامى العربى (القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى) أميين أمكننا أن ندرك صعوبة انتشار لغة الكتابة والأدب العربية التى لاتسهل إلا على القراء ، وأمكننا أن ندرك العقبات التى تعترض نشر الثقافة الإسلامية العربية عن طريق الكتب .

ولما كان انتشار العربية والإسلام فى السودان تدريجيًا ، وفى عصور مختلفة وتحت ظروف مختلفة[٣] . وكان انتشارهما نتيجة لصراع بينهما وبين النظم السياسية التى كانت قائمة

---

(١) انظر المقالة التى أشرنا إليها بقلم E. E. Evans Pritchard .

(٢) لم نعثر على أى سجل يبين لنا كيف قام الصراع بين اللغة العربية الطارئة لغة الدين والثقافة واللغات الأصلية المختلفة ، وكيف انتصرت العربية فى أغلب جهات السودان وصارت سيدة اللغات الأخرى أو حلت محل بعضها . والواقع أنه فى معظم الجهات التى يتكلم فيها الناس غير العربية - فجهات النوبة والبجاه ودارفور - يستطيع كثير منهم فهم العربية . ويقول هيللسون :

it is a strange phenomenon, however, for which no a bvious explanation is available, that the iverain strip from Aswan to Dongola has retained its ancient Nubian speech to the present day. (p.859. journal of thw Asiatic Asiatic Society 1937.

(٣) الكتب الآتية شرحت بشىء من التفصيل انتشار الإسلام فى السودان .

A. The Preaching of Islam by Thomad Arnold PP. 317-337, 353-362 and also 109-113.

تحت عنوان السودان والنوبة : B. Eneyclopaedia of Islam

وكذلك حاضر العالم الإسلامى لمؤلفه لوثروب ستودارد L. Stddard ترجمة عجاج نويهض ، وعليه تعليقات الأمير شكيب أرسلان من صفحة ٢٤٩ - ٣٦٥ ولاسيما صفحة ٢٨٦ بعنوان مجارى الدعوة الإسلامية .

حينذاك والديانة المسيحية التى كانت دين البلاد ، ناسب أن نأتى بعرض تاريخى نبين به كيف ظهرت المسيحية فى السودان وانتشرت فيه ، وكيف استطاع الإسلام أن يقضى عليها قضاء مبرمًا ، بعد صراع طويل عنيف ، لاسيما وانتشار العربية والإسلام فى السودان يشابه انتشار المسيحية فيه ، من حيث وفود كل منهما من الشمال ، ومقاومة السكان الأصليين لهما .

■■■

عرض تاريخى



كيف دخلت المسيحية بلاد النوبة

لعله يجدر بنا قبل البدء فى التحدث عن بلاد السودان العربية الإسلامية أن نتحدث عن الديانة التى سبقت الإسلام هناك ، وكيف دخلت إلى تلك البلاد ، ومن أى الجهات ، وإلى أى حد نجحت فى الاستقرار ونشر عقيدتها ، وتعاليمها ، ومقدار تمسك الناس بها . وبذلك يتسنى لنا أن نبنى دراستنا لدخول الإسلام فى بلاد السودان وتعريب أهل البلاد ، على أساس من معرفتنا لتاريخها الثقافى والدينى القديم ، ويتسنى لنا أيضًا أن نفهم نوع الصراع الذى قام بين دينين وثقافتين ، وكيف استطاعت المسيحية أن تقاوم الإسلام مدة طويلة ، وأخيرًا العوامل التى أدت إلى انتصار الإسلام وانتشاره بلغته وثقافته .

ظهر المسيح عليه السلام فى مدينة ناصرة بفلسطين فى عيد الإمبراطور أوغسطس (٦٣ق م - ١٤م) ، وأخذ ينشر تعاليمه بين أهله من اليهود ، وكانت فلسطين حينذاك خاضعة لحكم الرومان .

خشى اليهود على دينهم من صاحب الدعوة الجديدة ، كما خشيت قريش على دين آبائها وأجدادها من صاحب الدعوة الإسلامية ، فعاندوه وأعرضوا عنه ، ولهذا لاقى الكثير من العنت والاضطهاد .

وجدت المسيحية من الحواريين [1] ولاسيما القديس بولس - أنصارًا لها . وأخذ هؤلاء الحواريون يبشرون بالمسيحية فى البلاد المجاورة حتى تمكنوا من إدخالها تدريجيًا ، وبصفة غير رسمية فى آسيا الصغرى ومصر واليونان ، بل وفى روما نفسها .

---

(١) قال تعالى فى الآية الثانية والخمسين من سورة آل عمران ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

أما فى مصر فقد دخلت المسيحية على يد القديس مرقص (St. Mark) واعتنقها اليهود فى الاسكندرية ، وانتشرت بالتدريج سراً بين سكان البلاد من إغريق ومصريين [1] .

وقد بلغ الاضطهاد الدينى أقصى حدوده فى مصر فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) فهو الذى أمر بالقبض على رجال المسيحية وزجهم فى السجن ، كما أمر بهدم الكنائس ، وأسرف فى ذبح الأقباط ، كل هذا والمسيحية فى انتشار ، حتى تولى الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣ - ٣٣٧م) فجعل المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية . وبذلك استطاع أقباط مصر أن يجاهروا بدينهم وحولوا بعض الهياكل الوثنية إلى كنائس مسيحية[2] .

وفى سنة ٣٨٠م أصدر الإمبراطور ديودوسيوس (٣٤٦ - ٣٩٥) مرسومًا حكم فيه على كل سكان الإمبراطورية أن يعتنقوا المسيحية . ومن ذلك الوقت انتشرت بناية الكنائس ، وأصبح لها نظام دينى خاص . وكان من أعظم رجال الدين فى ذلك الوقت بطريق روما ، عاصمة الإمبراطورية . وقد اعتبر نفسه خليفة القديس بطرس[3] وأطلق عليه اسم «بابا»[4] .

وكانت الثقافة اليونانية لاتزال سائدة فى مصر وأغلب أجزاء الإمبراطورية الرومانية فحلت اللغة اليونانية محل المصرية ، واختلطت ألفاظها بألفاظ المصرية اختلاط الحابل بالنابل . واستبدلت بالرموز الهيروغلفية حروفاً يونانية ما عدا سبعة حروف تمثل أصواتًا لا وجود لها فى اللغة اليونانية[5] .

أما دخول المسيحية بلاد النوبة فلا خلاف بين المؤرخين فى أنه كان عن طريق مصر . هذا الطريق الذى سلكته منذ القدم حضارة الفراعنة وثقافتهم ودياناتهم إلى تلك البلاد ، وهو بعينه الذى سلكته بعد ذلك حضارة اليونان وثقافتهم ، وقد دخلت المسيحية النوبة على يد المبشرين

---

(١) صفحة ٢٧٨ ج ٢ كتاب السودان المصرى تأليف واليس بدج .

(٢) صفحة ١٠ ج ١ دليل المتحف القبطى .

(٣) أحد الرسل الأثنى عشر . ولد فى بيت صيدا . واسمه الأصلى سمعان . وكان هو وأخوه اندراوس صيادين وتلميذين ليوحنا المعمدان . ثم تبعا المسيح ولما رأى المسيح سمعان قال له أنت كيفا (ومعناها بالسريانية الصخرة) ولهذا سمى باليونانية بطرس .

(٣) كلمة بابا أصلها فى الإغريقية Pappas ومعناها الأب . ولا يزال بطريق الأقباط فى مصر يسمى «أبونا» .

(٥) صفحة ٣٤ ج١ من دليل المتحف القبطى .

المصريين فى القرن الأول والثانى للميلاد . والذى ساعد على سرعة ظهور المسيحية هناك كثرة النازحين إليها من مسيحيى مصر ماوقع عليهم من الاضطهاد ، ولاسيما فى عصر تارجيان وداقيوس ودقلديانوس[١] هذا إلى أن رجال القوافل التجارية التى كانت تذهب إلى مصر إلى السودان كانواحتمًا يتحدثون فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين سكان السودان ، عن الدين الجديد ، غير أن الجزء الواقع بين الشلال الثانى والشلال الرابع كان أكثر صلاحية لاستيطان المسيحيين الفارين إلى السودان من المنطقة الجدبة الواقعة بين إبريم وكوشا ، وهى بلدة جنوبى الشلال الثانى بقليل[٢] .

وليس معنى هروب بعض المسيحيين من الشمال إلى الجنوب أن المسيحية انتشرت فى بلاد النوبة ، أو أنها قد وجدت أنصاراً ومعتنقين ، لا بل إنه من المؤكد أن البجاة والنوبيين كانوا على الوثنية فى سنة ٤٥٣م ، كما يحدثنا بذلك القائد الرومانى Maximinus الذى ذهب فى عهد الامبراطور مرقيانوس Marcianus (٤٥٠ ـ ٤٥٧) على رأس حملة تأديبية إلى البلاد النوبية[٣] وكانت نتيجة هذه الحملة أن عقد القائد الرومانى مع أهل البلاد معاهدة دفعوا بمقتضاها جزية كبيرة ، وتعهدوا بالمحافظة على السلام مدة مائة سنة ، على أن يسمح لهم بالحج إلى جزيرة الفيلة كل عام ، وأن يستعيروا من حين لآخر تمثال الإلهة إيزيس ليطوفوا به حول بلادهم تبركًا وطلبًا للحماية[٤] .

ويظهر أن النوبيين والبجاة حافظوا على عهدهم ، وأنهم ظلوا وثنيين يعبدون إيزيس فى جزيرة الفيلة التى كانوا يحجون إليها كل عام إلى النصف الأول من القرن السادس ، ولانعرف ماذا كان شأن المسيحية فى هذه البلاد إلى حوالى سنة ٥٤٠م [٥] . ففى النصف الأول من القرن السادس اعتنق النوبيون المسيحية ، وأسس سلكو ملكهم مملكته التى كانت عاصمتها دنقلة [٦] .

---

(١) ص ١٤٠ ج ١ من دليل المتحف القبطى . وكذلك ص ٣٧ من كتاب :
The Anglo-Egyptian Sudan from Within, edoted by Hamilton.

(٢) ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ج٢ من السودان المصرى تأليف واليس بدج .

(٣) ص ٢٩١ ج٢ من السودان المصرى تأليف واليس بدج .

(٤) ص ٤١٣ من الدليل للمتحف البريطانى .

(٥) يذكر هذا التاريخ فى ص ١٧٨ج٢ من كتاب السودان المصرى لمؤلفه واليس بدج .

(٦) ص ٤١٣ من الدليل للمتحف القبطى .

ولشرح ذلك نذكر أن جستنيان جلس على عرش الإمبراطورية الرومانية سنة ٥٢٧م . وكان يؤيد بالطبع المذهب الملكى ، غير أن زوجة تيودورا كانت على مذهب المصريين (اليعقوبى) وتعتقد كما يعتقدون[١] . وكان فى عهد هذه الإمبراطورة قسيس يسمى جوليانس Julianud وقد أبدى اهتمامًا كبيرًا بحال السود من سكان النوبة ، وما كانوا عليه من وثنية ، ورغبة فى أن ينصرهم ألح على الإمبراطورة أن ترسل به إلى هؤلاء القوم ففعلت . وهناك نصر وعمد الملك والأعيان ، وأدخلهم المذهب الأرثوذكسى . وصاروا تابعين لكنيسة الإسكندرية ، وهكذا لم يجئ النصف الثانى من القرن السادس حتى صارت بلاد النوبة رسميًا مسيحية تحت حكم الملك سلكو الذي عثرنا على نقوش إغريقية باسمه فى معبد ا لكلابشة ، وليس ببعيد أن يكون هذا الملك هو مؤسس لمدينة دنقلة كما ذكرنا .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن حالة البلاد التى كان يحكمها سلكو ، وخصائص أهلها ، وعاداتهم وأخلاقهم وحياتهم الاجتماعية ، ولكن يظهر أنهم كانوا دائمًا فى حالة حرب مع الوثنيين سكان الجزء الواقع بين إبريم وحدود مصر[٢] .

ومعنى هذا أنه بالرغم من صيرورة المسيحية الدين الرسمى لبلاد النوبة ، التى كان يحكمها سلكو ، كانت هناك جماعات نوبية وبجاوية شمالى هذه البلاد ، مازالت وثنية ، وهذه الجماعات ـ وغيرها أيضًا من سكان مملكة سلكو الذين لم يعتنقوا المسيحية ـ استمرت تذهب إلى جزيرة الفيلة للعبادة والحج . ويدلنا على ذلك الإمبراطور جستنيان أمر قائده نرسيس سنة ٥٦٣م أن يذهب إلى الجزيرة ، ويقضى على الوثنية هناك ، على عبادة إيزيس ففعل ، وزج بالكهنة فى السجن ، وحمل التماثيل إلى القسطنطينية ، وأقفل معبد الفيلة[٣] .

وهكذا نجد المسيحية دخلت بلاد النوبة فى عهد سلكو كديانة رسمية ، ثم استمرت الحملات الرومانية على ما لم يدخل المسيحية من البلاد الواقعة جنوبى مصر حتى أبطلت الوثنية ، وأقفلت معابدها . فلم يكن إذًا بد ـ وقد صارت الحال هكذا ـ من أن يدخل فى

---

(١) ص ٨٢ من تاريخ الأمة القبطية تأليف السيدة بتشر وترجمة اسكندر تادرس .

(٢) ص ٢٦ ج١ من كتاب تاريخ العرب فى السودان لمؤلفه هارولد مكميكل .

(٣) الدليل للمتحف القبطى ص ٤١٦ إلخ .

المسيحية من كان من النوبيين على الوثنية . غير أن لدينا من الأدلة ما يثبت أن من البجاة من ظلوا وثنيين إلى القرن الثانى عشر الميلادى[1] كما سنشير إلى هذا بعد .

وقد عرفنا كيف أن مسيحية النوبة بدأت يعقوبية بالرغم من أن القس الذى أدخلها فى هذه البلاد كان ملكيًا . ويقول ماينهام[2] : إن إرسال الإمبراطورة ثيودورا اليعقوبية رسولها إلى بلاد النوبة أتاح الفرصة لجعل المسيحية فى بلاد النوبة يعقوبية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ويظهر أن كنيسة النوبة ظلت تابعة لكنيسة القسطنطينية نحو قرن ، ثم تبعت كنيسة الإسكندرية ، وذلك بعد أن استقلت الكنيسة المصرية عن كنيسة القسطنطينية أى بعد الفتح العربى لمصر .

والآن وقد اتضح لنا كيف أن منطقة دنقلة ـ أو النوبة السفلى ـ صارت مسيحية ، وأنها كانت أولى بلاد السودان فى اعتناق هذا الدين ، يجب أن نوضح كيف انتشر الدين الجديد إلى البلاد الواقعة جنوبى دنقلة .

كان ملك أكسوم قد غزا فى سنة ٣٥٠ مملكة مروة التى كانت تمتد جنوبًا إلى جبل مويه بالقرب من سنار ، ومنذ ذلك التاريخ لم نعد نسمع إلا القليل عن مملكة مروة ، التى خيم عليها ظلام الحوادث فترة من الزمن . فلا نعرف مثلا متى صار سكان مملكة مروة مسيحيين . نعم من المعروف أن الحبشة دخلتها المسيحية حوالى ٣٣٠م ، وأن النوبة السفلى (منطقة دنقلة) صارت مسيحية بعد ذلك التاريخ بنحو قرنين ، غير أن انقطاع صلات المودة بين المملكتين (الحبشة والنوبة الشمالية) من منتصف القرن الرابع حال دون انتشار العقائد الدينية من إحداهما إلى الأخرى ، لدرجة أنه لما ظهرت المسيحية فى دنقلا فى القرن السادس الميلادى كان قدومها إلى هناك عن طريق مصر لا الحبشة . والراجح جداً أن المسيحية دخلت مملكة النوبة العليا (مروة) أو مملكة علوة فى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع[3]

(١) صفحة ١٤٠ من كتاب The Anglo-Egyptian Sudan from Within
وكذلك ص ١٩٤ج١ خطط المقريزى .
(٢) من كتابه Churehes in Lower Nubia .
(٣) ص ٤٨ ج من تاريخ العرب فى السودان لهارولد مكميكل .

هذا فيما يتعلق بالجماعات التى كانت تسكن على شاطئ النيل جنوبى مملكة دنقلة ، وفى جزيرة مروة ، وعلى جوانب النيلين الأزرق والأبيض[1] . أما سكان المنطقة التى بين النيل غربًا والبحر الأحمر شرقًا ، وجهات أسوان شمالا وبلاد الحبشة جنوبًا ، فقد اختلف المؤرخون فى حقيقتهم وعلاقة بعضهم ببعض ، وبالبلاد المجاورة لهم ، فقد ورد ذكر هذه الجماعات فى عهد الملك سلكو . وكان يطلق عليهم اسم بلميز Blemyes فقد سجل هذا الملك فى معبد الكلابشة باللغة الإغريقية[2] أمر بانتصاره على الجماعات ، وأنه غزاهم عدة مرات فى القرن السادس ، وخرب بلادهم ، وأذل رؤساءهم[3] ويستفاد من هذا السجل أن سلكو أخضعهم ، واستولى على مدنهم من طافه Taphis إلى إبريم ، وبعد ذلك أزال قائد جستنيان تماثيل الألهة التى كانت فى جزيرة الفيلة ، وأقفل معبد إيزيس ، والغالب أن هاتين الحادثتين (انتصار سلكو وإقفال المعبد) حدثا فى تاريخين متقاربين ، وأن حدوثهما كان بترتيب من الإمبراطور أو الامبراطورة .

وهؤلاء البلميز هم الذين يطلق عليهم كثير من المؤرخين اسم البجاة . وهم الذين يتكوّنون فى الوقت الحاضر من البشاريين ، وبنى عامر ، والهدندوة وغيرهم من سكان المنطقة التى بين النيل والبحر الأحمر ، ويقول كرفت[4] إن الكّتاب الرومانى يشيرون كثيرًا إلى البلميز الذين كانوا يسكنون على الشاطئ الشرقى للنيل وقد أصبح شائعًا بين المؤرخين أن هؤلاء البلميز هم قبائل البجاة الذين نعرفهم الآن فى شرقى السودان ، غير أن هذا الرأى ما زال نظرية تحتاج لإثبات .

وفى الحق أن المؤرخين المسيحيين الأول لم يكونوا دقيقين فى إطلاقهم الاسماء على المسميات فقد أطلقوا اسم بلميز على البجاة الذين كانوا على مايظهر شبيهين بسكان المنطقة التى بين دنقلة وجزيرة الفيلة[5] .

---

(١) كشف التنقيب أخيرًا عن آثار كنائس مسيحية على النيلين الأزرق والأبيض فى جهة سوبا وجبل شاد .

(٢) يدل استعمال اللغة الإغريقية فى النقوش التى على المعابد والكنائس القديمة بالسودان على مقدار تأثر هذه البلاد بالثقافة الأغريقية التى كانت سائدة فى مصر .

(٣) انظر صيغة هذا السجل فى ص ١٩٣ج٢ بن السودان المصرى لواليس بدج ، وكذلك ص ٢٦ ج١ من تاريخ العرب فى السودان لهارولد مكميكل .

(٤) ص ٣٥ج ١٩ من مجلة The Areha eologieal Survey تحت مقال بعنوان The laland of Morro .

(٥) ص ٣٨ ج١ من تاريخ العرب فى السودان لهارولد مكميكل .

«وربما اعتنق البلميز المسيحية نتيجة لغارة سلكو وانتصاره عليهم ، أو ربما كان انتصاره - أو انتصار خلفه - عليهم أزالهم نهائيًا كجنس مستقل ، وعلى أية حال فعندما وصل المسلمون إلى جنوبى أسوان بعد انتصار سلكو بنحو قرن ، وغزوا البلاد الواقعة جنوبى هذه المدينة ، لا نسمع شيئًا عن البلميز ، ولم يعرف السكان بغير اسم النوبيين والمسيحيين هكذا يقول مكميكل (١) .

ومن هذا القول نفهم أمرين : الأول أن البجاة - أو البلميز - اعتنقوا المسيحية فى أواخر القرن السادس وما بعده ، وبذلك صاروا مسيحيين كأهل النوبة من سكان منطقة دنقلة ، وبذلك تركوا الوثنية نهائيًا . والثانى أن مؤرخى العرب لم يذكروا شيئًا عن البجاة - أو البلميز - عندما غزوا السودان . وكلا الأمرين مردود ومنقوض .

أما الأمر الأول فينقضه ما ثبت من أن الوثنية ظلت بين بعض البجاة حتى القرن الثالث عشر . نعم عاشت المسيحية بين البجاه أكثر من ٦٠٠ سنة بعد أن أعتنقوها ، ووصلت إلى أوج انتشارها حوالى منتصف القرن الثانى عشر ، غير أننا نجد حتى بعد مرور قرن على هذا التاريخ أن بعض البجاة مسيحيون ، وبعضهم مسلمون ، وبعضهم وثنيون (٢) ، ومعنى هذا أنه بالرغم من دخول المسيحية وانتشارها بين هذه القبائل ظل بعضهم على الوثنية حتى اعتنقوا الإسلام فى القرن الرابع عشر كما سنذكر ذلك بعد .

ويقول المقريزى فى خططه (٣) «اعلم أن بلاد البجة من قرية تعرف بالخربة وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة . وهم فى بطن الجزيرة أعنى جزيرة مصر إلى سيف البحر المالح مما يلى جزائر سواكن وباضع ودهلك . وهم بادية يتبعون الكلاء حيثما كان الرعى ، بأخبية من جلود ، وأنسابهم من جهة النساء ، ولكل بطن منهم رئيس . وليس عليهم متملك ، ولا لهم دين» . فهذا نص صريح من المقريزى بأن البجاة - أو على الأقل عددًا منهم - لم يكن لهم دين من الأديان المعروفة حينما اتصل بهم ا لعرب . فلم يكونوا جميعًا إذًا مسيحيين .

---

(٢) ص ٤٠ ج١ من تاريخ العرب فى السودان .
(٣) ص ١٤٠ من كتاب Tge Anglo-Egyptian Sudan from Within, edited by J.A Hamilton
(٤) ص ١٩٤ج١ من طبعة بولاق .

وفى موضع آخر يقول المقريزى «والبجة (هم القبائل) الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر المالح إلى أول الحبشة . وحالهم فى الظعن والمواشى واتباع الرعى والمعيشة والمراكب والسلاح كحال الحدارب [1] إلا أن الحدارب أشجع وأهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكهانهم . ولكل بطن كاهل تضرب له قبة من أدم ، معبدهم فيها . فإذا رأوا استخباره عما يحتاجون إليه تعرى ودخل القبة مستديرًا ، ويخرج إليهم وبه أثر جنون وصرع . ويقول : «الشيطان يقرئكم السلام ، ويقول لكم أرحلوا عن هذه الحلة ، فإن الرهط الفلانى يقع بكم [2]» .

فهذا نص صريح للمقريزى يدل على أن الوثنية كانت لاتزال معروفة بين البجاة إلى حين اتصل العرب بهم .

والأمر الثانى منقوض بما يفهم ضمنا من نقض الأمر الأول ، وذلك لأن العرب لو لم يعرفوا شيئًا عن البجاة لما كتبوا عنهم ما كتبوا فى أمر حياتهم ودينهم ، وليس المقريزى أول من كتب عنهم العرب ، بل هو يقتبس من كتابة غيره بدليل قوله «قال مؤرخ النوبة ـ ومنه لخصت ما تقدم ذكره ـ وقد قرأت فى خطبة الأجناس لأمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ذكر البجة والكجة ، ويقول عنهم : شديد كلبهم قليل سلبهم . فالبجة كذلك وأما الكجة . فلا أعرفهم ، انتهى كما ذكره عبدالله بن أحمد [3] مؤرخ النوبة .

فهذا النص صريح فى أن عرب الجزيرة العربية قد عرفوا البجة فى صدرالإسلام . ولم لا وقد كانت العلاقات التجارية من قبل الإسلام سائدة بين سكان جانبى البحر الأحمر شرقًا وغربًا[4] .

هنا ويظهر أن المسيحية فى السودان قد امتدت إلى سنار [5] وكانت الكنائس والأديرة منتشرة على جانبى النيل وفى جزيرة مروة على جانبى النيل الأزرق ، وكان مطارنة النوبة

---

(١) طائفة من البجاة كانت تسكن على حدود مصر ، وتمتد مواطنها جنوبًا إلى حدود وادى العلاقى .

(٢) ص ١٩٦ج١ من الخطط طبعة بولاق .

(٣) ص ١٩٧ج١ من الخطط للمقريزى طبعة بولاق .

(٤) ألم يغز الأحباش اليمن ويستولوا عليها ويحكموها؟ وكان بلال مؤذن الرسول عبدًا حبشيًا وقد أرسل الرسول رسله إلى الحبشة وهاجر إليها بعض المسلمين الأوائل .

(٥) ص ١١٠ من كتاب The Preaching of Islam by. T. Arnold .

يرسلون إليها من قبل بطريق الأقباط بمصر . ويقول أبو صالح الأرمنى [1] أنه كان فى مملكة علوة ٤٠٠ كنيسة ودير على جانبى النيل وفى البطاح .

وكانت الصلوات والأدعية باللغة الإغريقية ، ويرى بتلر [2] أن السبب فى هذا هو أن الكنيسة النوبية قد أخذت هذه الأدعية والصلوات من اللغة الإغريقية مباشرة ، قبل ترجمتها إلى القبطية . ولا غرابة فى هذا فإن الثقافة الهلينية (الإغريقية الرومانية) كانت قد تطرقت إلى بلاد النوبة فى القرون السابقة للميلاد ، حتى صارت اللغة الإغريقية اللغة الرسمية فى النوبة ، لغة البلاط ولغة التجارة . وقد صارت اللغة النوبية ، لغة البلاد ، تحت تأثير الإغريقية لغة أدب وكتابة [3] .

وقد حول مسيحيو [4] النوبة الكثير من المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس ، فقد حول معبد إيزيس فى جزيرة الفيلة إلى كنيسة كتب عليها «بفضل الآله المسيح قد حول المطران الصالح أباثيودورس هذا المعبد إلى حرم للقسيس استيفن» ، وعلى الشاطئ الغربى من وادى السبوع حول معبد لرمسيس الثانى إلى كنيسة ، وقد رسم على أحد جدرانها صورة للقسيس بطرس وبيده مفتاح . كذلك نجد بين أبوسمبل وجبل أدا معبدًا فرعونيًا حوله مسيحيو النوبة إلى كنيسة عليها نقوش وأدعية دينية .

وهكذا نجد عشرات من المعابد الوثنية حولت إلى كنائس مسيحية ، ولا نزال كل يوم نعثر على جديد منها .

وهكذا ظهرت المسيحية فى السودان وعاشت نحواً من تسعة قرون ، حتى قضى عليها الإسلام فى ظروف سنشرحها فى الفصل التالى .

■ ■ ■

(١) ص ٢٥٦ من طبعة Churehes Manee.:es of Egypt, edited and translatod by. B. T. Evetts .

(٢) ص ٢٦٠ من تاريخ أبى صالح المذكور .

(٣) ص ٤ من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عدد أبريل سنة ١٩٣٠ .

(٤) ص ٨ ، ٩ من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عدد أبريل سنة ١٩٣٠ .

تعريب السودان
وانتشار الإسلام فيـه

لم يمض قرن على دخول المسيحية بلاد النوبة - بصفة رسمية - حتى كان الإسلام على أبواب مصر ، وحتى تدفقت الجيوش العربية المسلمة بقيادة صناديد العرب ممن شاهدوا وقائع فارس والشام ، ثم تم الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس الوالى الرومانى سنة ٢٠هـ (٦٤١م) وأصبحت مصر بذلك جزءاً من البلاد الإسلامية .

ويقول المقريزى فى خططه إن عمرو بن العاص بعث سنة ٢١هـ (٦٤٢م) عبدالله بن سعد أبى سرح القرشى - وكان أحد قواد الجيوش الفاتحة - فى عشرين ألف مقاتل إلى النوبة فمكث فيها عبد الله زمنا وصالحهم ، وقرر عليهم شيئًا معلومًا من المال ، ثم إن عمرو بن العاص كتب إلى عبدالله بن سعد يأمره بالرجوع إليه فرجع [1] .

ولا يذكر لنا المقريزى ماكان من حرب بين جيش عبدالله وبين أهل النوبة ، ولا لمن كانت الغلبة ، ولا لماذا صالحهم ، ولاقدر هذا الشىء المعلوم من المال ، ولماذا كان شيئًا معلومًا ولم يكن جزية مقدرة ، كما هى العادة عند غزو الأمم الإسلامية إذا لم تقبل الإسلام ولم تحارب .

غير أن البلاذرى يعطينا فى - كتابه فتوح البلدان - صورة أوضح وأدق من تلك التى فى الخطط فهو يقول : لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم ، فبعث عقبة بن نافع الفهرى - وكان نافع أخا للعاصى لأمه - فدخلت جيوشهم أرض النوبة ، كما تدخل طوائف الروم ، فلقى المسلمون بالنوبة قتالاً شديدًا ، فقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرة ، وحدق مفقودة ، فسموا رماة الحدق . .ثم يروى لنا شيخ حميرى ممن شاهد ملاقاة النوبيين فيقول : لقد شهدت النوبة مرتين فى ولاية

---

(١) الجزء الأول ص ٣٢٣ طبعة المليجى .

عمرو بن العاص فلم أر قومًا أحدّ فى حرب منهم . لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال : فى مكان كذا فلا يخطئه . . وخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف ، فما قدرنا على معالجتهم ، رمونا حتى ذهبت الأعين فعددت مائة وخمسين عينا مفقودة ، فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح إن سلبهم لقليل ، وإن نكايتهم لشديدة ، فلم يصالحهم عمرو ولم يكالبهم ، حتى نزع ، وولى عبدالله بن سعد بن أبى سرح فصالحهم .

وإذاً فرواية البلاذرى صريحة فى أن العرب لم يتغلبوا على النوبيين واكتفوا بمهادنتهم وتركهم ، ولا بد أن يكون الطرفان قد اتفقا على أن يترك كل منهما الآخر وشأنه .

رفض النوبيون الإسلام ـ وهم حديثو العهد بالمسيحية ـ على حين أن أقباط مصر ، الذين لبثوا فى المسيحية قرونًا ، وعذبوا واضطهدوا من أجلها ، والذين نشروا المسيحية فى النوبة نفسها ، رحبوا بالمسلمين ووجدوا فيهم خلاصا لهم من أعدائهم الملكيين ومن الحكم الرومانى الجائر ، ولعل السبب فى رفض النوبيين الإسلام إنهم لم يكونوا خاضعين للظروف التى خضع لها أقباط مصر ، إذ إن مسيحيتهم اليعقوبية هى دين الشعب ودين الملك معا ، وبلادهم مستقلة ، وهم متحدون محكومًا وحاكمًا ، ثم إن النوبيين قوم محافظون [1] بحكم طبيعة بلادهم وعزلتهم ، فلابد أن يقاوموا كل تغيير جديد يطرأ عليهم ، وهم الذين ظلوا على الوثنية ووقفوا فى وجه المسيحية أكثر من قرن بعد أن صارت دين مصر الرسمى ، فعزلتهم إذًا هى السبب الأول فى محافظتهم وعزلتهم نتيجة لأن بلادهم قليلة الخبرات لاتجتذب إليها التاجر أو الزارع .

ثم إن النوبيين لم يحافظوا على الهدنة التى كانت بينهم وبين المسلمين ، وأرسلوا سراياهم إلى صعيد مصر ، فخربوا وأفسدوا . فغزاهم عبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١هـ (٦٥٢م) وتغلب عليهم ، وخرب دنقلة ، ورمى كنيستهم بالمنجنيق ، فاضطر الملك قليدور أن يطلب الصلح صاغرًا فكُتب بذلك عهد [2] .

---

(١) مما يدل على شدة محافظتهم أنهم مازالوا محتفظين بلغاتهم النوبية رغم اعتناقهم الإسلام واختلاطهم بالعرب وتعصبهم للعرب والعربية .

(٢) تجد صورة من ذلك العهد فى مجلد الملحقات ص ٤ هذا ويقول البلاذرى (فتوح البلدان ٢٣٧) حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام . . عن يزيد بن أبى حبيب قال : ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق وإنما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم . . إلخ . وقد وردت فى العهد كلمة بقط . وأرى أن كلمة بقط هذه إغريقية الأصل بمعنى Pact أى اتفاق وليس كما قالت دائرة المعارف الإسلامية المترجمة (ص ٣٢ج٤) من أنها كلمة مصرية قديمة معناها عبد .

والذى يهمنا من شروط هذا العهد ما يأتى :

١ ـ أن مملكة النوبة التى غزاها المسلمون كانت تحد شمالاً بأرض أسوان ، وجنوبًا بأرض علوة ، وأن مملكة علوة لم يذكر عنها شيئًا فى المعاهدة ، والواقع أن المسلمين لم يصلوا فى ذلك العهد إلى حدودها ، وكذلك لم يذكر شىء عن البجاة ، وذلك لأنهم كانوا منفصلين عن النوبة .

٢ ـ أن البقط الذى تعهد ملك النوبة بدفعه لوالى مصر لم يكن جزية بالمعنى الحقيقى ؛ لأن المسلمين كانوا يدفعون فى مقابل هذا البقط مقدارًا كبيرًا من الشعير والقمح وخل الخمر والملابس ، وعلى هذا فقد كان البقط صورة بدائية من صوره التحالف السياسى [١] .

٣ ـ أن النوبيين تعهدوا فى نص الهدنة أن يحفظوا المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء دنقلة فلايدعوه يتهدم ، وعليهم ألا يمنعوا منه مصليًا ، وعليهم كنسه وإسراجه وتكريمه .

فما هو إذًا هذا المسجد؟ إن صبغة الشرط تدل على أن المسجد قد بنى فعلا ، ولكن لمن بنى المسجد ، مادام المسلمون سيتركون أرض النوبة [٢] بنص المعاهدة .

الراجح هو أن بناء المسجد فى هذه الحال كان رمزًا فى الأصل إلى أن هذه البلاد قد وطئتها أقدام المسلمين ، وهذا مايقابل فى العصور الحديثة رفع علم الدولة الغازية على أرض[٣] الأمة المغزوة ، ثم إن بناء المسجد له بجوار هذا المعنى الرمزى قيمة أخرى عملية ، فمن المؤكد أن

---

(١) يدل على ذلك ماجاء فى ص ١٢ ومابعدها من كتاب الولاة للكندى : عن يزيد بن حبيب أنه قال : ليس بين أهل مصر والأساود عهد إنما كانت هدنة أمان أن بعضها من بعض نعطيهم شيئًا من قمح وعدس ، ويعطونا رقيقًا . راجع كذلك صفحة ٣٢ من المجلد الرابع من ترجمة دائرة المعارف الإسلامية تحت كلمة بقط .

(٢) إن المسلمين وعدوا النوبيين «ألا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربًا ، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم . على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير متقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين» . وإذًا فمن الشروط الصريحة فى هذه الهدنة ألا يدخل المسلمون بلاد النوبة دخول إقامة ، ولكنا سنرى بعد أن العرب من المسلمين لم يتذكروا هذا شرط حين هاجروا جماعات إلى بلاد السودان واستقروا فيها .

(٣) يؤيد هذا الرأى ماقاله أستاذنا شفيق بك غربال من أن الفاطميين لما أعطوا رهبان دير طور سينا (دير سنت كاترين) عهد الأمان طلبوا إليهم بناء مسجد فى الدير رمز للسيادة الإسلامية هناك أو ليصلى فيه العرب المقيمون حوله . وكان ملوك الترك عندما يعقدون مع ملوك الروم عهد صلح يشترطون أن يقيموا بالقسطنطينية مسجدًا وينصبوا قاضيًا مسلمًا ، رمزًا للسيادة الإسلامية .

العرب ـ وهم قوم رحالة وتجار لهم علاقات قديمة بالسودان [1] قد سمح لهم فى المعاهدة دخول بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين ، وهم فى اجتيازهم قد يمرون بالعاصفة ، وهناك يجدون مسجدهم للصلاة .

هذا ما كان من أمر المسلمين مع النوبة ، ولكن أهل النوبة ليسوا كل سكان السودان ، أو على الأقل ليسوا كل سكان السودان الشمالى ، فهناك البجاة وهؤلاء لهم شأن آخر .

ويقول عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم فى فتوح مصر[2] : ثم تجمع بعبدالله بن سعد بن أبى السرح فى انصرافه (من النوبة) على شاطئ النيل البجة ، فسأل عنهم ، فأخبر بمكانتهم فهان عليه أمرهم ، فنفذ وتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبيدالله بن الحبحاب السلولى فى أواخر القرن الأول من الهجرة .

ويزعم بعض المشايخ أنه قرأ كتاب ابن الحبحاب فإذا فيه (أن للبجاة) ثلاثمائة بكر [3] فى كل عام حين ينزلون الريف مجتازين غير مقيمين ، على ألا يقتلوا مسلمًا ولا ذميًا ، فإن قتلوه فلا عهد لهم ، ولا يؤوا عبيد المسلمين ، وأن يردوا أُبّاقهم إذا وقعوا إليهم . . . . . وكان وكيلهم مقيمًا بالريف رهينة بيد المسلمين .

وإذًا فلم ينصرم القرن الأول الهجرى إلا وقد اتصل المسلمون بالسودان وعقدوا مع أهل النوبة والبجاة ـ وهم الذين عرفهم المسلمون من أهل السودان حينذاك ـ عهودًا تضمن حسن الجوار ، وسلامة الحدود ، وعدم اعتداء أحد الطرفين على الآخر ، ولم يجبر المسلمون السودان على اعتناق الإسلام ولم يتقاضوهم بالجزية التى كانوا يتقاضونها عادة ممن خضعوا لهم من غير المسلمين .

فكيف استطاع الإسلام إذًا ـ أو استطاعت العربية ـ أن يغزو هذه البلاد ويحيلها إلى بلاد إسلامية وقبائل تغلب عليها العربية؟

---

(١) انظر ص ٤٢ من كتاب السودان الإنجليزى المصرى من الداخل تجد فيه أن العرب كانوا يتسربون إلى السودان من باب المندب وعبر البحر الأحمر وقناة السويس للتجارة فى حاصلات إفريقيا ، كما ذكرنا ذلك من قبل .

(٢) ص ١٨٩ فتوح مصر وأخبارها .

(٣) هكذا بكسر الباء وسكون الكاف فى الأصل . وفى المصباح بفتح الباء وهو الفتى من الإبل .

لقد تعربت بلاد السودان بالتدريج ، وببطء شديد ، ومضت عليها تسعة قرون قبل أن زالت منها المسيحية والوثنية ، وانتشر فيها الإسلام نهائيًا . وأقصد بالتعريب هنا اختلاط العرب بالسكان الأصليين اختلاط جوار ومصاهرة اختلاطًا أدى إلى تغلب الدم العربى ، والعادات العربية ، واللسان العربى ـ فى أغلب بلاد السودان ـ وزوال كثير من العادات السودانية القديمة ، وزوال سلطان ملوك السودان الأصليين .

هذا والتعريب والإسلام لم يسيرا دائمًا جنبًا لجنب . وسنرى أن من سكان السودان من اعتنق الإسلام مع محافظته على لغته وجنسه وعاداته كما هى الحال مع بعض سكان جبال النوبة فى الجنوب وقبائل الشلوك والدنكا ، وأن من العرب المهاجرين إلى السودان من ظل مدة طويلة محافظًا على الدم العربى ، وإسلام الجزيرة العربية ، ولم يتأثر بالدم السودانى أو اللغة والعادات [١] .

لم يجهل العرب السودان بتاتًا قبل الفتح الإسلامى ، فما هو ثابت أن تجار العرب دخلوا السودان عن طريق البحر الأحمر ، وعن طريق مصر ، فى العصور القديمة ، وفى عهد البطالسة والرومان . غير أن دخولهم السودان بعد الإسلام ـ سواء عن طريق مصر أو البحر الأحمر أو من الغرب ـ كان فى هيئة جماعات كبيرة كبطون أو بدنات من القبائل . فما هى إذن الظروف والمناسبات التى حملت العرب على الهجرة والاختلاط بأهل السودان حتى تمكنوا من تعريبهم ونشر الإسلام بينهم .

ويمكننا تقسيم هذه الظروف والمناسبات إلى نوعين : نوع حربى ناتج عن عدم احترام أهل السودان للعهود التى قطعوها على أنفسهم مع المسلمين ، مما حمل والى مصر على أن يبعث إليهم بالحملات ليؤدبهم ، وليرجعهم إلى احترام العهود ، ونوع سلمى ، هو فى الغالب اضطرار العرب أنفسهم إلى الهجرة إلى السودان ، إذا لم يطلب لهم المقام فى مكان آخر [٢] .

---

(١) مما لاشك فيه أن جيلاً واحدًا من الاختلاط يكفى لتأثر الجيل الذى بعده بخواص من الأصليين السابقين . وقد اختلط العرب الذين نزلوا على ضفتى النيل بين أسوان وحلفا بالنوبيين الأصليين ، وتعلموا لغتهم ، واقتبسوا عاداتهم وذلك كأولاد كنز فإنهم فى الأصل من عرب ربيعة (انظر ص ١٤٩ج١ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل) .

(٢) انظر ص ٣٦ من كتاب السودان الإنجليزى المصرى من الداخل لناشره هملتون .

وسنعطى صورة لهذين النوعين كما حدثا بترتيبهما الزمنى :

سقطت الدولة الأموية فى منتصف القرن الثامن الميلادى (١٣٢هـ - ٧٥٠م) ثم توجه عبدالله السفاح فى طلب من بقى من بنى أمية ، وهرب من استطاع من الأمويين إلى مصر وشمال إفريقيا والأندلس ، وتدل بعض الوثائق التاريخية على أن جماعة من الأمويين هربوا عن طريق البحر الأحمر والحبشة إلى السودان ، فاختلطوا بالسكان الأصليين ، وتزوجوا منهم ، وظلوا هناك قروناً حتى أسسوا فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) مملكة الفونج [١] . بسنار .

ويشير المقريزى [٢] إلى أن من أمراء بنى أمية من هرب عن طريق مصر إلى بلاد النوبة ، وعلى أية حال فهذه الروايات تدل على أن من بنى أمية من وجد فى السودان ملجأ من أعدائه فاستقر وأقام .

والظاهر أن العرب اتصلوا بالبجاة فى أرضهم أثناء القرن الثامن الميلادى - عن طريق البحر الأحمر ومصر - فذهبوا إليهم تجاراً ، واجتازوا من مصر بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى معادن الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . والظاهر أيضًا أن جماعة من العرب المسلمين - وبخاصة عرب بلى - كانوا من أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم [٣] فهذه كلها ظروف ومناسبات سلمية مهدت للعرب الاختلاط بالبجاة من السودان وكانت من العوامل التى ساعدت فى القرون القادمة على تعريب هذه المنطقة ونشر الإسلام فيها .

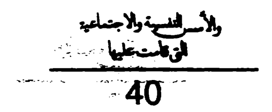
غير أن البجاة لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم فى أواخر القرن الأول للهجرة [٤] مع عبدالله بن الحبحاب ، فكثرت غاراتهم على جهة أسوان ، وكثر إيذاؤهم للمسلمين هناك ورفع أمرهم إلى الخليفة المأمون ، فأخرج إليهم عبدالله بن الجهم (٢١٦ هـ سنة

(١) ص ١٦٢ ج١ تاريخ العرب فى السودان للسير هرولد مكميكل . وكذلك فى ص ٣٦ج٢ من نفس الكتاب نجد اقتباسًا من بعض نسخ النسبة السودانية .

(٢) ص ٣٠٩ ج١ الخطط طبعة المليجى ، وكذلك العقد الفريد الجزء الثالث طبعة المطبعة الجمالية بحارة الروم بالقاهرة ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) راجع تاريخ ابن خلدون .

(٤) انظر ص ٢١ من هذا الكتاب .



٨٣١م) فكانت له معهم وقائع [١] انتهت بموادعتهم ، وكتابة عهد [٢] جديد بينه وبين رئيسهم كنون بن عبدالعزيز ، ومن أهم شروط هذا العهد ما يلى :

١ ـ أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكًا للخليفة ، وأن يكون البجاة ورئيسهم عبيدًا له (ويشبه هذا النظام ونظام الدومنيون المعروف فى عهدنا الحاضر) .

٢ ـ أن يؤدى ملك البجاة الخراج (هكذا يسمى خراجًا لا جزية) كل عام مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار .

٣ ـ أن يحترم البجاة الإسلام ، ولا يذكروه بسوء ، وألا يعينوا أحدًا على أهل الإسلام .

٤ ـ ألا يمنعوا أحدًا من المسلمين الدخول فى بلادهم والتجارة فيها برًا أو بحرًا .

٥ ـ إذا دخل أحد من المسلمين تاجرًا ، أو مقيمًا ، أو مجتازًا ، أوحاجًا ؛ فهو آمن حتى ينزح من البلاد .

٦ ـ إنه إذا نزل البجاة صعيد مصر مجتازين ، أو تجارًا ، لا يظهرون سلاحًا ، ولا يدخلون المدائن والقرى بحال .

٧ ـ ألا يهدموا شيئًا من المساجد التى بناها المسلمون فى صيحة وهجر .

٨ ـ أن يُدخل كنون بن عبد العزيز عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم منهم[٣] .

فهذه الشروط تنص صراحة على أن للمسلمين أن يدخلوا بلاد البجاة مقيمين ، أو مجتازين ، على حين لا يسمح للبجاة بدخول مصر إلا مجتازين للتجارة ، لا يظهرون سلاحًا ، ولا يدخلون مدنًا أو قرى . كذلك تنص على أن المسلمين قد بنوا فعلا مساجد فى بلاد البجاة ، وأن فى هذه البلاد من أسلم ومن يذهب إليهم عمال الخليفة لجمع الصدقات (الزكاة) ومن صريح

---

(١) تدخل هذه الوقائع ضمن الظروف الحربية التى اختلط فيها العرب بالسودان .

(٢) انظر نص هذا العهد فى ملحق الوثائق نقلا عن خطط المقريزى ج١ ص ٣١٦ .

(٣) قارن بين شروط هذا العهد وبين شروط الهدنة التى عقدها المسلمون مع النوبة فى مجلد (الملحقات) .

المعاهدة ، ومضمونها ، نفهم أن الإسلام تسرب إلى هذا الجزء من السودان مبكرًا ، وبدأ ينتشر فيه بطيئًا بدخول العرب إليه من القرن الثانى للهجرة .

ولم يفرغ ولاة مصر من أمر البجاة حتى واجهتهم مشكلة جديدة فى السودان ، فإن أهل النوبة استمروا يؤدون البقط كل سنة بعد هدنة ابن أبى السرح ، ويدفع لهم ما يقابله من جهاز ، وكانوا أحيانًا يعجزون عن دفع البقط فيشن عليهم الغارة ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ، ويمنعون إخراج الجهاز إليهم ، ويحملونهم على دفع البقط ، إلى أن كانت خلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) وكبير النوبة يومذاك زكريا بن بحنس ، فأنكر عليه ابنه فيرقى ـ أو جورج ـ أن يقدم البقط صاغرًا خائفًا من تأديب المسلمين .

شخص فيرقى إلى بغداد ، وهناك أكرمه المعتصم . وأحسن إليه إحسانًا تامًا ، ونظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط ، فقرر دفع البقط كل ثلاث سنوات ، وطلب فيرقى من المعتصم إزالة المسلحة المعروفة بالقصر من موضعها إلى الحد الذى بينهم وبين المسلمين لأن المسلحة على أرضهم فلم يجبه [١] .

لم تهدأ أمور السودان بهدنة البجاة السابقة ، ولا بتلبية رغبات النوبيين . ذلك لأننا نجد البجاة قد حافظوا على عهدهم برهة ، ثم امتنعوا عن دفع الخراج ، وعادوا إلى غزو الريف من صعيد مصر ، وقتلوا من وجدوه بالمدن من المسلمين ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) فأمسك المتوكل أولا عن تأديبهم لما سمع من صعوبة محاربتهم ، فطمعوا وزاد شرهم ، فبعث إليهم المتوكل محمد بن عبدالله القمى وكتب إلى عنبسة بن اسحاق عامل مصر أن يجهزه بالجنود ، ويعطيه مايحتاج إليه من الجيش . فسار إليهم القمى فى عشرين ألفًا بين فارس وراجل ، وبينهم من المتطوعة ، وممن كان يعمل بالمعادن عالم كثير . وكذلك سارت المراكب تحمل الميرة من بحر القلزم ووافته إلى الساحل ، وتمكن القمى أن يهزم البجاة وأن يتبعهم قتلاً وأسراً . وكان ذلك فى سنة ٢٤١هـ (٨٥٦م) حتى طلب ملكهم على بابا الأمان على شروط منها :

١ ـ أن يدفع الخراج لما سلف وهو أربع سنوات كان قد منعها ، ولما يأتى .

٢ ـ ألا يمنع المسلمين من العمل فى المعادن .

---

(١) ص ٣٢٥ ج١ خطط المقريزى طبعة المليجى .

ثم سار على بابا إلى بغداد ، وقدم على المتوكل فى سر من رأى ، فرحب به الخليفة وخلع عليه . . وولى الخليفة البجاة حماية الطريق الذى فى بلادهم .

وكان على بابا لايزال وثنيًا بدليل مايروى من أنه كان يحمل معه صنمًا من حجر كهيئة الصبى يسجد (١) له ، أثناء رحلته .

فهذه المناسبة الحربية التى حملت المسلمين على محاربة البجاة مكنتهم فى أرضهم ، وثبتت لهم حقوقهم ، وردت البجاة إلى احترام العهد الذى قطعوه على أنفسهم ، ومن الثابت فى كتب التاريخ أن المسلمين ، وبخاصة ربيعة وجهينة ، كثروا فى أرض المعدن واختلطوا بالبجاة . وكانت نتيجة هذا الاختلاط زيادة عدد من أسلم منهم ، وتعريبهم بالتدريج .

نجح ابن طولون فى تأسيس دولته بمصر سنة ٢٤٢هـ (٨٥٦م) وكانت هذه السنة فاتحة عهد جديد فى تاريخ مصر . فلم يعد يحكمها ولاة من العرب (٢) كما جرت العادة ، ولكن من الترك المنافسين للعرب والذين كانوا حينذاك يعاملونهم بقسوة وشدة .

And with the new order of things the Arabs, who bad fallen into entire disfavour, became extremely discontented and began to emigrate south and west to the Soudan ard the Berber countries to escapa the heavy hand of the alien(٣)

وهذا ظرف من ظروف السلم التى أشرنا إليها ، والتى دعت العرب للهجرة .

ولم يمض على تولية ابن طولون ثلاثة أشهرحتى بعث عبد الرحمن بن عبدالله العمرى ليؤدب النوبة . وكان معظم رجاله من جهينة وربيعة ، فانتصر العمرى على النوبة . ثم ولى وجهه(٤) شطر البجاة (٢٥٥هـ - ٨٦٩م) وكانوا يؤذون من بالمناجم من المسلمين ، فغزاهم عبدالرحمن العمرى وأخضعهم ، وترك وراءه من بنى جهينة وربيعة من أقاموا وأكثروا العمارة ،

---

(١) ص ٣١٧ ج١ من كتاب الخطط للمقريزى طبعة المليجى .

(٢) نعم حكمها من العرب فى أواخر الدولة الطولونية بعض الولاة .

(٣) P. 166m vo. I, A History of the Arabs in the Arabs un the Sudan, by. H. MacMicheal .

(٤) يقول المقريزى فى ص ٣٠٩ من الجزء الأول من الخطط عند حديثه عن انعطاف النيل بعد دنقلة : والنيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام . وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروفة بالشلة وهو ببلد يعرف بشنقير . ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان أهم ويفهم من هذا أن العمرى دخل بلاد النوبة إلى شنقير .

حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب (١) .

ولا بد أن يكون عرب الجزيرة قد سمعوا بمعادن الذهب والزمرد فى أرض البجاة فعبروا إليها البحر الأحمر ، وبخاصة وطريق البحر معروف مسلوك حينذاك .

وهنا نجد عاملين تضافرا على هجرة العرب إلى أرض البجاة . . عامل حربى ، وهو إخضاعهم وتأديبهم ، وحملوا على احترامالعهد وعامل سلميو هو استغلال المناجم .

وإذن فقد امتاز هذا العهد من تاريخ السودان باستقرار عرب جهينة وربيعة فى بلاد البجاة وبتعريب هذه المنطقة تعريبًا جزئيًا ، وبدخول الإسلام ، وبإسلام بعض السكان الأصليين ، وبالتزاوج بين العرب والبجاة ، وبفتح الطريق بين مصر والحجاز من مرفأ عيذاب عبر البحر الأحمر للتجارة والحج .

غير أنه يجب ألا نستنبط مما ذكر أن البجاة قد خضعوا نهائيًا لسلطان العرب والمسلمين ، وأنهم اندمجوا فيهم وكونوا معهم وحدة جديدة متجانسة اجتماعية كانت أو جنسية . فشتان بينهم وبين هذا ، فالبجاة قبائل رحالة بدوية ، ولم تفقد روح الغزو والنهب (٢) التى لازمتها منذ أيام الفراعنة والتى استمرت حتى الآن .

لذلك لاغرابة أن نراهم سنة ٢٥٣هـ (٨٧٣م) يغيرون على صعيد مصر وينهبون ، مما اضطر عبدالحميد بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أن يخرج إليهم ، وأن يقاتلهم . وتابع غاراته عليهم حتى أدوا إليه الجزية (٣) .

ثم يمضى نحو نصف قرن على بلاد السودان ويزور مصر أبو الحسن المسعودى فيصف لنا بلاد النوبة فى كتابه مروج الذهب (٤) ومن وصفه هذا يتضح أن بلاد النوبة السفلى مازالت مسيحية ، يحكمها من عاصمتها دنقلة كبرى بن سرور الذى كان يدفع البقط لوالى مصر ، وأن

---

(١) ص ٢١٨ ج١ خطط المقريزى . وموضع عيذاب الآن قرب رأس علبة (راجع ٧٣ج١ من كتاب البحر الأحمر لمؤلفه ألبير كمرير) .

(٢) هكذا يصفهم بركهارت فى رحلاته ص ٣٩٥ - ٣٩٦ ، ويقول إنهم قوم بخلاء ، سفاكو دماء ، لايحترمون العهود .

(٣) صفحة ٢٧١ ج٥ من تاريخ ابن خلدون .

(٤) ص ٣١ - ٥٠ج ٣ الطبعة الفرنسية .

النوبة كانت قسمين : السفلى واسمها مقره ، والعليا واسمه علوة وعاصمتها سوبة . وكانت النوبة متصلة بأسوان بطريق القوافل التجارية ، وكان أهل أسوان مختلطين بأهل النوبة ، وكان يسكن مدينة أسوان عرب من قحطان ونزار ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم من الحجاز . وكان لمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة فى أرض النوبة اشتروها فى صدر الزمان أيام بنى أمية وبنى العباس . كذلك نفهم من كتاباته أن البجاة تشعبوا فرقًا ، وملكوا عليهم ملوكًا ، واختلطوا بالمسلمين فى معادن الذهب وفى بلاد العلاقى وعيذاب ، وأن من كانوا يسكنون بديار البجاة من ربيعة تزوجوا منهم ، فقويت البجاة بهم وقويت ربيعة بالبجاة على من ناوأهم وجاورهم من قحطان ومضر [١] وكان صاحب المعدن فى ذلك الوقت سنة ٣٣٢هـ هو أبو مروان بشر بن اسحاق بن ربيعة ، وكان قوى الشكيمة يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مصر واليمن ، وثلاثين ألف حراب على النجب ، كذلك نفهم من وصف المسعودى أن الحداربة ـ وهم طائفة من البجاة يسكنون شمالا حول المناجم ـ قد صاروا مسلمين ، وأما باقى البجاة فمنهم كفار يعبدون الأصنام [٢] .

هذا ما كان من أمر البجاة ، أما ملك النوبة فلم يحافظ على العهود التى بينه وبين المسلمين فهو يغير سنة ٣٤٤هـ (٩٥٦م) على أسوان ، ويقتل جمعا من المسلمين ، وقد خرج إليه عبدالله الخازن [٣] على رأس جيش من قبل أنوجود بن الإخشيد (٣٤٥هـ) وهزم النوبة حتى وصل إلى أبريم ، وسبى من أهلها ، وقدم بهم إلى القاهرة .

وفى سنة ٣٦٣هـ (٩٦٩م) تأسست الدولة الفاطمية فى مصر ، واعترفت بها بلاد الشام والحجاز ، غير أن سلطان الفاطميين لم يعد أسوان جنوبًا ، وظلت المسيحية قائمة فى بلاد النوبة والغالب من بلاد البجاة .

وبالرغم من وجود جماعات كثيرة من العرب فى بلاد السودان لم يتأثروا بمذهب الفاطميين ، ولا بسلطانهم ، وكأنهم عاشوا هناك منعزلين فى عالمهم ، مشغولين بكسب قوتهم عما يجرى فى مصر .

---

(١) كان فى منطقة النوبة السفلى حينذاك جماعات من عرب قحطان ومضر .
(٢) ص ٣٤ ج٣ مروج الذهب (طبعة فرنسية) .
(٣) ص ٣٢٠ ج١ خطط المقريزى (طبعة المليجى) .

هذا وأما من ناحية مصر فقد جرت محاولة نادرة فقد أرسل جوهر الصقلى رسله إلى جورج ملك النوبة يدعوه للإسلام ، فلم يقبل جورج الدعوة ، وأكرم الرسل وردهم بالهدايا (١) .

ولم يذكر لنا التاريخ حادثة أخرى من هذا النوع . وتدل هذه الحادثة على مقدار تمسك النوبيين بعقيدتهم ، فبالرغم من مجاورتهم للعرب واختلاطهم بهم ، وبالرغم من الحروب التى يشنها عليهم ولاة مصر عندما يمتنعون عن دفع البقط ، وبالرغم من ضعف صلتهم بكنيسة الإسكندرية (٢) بالرغم من كل هذا نجد أهل النوبة معرضين عن قبول الإسلام ، مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنهم محافظون بطبيعتهم .

أما حال السودان فى نهاية القرن العاشر الميلادى فيصفها لنا ابن سليم الأسوانى (٣) ـ الذى اقتبس منه المقريزى فى خططه ـ بما يدل على أن بلاد النوبة مازالت منفصلة عن مصر عند قرية تعرف بالقصر . وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببلاق (٤) وجنوبى هذه الجزيرة بميل «قرية النوبة» . وبهذه القرية مسلحة وباب إلى بلد النوبة . ومنها إلى الجنادل (٥) الأولى من بلد النوبة عشر مراحل وهى الناحية التى يتصرف فيها المسلمون ، ويتجرون فى أعلاها وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لايفصح أحدهم بالعربية . . . ولهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل ، من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام ، ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه فى تجارة ، أو هدية إليه ، أو إلى مولاه ؛ يقبل الجميع ويكافئ ولايطلق لأحد الصعود إلى مولاه ، لا لمسلم ، ولا لغيره .

وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل ، وإليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ، ولاتتجاوزها المراكب . ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من

---

(١) صفحة ١٥٠ من كتاب : A History of Egypt in Middle Ages. by. Lane-poole

(٢) ص ١١١ من كتاب : The Preaching of Islam by T. Arnold

(٣) كتب ابن سليم وصفه للنوبة بين ٩٧٥ ـ ٩٩٦م . وقد عثر بركهارت على نسخة مخطوطة من خطط المقريزى التى تقتبس من ابن سليم . وهو يقول عن وصف ابن سليم لبلاد النوبة ص ٤٩٣ من الرحلات :
In my opinion the information here given is more detalied, accurate and satidfactory with regard to Nubia, than that of any other Arabian geographer or historian.

(٤) هى جزيرة الفيلة .

(٥) يقصد بالجنادل الأولى من بلد النوبة الشلالات الثانية .

غيرهم الصعود منها ، إلا بإذن من صاحب جبلهم ، والجزء الشمالى من النوبة ينتهى جنوبًا بالمقس ، وهى بلدة بها مسلحة (حصن) نوبية لايتجاوزها دينار ولا درهم إلى الجنوب ، وكانوا يتبايعون بذلك مع المسلمين إلا دون الجنادل (أى شماليها) وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولاشراء ، وإنما هى معاوضة بالرقيق والمواشى إلخ . . . وفى الجنوب قرية تعرف بيستو . وهى آخر قرى مريس وأول بلد مقرة .

ثم ذكر أن ببلاد مقرّة كنائس وأديرة عامرة ، وأن المسافة بين دنقلة وعلوة أكثر مما بينها وبين أسوان [1] .

ومن هذا الوصف نفهم أن النوبة السفلى صارت قسمين : شمالى وهو المريس ، [2] وحاكمه من قبل ملك القسم الجنوبى ، وهو المقرّة ، الذى كانت عاصمته دنقلة ، وفى القسم الشمالى انتشر الإسلام بين النوبيين الأصليين الذين كانوا مسيحيين ، بدليل قول ابن سليم «وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لايفصح أحدهم العربية» ، أما المقرة فما زالت على المسيحية ، وإن كان قد هاجر إليها ـ كما ذكرنا ـ كثير من العرب الذين اختلطوا بأهلها .

وأما علوة فيقول عنها ابن سليم إنها تبدأ شمالاً من ناحية الأبواب (كبوشية الآن) عاصمتها سوبة ، وفيها أبنية حسان ، ودور واسعة ، وكنائس كثيرة الذهب ، وبها رباط فيه جماعة من المسلمين [3] ودين أهل علوة النصرانية ، يعاقبه ، وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة ، وكتبهم [4] بالرومية ، يفسرونها بلسانهم . وهم أقل فهما من أهل النوبة .

هذا وأما البجاة فتجد بينهم جماعة تسمى الزنافج ، وهم رعاة فى المنطقة التى بين أبى حمد وبربر من الشاطئ الشرقى ، وهؤلاء كانوا مسلمين ولايختلطون بأهل النوبة ، ومحافظين على لغتهم العربية ، كما أن الحدارب الذين يسكنون على شاطئ البحر الأحمر مما يلى مصر

---

(١) ص ٣٠٧ج وما بعدها من الخطط (طبعة المليجى) ، أما كتاب ابن سليم فاسمه «أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة» ولم نعثر على نسخة منه .

(٢) كان مقيمًا فى مدينة بجراش وهى المسماة الآن فرس .

(٣) حقيقة هذه الرباط ولا نعلمها . ولكن يغلب على الظن أنه كان أشبه بمنزل يسكنه جماعة من المسلمين ويلجأ إليه المسافرون من العرب المسلمين للمبيت والضيافة والاسترشاد بدلا من أن يلجأوا إلى بيوت المسيحيين .

(٤) سنذكر فيما بعد أن اللغة الكنسية كانت إغريقية ، غير أن هذا لايمنع من أن الكتب المقدسة ترجمت من اليونانية إلى النوبية واستعملت الحروف القبطية لكتابتها (ص ١٤٠ ج٢ دليل المتحف القبطى) .

كانوا أول من اعتنق الإسلام من البجاة ، وأما القبائل الداخلة من البجاة فكفار يعبدون الأصنام .

جاء القرن الحادى عشر الميلادى وبلاد النوبة لاتزال على مسيحيتها بالرغم من وجود جماعات غير قليلة من العرب المهاجرين إلى شرق السودان وشماليه وغربيه ، غير أنا نلاحظ أن إمارة عربية قد أخذت تظهر وتقوى فى شمالى النوبة بين أسوان والمقرة . وأصل هذه الإمارة فخذ من ربيعة استقر بجوار (١) أسوان ، وقد نجح هذا الفخذ فى اختلاط أهله بالسكان الأصليين من النوبة والتزاوج بهم ، وبسط سلطانه جنوبًا بالتدريج ، حتى تكونت منه إمارة أولاد كنز (٢) أو الكنوز . وصار أمير العرب بنواحى أسوان يلقب كنز (٣) الدولة ، وبعد ذلك لانسمع شيئًا عن السودان إلى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

أسس الأيوبيون دولتهم فى مصر سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) . وكان صلاح الدين فى شغل شاغل بحروبه فى الشام وضد الصليبين ، فلم يوجه عنايته إلى السودان ، غير أنه بالرغم من شغله تمكن من أن يرسل حملة إلى النوبة السفلى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٢ - ١١٧٣م) بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه للحصول على البقط ، وليرى ما إذا كانت البلاد تصلح لأن يلجأ إليها صلاح الدين ، إذا ما اضطر إلى الفرار من وجه سيده نور الدين ، عند قدومه إلى مصر ، فسار شمس الدولة وحاصر إبريم ، وقاتل أهلها ، حتى انتصر عليهم وأقام بها مدة ، ولكن لم ير للبلاد دخلاً يذكر فتركها ، ورجع إلى مصر بما غنم (٤) .

---

(١) من هذا الفخذ ذهبت جماعة إلى منطقة البجاة ، وتزاوجت معهم ولاسيما من بنات رؤسائهم ، فقويت بهم البجاة ، واستقر أهل ربيعة وصاروا ذوى النفوذ (ص ٣١٨ ج١ خطط المقريزى) .

(٢) هاجرت جماعات كثيرة من ربيعة فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى إلى مصر وانتشرت فى البلاد . وكانت معظمها حول أسوان ، ومن هناك رحلت جماعة إلى بلاد البجاة (سنة ٢٥٥هـ - ٨٦٩م) وظلت جماعة أخرى . وقد نجحت هذه الجماعة التى أقامت حول أسوان فى بسط نفوذها على الأهلين جنوبًا ، وكسبت لنفسها السيادة ، وكان قد حدث فى سنة ٣٩٦هـ (١٠٠٦م) أن ثار أبو ركوة ضد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، فأرسل ضده أبا مكرم ، رئيس ربيعة ، فهزم أبا ركوة ، وكافأ الخليفة أبا مكرم فلقبه بكنز الدولة سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٧م) وإليه ينسب الكنوز المقيمون الآن بين أسوان وأبريم (راجع ص ٨٥ ج٢ من كتاب :

Memoires goographipues et Historiques sur I'Egypt par Quatremcre

(٣) ص ٢٨٨ ج٥ من تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) .

(٤) ص ١٩٩ من كتاب تاريخ الشيخ أبوصالح الأرمنى طبعة المطبعة المدرسية فى مدينة أكسفورد سنة ١٨٩٤م .

ويصف لنا أبو صالح فى كتابه [١] هذا بلاد النوبة [٢] ، ومن هذا الوصف يتضح أن بلاد النوبة لم تتغير كثيراً عما كانت عليه فى القرن الحادى عشر ، وأنها مازالت مسيحية ، اللهم إلا المنطقة الشمالية منها التى تلى أسوان ، والتى قوى فيها سلطان الكنوز ، وأن دنقلة كانت مرًا للتجارة فيذهب إليها العرب والأتراك لمبادلة البضائع بالعبيد ، وكل ما يباع ويشترى مقايضة .

هذا أما فى شرقى السودان فالظاهر أن الإسلام كان قد تسرب إلى بعض أجزائه النائية فإن ابن خلدون [٣] يحدثنا عن ابن سعيد سنة ٦١١ ـ ٦٨٦هـ (١٢١٤ ـ ١٢٨٧) أن جزيرة سواكن[٤] كانت آهلة بالسكان من نصارى ومسلمين . وعندى أن هذه الجزيرة لابد عرفها العرب المسلمون وهاجروا إليها وعمروها قبل هذا التاريخ بسنين طويلة ؛ لأنها ميناء إلى داخل بلاد السود ، وكانت تربطه ببلاد العرب روابط تجارية قديمة .

وفى منتصف القرن السابع الهجرى أى القرن الثالث عشر الميلادى بدأ حكم المماليك البحرية ، وكان ملك النوبة مسيحيًا ويسمى داود . وقد كون جيشًا كبيرًا غزا به ، فى جنوبى أسوان سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٦م) وأحرق عدة سواق بها ، بعد ما أفسد فى عيذاب [٥] فذهب إليه وإلى قوص فلم يدركه ، فقبض على صاحب الخيل فى عدة من النوبة ، وحملهم إلى السلطان بيبرس بقلعة الجبل فوسطهم [٦] .

وفى نفس السنة (٦٧٤هـ) قدم على الظاهر بيبرس شكندة ، ابن أخت الملك داود ، متظلمًا منه ويطلب العون عليه ، فجرد السلطان معه الأمير شمس الدين الفارقانى والأمير عز الدين أيبك الأفرم ، فى جماعة كثيرة من العساكر ، ومن أجناد الولايات وعربان الوجه القبلى فساروا حتى وصلوا إليه النوبة واقتتلوا قتالاً شديدًا انهزم فيه النوبة ، وأوغلت الجيوش فى الأرض تقتل

---

(١) الظاهر أنه ألف كتابه حوالى سنة ٦٠٥هـ ١٢٠٨م .

(٢) انظر ص ٢٦٠ وما بعدها من الكتاب المذكور .

(٣) ص ١٩٩ج٦ من تاريخ ابن خلدون . (طبعة بولاق) .

(٤) كانت سواكن هذه كثيرة من المواطن الواقعة على ساحل البحر الأحمر التى استوطن العرب فيها . وقد وجد كرفت مقابر وقبابا لأموات من العرب يرجع عهدهم إلى القرن العاشر والحادى عشر الميلادى فى جهة العقيق وطوكر .

(٥) يظهر أن غارته هذه كانت من ناحية الصحراء الشرقية ، وذلك لأن إمارة الكنوز كانت تحول بينه وبين أسوان .

(٦) ص ٣٢٦ ج١ خطط المقريزى (طبعة المليجى) وكذلك ص ٣٩٧ج٢ من مفضل بن أبى الفضائل نشره E.Blochet .

وتأسر . وكتب الأمير الفارقانى لقمر الدولة نائب الملك داود أمانًا ، فحلف قمر الدولة هذا على الطاعة لشكندة ، وتقدم الأفرم ، فأوغل فى الجنوب ، وأسر أخًا لداود وأمه وأخته ، ولم يقدر على داود لأنه هرب إلى النوبة العليا ، فلقيه هناك ملكها (١) وقبض عليه وأرسله إلى بيبرس فاعتقله بالقلعة . .

ثم تقرر شكندة ملكًا فى دنقلة بدلا من داود وأخذ على نفسه عهدًا (٢) وبينه وبين بيبرس ، حلف على أن يحافظ عليه . ومن هذا العهد يستنبط أنه كان على المسيحية وأنه كان ببلاده مسلمون ومسيحيون ، قبل أن يدفع جزيتهم دينارًا عن كل فرد كل سنة ، والتزم أن يحمل البقط القديم إلى سلطان مصر (٣) ، ومما يلفت النظر هنا أنه لأول مرة فى تاريخ النوبة يدفع سكانها الجزية ، ولأول مرة فى تاريخ النوبة أيضًا يعين المسلمون ملكًا على أهلها من قبل سلطان مصر ، فكأن بلاد النوبة قد صارت بذلك خاضعة لبلاد المسلمين رسميًا ، وهذا حدث ذو خطر فى تاريخ هذه البلاد لما ترتب عليه من صيرورة سكان هذه البلاد من أهل الذمة وفرض الجزية (٤) وعليهم ولم يكونوا قبل هذا التاريخ (٦٧٥هـ) كذلك ، وفى فرض الجزية عليهم مايدل على أنهم صاروا رعية لدولة الإسلام ، وأنهم صاروا متكافئين مع المسلمين فى تحمل التبعات والتمتع بالحقوق والمرافق العامة للدولة (٥) .

رجع الأميران الفارقانى والأفرم إلى القاهرة بعد أن خربا كنائس النوبة ، وأخذا ما فيها وبعد أن نصبا شكندة ملكا على البلاد ، وبعد أن عقدا العهد السابق ، ولكن شكندة (أو مشكند)

---

(١) هذه هى رواية المقريزى . أما ابن خلدون فيقول إن الذى قبض على داود هو ملك الأبواب .

(٢) راجع هذا العهد فى ملحق الوثائق .

(٣) ص ٣٦١ القسم الأول والثانى من السلوك للمقريزى فيها : «وأقيم مشكند فى المملكة وألبس التاج . . وعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو القتل فاختاروا الجزية ، وأن يقدم كل منهم دينارًا عينا فى كل سنة وعملت نسخة يمين بهذه الشروط» .

(٤) أصل مشروعية الجزية بقوله تعالى فى سورة التوبة الآية ٢٩ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وهى كما قال الماوردى فى (كتابه الأحكام السلطانية) مشتقة من الجزاء ، فيجب على ولى الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الإسلام ، ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين .

(٥) فى كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٠ أن وجوب الجزية على أهل الكتاب كوجوب الزكاة على المسلمين إذ ليس فى مواشى أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة سواء ملكها الرجال أو النساء .

قتل بعد ذلك ، وخلفه شخص يدعى بيرك . فلما سمع بذلك السلطان قلاوون أرسل حاكم أسوان إلى دنقلة ، حيث ولى مكان بيرك هذا ملكًا اسمه شمامون .

وقد حدث أن بعث قلاوون رسولا [١] له إلى ملك أدور (المنطقة الواقعة حول كبوشية) فأساء شمامون معاملته . فأرسل قلاوون سنة ٦٨٦هـ (١٢٨٨م) بالعساكر إلى النوبة تحت إمرة علم الدين سنجر الخياط وعز الدين الكورانى ، ومعهما عز الدين ايدمر السيفى نائب قوص ، فاستنفروا معهم من العربان أولاد بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف ، وأولاد شيبان ، وأولاد كنز الدولة ، وجماعة من المغرب وبنى هلال ، وساروا إلى دنقلة ، فلما وصل العساكر إلى أطراف بلاد النوبة من الشمال أخلى الملك شمامون البلاد ، وأرسل إلى نائبه ، بجزيرة ميكائيل (ساى) ـ واسمه جريس ـ يأمره بإخلاء البلاد التى تحت يده أمام الجيش الزاحف ، ففعل ، ووصل الجيشان إلى دنقلة ، ووقع القتال بين المسلمين وملك النوبة ، وهزم الأخير ، وفرو معه جريس ، فتابعه الجند إلى أن أسروا جريس .

ثم رتب الأمير عز الدين الكورانى على بلاد النوبة ، ملكًا هو ابن أخت لشمامون ، وجعل جريس نائبًا عن هذا الملك كما كان ، وترك معهما عسكرًا [٢] يقيم فى النوبة ، ورجع بغنائم كثيرة عند ذلك عاد شمامون فغزا النوبة ، ودخل دنقلة ، وحارب من بها وهزمهم . وفر الملك وجريس والعسكر إلى القاهرة مستصرخين . فغضب السلطان ، وأمر بتجهيز العسكر وغزو النوبة ، فسارت الجنود إلى الجنوب ، ولما وصلوا إلى أسوان مات ملك النوبة ودفن بها . وتقدم الجنود ومعهم جريس ، وداود الذى كان سجينًا بالقلعة ، وانضم إليهم أولاد كنز ، فلما وصلوا إلى دنقلة وجدوا شمامون قد هرب إلى جزيرة فى النيل ، فطاردوه حتى جهة الأبواب . ثم ملك المسلمون داود ، وجعلوا جريس نائبًا عنه وتركوا معهما طائفة من العسكر ، عليها الأمير بيبرس العزى ، وعادوا إلى القاهرة سنة ٦٨٩هـ (١٢٩١م) ، غير أن شمامون عاد إلى دنقلة بعد رجوع العسكر ، وقتل داود وجريس ، وبعث الأمير بيبرس العزى إلى السلطان ، وحمّله رغبته فى الصلح على أن يؤدى البقط المقرر ، وزيادة ، فأسعف بذلك واستقر فى ملكه [٣] .

---

(١) هذه أول مرة نسمع فيها بإرسال رسول إلى ملك من ملوك السودان جنوبى النوبة ، ويظهر أن دخول النوبة السفلى فى دار الإسلام سهل على مصر الاتصال بالبلاد الواقعة جنوبى هذه البلاد .

(٢) يمكن أن نشبه هذا العسكر بعسكر الحماية أو الاحتلال .

(٣) ص ٧٣٦ ـ ٧٥٣ الجزء الأول القسم الثانى من كتاب السلوك للمقريزى ، وكذلك أخبار النوبة وإسلامهم ص ٤٢٩ج٥ من تاريخ ابن خلدون .

ومن هذه الحروب الأخيرة نفهم أن ملوك النوبة قد انشقوا على أنفسهم ، وأنهم كانوا يستعينون بسلاطين مصر بعضهم ضد بعض ، وأن سلاطين مصر كان همهم إخضاع هذه البلاد واعترافها بالسيادة ، ودفع البقط أو الجزية . ومن السهل أن نفهم كيف أن البلاد قد صارت إلى حال من الانقسام كل جهة توالى ملكًا ، وقد أصبح سلطان المسلمين من القوة بحيث يتدخل فى تعيين ملك النوبة ، أو يرضى عن تعيينه (١) . كذلك نجد الجزء الشمالى من النوبة مما يلى أسوان قد صار أغلبه مسلمًا ، وخاضعًا لنفوذ أولاد كنز . هذا وقد ساعدت الغارات الحربية المتتابعة على بلاد النوبة كثيراً من جنود العرب على أن يختلطوا بالنوبيين ، بل وعلى استقرار بعضهم بالبلاد . وفى أواخر القرن الثالث عشر كان الإسلام قد تسرب (٢) إلى مدن النوبة السفلى ، وحتى قبل هذا التاريخ كان للزواج بين العرب والنوبيين أثر فى إسلام الأخيرين ، ومن ذلك الوقت صار سقوط مملكة النوبة المسيحية أمرًا مرهونًا بمضى الزمن(٣) .

وفى أواخر القرن الرابع عشر تولى أمر النوبة ملك اسمه كرنبس (٤) ، وذهب من بيت الملك النوبى إلى مصر رجل اسمه نشلى ، فأسلم وحسن إسلامه وأجرى عليه السلطان الناصر بن قلاوون رزقا ، وأقام عنده ، فلما كانت سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) وامتنع كرنبس عن دفع الجزية ، أرسل إليه السلطان بالعساكر ومعها (عبدالله) نشلى الذى هاجر إلى مصر ، وأسلم من قبل ، ورجعت العساكر إلى مصر ، واستقر عبدالله نشلى فى ملك النوبة على حاله من الإسلام ،

---

(١) من الغريب أننا لا نسمع عن اشتراك العرب المقيمين بمنطقة النوبة مع الجنود المسلمين ضد ملك النوبة المسيحى ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا منصرفين إلى معاشهم ورعى مواشيهم ، وأنهم كانوا يخشون إن هم انضموا إلى مصر أن يطبق عليهم نظام الخراج الذى هربوا منه .

(٢) يفهم من كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٩ أن الإسلام قد انتشر واستقر فى بعض جهات دنقلة ، وأن النصرانية مازالت قائمة ، فهو يقول عن صاحب دنقلة «إنه رعية من رعايا صاحب مصر وعليه جعل مقرر يقدمه كل سنة ويخطب ببلاده الخليفة العصر ، وصاحب مصر» . وفى ص ٣٠ ورسم المكاتبة إليه صارت هذه المكاتبة المجلس الجليل الكبير الغازى المجاهد المؤيد الأوحد العضد مجد الإسلام زين الأنام . . هذا إذا كان مسلمًا . وإن لم يكن مسلمًا فمكاتبته كمكاتبة صاحب سيس . ولا يعلم له السلطان بخط» . وقد ألف هذا الكتاب شهاب الدين العمرى حوالى سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م .

(٣) ص ٨ من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الأمريكية عدد أبريل سنة ١٩٣٥ .

ومما لاشك فيه أن ظهور الجنود المسلمين المصريين فى بلاد النوبة ساعد العرب المهاجرين إليها على تقوية نفوذهم وإعلاء كلمتهم ، وجعل السكان الأصليين ينظرون إليهم نظرة المسود للسيد .

(٤) يسميه ابن خلدون كرييس ص ٤٢٩ج٥ من تاريخه .

وكان أول ملك مسلم على هذه البلاد ، وبُنى فى عهد هذا الملك [١] مسجد بدنقلة سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) ، وأما كرنبس وأخوه إبراهيم فقد بعث بهما ملك الأبواب إلى السلطان .

ثم إن أهل النوبة اجتمعوا على قتل عبدالله نشلى ، فقتلوه بممالأة جماعة من أولاد كنز سنة ٧١٩هـ (١٣١٩م) وكان كرنبس قد أسلم . فبعث به السلطان إلى النوبة فملكها ، وأسلمت جميع رعيته ، وانقطعت الجزية بإسلامهم [٢] وهكذا سقطت مملكة النوبة المسيحية بسبب الخلافات الداخلية بين امراء النوبة وملوكها ، وأيضا بسبب الهجوم المتواصل عليها من جميع الجهات [٣] .

ولم يستقر الأمر فى يد كرنبس بل تنقل الملك بينه وبين أولاد كنز عدة مرات . غير أنالذى يهمنا ـ كما يقول مكميكل ـ هو أن مملكة النوبة المسيحية قد زالت من الوجود وأن ملوكها صاروا أشبه بالدمى فى يد القبائل العربية . ومن ذلك الوقت تدفقت موجات من العرب ـ ولاسيما عرب جهينة ـ إلى داخل السودان حتى بلاد الحبشة ودارفور [٤] . وإذا فقد صارت النوبة السفلى مسلمة لادفعة واحدة بحد السيف ، ولكن بالتدريج وبعد جهاد طويل من أمراء مصر وحكامها ، ودفاع طويل مستميت من ملوك دنقلة ظل حوالى سبعة قرون . ولكن أى نوع من الإسلام كان إسلام هؤلاء النوبيين؟

It seems from the Nisbas that until the latter part of the fourteenth century such Mohammadanism as existed among the people of Dongola was purely nomina-luatil, that is, the learned and pious Ghulamulla ibn Aid settled there and work of instruction in eaidest.[٥]

هذا ما كان من أمر النوبة السفلى ، أما النوبة العليا ، وما جاورها شرقًا من جانب البحر الأحمر ، فيظهر أن مؤرخى العرب لم يعرفوا كثيراً عن حالها فى ذلك الوقت ، وقد أشرنا فى

---

(١) ص ٨ من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بالقاهرة عدد أبريل سنة ١٩٣٠ .

(٢) ص ٤٢٩ج٥ من تاريخ ابن خلدون .

(٣) ص ١٠٦ ج١ من تاريخ أثيوبيا تأليف واليس بدج .

(٤) ص ١٨٧ ج١ من تاريخ العرب فى السودان .

(٥) ص ١٣ ، ١٤ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل . أما غلام الله ابن عايد الذى يشير إليه المؤلف فسيرد ذكره فيما بعد .

مناسبات مختلفة إلى اتصال بعض الجنود المصريين ـ أثناء غاراتهم على النوبة السفلى ـ بأطراف النوبة العليا وإلى أن بعض ولاة مصر أرسل رسلا إلى بعض الملوك فى النوبة العليا ، ولكن لم يُسجل شىء أكثر من هذا .

والغالب أن من أوائل العرب الذين هاجروا إلى النوبة العليا عبر البحر الأحمر جماعة من بنى أمية ـ كما يقول اليعقوبى ـ فمن هربوا من وجه العباسيين (١) وكانت هجرتهم أولا إلى الحبشة ولكنهم لم يستقروا بها فتوجهوا إلى السودان ، وأقاموا بجبال الفونج كما سنشرح ذلك الكلام عن تأسيس دولة الفونج .

«ومما لا شك فيه أن نواة قبيلة أولاد كاهل ـ بطن من قصى ـ جاءت إلى السودان عبر البحر الأحمر وأخذت تنتشر غربًا حتى وصلت سنار ولكننا لا نعلم بالضبط متى جاءت إلى هذه البلاد» (٢) .

ويذكر لنا ابن بطوطة (٧٠١ ـ ٧٧٨هـ) (١٣٠٢ ـ ١٣٧٧م) فى رحلاته أن أولاد كاهل كانوا يسكنون شرقى السودان بالقرب من البحر الأحمر ، وأنهم كانوا مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم ، وأن جزيرة سواكن كانت عند وصوله إليها فى يد شريف مكى ، صارت إليه من قبل البجاة فإنهم أخواله ، وكان عند هذا الشريف عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة (٣) . وقد كان الكواهلة و لايزالون عربًا رحالة ، يقتنون الإبل والبقر ، وقد اختلطوا ولاشك بالبجاة الأصليين ـ الكفار والمسيحيين ـ من الشرق والجنوب ، كما اختلطت بهم ربيعة من الشمال عند مناجم الزمرد ، وصار من اختلاط الكواهلة بالبجاة قبائل البشاريين والعبابدة ، بل وبنى عامر والأمرا (٤)

ويظهر أن السكان الأصليين قد أثروا فى العرب الطارئين عليهم حتى نسوا عربيتهم ، وتكلموا بلغة السكان الأصليين ، كما حدث مثل ذلك مع العرب الذين امتزجوا بالنوبيين .

---

(١) تاريخ اليعقوبى الجزء الثانى ص ١٣٨ .

(٢) صفحة ٣٨ من : Notes on the Trobes and Prominent Families in the Blue Nile Province

(٣) صفحة ١٨٣ ج ١ كذلك يروى لنا أن سكان النوبة مما زالوا على المسيحية ، ولو أن ملكهم قد صار مسلمًا (ص ١٨٣ ج١) الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢ بالمطبعة الأميرية .

(٤) ص ٣٨ من كتاب : Notes on the Trobes and Prominent Families in the Blue Nile Province.

هذا ، ولاشك أن قبائل أخرى هاجرت من جزيرة العرب إلى السودان عن طريق البحر الأحمر ، وإن لم نجد أى سجل تاريخى عنها . وقد زادت جموع العرب المهاجرة إلى النوبة العليا ، ولاسيما فى جهة النيل الأزرق ، كما زاد ثراؤهم حتى سمح لهم ببناء مسجد فى سوبه جنوبى الخرطوم [١] .

ولما أسلمت النوبة السفلى انفتح الطريق أمام العرب المهاجرين من الشمال فانسابوا فى النوبة العليا جنوبًا ، وإلى كردفان ودارفور غربًا . ويمكن القول بصفة عامة أن قبائل جهينة وفزارة رحلت فى هذين الاتجاهين منذ بدء القرن الرابع عشر الميلادى ، ومعهم أنعامهم وأمتعتهم ، مخلفين وراءهم أولاد كنز وبنى عكرمة ، وليس لدينا من كتب التاريخ العربية ما يشير إلى هجرة قبائل جهينة وفزارة هذه لكن مصادرنا عنها هى أوراق النسب التى لا تزال محفوظة عند السودانيين[٢] .

ولابد أن نتصور أن اختلاط العرب بالسكان الأصليين فى النوبة العليا قد أخذ قرونًا طويلة ، قبل أن يتم وينتج جنسًا جديدًا ، مزيجًا من العرب والسودان ، ولابد كذلك أن نتصور أن نظام الرق قد سمح باتخاذ السرارى ، والتناسل منهم ، فكثر بذلك النسل العربى الجديد . ومن المعروف أيضًا أن نظام وراثة الملك فى بلاد النوبة السفلى والعليا كان يقضى - كما يقول ابن خلدون - بأن يكون ابن الأخت أحق بوراثة الملك بعد خاله ، لأنه مما لاشك فيه أن الدم الملكى قد انتقل إليه عن طريق أخت الملك ، أما ابن الملك فقد يكون سفاحًا ، فلا يحمل الدم الملكى . وكان لهذا النظام أثره العظيم فى انتقال ملك النوبة إلى أبناء العرب الذين كانت أمهاتهم نوبية . وبذلك ورث هؤلاء الأبناء الملك عن أخوالهم وحلوا محلهم .

وهكذا نجد أن استقرار العرب فى بلاد النوبة قد استمر من غير معارضة أو مقاومة ، حتى إذا ما جاء القرن الخامس عشر وجد السكان الذين بين الشلالين ، أو قل إلى دنقلة ، قد صاروا مزيجًا من العرب والنوبيين شبيهًا فى صفاته الجسمية بالسكان الحاليين [٣] .

---

(١) ص ١١٠ من كتاب : The Preaching of Islam, by. T. Attold .

(٢) ص ١٨٧ ج ١ تاريخ العرب فى السودان لمكميكل . هذا ويشير ابن خلدون فى تاريخه إلى حال النوبة السفلى فى أواخر القرن الثامن الهجرى (أى أواخر الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الميلادى) بقوله : ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلاد النوبة ، واستوطنوها وملئوها عبثًا وفسادًا . وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا . ثم صاروا إلى مصانعتهم بالصهر ، فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم من تمليك الأخت وابن الأخت ، فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم . وليس فى طريقة استيلائهم شىء من السياسة الملوكية ، للآفة التى تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعًا لهذا العهد .

(٣) ص ١٨٨ ج ١ تاريخ العرب فى السودان لمكميكل .

وهكذا استمر التزاوج بين العرب والنوبيين ، أثناء القرن الرابع عشر والخامس عشر . وبينما كانت بعض المنازعات الداخلية تقوم بين العرب المقيمين فى النوبة السفلى ، طمعًا فى الاستئثار بالملك ، كان تحالف يعقد بين الفونج وعرب القواسمة فى النوبة العليا ، وأخيرًا تم هذا التحالف بين عمارة دونقس كبير الفونج وعبدالله جماع شيخ القواسمة ، وحاربوا ملوك النوبة العليا المسمين بالعنج سنة ٩١٠هـ ، وقتلوهم شر قتلة ، وخربوا كنائسهم ، ومدوا سلطانهم إلى النوبة السفلى مما سنشير إليه فى الفصل التالى .

وكان لتغلب العرب على المسيحيين فى السودان أن انقطعت الصلة بين كنيسة الإسكندرية والكنائس النوبية ، فلم يعد بطريق الإسكندرية يرسل أساقفته إلى النوبة أو [١] يرسمهم . وبذلك خيم الجهل على رجال الكنيسة النوبية .

ويقول واليس[٢] بدج : ومنذ البطريق سيرسل Cyril سنة ١٢٣٥م تركت الكنيسة النوبية وشأنها . وكنتيجة لهذا حصل خلاف بين رجال الكنيسة ورجال الحكومة واستغل المسلمون هذا الخلاف .

وكان لاضطهاد الأقباط فى مصر شبيه فى النوبة ، فقد اضطهد المسيحيون وتركوا دينهم وتزوجوا من المسلمات ، ومنهم من قتل ، وحرقت كنائس ، وبنيت مكانها مساجد ، أو حولت الكنائس إلى مساجد . ولم يحل القرن الخامس عشر حتى كانت الكنيسة المسيحية فى النوبة السفلى قد قضى عليها .

ومنذ سنة ١٣٣٠ انقطع ارسال مطران الكنيسة النوبية ، ولكن ظل فيها بعض الاجتماعات الكنسية حتى القرن الخامس عشر . بل لدينا من الأدلة ما يثبت قيام الكنائس فى النوبة العليا فى القرن السادس عشر[٣] فقد وصف لنا الفارز ـ وهو قسيس برتغالى ساح فى الحبشة من ١٥٢٠ إلى ١٥٢٧ ـ حال أهل النوبة المسيحيين فى مرحلة انتقالهم إلى الإسلام بقوله : إنهم لم يكونوا مسيحيين ولايهودا ولا مسلمين ، وإنما صاروا إلى حالة من الإهمال فى الدين فلا عقيدة

---

(١) أنظر ص ٣٨٣ ج ٢ من كتاب مفضل بن أبى الفضائل نشره E. Blochet .

(٢) ص ١١٨ ج ١ من تاريخ أثيوبيا .

(٣) ص ١٤ من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عدد شهر أبريل سنة ١٩٣٠ .

ولا قانون ، ولكنهم مع ذلك عاشوا طامعين فى أن يصيروا مسيحيين . وقد وصلوا إلى مرحلة من الانحطاط الدينى التى لاشبيه لها بسبب جهل قسسهم ، والآن لامطران ولاقسيس عندهم . وكما يقولون أرسلوا إلى ملك الحبشة يرجونه أن يرسل إليهم من يرشدهم فى الدين فرفض أن يجيبهم إلى رغبتهم من غير مشورة بطريق الإسكندرية . ولما كان غير ممكن الحصول على إجازة هذا البطريق فإن رسل النوبة رجعت [1] بخفى حنين .

والواقع أن المسيحية تخلفت فى النوبة العليا عنها فى النوبة السفلى ، وظلت حتى القرن السادس عشر الميلادى . وطبيعى أن تبقى بعض الكنائس والأديرة قائمة وإن كانت خالية من المصلين والمتعبدين ، لهجرها وعدم إقامة الصلوات بها ، فى عهد كان المسيحيون فيه مضطهدين ومجبرين على اعتناق الإسلام أو الحرب .

ويقول الفارز أيضًا نقلا عن مسيحى ذهب إلى النوبة العليا فى ذلك الوقت : إنه كان بها ١٥٠ كنيسة لاتزال على جدرانها صورة المسيح مصلوبًا [2] وصورة العذراء .

والحقيقة أن هذه الكنائس ظلت قائمة حتى بعد انتشار الإسلام فى البلاد نهائيًا وزوال المسيحية ، رآها بركهارت[3] فى رحلته ، كما رآها كايو[4] فى أوائل القرن الماضى . وهى لاتزال حتى اليوم يكشف عنها المنقبون . أما دارفور فلم تدخلها المسيحية ، وظلت على الوثنية حتى دخلها الإسلام مع العرب من الغرب ، كما سنذكر ذلك .

وبعد فها هو ذا الإسلام قد ظهر فى هذا القطر من إفريقيا بعد صراع طويل بينه وبين المسيحية . فلما اعتنق القوم الدين الجديد شعروا بالحاجة إلى من يفقههم فيه ، ويرشدهم إلى أحكامه وتعاليمه ، فكان شعورهم هذا بدء عهد جديد فى تاريخ الثقافة الإسلامية بالسودان . نعم ظلوا فى غسق الجهالة مدة طويلة ، ولكنهم كانوا مع هذا أشد تمسكًا بدينهم ، وأحرص على معرفة أحكامه ، وهذا ما سنعرض له فى الأبواب القادمة .

■ ■ ■

(١) ص ١١٢ The Preacking نقلا عن كتاب الفارز المسمى Viaggio nella Ethiopia al prete Ianna fatto .

(٢) ص ١١٢ من الكتاب السابق .

(٣) ١٣٣ من رحلات بركهارت ، وكذلك ص ٣٦ ، ٨٧ ومابعدها ، وانظر أيضا نعوم شقير ص ١٠٧ ج٢ .

(٤) ص ٢٨٧ ج ٢ من كتاب : Voyage A Meroe, Par Frédéric Cailliaud .

الـدول
السودانية الإسلامية

استطاع الفونج[1] تحت إمرة عمارة دونقس وبمعاونة عرب القواسمة[2] تحت إمرة عبدالله جماع أن يسقطوا مملكة علوة (النوبة العليا) ، وأن يخربوا عاصمتها سوبة وأن يؤسسوا سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م) دولة إسلامية تسمى مملكة الفونج .

وكان العرب قد أسسوا حوالى سنة ١٤٧٤م ـ أى فى أثناء قيام دولة النوبة العليا ـ مدينة أربجى على الشاطئ الغربى للنيل الأزرق ، وجعلوها مستقرًا ومركزًا للتجارة ولاسيما تجارة الرقيق . وكانوا قد اختلطوا من قبل بطريق المصاهرة بالسكان الأصليين[3] ونتج عن هذا

---

(١) اختلف المؤرخون فى أصل الفونج ؛ فقد قيل لبروس الرحالة الإنجليزى فى القرن الثامن عشر إن أصلهم من الشلوك . وهناك رأى بأنهم جاءوا من الغرب ، ورأى ثالث بأنهم من نسل بنى أمية الذين هربوا إلى الحبشة ، ولم يستطيعوا الاستقرار هناك فتجمعوا وهاجروا إلى السودان حيث تمكنوا من تأسيس مملكة تحت اسم الفونج (انظر J.R.A.S Oct. 1937) ، والرأى الحديث الذى حققه الشاطر بوصيلى أفندى الموظف بمصلحة سكة حديد الحكومة السودانية ، وأعلنه فى محاضرته بدار الثقافة بالخرطوم بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٩٤٥ ، وهو الذى أميل إليه وأرجحه ، هو أن الفونج من أصل عربى ، قد يكون من البطون التى عبرت البحر الأحمر إلى الشاطئ الغربى ، أو من فلول الأمويين الذين شردوا عقب سقوط دولتهم ، وأنهم كونوا لهم دويلة عربية فى الجهة الواقعة شمال بحيرة تانا . وكان لهم النفوذ التجارى على البلاد المجاورة وفى داخل بلاد الحبشة وسواكن والتاكة . وكان لهذا النفوذ التجارى أثره فى سهولة انتقال السلطان (عميرة) سلطان هذه الدويلة إلى جهة سنار ، عندما قامت الحروب الداخلية فى الحبشة بين المسلمين والمسيحيين . وقد زاد داود روبينى الرحالة اليهودى السلطان عميرة فى عاصمة مملكة شمال بحيرة تانا ، ويظهر أن السلطان استقل عن الحبشة قبل تلك الزيارة بسنوات . ثم كان من ازدياد نفوذ العرب فى منطقة النيل الأزرق وضعف ملوك النوبة العليا ما جعل عمارة هذا ينتقل إلى النيل الأزرق ويشترك مع عرب القواسمة فى إسقاط مملكة علوة (راجع المحاضرة المشار إليها بعنوان الدويلات الإسلامية فى سودان وادى النيل) ، كذلك راجع الوقائع المصرية نمرة ١٤٦٣ بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢ .

(٢) القواسمة بدنة من رفاعة وهى بطن من جهينة .

(٣) يقول مكميكل ص ٤٩ ج ١ من تاريخ العرب فى السودان «لقد كان هناك على الأقل أربعة أجناس متميزة فى الوقت الذى سبق الفتح العربى مباشرة ، ففى الشمال الشرقى البجاة ، والشمال الغربى النوبيون وفى الجنوب الشرقى الحبش ، وفى الجنوب على جانبى النيل الأبيض ونهر السوباط أقوام يشبهون القبائل التى نسميها الآن بالشلوك» .

الاختلاط جيل جديد من العنصريين ، ومما لاشك فيه استطاع العرب أن يكتسبوا لأبنائهم ، أبناء هذا الجيل الجديد ، نفوذًا وسلطانًا على السكان الأصليين بسبب النظام المعروف ، نظام وراثة الابن لخاله ، ولكن لم يسجل لنا التاريخ أى اصطدام أو حرب بين العرب والسكان الأصليين فى النوبة العليا قبل الحرب التى شنها عمارة دونقس وحلفاؤه من عرب القواسمة ، على ملوك سوبة [١] .

ولما انتصر الفونج والعرب على العنج [٢] ، وأزالوا ملكهم ، وخربوا كنائسهم ، اتخذ الفونج مدينة سنار عاصمة ملكهم . ومؤرخو العرب من أهل السودان يزعمون أن هذه المدينة [٣] أسست لأول مرة على يد عمارة دونقس ، لكن الاسم يدل على أنها قديمة لأنه فى اللغة النوبية يعنى «جزيرة الأخت» Essi= أخت Arti = جزيرة . والنون علامة الإضافة والملكية [٤] .

ولما تم النصر لعمارة وعبدالله جماع على النوبة العليا اتفق رأيهما على أن يكون عمارة هو الملك فى مكان ملك سوبة ، وأن يكون الكبير والمقدم ومقره سنار ، ويكون عبدالله الشخص الذى يليه فى المكانة . ويلقب «بالشيخ» ويكون مقره فى مدينة قرى .

هذا ، وقد امتدت مملكة سنار هذه شمالا إلى الشلال الثالث . أى أنها ضمت إليها جزءاً كبيراً من النوبة السفلى ، وأزالت أهمية دنقلة . وكانت تحدها جنوبًا جبال فازوغلى ، وشرقًا البحر الأحمر سواكن ، وغربًا النيل الأبيض ، وكانت مدينة أريجى فاصلة بين منطقة نفوذ ملك سنار ، ومنطقة نفوذ مشيخة قرى ، وإن كانت مشيخة قرى خاضعة لملك سنار . أما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الأول فكانت فى يد [٥] الكشاف الأتراك .

---

(١) ص ٥ من «مذكرات عن القبائل والأسرات المشهورة فى النيل الأزرق» أشرنا إليها من قبل .

(٢) كان لفظ العنج يطلق على سكان مملكة علوة القدماء (قبل الفتح العربى) وسكان جزيرة مروة ، وسكان الجبال الواقعة فى شمال كردفان . وهذا اللفظ يستعمل أيضا فى أوراق النسب السودانية مرادفًا للفظ النوبة ، ويظهر إذن أن العنج كانوا من النوبة واستقلوا عن أصلهم الأول (ص ٤٠ - ٥١ ج ١ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل) .

(٣) انظر طبقات ود ضيف الله وكذلك تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (مخطوط) .

(٤) راجع The Nubian لمؤلفه L.L. Griffith .

(٥) ص ٧٣ ج٢ من تاريخ سودان لنعوم شقير . وقد كان أمراء بنى كنز أصحاب السلطان على الجزء الشمالى ، من النوبة السفلى ، فامتد سلطان الفونج إلى الشلال الثالث ، فلما جاء الأتراك العثمانيون إلى مصر ومدوا سلطانهم إلى الشلال الثالث أصبح هذا الشلال حدًا بين مملكة سنار ومصر ، وعين الأتراك مكان الأمراء الكنوز كشافًا .

وكانت مملكة سنار جميعها مقسمة إلى عدة دويلات صغيرة ، أو إقطاعات لكل دويلة رئيس يسمى «الملك» أو الشيخ أحيانًا . وترك نظام الحكم الداخلى فى كل دويلة أو مشيخة لرؤسائها . وعليها أن تدفع جزية سنوية للحكومة المركزية بسنار ، وكان لكل شيخ إدارة محلية تتكون من الملك أو الشيخ يساعده جند من الرقيق وكاتب وإمام وأمين بيت المال(١) .

وكونت هذه الدويلات نوعًا من الاتحاد الإقطاعى ؛ فقد كان كل شيخ أومك يدفع الجزية لملك سنار ، كما ذكرنا ، إلا أن له نوعًا من الاستقلال .

وكان عمارة و عبدالله كالأخوين إلا أن مرتبة عمارة أعلى من مرتبة عبدالله ، وإذا كانا حاضرين معا فى مكان قدم عمارة ، وإذا غاب عمارة يقدم عبدالله على الجميع ويعامل بما يعامل به عمارة . ولم تزل تلك العادة جارية بين ذراريهما إلى انقضاء المملكة (٢) .

وفى أيام عمارة دونقس قدمت جيوش السلطان سليم إلى سواكن (٣) ومصوع فامتلكتهما وأرادت الزحف على سنار . فأرسل عمارة إلى السلطان سليم يذكر له أن أهل بلاده عرب مسلمون فلا داعى لحربهم وامتلاكهم . فإن كان غزوهم لغرض مادى فأكثرهم عرب بادية هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ، ولا شىء عندهم . فاقتنع السلطان وأقلع عن غزو سنار(٤) .

وقد استمر الفونج والعرب يحكمون إلى أن قام الشيخ عجيب الكفوته ، شيخ قرى سنة ١٦١٠ ، وثار على ملك سنار ـ عدلان بن أبه ـ وحاربه . فهزم الشيخ عجيب وقتل . وبالرغم من هذا صفح الملك عن أولاد عجيب ، وولى العجيل من أسرة العبدلاب على مشيخة قرى .

وكان حكم الملك بادى الثانى (أبودقن) من أسعد ماشاهدته مملكة الفونج ؛ فقد كان عامرًا بالإصلاحات والتعمير الدينى والصوفى . وفى حكم الملك بادى الرابع (أبو شلوخ) سنة ١٧٢٤

---

(١) محاضرة الدويلات الإسلامية فى سودان وادى النيل للشاطر بوصيلى .

(٢) ص ١١ ـ ١٢ من تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (مخطوط) .

(٣) أصل هذه الكلمة شواخن . وهى تتكون من شواء خن . أما شوا فهو اسم لمقاطعة فى الحبشة ، وأما خن فكلمة فرعونية معناها مخزن . ولما كان سكان تلك المنطقة ينطقون الخاء كافا صارت الكلمة شواكن . ثم حرّفت إلى سواكن ، أى مخزن أو مرفأ شوا .

(٤) ص ٧٣ ج ٢ من تاريخ السودان لنعوم شقير .

ـ سنة ١٧٦٢ وقعت حرب مع الحبشة انتصر فيها الفونج سنة ١٧٤٤ ، تحت إمرة الأمين ودمسمار . ود عجيب ، شيخ مشيخة قرى . وكان أمير الفرسان هو الشيخ محمد أبو اللكليلك كبير الهمج(١) وقد غنم الفونج من الأحباش غنائم كثيرة ، ونالت سنار بهذا النصر شهرة واسعة بلغت مصر والشام والحجاز وتونس والهند والقسطنطينية (٢) .

وطمع الملك بادى الرابع أيضًا فى نشر سلطانه غربًا ، فأرسل جيوشه لفتح كردفان . وكان يملكها أمراء المسبعات أقرباء سلاطين دارفور . فانتصرت جيوش سنار تحت إمرة محمد أبواللكليلك (٣) سنة ١٧٤٧م .

وقد ثار الشيخ محمد هذا على الملك بادى لسوء تصرفه ، وعزله وولى مكانه ابنه ناصر . وكان الملك بادى هذا آخر من تمتع بعز الملك من ملوك الفونج ؛ فإنهم صاروا يتولونه اسميًا ، لا حقيقة ، والسلطة الفعلية فى يد وزراء الهمج .

The authority of the Fung weakened under the stress of pressure from Abyssinna on the ond hand and internal dissentions and Atab revolts on the other The Kings finally became no more than puppets dangled by their Hamag vizirrs, and all the country east of the White Nile ans northward to the Iimits of Egypt relapsed into anarchy.(٤)

وحدث سنة ١٧٨٥ أن قام الملك عدلان ملك سنار ، وأخذ يفتك بالهمج جزاء لهم على استبدادهم ، ودارت بينه وبينهم حروب كانت سجالا إلى سنة ١٧٨٩ ، حين زحف الشيخ ناصر شيخ الهمج على سنار ، وهزم عساكر الملك عدلان ، ومات الملك قهرًا وغما . ومن ذلك الوقت انكسرت شوكة الفونج ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة (٥) .

---

(١) الهمج قوم خلاسيون من النوبة والعرب ، وكان منهم وزراء ملوك سنار . وكان محمد أبو اللكليلك هذا أول من تولى الوزارة منهم . وقد صار ملوك سنار منذ عهده آلات فى يد وزراء الهمج الذين جعلوا عبود والمناقل مقرًا لهم (ص ٦ من مذكرات عن القبائل والأسرات الشهيرة فى النيل الأزرق) .
(٢) ص ٢٨ ، ٢٩ من تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (مخطوط) .
(٣) ص ٢٩ من تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (مخطوط) .
(٤) ص ٣٢ ، ٣٣ السودان الإنجليزى المصرى لمؤلفه مكميكل .
(٥) من مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه .

وما زال شيوخ الدويلات فى خلاف وحروب فيما بينهم أحيانًا ، وضد ملك سنار أحيانًا أخرى ، حتى وصل جيش محمد على باشا تحت إمرة ابنه اسماعيل فوجد الفرصة سانحة للتغلب على الجميع . وقد تم له ذلك ، كما سنبينه فى المجلد الثانى من هذه الرسالة .

هذا ما كان من أمر سلطنة الفونج ، أما دارفور فإن الروايات التاريخية المختلفة تتفق على أن جبل مرة كان المهد لقبيلة الفور . وكان لهذه القبيلة الإفريقية بطون مختلفة تسكن حول الجبل . وكان أفراد هذه البطون فى حال من الهمجية يعيشون عيشة فطرية بدائية لا حضارة فيها ولا نظام .

وقد ذكرنا أن بعض قبائل العرب كانوا قد تسربوا إلى دارفور من الشمال ، ومن جهة النوبة . كذلك حدث فى القرن الرابع عشر الميلادى والخامس عشر - وفى الغالب قبل هذين التاريخين - أن هاجرت جماعات نوبية من وادى النيل واستقرت فى الجزء الشمالى منا نسميه الآن مديرية دارفور وشرق جبل مرة (١) .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى وفد على دارفور عرب من جهة تونس يقال إنهم من بنى هلال ، وكانوا تحت رياسة أحمد المعقور . واختلطوا بالسكان الأصليين . وكانت العادة عند الفور - كما كانت عند غيرهم من سكان السودان الآخرين - أن يرث ابن الأخت خاله المتوفى ، أو ابن البنت جده (٢) .

والرواية متواترة على أن أحمد المعقور تزوج بنت ملك الفور ، وأنه كان من نسل أحمد هذا السلطان سليمان صولون (٣) ، وصولون بلغة الفوراويين معناها العربى (٤) وكان لسليمان الفضل فى لم شعث السكان ، وتكوين وحدة سياسية قوية منهم . وفى أثناء حكمه (١٥٩٦ - ١٦٣١) انتشر الإسلام بين السكان وظهرت تعاليمه (٥) ، ويعتبر سليمان هذا مؤسس الأسرة السلطانية فى دار فور . وقد حكم هو وابنه السلطان موسى من تُره فى جبل مرة .

---

(١) ص ٣١ ، ٣٢ السودان الإنجليزى المصرى لمؤلفه مكميكل .

(٢) ص ٣٢٢ الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد (الأصل الإنجليزى) .

(٣) ص ٩٢ ج ١ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل . وهو يقول فى هامشها إن الأخبار التفصيلية عن أصل سليمان سولون وجدوده غامضة ومختلفة الرواية . وكل ما سمعته عنه أنه عربى الأصل ومن قبيلة بنى هلال ، وأن جده من هذه القبيلة تزوج من إحدى أميرات الفور .

(٤) ص ١١٣ ج ٢ من السودان المصرى لواليس بدج .

(٥) ص ٣٢٢ الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد .

وحوالى نهاية القرن السابع عشر وصل الفوراويون إلى حال من القوة تمكنهم من أن يغادروا الجبال . وكان المسبعات وهم فرع من الكنجارة - أحد بطون الفور - قد اتخذوا سبيلهم من قبل إلى كردفان واستقروا هناك . أما بقية الفور فقد جعلوا عاصمة بلادهم بالقرب من طينة ، فى الوادى الخصيب الواقع شرقى سلسلة [(١)] جبال تره .

وكانت رحلة المسبعات إلى كردفان فى عهد سليمان سولون . وكانت رحلتهم تحت رياسة شيخهم «تنسم» الذى حرف بعد ذلك فصار «تمساح» وإنما سموا بالسبعات لأنهم اتجهوا نحو الشرق أو نحو مظهر الصبح . فأطلق عليهم لقب «المصبحات» وفى لغة الفوراويين تنطق الصاد سينا ، وتسقط الحاء لعدم القدرة على نطقها ، فصارت الكلمة بذلك المسبأت أو المسبعات [(٢)] .

وفى عهد السلطان تيراب أغار السلطان هاشم سلطان كردفان على حدود دارفور ، فخرج إليه تيراب ليؤدبه . فلما سمع هاشم بقدوم تيراب فى جيش كبير ، لا قبل له بمقاومته فر هاربًا إلى ملك سنار ، فسار تيراب فى أثره حتى وصل قرب أم درمان ، وهناك قابله جيش العبد لاب من قبل ملك سنار . فاقتتل الجيشان وانتصر تيراب ، واستولى على نحاس العبد لاب [(٣)] .

وكان كرسى سلطنة الفور إلى ذلك العهد فى جبل مرة - قرب طينة - فنقله السلطان تيراب إلى شوبة قرب كَيكبية ، وتم ذلك قبل خروجه لحرب المسبعات .

وفى عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد (١٧٨٥ - ١٧٩٩) انتقلت عاصمة السلطنة إلى الفاشر ، على خور تندلتى مسافة ٣٥ ميلا شرقى جبل مرة [(٤)] وقد نال عبدالرحمن الرشيد شهرة لم ينلها غيره من سلاطين الفور الذين تقدموه ، وكانت له علاقة بمصر . وفى أيامه انتشر العلم فى دارفور ، واتسع نطاق التجارة ، وقويت شوكة الديانة الإسلامية ؛ لأنه كان عالمًا ورعًا . وفى سنة ١٧٩٣ زار السائح الإنجليزى براون بلاد دارفور عن طريق الأربعين .

---

(١) ص ٩٣ ج ١ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل .

(٢) هذه رواية مكميكل فى ص ٩٣ ج ١ من تاريخ العرب فى السودان . وهناك رواية أخرى خلاصتها أن المسبعات ينسبون إلى مسبع وهو أخ السلطان سليام سولون سلطان دارفور الأول من المسلمين وأنه تولى كردفان فصارت لأولاده بعده .

(٣) ص ١٢٠ ج ٢ من تاريخ السودان لنعوم شقير ، وأصل النحاس وعاء كبير كالقدر أو الجفنة يشد عليه حزام ، ويستعمل كالطبل فى الحروب والمناسبات الرسمية .

(٤) انظر ص ١٠٧ من رحلة التونسى (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) .

ويظهر أن المماليك ضيقوا على القوافل التى كانت تأتى من دارفور ، وعطلوا التجارة بينها وبين مصر ، فلما دخل بونابرت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، ونكل بالمماليك كتب إليه السلطان عبدالرحمن يهنئه بفوزه عليهم . وقد رد عليه بونابرت بجواب رقيق ظريف [1] .

ولما فتح المصريون السودان ١٢٦٣هـ (سنة ١٨٢١م) ، كان يحكم دارفور السلطان محمد فضل (١٨٠٦ ـ ١٨٣٩) ، وكان فى كردفان مقدوم (حاكم) من قبله يسمى مسلم ، وقد تغلب الدفتردار على مسلم هذا وقتله . واستولى على كردفان . أما دارفور فقد ظلت غير تابعة لمصر إلى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) حين قتل سلطانها إبراهيم (١٨٧٤) وضمت البلاد إلى السودان المصرى ، كما سنشرح ذلك فى المجلد الثانى من هذا الكتاب .

أما كردفان فلم يكن لها شأن تاريخى يذكر ؛ لأنها كانت واقعة بين دارفور وسنار وكانت أشبه بما يسمى (Buffer state) منها بولاية قوية ذات سيادة . وكانت تخضع أحيانًا لسلطان دارفور وأحيانًا لملك سنار .

■ ■ ■

(١) ص ١٢٢ ج ٢ من تاريخ السودان لنعوم شقير .

الأحوال الثقافية للبلاد الإسلامية حتى ظهور السودان

أطنبنا في عرض هذه الأحوال لأنها تعطينا فكرة عن تطور الثقافة الإسلامية حتى ظهور السودان، إذ إنه تأثر بنوع الثقافة في عهده.

لكى يتضح للقارئ نوع الثقافة التى أثرت فى ثقافة السودان عند ظهوره ، والظروف التى خضعت لها البلاد الإسلامية عندما اتصل بها السودان ، ومقدار مساهمة السودان فى الثقافة الإسلامية ، إن كان قد ساهم بشىء والسبب فى ذلك ، يجدر بنا أن ندرس الأحوال الثقافية التى مرت بالبلاد الإسلامية حتى ظهور السودان ، وفى أول القرن العاشر الهجرى .

لم يمض قرن على فتوح العرب ، وبسط سلطانهم على آسيا وإفريقيا الشمالية وإسبانيا ، حتى تبدل النظام الاجتماعى فى البلاد المفتوحة ، وحل موضعه نظام جديد فى الدين والإدارة والعادات والأخلاق . وإن توحيد تلك البلاد من بحر الظلمات إلى المحيط الهندى ، وإخضاعها لسلطان دينى واحد ، ونظام شامل ، وسيادة لغة واحدة ، وإقبال المسلمين على أداء فريضة الحج ، والارتحال من قطر إلى قطر لطلب العلم والتجارة ، كل ذلك سهل التعارف بين سكان هذه البلاد ، وجعل كل مسافر منهم يحمل إلى بلاده ما استحسنه فى البلاد الأخرى التى زارها .

وانتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق الأموية ، ثم إلى بغداد فى عهد العباسيين . وبالرغم من انهماك الأمويين فى الشئون الحزبية والإدارية والحربية كان للتعليم نصيب عندهم فى المسجد والكتاب والمنزل (١) .

وفى العصر العباسى امتزجت عدة ثقافات بعضها ببعض كالفارسية والإغريقية والسريانية والعربية والإسلامية ، وظهرت كلها منصهرة فى صورة جديدة من التأليف والتدوين كما كثرت

---

(١) ففى الكامل للمبرد أن الحجاج كان معلم مدرسة بالطائف . وفى الأغانى أن الكميت الشاعر المشهور كان معلم مدرسة بمسجد الكوفة . وفى البيان والتبيين أن الوليد بن عبدالملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية عنده فقال : ويلك ماهذه الجارية؟ فقال : أعلمها القرآن .

الترجمة من اللغات الأجنبية ، وانتشرت[1] المكاتب والمساجد للعبادة والتدريس ، ودور الكتب والكليات وكثرت مجالس العلم والأدب للمحاضرة والبحث والمناظرة ، وازدهرت العلوم النقلية والعقلية فى عواصم البلاد الإسلامية .

وكان لاستقلال بعض الأمراء عن الخلافة العباسية ، ما دعاهم إلى المنافسة فى الحضارة والعمران وتشجيع العلوم والفنون ، فبنو الأغلب[2] فى إفريقية ، وبنو طولون بمصر (٨٦٨ - ٩٠٥م) والفاطميون كذلك (٩٦٨ - ١١٧١م) وبنو سامان فى بخارى[3] ، وبنو بويه[4] فى شيراز ، وبنو سبكتكين فى غزنة (٩٧٦ - ١١٨٢م) . كل هؤلاء نسجوا على موال بنى العباس فى بغداد ، وصارت كل عاصمة من هذه العواصم بنظمها وعلمها مثل دار السلام مصغرة[5] .

واستمرت الحال على ذلك فى الدولة البويهية ، والسامانية ، والغزنوية حتى جاءت الدولة السلجوقية (١٠٣٧ - ١٢٩٦م) فكان لها أيضًا - على عصبيتها - مساعدة للعلم بإنشاء المدارس الخاصة للتدريس ، وتوظيف الوظائف ، والجرايات للعلماء والطلاب ، وتخصيص كل عالم بعمله ومرتبه ، وكان التدريس قبل فى المساجد على غير نظام محدود ، أو جراية دائمة وحاكى السلجوقيين فى ذلك الممالك المجاورة ، وقد أسس نظام الملك مدرسته النظامية فى بغداد ، وافتتحت للتدريس سنة ٤٥٩ هجرية .

ثم كان له ولغيره مدارس أخرى على هذا النمط بالرى ونيسابور وهراء وبخارى . وكان غالبًا بجوارهذه المدارس أربطة للصوفية والسابلة ، وكتاتيب لصغار المتعلمين ، ودور كتب عظيمة لمراجعة العلماء والطلاب ، غير خزائن كتب الملوك والوزراء التى كانت تحتوى مئات الألوف من المجلدات[6] .

---

(١) ص ٤٩ ج ٢ من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) من سنة ٨٠٠ م إلى سنة ٩٠٩م .

(٣) كانوا ولاة من العجم من قبل العباسيين على ما وراء النهر . فلما ضعفت الخلافة العباسية استقلوا وظلوا ولاة من سنة ٨٠٤ - ٩٩٩م .

(٤) بنو بويه من الديلم قاموا بدولة ملكت العراقين وفارس والأهواز على يد عماد الدولة بن بويه سنة ٣٢٢هـ ، وهو الذى استولى على بغداد سنة ٣٣٤هـ . وفى عهده اتسع سلطانه ، وخطب له على المنابر فى بغداد ، وظل الملك فى بنيه حتى سنة ٤٤٧ حين نزعه منهم طغول السلجوقى .

(٥) ص ١٩٨ ج١ الإسلام والحضارة العربية .

(٦) ص ١٠٧ من الآداب العربية فى العصر العباسى لأحمد السكندرى (ضبعة مدرسية) .

وكان بمصر فى القرن الخامس الهجرى أربعة معاهد للدراسات الإسلامية : هى الأزهر ودار الحكمة [٦] وجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون ، وكانت دولة التفكير والأدب فى بغداد قد أخذت فى الضعف والاضمحلال ، وأخذت مصر تتأهب بدورها لرعاية التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب . ولكن كان عليها أن تقطع عصراً آخر قبل أن تصل إلى تحقيق هذه الأمنية ، ذلك لأن الأزهر لم يكن قد تبوأ بعد مركز الزعامة العلمية التى جعلته فيما بعد كعبة العلماء والطلاب فى جميع [١] الأقطار الإسلامية .

وفى القرن السادس الهجرى خلف الأيوبيون الفاطميين فى مصر والشام ، وقضوا على المذهب الشيعى فى ملكهم ، وأحيوا مذهب أهل السنة ، وقربوا إليهم العلماء والأدباء . نعم منعوا صلاة الجمعة من الأزهر وعطلوا الدراسة فيه نحو مائة سنة [٢] ، ولكنهم أسسوا كثيراً من المدارس . وكانت بلاد الشام أكثر تقدماً فى الناحية الثقافية والعلمية من مصر ، والفضل فى تلك يرجع إلى ابن زنكى[٣] ٥٤٩ - ٥٦٩ هجرية (١١٧٤ - ١١٩٣م) الذى أسس كثيراً من المدارس فى دمشق حلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها . وقد احتذى صلاح الدين حذوه ، فأسس المدارس أيضاً ، لا فى مصر فقط ، بل فى الشام ومكة [٤] أيضاً .

وقد وصف لنا ابن جبير فى رحلاته التى زار فيها مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية ، حال التعليم . ويذكر لنا فى وصف الإسكندرية أنه «من مناقب هذا البلد ومفاخرة العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه ، المدراس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد . يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراء يقوّم به جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك . ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض ، ووكل بهم أطباء

---

(٦) يقصد بدار الحكمة دار العلم وكان يسميها بعضهم دار الحكمة . وقد بنيت فى الخرنفش بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ ، واستمرت عامرة إلى نهاية الدولة الفاطمية (الخطط للمقريزى) .

(١) ص ٥٦ من تاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبدالله عنان .

(٢) عادت إليه سنة ٦٦٥هـ فى أيام السلطان بيبرس .

(٣) عماد الدين زنكى زعيم كبير من أمراء السلاجقة ظهر سنة ١١٦٧م . وعمل على توحيد قوى المسلمين . وقد عين فى تلك السنة أتابك على الموصل والعراق . ثم مالبث أن ضم إليه بلاد الشام .

(٤) ص ٥٨ من L'Enseignement Islsmique en Egypt, par Ibrahiur Sa;ama .

يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم[1] وما أشبه حياة الطلبة فى ذلك العهد بحياة طلبة الأقسام الداخلية فى مدارسنا الآن حيث الإيواء والإطعام والخدمة والعلاج الصحى ، بالرغم من مضى أكثر من سبعة قرون على رحلاته .

ثم هو يتحدث عن القاهرة ويصف ما بها من الأضرحة المباركة ، والمساجد الشهيرة ، وكيف أنها مأوى يأوى إليه الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، ولكل واحد فيها إجراء متصل ، ويشير إلى أن السلطان صلاح الدين جعل جامع ابن طولون مأوى للغرباء من المغاربة ، يسكنون ويحلقون فيه . وأجرى عليهم الأرزاق كل شهر[2] .

ويذكر أن من مآثر السلطان الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر[3] ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، ويعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجرى عليهم الجراية الكافية . والظاهر أن هذه العناية بعمارة كتاتيب القرآن لم تكن مقصورة على القاهرة ، بل شملت بقية العواصم الإسلامية . ففى دمشق مثلا كان نور الدين - أخو صلاح الدين قد هيأ دياراً موقوفة لقراء كتّاب الله عز وجل يسكنونها . ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولاسيما لحفظ القرآن والمنتمين للطلب[4] .

أما طريقة تعليم القرآن للصبيان فى ذلك العهد فقد كانت طريقة التلقين من غير كتابته فى لوح تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتدال الصبيان له بالإثبات والمحور وأما الإملاء فكانت تعلم بالتمرين على كتابة الأشعار «وقد يكون فى أكثر البلاد الملقن (للقرآن) على حدة فينفصل (الصبى) من التلقين إلى التكتيب»[5] .

وظلت للمسجد وظيفته التعليمية إلى جانب وظيفته التعبدية . وكان الجامع الأموى بدمشق مشهوراً باجتماعه العظيم الذى كان يعقد «كل يوم إثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع القرآن دائمًا ،

---

(١) ص ١٠ من رحلة ابن جبير الطبعة الأولى سنة ١٩٠٨ مطبعة السعادة .

(٢) ص ٢١ من الرحلة المذكورة .

(٣) محاضر جمع محضر . وهو فى لغة أهل المغرب والسودان الغربى وبمعنى الكتاب ولايزال التلميذ فى المغرب يسمى «محضرى» بياء النسب نسبة إلى محضر .

(٤) ص ٢٦٦ من الرحلة المذكورة .

(٥) ص ٢٥٢ من الرحلة المذكورة .

ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرءون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة . ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لايجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان . وفى حلقات للتدريس ؛ للطلبة والمدرسين فيه إجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم إجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة . وعند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحًا يستند كل إنسان منهم إلى ساريته ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن . وللصبيان أيضًا على قراءتهم جارية [1] معلومة» .

وكذلك كانت الحال فى بغداد التى يقول عنها ابن جبير أيضًا «والمدارس بها نحو الثلاثين وهى كلها بالشرقية . وما منها مدرسة إلا وهى عامرة ، وأعظمها وأشهرها النظامية ، وهى التى ابتناها نظام الملك وجددت سنة ٥٠٤هـ . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة ، وعقارات محبسة ، تتصير إلى الفقهاء والمدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم [2] بهم .

ويظهر أن بلاد المشرق قد امتازت عن بلاد المغرب بهذا السخاء ، والتشجيع ، على طلب العلم ومعاونة أهله . وهذا ما دعا الرحالة الأندلسى أن يقول «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ، ويتغرب فى طلب العلم فيجد الأمور المعينة كثيرة ، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان [3] وأهمها» :

كذلك ذكرلنا عبداللطيف البغدادى فى ترجمة حياته شيئًا عن دور العلم ، والمجالس التى كان يعقدها العلماء فى بغداد والموصل ودمشق والقدس وعكا ومصر . وقد كانت رحلته إلى مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى[4] .

وفى كتاب «التربية»[5] عند العرب «جداول بأسماء المدارس التى عرفت فى القرن السادس الهجرى ، بالقاهرة ، ودمشق ، والقدس ، وحلب ، وبغداد . ثم توالى إنشاء المدارس فى مصر

---

(١) ص ٥٢١ من الرحلة المذكورة .

(٢) ص ٢٧ من الرحلة المذكورة .

(٣) ص ٢٦٦ من الرحلة المذكورة .

(٤) راجع كتاب «رحلة عبداللطيف البغدادى فى مصر» طبع بمطبعة المجلة الجديدة .

(٥) التربية عند العرب لخليل طوطح ص ١٤٥ ـ ١٦٢ .

والقاهرة على أيدى سلاطين الأمراء والكبراء . وكثر عددها فى القرنين السابع والثامن كثرة ظاهرة[١] .

وفى أوائل المائة السابعة طغى المغول على بلاد الإسلام تحت راية جنكيزخان ، الذى خرب أقطارًا وأمصارًا ، وأستولى على البلاد الإسلامية حتى البحر الأسود ، فأحرق كثيرًا من خزائن الكتب ، وقوض مدارس العلوم ، ومراصد للفلك ، وكان من أهم سبب فى فقدان أكثر ما ألفه علماء المسلمين من التصانيف ما أتاه جنكيز خان وأولاده وأحفاده من تخريب . ثم جاء هولاكو المغولى فخرب دار السلام سنة ٦٥٦هـ . وغيرها من عواصم العلم فى فارس ، وقتل الخليفة المعتصم ، ووضع السيف فى بغداد أربعين يومًا . وبنى - كما يقال - بكتب العلم اصطبلات الخيول ، وطاولات العلف . وقيل إن ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه من الكتب والأوراق .

وبسقوط بغداد تطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مأوى يلجأون إليه ، فوجدوا مصر - بعدأن انتقلت إليها الخلافة - خير مأوى فنزحوا إليها ، حتى أصبحت تموج بالعلماء من العراق والشام وفارس والأندلس والحجاز وإفريقيا . وبذلك أصبحت القاهرة مركزًا للعلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعها .

هذا ما كان فى القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى ، أما فى القرن الرابع عشر فقد ظهر الضعف جليا فى بناء الثقافة الإسلامية ، وبدا للعالم الفرق الثقافى العظيم بين أمة وأخرى من أمم الإمبراطورية الإسلامية . فبينما نجد المعاهد والمساجد والمدارس مزدهرة فى مصر نجدها مضمحلة متأخرة فى شمال إفريقيا وفارس والعراق ، وآخذة فى الزوال فى الأندلس وبعض جهات الشام . وبينما نجد الثقافة الإسلامية والمعارف الإسلامية - خلال القرن العاشر الميلادى - قد بلغت ذروة مجدها ، وموزعة توزيعًا عادلاً على بلاد الإسلام ، من المحيط الأطلنطى إلى جبال آسيا الوسطى ، نجد فى أيام ابن بطوطة كيف أجدبت تربة الثقافة الإسلامية ، وكيف ذوت ثمارها ، تلك التى كانت غذاء الحياة الاجتماعية فى القرن الرابع عشر[٢] .

---

(١) ص ١١٥ من تاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبدالله عنان ، راجع بشأن المدارس والجوامع فى ذلك العهد «الخطط للمقريزى» والتعليم فى مصر لأمين سامى .

(٢) ص ١٧ - ١٩ من كتاب رحلات ابن بطوطة فى آسيا وأفريقيا من ١٣٢٥ - ١٣٥٩ ، ترجمها إلى الإنجليزية وعلق عليها هـ . أ . ر . جب .

غير أن مصر كانت فى تلك الأمة التى احتفظت بتراث الثقافة الإسلامية فى الوقت الذى كان فيه المغول من الشرق ، وقبائل البدو والبربر من الغرب ، قد أسرفوا فى التدمير والخراب حتى وصلوا إلى حدودها (١) .

ويذكر لنا ابن خلدون أن العلم قد ضعف فى الحواضر الإسلامية ، وأنه قد أصبح فى الغالب مقصوراً على «القاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ، ومن جملتها تعليم العلم . وأكد ذلك فيها ، وحفظه ، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين ، فى دول الترك من أيام صلاح الدين . وتلك أن أمراء الترك قد استكثروا من بناء المدارس والزوايا والأربطة ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة وكثر طالبو العلم بكثرة جرايتهم ، وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب»(٢) .

نعم انفردت مصر بين الأمم الإسلامية بهذا الازدهار والرخاء العلمى ، ولكنه كان ازدهارًا سيليه ذبول . فقد بلغت فيها الحركة العلمية الأدبية درجة من التقدم لم ترتفع بعدها قط . وذلك فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، (الرابع عشر الميلادى) وأوائل التاسع . وحفل القرن التاسع على الأقل بعدد كبير من الأساتذة البارزين فى سائر العلوم والفنون ، وساهم الأزهر إلى جانب المدارس الأخرى بنصيبه فى إعداد عناصر هذه الحركة ، وفى تخريج العدد الجم من أبنائها وربما كانت هذه الفترة فى الواقع هى عصر الأزهر الذهبى ، من حيث الإنتاج العلمى للمتاز ، ومن حيث تبوؤه لمركز الزعامة والنفوذ (٣) .

وكان لازدهار العلم بالأزهر أن وفد إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها ، وكان لكل طائفة رواق خاص بها ، ينزل به الطلبة طاعمين كاسين ، فأمه التركى والمغربى واليمانى والزنجى والهندى والأفغانى ، وتجردوا للدرس وطاب لهم فيه المقام ، حتى إذا أقاموا ما أقاموا انقلبوا إلى أهلهم متمكنين فى دينهم جامعين بين علوم العربية وعلوم الدين .

---

(١) ص ٢٠ ـ ٢٣ من كتاب رحلات ابن بطوطة المذكور .

(٢) ص ٣٠٥ مقدمة ابن خلدون . وهذا ما أشار إليه ابن جبير من أن المغاربة أقل فى طلب العلم من أهل الشرق .

(٣) ص ١١٧ ـ ١١٨ تاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبدالله عنان .

وقد كان الإسلام رباطًا وثيقًا للمسلمين فى جميع بلاده ، وكانت فريضة الحج من الوسائل التى تدفع المسلم إلى الحجاز لأداء الفريضة ، والمجاورة هناك فى مكة والمدينة . فقد تمتعت كلتا هاتين المدينتين بتاريخ حافل بالعلماء ، الذين قاموا بتدريس علوم الدين والعربية منذ عهد الإمام مالك والشافعى وقد وصف لنا ابن بطوطة وغيره من الرحالة ، مجالس العلم فى المسجد الحرام والمسجد النبوى (١) .

نعم كان من الحرمين مركزاً يأوى إليه الحاج لأداء الفريضة ، وطلب العلم بالمجاورة ، وهناك يلتقى علماء البلاد الإسلامية المختلفة ، ويتبادلون الآراء والفتاوى ، (٢) والأبحاث ، من ذلك أن أحد علماء تمبكتو ، محمد بن أحمد بن أبى محمد التازختى ، لما ذهب للحج لقى هناك شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، واللقانيين ، والقلقشندى ، وابن أبى شريف ، وعبدالحق السنباطى وجماعة ، فأخذ عنهم الحديث ، وسمع وروى (٣) .

وزاد رابطة المسلمين قوة ظهور طرق الصوفية و انتشارها بكثرة ، وقيام الأربطة والزوايا التى فتحت أبوابها للمريدين من المسلمين ، فكانوا إلى اشتراكهم مع إخوانهم فى التصوف يتدارسون العلوم الدينية المختلفة ، وكان نظام الصوفية بأربطتها وزواياها ، وخوانقها مشجعًا العلماء على السفر والرحلة ، طلبًا للعلم أو قياما بالحج ، لأن الصوفى حيث حل وجد من إخوانه فى الدين لله من يسهل له الإقامة والترحال ، وبذلك انتشرت الثقافة الصوفية فى جميع العالم الإسلامى فى القرن الثامن والتاسع الهجرى وصارت كتب الصوفية تدرس بجانب كتب الشريعة(٤) .

---

(١) انظر ص ٨٨ ج ١ من رحلات ابن بطوطة ، وكذلك ص ١١١ ج ١ من الرحلات نفسها الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ .

وكذلك ص ١٧٢ ومابعدها من كتاب مكة Mekka لمؤلفه Snouek Hurgronje وترجمة J.H. Monahan طبعة سنة ١٩٣١ .

(٢) ص ٣٢ تاريخ السودان لعبد الرحمن عبدالله بن عمران بن عامر السعدى .

(٣) ص ٣٩ تاريخالسودان لعبدالرحمن عبدالله بن عمران بن عامر السعدى . وكذلك فعل غيره من علماء تمبكتو ، وجنى ، وبقية بلاد السودان الغربى ، فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى . انظر أيضا ص ٤٢ من الكتاب المذكور وانظر أيضا الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتانونى ص ٩٦ .

(٤) يفهم هذا كله مما كتبه ابن بطوطة فى رحلاته ، ومن الطبقات الكبرى للشعرانى ، ومن النور السافر فى أخبار القرن العاشر . ومن Les Confréries Réligeuses Musulmans .

وكان الحج يسافر إلى الحجاز فى قافلة يتزايد عددها عند كل منزل ، ويجد الحاج من المسلمين كل وسائل الراحة ، أثناء سفره ونزوله ، فعند المنازل الكبيرة والمتوسطة أقيمت أربطة أو زوايا أو خانقاهات ينزل فيها الحاج ، ويجد من الكرم ، ومن الضيافة ، ما يحتاج إليه . وقد حبست على هذه الأربطة والزوايا أوقاف كثيرة . وكان الفقيه يلاقى من كرم الضيافة الشىء الكثير ، فإن إخوانه فى كل قطر كانوا يقابلونه بالترحاب ، كأنه واحد منهم ، وكانوا يقضون حاجته ثم يرسلونه بتوصيات إلى إخوانهم فى المنازل التالية . وهذه هى الظروف التى ظهرت فيها الأخوة الإسلامية بأجلى مظهرها ، تلك الأخوة التى لاتعرف فوارق الجنس ولا الوطن ، والتى حفزت المسلمين لأن يرحلوا من قطر إلى قطر من غير أن تكون لهم صلات شخصية بالجماعات التى يرحلون[1] إليها .

وقد كانت بلاد الحجاز (مكة والمدينة) فى الدرجة الثانية ، بعد مصر ، من حيث وفود طلاب العلم إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامى للحج والمجاورة ، كما ذكرنا[2] ، وكان أمراء المسلمين[3] يبنون بها المدارس والأروقة لطلاب العلم ويقفون الأوقاف السخية[4] .

وكانت بلاد المغرب متأخرة ثقافيًا عن بلاد الشرق ، ويحدثنا ابن خلدون فى مقدمته[5] بقوله : «وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب ، لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم . . وما أدرى ما فعل الله بالشرق ، والظن به نفاق العلم فيه ، واتصال التعليم فى العلوم ، وفى سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه وحضارته ، ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التى اتسعت بها أرزاقهم» .

والحق أن المغرب لهذا العهد كان متخلفًا عن الشرق فى الرخاء والحضارة والعرفان ، وأن مصر بفضل الأزهر ، وما كان بها من مساجد ومدارس ، صارت كعبة طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامى .

---

(١) صفحة ٣ ـ ٥ من رحلات ابن بطوطة ترجمة جب .

(٢) ص ٥٤ التربية عند العرب لخليل طوطح .

(٣) انظر ص ١٣٢ من كتاب مكة تأليف سنوك هور جرنج وترجمة مونهان للإنجليزية .

(٤) ص ٧٣ من تاريخ السودان (الغربى) وما فعل الأمير أسكيا محمد من حبسه الأوقاف الكثيرة على الحرمين وأهل التكرور .

(٥) ص ٣٠٦ طبعة عبدالرحمن محمد .

وأن تجمع المدارس وكثرتها فى القطر المصرى قد غير اتجاه طلبة العلم الذين كانوا يؤمون أى قطر آخر من أقطار العالم الإسلامى . فمنذ اليوم الذى حلت فيه مصر محل بغداد والأندلس ، ثقافيًا وسياسيًا ، صارت كأنها الوطن الثانى للمسلمين وتوجهت إليها قلوب علماء الإسلام[1] .

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر وقع حادثان عظيمان فى تاريخ الإسلام السياسى . أما الحادث الأول فهو زوال دولة المسلمين من إسبانيا سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) بسقوط غرناطة فى يد فريننـد وإيزبلا ، وتشتت شمل البقية من المسلمين والعلماء إلى شمال إفريقيا ، وإلى مصر . وأما الحادث الثانى فهو ظهور دولة بنى عثمان واستيلاؤهم على فارس ، وتقدمهم نحو مصر ، ثم التقاء جيشهم بجيش الغورى فى مرج دابق ، وقتل الغورى . وبذلك استولى العثمانيون على مدن الشام وحصونها ، ودخلوا مصر واستولوا عليها سنة ٩٢٢هـ (١٥١٧م) .

وبين هذين الحادثين العظيمين وقع حادث آخر ذو خطر هو ظهور السودان الشرقى ـ سودان وادى النيل ـ بين أمم العالم الإسلامى . وبذلك أضيف إلى أقطارها قطران جديدان هما مملكة سنار وسلطنة دارفور . فبينما كان المسيحيون يطاردون المسلمين فى إسبانيا ، وكان نجم الأندلس الإسلامية يهوى ، كان المسلمون فى السودان يطاردون السكان الأصليين من مسيحيين ووثنيين ويستولون على أرضهم وديارهم ، مع فارق عظيم هو رحمة العرب واستئلافهم القلوب فى السودان ، وقوة المسيحيين واستعمالهم السيف ومحاكم التفتيش فى الأندلس .

نعم ظهور السودان الإسلامى الشرقى فى آخر عهد المماليك بمصر وفى وقت كانت فيه مصر ـ كما ذكرنا ـ أكثر بلاد الإسلام ازدهاراً بالعلم ، بعد أن كسدت أسواقه فى المغرب[2] وغيره من بلاد المسلمين . وكانت بلاد الشام تابعة لمصر إلى أن استولى عليها الأتراك . أما العراق فكانت قد فقدت مجدها العلمى منذ تخريب بغداد . وكان يهوى إلى مكة أفئدة من العلماء للحج والتبرك والتدريس ومعظم هؤلاء من مصر . غير أنه من الواجب أن نقرر أن الحركة الأدبية والثقافية كانت قد بدأت فى الاضمحلال بمصر فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وذلك تبعا لاضمحلال الدولة المصرية ، والمجتمع المصرى . وكانت دولة السلاطين قد شاخت وأخذت تسير

---

(١) ص ٨٧ من التعليم الإسلامى فى مصر لإبراهيم سلامة .

(٢) ص ٢٠ ـ ٢٢ من رحلات ابن بطوطة المترجمة إلى الإنجليزية .

نحو الانهيار بخطى واسعة ، وتصدع بناء المجتمع المصرى ، وأخذ فى الانحلال والتفكك ، واضطربت أحوال المعاهد والمدارس المصرية ، وتضاءلت مواردها ، وفقدت كثيرًا مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين والأمراء . وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول والركود(٤) .

نعم ظهر السودان فى وقت كانت فيه الدراسة فى الأزهر ـ وهو مركز الثقافة فى البلاد الإسلامية ـ موجهة فى أغلبها إلى العلوم النقلية . وما درس من العلوم العقلية كالمنطق أو الطب أو الفلك إنما كان يدرس دراسة آلية ، القصد منها حفظ مسائله ، والجدل اللفظى دون تجديد ، أو استنباط لقواعد جديدة . وإن كان هناك من العلماء من ألف شيئًا جديدًا فقد كان أمرًا نادرًا(١) .

والواقع أن القرن التاسع الهجرى وما بعده من قرون شاهد انقراض مجد المدارس ، ولم يعد إلا الأزهر يبعث بنوره إلى جميع الأمم الإسلامية (٢) .

نعم ظهر السودان فى عهد (٣) التقليد ، فلم يصرف العلماء ماعندهم من قوى إدراكية فى الاجتهاد والتخريج ـ كما فعل السابقون من العلماء ـ بل وجهوها إلى التأليف (٤) والتحرير . ونحا أغلبهم فى ذلك منحى الاختصار ، وجمع الفروع الكثيرة فى عبارات ضيقة تشبه الألغاز ، وتحتاج فى تفهمها إلى وقت طويل ، حتى احتاجت إلى وضع كتب أخرى تشرح مبهمها ، وتحل عقدها ، وكانت روح الإدماج والاختصار غالبة على أصحاب تلك الشروح أيضًا فمست الحاجة إلى التعليق عليها (٥) فلا عجب إذًا أن يتأثر السودان ـ كما سنرى ـ فى ثقافته الأولى بروح

---

(٤) ص ١١٩ تاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبدالله عنان .

(١) ص ١٩٦ التعليم الأساسى فى مصر لإبراهيم سلامة .

(٢) ص ١٢٥ ـ ١٢٨ من الكتاب السابق .

(٣) كانت العلوم التى يدرسها المسلمون صنفين صنف يعرف بالعلوم العقلية كالمنطق والرياضة والفلك والطب ومصطلح الحديث والحكمة (الفلسفة) ومنهج البحث فى هذا الصنف الاعتماد على معقولية الحقائق ، وامتحانها نظريًا وعمليًا ، وصنف يعرف بالعلوم النقلية ، ومنهج البحث فيه يستند على الخبر عن الواضع ، ولا مجال للعقل فيه إلا فى إلحاق الفروع من مسائله بالأصول ، ولكن لابد من الرجوع فى القياس إلى النقل . وأصل هذه العلوم النقلية كلها الشرعيات من الكتاب والسنة ، ثم تلتها علوم اللسان العربى ، وبه نزل القرآن . وفروع العلوم النقلية كثيرة . فالشرعية منها كالتفسير والحديث وعلم القراءات والفقه وعلم الكلام (وقد يدخل ضمن العلوم العقلية) واللسانية منها ـ وهى ضرورية لفهم الشرعية ـ كعلم اللغة ، وعلم النحو ، وعلم البيان والأب والعروض . وقد وصف أبو يحيى زكريا الأنصارى ـ من علماء القرن العاشر ـ هذه العلوم فى كتابه اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم .

(٤) ومن هذه الطبقة من العلماء مؤلفون نوابغ نذكر منهم الشيخ خليل بن إسحاق المالكى ، والسبكى ، والرملى ، والسيوطى ، وأبا يحيى زكريا الأنصارى .

(٥) ص ٣٣٣ من تاريخ التشريع الإسلامى لعبد اللطيف السبكى وزميله .

ذلك العصر ، ولا عجب إذا لم نجد من أبناء السودان من العلماء أو المؤلفين من نافس أساتذة الأزهر ، أو من امتاز ، وعرف فى العالم الإسلامى بالتأليف أو التجديد والاجتهاد .

ظهر السودان فى أصيل النهضة الإسلامية . وقد انصرف المتعلمون ـ إزاء هذه التآليف المعقدة ـ عن لب العلم وجوهره إلى تفهم أساليب الكتب ، وحل عباراتها ، وتراكيبها ، ومعرفة ما أراده المؤلف أو الشارح أو المحشى[1] . وربما وقع فى المتن خطأ لم يدركه الشارح فيجىء المحشى ، ويسترسل فى تعليقه من غير أن يتبين موضع الخطأ . وبذلك يضل فى حاشيته كما ضل من قبله[2] .

نعم ظهر السودان فى عهد سادت فيه مذاهب الصوفية ، وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية . وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لا يتم إلا بعلم الباطن ، بل إن منهم من اعتبر علم الباطن هو العلم الحقيقى[3] .

وليس المقام هنا مقام التحدث عن تطور الصوفية وطرقها وآدابها ، ولكن يكفى أن نقول إنه ما جاءت نهاية القرن التاسع وحل القرن العاشر الهجرى حتى ظهر من رجال الصوفية من يدعون العلم وهم جهلاء ، وحتى كان أغلب العلماء صوفيين يؤمنون بعلم المتصوفين وكراماتهم ، ويزورونهم ويتبركون بهم . وكان السلاطين وكذا الأمراء يجلون أهل التصوّف ويكرمونهم ، ويقصدونهم لقضاء الحاجات . وكأن أكثر هؤلاء المتصوّفة مقيمين فى الأربطة والزوايا والمساجد والأضرحة على نفقة المحسنين[4] .

وإنما سقت كل هذا الوصف لحال الثقافة الإسلامية فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى ، حتى يستطيع القارئ أن يتصور نوع الثقافة الإسلامية التى ستظهر فى السودان عندما نتحدث

---

(١) يرى ابن خلدون أن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل . وقد عقد لذلك فصلا فى مقدمته بهذا العنوان .

(٢) ذكر الأستاذ على السباعى بدار العلوم أنه وجد فى شرح الأشمونى عددًا كبيرًا من الأبيات المغلوطة التى استشهد بها الشارح على بعض القواعد ، وأن الصبان فى حاشيته على الأشمونى لم يصحح هذه الأبيات بل قبلها كما هى وعلق عليها .

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ، ومقال عبد الوهاب عزام عن الصوفية فى الرسالة ص ٤٥٦ السنة العاشرة العدد ٤٥٩ .

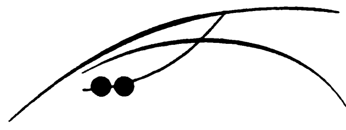
(٤) ظهر هذا النوع من المتصوفة قبل القرن التاسع بزمن طويل كما فى كتاب تلبيس إبليس .

عن التعليم فيه ، وحتى يدرك مقدار تأثر السودان بنوع الثقافة التى كانت سائدة فى الأمم الإسلامية الأخرى .

ونستطيع أن نختم هذا الباب بقولنا : إن السودان كان منقطعًا نسبيًا عن بقية البلاد الإسلامية ومع ذلك كانت له صلات غير منقطعة مع مصر وغيرها من أمم البحر الأحمر ، بطريق القوافل الشاقة . ولما كان السودان لم يرث عن ماضيه الإسلامى أى أسس ثقافية يعتمد عليها . كان لا بد له من أن يعتمد فى مستقبله الثقافى على ما يرد إليه من الخارج . وقد شرحنا وبينا نوع هذا الوارد .

■■■

ظهور الثقافية
الإسلامية فى السودان
ومصادرها



نحن الآن فى أوائل القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، وفى بلاد إسلامية جديدة تشمل مملكة الفونج التى امتدت إلى الشلال الثالث ، وسلطنة دارفور ، وهما ما نعنيهما باسم السودان . ولابد كان لمسلمى هذا السودان نصيب من الثقافة الإسلامية التى وصفناها فى الباب السابق ، ولابد أنهم كانوا يعيشون عيشة المسلمين إلى حد ما ، وأنه كان عليهم أن يربوا أبناءهم ، وأن ينشئوهم وفقا لتعاليم دينهم الإسلامى . فمن أين جاءت إليهم هذه الثقافة الإسلامية؟ وكيف كانوا يعيشون وفقًا لتعاليم الإسلام؟ ، وما المعاهد التى كانت تربى أبناءهم وتنشئهم تنشئة إسلامية؟

إننا إذا نظرنا إلى موقع السودان الجغرافى عرفنا أنه كان محوطًا بأمم إسلامية يصح أن تكون مصادر لما ظهر فيه من ثقافة وعرفان ، هذا إذا استثنينا الجنوب الذى ما زال حينذاك فى طور التوحش والهمجية . أما الشمال وفيه مصر والشرق بيمنه وحجازه وشآمه وعراقه وفارسه وهنده ، وشعوب بلاد المغرب الإسلامية المتأخمة للبحر الأبيض المتوسط ، وبلاد التكرور[1] ، فهذه كلها يصح أن تكون مظان لمصادر الثقافة التى وفدت إلى السودان فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

---

(١) جرى العرب على إطلاق اسم التكرور على جميع بلاد السودان الغربى التى دخلها الإسلام ، وهى الممتدة من المحيط الأطلنطى إلى حدود وادى النيل وأصبحت كلمة تكرورى فى نظرهم مرادفة لكلمة سودانى . وقد تبعهم فى هذا المؤرخون السودانيون الذين كتبوا بالعربية . من أجل ذلك ظلت المصورات الجغرافية الأوروبية مدة طويلة تطلق تكرور ، أو السودان ، على الجزء الجنوبى من الصحراء الكبرى ، ولا يتفق هذا التعميم فى إطلاق لفظ تكرور أن تكرور مع الواقع لأن تكرور تدل بوجه التحديد على الوطن الحقيقى للتكلر أو فوته السنغالية (انظر صفحة ٤٣٧ وما بعدها من المجلد الخامس العدد ١١ من ترجمة دائرة المعارف الإسلامية) .

وأمم الشرق ومن بينها مصر ، وأمم المغرب أيضًا . سبقت السودان إلى الإسلام وكذلك سبقت إلى الإسلام بعض بلاد التكرور أو السودان[1] الغربى . وقد مضى عليه فيها قرون ، ورسخت بها تعاليمه ، وانتشرت ثقافته وعلومه ، وظهر بها علمًا أعلام وأدباء أفذاذ ساهموا بنصيب ملحوظ وموفور فى الإنتاج الإسلامى ، والثقافة العربية ، فأزدهرت بمنتجاتهم دور العلم والمكتبات .

فلا غرو إذًا أن نجد أفرادًا وأسرات مثقفة يهاجرون من هذه الأمم الإسلامية إلى قطر حديث العهد بالإسلام ، هو السودان ، لينزلوا فى كنف[2] ملوكه ، رغبة فى عطائهم وإكرامهم أو ليعيشوا فى خيراته وأراضيه الوافرة ، أو لينشروا دين الله والعلم والتصوف فى هذا القطر الجديد ، أو ليتخذوه مثوى جديدًا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم .

أما نوع إسلام أهل السودان فى فاتحة القرن السادس عشر فيحدثنا عنه صاحب[3] الطبقات ، بأنه لما أسقط الفونج مملكة علوة ، وخربوا عاصمتها سوبة ، وأسسوا سلطانهم «لم تشتهر فى تلك

---

(١) فمن ذلك مملكة سنى التى أسلم ملكها ـ زاكسى ـ فى سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩ ـ ١٠١٠م) وغانة وكان سكانها وثنيين إلى أواسط القرن الخامس الهجرى ١٠٧٦م ، حين طرد البرابرة المسلمون أسرة فلبه Fulbe الحاكمة ، وصارت البلاد مسلمة ، ومدينة تمبكتو التى أسسها تجار المسلمين حوالى أواخر القرن الخامس الهجرى (١١٠٠م) ومدينة جنى التى دخلت فى الإسلام عند تمام القرن السادس الهجرى (١٢٠٠م) .

(انظر الصفحات ٣ ، ١٢ ، ٢١ من تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبدالله بن عامر السعيدى ، وكذلك صفحة ٣١٨ من كتاب The Preaching of Islam للسير توماس أرنولد ، وأيضا صفحة ٢٥٠ من حاضر العالم الإسلامى تأليف العلامة الأمريكى Lothrop Stoddard وترجمة عجاج نويهض الجزء الأول طبعة قديمة سنة ١٣٤٣هـ بالقاهرة ١٩٢٥م) .

(٢) لم ينقطع وفود العلماء إلى السودان فى أى عصر من العصور . وها هو ذا الشيخ محمد بن عمر التونسى يحدثنا فى رحلته (تهذيب الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان صفحة ٢٩ وما يليها) يحدثنا أن جده لما فرغ من الحج خرج من مكة إلى جدة ، ومكث ينسخ الكتب بالأجرة . وكان جميل الخط ، فاتفق أن اجتمع فى تلك المدة بأناس من أهل جزيرة سنار ، وتودد إليه بعضهم ، وارتبطت بينهم صحبة ، فسأله : من أى البلاد أنت؟ فقال من تونس . فسأله عن سبب إقامته فى جدة ، فأخبره بقصته وماجرى عليه فقال السنارى : ألا تتوجه معنا إلى مدينة سنار ، ويحصل لك العز والافتخار؟ ؛ لأن ملكنا رجل مبسوط اليد ، يحب الفضل وأهله ، ويحل كلا منهم محله . وأنا ضامن لك إن ذهبت معنا أن يجبر كسرك ويسد خللك ؛ فطمع جدى فى نوال الملك المذكور ، وتوجه معهم ..... وحين وصل إلى جزيرة سنار ، قابلوا به الملك ، وأعلموه أنه رجل من أهل العلم ، فرحب به وأعظم ملقاه ، وأنزله دار إكرامه ، وأمر له بجزيل إنعامه وأجرى عليه رزقًا . فاستقر جدى بسنار ، ونسى أهله بتونس وأولاده الصغار .

(٣) معظم اعتمادى فى القسم الأول من هذه الرسالة على كتاب «طبقات ود ضيف الله فى أولياء وصالحين وعلماء وشعراء السودان» لمؤلفه الفقيه محمد نور الدين ود ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى ، المولود بحلفاية الملوك سنة ١١٣٩هـ والمتوفى سنة ١٢٢٤ (١٨٠٩) ودفن بمسجد آبائه أولاد ضيف الله بحلفاية الملوك . ويقول المؤلف فى سبب كتابته هذا السفر «إنه قد سألنى جماعة من الإخوان .... أن أورخ لهم ملك السودان ، وأذكر مناقب أوليائها من الأعيان ، =

البلاد مدرسة علم أو قرآن . ويقال : لا إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهارها من غير عدة» ولا غرابة فى هذه الحال فالعرب الطارئون على السودان الذى خضع للفونج كانوا ،

= فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة فى السنة والإلهام ، ولم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع فى هذا الشأن ، إلا أن أخبارهم متواترة عند الخاص والعام ، منها ما بلغ حد التواتر عندهم ، فأحببت أن أذكر ما تواتر واشتهر ، من تلك الأخبار . وذلك لأن الخبر المتواتر عند الأصوليين من الأقسام اليقينية التى تفيد العلم بالشىء .

وقد عزم الشيخ محمد نور الدين فى أواخر القرن التاسع عشر على أن يجمع فى كتاب الطبقات ما يصل إليه من الحكايات والروايات الشائعة والمتواترة بين الناس عن العلماء والأولياء ، الذين تركوا أثرًا قويًا فى حياة السودان الفكرية والثقافية والدينية . أولئك الذين قد انتشرت أضرحتهم المقببة فى أنحاء السودان . وصدق عزمه فخرج بهذا الكتاب الذى يعتبر الحجة التاريخية الوحيدة المكتوبة عن الثقافة السودانية فى ثلاثة قرون (١٥٠٠ ـ ١٨٠٠) .

وقد تأثر المؤلف بكتب طبقات الصوفية ، وأشار إلى ذلك فى مقدمة كتابه بقوله «وقد اقتديت بجماعة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين فإنهم ألفوا فى التاريخ والمناقب كالإمام عبدالغافر الفارسى فى تاريخ نيسابور ، والجلال السيوطى فى كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، والحافظ ابن حجر ألف كتابًا فى علماء عصره سماه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . . . . إلخ ولا بد أن المؤلف قد تأثر بطبقات الصوفية الكبرى للشعرانى (مات سنة ١٥٦٥م) وطبقات الشافعية للسبكى ، لأنه اقتبس من الأولى كثيرًا من الأخبار والحوادث ، أما الثانية فيشير إليها ليبرر ترجمته لوالده من علماء السودان ، كما فعل صاحب طبقات الشافعية .

ويحتوى كتاب ود ضيف الله على تراجم لنحو ٢٥٠ شخصية مرتبة ترتيبًا هجائيًا فى الجملة وتختلف هذه التراجم طولا وقصرا تبعًا لأهمية المترجم له ، أو تبعًا لما وصل المؤلف من معلومات .

وأما مواطن أصحاب التراجم فإنها تدخل ضمن مملكة الفونج . ويقسم المؤلف هذه المملكة إلى قسمين : قسم الشمال أو السافل . وهو يشمل المنطقة من دنقلة إلى الخرطوم ، وقسم الجنوب أو الصعيد . وهو يشمل جزيرة سنار .

ومن الظاهر لمن يجوب خلال السودان أن مواطن العلماء والأولياء التى تظهر فيها الأضرحة الآن كانت منتشرة على طول النيل شمال الخرطوم ، وعلى طول النيل الأزرق جنوبيها . ويحدثنا المؤلف بأن النيل الأبيض قد ازدهر وقتًا بالمعارف والعلوم ، ولكن المدارس والخلوات التى ظهرت على ضفتيه كانت قد اختفت فى عهد المؤلف وذلك لعاملين : عامل المجاعة التى حدثت سنة ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م) ، و عامل غارات الشلوك . والمؤلف يشير أحيانًا إلى علماء التاكه (منطقة كسلا) ، أما الجهات الواقعة غربى النيل الأبيض (كردفان ودارفور) فإن نصيب علمائها من هذا الكتاب نادر . ولا ندرى لماذا ، وقد يكون السبب هو أن المؤلف لم يشمل فى هذا الكتاب الأقاليم غير التابعة لمملكة سنار (وهذا هو الراجح لأنه أراد أن يؤرخ للفونج دون الفور) أو لأن هذين الإقليمين لم ينتجا من العلماء ما يستحق الذكر .

وتحتوى الترجمة فى العادة على تفاصيل تتعلق بمولد المترجم له ، ومكان مولده ، ونسبه لأبيه ، ولأمه إن كان مهما ، ونوع التعليم الذى تلقاه ، ومكانه ، والفقهاء الذين قرأ عليهم القرآن أو أخذ عنهم العلم والشيوخ الذين سلك عليهم الطريق ، وما قام به المترجم له بعد اتمام دراسته من عمل ؛ كتدريس أو قضاء أو تأليف ، ومقره أثناء العمل ، ومدة تدريسه أو قضائه ، وما ظهر على يديه من كرامات ، وأهم الحوادث التى تعزى إليه ، ويمكننا أن نقارن إحدى هذه التراجم بترجمة من طبقات الشعرانى فنجد كثيرًا من أوجه التشابه هذا وليست قيمة الكتاب فيما يحويه من تراجم ، ولكنه يكشف أمامنا صفحات من حياة السودان السياسية والعلمية والثقافية ، ومن العقائد التقاليد الشائعة فى ذلك العصر (١٥٠٠ ـ ١٨٠٠م) وعلاقة السودان بغيره من الأمم الإسلامية المجاورة ، وأثر هذه الأمم فى السودان . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو الوحيد الذى نستطيع أن نعرف منه كيف كان يعيش سكان السودان فى ذلك العهد .

أما مصادر هذا الكتاب فهى ـ كما أشرنا ـ فى الغالب الروايات الشفهية التى كانت شائعة فى عهده ، والتى لاشك تناقلها الرواة حفظًا ، خلفًا عن سلف . وكان هؤلاء الرواة من الأولياء والعلماء . ولكن المؤلف يشير أحيانًا إلى وثائق وإجازات =

حتى زوال سلطان العنج ، فى حال من البداوة لا يتيسر معها تأسيس مدرسة ، ولا نشر علم . فكان إسلامهم *إذًا إسميًا* . ولعلهم قد نسوا الكثير من تعاليم الدين وأحكامه ، لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء .

ويقول صاحب الطبقات إنهم كانوا على هذه الحال من الجهل بشئون الدين وأحكامه حتى قدم الشيخ محمود [١] العركى من مصر ، وعلم الناس العدة ، وسكن (النيل) الأبيض ، وبنى له قصرًا يعرف الآن بقصر محمود[٢] .

= وكتب مؤلفة وخطابات مرسلة من شيخ لشيخ ويذكرها بنصها . وكل هذه لا يمكن أن تكون قد وصلت إليه عن طريق الرواية . وهذا ما حدا بالباحثين فى مصادر هذا الكتاب إلى أن يفترضوا أن ابن ضيف الله قد عثر على بعض المخطوطات التى استعان بها فى تأليف الكتاب . وفى هذا يقول السير هارولد مكميكل (فى صفحة ٢١٩ من الجزء الثانى من كتابه تاريخ العرب فى السودان) :

Is is not unlikely that he srew many of his fact,s from the Library of that Hassan Abdel Bebman Ban el Naka, mentioned on 383 of this book Hasan's father was a pupil of an ancestor of Wad Dayfulla Dayfulla (see biography. No.78).

أما حسن عبدالرحمن بن بان النقا الذى يشير إليه مكميكل فيقول عنه صاحب تاريخ السودان وأقاليمه (المخطوط) صفحة ٦١ «وفى سنة ١٢٢٩هـ توفى العالم الكبير الشيخ حسن بن الشيخ عبد الرحمن ولد بن بان النقا . وكان عنده خزانة من الكتب النفيسة وضاعت كلها فى فتنة الملك نمر فى أيام دفتردار بك وابن ضيف الله يتحرى الصواب فيما يكتب فهو يسجل من التواريخ ما يعرف . وإن كان يخطئ أحيانًا . ويقرر بأنه غير متأكد إذا عرضت له شبهة ، ويقول فى بعض المواضع من الكتاب أما كذا وكذا فلا أعرفه ، أو قد نسيته .

وتمتاز طريقة كتابة التراجم بالوضوح والترتيب ، وإن كانت وعلى وتيرة واحدة . وأسلوب الكتابة غريب لأنه أسلوب اللهجة الدارجة فى عهد المؤلف ونعنى دارجة القوم الذين كان يعيش بينهم المؤلف . ولاشك فى أنه كان يستطيع أن يكتب باللغة الفصحى ، لأنه كتب مقدمة الكتاب بالفصحى الجميلة . ولعله نهج منهج الدارجة والعامية حتى يحتفظ بالروايات متواترة كما نقلت إليه على أنه ينقل إلينا أيضا وثائق وخطابات باللغة الفصحى ولعل السبب فى ذلك أنه ينقلها كما رويت إليه أو كما نقلها . والقارئ لمقدمة الكتاب يشعر بأن المؤلف كان من علماء عصره ، وأن له باعا طويلا فى الكتابة والإنشاء .

وقد طبع الكتاب بالعربية طبعتين : الأولى نشرها الشيخ إبراهيم صديق القاضى الشرعى بالسودان سابقًا (١٩٣٠ - ١٣٤٨هـ) وعليها كثير من التعليق والتهميش .

أما الثانية فنشرها (١٩٣٠ - ١٣٤٩هـ) السيد سليمان داود منديل صاحب الجريدة التجارية بالخرطوم من غير تعليق أو تغيير (راجع صفحة ١٩٣ S. N. and Records Vol. VI)

(١) محمود العركى هذا من نسل حسن المعرك . ويقال إنه عراقى الأصل . وقد استقر حسن المعرك بأسرته على الشاطئ الشرقى للنيل الأبيض قريبًا من الكوة . وتفرعت أسرته إلى فرعين فرع أحمد العركى والد محمود هذا وفرع آخر هو فرع محمد العركى (انظر ص ٢١ من كتاب : Tribes and Prominent Families in The Blue Nile Province edited by J.A. Reid

(٢) ص ٤ من طبقات ود ضيف الله طبعة منديل .

والذى يُفهم من نص هذه الرواية هو أن أول من نشر العلم الإسلامى فى السودان هو محمود العركى الذى تعلم فى مصر ، وفى الجامع الأزهر ، حيث تتلمذ على شيخين من أعلام شيوخ المالكية حينذلك هما شمس الدين[1] اللقانى وأخيه ناصر الدين[2] اللقانى ، اللذين اشتهرا بالعلم والفتوى والصلاح والزهد من الدنيا .

هذا ما يذهب إليه صاحب الطبقات ، غير أن مؤلف كتاب «تاريخ[3] السودان وأقاليمه» ، يخالف صاحب الطبقات فيما ذهب إليه من أن محموداً العركى هو أول من نشر علوم الإسلام

---

(١) ص ١٥٥ من طبقات ود ضيف الله طبعة منديل .

وقد يكون من المناسب أن تترجم للشيخين ناصر الدين وشمس الدين اللقانيين بشىء من الأطناب لما لهما من الأثر الروحى فى تلاميذهما ، ومن بينهم محمود العركى ، أول من أدخل علوم الدين فى منطقة النيل الأبيض بالسودان .

والشيخ شمس الدين اللقانى هو محمد بن حسن بن على بن عبد الرحمن ولد بلقانة من قرى مصر . وحفظ بها القرآن والشاطبية والرسالة ، ثم قدم إلى القاهرة فحفظ مختصر الشيخ خليل وألفية ابن مالك . ولازم فى الفقه البرهانى اللقانى والسنهورى ، وأخذ العربية عن الأخير ، والأصول مع العربية عن الجوهرى ، والمنطق عن التقى الحصنى .

ولد عاشر المحرم سنة ٨٥٧ ومات سنة ٩٣٥ . عم نفعه فى الفتوى وعكف عليه الناس وتراحموا عليه ، وانفرد بإقراء مختصر الشيخ خليل وله تحريرات بديعة عليه . وله مكاشفات عديدة عجيبة ، وهو وأخو الناصر من العلماء الأجلاء العاملين عليها مدار المذهب بمصر ، وهو أكبر سنا ، وأكثر فقها ، وله قدم راسخة فى الكشف . اجتمع بكثير من الأولياء المصريين والمغاربة . وأخوه ناصر الدين أكثر تحريرًا وتحقيقًا فى العلوم العقلية . زاد النفع به لطول عمره ، واشتغاله ليلاً ونهارًا ، وكثرت تلاميذه (ملخص من كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج تأليف أحمد بابا ، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون طبعة عباس بن عبدالسلام سنة ١٣٥١هـ) .

(٢) وأما ناصر الدين فهو محمد بن حسن بن على بن عبد الرحمن الامام العلامة ، المحقق ، شارك أخاه فى غالب شيوخه وأخذ المعقولات عن نابغى عصره وجلس لإقراء العلوم على اختلافها ، على وجه لم يشاركه فيه أهل عصره . فأقرأ تفسير البيضاوى وأصله ، والطوابع ، والعضد ، وتلخيص المفتاح ، وشرحى السعد والمحلى على السبكى ، والشمسية ، ومغنى ابن هشام ، والألفية وشرحها ، والرضى وغيرها ، والتهذيب مرتين ، وابن الحاجب بالتوضيح ، ومختصر خليل وغيرها من الفقه نحو ستين سنة ، لا يفتر عن الاشتغال طوال نهاره ، ودارت عليه الفتوى بعد موت أخيه لاشارته له بذلك ، واستفتى من سائر الأقاليم فى العلوم العقلية والنقلية . وكان وقورًا حافظًا لكرامة العلم فلا يدخل بيت أمير ، ولا غيره . من ذلك أن نائب السلطان صلى الجمعة بجامع الأزهر وطلب الاجتماع به ، فأرسل إليه : لا يأتينى ويتركنى أدعو له فى موضعى ، ولم يجتمع به . تجرد من الدنيا وكان يغدق ماله على أماثل الطلبة الفقراء . وممن أخذ عنه من أهل السودان الغربى أحمد بن أحمد (والد أحمد بابا) والقاضى العاقب . والفقيه محمد بغبغ ، وأخوه أحمد . هذا وقد ولد سنة ٨٧٣ ومات سنة ٩٥٨هـ . (تلخيص من صفحة ٣٣٦ من كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج المذكور قبل) .

(٣) كتب المستر جاكسون (باشا) كتابًا سماه «Tooth of Firo النار» عرض فيه تاريخ مملكة سنار . وطبعه فى أكسفورد سنة ١٩١٢ وهو يذكرفى مقدمة هذا الكتاب أن تاريخ ستار يعتمد على مؤلف مخطوط لإبراهيم ود عبد الدافع . اقتبس منه ، وأضاف إليه زيادة أخرى الزبير ود ضوه .

أما عن المؤلف - أو المؤلفين - وموطنه وعصره فقليل معروف . وقد بحث هذا الموضوع السير هارولد مكميكل فى صفحة ٣٥٥ وما يليها من الجزء الثانى من كتابه تاريخ العرب فى السودان .

فى السودان ، ويقول : لعل صاحب الطبقات إنما أراد أن محمودا العركى أول من نشر العلم فى جهة البحر الأبيض ، وأما الجهة الشرقية (جهة الجزيرة والنيل الأزرق) فقد كان فيها أولاد عون[1] الله ، وهم سبعة رجال فى مدة العنج أى النوبة ، وكان أحدهم أى المسمى بالضرير قاضيًا فى مدة العنج قبل ظهور الفونج ، وقبورهم بنواحي ولد أبى حليمة ظاهرة وأن الشيخ إدريس المشهور (يعنى إدريس الأرباب) كانت ولادته فى ثلاث عشرة بعدة التسعمائة وكان يقرأ القرآن عند ولد بندار قدام الحلفاية ، وقدوم محمود[2] (العركى) كان بعد ذلك .

ثم يستمر ابن عبد الدافع محتجًا فيقول : فكيف يقول المؤرخ (ود ضيف الله) إنه لم تشتهر قبل محمود مدرسة علم ولاقرآن ، مع أن أولاد عون الله كانوا قبل الفونج ، والشيخ إدريس (الأرباب) شيخه البندارى الذى قرأ عليه القرآن وأصله من الشام ، وكان من الصالحين . . وقد حصل كل هذا قبل محمود العركى ، وكذلك الشيخ حمد ولد زروق قدم من اليمن . وهو

---

(١) فى ترجمة النسخة الخطية التى عثر عليها السير هارولد مكميكل نجد اسم «ضيف الله» بدل عون الله : وأن قبور أولاد ضيف الله هذا بنواحى أبى حليمة ، شرقى النيل الأزرق ، مشهورة معروفة (صفحة ٣٥٩ الجزء الثانى من تاريخ العرب فى السودان) ويعلق مكميكل على اسم «ضيف الله» بقوله : أن المؤلف يقصد غالبًا جماعة الضيفلاب ، التى منها مؤلف طبقات ود ضيف الله (ص ٤٠٧ الجزء الثانى من تاريخ العرب فى السودان) ، كذلك يذكر نعيم شقير ص ٧٦ ج ٢ من تاريخ السودان أولاد ضيف الله . وعندى أن كل هذه الروايات الثلاث خطأ . والصواب هو «غلام الله» وليس «عون الله» ولا «ضيف الله» وعندى على ذلك دليلان : أما الأول فإن ولد أبى حليمة هى قرية لاتزال قائمة على الشاطئ الشرقى من النيل الأزرق (كما فى الخريطة) وفيها قبور السدراب (كما زرتها فى أغسطس سنة ١٩٤٥) وهم أولاد عجيب بن ركاب بن غلام الله .

والدليل الثانى أن زيدا الضرير (أو الغريد كما فى طبعة إبراهيم صديق ص ٩١ ، أو الغريد كما فى شجرة النسب المقابلة ص ٢٧٢ ج ٢ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل) هو من نسل غلام الله ؛ لأنه ابن ركاب بن غلام الله . ويضاف إلى هذا أن زيدا هذا هو حفيد غلام الله ، أى بينهما جيل واحد ، فكأن المدة بين حياة غلام الله (فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر كما سيجىء) وبين زيد هذا هى نحو ستين سنة ، أى أن زيدا عاش فى منتصف القرن الخامس عشر فى عهد العنج ، قبل ظهور الفونج ، مما ينطبق تمامًا على وصف إبراهيم بن عبدالدافع .

كذلك انظر ص ٨٤ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ٤ من مخطوط تاريخ السودان وأقاليمه لإبراهيم عبد الدافع .

وقع نعوم شقير بك فى كتابه تاريخ السودان ج٢ ص ٧٦ فى خطأ كبير حين قال : إن محمود العركى قدم من مصر فى عهد الملك عدلان (١٠١٣ ـ ١٠٢٠هـ) أى فى القرن الحادى عشر . ولعل السبب فى هذا الخطأ أن ظهور محمود العركى فى عهد الشيخ عجيب المانجلك شيخ قرى . والشيخ عجيب هذا تولى مشيخته فى حكم الملك عمارة أبوسكيكين (٩٦٢ ـ ٩٧٠هـ) حوالى سنة ٩٦٥هـ . وقتل فى حكم الملك عدلان بن أبه (١٠١٢ ـ ١٠٢٠ ـ) ويظهر أن شقيرا بنى رأيه على أن محمود العركى قدم من مصر فى السنوات الأخيرة من مشيخة عجيب المانجلك أى فى عهد الملك عدلان . وهذا خطأ فى التقدير .

شريف من أهالى حضرموت ، وكان فى مدة البندارى شيخ الشيخ إدريس فى المكتب . وكذلك الشيخ إدريس قرأ عليه (على حمد ولد زروق) وشهد له بجلالة القدر ، وإنما ذكرنا هذا لكون للؤرخ المذكور لم يطلع على تواريخ بلاد النوبة ، وما صار فيها من الحرب[1] والصلح .

ونحن نؤيد احتجاج ابن عبد الدافع ، ونرى أيضًا أن بلاد النوبة السفلى ، كانت كما ذكرنا أسبق إلى الإسلام وتلقى تعاليمه من النوبة العليا ، فقد كانت الأولى أول المواطن لهجرات القبائل العربية إلى السودان ، كما أن الإسلام كان قد أخذ ينتشر فيها من أوائل القرن الرابع عشر بعد أن صار ملكها مسلمًا[2] . ومن الطبيعى أن يقوم بين مسلمى النوبة السفلى علماء ، من طراز ما ، يبشرون بالدين وبين غير المسلمين ، وينشرون تعاليمه وأحكامه ، بين حديثى العهد بالإسلام والراسخين فيه .

وتدلنا أوراق النسب المخطوطة والتى[3] لا تزال محفوظة عند ذويها من الأسرات السودانية على أن غلام الله بن عايد قدم من قرية تسمى حلية ، هى من قرى جزيرة نواوة التابعة لبلاد اليمن ، وسكن بجزيرة من جزائر المالح اسمها ساكية ، ومنها خرج إلى أرض دنقلة وسكن بها ، لأنها كانت فى غاية من الحيرة الشديدة والضلالة لعدم وجود القرآن أو العلماء بها . فلما أن حل فيها عمر المساجد وقرأ القرآن وعلم العلوم مباشرة لأولاده وتلامذته أولاد المسلمين ، وكان قدوم غلام الله فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر[4] ومات ودفن فى دنقلة العجوز حيث لاتزال قبته هناك[5] .

---

(١) ص ٥ من مخطوط إبراهيم بن عبد الدافع . يأخذ إبراهيم على صاحب الطبقات مآخذ أخرى غير ما ذكرنا فهو يقول فى ص ١٠ من مخطوطه : إن كتاب الطبقات غير مرتب ، وفيه التقديم والتأخير ، والتبديل والتغيير ، ولكن الذى يقارن تاريخ السودان بالطبقات لا يجد خلافًا كبيرًا فى الجزء التاريخى .

(٢) ينص ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٩ على أن الملك عبد الله نشلى هو أول من اعتنق الإسلام من ملوك النوبة السفلى وكان مقره فى دنقلة سنة ٧١٦ (١٣١٧م) راجع كذلك كتاب السلوك للمقريزى وتجد فيه اسم الملك عبد الله سنبو .

(٣) نقلا عن نسخة خطية من نسبة الركابية ، وهذه النسخة محفوظة عند الشيخ طه الشقدى عمدة جزيرة الفيل (قرية خارج ود مدنى) . والشقدى هذا أصله ركابى . والركابيون فرع من غلام الله وتنص النسبة على أن الشيخ غلام الله هوا بن السيد عائد بن السيد مقبول بن الشيخ أحمد بن الشيخ عمر الزيلعى . وسلسلة النسب تنتهى إلى على رضى الله عنه فهو إذًا شريف .

(٤) ص ٣٥ج٢ من كتاب تاريخ العرب فى السودان للسير هارولد مكميكل .

(٥) ص ١٥٩ الطبقات طبعة منديل

وإذاً فقد أخطأ صاحب الطبقات فى زعمه أن محمود العركى كان أول من علم الناس أحكام الدين فى السودان ، والحقيقة أن مساجد العبادة والتدريس كانت قد انتشرت من النوبة السفلى إلى الجنوب حتى وصلت إلى قرية الصبابى وقرية بندار ، وإن لم يكن انتشارها كثيراً ، . ودليلنا على ذلك ما أشار إليه إبراهيم بن عبد الدافع ، متفقاً فى ذلك مع صاحب الطبقات من أن الشيخ إدريس الذى ولد سنة ٩١٣ ، أى بعد تأسيس مملكة الفونج بثلاث سنوات ، بدأ تعلم القرآن عند الشيخ البندارى ، وكذلك دخل المكتب عند الشيخ حمد ولد زروق (الحضرموتى) اليمنى فى قرية الصبابى[1] ، ومن المعقول إذاً أن كلا من الشيخين ، البندارى وحمد ولد زروق كان يعلم فى كتبه قبل تلميذة إدريس الأرباب عليها بمدة ، وقد يكون بدء تدر يسهما قبل تأسيس مملكة سنار .

كان إذاً قدوم محمود العركي من مصر إلى السودان فى عهد ظهرت فيه مساجد للعلم ، ومكاتب لتعليم القرآن . ولكن يظهر أن منطقة النيل الأبيض وما يليها من جزيرة سنار (جزيرة الهوى) كانت خالية من معاهد العلم ومساجده ، فمحمود هذا ـ كما تشير المصادر المكتوبة يؤيدها كثير من الروايات الشفهية الشائعة الآن ـ هو أول من نشر أحكام الدين الإسلامى فى جزيرة الهوى (جزيرة سنا . من ناحية النيل الأبيض) ، وذلك بتأسيس سبع عشرة مدرسة ما بين الحسانية (توتى) وأليس (الكوة) ، وهو أول من فقه الناس وأمرهم بالعدة[2] ؛ وإذا كان محمود العركى قد تتلمذ على الشيخ شمس الدين اللقانى الذى توفى سنة ٩٣٥ ، فإن قدومه إلى السودان كان غالبًا فى العقد الرابع من[3] القرن العاشر ، وهو تاريخ يفهم من كل المصادر المخطوطة ، وفى استطاعتنا إذا أن نقرر أن محمودا هذا كان من أوائل السودانيين ـ إن لم يكن أولهم ـ الذين درسوا فى مصر ، وفى الجامع الأزهر .

---

(١) ص ٧ من الطبقات طبعة منديل وكذلك ص ٥ من مخطوط ابن عبد الدافع .

(٢) ص ١٥٥ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) يقول السير هارولد مكميكل فى ص ١٠ من الجزء الثانى من تاريخ العرب فى السودان : «أن أولاد جابر كانوا بعد محمود العركى بجبيل . ومحمود ظهر فى منتصف القرن السادس عشر للميلادى أى قبل منتصف العاشر الهجرى ونحن قد أشرنا فى هامش رقم ١ من ص ٦٦ إلى أن رجوع إبراهيم البولاد من مصر كان حوالى سنة ٩٧٠هـ وإذاً يكون قدوم محمود العركى من مصر ما بين سنة ٩٣٥ وسنة ٩٤٠هـ .

وإذاً فقد ظهر لنا أن بلاد السافل وشرقى النيل الأزرق كانت أعرف بالإسلام ، وأحكامه وتعاليمه ، من منطقة النيل الأبيض . ولا بد أن نذكر أن إسلام العرب والفونج الذين أسسوا دولة الفونج كان اسميًا فقط (١) .

تلك هى أصح الروايات المكتوبة عندى وأكثرها شيوعًا ؛ ولكن الروايات الشفهية تختلف اختلافًا يدعو إلى الشك فى حقيقتها بجملتها ، ولذلك نسجل هنا بعض هذه الروايات الشفهية احترامًا لها كرواية لا باعتبارها حقيقة يعتد (٢) بها .

---

(1) No doabt the Fung and Arabs who overran the kingdoms of Dongola ans Alwa were Muslims before the fina victory, but their adherence to Islam semms to hava been more than nominal until there arrived in their midst, that first generation of scholars who startes a tradition of prea. ching and teaching

(Vol. VI, Year 1923, P. 204,Sudan Notes and Records)

(٢) من الصفات العربية التى لاتزال بينة فى السودان الآن الاعتداد بالنفس وبالأسرة وبالقبيلة . ومن مظاهر هذا الاعتداد أنك حين تسأل شخصًا عن أول من نشر العلم فى البلاد قد يجيبك بأنه الجد الأول لأسرته أو قبيلته . ومن ذلك الحادثتان الآتيتان :

(أ) اتصلت بالشيخ شمس الدين حنفى - المدرس بالمدرسة الأولية بواد مدنى وذلك فى ١٩٤٠/٤/١٢ - وهو من أولاد عيسى المشهورين بجهة المسيد ودار بيننا حديث ألخص منه الحوار الآتى :

- ماهو أول مسجد أسس للصلاة والعلم فى السودان؟

الشيخ شمس الدين - هو مسجد الأنصار بكتران (قطر العنج) شرقى المسيد وذلك بعد سنة ٩٠٠ للهجرة .

- ماذا تعرف عن تأسيس هذا المسجد وتطوره؟

الشيخ شمس الدين - إن عيسى بن بشارة الأنصارى الخزرجى ولد بالمدينة المنورة ، وطلب العلم فى الأزهر فى زمن زكريا الأنصارى (مات سنة ٩٢٦هـ) وبرهان الدين بن أبى شريف ، وكذلك البنوفرى وغيرهم . ثم جاء من مصر إلى السودان بعد التسعمائة ، وحل فى عرب رفاعة . وكانوا بدوا حينذاك . فتزوج منهم ، وأسس مسجد كتران . وبنيت حوله الحلة القائمة الآن ، واسمها أيضا «كتران» .

وكان عيسى المذكور يعلم القرآن وعلوم الدين فى هذا المسجد إلى أن توفى فخلفه ابنه عبد الدائم . . إلخ (انظر الملحق رقم ٥ ص ١٨) ومن الحوار يظهر كيف أن الشيخ شمس الدين يعزو إلى أسرته تأسيس أول مسجد للصلاة والعلم فى السودان .

(ب) زرت الشيخ الجليل الشيخ أبا القاسم دفع الله فى حلة الحديبة بقرب أبى حراز . وكان يصحبنى فى هذه الزيارة ابن بنته حضرة الضابط أحمد أفندى عبد الله من ود مدنى . ودار بيننا حديث طويل أجاب فيه عن كثير من الأسئلة التى وجهتها إليه من ذلك .

كيف دخل التعليم السودان؟

الشيخ أبو القاسم - كانت بلاد السودان قد غلب عليها الجهل لخلوها من العلماء الراشدين فقام الشيخ عبد الله بن مقبل المنسوب إلى العركيين وتوجه إلى دنقلة . وكان بها أولاد جابر ، فقرأ عليهم العلم ، حتى أجازوه فى المذاهب الأربعة . فرجع وجلس للتدريس فى أبى حراز . وتعلم عليه خلق كثير - منهم محمود العركى صاحب القصر - وبذلك نشر العلم بالسودان . . . إلخ (انظر الملحق رقم ٥) .

وهنا يقرر الشيخ أبو القاسم دفع الله (عليه رحمة الله) أن محمود العركى تتلمذ على جده الأكبر الشيخ عبد الله بن مقبل العركى ، الذى تعلم على أولاد جابر . وهذا يناقض الرواية الشائعة الصحيحة التى سنبسطها من أن محمودا العركى سبق أولاد جابر فى نشر العلم .

وكان النصف الثانى من القرن العاشر أكثر ازدهاراً بالثقافة الإسلامية من النصف الأول ؛ فقد ظهر فيه كثير من حملة مشاعل العلم الذين وفدوا إلى بلاد السودان ، ويحدثنا مؤلف تاريخ السودان وأقاليمه فى مدة [1] الشيخ عجيب [2] «حضر الشيخ إبراهيم بن جابر المعروف بالبولاد من المحروسة . وكان تفقه على الشيخ محمد البنوفرى [3] وهو أول من درس مختصر الشيخ خليل المالكى ببلاد الفونج ، وتخرج على يده جماعة ، وانتفع به خلق كثير» .

وإذاً فقد تتلمذ إبراهيم البولاد على مصرى حجة فى مذهب المالكية ، كان يشار إليه بالبنان فى ذلك العهد ، وكان يلقب بإمام المالكية ، وبالحجة الشمس وكان صالحًا زاهدًا ورعًا . نعم تتلمذ البولاد على هذا الإمام ورجع إلى قومه ينشر بينهم مذهب المالكية ، ويدرس مختصر خليل ، ولا غرابة أن نرى إبراهيم هذا من أسبق أهل السودان إلى طلب العلم فى مصر ، فهو من بيت علم وفقه ، إذا إنه أكبر أولاد جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله الركابى . وغلام الله هذا هو الذى أشرنا إلى قدومه ـ من قرية الحلية باليمن ـ إلى دنقلة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى . ويظهر أن تدريس القرآن العلم قد استمر فى أسرته طيلة هذه المدة .

---

(١) صفحة ١٥ وما يليها .

(٢) يريد الشيخ عجيب كافوت الملقب بالمانجلك . وفى سنة توليته على مشيخة قرى خلاف يتلخص فى أن مؤلف الطبقات (ص ٤ طبعة منديل وص ٥ إبراهيم صديق) يذكر أن دولة الشيخ عجيب هذا استمرت إحدى وأربعين سنة ، وتوفى سنة ١٠١٩هـ . ومعنى هذا أن الشيخ عجيب تولى سنة ٩٧٨هـ فى عهد الملك دكين ولد نايل الملقب بالعادل (٩٧٠ ـ ٩٨٥هـ) وهذا غير صحيح إذ أن الثابت هو أن الشيخ عجيب تولى بعد وفاة أبيه عند الله جماع شيخ ترى فى عهد الملك عمارة أبوسكاكين (٩٦٢ ـ ٩٧٠هـ) وأنه قتل سنة ١٠١٩هـ فى عهد الملك عدلان بن أبه (١٠١٣ ـ ١٠٢٠هـ) وإذ لابد لتصحيح هذا الخطأ من أن نصحح مدة الحكم الشيخ عجيب التى ذكرها صاحب الطبقات فنجعلها إحدى وخمسين سنة بدلا من إحدى وأربعين . وبذلك يكون الشيخ عجيب قد تولى فى سنة ٨٦٨ أى فى عهد عمارة أبو سكاكين . وذلك بطرح ٥١ من ١٠١٩ فينتج ٩٦٨ كما ذكرنا وهو الصحيح .

(٣) الشيخ محمد البنوفرى المصرى هو الفقيه الصالح الزاهد الورع . من أعيان فقهاء مصر . كان مشهوراً بالدين والخير والورع والزهد . أخذ عن الناصر اللقانى والتاجورى وغيرهما . وانفرد أخيراً برياسة المذهب (يعنى مذهب مالك) مع شهرة بالديانة . كان على ما قيل يختم إقراء مختصر خليل فى أربعة أشهر ، ويمشى لرباط الإسكندرية أربعة أشهر ، ويحج فى أربعة أشهر . هذه حاله فى العلم . توفى فى حدود سة ٩٩٨هـ (صفحة ٣٤٠ من نيل الابتهاج بتطريز الديباج تأليف أحمد بابا) ، وقد عثرت فى ترجمة الشيخ على الأجهورى (ج٣ ص ١٥٧ من خلاصة الأثر من أعيان القرن الحادى عشر) على أن الشيخ الأجهورى هذا تتلمذ على إمام المالكية فى عصره الشيخ محمد بن سلامة البنوفرى .

كذلك عثرت على إشارة للشيخ محمد البنوفرى المالكى فى ترجمة الشيخ سالم السنهورى (ص٢٠٤ج٢ من خلاصة الأثر) فيها أن الشيخ السنهورى تلقى العلم على الإمام الكبير الحجة الشمس محمد البنوفرى المالكى .

وكان من أفرادها عدد يتردد على مصر ، كما سنرى بعد . وهكذا ظهر أولاد جابر ، وكانوا مشهورين بالصلاح والتقوى .

وقد ولد إبراهيم هذا فى جزيرة تَرْنَج بدنقلة . ثم ذهب إلى مصر ، وتفقه هناك فى الأزهر على الشيخ محمد البنوفرى ـ وغيره من الشيوخ طبعًا ـ وأخذ عليه الفقه والأصول والنحو ، ثم رجع إلى جزيرة تَرنَج ـ من ديار الشابقية ـ فى أول حكم الشيخ عجيب المنجلك [(١)] وكان أول من درس كتاب مختصر خليل فى بلاد الفونج . وكذلك درس الرسالة [(٢)] ، وشدت إليه الرحال . وعلم فى مدرسته أربعين [(٣)] إنسانًا . وكانت دراسته لمختصر خليل سبع مرات [(٤)] ولم تطل مدة تدريسه أكثر من سبع سنين [(٥)] .

هذا ، وفى أول النصف الثانى [(٦)] من القرن العاشر أيضًا ، وفى عهد الشيخ عجيب ، قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى تلميذ الشيخين [(٧)] سالم السنهورى ويوسف [(٨)] بن عبدالباقى

---

(١) يدلنا على هذا التاريخ أن عبد الرحمن بن جابر ـ وهو أصغر من إبراهيم البولاد وتلميذه ـ كان يدرس للناس قبل سنة ٩٨٢ بسنوات (راجع صفحة ٣٢ طبعة منديل) فلو فرضنا أنه بدأ التدريس سنة ٩٧٥ وكان إبراهيم أسبق منه بخمس سنوات أمكن القول بأن إبراهيم رجع سنة ٩٧٠هـ .

(٢) المراد بها الرسالة التى ألفها ابن أبى زيد القيروانى .

(٣) ص ٥ وص ١٠٨ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ٥ من طبعة منديل . وفيها نجد العبارة (ومدرسته فى خليل سبع ختمات) .

(٥) ص ١٠٨ من طبعة منديل حيث نجد عبارة (فإن البولاد تدريسه سبع سنين) .

ومن هذا يفهم أن كل ختمة من ختمات خليل كانت تتم فى سنة . هذا وقد انتشرت آثار البولاد حتى فى كردفان فإن الفقيه بشارة بن على بن موسى ـ وكانت أسرته تسكن غربى جزيرة ترنج ـ ذهب إلى الشيخ إبراهيم وتلقى عليه الفقه . ومن أولاد بشارة فرع ذهب إلى كردفان وعلم الناس (ص ٧١ ج٢ تاريخ العرب فى السودان لمكميكل) .

(٦) ص ٣٠ من الطبقات طبعة منديل .

(٧) هو سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهورى الحاكم المصرى المالكى ، الإمام الكبير ، المحدث ، الحجة ، الثبت ، خاتمة الحفاظ . كان أجل أهل عصره من غير مدافع . وهو مفتى المالكية ، ورئيسهم ، وإليه الرحلة من الآفاق فى وقته . واجتمع فيه من العلوم مالم يجتمع فى غيره ، مولده بسنهور . وقدم إلى مصر وعمره ١١ سنة . وأخذ عن الإمام محمد بن أحمد الغيطى ، وعن الإمام الكبير الحجة الشمس محمد البنوفرى المالكى . وأدرك الناصر اللقانى . وأخذ عنه الجم الغفير من أهل مصر والشام والحرمين منهم البرهان اللقانى ، والنور الأجهورى . وله مؤلفات كثيرة منها حاشية على مختصر خليل وكانت وفاته ثالث جمادى الآخرة سنة ١٠١٥هـ خمس عشرة بعد الألف . ودفن بمقبرة المجاورين (بتلخيص من صفحة ٢٠٤ بالجزء الثانى من خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) .

(٨) هو يوسف بن عبد الباقى والد الشيخ عبد الباقى الزرقانى . وكان من أئمة المالكية وعلماء الأزهر ، وتتلمذ عليه خلق كثير من مصر وغيرها . وله شرح على مختصر وتعليقات على رسالة ابن أبى زيد القيروانى . ومات فى أواخر القرن الحادى عشر .

الزرقاني . فدخل سنار وأريجي ، ورجع إلى بربر[١] وأقام بها ، وبنى مسجدًا هناك ، وقام فيه بتدريس الفقه ، والعقائد ، والنحو ، وسائر العلوم . وولي القضاء وباشره بعفة وأمانة ، وكان من تلاميذه محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة ، فقرأ عليه العقائد والمنطق وعلوم القرآن[٢] .

وهذا الشيخ القناوى مالكى المذهب أزهرى الثقافة ، تتلمذ كما رأينا على أعلام المالكية وأئمتهم في ذلك العهد ، وهو ممن نقلوا الثقافة الإسلامية المالكية الأزهرية إلى السودان .

وإذًا فقد ظهرت الثقافة الدينية أول ما ظهرت فى السودان على يد غلام الله بن عايد اليمنى ، وبعد ذلك بأكثر من قرن ظهر البندارى زروق . ثم ظهر محمود العركى الذى تعلم فى مصر ، وبعد ذلك بنحو جيل ظهر إبراهيم البولاد بن جابر [٣] . وكان محمود فى منطقة النيل الأبيض وما يليها من جزيرة سنار ، وكان إبراهيم فى جهة دنقلة ، وكلاهما ولد فى السودان ـ وإن كان أحدهما عراقى الأصل والثانى يمانيًا ـ وكلاهما جاور فى الأزهر ، الذى كان حينذاك مركز الثقافة لجميع الأمم الإسلامية . وكان الشيخ محمد القناوى المصرى رسولاً آخر من رسل الثقافة الأزهرية التى أخذت تنتشر فى السودان . وقد جعل مقره مكانًا وسطا بين دنقلة وجزيرة سنار وهو قرية بربر .

وممن قدموا إلى السودان من مصر فى النصف الثانى من القرن العاشر الشيخ محمد بن على بن قرم ـ تلميذ الخطيب [٤] الشربينى ـ وقد استقر فى دار بربر أيضًا . وجاء معه بمذهب الشافعية وقام بتدريسه فى أريجى وبربر [٥] وأخذ عنه كثير من الطلبة [٦] . والغالب أن قدومه

---

(١) ص ١٦ تاريخ السودان وأقاليمه (مخطوط) .

(٢) ص ١٥٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) قالوا إنما سمى بالبولاد لأن رجلا حلف أن يُدخل بيته ما خلقه الله ، فذهب إليه يستفتيه . فأفتى بوضع المصحف على سريره . واستدل بقوله تعالى ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾ «قرآن» . فقال له شيخه (؟) أنت بولاد البر . فمن ذلك الوقت صارت تسميته بالبولاد . (صفحة ٥ من الطبقات طبعة منديل) .

(٤) هو شمس الدين محمد الشربينى الخطيب من شيوخ الأزهر فى القرن العاشر الهجرى ومن الأعلام فى مذهب الشافعية . وله من المؤلفات كتاب الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع (فى جزئين) شرح مناهج الطالبين للنووى ، والسراج المنير فى التفسير . وتوفى سنة ٩٧٧هـ .

(٥) ص ٢٠ من الطبقات طبعة منديل وكذلك ١٦١ من الطبعة نفسها .

(٦) مثل عبدالله العركى ، والقاضى دشين والشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو ، والشيخ إبراهيم الفرضى .

كان حوالى سنة ٩٧٠هـ . ذلك لأن من تلاميذه القاضى دشين قاضى أريجى ، الذى تولى القضاء فى عهد الشيخ عجيب المنجلك بأمر [١] من الملك دكين (٩٧٠ ـ ٩٨٥) .

ولم يكن مذهب الشافعية معروفًا فى السودان قبل ابن قرم ، ولاهو مذهب أهل الصعيد ، وإنما هو مذهب أهل القاهرة ومصر السفلى فى ذلك الحين ، وإذًا نستطيع القول بأن مصر هى صاحبة الأثر فى نشر المذهب المالكى فى السودان ، وهى التى بعثت أيضًا بمذهب الشافعية [٢] على يد مؤسسه هناك الشيخ محمد بن على القرم ، تلميذ الشيخ محمد الخطيب الشربينى ، وما أدراك ما الخطيب الشربينى فى ذلك العهد .

وكان أولاد جابر [٣] قد اشتهروا بتدريس العلم فى النصف الثانى من القرن العاشر . ومن هؤلاء عبدالرحمن [٤] الذى ورد منهل العلم فى الأزهر أيضًا ، وتتلمذ على الشيخ محمد البنوفرى ، بعد أن درس على أخيه إبراهيم البولاد ، ولما رجع عبد الرحمن من مصر نهج منهج أستاذه البنوفرى الذى كان يمضى أربعة أشهر فى القاهرة ، وأربعة فى الإسكندرية ، وأربعة يحج فيها إلى بيت الله ، فقد اتخذ عبدالرحمن ثلاثة مساجد لتدريس فقه المالكية وسائر الفنون : أحدهما فى دار الشايقية ، والثانى فى كورتى ، والثالث فى دنقلة الدفار ، وكان يقرأ فى كل مسجد أربعة شهور [٥] .

---

(١) فإذا فرضنا أن القاضى دشين تولى القضاء سنة ٩٧٥ كان من الجائز أن تكون تلمذته على الشيخ محمد بن على المصرى قبل ذلك بخمس سنوات .

(٢) يذكر أصحاب الطبقات أن ظهور هذا المذهب كان أولاً بمصر ، وكثر أصحابه بها ، ثم ظهر بالعراق ، وغلب على بغداد ، وعلى كثير من بلاد خراسان والداغستان ثم ظهر بتوران والشام واليمن . ودخل ما وراء النهر ، وبلاد فارس والحجاز وبعض الهند . ودخل شىء منه إفريقيا والأندلس بعد سنة ٣٠٠هـ (من رسالة المرحوم أحمد تيمور الخاصة بالمذاهب الأربعة) هذا وقد أخذ مذهب أبى حنيفة ينتشر ويحل محل مذهب مالك والشافعى ، ولاسيما بين المتعلمين وذلك بعد أن صار المذهب الحنفى مذهب الدولة التركية الذى عليه التعبد والتدريس فى مدارس الحكومة .

(٣) أولاد جابر أربعة . أعلمهم إبراهيم ، وأصلحهم عبد الرحمن ، وأورعهم إسماعيل ، وأعبدهم عبد الرحيم . وكانت لهم أخت تسمى فاطمة هى أم صغيرون بن سرحان . وكانت نظيرتهم فى العلم والديانة ، وقد دفنوا بجزيرة ترنج من دار الشايقية وقبورهم ظاهرة تزار (ص ١٠٥ من الطبقات طبعة منديل) .

(٤) لمعرفة تاريخ ظهور عبد الرحمن بن جابر ارجع إلى ص ٣١ من الطبقات تحت عنوان إبراهيم بن أم رابعة وإجازته سنة ٩٨٢هـ .

(٥) ص ١٠٤ طبعة منديل .

وفى هذا العهد الذى أخذت فيه مساجد العلم تظهر وتنتشر علوم الإسلام وفد إلى السودان شيخ من شيوخ الصوفية يسمى تاج الدين البهارى البغدادى . وهو من خلفاء الشيخ عبدالقادر الجيلانى (٤٧١ - ٥٦١ هـ) - (١٠٧٩ - ١١٦٦م) قدم من الحجاز مع داود بن عبدالجليل أحد التجار الذين كانوا يسافروا كثيرًا إلى الحجاز [١] . وهناك فى أم شعير تزوج وأقام لسبع سنوات تمكن فيها من إدخال مذهب الصوفية والطريقة الجلانية ، وذلك بتسليك عدد من المريدين الذين قاموا - بعد عودة شيخهم إلى الحجاز - بتسليك آخرين ، ونشر هذه الطريقة فى السودان .

أما تاريخ قدوم تاج الدين فلا نستطيع تحديده بالضبط . فصاحب الطبقات يرى أن قدومه كان فى أول النصف الثانى من القرن العاشر [٢] وفى أول حكم الشيخ عجيب (٩٦٨ - ١٠١٩هـ) وفى مكان آخر من الطبقات [٣] نجد أن قدوم الشيخ تاج الدين كان فى الوقت الذى اشتغل فيه عبدالله بن دفع الله العركى بالتدريس فى غابة الهلالية . وكان ذلك بعد أن أتم أيام تلمذته عند الشيخ ابن جابر (حوالى سنة ٩٨٠هـ) . فالراجح إذًا أن قدوم تاج الدين كان حوالى سنة ٩٨٥هـ فى أول حكم الشيخ عجيب . وعلى أية حال فقد ظهر بجوار شيوخ الفقه والسنة شيوخ آخرون صوفيون . وانتشرت مع الثقافة الدينية السنية ثقافة أخرى صوفية كانت سائدة أيضًا فى العالم الإسلامى كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وسنعقد فصلا خاصًا بالصوفية فى السودان .

أما أصل تاج الدين البهارى ونسبه ومولده فهذا ما يحتاج إلى تحقيق . فالروايات المخطوطة السودانية ، والشفهية فى السودان تدل على أن مولده [٤] ببغداد ، وأن نعته بالبهارى مأخوذ من قولهم قمر باهر أى مضىء . وذلك لضياء وجهه [٥] وهذه الروايات موضع شك عندى . إذ إن صيغ النسب ليس فيها - حتى فى الدارجة منها - ما يدل على أن بهارى نسبة إلى باهر أو بهر ، ولا أرى

---

(١) والشائع هو أن عبد الجليل كان يعيش فى الحجاز ، وأن ابنه داود وفد إلى السودان وسكن أربجى . وقد كان داود تاجرًا واسع التجارة . وخلفه فيها ابنه الحاج سعيد .
(See p. 64 Notes on Tribed and Prominent Families in the Blue Nile Province edited by Raid).

(٢) ص ٤٢ طبعة منديل .

(٣) ص ١٠٥ طبعة منديل .

(٤) ص ١٦ من تاريخ ملوك السودان وأقاليمه (مخطوط) وفيها أن تاج الدين البهارى قدم من بغداد فى عهد الشيخ عجيب .

(٥) ص ٤٢ من الطبقات طبعة منديل .

لماذا لاتكون النسبة إلى «بهار» Bihar . وبهار هذه بلدة ومقاطعة [١] فى الهند ، فتحها المسلمون فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (١١٩٧) وقد ظلت مدينة بهار عاصمة المقاطعة ثلاثة قرون[٢] .

ومن الثابت أن الطريقة القادرية الجيلانية قد انتشرت ، بعد موت صاحبها ، وفى الهند وتركستان وشبه جزيرة العرب ومصر وإفريقيا الشمالية ، وفى جميع أنحاء العالم الإسلامى [٣] . وقد ظلت بغداد بعد وفاة مؤسس الطريقة عدة قرون مركز الجاذبية الصوفية يأوى إليها ، ويتطلع كل عناصر الطرق [٤] القادرية والقوية ، فمن المحتمل والحال هذه أن تاج الدين الهندى الأصل من مقاطعة بهار ، وأنه كان من مريدى الطريقة الجيلانية ، وأنه وفد إلى بغداد كغيره من المريدين للدرس والتبرك بضريح السيد عبدالقادر ، والمجاورة فى زاويته ، وسواء أكان قدوم تاج الدين هذا إلى بغداد بنفسه أو مع أسرته التى استقرت هناك ، فإن الراجح عندى أنه هندى الأصل بهارى المقاطعة ، وأنه تلقى ثقافته الصوفية فى بغداد [٥] ويجب ألا نستبعد قدوم تاج الدين من الهند فقد كان بالسودان فى ذلك الوقت غيره من الهنود مثل محمد الهندى [٦] .

---

(١) فى دائرة المعارف الإسلامية أنها فى ولاية البنجاب . واسمها مشتق من «Vihara» أى معبد البوذيين . وفيها تكثر آثار المعابد القديمة . ومنها عدد من المسلمين المشهورين . وتذكر دائرة المعارف من علماء المسلمين الذين اشتهروا فيها ثلاثة : منهم محب الله بن عبد الشكور البهارى الذى كان أشهر علماء زمانه ، والذى تولى القضاء فى حيدر أباد فى عهد الإمبراطور غلا مجير ، وكان مربيًا لحفيده رفيع القدر بن محمد معظم ، وبعد موت غلا مجبر خلفه ابنه محمد معظم باسم الامبراطور شاه غلام أول ، ومنح محب الله لقب فاضل خان ، وجعله قاضى القضاة لجميع امبراطورية المغول . ومات محمد الله سنة ١١١٩هـ (١٧٠٧م) وله من المؤلفات : الجوهر افرد ، مسلم الثبوت ، سلم العلوم فى المنطق - راجع كذلك ص ٥٩٤ج١ من معجم المطبوعات العربية ليوسف سركيس فهو يتكلم عمن لقب بالبهارى من العلماء . وإذا فليس غريبًا أن يكون تاج الدين البهارى أحد علماء هذه المقاطعة ومن رجال الصوفية فيها الذين لم تصل إلينا ترجمتهم . ومعنى هذا أن علماء هذه المقاطعة ساهموا فى الثقافة الإسلامية .

(٢) ص ٥٦٦ من كتاب Histopy of the Moslem world لمؤلفه K.B Ahsanullah

(٣) انظر ص ١٥٤ من كتاب Les Cornfréries Rel. Munslmanes .

(٤) ص ٢٩٩ من كتاب Les Cornfréries Rel. Munslmanes .

(٥) عاش الشيخ عبد القادر الجيلانى سنة ١٠٧٩ إلى سنة ١١٦٦ م أى قبل أن يفتح المسلمون مقاطعة بهار بثلاثين سنة . ومما لاشك فيه أن طريقة القادرية قد أخذت تنتشر فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

Les fils de cheikh Abdel Kader ont Iaissé une nombreuse posterité et des coadiuteurs Zélés au Indes dans le Turkeston, en Arabie en Egypte, et dans I'Afrique septentionale et aux quatre coin des Pays soumis a la Loi de Mohamed Baghad demeura de longs siécles le centre d' attraction aboutissaient tous les elements de la puissanto confrérie de qadria (P.299 Confrérie Rel. Musulma.

(٦) ص ٣٥ من الطبقات طبعة صديق .

وقدوم تاج الدين البهارى من الحجاز مع أحد التجار السودانيين يشير إلى تلك الصلات التجارية والثقافية أيضا التى كانت بين السودان والبلاد المقدسة ، لا بل وغيرها من بلاد آسيا الإسلامية عن طريق تجارة الرقيق ، ووفود الحاج .

ومن العلماء الذين وفدوا إلى السودان فى أواخر القرن العاشر ، أو أوائل الحادى عشر العجرى شيخ يسمى التلمسانى المغربى «قدم على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب (بدنقلة) وسلكه طريق القوم ، وعلمه علم الكلام ، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها ، وأنتشر علم التجويد والتوحيد فى الجزيرة لأنه أخذ عليه القرآن عبدالله الأغبش من بربر ، ونصر والد الفقيه أبوسنينة[1] فى أربجى .

ويفهم من رواية الطبقات أن قدوم التلمسانى كان بعد قدوم تاج الدين وقبل قدوم محمد المصرى الذى أشرت إليه ، أى حوالى سنة ٩٩٠هـ ولكنى أرى أن قدوم التلمسانى كان بعد قدوم محمد [2] المصرى . وذلك فى أواخر القرن العاشر إن لم يكن فى أوائل القرن الحادى عشر ذلك لأن التلمسانى قد تتلمذ عليه محمد بن عيسى سوار الذهب ، وهذا الأخير كان قد تتلمذ من قبل على والده ، وقرأ عليه مختصر خليل فى الفقه [3] ، وأن والده ـ عيسى سوار الذهب ـ كان تلميذاً لعبد الرحمن بن جابر الذى اشتهر حوالى سنة ٩٨٠هـ . فمن المعقول إذاً أن التلمسانى جاء إلى السودان متأخراً عن العهد الذى ظهر فيه ابن جابر بنحو نصف جيل على الأقل . وكان محمد المصرى قد قدم إلى السودان فى أول النصف الثانى من القرن العاشر فى زمن الشيخ عجيب ، وسكن بربر ، وأسس بها مسجده لتدريس الرسالة والعقائد والتجويد والمنطق وعلوم القرآن .

وتتلمذ عليه محمد [4] بن عيسى سوار الذهب كما ذكرنا فى هذا الكتاب . ويؤيد هذا الرأى رواية مؤلف تاريخ ملوك السودان [5] وأقاليمه فإنه يذكر قدوم التلمسانى على محمد ولد عيسى سوار الذهب فى أواخر الحوادث التى وقعت فى عهد الشيخ عجيب .

---

(١) ص ٥ من الطبقات طبعة صديق .

(٢) كان محمد بن عيسى سوار الذهب تلميذاً لمحمد المصرى قبل أن يكون تلميذاً للتلمسانى (ص ١٦٥ طبعة إبراهيم صديق) .

(٣) ص ١٦٥ من الطبقات طبعة صديق .

(٤) ص ٣٠ و ص ١٥٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٥) ص ١٦ من المخطوط المشار إليه .

ولا نعرف شيئًا عن حقيقة هذا التلمساني (١) أكثر من أنه وفد إلى المغرب وأنه سلك طريق القوم ، وعلم علوم القرآن ، وعلم الكلام ، ومن المعروف أن تلمسان بلدة ذات شهرة دينية صوفية فليس غريبًا إذا يكون الشيخ التلمساني قد جاء معه بطريقة من طرق التصوف المشهورة في عهده ، والتي ترجع في أصلها إلى الطريقة القادرية الجيلانية (٢) .

ولم يذكر التلمساني هذا في طبقات ود ضيف الله أكثر من مرة . ولم تشتهر عنه في السودان طريقة خاصة وليس لدينا مايثبت أن التلمساني قد ترك أثرًا في تكييف الثقافة الإسلامية الأولى بالسودان أو توجيهها ؛ وإن كنا لا ننكر أنه علم محمد بن عيسى شيئًا من العلم ، وسلكه طريق القوم .

وبعد ، فإن القرن العاشر الهجري (٣) (السادس عشر الميلادي) ليمثل لنا عهد انتقال سريع في السودان ، انتقال من سيادة المسيحية المتهدمة والوثنية الفطرية إلى سيادة الإسلام البدوي

---

(١) يقول الشيخ شمس الدين الحنفي المدرس بمدرسة مدني الأولية والحجة في تاريخ السودان إن اسمه كان الشريف محمد التلمساني . ولكن يظهر أن لقب «الشريف» كان يطلق كثيرًا على من وفد من المغرب .

وتلمسان بلدة في مراكش على حدود الجزائر . وقد كانت مركز الطريقة الصوفية المدينية . التي أسسها الشيخ أبو مدين (اسمه شعيب وولده مدين) المولود في أشبيله . وكانت تلمسان مدينة عامرة بالعلماء والأولياء والفقهاء والصالحين ، الذين حملوا مشاعل المعرفة ، والثقافة الإسلامية الصوفية ، في بلاد المغرب ، وقد تضمن كتاب «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المديوني التلمساني . تضمن تراجم لنحو مائتي عالم من علماء تلمسان الذين عاشوا في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر الهجري . وإذا عرفنا أن هذا الكتاب لم يستوعب كل العلماء والأولياء من تلمسان أدركنا أن المدينة كانت مزدهرة بالعلم ، وأنها كانت محط طلابه من جميع جهات المغرب .

أما محمد التلمساني الذي ورد في تاريخ السودان فلم نعثر على ما يبين حقيقته ، غير أنه يتضح من كتاب البستان أنه قد اشتهر بتلمسان في القرن العاشر الهجري . والحادي عشر أيضا . عدد كبير من الأولياء المسمين بمحمد ، والذين كان لهم نشاط علمي واضح في بلاد المغرب ، ومن هؤلاء المحمدين من كان يهاجر إلى مصر طلبا للعلم ومنهم من كان يمر بها في طريقه إلى الحج . ومنهم أيضا . ولاشك . من كان يذهب إلى السودان إما في طريقه إلى الحج والمجاورة ، وإما للإقامة فيه وعلى أية حال فالقارئ لكتاب الطبقات يجد عددًا من العلماء والأولياء وفدوا على السودان من المغرب مثل الحاج موسى جد الشيخ حسن ود حسونة ، ومثل الشريف مصطفى المغربي السوسي ، انظر ص ٢٥٤ج١ حاضر العالم الإسلامي طبعة قديمة وص ١٣٣ج١ طبقات الشعراني وص ١١٦ Confréries Rel. Muselmanes .

(٢) وصلت طريقة عبد القادر الجيلاني إلى اسبانيا . فلما زالت دولة المغرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية إلى فاس ، وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . كما أن هذه الطريقة هي التي اهتدى بها زنوج غربي إفريقيا في القرن الخامس عشر (ص ٢٥٤ج١ من حاضر العالم الإسلامي طبعة قديمة) .

(٣) الواقع أن الصلة الثقافية بين مصر وشرقي السودان ، ولا سيما ميناء عيذاب . كانت أقدم من القرن العاشر . فقد كانت عيذاب ميناء الحجاج إلى الحجاز وكانت تابعة مصر من قديم الزمان . وكان بها حاكم من قبل البجاة وآخر من قبل

التقليدى ، وأنتقال من تخبط فى أحكام الدين وتلمس لأصوله من غير هدى إلى استقرار واطمئنان والتماس للأحكام عند العلماء ممن وفدوا من الأمم [1] المجاورة ، وبخاصة مصر ، وممن رحلوا من السودان طلباً للعلم ثم عادوا إليه ، ونستطيع أن نسمى هذه الطبقة من العلماء بطبقة المخضرمين الذين عاشوا فى العصرين ، عصر الجهالة ، وعصر العرفان .

وإن الدارس لحياة العلماء المخضرمين أمثال محمود العركى وإبراهيم البولاد ومحمد المصرى القناوى ومحمد بن قرم وعبدالرحمن بن جابر ليمكنه أن يقول إن مصر هى المصدر الأساسى والأكبر للثقافة الإسلامية التى ظهرت بالسودان فى القرن العاشر ، سواء أكان ذلك بقدوم العلماء المصريين أو برحلة السودانيين للتعلم فى الأزهر .

نعم وفدت الصوفية إلى السودان من مصدر آخر غير مصر هو العراق [2] ولكن الدارس للحياة الصوفية فى ذلك العهد يدرك أنه لم يكن هناك فرق ذو بال بين روح الصوفية فى العراق وفى مصر وغيرهما . وكل ما هنالك من فوق هو فرق بين الطرق وليس فرقًا جغرافيًا . وحتى الفروق التى كانت بين الطرق لم تكن جوهرية . فقد كانت لكل طريقة بعض الخصائص كالزى الذى يرتديه أتباع كل فرقة ، وكأسلوب الفكر والعبادة ، وما كان لكل طريقة من ورد أو حزب

= والى مصر ، ويروى لنا مؤلف «الطالع السعيد فى تراجم أهل الصعيد» (ص١٨٤) أنه كان بعيذاب قاض وخطيب مسجد يسمى عبد المنعم بن أحمد بن عبد الحميد . وكان تقيًا وفيًا وفيه نفع للحجاج والوارد . وكان قوى الحرمة نافذ الكلمة توفى سنة ٧٣٢ وقد جاوز الثمانين . ولاشك استفاد البجاة البدو الذين كانوا يفدون إلى عيذاب من أمثال هذا القاضى المصرى . أما موقع عيذاب فهو مدينة بيرنيس القديمة على رأس عليه (انظر الخطط التوفيقية وكذلك ص ٣٠ من الرحلة الحجازية) .

(١) ويقول هيللسون فى ص ٢٦٢ (J.R.A.S.Oct, 1937) ومما يستحق الذكر أن هؤلاء العلماء والمبشرين المسلمين وفدوا إلى السودان من جميع أنحاء العالم الإسلامى : مصر ، المغرب ، وبغداد . ويظهر أن ملوك هذه الدولة الجديدة شجعوا استقرار العلماء فى البلاد ، وكان سخاؤهم سببًا فى اجتذاب معلمين مخلصين ، وأولياء متحمسين ، لا بل فى اجتذاب كثير ممن يدعون العلم والتصوف والذين يرغبون فى استغلال شعب على الفطرة ، سريع التصديق ، متفان فى دينه الجديد .

(٢) يجب أن نسجل هنا أن عبد الرحمن بن جابر كان صوفيًا ، وإن لم تكن له طريقة متميزة . والدليل على تصوفه أنه ألف كتاب «ترشيد المريدين» وأن دفع الله العركى لما ذهب إليه ليسأل عن ابنه عبد الله وجد الشيخ عبدالرحمن هذا داخل الخلوة يتعبد (ص١٠٥ من الطبقات طبعة منديل) وكذلك اشتهر الشيخ عبد الرحمن بكرامات منها أن الحوت فى البحر كان يسافر معه (صفحة ١١٤ من الطبقات) . وعلى كل حال لم يكن هناك تناف بين العلم والتصوف . بل كان العالم لايسمى عالمًا إلا إذا درس علوم التصوف ، وأخذ عن أحد شيوخ الصوفية . وما أجدر تلميذ الشيخ محمد البنوفرى بأن يكون وليًا صوفيًا مثله .

خاص . وكذلك طريقة البيعة من المرشد (الشيخ) للمريد اختلفت من فرقة لفرقة . ومع هذا كان الشائع أن يجمع الفقير بين عدة طرق ، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب [١] وهذا يدلنا على أنه حتى بالرغم من أن الصوفية دخلت السودان من غير مصر لم تكن هناك فوارق عظيمة بين الصوفية فى مصر والصوفية فى العراق والحجاز .

ولا غرابة أن تجد مصر قد غرست البذور الأولى للثقافة الإسلامية فى السودان ؛ فمصر كما ذكرنا كانت قبيلة المتعلمين والعلماء فى العالم الإسلامى ، والمواصلات بين السودان ومصر ـ بطريق القوافل والنيل ـ كانت أسهل أنواع المواصلات التى تربطه بأى قطر إسلامى آخر . على أن هذه البذور لم تلبث أن نمت وترعرعت . وكان من ثمارها بذور أخرى نضجت فى السودان ، ثم غرست فيه ، فنمت وتأقلمت ، وأصبح لها طابع محلى خاص .

وكانت مساجد العبادة والتعليم فى مملكة سنار أكثر منها فى كردفان ودارفور ـ كما سنوضح ذلك بعد ـ بحكم تفوق الأولى على الأُخريَيْن فى الخصب والرخاء .

ولم تنقطع الصلات الثقافية بين السودان ومصر بانقطاع طبقة المخضرمين ، بل استمر وفود بعض العلماء من مصر وغيرها إلى السودان . وزادت رحلة السودانيين إلى مصر والحجاز وغيرهما[٢] ، طلبًا للعلم مما سنشرحه عند كل مناسبة .

كردفان ودارفور وصلتهما الثقافية بسنار:

وكانت كردفان سيئة الحظ بموقعها الجغرافى المحصور ، من الشرق بمملكة سنار ، ومن الغرب سلطة دارفور ؛ فهى والحالة هذه كانت تشبه ما يسمى الآن فى لغة السياسة الدولية (a buffer State) وقد كانت دائمًا مطمعًا لكلتا الجارتين تغزوها سنار [٣] تارة لضمها إليها ، وتارة تغزوها

---

(١) ص ٨٣ من رسالة التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى لتوفيق الطويل .

(٢) روى لى بشير مصطفى عمدة بلدة كساب بالقرب من القضارف . حينما ذهبت للتفتيش على مدرسة هذه البلدة فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، أن الناس كانوا فى دارفور ، وهى موطن أجداده ، يذهبون إلى تونس وتمبكتو لطلب العلم .

(٣) من ذلك ما حدث فى عهد الملك بادى الرابع أبو شلوخ (١١٣٦ ـ ١١٧٥) فقد أرسل حملة كبيرة إلى كردفان ، ونجح فى ضمها إلى بلاده ، وبقيت كردفان تابعة لسنار مدة ١٤ سنة (١١٦٠هـ ـ ١١٧٤) وهرب ولاتها المسمون المسبعات منها (انظر تاريخ السودان لنعوم شقير ص ٨١ من الجزء الثالث ، وكذلك مخطوط تاريخ ملوك السودان لإبراهيم بن عبد الدافع ص ٣١) .

دارفور[١] . وكان لهذه العزلة السياسية التى وقعت فيها كردفان ، وللعداء المستحكم بين أهلها وأهل دارفور [٢] بصفة خاصة ، لصعوبة المواصلات بينها وبين جاراتها فى الشمال (مصر) والغرب (دارفور) ، ولحالة الفقر التى كانت تميزها عن بقية جهات السودان (سنار ودارفور) وما جعلها ذات شأن ثقافى قليل . فقد كانت عالة على جارتها سنار فيما يتعلق بالعلم . وكان أبناء كردفان يذهبون إلى مملكة سنار ، حيث يتلقون العلم فى خلواتها ومساجدها ، لذلك لم يصلنا شىء كثير عن علماء كردفان ، فمن ذلك ما ذكره مؤلف الطبقات عن جودة الله أحد فقهاء كردفان [٣] ومن قبيلة بن محمد . فقد درس هذا الفقيه على القدال الفرضى فى الجزيرة ، ولما رجع إلى بلاده أخذ يعلم الناس فى حلته الزلطة . ومن فقهاء كردفان أيضًا جودة ولد رامه وأصله من قبيلة بنى عمران . وقد ذهب إلى جهات سنار ، وأخذ الفقه عن الشيخ الزين بن صغيرون[٤] فى قوز صغيرون بالقرب من شندى ، ومن علماء كردفان مختار بن جودة الله الذى أشرنا إليه الآن . وقد تلقى مختار هذا الفقه عن أبيه ، وقرأ التوحيد وغيره من العلوم على رجل جاء إلى أبيه من بلاد المشرق (؟) . وقام مختار بتدريس علم الفقه والتوحيد وسائر الفنون . وعمرت حلقته وكثر طلبته . وقد شرح السنوسية شرحًا مفيدًا ورسالة ابن أبى زيد القيروانى ، وشرح متن الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون [٥] للأخضرى . ويظهر أن صلة كردفان بوادى النيل من ناحية

---

(١) من ذلك ما حدث فى عهد السلطان تيراب (١١٨١ ـ ١٢٠١هـ) ؛ فقد اعتدى السلطان هاشم سلطان كردفان على حدود دارفور فرد السلطان تيراب الاعتداء ، وغزا كردفان بجيش كثيف ، ففر هاشم بحاشيته إلى ملك سنار . وسار السلطان فى أثره حتى نزل فى أم درمان . وظلت كردفان تابعة لدارفور إلى موت السلطان تيراب (انظر نعوم شقير ١٢٠ ـ ١٢١ ج٢ وكذلك تشحيذ الأذهان ص ٩٦) .

(٢) يقول W.G.Browne فى رحلته ص ٢٨٩ : ويظهر أنه كان بين أهل كردفان وأهل دارفور عداء مستحكم قديم . وقد فهمت من حديثى مع كل من الطرفين أن حروبًا متواصلة كانت دائمة بين الإقليمين منذ سنين طويلة . ومن أسباب هذا العداء موقع كردفان الجغرافى من دارفور وسنار . على الطريق الطبيعى بين دارفور ومكة والحجاز . كما أن القوافل التى تريد الوصول من سواكن إلى درافور لا تستطيع عبور كردفان إلا بإذن من حاكمها . وإذًا فسبب هذه العداوة المستعصية هو التنافس والغيرة التجارية .

(٣) ص ٤٣ من طبعة منديل .

(٤) ص ٤٣ من طبعة منديل .

(٥) فى الأصل (ص ١٥٦ من طبعة منديل) وشرح الأخضرى شرحًا انتفع به الخاص والعام . ولم يذكر أى متون الأخضرى . ولكنى رجحت أن يكون هذا المتن هو الجوهر ، لأن مؤلف الطبقات استعمل فى ترجمة مختار عبارة جميع الفنون وسائر الفنون عدة مرات .

دنقلة وجزيرة سنار كانت أقوى من صلتها بدارفور لهجرة كثير من سكان دنقلا وسنار إلى كردفان [١] انتجاعاً للمرعى ، وللتجارة فى الرقيق ، ومن أهل وادى النيل من استقروا فى كردفان وحملوا معهم العلم الذى تلقوه من قبل [٢] .

والخلاصة أن كردفان كانت أشبه بولاية صغيرة بين سنار ودارفور ، وكانت تتأثر فى ثقافتها بسنار أكثر من دارفور ، على حين أن صلتها بمصر كانت ضعيفة .

أما دارفور فكانت بلاداً مستقلة ذات ثراء تجارى تمتاز به عن كردفان . وكانت ذات صلات ثقافية بمصر والسودان الغربى وبلاد المغرب لما للقوافل التجارية من أثر فى تسهيل العلاقات وللمواصلات . وكان لجودة مركز دارفور الاقتصادى والجغرافى أثر فى رحلة العلماء إليها . وتشجيع سلاطينها إياهم . من أجل هذا نستطيع أن نقول بأن دارفور ـ بالرغم من أنها لم تكن أرقى ثقافيًا من كردفان ـ كانت فى مركز يمكنها من الاتصال بالعالم الإسلامى الخارجى . ومن تشجيع العلماء . غير أن غلبة العنصر العربى فى كردفان وقلته فى دارفور وملاصقة كردفان بسنار جعل انتشار العلم فيها أسهل منه فى دارفور .

هذا ماكان من شأن سنار وكردفان ودارفور . وقد ظلت الحال كما وصفنا إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى حين فتح المصريون فى السودان واتصلوا به سياسيًا . وكان اتصال السودان بمصر سياسيا منذ أوائل هذا القرن ، وتنظيمه إداريًا واقتصاديًا بأيد مصرية أو متمصرة ، وعناية ولاة مصر بتمصيره ، وترقية سكانه ورخاء مصر المادى ـ كل هذا جعل كفة الثقافة المصرية ترجح فى السودان ، وجعل السودانيين يشعرون بأن المورد الطبيعى الذى يجب أن يردوه لنشر الثقافة والتعليم فى بلادهم هو مصر . والواقع أن الدور الثقافى الذى قامت به مصر فى السودان قد أصبح إيجابيًا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، مما سنوضحه فى المجلد الثانى .

■ ■ ■

(١) انظر حياة البقارة فى كتاب سبل كسب العيش فى السودان .

(٢) وذلك كأسرة الشيخ أحمد الأزهرى التى فى الأبيض ، فإن أصلها من حوش ماز فى دنقلة (انظر صفحة ٦١و ٧١ من الجزء الثانى من تاريخ العرب فى السودان لهارولد مكميكل) .

معاهد التعليم
فى السودان وأنواعها

يطلق ود ضيف الله فى كتابه الطبقات أسماء مختلفة على معاهد التعليم فى السودان ، فهو يستعمل الكلمات : مسجد ، وجامع ، ومدرسة ، وخلوة ، ومكتب فى مواضع مختلفة . ولم يرد فى كتابه ذكر لكلمة «كتاب» ولو مرة واحدة .

والمتتبع لمدلول هذه الكلمات يجد أنها لم تستعمل للدلالة على معان محدودة واضحة مطردة فى جميع كتاباته . فهو لايحافظ على المدلول الواحد للكلمة ، بل قد يستعمل الكلمة الواحدة بمعنى فى مناسبة ، وبمعنى آخر فى مناسبة أخرى . وهو كذلك يستعمل للمدلول الواحد كلمتين ، مما قد يوهم القارئ أنهما لمعنيين مختلفين ؛ ومن ذلك أنه يقول فى ترجمة الشيخ ضيف الله [1] ابن على بن عبد الغنى بن ضيف الله الفضلى «إنه ولد بالحلفاية ، وحفظ الكتاب (يعنى القرآن) فى جامعها» ثم يعود فيقول «إنه درس (مختصر) خليل والعقائد بمسجد الحلفاية» أى أنه قد استعمل كلمتى جامع ومسجد [2] لمدلول واحد .

وقد يذهب القارئ إلى أن المؤلف أراد تخصيص الجامع بتعليم القرآن ، والمسجد بتعليم العلم ، والحقيقة غير ذلك فإن المسجد ـ فى كتاب طبقات ود ضيف الله ـ كما يطلق على مكان

---

(١) ص ١٠١ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) الأصل فى اللغة أن المسجد هو الموضع الذى يسجد فيه . وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد . ومنه قوله تعالى ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ وأما الجامع فهو المسجد الذى تصلى فيه الجمعة ، لأنه يجمع الناس لوقت معلوم وقد لاحظ المقريزى فى خططه الفرق حين تكلم عن الجوامع والمساجد (صفحة ٤٩ وصفحة ٢٦٣ جزء رابع طبعة المليجى سنة ١٣٢٦هـ) . انظر كذلك صفحة ٣٩ من رسالة إبراهيم سلامة . L'Enseignment Islamiquu en Egypte ، وفيها يتعرض للفرق بين المسجد والجامع . وفى كتاب التعليم بمصر لأمين سامى باشا ص ه إحصاء بعدد معاهد التعليم المختلفة ، التى كانت بمصر من ابتداء الدولة الأيوبية سنة ٥٥٧هـ (١١٧١م) لغاية دولة الغورى ٩٢٢هـ (١٥١٦م) ومنه يفهم أن الجوامع والمساجد أيضا كانت تستعمل للتدريس وهو يذكر لنا أن عدد الجوامع المستعملة لهذا الغرض كان ١٧ ، بينما كان عدد المساجد أربعة . ومن هذا نفهم أن التدريس كان بالجوامع أكثر منه فى المساجد .

الصلاة وتدريس القرآن ، كان يطلق أيضًا على مكان تدريس القرآن والعلوم إلى جانب الصلاة ، يدلنا على ذلك أن الشيخ محمد بن أنس [١] الذى حفظ الكتاب على الفقيه عبدالرحمن ولد أسيد ، وقرأ أحكام القرآن عليه ، وعلى الفقيه عبد الرزاق ولد التويم العوضى «جلس فى المسجد لتدريس القرآن [٢] من أول بلوغه ومسجده [٣] هذا كان خاصًا بالقرآن حينذاك . والمسجد الذى بناه الشيخ ضوا البيت بن أحمد الشافعى فى جرف [٤] عجيب . بناه لتدريس القرآن ، بينما نجد الشيخ دفع الله بن الشيخ محمد أبو إدريس قد درس العلم والقرآن[٥] سبعين سنة فى مسجد أبى حراز .

ومن هذا نفهم أن كلمة مسجد كانت تستعمل ـ فى كتاب الطبقات ـ بمعناها الأصلى ، وهو مكان الصلاة . ويضاف إلى هذه الوظيفة أحيانًا إما تدريس القرآن فقط أو تدريس القرآن والعلوم . ومن هذا نفهم أيضًا أن مؤلف الطبقات ليقصد باستعماله كلمة جامع معنى غير معنى المسجد .

هذا وقد كان للمسجد وظيفة ثالثة ، غير الصلاة والتدريس . فالمسجد كان مكانًا للخلوة والعزلة وتعبدات الصوفية . ولنا دليل على ذلك فى حياة الشيخ [٦] ضيف الله بن محمد بن ضيف الله الذى كان يتخذ المسجد مكانًا للتدريس ، والتعبد ، وإقامة الأذكار ، وتلاوة الأوراد ، ومجاهدات الصوفية [٧] . والواقع أن الحياة الصوفية قد صارت فى ذلك العهد جزءاً من حياة العلماء ، والقراء ، والجهلة ، حتى إنه ليصعب أن تجد مسجدًا فى العالم الإسلامى قد اتخذ للتدريس والصلاة دون أن يكون لتعبدات الصوفية ومجاهداتهم [٨] مكان فيه .

---

(١) ص ١٥٣ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٥٣ كذلك .

(٣) لم أعثر فيما بيدى من مصادر مكتوبة على مكان هذا المسجد ، غير أن كتاب الطبقات يذكر فى ص ٧٤ طبعة منديل أن محمد بن أنس من أهل السافل .

(٤) ص ١٠٣ من طبعة منديل وجرف عجيب قرب الزيداب .

(٥) ص ٨١ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) ص ١٠٢ من طبعة منديل ، ولد الفقيه ضيف الله هذا فى سنة ١١٠٧ وتوفى سنة ١١٨٢هـ .

(٧) سلك الشيخ ضيف الله طريق الصوفية على الشيخ خوجلى . وكان الشيخ خوجلى متبعًا للطريقة الشاذلية ، تلك الطريقة التى تنسب للشيخ أبى الحسن المتوفى بصحراء عيذاب سنة ٦٥٦هـ والمدفون هناك .

(٨) انظر طبقات الصوفية ؛ كالطبقات الكبرى للشعرانى ، وطبقات الشاذلية ، وكتاب الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية للشعرانى أيضًا .

أما كلمة مدرسة فقد استعملها المؤلف فى القليل النادر . فهو يروى لنا أن إبراهيم البولاد «كان أول من [1] درس خليل ببلاد الفونج ، وشدت إليه الرحال ، ومدرسته فى خليل سبع ختمات ، علم فيها أربعين إنسانًا» فماذا يقصد بكلمة مدرسة هنا؟ إننا نعلم أن البولاد لم يظل طويلا فى التدريس ، وأنه درس سبع سنوات فقد كان يختم فى كل سنة منها قراءة كتاب مختصر خليل . فقد كان له إذاً معهد يعلم فيه الطلبة ، وظل تدريسه بهذا المعهد سبع سنوات . والمعهد هنا هو مسجد ـ وهو مسجد كل أولاد جابر ـ بجزيرة ترنج من دار الشايقية . وإذاً فقد استعمل المؤلف كلمة مدرسة ، وأراد بها مكان اجتماع الطلبة فى المسجد [2] لتلقى العلم عليه ، فى أى جزء من المسجد ، وليس فى المسجد كله . وسنرى أن هذا الجزء من المسجد لم يكن بقعة محدودة مخصصة للدرس ، بل كان من الجائز أن يختار الشيخ أية بقعة فى المسجد يجتمع فيها مع الطلبة للتدريس . كذلك يروى لنا مؤلف الطبقات أن «غانم أبو شمال الجامعى الكردفانى شرح السنوسية شرحًا مفيداً . وقال فى آخر شرحه لها : قرأنا التوحيد عند الفقيه على ولد برى وأدركنا وفاته . وبعده بدينا القراءة عند الفقيه أرباب ، وبعدنا بقيت مدرسة [3] عظيمة» وإذا عرفنا أن الفقيه أرباب كان يدرس فى مسجد جزيرة نسرى بعد وفاة شيخه على ولد برى (سنة ١٠٤١ ـ ١٠٧٣هـ) ، وأن عدد طلبة الفقيه أرباب قد نيف على [4] الألف ، وكان من بينهم طبعاً غانم أبو شمال الكردفانى ، فهمنا أن هذا الأخير أراد بكلمة مدرسة عدد الطلبة الذين كانوا يحضرون الدرس . وهو معنى قريب من المعنى السابق . فهناك يراد بكلمة مدرسة مكان اجتماع الطلبة ، وهنا يراد مجموعهم وعددهم . وهما معنيان متقاربان . ثم إن صاحب الطبقات يشير فى ترجمة محمد بن التنقار [5] أن ابنة تاتاى صاحب المسجد الذى فى شندى كانت له مدرسة عظيمة فى خليل» يريد أنه اجتمع له عدد كبير من الطلبة ليدرس عليه مختصر خليل . وهذا المعنى الثالث هو نفس المعنى الثانى . وفى ترجمة محمد بن مسلم

---

(١) ص ٥ من طبعة منديل .

(٢) ويظهر أن هذا المعنى كان معروفًا فى السودان الغربى أيضا (انظر ص ٤٧ و ص ٥١ و ص ٦١ تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى) .

(٣) ص ١٣٨ من طبعة منديل .

(٤) ص ٢٩ من طبعة منديل .

(٥) ص ١٦٥ من طبعة منديل .

المشهور بأمه [1] قوتة ، يذكر مؤلف الطبقات أن ابن مسلم كان ذا باع طويل فى الفقه ، وأنه لايقدر أحد أن يدرس أويفتى فى حضرته ، وأنه كان يدرس (مختصر) خليل والرسالة والعقائد و(حكم) ابن عطاء الله وشراب القوم[2] (التصوف) . وكانت مدرسته فى الفوز ، ثم انتقل إلى الهلالية فكلمة مدرسة هنا تفيد مكان الدراسة ، وهذا معنى يشبه المعنى الأول ، والذى يجب أن نلاحظه فى هذين المعنيين أن كلمة مدرسة ذكرت مقرونة بتدريس العلم من فقه وتوحيد وغيرهما ، ولم تقرن مطلقًا[3] بتدريس القرآن . ففى استعمال كلمة مدرسة إذا شىء من التخصيص بعكس استعمال كلمة مسجد أو جامع كما ذكرنا .

ثم يحدثنا مؤلف الطبقات أيضًا نقلا عن الشيخ خوجلى [4] إنه قال : «إنه كان للشيخ محمود العركى سبع عشرة مدرسة منتشرة ما بين الخرطوم وأليس» ، وقد أشرنا إلى ما يروى من أن الشيخ محمود العركى كان أول من علم الناس العدة فى منطقة النيل الأبيض . فهو إذًا قد أسس هذه المدارس لتفقيه الناس وتبصيرهم بأمور دينهم بعدما كانوا فيه من جهالة عمياء . ولكن هل كانت هذه المدارس لتدريس العلم فقط؟ أو لتدريس العلم والقرآن معا؟ إنه لمن العسير أن نجزم بأن مدرسة تؤسس والقوم فى جهالة شاملة توجه عنايتها لتدريس العلم فقط ، دون أن يكون لتدريس القرآن بها نصيب ، ولاسيما أن جميع الأمم الإسلامية تبدأ مع المتعلمين بتدريس القرآن . فمن غير المعقول إذًا أن تكون أول مدارس تؤسس فى منطقة النيل الأبيض مقصورة على تدريس العلم ، ولهذا نميل إلى القول بأن مدارس محمود العركى كانت لتعليم [5] القرآن والعلم معا . أما كيف كانت تدار هذه المدارس؟ ومن أين جاء إليها المدرسون؟ فلا سبيل إلى تحقيقه .

---

(1) ص ١٦٦ من طبعة منديل .

(2) معنى عبارة «شراب القوم» فى السودان «التصوف» هكذا حدثنى الشيخ محمد بن نور بن ضيف الله بن محمد مؤلف كتاب الطبقات ، عندما زرته فى حلفاية الملوك بتاريخ ١٩٤٥/٨/٣١ .

(3) يجب أن نذكر هنا أن المدارس التى كانت بمصر فى ذلك العهد لم تكن مقصورة على تدريس العلم بل كان بعضها للعلم والقرآن كالمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الأقبغاوية ، ومدرسة المؤيد ، وبعضها للقرآن كمدرسة إينال (راجع ملحق المدارس بكتاب التعليم فى مصر لأمين سامى) .

(4) ص ١٥٥ من طبعة منديل .

(5) من الغريب أن بلاد الأندلس لم تؤسس بها مدارس ، وإنما كانت المساجد والجوامع تقوم مقام المدارس . ويروى لنا المقرى فى نفح الطيب (ج١ صفحة ١٠٢ من المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٤) أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل كانوا يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة . وربما كان سبب عدم ظهور المدارس فى الأندلس ابتعاد تلك البلاد عن نفوذ الموالى والعجم وهم الذين يعزى إليهم أمر تأسيس المدرسة بهذا الاسم أول ظهورها فى البلاد الإسلامية .

والحقيقة أننا فيما عدا هذه المناسبات الخمس لانجد ذكراً لكلمة مدرسة ، وإنما نجد مؤلف الطبقات يستعمل مكانها إما كلمة مسجد ، وإما كلمة خلوة ، وكلتاهما تدل على معهد التعليم . على أننا إذا انتقلنا إلى بعض الأمم الإسلامية المجاورة للسودان وجدنا بعض المدارس قائمة بها تؤدى وظيفتها . فنحن نجد الأتراك العثمانيين ينشئون بمصر عدداً من المدارس ، وإن كان قليلاً إلى جانب ما كان بها من قبل . ويروى لنا أمين باشا سامى فى كتابه [1] «أن ما فتح بمصر من المدارس بعد زوال دولة الغورى إلى تولية ساكن الجنان محمد على باشا كان ١٥ مدرسة وبعض الكتاتيب» . وإذا فقد كان هذا العهد عهد خمول ثقافى وانصراف عن تأسيس معاهد جديدة للتعليم فى مصر ، بل فى بقية البلاد الإسلامية .

أما فى شمالى إفريقيا وبلاد المغرب فإن انتشار المدارس كان قليلا من الأصل ، وكانت المساجد والجوامع والزوايا أماكن التعليم والتثقيف .

والحقيقة أن الأتراك العثمانيين أهملوا العناية بالتعليم فى كل البلاد التى صارت تحت سلطانهم ، بل وتخربت فى عهدهم المدارس والمكاتب التى كانت قد شيدت من قبل وحبست عليها الأوقاف فلا غرابة إذا أن نجد اسم «المدرسة» ، قد أخذ فى الاختفاء من بين معاهد العلم وانصرف الناس عنها إلى ما بقى قائمًا فى المساجد والجوامع . ولا غرابة أن نجد أهل السودان يسمون معاهد التعليم عندهم مساجد . يضاف إلى هذا أن المدارس بمصر حتى فى أيام عزها لم تستطع أن تنافس المساجد . «فعلماء الإسكندرية والصعيد كانوا فى الغالب مغاربة وعلى مذهب المالكية وكانوا يدرسون فى بلاد المغرب داخل المساجد . وقد ظلوا محافظين على هذا المبدأ - مبدأ التدريس فى المساجد - وهم فى مصر . هذا إلى أن بعض الشيوخ كانوا لا يميلون إلى المدارس والتدريس ، فيها ، بسبب ما بها من النظم المقيدة ، والإدارة المدرسية التى لم يألفوها . وقد احتج ابن الحاج على تحديد المدارس عدد الطلبة الذين يقبلون بها ، كما احتج بأن التعليم يجب أن يحتفظ بطابعه الديمقراطى يعنى يجب أن يكون مجانًا ، من غير «معلوم» يعطى من الطلبة لأكبر عدد ممكن منهم . وقد اعتبر أحد المفتين من الشافعية المدرسة بدعة فى الإسلام وكل بدعة فى النار» [2] .

---

(١) التعليم فى مصر ص ٩ لأمين باشا سامى .

(٢) ص ١٢٥ من رسالة إبراهيم سلامة . وهو مقتبس فيها من ص ١٠٤ج١ من نفح الطيب للمقرى ومن ص ٧٢ ج٢ من المدخل للعبدرى ومن ص ٢٠٦ج١ كتاب المعيد للسبكى . وكذلك ص ٨٥ من كتاب إدوارد لاين :
Manners and Cnstoms of Modern Egypt

وهكذا أخذت المدارس تؤول إلى الخراب . وقد تحول بعضها [١] إلى مساجد أو زوايا أو تكايا ، وذلك بسبب ضياع أوقافها . وكنتيجة لخراب المدارس وتحويلها انصرف الطلبة إلى الأزهر .

«وبينما كانت المعاهد الصغيرة آخذة فى التضاؤل كان الأزهر آخذًا فى النمو والاتساع والغنى وذلك بسبب الأوقاف التى حبست عليه من وقت لآخر . وكان بناؤه يجدد أحيانًا ، وأحيانًا تضاف إليه أبنية أخرى . وهكذا بالتدريج وصلت المعاهد والمدارس الأخرى إلى حالة صارت فيها عبارة عن توابع للجامع الأزهر أو فى الرتبة الثانية بعده من حيث التعليم» [٢] .

وإنما خرج بنا الحديث عن حال المدرسة فى السودان إلى حال المدرسة فى مصر ؛ لأن السودان كان فى ذلك الوقت متأثرًا بمصر فى ثقافته ، وكان الطلبة السودانيون الذين يذهبون إلى مصر يدرسون فى الجامع الأزهر ، ويحملون إلى بلادهم - حين يعودون - صورة من المؤسسات والمشروعات السائدة بمصر حينذاك . ولعل هذا يفسر لنا ما أشرنا إليه من شيوع المسجد فى السودان كمعبد للتعليم ، ومن ندرة المدارس .

أما «الخلوة» فهى أكثر الكلمات إطلاقًا فى السودان على معاهد التعليم . ولهذه الكلمة تاريخ قديم يرتبط بمعناها اللغوى والصوفى ؛ فهى فى اللغة تفيد الانفراد والوحدة [٣] وقد أطلق الصوفية الخلوة على محادثة السر مع الحق [٤] ؛ حيث لا أحد ولا ملك ، وعلى المكان الذى تحصل فيه المحادثة والمناجاة ، وهى بهذا المعنى الشائع بين طبقات الصوفية معروفة فى السودان . فللرجل الصالح والولى خلوة ينفرد فيها بنفسه لتعبداته وأفكاره ومناجاة ربه ، وينقطع فيها عن الخلق ولذات الحياة ، ويرى الصوفيون فى هذا تشبها بالنبى صلى الله عليه وسلم حينما كان

---

(١) يذكر أمين باشا سامى فى كتابه «التعليم فى مصر» عددًا من المدارس التى صارت فى عهد الأتراك مساجد وزوايا وتكايا ؛ منها مدرسة المؤيد التى صارت جامع المؤيد ، أو مدرسة جوهر اللالا التى صارت جامع جوهر اللالا ، والمدرسة البندقدارية التى صارت زاوية الأبار ، ومدرسة تربة أم صالح التى صارت تعرف بتكية السيدة نفيسة (راجع فى القسم الخاص من الملحقات ملحق المدارس من عهد السلطان أيوب إلى تولية محمد على باشا الصفحات من ١٧ - ٣٢) .

(٢) صفحة ١٧ من كتاب Introduction to the History of Educotion in Modern Egypte, by Heywort dunne.

(٣) ورد فى لسان العرب ص ٢٦٠ وما بعدها من الجزء الثامن عشر : وخلا الرجل وأخلى وقع فى موضع خال لا يزاحم فيه . وخلى الرجل وإليه ومعه - عن ابن إسحاق - خلوًا وخلاء وخلوة ، عن اللحيانى ، اجتمع معه فى خلوة . قال الله تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم) وإلى بمعنى مع . وخلا الرجل يخلو خلوة . وفى حديث الرؤيا (أليس كلكم يرى القمر مخليا به) يقال خلوت معه ، وبه وإليه ، وأخليت به إذا انفردت به . أى كلكم يراه منفردًا لنفسه .

(٤) جامع العلوم ص ٩٢ ج ٢ .

يخلو بنفسه للتعبد فى غار حراء [(١)] . والمعنى الذى يهمنا هنا هو إطلاقها على مكان التعليم وهو استعمال لم أعثر عليه فى أى بلد آخر غير السودان [(٢)] من البلاد الإسلامية ، ولو أن هناك بلا شك صلة بين خلوة التصوف وخلوة التعليم ، مما سنوضحه فى الباب الخاص بالخلوة .

نعم كانت الخلوة ـ ولا تزال ـ مكان التعليم فى السودان . ويحدثنا مؤلف الطبقات أن محمد السلمى [(٣)] الصغير لما سافر إلى الشيخ دفع الله العركى ـ بعد أن تتلمذ على حمد القدال بن الفرضي ـ دخل من جديد خلوة معلم الصبيان ليبدأ «ا ب ت ث» . وكان الصبيان يساعدونه على القراءة فى لوحه ، ويضحكون منه ، فهذا نوع من الخلوات كان لتعليم المبتدئين مبادئ التهجى ، وتحفيظهم القرآن . وكان لأبى سرور الفضلى خلوات قرب الحلفاية على جهة الصعيد [(٤)] ، يدرس فيها العلم ، وكان للشيخ بدوى ولد أبو دليق خلوات يعلم القرآن والعلم لفقراء الطلبة [(٥)] ولما فتح محمد على باشا السودان كانت الخلوات منتشرة فى أنحاء البلاد يؤمها الصبيان لتعلم القرآن والعلم [(٦)] . ولما استرجع السودان كان نوع التعليم المنتشر فيه فى ذلك الوقت هو تعليم الخلوة [(٧)] . وقد انتشر فى السودان الشمالى حينذاك مئات من الخلاوى .

ويقول السير واليس بدج فى كتابه [(٨)] السودان المصرى : إنه ذهب ذات مساء مع مفتش المعارف السودانية ـ المستر كروفت ـ لزيارة خلوة فى قبة إدريس ، فرأى الأطفال جلوسًا حول النار ، يستضيئون بنورها فى كتابة الألواح وحفظها . وكان الفقيه يطوف حولهم ليرشدهم من وقت لآخر .

---

(١) سنعود لمعالجة هذا الموضوع فى الباب الثانى .

(٢) اللهم إلا ما سنذكره فى الباب السابع مع أن السلطان قايتباى بنى فى مكة ١٤٧٧ مدرسة كبيرة كان بها اثنتان وسبعون خلوة .

(٣) ص ٢٢ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ٣٢ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٥) ص ٣٩ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٦) انظر الوثائق فى المجلد الثالث مجلد الملحقات وبه قسم خاص بالتعليم فى عهد محمد على . وهو يحتوى على المكاتبات التى صدرت بشأن التعليم فى الخلاوى .

(٧) ص ٣٤١ من كتاب السودان المصرى الإنجليزى من الداخل وفيها وصف الحال التعليم سنة ١٨٩٨م .

(٨) ص ٤٦ج١ من الكتاب المذكور .

ولايزال هذا النوع من الخلوات قائمًا حتى الآن ففى تقرير مصلحة[1] المعارف السودانية لسنة ١٩٢٨ :

والخلوة ، أو مدرسة القرآن ، هى معهد دينى قديم النشأة فى السودان . وهى منتشرة فى معظيم القرى الكبيرة في شمالى هذا القطر . والمدرس فيها فقيه دينى يعلم القرآن . والحكومة تغريه بالإغاثة لكى يعلم أيضًا القراءة والكتابة و الحساب .

وقد ظهرت الخلوة في السودان بهذا المعنى مع المسجد ـ كما سنبين ذلك بعد ـ وصارت مكانًا للتعليم . وهى تطلق الآن على غير مدارس الحكومة ، ومعظمها يكتفى بتلقين القرآن الكريم ومبادئ الدين وشىء من التهجى والإملاء والمطالعة . أما وصف الخلوة ، وهل كانت مستقلة أوجزءاً من المسجد؟ وهل كانت هنالك علاقة بين خلوة التعبد وخلوة العلم؟ فهذا ما سنشرحه فى الباب السابع .

وقد ورد استعمال كلمة «مكتب» فى الطبقات بما يفهم منه أنه كان مكانًا لتعليم القرآن فقط . مثال ذلك أن الشيخ إدريس الأرباب «والده أقرأه عند الشيخ البندارى [2] ، بدأ عنده فى المكتب ، ودخل المكتب» ، أيضًا عند الشيخ محمد ولد زروق فى «الصبابى وليس عندنا من الأدلة مايشير إلى أن البندارى أو حمد بن زروق كان يدرس غير القرآن فى مكتبه . وكذلك نجد الشيخ خوجلى بن عبدالرحمن [3] بدأ المكتب عند عائشة الفقيرة بنت ولد قدال وعائشة هذه كانت تعلم القرآن عند جبل أولياء على النيل الأبيض [4] .

ومن هذه الأمثلة نفهم أن استعمال كلمة مكتب كان مبكرًا منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، وليس هذا بغريب فقد استعمل العرب هذه الكلمة بمعنى مكان تعليم الصبيان منذ العصور الأولى فقد ذكر ابن خلكان [5] فى ترجمة أبى مسلم الخراسانى «أنه نشأ عند عيسى ابن معقل . فلما ترعرع اختلف هو ووالده إلى المكتب» ، وكان ذلك فى العصر الأموى بالضرورة . وفى معجم الأدباء [6] لياقوت أن محمد بن أحمد الوشاء المتوفى سنة ٣٢٥هـ كان نحويا معلمًا فى مَكتب العامة ويخبرنا

(١) ص ٢ من التقرير المشار إليه .

(٢) ص ٧ من طبعة منديل .

(٣) ص ٧١ من الطبعة نفسها .

(٤) ص ١٣٨ من الطبعة المذكورة .

(٥) وفيات الأعيان الجزء الأول ص ٣٩٧ .

(٦) معجم الأدباء الجزء السابع عشر ص ١٣٢ طبعة دار المأمون .

ولا يزال هذا النوع من الخلوات قائمًا حتى الآن ففى تقرير مصلحة[1] المعارف السودانية لسنة ١٩٢٨ :

والخلوة ، أو مدرسة القرآن ، هى معهد دينى قديم النشأة فى السودان . وهى منتشرة فى معظيم القرى الكبيرة في شمالى هذا القطر . والمدرس فيها فقيه دينى يعلم القرآن . والحكومة تغريه بالإغاثة لكى يعلم أيضًا القراءة والكتابة و الحساب .

وقد ظهرت الخلوة في السودان بهذا المعنى مع المسجد ـ كما سنبين ذلك بعد ـ وصارت مكانًا للتعليم . وهى تطلق الآن على غير مدارس الحكومة ، ومعظمها يكتفى بتلقين القرآن الكريم ومبادئ الدين وشىء من التهجى والإملاء والمطالعة . أما وصف الخلوة ، وهل كانت مستقلة أوجزءاً من المسجد؟ وهل كانت هنالك علاقة بين خلوة التعبد وخلوة العلم؟ فهذا ما سنشرحه فى الباب السابع .

وقد ورد استعمال كلمة «مكتب» فى الطبقات بما يفهم منه أنه كان مكانًا لتعليم القرآن فقط . مثال ذلك أن الشيخ إدريس الأرباب «والده أقرأه عند الشيخ البندارى [2] ، بدأ عنده فى المكتب ، ودخل المكتب» ، أيضًا عند الشيخ محمد ولد زروق فى «الصبابى وليس عندنا من الأدلة مايشير إلى أن البندارى أو حمد بن زروق كان يدرس غير القرآن فى مكتبه . وكذلك نجد الشيخ خوجلى بن عبدالرحمن [3] بدأ المكتب عند عائشة الفقيرة بنت ولد قدال وعائشة هذه كانت تعلم القرآن عند جبل أولياء على النيل الأبيض [4] .

ومن هذه الأمثلة نفهم أن استعمال كلمة مكتب كان مبكرًا منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، وليس هذا بغريب فقد استعمل العرب هذه الكلمة بمعنى مكان تعليم الصبيان منذ العصور الأولى فقد ذكر ابن خلكان [5] فى ترجمة أبى مسلم الخراسانى «أنه نشأ عند عيسى ابن معقل . فلما ترعرع اختلف هو ووالده إلى المكتب» ، وكان ذلك فى العصر الأموى بالضرورة . وفى معجم الأدباء [6] لياقوت أن محمد بن أحمد الوشاء المتوفى سنة ٣٢٥هـ كان نحويا معلمًا فى مكتب العامة ويخبرنا

(١) ص ٢ من التقرير المشار إليه .

(٢) ص ٧ من طبعة منديل .

(٣) ص ٧١ من الطبعة نفسها .

(٤) ص ١٣٨ من الطبعة المذكورة .

(٥) وفيات الأعيان الجزء الأول ص ٣٩٧ .

(٦) معجم الأدباء الجزء السابع عشر ص ١٣٢ طبعة دار المأمون .

عمر بن أحمد بن العديم المولود سنة ٥٨٨هـ أنه لما بلغ سبعة [1] أعوام حمل إلى المكتب فأقعد بين يدى المعلم ، ومن هذا نفهم أن بعض المكاتب ـ بخلاف ماكان فى السودان ـ كان لتعليم مبادئ القرآن والكتابة وبعضها كان يعلم فيه أيضًا اللغة والنحو ، ويؤيد هذا ما ورد فى كتاب [2] المعارف . من أن علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة كان من المعلمين وكان يروى عنه مالك بن أنس «وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض . ومات فى خلافة أبى جعفر المنصور» ، وفى معجم الأدباء أن للبارك [3] بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠هـ «كان يسكن قراح بنى رزين من بغداد . وله به مكتب يعلم فيه الصبيان ، وكان أولاد الأكابر يقصدون مكتبه من جميع بغداد لما شاع عنه من خبرة وصلاح» .

وفى هذا ما يدل على أن إطلاق كلمة «مكتب» فى السودان على مكان تعليم القرآن فقط تحديد لاستعماله المعروف عند العرب .

وبعد فيظهر لنا مما سبق أن أسماء معاهد التعليم فى السودان كانت مختلفة فمنها المسجد والجامع والمدرسة والخلوة [4] والمكتب ، وأن مؤلف الطبقات كان يستعمل هذه الألفاظ من غير دقة فى التخصيص . ولما كانت أكثر الأسماء استعمالاً فى السودان للدلالة على مكان التعليم ـ فى ذلك العهد ـ المسجد والخلوة ناسب أن تعقد لكل منهما بابًا خاصًا .

■ ■ ■

---

(١) معجم الأدباء الجزء السادس عشر ص ٣٨ طبعة دار المأمون .

(٢) ص ١٨٥ منه .

(٣) ص ٥٣ ج ١٧ طبعة دار المأمون .

(٤) ذكر لى السيد محمد بن تاويد الطنجى خريج كلية الآداب بجامعة فؤاد : أن كلمة خلوة معروفة ببلاد المغرب . وأنها تستعمل بالمعنى الأصلى ، فى مكان اختلاء الصوفى ، وهى أخص من الزاوية التى هى بيت المتصوف والتى قد تحتوى على عدد من الخلاوى . أما المسجد المستعمل للتعليم فيقابله فى المغرب كلمة «المسيد» وهى بعينها الكلمة المستعملة فى السودان إطلاقًا على مسجد التعليم مثل «مسيد ود عيسى» ، وأصل المسيد تحريف لكلمة المسجد . وفى المغرب يطلق المسيد على المكان الذى يتعلم فيه الأولاد القرآن . ويحفظون بعض المتون فى مبادئ الدين ، وهو بعينه المعنى المقصود من المسيد فى السودان . وفى بلاد المغرب تطلق كلمة جامع على مسجد الصلاة . وفى البوادى يتصل المسيد بالجامع . وأما فى الحواضر فليس الاتصال ضروريًا ، إذ كثيرًا مانجد المسيد منفصلا عن الجامع . وشيخ المسيد هو الفقيه والتلميذ فى المسيد يسمى «المحضرى» (Mahadry) وقد لفت نظرى هذا الاسم (المحضرى) فذهبت أبحث عن أصله . ولم أجد من السيد الطنجى . تفسيرًا شافيًا . غير أنى عثرت فى ص٢٢ من رحلة بن جبير الطبعة الأولى سنة ١٩٠٨ قوله مشيدًا بذكر صلاح الدين الأيوبى» ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر ، ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجرى عليهم الجراية الكافية فكلمة محاضر هنا جمع محضر . وقد فسر ابن جبير معناه بما يفيد معنى المكتب أو الخلوة فى السودان . وعلى ذلك فالمحضرى منسوب إلى المحضر وهو الكتاب والمحضرى هو التلميذ الذى يذهب إلى مكان التعليم المسمى المحضر . وقد ورد ذكر المحضر بنفس المعنى فى كتاب (تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران ص ٥٨ وفيه تصريح بأنه لإقراء الأطفال) .

المساجد
ووظيفتها التعليمية
فى السودان

لم يكن بدعًا فى تاريخ الإسلام أن يحتل المسجد فى السودان المكان الأول كمعهد للتعليم . فلقد كان المسجد منذ ظهور الإسلام مكانًا للعبادة . ومكانًا للدين ، ومكانًا للفتوى والقضاء . ولقد شابه المسجد فى وظيفته التعليمية مدارس الكنيسة والأديرة عند المسيحيين . وكان الرهبان ورجال الدين هم المعلمين والوعاظ فى القرون الوسطى . ثم كان التعليم بعد ظهور المسيحية ، وأثناء القرون الوسطى دينيا محضًا ، قام به القساوسة والرهبان فى مدارس اللاهوت بالشرق ، ومدارس الكنائس بالغرب . وكانت الأديار ومدارسها معاهد لتعليم الصبيان ، الراغبين فى الرهبنة مبادئ القراءة والكتابة والحساب والعقيدة والغناء الدينى . وقد بقيت مدارس الأديار المعاهد الوحيدة للتعليم تقريبًا حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، كما بقيت التربية فى أوروبا بلا تغيير يذكر حتى القرن الثالث عشر . وكان كل دير مدرسة ، وكانت التربية تحت إشراف الرهبان ورجال الكنيسة (١) .

وفى الإسلام اتخذ الصحابة والتابعون من المسجد المكى والمدنى أماكن للفتوى وتفسير القرآن ورواية الحديث . ولما انتشر الإسلام خارج جزيرة العرب أصبحت مساجد الأمصار كالمسجد الأقصى والجامع الأموى ، ومساجد بغداد ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر ، والقيروان ، وفارس ، وقرطبة ، وغيرها ـ جميعًا معاهد للتعليم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذ المسجد منذ بدء الإسلام مكانًا للدراسة . ففى البخارى عن أبى واقد الليثى قال : «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفا على رسول الله . فرأى أحدهما فرجة فى الحلقة فجلس .

---

(١) التربية فى العصور الوسطى لشرف الدين خطاب ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

وجلس الآخر خلفهم [١]، واستمر المسجد مكانًا لتعليم القرآن والحديث وللقصاص يعظون والفقهاء يعلمون الفقه مدة العهد الأموى . ولما تنوعت العلوم فى العصر العباسى تنوعت كذلك حلقات الدرس . فهناك حلقات يدرس فيها النحو وهناك حلقات يدرس فيها علم الكلام وهناك حلقات للشعر والأدب ، ولم يكن هذا قاصراً على مصر من الأمصار بل عم جميع البلاد الإسلامية ، واستمر فى بعضها إلى وقتنا هذا .

وكان الأستاذ يجلس فى المسجد وحوله الآخذون منه على شكل حلقة وتكبر الحلقة تبعًا لقدر الأستاذ . فالسيوطى فى الإتقان يحدثنا أن عبدالله بن عباس كان يجلس بفناء الكعبة ، وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن . ويحدثنا ابن خلكان أن ربيعة الرأى كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، ويأتيه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة ويحدق الناس به . وكانت حلقته وافرة . وكذلك كان مجلس الحسن البصرى فى مسجد البصرة . وقد يكون فى المسجد جملة حلقات تجتمع كل حلقة على شيخ ، ومثل هذا الشيخ كثيرون فى الأمصار اتخذوا المساجد مدارس يعلمون فيها العلوم المختلفة [٢] .

فإذا كان المسجد قد صار منذ نشأته فى الإسلام مكانًا للتعليم فذلك لأنه كان من المستحيل التفرقة بين ناحيتى العقيدة والعمل فى الدين الإسلامى . ولم يفرق الإمام مالك بين العبادة والدرس ، فكلاهما عنده سواء فى القيمة ؛ لأن الدرس والتعليم فى نظره نوع من العبادة[٣] .

وإذًا فقد ظهر السودان الإسلامى بعد أن مضت تسعة قرون على المسجد كمكان للتعليم ، فى جميع بلاد العالم الإسلامى ، فلا عجب والحال هذه أن نجد وظيفة المسجد فيه هى تلك التى للمسجد فى أى بلد إسلامى آخر ، إذ كان مركز اجتماع المسلمين بغض النظر عن طبقاتهم الاجتماعية ومذاهبهم الدينية ، وفيه يتلقون إلى جانب تعبداتهم المواعظ الخلقية ، ويتثقفون ويتعلمون علوم الدين الإسلامى [٤] .

---

(١) البخارى فى كتاب العلم .

(٢) صفحة ١٩٨ من فجر الإسلام لأحمد أمين .

(٣) صفحة ٢٩ من كتاب L'Lnseignement Islamique En Egypte لإبراهيم سلامة .

(٤) صفحة ٨ من كتاب Introduction to the History of Edueation in Modern Egypt, by Heyworth Dunne.

وقد سبق أن ذكرنا [١] أن بلاد النوبة السفلى ـ وكانت عاصمتها دنقلة ـ قد دخلت الإسلام فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن غلام الله بن عايد الركابى قد وفد من اليمن إلى دنقلة التى كانت فى الحيرة الشديدة والضلالة لعدم وجود القراء والعلماء «فلما حل فيها عمَّر المساجد ، وقرأ القرآن ، وعلم العلوم . وإذًا فقد كانت مساجد غلام الله بن عايد هذا أول مساجد العلم فى السودان ، غير أنه بالرغم من قيام ملوك المسلمين فى دنقلة من القرن الرابع عشر ، ومن تسرب القبائل إليها ، لم يكن الإسلام فى هذه البلاد إلا اسميًا[٢] فقط .

ولما انتشر الإسلام فى النوبة العليا بظهور دولة الفونج وفى كردفان ودرافور صارت المساجد تشيد للعبادة و تدريس العلم بسهولة وكثرة .

ويظهر أن بناية المسجد فى السودان كانت من البساطة والسهولة بحيث لم تتطلب كثيرًا من النفقات أو مواد البناء [٣] . وقد كان فى استطاعة الشيخ أن يقوم بنفسه ببناء المسجد من القصب وفروع الأشجار والطين [٤] . فمما يروى عن خليل بن الرومى أنه قدم عليه رجل ومعه امرأة مجنونة وجاء إليه يطلب الشفاء ؛ فوجد الرجل خليلا «يوقف شعب المسجد وكانت من قصب» ولاحظ صاحب المرأة ـ وكان يعرف صنعة البناء ـ أن الشيخ مشغول بباب المسجد وأنه وضع الشعبة معوجة ، فأخذ الشعبة منه ووضعها عديلة مستقيمة . فقال له الشيخ : لقد عدلت الشعبة ونحن عدلنا لك المرأة ، فشفيت المرأة لساعتها وأخذها الرجل وانصرف [٥] .

هذا وفى الطبقات أمثلة كثيرة تدل على أن الفقهاء كانوا لايكادون يستقرون فى مكان حتى يبنوا لأنفسهم مساجد القرآن والعلم [٦] .

---

(١) صفحة ٣٤ من هذا الكتاب .

(٢) صفحة ٦٦١ من مجلة الجمعية الأسيوية عدد أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

(٣) كانت بناية المسجد فى السودان الغربى ـ الذى يشبه سودان وادى النيل فى كثير من خصائصه الطبيعية ـ من اللبن والحجر والخشب . ولذلك تحتاج إلى زمن أطول لإنجازها . ويظهر أن فن المعمار كان أرقى فى بعض المدن الإسلامية بالسودان الغربى كتمبكتو وجنى منه فى السودان الشرقى . (راجع الصفحات ١٠٩و١١٠و٢١٩و٢٧٥ من كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله السعدى . كذلك وصف مدينة تمبكتو فى دائرة المعارف الإسلامية) .

(٤) ذلك لأن القوم كانوا لايزالون فى حالة من البداوة ، ولم يتقدم عندهم فن البناء الذى هو من مستلزمات الحضارة والعمران وكانوا ـ كما هى الحال الآن ـ يكتفون بالطين والقصب فى مواد البناء وهو متوافرة عندهم (راجع ص ١٤٠ وص ٢١٢ من رحلات بركهارت ففيهما وصف لمواد بناء المنازل من السودان) .

(٥) صفحة ٧٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) الصفحات ٣٢و٩٥و١٠٣و١٠٤و١٠٧و١٥٩ وغيرها من الطبقات طبعة منديل .

والغالب أن المسجد كان عبارة عن سور من القصب وفروع الأشجار أو الطين يضم مربعًا أو مستطيلاً . وفي داخل هذا السور حجرات جانبية من القصب والأغصان والطين أيضًا وراكوبات[1] هي خلوات للحيران والفقهاء . وتقابل هذه الخلوات التي بداخل المسجد في السودان الزوايا التي كانت معروفة في مصر داخل بعض المساجد كجامع عمرو بن العاص [2] وكان بعض هذه الخلوات لاجتماع الحيران أثناء الدرس وبعضها لسكنهم ـ كما سنوضح ذلك بعد [3] فهي إذًا كالأروقة التي أنشئت لسكنى الطلبة بالأزهر من بعض الوجوه .

وقد ساعد جو السودان على أن يكون التدريس في الهواء الطلق نهارًا . وعلى ضوء النار التي توقد لهذا الغرض ليلا . ولا بد كان في داخل المسجد أشجار للظل قد يأوى إليها الحيران[4] وشيخهم للدرس وفي داخله أو خارجه قريبا منه بئر لاستنباط الماء . وقد يكون بجوار المسجد بعض الأضرحة للموتى من الفقهاء الذين درسوا [5] في هذا المسجد . ومن الطبيعي أن هذا

---

(١) جمع راكوبة وهي السقيفة ، وورد في ص ٥٦ من كتاب العربية في السودان لعبد الله عبد الرحمن «الراكبة في السودان السقيفة والخص وفي الصحاح : الراكب ما ينبت من الفسيل في جذور النخل وليس له في الأرض عرق . وهي الراكوبة ، والراكب أهـ . ولا شك أن الشعب إنما جعل عليها القصب أو عيدان الشجر تشبه النخيل النابت في جذور النخل الصغير» .

وعندي أن هذا النظام مقتبس من نظام مدرسة قايتباي التي بناها عندما حج سنة ٨٨٤هـ والتي شيدها لصق الحرام من الجهة الشرقية (ص ٥٧ من الرحلة الحجازية) . ويصفولنا سنوك هذه المدرسة بقوله (ص ١٧٢ ج٢ من كتابه مكة) «وفي سنة ١٤٧٧ م بنى السلطان قايتباي بالقرب من باب السلام مدرسة ، بها قاعة جميلة للمحاضرات و ٧٢ خلوة (حجرة صغيرة للسكنى) ومكتبة للمذاهب الأربعة ، ومعنى هذا أن المدرسة كانت تحتوي على عدد من الخلوات في داخلها كما يحتوي المسجد (المسيد) في السودان الآن عددًا من الخلاوى للسكنى أو التعبد أو التدريس . وقد يسمى المسجد نفسه خلوة من باب إطلاق اسم الجزء على الكل .

(٢) روى المقريزي (في ص ٢٠ من الجزء الرابع من الخطط طبعة المليجي سنة ١٣٢٦) أنه كان بجامع عمرو بن العاص زوايا يدرس فيها الفقه منها زاوية الأمام الشافعي ، والزاوية المجدية ، والزاوية التاجية ، والزاوية العلائية ، والزاوية الصاحبية إلخ .

(٣) راجع في ملحق هذه الرسالة الوثيقة رقم ٧ ص ١٠٢ دفتر رقم ١٧٠١ وارد معية بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠ والمكاتبة العربية رقم ٨ دفتر ١٨٨٦ أوامر عربي ص ١٦ بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٧٣هـ .

(٤) انظر صور الخلوات التي في هذا الكتاب .

(٥) عادة دفن الشيوخ في زواياهم أو قريبًا منها أو من المسجد الذي كانوا يعلمون فيه قديمة في الإسلام . ولعل أصلها أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن في المسجد المدني . وهي عادة معروفة في المسيحية أيضا إذ إن فناء الكنيسة كان ولا يزال يستعمل لدفن الموتى الأعزاء .

النوع من المسجد سريع الفناء والزوال بتأثير العوامل الجوية ، أمطار ورياح وحرارة . ولهذا لم يبق فى السودان إلا النادر من مساجد ذلك العصر (١) .

وإذا صح لنا أن نفترض أن تصميم المسجد فى أيام الفونج وسلطنة دارفور لم يختلف كثيرًا عن تصميم مسجد العلم فى القرن الماضى والحالى ، جاز لنا أن نقتبس هنا كنموذج لمسجد العلم فى السودان (٢) - هذا الرسم الذى (٣) نقلته لمسجد أو خلوة - أم دبان المشهورة قرب العيلفون . والمسجد عبارة عن مساحة مربعة طول ضلعها نحو خمسين مترًا ، يحيط بها سور من الطين يرتفع مقدار قامة الرجل . وبهذا السور أربعة مداخل فى كل جهة مدخل من غير باب . وفى منتصف المساحة الداخلية تقريبًا حجرة من الطين طولها ١٢ مترًا وعرضها ٨ أمتار أمامها راكوبة . والحجرة والراكوبة تستعملان للتدريس عندما لايسمح الجو بالتدريس فى الهواء الطلق ، وذلك عند اشتداد الحر أو سقوط المطر . وفى الجانب الشمالى من المسجد ثلاث حجرات كل حجرة تسمى خلوة ، تستعمل كل واحدة منها للسكنى ، ويسكنها فقيه القرآن والكبار من الحيران (التلاميذ) وقد زرع فى المسجد عدد من الأشجار ، وبه بئر لاستنباط الماء ، ومكان توقد النار فيه ليلا للتلاميذ . وفى الركن الجنوبى الشرقى حوض صغير من الأسمنت مفتوح ، وبه ماء ، ويسمى هذا الحوض «المحاية» ؛ لأن التلاميذ يستعلمون ماءه لمحو ما يريدون مما كتبوه من القرآن . هذا هو مسجد القراءة أو ما يعرف بخلوة أم ضبان . أما مسجد الصلاة فمبنى من الآجر واللبن . ويقع فى الجنوب الشرقى من الخلوة ، بينهما فاصل صغير . وفى الشمال الشرقى ضريح ذو قبة للشيخ محمد بدر العبيد مؤسس هذه الخلوة . وفى الجنوب الغربى ضريح آخر ذو قبة للشيخ أحمد بن محمد بدر العبيد ، وهنا يلاحظ أن مسجد العلم منفصل عن مسجد الصلاة .

---

(١) مثل مسجد مدينة سنار ، ومسجد كتران ، ومسجد دنقلة العجوز ، وهذه كلها رممت مرات . راجع الوثائق الخاصة بالمسجد فى السودان بمجلد الملحقات ، فى الأقسام التابعة لعهد عباس وسعيد وإسماعيل .

(٢) زرت هذا المسجد وعملت له هذه الصور الشمسية فى ١٩٤٢/٦/١٧ . ويقول مؤلف العربية فى السودان (ص٨٨ ج٢) «وأسس الشيخ محمد بدر المشهور بالشيخ العبيد مدرسة كبرى بأم ضبان لدراسة القرآن الكريم ، كانت ولا تزال لها الفضل العظيم على هذه البلاد ، يفد إليها الطلبة من أطراف السودان» أما الشيخ العبيد فهو مسلمى الأصل ولد سنة ١٢٢٢ أو سنة ١٢٢٦ وتوفى سنة ١٣٠٢ هـ . وفى صفحة ٧٠ من كتاب N.T.P.F.B.N Province ما يفيد أن هذا المسجد بنى حوالى سنة ١٨٥٧ . وسنتكلم عن هذا المسجد بشىء من التفصيل فى فصل آخر .

(٣) انظر رسم المسجد فى مجلد الملحقات .

ولعل هذا الانفصال بين مسجد العلم ومسجد الصلاة قد حدث أخيرًا احتفاظًا بمسجد الصلاة من الإهمال والتلف ، الذى ينتج عادة من كثرة استعمال الصبيان له . وشبيه بهذا ماهو شائع فى المغرب من فصل مسجد العلم (الذى يسمى عندهم بالمسيد) عن مسجد الصلاة الذى يسمى عادة باسم الجامع .

وهنا يجدر بنا أن نذكر وصف مسجد الدامر العلمى الذى زاره لويس بركهارت فى أبريل سنة ١٨١٣ فهو يقول [(١)] وفى الدامر «مسجد كبير حسن البناية ، ولكنه من غير مئذنة . وهو مسجد ذو عقود من القوالب وأرضه مغطاة بالرمل النظيف ، وهو ألطف وأبرد بقعة فى الدامر . ويلجأ إليه أبناء السبيل والغرباء فيمضون به بضع ساعات فى النوم والراحة بعد صلاة الظهر ، ويتصل بمسجد الصلاة فناء يحيط به عدد من خلوات التعليم School ronms ولكثير من الفقهاء مساجد صغيرة بقرب منازلهم . ولكن صلاة الجمعة تقام دائمًا فى هذا المسجد الجامع» وإذًا فقد لاحظ بركهارت أن المسجد الجامع يستعمل للصلاة ، وأنه محاط بعدد من الخلوات التى تستعمل للتعليم ، وأن المسجد ، إلى وظيفته الأصلية ، يستعمل أيضًا مأوى للعابرين والغرباء ، يمضون فيه بعض وقتهم ، وأن التعليم فى هذه البلدة ـ كما فى غيرها من بلاد السودان حقًا ـ له خلوات أخرى غير تلك التى تتصل بالمسجد ، خلوات قريبة من منازل الفقهاء أنفسهم ، وهذا مألوف ومعروف أيضًا حتى الآن .

وقبل بركهارت زار بلاد دارفور من السودان براون [(٢)] . وقد تنقل فى أنحاء دارفور ، وكتب كل ما لفت نظره . ولم يذكر إلا قليلا عن التعليم هناك . وهو يشير إلى أنه كان فى بلدة كوبة عندما زارها مسجد واحد صغير ، هو عبارة عن حجرة صغيرة مربعة مبنية من الطين ، يجتمع فيها الفقهاء ثلاث مرات فى الأسبوع ، ويذكر فى مكان آخر أنه قد بدئ فى بناء مسجد أكبر بنفس البلدة من الطين أيضًا ، على رقعة من الأرض مساحتها نحو ٦٤ قدمًا مربعة (هكذا يقول فى كتابه!!) وكان سمك الحائط نحو ثلاثة أقدام .

---

(١) ص ٢٦٧ من كتاب بركهارت Traveld in Nubia المطبوع بلندن ١٨٢٢م .

(٢) الرحالة W.G Browne صاحب كتاب:

Travels in Africa, Egypt and Syris from the Year 1792 to 1798. London 1799.

على أنه يجب أن نعترف بأن بناية المسجد اختلفت من مكان لمكان ، ومن وقت لوقت ؛ ففى القرى الكبرى أو المدن مثلا كانت مواد البناء أمتن وأقوى (١) وكانت هناك عناية بهندسة التصميم وفرش المسجد ، وإنارته ، وتعيين خطيبه ، وإمامه ، وخدمه ، والمدرسين فيه بحسب القائمين على المسجد (٢) ، وما ينفق عليه .

هذا ما كان من أمر بناية المسجد ومساحته ، أما أثاثه فالراجح أنه كان بسيطًا جدًا ، فقد كان الشيخ يجلس للدرس على «العنقريب» المفروش أو غير المفروش (٣) ، أو على الأرض فوق الفروة ، أو فوق البرش . ويجلس التلاميذ فى حلقة على الأرض ، أو على الفراء وما يقوم مقامها . ومن المناسب هنا أن نقارن بين حال المسجد ـ وهو معهد التعليم بالسودان ـ بحال المدرسة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر بأوروبا .

وصف أحد المدرسين مدرسة بزويخ فى القرن الثامن عشر قال : عندما فتحت باب المدرسة وكانت حجرة واحدة ـ استولى على شعور مزعج . فقد رأيت فى ركن مظلم من الحجرة أثمن كنز عندنا ـ أطفالنا ـ جلوسًا ، يتنفسون الهواء الساخن المحمل بذرات الماء العضة . وقد تراكم الأطفال بعضهم بجانب بعض ، حتى ليصعب على المرء أن يغادر حجرة الدراسة من غير أن يتخطى على المقاعد والمناضد . وكانت معظم المدارس فى المنازل . وعندى فى بيتى مدرسة هى فى الواقع حجرة واحدة استخدمها لسكنى وللتعليم (٤) .

ولم تكن هذه حال المدرسة فى سويسرا فقط ، ففى غيرها من أنحاء أوروبا مدارس شبيهة بها . وقد ذكر قسيس من مقاطعة الألزاس قال : أخذت زميلا لأريه المدرسة ، فذهبنا إلى كوخ حقير حيث كان التلاميذ جلوسًا ، وهم فى شدة الازدحام ، ومن غير عمل . وكانوا فى حال من الهياج والصخب حتى إن صاحبى لم يستطع ، إلا بشق الأنفس ، وأن يسمع الجواب حينما سأل التلاميذ : أين المدرس؟

---

(١) كان لمسجد الشيخ أبى إدريس بن دفع الله العركى فى أبيض ديرى صورة من الحجارة (ص ١٣ من الطبقات طبعة منديل) . وفى ص ٨٠ من الكتاب نفسه أن الشيخ دفع الله جاب الطوب لبناء مسجد أبى حراز فى سبع مراكب ولكن نسخة إبراهيم صديق تذكر أن المراكب جلبت الخشب لا الطوب .

(٢) كان فى سنار مسجد حسن البنا ذكره كايو فى ص ٢٥٩ ج٢ من كتابه .

وفى مجلد الرسوم والصور ج١ نجد الرسم رقم ٧ صورة لهذا المسجد . Voyage a Méro3, au Fleuve Blane

(٣) راجع الطبقات ص ٢١ طبعة منديل .

(٤) ص ١٦ من كتاب بستالوتزى الطبعة الإنجليزية ـ تأليف J.H. Green سنة ١٩١٣م .

فإذا ما انتقلنا إلى انجلترا وقرأنا التقرير الذى وضعته سنة ١٨٤٧ The Committee of Council on Fducation وجدنا :

كانت المدرسة فى حجرة حقيرة فوق اسطبل . ولايدخل إليها الضوء إلا من كوتين صغيرتين لهما شبابيك زجاجية . وكان سقف الحجرة منخفضًا . وفى أحد الأركان يرى الزائر مقاعد مكسرة ، وبعض الزكائب ، وسلة قديمة . وفى ركن آخر خزنت قوالب من البلاط وجير . ويتكون الأثاث من منضدة صغيرة مربعة للمدرس . وثنتين آخريين للتلاميذ ، وعدد من المقاعد الطويلة فى حال سيئة . وألواح الزجاج التى بالكوتين مكسرة . وقد استعيض عن بعضها بقطع من الورق ، وعن بعضها الآخر بلوح من الاردواز ليمنع دخول المطر (١) .

فهذا وصف لبعض المدارس كما كانت معروفة فى أوروبا وإنجلترا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وإنه لمن الحق أن نقرر أن معهد التعليم في السودان ـ المسجد أو الخلوة ـ كان أكثر صلاحية من الناحية الصحية والعملية من المدرسة التى وصفناها .

وإذا كانت المساجد والخلاوى بالسودان فى ذلك العهد هى معاهد التعليم المنتشرة فى أنحاء البلاد كان طبيعياً أن نجد من المساجد ماهو مشهور بتدريس العلم ، ومنها ماهو مشهور بتدريس القرآن ، ومنها ماجمع بين تدريس العلم والقرآن (٢) ، غير أنه لم تكن هناك قواعد خاصة يمكن بمقتضاها القول بنوع المادة التى تدرس فى المسجد ، وإنما كانت الظروف هى التى تقرر نوع مايدرس فيه ، فقد يستعمل المسجد مدة من الزمن لتدريس القرآن فقط ، ثم يستعمل بعد ذلك لتدريس القرآن والعلم ، أو العلم فقط . كل ذلك يحسب ما يتيسر من صلاحية الفقيه ، أو الشيخ الذى يوكل إليه تدريس العلم ، وقد ذكر مؤلف الطبقات أنه لم يجلس فى مسجد الحلفاية ـ وهو مسجد أسرته ـ لتدريس العلم إلا جد والده ، ضيف الله بن على (٣) ووالده ضيف الله بن محمد .

---

(١) ص ١٧ من كتاب بستالوتزى المشار إليه .

(٢) كان التدريس فى المساجد فى مصر منصرفًا غالبًا إلى تعليم العلم . وكان فى بعض المساجد يدرس القرآن إلى جانب العلم . كمسجد ابن البناء داخل باب زويلة بالقاهرة . وقد جرت العادة أن يلحق بالمسجد مكتب خاص بتعليم المبتدئين القراءة والكتابة ، وإقرائهم القرآن (راجع قسم الملحقات الخامس من كتاب التعليم بمصر لأمين سامى باشا) .

(٣) ص ١٠٣ من طبعة منديل .

والمتتبع لتاريخ هذين العالمين يجد أن الأول (١) مات سنة ١٠٩٥هـ ، وأن الثانى جلس لتدريس الفقه والفتاوى (٢) والأحكام سنة ١١٣٠هـ ، ومعنى هذا أن فترة من الزمن قدرها خمس وثلاثون سنة مضت على مسجد الحلفاية ، من غير أن يدرس فيه العلم . ولكن هل كان المسجد خاليًا من تدريس القرآن طيلة هذه المدة؟ ، وهل كان المسجد خلوًا من تدريس القرآن قبل ضيف الله ابن على ، وبعده ، وأثناء تدريس ضيف الله بن محمد؟ ، إن رواية مؤلف الطبقات فى مناسبات مختلفة من الكاتب تشير إلى أن القرآن كان يدرس فى مسجد الحلفاية فى كل هذه العهود . فمن ذلك أن حمد بن حميدان تلميذ الشيخ دفع الله العركى (١٠٠٣ - ١٠٩٤ هـ) لما قدم من عند أستاذه دخل مسجد الحلفاية ودرس فيه (٣) القرآن . والغالب أن هذا كان حوالى سنة ١٠٩٠هـ . ولما ترك حمد بن حميدان المسجد قام موسى ولد هنونة بتدريس القرآن فى المسجد ثانيا (٤) . ويظهر أن موسى لم يقرئ القرآن طويلا بالمسجد ؛ لأن حفيده وابن بنته دفع ابن محمد الكاهلى ، المولود سنة ١٠٧٨ ، جلس فى هذا المسجد «لتدريس القرآن بعد شيخه (محمد بن حمدين) بقليل ، وانتفع به خلق كثير معقلة مدته وهى عشر سنين (٥) كذلك جلس لإقراء القرآن فى مسجد الحلفاية الفقيه شكر الله بن عثمان بن بدوى ابن العودى (٦) ، واشترك معه فى تدريس القرآن إلى سنة ١١٣٤ عبدالدافع القنديل بن محمد بن حمد الجموعى (٧) ، الذى استمر يدرس القرآن بعد هذا التاريخ إلى سنة ١١٨٠هـ ، أى فى الوقت الذى كان فيه الشيخ ضيف الله بن محمد (٨) يدرس العلم بنفس المسجد .

ومن هذا كله نستنبط أن ظروف المسجد (٩) والقائمين عليه هى التى كانت تقرر نوع المادة التى تدرس فيه . غير أن هذا لايمنعنا من القول ، كما سبق ، بأن بعض المساجد اشتهر بتدريس

---

(١) ص ١٠٨ من طبعة إبراهيم بن صديق حيث يقول (وتوفى رحمه الله فى لجعة أم لحم سنة ١٠٩٥هـ) .

(٢) ص ١٠٩ من طبعة إبراهيم بن صديق .

(٣) ص ٥٤ من طبعة منديل .

(٤) ص ٥٤ من نفس الطبعة . ويظهر أن موسى ولد هنونة كان يقرئ القرآن بمسجد الحلفاية قبل حمد بن حميدان . ولما ترك حمد جاء موسى مرة ثانية لإقراء القرآن .

(٥) ص ٨٢ من طبعة منديل ، وإذا عرفنا أن دفع الله مات سنة ١١٢١ ، فهمنا أنه بدأ التدريس سنة ١١١٠هـ .

(٦) ص ٩٤ من طبعة منديل .

(٧) ص ١٢٧ من طبعة منديل .

(٨) توفى ضيف الله بن محمد سنة ١١٨٢ .

(٩) يطلق لفظ « المسيد» فى السودان على مسجد العلم . ومما لاشك فيه أن كلمة المسيد هذه محرفة من المسجد . ومن ذلك مسيد أولاد عيسى ، وهو مسجدهم الذى فى قرية «المسيد» على الشاطئ الغربى من النيل الأزرق فى جزيرة سنار ، وفى بلاد المغرب تستعمل كلمة المسيد هذه بكثرة ويراد بها مسجد العلم فقط أما مسجد الصلاة فيطلق عليه جامع كما ذكرنا .

القرآن فقط ، وبعضها اشتهر بتدريس العلم فقط ، أو هما معا ، فالغبش مثلا ـ وهم سكان بربر ـ اشتهروا فى ذلك الوقت بتدريس القرآن وأحكامه وقراءاته ، وتخصصوا فى ذلك . وكانت خلوات القرآن ومساجده عندهم [١] تضم أحيانًا ألف طالب ، وكان يؤمهم الطلبة من جميع أنحاء العالم ، حتى لقد قيل ذهب تدريس القرآن بذهاب الغبش .

ومن مساجد القرآن فى السودان مسجد نورى فى عهد سعد الكرسنى ، الذى كان يدرس فيه القرآن وأحكامه بعد عبدالرحمن ولد أسيد . «ورحلت إليه الناس من الأبواب وأرض الصعيد ودار دنقلة . وكان شديد الرياضة لحيرانه ، وحارصًا على معرفتهم للشد والمد والهمز والقلقلة والإظهار والإدغام والغنة ، ومعرفة الوقوف من تام وكاف وحسن [٢]» وكان الشيخ باسيار الشكرى يدرس القرآن فقط فى الفوز تحت سدرات هناك . وبلغ عدد طلبته ألف طالب وقرأ عليه رجال صالحون منهم أولاد برى (على وإبراهيم) وحميد الصاردى ، والشيخ عبدالله ولد أبارو ، وأولاد الشيخ فايد وجماعة كثيرة العدد . . وكان قاقم بن إبراهيم ولد برى يدرس القرآن فقط فى مسجد أسرته . وهو الذى أوقد نار القرآن بعد أبواته ، وعمرت حلقته عمارًا شديدًا [٣] وليس معنى اشتهار مسجد بتدريس القرآن أنه يظل كذلك مشهورًا ومقصورًا على تدريس القرآن وأحكامه ، بل الأمر مرهون عادة بكفاية من يقومون بتدريس القرآن فيه . والذى لاشك فيه هو أنه قد عرفت فى السودان طبقة تسمى قراء [٤] القرآن . وهم أولئك الذين جعلوا مهنتهم تدرس القرآن وأحكامه فقط . وهؤلاء إما أن ينفردوا بتدريس القرآن فى مسجد خاص ـ أو خلوة خاصة ـ ولاشأن لهم بتدريس العلم فى هذا المسجد ، وإما أن يلتحقوا بخلوة فى مسجد ، وينصرفوا إلى تدريس القرآن فقط للمبتدئين ، بينما يقوم غيرهم من العلماء والمتفقهين بتدريس علوم [٥] الدين واللغة .

---

(١) ص ١٢٢ طبعة مندبل .

(٢) ص ٨٨ من طبعة منديل .

(٣) ص ١٣٩ من طبعة منديل .

(٤) انظر طبعة إبراهيم بن صديق من ص ١٢٨ إلى ص ١٤٠ فقد ذكر فى أول صفحة ١٢٨ عنوانًا هو «قراء القرآن» ، وتبع هذا العنوان أن تراجم كثير من الفقهاء قراء القرآن . وإن كنا نلاحظ أن بعض هؤلاء القراء لم يشتغل بتدريس القرآن مطلقًا ، وبعضهم كان صوفيًا .

(٥) من ذلك أن موسى ولد هنونة كان يقرئ القرآن فى مسجد أبى حراز فى حياة الشيخ دفع الله العركى الذى كان يدرس العلم فى هذا المسجد .

هذا وإلى جانب مساجد القرآن اشتهرت مساجد بتدريس العلم [١] فقط ، تأوى إليها الطلبة وقد أتموا دراسة القرآن وحفظه ودراسة أحكامه . من هذا أنه كان لعبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايقية ، ومسجد فى كورتى ، ومسجد فى (دنقلة) الدفار . وكل مسجد يقرأ فيه (الفقه) أربعة شهور . ولم يصلنا عن طريق الكتابة أو الرواية ما يفيد أن هذه المساجد كانت تستعمل لتدريس غير العلم وبخاصة الفقه .

كذلك كان الشيخ صغيرون يدرس الفقه فى مسجد أخواله بدنقلة . ثم انتقل إلى القوز [٢] حيث بنى له مسجداً «وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار [٣] ، وضربت إليه أكباد الأبل . وانتفعت به الناس . وممن أخذ عليه من الأجلاء الشيخ دفع الله ابن الشيخ أبو إدريس [٣] والفقيه عبدالحليم [٥] ولد بحر ، وأولاد برى على [٦] والحاج إبراهيم [٧] ، ونور المنن الكاهلى البرقانى ، وأولاد التنقار الثلاثة ـ محمد [٨] وحمودة ومازرى ـ ومدنى الحجر بن الحاج عمر [٩] أخيه ، ومحمد بن الحاج أبو القاسم وأخيه» ومدة تدريسه فى الأبواب (الفوز) ثلاث عشرة ختمة فى خليل أو أربع عشرة أو خمس عشرة . أى ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة أو خمس عشرة .

ومن مساجد العلم مسجد مويس [١٠] الذى بناه محمد بن التنقار ، هذا العالم الذى شدت إليه الرحال وأقام فى التدريس مدة طويلة ، وكانت له تفانيد وتقارير مفيدة على مختصر خليل انتفعت بها الطلبة . وكان الشيخ إبراهيم عبودى المشهور بالفرضى يدرس مختصر خليل فى

---

(١) ص ١٠٤ من طبقات منديل .
(٢) هو القوز المعروف بقوز العلم ، أو قوز صغيرون وموقعه جنوبى كبوشيه .
(٣) ص ٩٥ طبعة منديل .
(٤) ص ٧٩ طبعة منديل .
(٥) ص ١٣١ طبعة منديل .
(٦) ص ١٢٩ طبعة منديل .
(٧) ص ٢٨ طبعة منديل .
(٨) ص ١٦٥ طبعة منديل وص ٧٠ .
(٩) ص ١٦٥ طبعة منديل .
(١٠) ص ١٦٥ من طبعة منديل .

مسجد الغبيه بمنطقة النيل الأبيض ، وألف الحاشية المشهورة بالفرضية فى علم الفرائض . ومن أجل ذلك لقب بالفرضى [1] واشتهر بتدريس العلم محمد محمد بن مسلم [2] المشهور بأمه قوته . فإن محمداً هذا كان له مسجد بالقوز ، ثم انتقل إلى الهلالية وعلم فيها . وأذعن له جميع علماء الجزيرة كأنه ابن عرفة [3] فى الفقه . «وكان له باع طويل فى مختصر خليل ، ولا يجرؤ أحد من العلماء أن يدرس أو يفتى فى حضرته . وكان يدرس (مختصر) خليل والعقائد وابن عطا الله وشراب القوم .

هذا وأغلب المساجد فى السودان كان لتدريس القرآن والعلم . نفهم هذا من مراجعة تراجم العلماء والفقهاء فى كتاب الطبقات ، وما وصل إلينا من الروايات الشفهية ومن كتب الرحلات . فمن ذلك ماوراه بوركهارت [4] فى كتابه «رحلات ببلاد النوبة» من أنه وجد بديار الشايقية كثيراً من المدارس والمساجد والخلاوى التى تدرس فيها علوم الدين الإسلامى ماعدا الحساب والفلك [5] . ثم يمر بركهارت بالدامر ويصفها ، ويذكر [6] أن بها «عدداً كبيراً من المدارس (يعنى الخلاوى التى بالمسجد) يفد إليها الصبيان من دارفور وسنار وكردفان وجهات أخرى من السودان ، لكى يدرسوا الفقه ويمهروا فيه حتى يصيروا بذلك فقهاء عظامًا فى بلادهم . وعند علماء الدامر كتب كثيرة ، ولكنها جميعها مؤلفة فى العلوم الدينية والفتاوى . . . وقد أحضر هذه الكتب من القاهرة شبان الفقهاء من أهل الدامر ، الذين يذهب كثير منهم إلى

---

(١) ص ٢٢ طبعة إبراهيم بن صديق .

(٢) ص ١٧٤ من طبعة صديق .

(٣) يعنى محمد بن محمد عرفة الورغمى التونسى (ولد سنة ٧١٦هـ ومات سنة ٨٠٣) كان إمامًا عالمًا فى مذهب مالك . درس القراءات العشر ، والحديث ، والفرائض ، والعلوم العقلية ، كالنحو والمنطق والجدل . ألف المختصر الفقهى فى مذهب مالك فى نحو عشر مجلدات . وله تآليف أخرى فى التفسير واشتغل بالتدريس فى مسجد تونس (باختصار من الابتهاج ص ٢٧٤) .

(٤) قام John Lewis Burkhardt السويسرى برحلات فى بلاد النوبة السفلى مرتين . وفى الثانية ذهب إلى جهة بربر فالدامر فشندى . ومن هناك إلى بلاد التاكه فسواكن فجدة فالحجاز . وذلك فى خلال سنة ١٨١٤ وسماه Travels in Nubia وقد طبع هذا الكتاب بلندن سنة ١٨٢٢ على نفقة The Ascociation for Promoting the Discovery of the Interior Parts Afriea.

(٥) ص ٧٠ من الكتاب المذكور .

(٦) ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ من الكتاب المذكور .

الأزهر للمجاورة ، أو إلى المسجد الحرام بمكة . وهناك يظلون ثلاث سنوات ، أو أربعًا ، يتلقون فيها العلم ويعتمدون فى معاشهم على ماينالهم من الصدقات والجراية . وفى معاهد العلم بالدامر يتعلم الصبيان قراءة القرآن ، والتجويد ، والتفسير والتوحيد» .

ويروى لنا مؤلفا الطبقات أن عبد الرحمن بن أسيد انتقل مع أخواله من مسجد نورى إلى الأبواب (الفجيجة) حيث بنوا مسجدًا هناك سنة ١١٠٧ وأوقدوا نار العلم (١) ونار القرآن وعمر المسجد عمارًا شديدًا (٢) ثم إن عبدالرحمن هذا سلك الطريق على الحاج عبدالله الحلنقى فى أبى حراز ، فأعطاه شيخه ستمائة فقير ؛ ثلاثمائة للقرآن ، وثلاثمائة للعلم ، فهذا نص صريح على أن مسجد عبدالرحمن بن أسيد جمع بين تدريس القرآن والعلم . وفى ترجمته نجد وصفا مفصلاً لكيفية تدريسه العلم والقرآن (٣) .

وهذا هو ذا الشيخ محمد القناوى المصرى ، الذى قدم بلاد الفونج فى النصف الثانى من القرن العاشر «ودخل بربر ومدينة أريجى وسنار ، ووافقه سكن بربر وقال هواؤها أطيب من جميع البلاد . وبنى له مسجدًا بها لتدريس الرسالة والعقائد (٤) والنحو وسائر العلوم» . والشيخ محمد القناوى هذا هو أستاذ الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب فى القرآن وعلومه (٥) . ومعنى هذا أن الشيخ القناوى كان يدرس فى مسجده القرآن والعلم .

ومن المساجد التى كانت لتدرس العلم والقرآن مسجد الفقيه أرباب بن على بن عون الخشن(٦) وسمى أرباب العقائد لمعرفته التامة بالتوحيد والعقائد وقد شدت إليه الرحال فى علم التوحيد والتصوف ، وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيف من دار الفونج إلى دار برنو ، تلامذته وتلامذة تلامذته ، وألف كتابًا فى أركان الإيمان وسماه الجواهر وانتفعت (٧) به الناس شرقًا وغربًا» . ونحن نلاحظ أن الفقيه أربابًا هو الذى تتلمذ عليه حمد بن محمد بن على المشيخى

---

(١) سأتكلم فى فصل قادم عن المراد بنار العلم ونار القرآن .
(٢) ص ١٢٢ من طبقات منديل .
(٣) ص ١٢٣ من طبعة منديل .
(٤) ص ٣٠ من الطبعة المذكورة .
(٥) ص ١٥٧ من الطبعة المذكورة .
(٦) ص ٢٩ من الطبعة المذكورة .
(٧) ص ٣٠ من طبعة منديل .

فحفظ عليه القرآن ، وقرأ عليه التوحيد وابن عطاء الله (١) . وهذا يدل أيضًا على أن الفقيه أربابًا كان يعلم فى مسجده القرآن وعلوم الدين .

هذا وقد أوقد الشيخ محمد بن عدلان الشايقى نار القرآن (٢) ونار الكرم ونار العلم فى جزيرة تنقاسى ، بعد ما رجع من مجاورته فى بيت الله الحرام بمكة وبعد ما قرأ علم الكلام ، والمنطق والأصول ، والعربية ، بالمدينة على عبدالله المغربى (٣) .

وكان عبد الرحمن بن حاج الدويحى تلميذاً للفقيه عبدالرحمن بن أسيد ، حفظ عليه القرآن وأحكامه ، وقرأ عليه مختصرخليل والرسالة والعقائد . فلما رجع من عند أستاذه إلى أهله بدار الشايقية قام بتدريس القرآن والفقه وأعطاه اللّه قبولاً تامًا ، عند الخاص والعام(٤) . وكان محمد ابن عيسى بن صالح البديرى ، المشهور بسوار الذهب يعلم القرآن والعلم . وممن أخذ عليه القرآن وأحكامه الشيخ عيسى ولد كنو ، وعبدالله الأغبش . وممن أخذ عليه التوحيد الفقيه حسين أبو أشعر (٥) .

وأوقد يعقوب بن بانقا ، بعد عودته من أستاذه الشيخ عبد الرحمن بن جابر بدنقلة ، نار القرآن والفقه والتوحيد فى مسجد والده ، واستمرت الحال على ذلك فى أسرته من بعده (٦) .

وقد ظل هذا النظام ، نظام تدريس القرآن والعلم ، فى بعض المساجد أثناءالقرن التاسع عشر بل وإلى الآن ، من ذلك أن مسجد أم ضبان كان ولا يزال يعلم القرآن والعلم . وقد حدثنى الشيخ عمر الأزرق (٧) بن محمد قال : «أن مسجد أسرتنا الذى بالقضارف ـ بحلة الصوفى

---

(١) ص ٦٣ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٦٤ من طبعة منديل .

(٣) لم أعثر على ترجمة للشيخ عبدالله المغربى هذا فى كتب التراجم . وقد عثرت عرضا على ذكر له فى ص ٣٤٤ من كتاب تاريخ التشريع الاسلامى لعبد اللطيف السبكى وزميليه . ومنه يفهم أنه كان أستاذًا للشيخ على الصعيدى العدوى ، وأنه تتلمذ على الشيخ الخرشى كان عالمًا من علماء المالكية فى القرن الثانى عشر الهجرى .

(٤) ص ١٢٤ من طبعة منديل .

(٥) ص ١٥٧ من طبعة منديل .

(٦) ص ١٧١ من طبعة منديل .

(٧) هو مدرس بمدرسة كسلا . وقد قابلته فى ١٩٤١/١٢/١٠ عندما ذهبت للتفتيش على هذه المدرسة . وكان عمره إذ ذاك نحوا من ٥٥ سنة . والشيخ عمرهذا هو ابن محمد بن محمد بن محمد الأزرق بن أحمد بن حمد بن محمد المجذوب من أسرة المجاذيب المشهورة فى الدامر ، أسرة الصلاح والعلم . وقد ذكرها بركهارت فى زيارته للدامر . وترحم لأفرادها ود ضيف الله فى طبقاته (راجع مجلد الملحقات) .

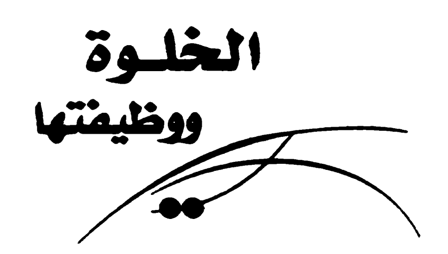
الأزرق ـ كان ولايزال يعلم القرآن والعلم وللقرآن فقيه خاص ، وللعلم شيخ خاص . فمثلا كان شيخى فى القرآن يسمى الفقيه حمد عرب . ولما أتممت حفظ القرآن ابتدأت دراسة العلم على ابن عم والدى المسمى الشيخ أحمد الحاج على . وكان الشيخ أحمد هذا قد ذهب للحجاز ، فى أيام المهدية . وظل هناك عدة سنوات مجاوراً فى مسجد المدنى . ثم عاد إلى الصوفى الأزرق حيث تولى دراسة العلم فى مسجدنا» .

وبما سقناه من الأمثلة نستطيع أن نقول إن وظيفة المسجد التعليمية لم تكن دائمًا مقصورة على تدريس القرآن فقط ، أو العلم فقط . ولكنها كانت فى الغالب تشمل القرآن والعلم ما . وإن ظروف المسجد هى التى كانت تقرر نوع الدراسات التى تجرى فيه .

هذه هى وظيفة المسجد فى السودان فما أشبهها بوظيفة المسجد فى غير السودان من البلاد الإسلامية .

■■■

الخلـوة ووظيفتها



إن الزائر للسـودان ، والمتنقل فى أرجـائه ، ليـشـعـر بما للخلوة من أثر فى حـيـاة السكان الاجتماعية والثقافية ؛ فالخلوة فى السودان الآن تدل على المعانى الآتية :

١ ـ مكان للتعبد ، وهو المعنى الأصلى للكلمة الذى أشرنا إليه فى باب سابق ، فالمريد لابد له «فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه [١] وفى نهايته من الخلوة» حتى ينقطع لعبادة الله .

٢ ـ مكان التعليم سواء أكان تعليم القرآن فقط ، أم القرآن وغيره من العلوم الدينية .

٣ ـ مكان الضيافة [٢] وهو ما يقابل فى مصر الديوان ، أو المندرة ، أو المسطبة [٣] .

ولما كانت هذه الوظائف الثلاثة المذكورة للخلوة ذات أثر فى حياة البلاد الاجتماعية والثقافية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى ، ناسب أن ندرس كل وظيفة ، وأن نبين مقدار صلتها بالوظيفتين الأخريين التى للخلوة . وهنا يجدر بنا أن نشرح وظائف مؤسسة إسلامية أخرى شبيهة بالخلوة هى الزاوية ، لنرى ما إذا كان ثمة تشابه فى الوظائف بين هاتين المؤسستين .

ذكرت دائرة المعارف الإسلامية[٤] أن الزاوية أطلقت فى الأصل على الصومعة التى يتعبد فيها الراهب المسيحى ، وأصلها فى اليونانية كلمة Ywvia ثم أطلقت عند المسلمين فى الشرق

---

(١) ص ٦٦ من الرسالة القشيرية .

(٢) يقول مكميكل فى ص ٢٧٧ من الجزء الثانى من كتاب تاريخ العرب فى السودان .
The term now often used of the guest house or house in a village for strangers and attached, as rule to the mosque, it is often used in its proper sense of a place of retreat for meditation.

(٣) يقابل الخلوة بهذا المعنى فى الحجاز السهراية ، وفى العراق المضيف ، وفى المغرب دار الضياف ، وفى لبنان الديوان أو المنزول .

(٤) راجع هذه المادة فى دائرة المعارف الإسلامية .

على المسجد صغير الحجم ، يصلى فيه الناس . وهى فى هذه الحال تتميز عن الجامع أو المسجد بصغر حجمها .

وللزاوية فى شمال إفريقيا وظيفة أهم مما سبق ، وهى أنها بناية ، أو عدة بنايات دينية ، شبيهة بالدير والمدرسة معا . ثم ذكرت دائرة المعارف أن الزاوية بالمغرب ـ كما عرفها Daumas فى كتاب La Kabylie تشمل على الأشياء الآتية أو بعضها :

١ ـ حجرة للصلاة والتعبد بمحراب .

٢ ـ ضريح لأحد المرابطين أو الأولياء تعلوه قبة .

٣ ـ حجرة مخصصة لتلاوة القرآن .

٤ ـ مكتب أو مدرسة للقرآن .

٥ ـ حجرات لضيوف الزاوية من الحاج ، والرحالة ، والطلبة ، ويجاور الزاوية عادة قبور أولئك الذين أوصلوا فى حياتهم بأن يدفنوا بجوارها .

هذه هى وظائف الزاوية فى بلاد المغرب كما يقول Daumas .

والحقيقة أنها بعينها هى وظائف الزاوية ، كما عرفت فى مصر ، منذ نشأتها فقد «وجد فى الزوايا فى مصر ـ ولاسيما الكبيرة منها ـ قراءً يتلون كتاب الله ، ويقرأون فى كتب التصوف والفقه فى أوقات محدودة ، ومؤذنون يعلنون الصلاة فى أوقاتها ، وأئمة يتصدرون المجاورين فى صلاتهم ، ومؤدبو أطفال يقرئون الأطفال القرآن ، ويعلمونهم مبادئ القراءة والكتابة . وكثيرًا ما كان الشيوخ يفاخرون بأن المجاورين يجدون فى زواياهم كل ما يلتمسون من ضروب العلم وألوان الحكمة . وقد ضمت بعض الزوايا خزائن كتب ـ كما كانت الحال فى زاوية الدردير ـ وقامت بها الحمامات والمراحيض والمدافن ، والخلوات التى يختلى فيها المجاورون للذكر والعبادة ، والمطاهر والآبار ، التى يستمدون منها الماء لشرابهم وطهورهم . أما عن العبادة التى كانت الغرض الأول من إقامة الزوايا فإن أكثر مظاهرها ذكر الله على انفراد ، وفى جماعة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن ، وإقامة الصلاة [1] وغير ذلك» .

---

(١) ص ٤٨ ـ ٤٩ من رسالة توفيق الطويل عن التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى .

وإذاً فوظائف الزوايا بالمغرب ـ كما تذكرها دائرة المعارف الإسلامية ـ ووظائف الزاوية بمصر ، كما فى رسالة الطويل ، هى بعينها وظائف الخلوة فى السودان . أما وظيفتها باعتبارها مكان التعبد ، والذكر ، والصلاة ، والانصراف عن الخلق إلى الخالق ، فهذه هى الوظيفة الأولى والتى اقترنت بها منذ ظهورها فى السودان . وها هو ذا عبد الرحمن بن جابر ، أكثر إخوته [1] صلاحًا ، قد اتخذ الخلوة للعبادة فى دار الشايقية . وكان يسدها على نفسه حينما ينفرد للتعبد فلا يقابل زائرًا مهماكان [2] .

وكان عبدالرحمن بن جابر هذا قد ذهب إلى مصر ، وتلقى العلم هناك على الشيخ محمد البنوفرى ، وكانت الخلاوى والزوايا منتشرة هناك فى إبان مجدها ورواجها ، وكانت الصوفية جزءاً من حياة العلماء والفقهاء وثقافتهم ، فابن جابر إذاً قد اتخذ فى مسجده خلوة للتعبد والتصوف بينما يقوم بتدريس فقه المالكية لطلابه . ففى المسجد اتخذ له خلوة ، وفى المسجد يعلم الطلاب ، وهذا يفسر لنا ما سنعرفه بعد من أن كلمة الخلوة صارت ترادف فى السودان كلمة المسجد ، وأن الناس صاروا يتساهلون فى استعمال كلمة الخلوة حتى كانوا ، ولا يزالون ، يطلقونها على مسجد التعليم ، كما كانوا يطلقون كلمة مسجد على خلوة التعليم . وابن جابر هذا رجع من مصر إلى السودان قبل قدوم [3] الشيخ تاج الدين البهارى من بغداد إليه . ومن المأثور والمنقول أن تاج الدين البهارى هو أول من أحضر الطريقة القادرية إلى السودان ، وأنه اتخذ له خلوة فى وادى شعير ، وبقى فى جزيرة سنار سبع سنوات ، وسلك خمسة رجال نشروا من بعده الطريقة القادرية بالسودان ، فظهرت خلاوى التصوف أينما ظهرت الطريقة . وكان محمد الهميم خليفة تاج الدين البهارى فأخذ عنه الأسماء والصفات التى يتعبد بها ، وعرف كيفية دخول الخلوات [4] .

---

(١) ص ٥ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ١٠٥ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) ص ٢٢ من كتاب Notes on the Tribes and Prominent Fomillies in The Blue Nile Province edited by J.A. Reid

(٤) ص ٤٢ من الطبقات طبعة منديل .

ومن هذا يظهر أن عبدالرحمن بن جابر جاء من مصر بنظام خلوة التصوف التى كانت معروفة مشهورة حينذاك ، وأقام خلوته فى مسجده ، وكانت هذه الخلوة تقابل من حيث وظيفتها الأصلية خلوة التصوف فى مصر أو الزاوية [١] ، وأن عبدالرحمن هذا قد جمع بين تعليم الطلبة والتعبد فى مكان واحد ، فكان من يقصد مسجد عبد الرحمن يقصد خلوته أيضًا ، ومن يقصد خلوته يقصد مسجده ، وإذا صح لنا أن نفترض أن نظام الخلوة بمعناها التعليمى والصوفى قد وفد إلى السودان من مصر فلسنا فى مقام النفى بأنه لم يدخل أيضًا من الحجاز ، فقد عرفت الخلوة فى الحجاز بهذا المعنى قبل قدوم تاج الدين البهارى ، ويحدثنا سنوك المستشرق الهولندى فى كتابه مكة (ص ١٧٢ جـ ٢ من الطبعة الإنجليزية) إنه كان بالمدرسة التى بناها السلطان قايتباى سنة ١٤٧٧ بالقرب من باب السلام فى مكة اثنتان وسبعون خلوة (Small Iiving room) وكانت هذه الخلوات لسكنى الطلبة والمدرسين ، وكان المدرسون يجمعون الطلبة ويحاضرونهم فى دهليز المدرسة الذى تحيط به الخلاوى . ومن هذا نفهم كيف أن وظيفة المدرسة انتقلت إلى الخلوة بعلاقة المجاورة ، وصار لفظ خلوة يطلق على المكان الذى يتعلم فيه الطلبة ، كما يطلق على حجرة الطالب أو الشيخ ، وعلى مكان اختلائه وبعده عن الناس ، وكان التصوف لايمكن فصله عن العلم فى ذلك الوقت فصارت خلوة التصوف هى مكانة تعبد الشيخ وتدريسه العلم ، وكذلك نلاحظ أن مدرسة قايتباى بخلاويها كانت ملاصقة للمسجد المكى .

ولما انتشر التصوف فى السودان قامت الخلوة بوظيفتها ، كمكان لتعبد المريد .ثم إن كثيرًا من فقهاء العلم قد جمعوا بين علم الظاهر ، وعلم الباطن أو علوم الدين والتصوف ، بل إن منهم من ترك تدريس العلم رغبة فى الانقطاع إلى التصوف ، فقد ذكر صاحب الطبقات أن حمد النحلان ، بعد أن كان يقوم بتدريس العلم ، التقى بالشيخ دفع الله ، وسلك عليه طريق القوم ، ثم ترك تدريس [٢] العلم قائلاً (أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة) ، ودخل الخلوة حيث ظل

---

(١) الحقيقة أن الزاوية فى مصر كانت تضم عددًا من الخلوات ـ كما كان المسجد كذلك ـ نفهم ذلك من رواية عبد الغنى النابلسى فى رحلته إلى مصر من أنه زار زاوية الدمرداش ، فرأى خارج ضريحه نحو خمسين أو ستين خلوة ، ذات أسوار وأنوار ، وهى التى تسمى مساجد الأنوار ، يختلى بها المريدون (انظر صفحة ١٣٠ من مخطوط : الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز لعبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٣٢هـ نسخة رقم ٣٤٤ جغرافيًا بدار الكتب) .
كذلك يحدثنا الشعرانى فى طبقاته الكبرى (ص ١٣٣ ـ ج٢) أنه كان لأحد الأولياء المسمى إبراهيم زاوية بجانب قبته وفيها خلاوى للفقراء .

(٢) ص ٥٨ من الطبقات طبعة منديل .

فيها اثنين وثلاثين شهراً . فخلوة الشيخ حمد النحلان هذه كانت تؤدى وظيفة واحدة هى كونها مكان التعبد والانقطاع عن الناس ، وقد عرف السودان هذا النوع من الخلوة فى جميع عصوره حتى الآن ، فقد ذكر لنا بركهارت [1] فى رحلته لما نزل الدامر أن الفقيه أو الفقير يعيش عيشة المتصوفين وله منزل صغير ؛ وسط رحبة واسعة فى قلب المدينة ؛ وإحدى حجرات منزله مكان للصلاة (مسجد صغير) والثانية حجرة تبلغ مساحتها نحواً من ١٢ قدمًا مربعًا يختلى فيها ليلا ونهاراً من غيرخادم يخدمه ، وفى عزلة من أسرته [2] .

فما هى إذًا هذه الحجرة الصغيرة التى تبلغ مساحتها ١٢ قدمًا ، والتى يظل بها ليل نهار من غير ما أحد يخدمه؟ ومن غير ما صلة بأسرته؟ إنها ولاشك خلوة التعبد والتصوف ، ثم ماهو ذلك الجزء الذى يطلق عليه بركهارت كلمة (Cha Pel) أليس مصلى أو مسجدًا صغيرًا ، يذهب إليه الشيخ الفقيه عندما يريد أن يتصل بالناس ويترك خلوته .

ألا إن من يقرأ كتاب الطبقات يجد أن عادة دخول خلوة التصوف كانت أمرًا شائعًا بين الفقهاء والأولياء ، وأن من الأولياء من لم يكن على شىء من العلم ومع ذلك كانت له خلوة يتعبد فيها . ومن ذلك الشيخ الهميم تلميذ تاج الدين البهارى ، فقد كانت له خلوة فى دلوت[3] يتعبد فيهاويخدم زوج شيخه ، والشيخ محمد الهميم هذا لم يقرأ من القرآن إلا من الناس إلى الزلزلة [4] ، وكان مكى الدقلاشى يسكن فى جبل بجى (فى الشمال الغربى من الدويم) وقد سلك الطريق على الشيخ دفع الله الذى أدخله الخلوة أسبوعًا فخرج منها وليًا من أولياء الله[5] .

---

(١) يقول هيللسون فى صفحة ٢٠٧ من مجلة Sudan notes and Recors Val. VI. Year 1923:
إنه وإن كانت رحلة بركهارت إلى بلاد السودان قد حدثت فى سنة ١٨١٤ ، أى فى نهاية الحقبة التى تحدث عنها مؤلف كتاب الطبقات ، ولكن من الجائز أن نفترض أن وصفه لما شاهده فى ذلك التاريخ ينطبق على ما كان حادثًا وقائمًا فى تاريخ أسبق . وأن حياة أسرة المجاذيب وأثرهم فى الدامر تشبه حياة وأثر الفقهاء السابقين لهم فى جهات أخرى .

(٢) ص ٢٦٧ من رحلات فى النوبة لبركهارت .

(٣) هذه البلد شرقى رفاعة أبى سن .

(٤) راجع ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٥) صفحة ١٤٩ من الطبقات طبعة منديل .

وإنما سقت كل هذه الأمثلة لأوضح كيف أن الخلوة كانت لها فى السودان تلك الوظيفة الأولى التى كانت للزاوية [1] والتى كانت للخلوة أيضًا ، غير أن الزاوية التى لم تشتهر فى السودان حينذاك ، وكانت أكبر من الخلوة عادة ، وقد تضم عدة خلوات كما ذكرنا .

أما الوظيفة الثانية للخلوة ، وهى الوظيفة التعليمية ، فيقابلها ما أشرنا إليه من وظيفة الزاوية التعليمية . ونحن قد ذكرنا فى صفحات سابقة [2] أن المسجد كان البناية الأولى التى استخدمت للتعليم . وقد ظهرت المساجد فى السودان فى وقت كانت فيه الصوفية جزءاً من الثقافة الإسلامية ، وكان الشيخ أو الفقيه الذى يعلم علوم الظاهر لا ينال من احترام الناس له وثقته بنفسه ما يناله الشيخ الصوفى الذى جمع بين علوم الظاهر والباطن [3] . وإذًا فقد وُجد فى السودان هؤلاء الشيوخ الذين تصوفوا ونصبوا أنفسهم لتدريس القرآن . وكانوا يتخذون المسجد مكانًا لتصوفهم وتعبدهم وتدريسهم . وكانوا يبنون الخلوات فى المسجد لأنفسهم ولمريدهم ، ويستعلمون هذه الخلوات تارة للتعبد ، وتارة للتدريس ، لا بل وكان الطلبة يقيمون أحيانًا فى هذه الخلوات التى كانت عادة ملتصقة بالمسجد أو قريبة منه ، وإذًا فهى شبيهة فى هذه الحال بالأروقة فى المساجد ، ولا تزال تؤدى هذه الوظيفة فى خلوة أم ضبان . وإذًا فقد جمع مكان واحد بين المسجد والخلوة سواء أكانت الخلوة داخل المسجد أم خارجه وسواء أكانت الخلوة للتعبد أم لتدريس القرآن والعلم . وقد كان بعض الكتاتيب فى مصر إما داخل المسجد أو متصلاً به . ويروى لنا الأستاذ عبد الجواد (ص ٢١ من كتاب القرية) أن الكتاب القديم الذى تعلم فيه كان يشغل حجرة فى زاوية فى فناء مسجد القرية .

ومن هذا يظهر كيف أضيفت إلى وظيفة الخلوة التعبدية الأولى وظيفة ثانية تعليمية لاشتراك الشيخ الواحد فى الوظيفتين . وهذا بعينه ما كان يحدث فى الزاوية ، فإن شيخ الزاوية كان يدرس لمريديه ويجلس للوعظ فتجتمع إليه الناس ، ويذكرهم ويروى لهم الحديث . ومن شيوخ الزاوية من كانت يبحث فى علم الطب [4] وغيره من العلوم . وقد كانت حاجة السودان

---

(١) وردت كلمة الزاوية فى طبقات ود ضيف الله مرة واحدة (ص ١١١ طبعة منديل) .

(٢) ص ٨٨ ومابعدها من هذا الكتاب . وقد ذكر الشعرانى فى الطبقات الكبرى (ص ١٢٩جـ٢) أنه كان يعلم فى زاويته الصبيان القرآن .

(٣) ص ٣٧ ـ ٣٨ من كتاب رحلات ابن بطوطة ترجمة جب للإنجليزية .

(٤) ص ٣٠٣ الجزء الرابع من خطط المقريزى طبعة المليجى .

إلى معرفة أحكام الدين الإسلامية ملحة ـ كما عرفنا ـ وكان لا مفر من أن يجمع الفقيه فى الغالب بين وظيفة التدريس ووظيفة تسليك المريدين طريق الصوفية . فكانت الخلوة لذلك مكان الوظيفتين وفيها يقيم الشيخ ، وبجوارها يبنى ما يشاء من الخلوات لتلاميذه أومريديه . وإذًا فقد اقترنت الخلوة بهاتين الوظيفتين . وقد تنفرد أحيانًا بعض الخلوات بالتدريس [1] ، وبعضها بالتعبد . وكان بعضها فى المسجد ، وبعضها خارجه . لا بل إن منها ما لم يكن له أية صلة بالمسجد ، بمعنى أن بعض الخلاوى صارت شبيهة بالكتاب للتعليم فقط . وقد حدثنى الشيخ أبو القاسم بن دفع الله العركى فى أبى حراز سنة ١٩٤٠ أنه كان بمسجد الشيخ عبدالله العركى عدة خلوات ، وكل مجموعة من الطلبة تتعلم فى خلوة .

وفى كتاب الطبقات كثير من هؤلاء الذين جمعوا بين العلم والتصوف [2] وكانت لهم مساجد أو خلوات تضم طلبة العلم وفقراء الصوفية . فمن ذلك أن الشيخ دفع الله العركى بن الشيخ أبو إدريس كان يقرئ العلم والقرآن ويسلك طريق الصوفية . ولما وفد عليه محمد المسلمى [3] الصغير دخل فى خلوة الصبيان ، وبدأ من ا . ب . ت . ث ولما رأى دفع الله آثار العلم على المسلمى قال له : هلا صدقتنا؟ إنك على علم من قبل فلم أتيت إلينا؟ ، قال المسلمى : إن علمى لا ينفعنى ، ولكنى جئت قاصدًا مددكم . وعندئذ سلكه الشيخ دفع الله طريق القوم ، وأدخله خلوة سبعة أيام خرج منها ينظر إلى العالم من العرش إلى الفرش . ولما رجع من شيخه اشتغل بتدريس العلم ، وسلوك طريق القوم والإرشاد .

وكان للشيخ عبد الرحمن بن أسيد خلوات لتحفيظ القرآن والعلم . وكان هذا الشيخ وليًا صالحًا ، وله مسبحة دقاقة ألفية يسبح بها . وكان بمسجد الفقيه بلاد بالقوز عدة خلوات للفقراء ـ أى طلبة العلم ـ وكان أبو الحسن بن صالح تلميذ الفقيه بلال يساعد أستاذه فى قراءة مجلس التفتيحة . وبعد انتهاء التدريس يجمع إليه الفقراء فى خلوته ليطالع لهم (صفحة ١٩ طبعة منديل) .

---

(١) يقول هيللسون فى ص ١٩٧ من الجزء السادس من مجلة Sudan Notes and Records Many aspirants to the religious life sought to combine instuction in the books of learning with on the Sufi path.

ونستطيع من كل هذا الحكم بأن استعمال الخلوة فى التعليم كان نتيجة لأن رجال الصوفية هم الذين قاموا بالتعليم ، بل هم الذين سبقوا إلى إدخاله فى السودان مع طرق التصوف .

(٢) مثل محمد ولد الماجدى (ص١٥٢) ومعنوى بن مدنى (ص ١٥٣) وشرف الدين بن على بن برى (ص ٩١) من طبعة منديل .

(٣) صفحة ٢٢ من الطبقات طبعة منديل .

ويذكر بركهارت فى رحلاته أنه كان فى الدامر ، عدا المسجد الجامع ، عدد كبير من المساجد الصغيرة (Small Chapels) بالقرب [1] من منازل الفقهاء وقد كانت - ولا تزال - هذه عادة الفقهاء أن تكون لهم خلوات للتعليم والعبادة قريبة من منازلهم .

ولما زرت مسجد أم ضبان وجدت الناس هناك يطلقون عليه اسم خلوة مع أنه مسجد كثير الطلبة ، وقد يزيد عددهم أحيانًا على ٣٠٠ طالب .

وقد حدثنى الشيخ عمر الأزرق عن تاريخ مسجدهم الذى فى حلة الصوفى الأزرق بالقرب من كسلا . وكان فى حديثه يشير إليه باعتباره خلوة لتدريس القرآن والعلم [2] . وقد ظلت الخلوة المكان الوحيد لتعليم القرآن والعلم حتى سنة ١٨٩٨ (هذا إذا استثنينا المدارس الحكومية التى أسسها المصريون) . وقد كان مدرس الخلوة حينذاك تقريبًا أميًا ، كما كان لا يعرف شيئًا عن فن التدريس . وكان التلميذ يمضى نحوًا من سبع [3] سنوات أو أكثر حتى يزيل الأمية .

ومن هذه الأمثلة نفهم أن وظيفة الخلوة التعليمية كانت تشبه وظيفة الزاوية التعليمية ، مع ما بين المؤسستين من فروق أهمها أكبر حجم الزاوية وصغر حجم الخلوة ، وأن الخلوة كانت فى السودان ملحقة غالبًا بمسجد من المساجد ، أو أطلق عليها بالفعل اسم مسجد ، وأن معظم الزوايا كانت تعتمد على ما يحبس عليها من أوقات بينما كانت الخلوات ينفق عليها من دخل الشيخ وماله والهبات والنذور التى تقدم للشيخ .

ولما ارتقى مستوى التعليم فى البلاد فى السنوات الأخيرة أصبح حكوميًا قلت أهمية الخلوة وانصرف الناس بأبنائهم إلى مدارس الحكومة . وبالرغم من هذا لا يزال بالسودان عدد كبير يقرئ القرآن والعلم . والصورة المعروضة هنا تدلنا على الحال التى وصلت إليها خلوة التعليم بعد أن انفصلت عن خلوة التعبد [4] (أنظر ص ١٠٨) .

---

(١) صفحة ١٢٣ - ١٢٤ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) صفحة ٢٦٧ من رحلات فى بلاد النوبة .

(٣) من ذلك قوله «ومسجدنا لا يزال خلوة ، به أحد أبناء عمنا ، وهو الخليفة ولكن الإقبال عليه قد قل» . راجع الملحق الذى فى نهاية الرسالة .

(٤) صفحة ٣٤١ من كتاب السودان الإنجليزى المصرى من الداخل .

(1) They (the Kh·lwas) are supposed to give instructien in reading, writing and the Koran, and they are many of them of scattered all over Soudan Thet are a sort of private elemntary sc·ools something like the old dames schools, omce existed in parts of England.)P. 219. The Binding of the Nile and the Noe Soudan, by Sidney Peel. printed in 1904)

أما الوظيفة الثالثة وهى أن الخلوة مكان للضيافة وإطعام أبناء السبيل والعابرين فيرجع أصلها ـ عندى ـ إلى أن الخلوة لما ظهرت فى السودان كانت جزءاً من المسجد أو متصلة به وسواء كان المسجد للتعبد ، أو تدريس ، أو لهما معا ، فقد كان ملجأ يأوى إليه المارة للصلاة والراحة من حر القيلولة ، أو للمبيت فيه . أليس المسجد بيت الله؟ وأى بيت أولى من بيت الله بإيواء العابرين وأبناء السبيل؟ وقد كانت الزوايا والأربطة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى أماكن لضيافة المسلمين الذين لا مأوى لهم . وقد كان الحجاج والعلماء والفقهاء والأولياء يرحلون من بلد إلى بلد فى أنحاء بلاد المسلمين وليس معهم شىء من الزاد . ولكنهم مع ذلك يجدون من إخوانهم المسلمين وفى المساجد من الطعام والضيافة ما لا يحتاجون معه إلى حمل الزاد . فلا عجب أن كان المسجد فى السودان شبيهاً بالمسجد أو الزاوية أو الرباط فى غير السودان من بلاد الإسلام . وقد أشرنا إلى أن الخلوة كانت جزءاً من المسجد أو هى المسجد بعينه ، ومعنى هذا أن الخلوة كانت محط رحال المارة والعابرين والطالبين للطعام أو الشراب أو المنام . وعندى أن العوامل الآتية قد ساعدت على أن تكون الخلوة مكانًا للضيافة .

١ ـ أن السودان كان ـ ولا يزال فى كثير من أجزائه ـ فى مرحلة البداوة تلك المرحلة التى من خصائصها الكرم الذى قد يصل إلى حد الإسراف . فكان العابرون وأبناء السبيل يؤثرون أن ينتجعوا بيت الله ـ أو الخلوة ـ طلباً للراحة والغذاء ، بدلا من أن يطرقوا أى منزل من المنازل ، إذ فى انتجاع المسجد أو الخلوة صيانة للنفس عن ضعة السؤال .

٢ ـ أن العادة قد جرت فى السودان أن توقد فى الخلوة نار ليلاً لإقراء القرآن والعلم يستدفئ بحرارتها الطلبة شتاء ، ويطالعون [1] على ضوئها وكان إيقاد النار ليلاً دليلاً على وجود أناس

---

(١) عنيت أثناء إقامتى فى السودان بالبحث عن أصل هذه النار ، وفكرة إيقادها ولم أعثر على جواب مقنع . والرأى عندى أن عادة إيقاد النار فى الليل عربية قديمة . وهى التى يشير إليها السموءل بقوله :

وما أخمدت نار لنا دون طارق ولا ذمنا فى النازلين نزيل

وكان العرب يفتخرون بإيقاد نار الكرم حتى يلجأ إليها المسافر فى الليل فيلقى ما يحتاج إليه من ضيافة . ولما حل العرب فى السودان وجدوا طبيعته الجغرافية شبيهة بطبيعة بلاد العرب ، واستمروا على البداوة واحتفظوا بعادة إيقاد النار . هذا إلى أن العرب عادة ـ يمضون نهارهم فى انتجاع المرعى ، فإذا جاء الليل وحطوا رحالهم وأوقدوا النار للاصطلاء والإنارة ولطبخ ما يحتاجون طبخه ، وللنار عندهم فائدة أخرى فهى تبعد عنهم الحيوانات الكاسرة حينما يحطون بدوابهم . وكانت النار التى توقد دهكذا تسمى نار الكرم . فلما ظهرت عندهم الخلوات ومساجد العلم كانوا يوقدون هذه النار أيضا بالقرب من الخلوات والمساجد ، أو فى داخلها . وهنا ظهرت وظيفة أخرى للنار الموقدة هى اجتماع الحيران (جمع حوار=

حولها ، يمكن أن يلجأ إليهم المسافر . فما بالك بالنار التى يجد عندها المسافر أهل العلم والصلاح والتقوى ، أولئك الذين يطمئن إلى ضيافتهم ، ويجد فى لقائهم راحة وسعادة . وما بالك بالنار التى توقد قريبًا من بيت الله أو فى داخله . إنها لأشهى على المسافر من أى نار أخرى ومن أجل ذلك كثر طارقوها ، وأصبحت الخلوة مكانًا للضيافة أيضًا .

٣ ـ أن الخلاوى والمساجد كان يسكنها أو يشرف عليها قوم صالحون من أولياء الله . وهؤلاء يقصدون لذاتهم طلبًا للتبرك ، والتماسًا للدعوات . فكان طبيعيًا أن يفد إلى نار الخلوة ليلاً ، وإلى الخلوة نهارًا ، أفئدة من الناس تقربًا من أهل الخلوة . وكان هؤلاء الوافدون يحملون معهم الهدايا والنذور لشيوخ الخلوات . هذا وقد كان رجال الصوفية يقنعون بالقليل من الطعام والشراب ، وكثيراً ما كانوا يعيشون فى الزوايا والأربطة عيشة اشتراكية وهذا الشعور بالاشتراكية الملازم للصوفى شجع غيره من المسلمين على الاستضافة والنزول فى الخلوة .

٤ ـ أن الخلوات التى عرفت بأنها أماكن لتدريس العلم وللوعظ والهدايا أقبل عليها الناس ليصلحوا من شئون دينهم . ومنهم من كان يقيم أيامًا ، أو أسابيع ، أو أشهرًا . ومنهم القادم من أقاصى السودان أو من خارجه وكان لابد والحال هذه ، أن يضيف أصحاب الخلوة أو المسجد الطارئين عليهم .

ومن أمثلة الكرم والضيافة فى الخلوة ما يرويه مؤلف الطبقات [1] عن الفقيه عبودة فقد كان «له قدح كبير يشيل الجخيس (معنى العجل الصغير) كل ليلة يملوءه فى الفجة (المكان الذى يجلسون فيه للأكل) ، وكسرته خميرة دقاقة نجيضة ، يأكل منها المسافرون وأهل البلد حتى كلابهم ، والماء فيها مثل المرقة وهذا القدح ما انقطع ليلة واحدة ، غلاء أو رخاء مدة حياته» .

= وهو طالب العلم أو القرآن) حول النار ليلا لقراءة الدروس . وكان الشيخ أو الفقيه يشرف على طلابه أثناء القراءة ليلا ، لاسيما والطلبة ينامون بعد الظهر لحرارة الجو . وقد عرفت هذه النار بنار القرآن وبنار العلم . وقد ورد ذكر هذه النار فى كتاب الطبقات مرات كثيرة .

ولم يستعملوا مسارج الزيت والدهن لأنهم يجلسون عادة للمطالعة والقراءة فى الهواء الطلق لا داخل الحجرات ، ولأن استخدام الزيت والدهن كان غير ميسور لكل إنسان ، ولتوافر الحطب والخشب من الغابات . ويظهر أن عادة المطالعة على ضوء النار كانت معروفة عند كل الجماعات المبتدئة ؛ فمما يروى عن إبراهيم لنكولن أنه كان وهو صغير يطيل السهر فى القراءة منبطحًا على الأرض أمام ضوء النار الموقدة (ص ١١٦ من كتاب أمريكا ترجمة عبد العزيز عبد المجيد) .

(١) ص ١١٧ من طبعة منديل .

وكانت خلوة الشيخ حسن ولد حسونة مشهورة بالكرم والسخاء ، وكان يذبح [1] بها كل يوم الذبائح «للضيفان العشام» ، وأن فقراء الشيخ حسن لما شكوا له من الإدام أمر أن يذبح لكل خلوة من خلواته شاتان كل يوم . وكان عنده من الخلوات إحدى عشرة أو ثلاث عشرة خلوة . ومما يروى عن كرم الشيخ ادريس بن محمد الأرباب [2] أنه كانت له قصعة تسع ستين قدحًا ، والكسرة مديدة ، يسوطها الفقراء ناس الطريقة ومعهم الخدم فى البرام شادين فى وسطهم المناطق وصفتها دقيقة وناضجة وخميرة الماء عليها مثل المرق . تارة تكون بالإدام وتارة بالماء . والهدايا التى تأتى إليه من الزوار يأخذها المعتقون» كذلك كانت خلوة الشيخ بدوى أبودليق [3] محطًا للطارقين والجلابة ، حتى لقد تعشى بها فى الليلة الواحدة مايزيد على ٥٠٠ ضيف .

ومما يؤثر عن محمد بن عدلان الشايقى [4] أنه لما قدم إلى تنقاسى أوقد نار القرآن بها ، ونار الكرم ، ونار علم العقول . والمراد بهذا أنه أوقد فى مسجده أوخلوته النار فصارت تجذب إليها طلاب القرآن والعلم وطلاب الكرم . . كذلك كان الشيخ مضوى بن بدوى [5] رجلا صالحًا . وقد تولى خلافة طريق الصوفية بعد أبيه ، وأوقد نار الكرم فى خلوته وبذل المعروف ، وقد عرفنا نوع الكرم الذى اشتهر به الشيخ بدوى أبو دليق .

من كل هذا نفهم كيف أن الخلوة ـ أو المسجد ـ كانت منذ أول نشأتها مكانًا للضيافة ، زيادة على أنها كانت للتعبد والتدريس .

والظاهر أنه بمرور الزمن ، وبانصراف الخلوة إلى وظيفة التدريس ، وبنفس مواردها المادية ، لم تعد للخلوة تلك المكانة التى كانت لها من قبل ، باعتبارها مكانًا للضيافة . ولكنّ شيئًا جديدًا قد حدث . ذلك أن الأسرة الواحدة أو المجموعة من الأسر أو أهل القبيلة . كان لها مكان ينزل فيه الضيوف . ولما كان هذا المكان يشبه فى وظيفته الخلوة ، من حيث الضيافة ، أطلق عليه اسم خلوة . وهذا المعنى معروف الآن فى الحلات والقرى حيث لا تزال التقاليد القديمة . وقد تجد

---

(١) ص ٤٧ من طبعة منديل .

(٢) ص ١١ من كتاب الطبقات طبعة إبراهيم بن صديق .

(٣) ص ٣٩ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ١٩٤ من كتاب الطبقات ضبعة منديل .

(٥) ص ١٩٩ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

للمنزل الواحد خلوة الضيفان ، كما تجد للمنزل الواحد فى مصر مندرة للضيفان ، وقد تجد فى الحلة خلوة للضيفان مشتركة بين جميع سكانها الذين ينتمون عادة إلى قبيلة واحدة أوبطن واحد . وفى هذه الخلوة ينزل الضيف القادم إلى الحلة . وكلما جاء موعد الغذاء خرج الخدم من البيوت بقصاع الطعام .

هذا ، وإذا كانت خلوة التعبد ، والتعليم ، قد قامت فى عيد الونج بوظيفة الزاوية ، من حيث الضيافة وإقامة العابرين والغرباء بها فلم لم تسم زاوية؟

وأغلب الظن عندى أن السبب فى ذلك أنه لما ظهر السودان الإسلامى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى كانت الزاوية قد أخذت فى الانحلال ، وصارت لها سمعة غير مشرقة . فقد كان الفقراء يجتمعون فى الزاوية عند الفقير الذى لاحرفة له ولا لهم ، ويقول . . مليخ الزاوية «نحن فى نعمة غارقون فيها من فضل الله تعالى لانعرف تجيء من أين . ونسى أن سببها من أهل الدين عند المعتقدين ؛ فإنهم إنما يبرونه لأجل دينه ، وحسن سمعته . فأكل الدنيا بالدين من حيث لايشعر ، وهو يظن أنه سالم [1] من ذلك . وقد كان سكان الزاوية وطارقوها حينذاك ـ غالبًا ـ ممن يشترون الدنيا بالدين . وهذا انحراف عن طريق الصوفية الصحيح نعم كان المجاورون يعيشون فى رحاب الزوايا ، بزوجاتهم وأولادهم ، طاعمين كاسين من فيض الأوقاف التى كان يحبسها عليهم الحكام والأثرياء ونعم الهدايا والأموال التى كان يقدمها لهم المحسنون . ولم يكن لأحد من المجاورين إيراد ينفق منه ، أو عمل يكتسب من ورائه . ومع ذلك كانت حياتهم أدنى إلى الترف وأقرب إلى الرخاء منها إلى التقشف [2] ، والزهد» وهذه الحال التى وصلت إليها الزاوية تتنافى مع مبادئ التصوف التى اعتنقها السودانى الجاد فى الطريق المخلص فى عبادة الله . فهو إذًا لايريد أن يكون مكان التعبد والتعليم والضيافة فى بلاده شبيهًا بالزوايا التى رآها فى مصر ، الزوايا التى ضم بعضها «ألوف المريدين الذين يدعون الصدق فى تصوفهم ، وهم ماهم من طلب الدنيا والاقبال على لذاتها ، والتهافت على إشباع شهوتى البطن

---

(١) ص ١٠ من الجزء الثانى من الطبقات الكبرى للشعرانى طبعة عبد الحميد أحمد حنفى : كتاب الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية بالهامش .

(٢) ص ٤٧ من رسالة توفيق الطويل عن التصوف إبان العصر العثمانى .

والفرج ، فوق إهمالهم لتكاليف الدين وتقصيرهم فى أداء [1] فروضه . والسودانى المتقشف البدوى المحافظ يأبى أن يطلق لفظ زاوية على مكان تعبده ، وانقطاعه لله ، ولتعليم العباد . من أجل هذا آثر استعمال كلمة خلوة التى يدل اشتقاقها على العزلة ، والانصراف عن لذات الدنيا ، وعلاقات الخلق إلى لذة التبتل إلى الله وطلب مرضاه .

على أنه قد ورد فى الطبقات ذكر لكلمة الزاوية مرة واحدة فقط ، وذلك حينما كان المؤلف يتكلم عن مجالس العلم التى كان يعقدها عمارة بن عبدالحفيظ الخطيب ، وعن إقبال الطلبة والناس عليه من جميع البلاد الإسلامية المحيطة بالسودان وكيف أن الخيل والحمير كانت محيطة بزاوية الشيخ من كثرة إقبال الناس عليه [2] .

وبعد فلعلنا بهذا كله قد أوضحنا وظيفة الخلوة بالسودان ، وبيّنا وجه الشبه بينها وبين الزاوية . وشرحنا لم كانت الخلوة والمسجد يطلق كل منهما على مدلول الآخر . والآن لننظر فى النفقات التى كانت تتطلبها الخلوة أو المسجد فى ذلك الوقت .

■■■

(١) ص ٥٦ من رسالة توفيق الطويل عن التصوف إبان العصر العثمانى .

(٢) ص ١١١ من الطبقات طبعة منديل .

نفقــات التعليـم



ظهر السودان الإسلامى فى عهد كثرت فيه معاهد التعليم بالعالم الإسلامى وتعددت أنواعها كالمسجد ، والمدرسة ، والمكتب ، والكتاب ، والزاوية ، والرباط . ولم تكن هناك وزارة أو مصلحة خاصة بالتعليم تنظيم شئونه فتقرر ميزانية معينة تنفق منها على هذه المعاهد . وإنما كان التعليم نوعًا من فعل الخير ، وكانت معاهدة مؤسسات خيرية . وكانت تحبس على هذه المؤسسات الأوقاف ، وتقدم العطايا والهبات ، وتنذر النذور . من أجل هذا كله كانت ميزانية كل معهد تختلف باختلاف موارده ، وباختلاف شروط الواقف . ونظام التوزيع على المدرسين والخدم والطلبة وكانت الموارد مختلفة من سنة إلى أخرى بحسب كمية الغلات المحبوسة ونوعها .

ولكن مما لا شك فيه أن التعليم كان فى جملته مجانًا ؛ ذلك لأنه كانت للمساجد وغيرها من دور العلم أحباس من الأوقاف ؛ وقد عقد المقريزى (١) فصلاً خاصًا بهذه الأحباس ونظامها ، وطريقة توزيعها . وهو يقول إن الحاكم بأمر الله أمر بإثبات المساجد التى لا علة لها ، ولا أحد يقوم بها ، وما له منها علة لا تقوم بما يحتاج إليه . فأثبت ذلك ورفع إلى الحاكم بأمر الله ، فكانت عدة المساجد ثمانمائة وثلاثين . . ثم عمل سجل بتحبيس عدة ضياع وعدة قياسر على الفقراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع والقوام بها ، ونفقة المارستان وأرزاق المستخدمين فيها ، وثمن الأكفان . ثم يشير بعد ذلك إلى أنه كانت للخوانق والمدارس والجوامع والترب أوقاف أهلية . وكان متحصلها يزيد على الحد فى الكثرة لما حدث فى الدولة التركية من بناء المدارس والجوامع والترب (٢) وغيرها .

---

(١) ص ٨٣ الجزءالرابع من الخطط طبعه المليجى .

(٢) ص ١٨٦الجزء الرابع من الخطط طبعة المليجى .

ولم يقف الحد عن مجانية التعليم ، بل كانت الأرزاق تجرى على الطلبة لاسيما الغرباء وكانت لهم أروقة يسكنون فيها ، وأعطية يأخذونها فى مناسبات مختلفة غير الجرايات الدائمة . وقد ذكر ابن الطوير أنه كانت تخرج يوم المولد النبوى الكريم من دار الفطرة صوانى الحلوى من الصباح إلى الظهر لتفرق فى القراء والخطباء والمتصدرين بجوامع القاهرة (1) وكان الخليفة الآمر بأحكام الله يطلق فى يوم مولده مقادير عظيمة من الخبز والأطعمة والحلوى لتفرق فى المساكين بالجامعيين الأزهرى بالقاهرة والعتيق بمصر (2) وقد أشرنا فى فصل سابق إلى ما كان عليه المجاورون فى الزوايا من إقامتهم بها طاعمين كاسين هم وأزواجهم وأولادهم ، ينعمون بما لاينعم به بعض الأغنياء . ويحدثنا ابن بطوطة أنه كان بجامع بنى أمية فى دمشق «جماعة كثيرة من المجاورين لايخرجون منه ، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر . وأهل البلد يعينوهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئًا (3) ، «ثم هو يسير إلى أن من أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك فى هذه المدينة» .

وكان الأزهر منذ بدأت فيه الدراسة مفتوح الباب لكل مسلم ، يقصد إليه الطلاب من مشارق الأرض(4) ومغاربها ، حتى لقد ذكر المقريزى أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلازمون الإقامة بالأزهر فى الأروقة الخاصة فى عصره - أوائل القرن التاسع - بلغ سبعمائة وخمسين «ما بين عجم وز يالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة» (5) .

وقد ظلت المجانية فى معاهد التعليم ببلاد المسلمين إلى عهد قريب ، اللهم إلا هبات متواضعة يقدمها عادة التلميذ إلى شيخه رمزًا للإكرام واعترافًا بالفضل (6) .

---

(1) الخطط ص ٢٩٣ الجزء الثانى .

(2) الخطط ص ٢٩٢ الجزء الثانى .

(3) الصفحة ٦٥ من الجزء الأول من رحلات ابن بطوطة ، المطبعة الخيرية .

(4) روى لنا المقريزى فى صفحة ٥٢ من الجزء الرابع من خططه أن القاضى نجم الدين محمد حسين استأذن الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى عمارة الجامع الأزهر ، وكان مما عمله أن رتب للفقراء المجاورين طعامًا يطبخ كل يوم وأنزل إليه قدورًا من نحاس جعلها فيه . . إلخ .

(5) ص ٥٤ الجزء الرابع من الخطط .

(6) راجع كتاب الأيام لطه حسين وكتاب القرية لمحمد عبد الجواد وكذلك الصفحات ٩و ١٩و ٢٤ و ٤٧ من طبقات ود ضيف الله طبعة منديل وغيرها من الصفحات .

ولما ظهرت المساجد والخلوات فى السودان ، كأماكن للصلاة والتعليم ، كان القائمون عليها من أهل العلم الصالحين المتصوفين . فلم تكن لهم أية غاية تدفعهم إلى أن يتخذوا التعليم وسيلة للكسب . ولقد كانت حياتهم حياة ورع وزهد لم يحتاجوا معها إلى كثير من القوت والطعام . وكانت ـ لاتزال طبيعة أرض السودان ، ومناخه ، وأمطاره مما يجعل نمو الغلات أمرًا هينًا لايحتاج لكد وكثير عمل . فالأرض متوافرة ولكل قبيلة أرضها ترعى فيها وتزرع ماتشاء . وكانت المملكة مقسمة إلى عدة ممالك صغيرة ومشيخات من سود ، ونوبة ، وعرب حضر ، وبادية . وكان كل ملك أوشيخ يدفع الجزية للملك سنار [1] وهذه الجزية فى الواقع ضرائب منها السخرة والمترة والنزول والعادة والنار والإعانة [2] .

وكان الفقهاء والأولياء من هذه الضرائب إكرامًا لهم وتشجيعًا على نشر العلم والثقافة . وبالرغم من أن التعليم فى السودان كان أهليًا غير حكومى ، كان ملوك الفونج وشيوخ البلاد يساهمون من آن لآخر فى إنشاء المساجد ، والإنفاق عليها ، فمما يروى عن الشيخ عجيب المانجلك أنه بنى مسجدًا فى اسلانج للشيخ حمد النجيض ووقف على هذا المسجد أراضى . وكان الشيخ هذا رجلاً صالحًا أخذ طريق الصوفية عن الشيخ تاج الدين البهارى وأقرأ الناس القرآن دهرًا طويلاً [3] ومما يروى أيضًا أن الحاج سعيد بن داود ـ وهو من أغنياء التجار ـ قد بنى ٩٩ مسجدًا ووقف عليها الأوقاف . وقد بقى من هذه المساجد حتى الآن ثلاثة ؛ أحدها بالهلالية والثانى فى أبى حراز ، والثالث فى حلة سعيد [4] ويذكر صاحب الطبقات أن الحاج سعيدٌ [5] هذا لما بنى مسجد أبى حراز أتى بسبعة مراكب مملوءة بالطوب (وفى رواية بالخشب) وبنى المسجد وسقّفه ، وأوقف عليه اثنى عشر رأس رقيق ، ستة ذكور ، وست أناث ، وأوقف عليه أرض زراعة ، فى جزيرة الهوى وقدرها اثنتان وعشرون جدعة [6] ومسجد أبى حراز هذا هو الذى

---

(١) ص ٧٣ الجزء الثانى من تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٢) ص ١٧٠ من كتاب Notes on the Tribes Prominent Families referrd to .

(٣) ص ٥٣و ١٢٦ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ٦٦ من كتاب Notes on the Tribes Prominent Families, in the Blue Nile Province وتسمى الحلة الآن باسم حلة سعيد أو «ودراوة» .

(٥) ص ٨٢ ـ ٨٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) تستعمل فى السودان مقاييس قديمة لقياس الأرض بين الأهالى منها الذراع ، والقبضة ، والعمامة وهى قبضة برفع الابهام ، والخبطة وهى من رأس السبابة إلى المرفق ، والعود وهو ثلاث خبطات ، والحبل وهو ثلاث أذرع رقيقة وعمامة ، والجدعة وهى ثلاث حبال ونصف حبل وهى تعادل تقريبًا ثمانية أمتار عرضًا أما الطول فيتوقف على طبيعة الأرض .

جلس فيه الشيخ دفع الله العركى لتدريس العلم والقرآن وإرشاد المريدين [١] مدة سبعين سنة . ولما انتقل الشيخ على ولد عشيب من دنقلة إلى الصعيد ، فى حلة ود عشيب - وذلك بعد رجوعه من المجاورة فى مصر والتتلمذ على الشيخ محمد البنوفرى - بنى له الشيخ عجيب المانجلك مسجداً فى الحلة المذكورة ، ووقف ملك الفونج على المسجد أراضى كثيرة فى الشرق - يعنى شرقى النيل الأزرق - وفى جزيرة الهوى وفى أراضى الأمطار [٢] . كذلك كان ملوك الفونج يكرمون العلماء ويقدمون لهم العطايا ؛ من ذلك أن الشيخ المضوى محمد بن محمد أكداوى بن الشيخ محمد المصرى - العالم المشهور الذى كان يدرس الرسالة والنحو وعلوم الكلام والأصول والمنطق فى شندى - دخل عند الملك أونسه بن ناصر (١٠٨٨ - ١١٠٠) وكان عنده رجال الديوان مجتمعين ففرق الديوان لأجله ، وقام إليه وعانقه وعاتبه وقال له : «تقعد إلى أن تشيب حتى تأتينى؟ قالوا لك ما بيكرم العلماء! وأداه مائة محبوب (ثم) دخل عليه ثانية وثالثة كل يوم يعطيه مائة محبوب ، ودخل عليه مرة رابعة وأعطاه جملين صهب وفرخين (يعنى عبدين) وأوعده بالرجوع يصيره إلى الحج ويعطيه الوقف والجواهر [٣] التى فى بيته [٤] وهناك من الأدلة المروية والمنقولة ما يفيد أن شيخ المسجد كان يستخدم الطلبة فى زراعة الأرض ورعاية الماشية ، ويحدثنا مؤلف الطبقات أن عبدالله العركى لما ذهب ليتلقى العلم عند عبدالرحمن بنجابر ظل هناك سبع سنوات كان فى أثنائها يحش القش لخلى شيخه . وأن والده دفع لما ذهب لرؤيته وجده «شايل شبكة ومنجل يحش القش للخيل» [٥] .

كذلك يحدثنا أن الشيخ دفع الله بن الشيخ أبو إدريس كان يستخدم فقراءه فى الزراعة ، وأنه أرسل معهم يومًا ابنه محمدًا إلى أراضى الهوى ، وكان محمد هذا يدرس لهم كلما فرغوا من

---

(١) ص ٨٠ - ٨١ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ١٠٧ من الطبقات طبعة منديل ولا نعرف اسم هذا الملك الذى حبس الأوقاف . وقد استمر حكم الشيخ عجيب أثناء تولية ستة ملوك هم :

عمارة سكاكين ، دكين ابن نايل ، طبل ، أنسه ، عبد القادر الثانى ، عدلان ابن أبه .

(٣) ص ٣٠ - ٣١ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ولم يقتصر تشجيع الملوك على العلم ، بل كان فى أوجه البر الأخرى . من ذلك أن خليل بن بشارة الدويحى كان قد اتخذ له سبيلا فوق الطريق يحمل إليه الماء ، بنفسه لسقيا المسلمين ، فوهب له ملك الفونج ساقية (مقدار من الأرض مساحته ثمانية أفدنة فى أرض الجزر وعشرة فى الأرض الثابتة ليستعين بها على معاشه (ص ٧٨ - ٧٩ طبقات منديل) .

(٥) ص ١٠٥ من الطبقات طبعة منديل .

أعمال الزراعة[1] ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن الطلبة كانوا يفلحون الأرض للزراعة ماروى عن صاحب الطبقات من أن خمسة من تلامذة عبدالرحمن بن أسيد ذهبوا إلى أرضه ، كانت خمسين عوداً على شاطئ النيل ، وقلقلوها من غير علمه فصحت زراعتها . ولما وجدها مخضرة سأل عنها ، فأخبر بما حصل . فدعا لهؤلاء الخمسة ، على قريحة صادقة فجعل الله البركة فيهم[2] وكان الأرقاء يقومون بزراعة الأرض للشيوخ ، وبإعداد الطعام لطلبة المسجد ، ولأتباع الشيخ فى الطريقة وقد روى صاحب الطبقات أن عبدالرحمن بن طراف لما ذهب لزيارة أولاده الذين كانوا يتعلمون القرآن فى مسجد الحلفاية عند الفقيه سينيد تأخر عليه الغداء والعشاء فخرجت زوج الفقيه تعتذر لعبد الرحمن لأن العبيد «كانوا مساعدين للفكى بالماء والوقود هربوا «فلم يتيسر لها إعداد الطعام[3] من أجل هذا كله كان من المألوف فى ذلك العهد أن تقدم هدايا الرقيق للشيوخ . فقد أهدى الملك دكين بن نائل الملقب بالعادل (٩٧٠ ـ ٩٨٥) إلى الشيخ زيادة ابن النور بن الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب خمسين عبداً ليستعين بهم على قضاء مصالح الفقراء والطلبة[4] .

وكانت تقدم للشيوخ أنواع مختلفة من الهدايا والنذور . فمن ذلك أنه لما توفى الشيخ محمد ابن عيسى سوار الذهب ، وترك وراءه ابنه حلالى صبياً ، حزنت أم حلالى على أن مات زوجها وترك ابنه من غير تعليم ، فذهبت إلى عووضة بن عمر الحضرى ومعها ابنها . ثم قدمت للحضرى أسورتها وحجولها هدية . وطلبت إليه أن يرشد ابنها ويعلمه حتى يجلس مكان أبيه فى الهدايا والإرشاد[5] والتعليم . وقد كان حيران[6] الشيخ أحمد بن زيادة ، وهم حفظة القرآن

---

(١) ص ١٤٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ١٣٣ من الطبقات طبعة منديل . ويروى أيضاً أن الشيخ ولد برى اشتغل تربالا (فلاحًا) فى خفير الشيخ حسن ود حسونة قبل أن يدخل خلوته (ص ١٣٠ طبعة منديل) .

(٣) ص ١٢٠ من الطبقات طبعة إبراهيم صديق .

(٤) ص ٨٥ من الطبقات طبعة منديل . وكذلك يذكر مؤلف الطبقات (ص ٩٥) أن زمراوى ملك الشايقية أهدى إلى الشيخ صغيرون أربع سواقى كل ساقية ٤٠ عوداً بعود السلطية ، وأربع خيل والدات ، وأربعة رؤوس» فرفض .

(٥) ص ٦٨ و ص ١١٩ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) كلمة حيران جمع حوار . والحوار فى السودان يطلق على التلميذ الذى يتعلم القرآن أو العلم . والرأى عندى أن السبب فى تسميته بهذا الاسم أن الحوار فى الأصل ولد الناقة . ولايزال حواراً حتى يفصل فإذا فصل عن أمه فهو فصيل ، وقد شبه التلميذ الذى يتبع أستاذه ، ويتلقى عنه العلم والإرشاد لأنه يفصل عنه بعد . ويؤيد هذا الرأى عندى أن مؤلف الطبقات يستعمل كلمة فطام الحوار ، ويعنى بذلك إتمام دراسته ، وانفصاله عن شيخه . فهو يقول : «إن فطام محمد بن الريدة كان فى نورى على يد الفقيه مدنى بن محمد بن مدنى (ص ١٦٥) . وفى هذا أخالف رأى مؤلف العربية فى السودان» . إذ يقول ص ٣٦ إن الحوار أصله حوارى أى الناصر والتلميذ ينصر أستاذه . وكذلك فى صفحة ١٢٨ طبقات نجد أن فطام الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن بان النقا فى دراسة خليل كان على الشيخ ضيف الله .

عليه ، ويرسلون له كل سنة سفينة كبيرة بجميع أنواع الخيرات [١] ، ومما يروى أن بنى جرار كانوا يأتون للشيخ حمد بن محمد بن على المشيخى كل سنة بزكاة مواشيهم وثمنها ، فيشترى بها الرقيق ويعتقه [٢] .

وكان الناس يأتون للشيوخ يتبركون بهم ويتوبون على أيديهم من الخطايا ويقدمون لهم العطايا فمن ذلك أن فاسقاً جاء إلى الشيخ عووضة الحضرى يرجو أن يتوسل له عند الله ليكفر سيئاته ووهب له ربع ساقيته وجاء مرة ثانية ووهب نصف ساقيته ثم جاء مرة ثالثة ووهب الساقية كلها[٣] فهذا النوع من الهبات مورد من موارد المساجد والخلوات .

هذا إلى أن كثيراً من الشيوخ كانوا أغنياء يملكون البهائم والأراضى الزراعية . ومن هؤلاء الشيخ صالح بن بانقا ـ الذى فى عهده قتل الشيخ حمد السميح [٤] شيخ قرى ملك الجموعية بشندى ـ فقد قاسمه الشيخ حمد هذا أراضى البحر وأراضى المطر ، وأوقد الشيخ صالح نار الكرم . وجاد بالكثير [٥] من المال على بيوت الدين . وكان الشيخ حامد اللين بن سليمان غنيًا وقد روى صاحب الطبقات عن والده أنه كان عند الشيخ حامد هذا أربع ويبات من نقود [٦] المحلفات وكذلك كان الشيخ مدنى بن محمد بن مدنى غنيًا ، وله من الأرض عشر سواق[٧] . أما قاقم بن الحاج إبراهيم بن برى فيحكى عنه أنه كان ذا أرض واسعة . وكان يستخدم فى موسم حصاد الذرة تسعين منجلاً يتناوبها الحيران[٨] كل يوم إلى نهاية الأسبوع . وكان عند قاقم هذا خمسمائة فقير يغديهم ويعشيهم[٩] . وكان الشيخ دفع الله بن محمد الكاهلى يضيف الوافدين وينفق على الطلبة[١٠] الذين يتعلمون القرآن .

---

(١) ص ٨٥ .
(٢) ص ٦٦ .
(٣) ص ١١٩ (وجميعها من طبعة منديل) .
(٤) ص ١٠٥ من الطبقات طبعة إبراهيم ود صديق ، وصفحة ٩٩ من الجزء الثانى من تاريخ السودان لنعوم شقير .
(٥) ص ١٠٠ من الطبقات طبعة منديل .
(٦) ص ٦٧ من الطبقات طبعة منديل والمحلقات جنيهات الذهب .
(٧) ص ١٦٠ من الطبقات طبعة منديل . ومما لا شك فيه أنه كان لهذا الغنى أثر فى الإنفاق على طلبة المسجد وإطعامهم . وكانوا يشتركون كما ذكرنا فى زراعة أرض شيخهم .
(٨) وهؤلاء الحيران هم طلبة الشيخ . وكانوا يقسمون العمل فيما بينهم على سبعة أيام .
(٩) ص ١٣٩-١٤٠ طبعة منديل .
(١٠) ص ٧٢ طبعة منديل .

على أنه يجب أن نفترض أن آباء الطلبة وأهلهم كانوا يبعثون بالهدايا إلى الشيوخ فى مناسبات مختلفة كأيام الأعياد، وعندما يفرغ الطالب من التعليم . مثال ذلك ما حدثنا به مؤلف الطبقات من أنه لما أتم عبد الرحمن بن حاج الدويحى دراسته، عند الفقيه عبد الرحمن ابن أسيد، أحضر والد عبدالرحمن لأستاذة حصانًا محرحرًا بقواد وسلطية [1] إكرامًا له واعترافًا بفضله .

وكان عبد الرحمن بن صالح بن بانقا يقدم لأساتذته الكثير من العطايا كلما أتم عندهم تدريس مادة [2] .

ومن هذا نفهم إنه كانت للمساجد والخلوات موارد أساسها [3] الأوقاف والهبات، وما كان عند شيوخ هذه المعاهد من مال . وكان الطلبة فى الغالب يخدمون كل شيوخهم ويفلحون لهم الأرض . وفلاحة الأرض فى ذلك العهد لم تكن أمرًا عسيرًا، فما هى إلا تقليبها، وبذر البذور ثم الحصاد عند النضج . أما الرى فكان إما من المطر، وإما من مياه الفيضان فى الجروف، أو فى أرض البقر [4] وقل أن يكون الرى بطريق السواقى .

على أن نظام الرقيق الذى كان سائدًا فى ذلك العهد جعل من السهل إعداد الطعام للحيران الذين قد يبلغون أحيانًا ألف طالب . والحكاية الآتية مثل من الأمثلة التى تدل على أن العبيد كانوا يقومون بإعداد الطعام، وتقديمه للفقراء والطلبة، وذكر مؤلف الطبقات أنه كان عند حسن ود حسونة ضيوف فى رمضان . فلما حان وقت الإفطار «جاءت مائة وعشرون فرخة (الفرخة الجارية فى لغة أهل السودان . وهى كلمة لاتزال مستعملة حتى الآن بهذا المعنى) لابسات

(١) القواد هو القائد أى السايس . والسلطية نوع من الحراب . وكانت مع السايس . ص ١٢٤ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ١٢٨ من المرجع المذكور .

(٣) وإلى هذا يشير المستر صمويل هيللسون بقوله فى ص ٢٢٧ من الجزء السادس من مجلة :

Sudan Notes and Records

"There were in fact many ways in which the world obtruded itself on those who impressed their contemporaries with their spiritual power. Wealth would be showered upon them in the form of lands granted by kings and rulers, or of pious gifts brought by the faithful.

(٤) جمع بقرة وهى الأرض المنخفضة المسطحة يغمرها الفيضان المرتفع، فيترك فيها طميا وماء، فتزرع جميعها، أو تزرع أطرافها . وأخص ما يزرع فيها الخضر والشمام والبطيخ ٥ انظر كذلك ص ٢٣٠ من رحلات بركهارت .

الفرك والدناقيس [١] وثياب المنير ، شايلات قداحة (جمع قدح فى لغة السودان الدارجة) الكسرة . كل واحدة لابسة كم عاج وقدامه سوار فضة ووراه سوار فضة . تابعاها فرخة صغيرة فى أذنيها فدافيت ، ولابسة ثوب درديس . شايلة صحن وكل فرخة وراها فرخ فى يده سوار فضة ولابس ثوب منيرى شايل قرعة مغطية . قعدوا الجميع فى وجه الشيخ وصار يوزع فى الزاد . . . . . وهكذا تقوم خادم . يتبعها حتى فرغ الزاد . فبقيت واحدة خادم بتبعها . قال لها الشيخ : ضعى هذا فى وجه ولد حسيب (وكان أحد الزوار) فقامت هى وتبعها» ثم وضع الزاد فى وجه ولد حسيب . فلما كشف القدح وجد فيه ديكين وفرخين حمام وزرزورين ، ثم قال الشيخ حسن لولد حسيب ، فطورنا الليلة كله دجاج ، وقال ولد حسيب فاكتفينا بما فى القدح وما فتحنا الصحن والقرعة [٢] . ومن هذه القصة نستنبط عظم عدد الخدم من العبيد الذين كانوا عند الشيخ حسن ، ومقدار سخائه وكرمه مع فقرائه وضيوفه [٣] على أننا يجب ألا نعتبر هذا النوع من الطعام على ما بالقصة من مبالغة ـ وهو الغذاء المألوف فى المساجد والخلوت . فالعادة أن الطعام يتكون من ثلاثة عناصر أساسية :

١ ـ الذرة دقيقًا أو جريشًا .

٢ ـ الماء أو اللبن أو هما معًا .

٣ ـ اللحم فى صور مختلفة . وهذه العناصر الثلاثة كانت ـ ولاتزال متوفرة فى السودان وطريقة طبخها وإعدادها سهلة ساذجة ، فهى تعد [٤] لتكون إما عصيدة ، وإما رهيفة . فالعصيدة تسمى اللقمة ، إن كانت مصنوعة من دقيق الذرة الفتاريتة أو القصابى . أما إذا كانت من الدخن فتسمى عصيدة دخن . فإن كانت من القمح فهى الفطيرة . والعصيدة تصنع بخلط الدقيق مع الماء والطبخ مع تحريكها مرات متوالية حتى تنضج ، وتطبخ عادة فى حلة كبيرة ، أو طاجن من الصاج ، أو فى دوكة (قدر) من الفخار ، وبعد أن تنضج

---

(١) الفرك جمع فركة وهى ملاءة مخططة يلبسها النساء فى النصف الأسفل وثياب المنير نوع من الثياب .

(٢) ص ٤٧-٤٨ من الطبقات طبعة منديل . والفدافيت جمع فدفود وهو المرط والثوب الدرديس(؟) .

(٣) من الشيوخ من كان يغرى الطلبة على حضور حلقته بأنواع الإغراء المختلفة . فمن ذلك أن محمد بن عبد الله الطريفى لما بدأ التدريس أجر اثنين من الطلبة لحضور حلقته ، وأعطى كل واحد منهما ثوب دمور (صفحة ١٥١ من الطبقات طبعة منديل) .

(٤) هذا الوصف لأنواع الغذاء فى الخلوة وصنعه من حديث معى للشيخ محمد لطفى مفتش بمصلحة المعارف السودانية سابقًا ، وناظر مدرسة رفاعة الوسطى الآن .

تصب فى إناء كبير يسمى القدح وهو من الخشب وبعد الصب يوضع معها (الملاح) والملاح يصنع من الشرموط (اللحم المجفف المدقوق) والبامية المدقوقة المجففة ، أو من الريكاب (وهو رماد قصب الذرة بعد حرقه) أو من اللوبيا ، أو من اللبن الرائب الحليب ، والرهيفة هى البتاوة الرقيقة التى تخبز على الدوكة والتى تجعل عدداً من الطبقات . ثم توضع فى قدح وتصب عليها الملاح ، وأما الثخينة فهى البتاوة أتخن من الرهيفة ، . وهذا غالباً تستعمل جهة دنقلة . وهى أسرع فى الإعداد من الرهيفة ، وتؤكل بالملاح .

والعادة أن الطلبة كانوا يأكلون طعامهم فى صورة دباليب (جمع دبليبة) وهى القطعة من اللقمة بمقدار مخصوص يكفى وجبة واحدة للطالب . والطالب فى اليوم ثلاث دباليب . فكل طالب يأخذ دبليبته ويأكل وحده ، بدلا من اجتماع الكل حول إناء واحد . وهذا التوزيع الفردى أكثر اقتصاداً من أكلهم جميعًا من ماعون واحد .

هذه هى العادة ولكن بعض شيوخ الخلوات و المساجد كانوا يستعملون القمح بدل الذرة . فى أنواع مختلفة من الطعام مثل الشعرية و السكسكية والمقيب ويقدمونها للطلبة غداء .

وأما الكساء [1] فكان يكتفى منه بالقليل . وأهمه السراويل والرداء . ويستعمل الرداء عادة فى وظائف مختلفة والصور التى فى صفحات ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٨٩ تعطينا فكرة عن نوع الملابس التى كان يرتديها طالب العلم منذ أكثر من قرنين .

هذا وهناك فى السودان عادة كريمة مازالت شائعة حتى الآن ، تلك هى أن سكان الحلة التى بها مسجد أو خلوة للتعليم إذا كان بمسجدهم أوخلوتهم طلبة غرباء ولامكان لهم فى معهد التعليم اقتسموا هؤلاء الطلبة فيما بينهم ، وأبقوهم فى منازلهم ساكنين طاعمين كأنهم أبناؤهم أو ذوو قرباهم ، وإلى هذه العادة يشير بركهارت فى رحلاته [2] بقوله :

«وكلما أرسلت الجهات المجاورة لقبيلة الشايقية صبيانها ليتعلموا فى خلواتها ومساجدها ، قام كبير الفقهاء بتوزيع هؤلاء الصبيان بين الإخوان والأصدقاء ، ليقيموا فى بيوتهم ، طاعمين كاسين ، ويبقوا معهم كما يشاءون» .

---

(١) يصف لنا بركهارت فى رحلاته ص١٤١ كساء سكان النوبة فيقول : «ويسير الرجال من السكان فى جنوبى الدر - ولا سيما فى سكوت والمعنى - عراة ، اللهم إلا ستر العورة بخرقة وفى ص ١٣٤ يقول إن لباس سكان منطقة بربر هو ثوب الدمور . وكذلك انظر الصور التى فى مجلدى الرسوم والصور من رحلة كايو .

(٢) ص ٧٠-٧١ من Travels in Nubia .

وفى مكان[1] آخر يقول : «إن كثيراً من أولاد السكوت والمحس يرسلون إلى مدارس عرب الشايقية حيث يقيمون هناك عشر سنوات أو أكثر يعلمهم فقهاء القبيلة ويعلمونهم مجانًا» .

وقد استمرت عادة قيام شيخ المسجد - أو الخلوة - بإطعام طلبة العلم وإيوائهم سائدة أيام الحكم المصرى ، ولاتزال متبعة حتى الآن . وإلى هذه العادة يشير رفاعة الطهطاوى [2] بقوله :

«ومن المعروف أن البلدة إذا كان بها علم شهير يرحل إليه من البلاد الأجنبية المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل إنسان من الأهالى يختص بالواحد أو الاثنين ، فيقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم» .

ثم هو يشير إلى حالة بذاتها فيقول [3] : «ولقد رأيت فى طريق إلى بلاد الشايقية بمديرية دنقلة حرم سنجق يدعى الملك الأزرق ، تسمى السيدة أمونة تقرأ القرآن الشريف ، ومؤسسة مكتبين ؛ أحدهما للغلمان ، والثانى للبنات . وكل منها لقراءة ، وحفظ المتون ، وتنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله ، وتشغيله . ولا ترضى أن يشوبه شىء من مال زوجها ، وبجانب المكتبين خلوات لم يختل من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد ، لأداء فريضة الحج الشريف ، ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل ، والقاصدين بيت الله الحرام . وأمثال ذلك كثير هناك فى ظل الحكومة المصرية» .

والحقيقة إن الذى يراجع الوثائق المتعلقة بالتعليم ، والملحقة بهذه الرسالة يجد كثيراً منها يدل على انتشار عادة اطعام الطلبة الذين يتعلمون فى مساجد العلم والقرآن وإيوائهم ، وبخاصة إذا كانوا غرباء [4] ، وكانت الحكومة المصرية تجرى على هؤلاء أرزاقا معلومة كل شهر . وكذلك

---

(١) ص ٥١ هامش من الكتاب المذكور .

(٢) ص ٢٦٢ من مناهج الألباب المصرية .

(٣) ص ٢٦٢-٢٦٣ من الكتاب نفسه .

(٤) وقد حدثنى الشيخ عمر الأزرق المدرس بمدرسة كسلا أن الطلبة الذين يفدون إلى خلوتهم من خارج الحلة يقسمهم الشيخ على إخوانهم من الطلبة الذين يسكنون الحلة فيعيشون ويأكلون معهم (راجع الملحق) ، ولا تزال هذه العادة قائمة حتى الآن سواء فى الخلوات ، كخلوة أم ضبان ، أو المدارس الأهلية كمدرسة رفاعة الوسطى الأهلية ، أو الحكومية كما فى مدرسة الأبيض والدويم الوسطى .

تعفي من الضرائب أراضي الفقهاء الذين يستغلونها للإنفاق على مساجد العلم . وقد كان مما اقترحه اللفتينانت استيوارت فى تقرير له عن السودان ، طُبع سنة ١٨٨٣ تحت رقم واحد ، أنه لتحسين الحال المالية فى السودان يجب أن تعم الضرائب كل المولين من غير تمييز بين رجال العلم وغيرهم من الناس [١] ذلك لأن الحكومة المصرية كانت تعفى أراضى العلماء من الضرائب نظير مايقومون من إنفاق على الطلبة .

من كل ما سبق نعرف الموارد الرئيسية للنفقات التى كانت تتطلبها مساجد التعليم والخلوات . على أن هذا لايمنع من أن الطالب كان يقدم لشيخه شيئًا ماديًا ، من حين لآخر على سبيل المساعدة والاعتراف بالفضل ، كما كانت العادة فى كتاتيب الفقهاء بمصر . فمن ذلك ماهو معروف فى السودان باسم «الشرافة» وهى جعل [٢] من المال ، عينا أو نوعًا يقدم إلى الشيخ بمناسبة وصول المتعلم إلى سورة خاصة من سور القرآن كعم ، وتبارك ، وإنا فتحنا لك فتحًا ، ويس . وفى هذه الحال تعمل زخرفة حول اللوح بألوان مختلفة ، ويكتب جزء من السورة التى وصل إليها المتعلم فى وسط إطار الزخرفة ، ثم يمر التلميذ بزملائه على أهل البلد يجمعون «حق الشرافة» وكل واحد يعطى مافى وسعه ، ويقدم والد التلميذ وأهله هدية للشيخ ، ثم يذبح شاة أو بقرة على حسب حاله المادية ونوع السورة ، ويطعم الشيخ وتلاميذ الخلوة والأصدقاء ويحصل الشيخ على نصيب وافر من اللحم لأسرته .

ومن العادات الشائعة فى السودان أن يقدم الحوار (التلميذ) للفقيه أسبوعيًا ما يسمى «حق الأربعاء وهو شىء من المال ، أو الحبوب ، أو الطعام ، يقدم فى يوم الأربعاء ، وفى حال الحبوب يعمل منها الشيخ بليلة لجيران الخلوة ، ويأكلونها وتسمى هذه الأكله «كرامة الأربعاء» ، وقد يأخذ الفقيه كل ما يقدم له إلى منزله [٣] .

---

(١) ص ٢٦ من التقرير المذكور . وهو يقول حرفيًا ما يأتى :

The Fakirs and other spiritual cheifs, with their followers, to pay taxes like ordinary individuals.

(٢) سنتعرض بتفصيل لشرح كلمة «الشرافة» واشتقاقها ومدلولها فى غير السودان من البلاد الإسلامية .

(٣) ذكر لى هذه المعلومات غير واحد من السودانيين الذين تعلموا فى الخلوة وأخص منهم بالتسجيل الشيخ محمد لطفى ناظر مدرسة رفاعة الوسطى الأهلية .

وهذه عادات مازالت متبعة حتى الآن ، وليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يدل على وجودها فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، ولكن ليس لدينا ما ينفى أنها من التقاليد القديمة التى وصلت إلينا جيلا بعد جيل .

وقد ذكر لنا براون فى رحلاته [1] «أنه كان فى مدينة كوبة من دارفور أربعة مكاتب أو خمسة يتعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة ، إن أرادوا . وكان الفقهاء الذين يقومون بوظيفة التدريس يعلمون أولاد الفقراء مجانًا . ولكن جرت العادة أن يأخذوا من أبناء الموسرين أجرًا قليلاً» .

وإذًا فنستطيع القول بأن التعليم فى السودان كان مجانًا للطلبة ، لا يتقاضى عليه الشيخ شيئًا مقدرًا ، اللهم إلامايقدمه المتعلم لأستاذه على سبيل التقدير والاعتراف بالجميل ، وإن كثيرًا من الفقهاء كانوا يتلقون مساعدات مالية من الملوك وشيوخ القبائل فى صورة أوقاف ، أو هبات من الأرض والحبوب والعبيد والدواب والنقود .

وكان للشيخ عادة موارده الخاصة من أرضه أو تجارته ، وكان يعف عادة عن أن يعيش عالة على هبات الأغنياء .

أما الطلبة فكانوا يخدمون شيوخهم فى الخلوة وخارجها : بالزراعة ، وإعداد الطعام ، وجمع الحطب . وطبيعى أن تكون هذه الحال فى السودان عند قوم فطروا على الكرم ، ولم يألفوا بعد الحرص المادى ، الذى تجلبه معها الحياة المتحضرة المعقدة . وكان ، ولايزال ، من مظاهر هذا الكرم - كما ذكرنا - استضافة فى منازل أهل القرية مدة تعلمهم .

■ ■ ■

---

(١) ص ٢٤٤ من كتاب Travels in Africa. Egypt and Syria from the Year 1792 to 1798.

مراحل
الدراسة



الأصل فى فكرة مراحل الدراسة أن يقسم منهج التعليم إلى أقسام ، ويخصص كل قسم من المنهج ومواده بمرحلة . ولا يستطيع المتعلم عادة الانتقال من مرحلة إلى التى تليها إلا بعد إتمام الدراسة فى المرحلة السابقة واجتياز امتحان يثبت أنه أجاد تحصيل المواد المقررة فى هذه المرحلة . وبذلك يمكن أن يقال إنه يستطيع استئناف دراسته فى المرحلة الجديدة التى يحصل فيها من العلوم والمعارف ما يبنى عادة على ما درسه فى المرحلة السابقة . وفى المرحلة النهائية يجتاز المتعلم امتحانًا يثبت أنه أتم الدراسة هذه المرحلة بنجاح .

وقد عرف نظام المراحل فى العصور القديمة قبل المسيح ، عند الصينيين حوالى سنة ٢٢٠٠ق م [١] وعند اليونان فى أسبرطة [٢] وأثينا حوالى سنة ٥٠٠ ق .م . وكان الشاب فى أسبرطة ما بين سن ١٨ وسن ٢٠ يمتحن كل عشرة أيام لمعرفة مقدار نموه الجسمانى ، ويمضى هذه المرحلة فى نوع من الإعداد الرياضى البدنى ، ثم ينخرط بعدها إلى المرحلة النهائية لمدة عشر سنوات يتمرن خلالها على الحياة العسكرية الحقيقية . فإذا ما بلغ سن الثلاثين خولته الحكومة الحقوق المدنية وصيرته عضوًا من أعضاء جماعتها العامة[٣] ، وكانت التربية الأسبرطية

---

(١) مشكلة الامتحانات فى مصر ص١ طبعة رابطة التربية الحديثة .

(٢) ص ٩ من الجزء السابع من The Teacher's Encyclopaedia ففى أسبرطة كانت مراحل الثقافة العامة من ٧-١٨ كما تقول دائرة المعارف هذه :

"Between the ages of seven and eighteen the boys were grouped into three classes according to age; from fifteen to eighteen. The life and training were graduated accordingly with respect to sev erity".

(٣) ص ١١ من دائرة المعارف للمدرسة التى أشرنا إليها .

هذه تربية حكومية ، أما فى أثينا فلم تكن التربية الحكومة إلا عند ما يصل الشاب إلى سن ١٨ حين ينخرط فى سلك التربية العسكرية ، وقبل ذلك كانت التربية تحت إشراف الدولة فى المرحلة الأولية ، وهى من ٧ ـ ١٦ غالبًا . وتلى هذه مرحلة التعليم الثانوى من ١٦ ـ ١٨ فى معاهد حكومية كانت تسمى معاهد التربية البدنية (١) . ومتى وصل إلى سن الثامنة عشرة اختبرته الحكومة اختبارًا دقيقًا حتى يصير من الرعايا الأثينيين ، وحتى يسمح له بالالتحاق بالدراسات الحربية العسكرية التى تدوم مدة سنين .

ولما انتشرت الثقافة الإغريقية فى روما بسقوط بلاد اليونان ظهرت أنواع من المدارس هى المدارس الابتدائية ، والثانوية (٢) ، والعالية ، والجامعات . وكانت فى ذلك مقلدة لنظام اليونان . نعم اضمحل التعليم فى العصور الوسطى بأوروبا وزالت مدارسه النظامية ، اللهم إلا من مدارس الكنيسة ، ولكن ظهرت فى أواخر العصور الوسطى الجامعات فى ايطاليا (القرن الثانى عشر) ، ثم فى أكسفورد وكمبردج ، وكان الطالب ينتظم فى سلك الجامعة وهو ابن ١٣ أو ١٤ وينتمى إلى أستاذ من أساتذتها يكون مسئولا عن سيره فى درسه ، وكان يبقى متوافرًا على الدرس من ثلاث سنوات إلى سبع ، ثم كان يعطى بعد ذلك درسًا لصغار الطلبة تحت إرشاده أستاذه ، ليقوى على البحث والمناظرة . حتى إذا أنس من نفسه القوة تقدم لامتحان العالمية . فيجلس للتدريس وتحضره طائفة مادته من الطلبة ليباحثوه ، ويناظروه ، ويناقشوه ، حتى إذا ظهرت جدارته منح العالمية ، ولم تكن العالمية هذه (٣) إلا إجازة للتدريس العام . فلم يكن يقال إذا : إن الطالب قد أتم مرحلة التعليم الجامعى إلا إذا اجتاز متحان العالمية .

أما فى البلاد الإسلامية ، فى العصور الوسطى والعهد التركى ، فقد ذكرنا ، أنه كانت هناك أنواع مختلفة من معاهد التعليم ، كالكتاتيب ، والمكاتب ، والمدارس ، والأربطة ، والخوانق والزوايا ، والخلوات ، والمساجد ، والجامعات ، ولم يكن فى التعليم فى هذه المعاهدة ذا خطة موحدة أو خاضعًا لنظام إدارى مشترك . وكان لكل معهد فى الغالب نظامه الدراسى ، منهجه

(١) ص ٥٤ من تاريخ التربية لمصطفى أمين .

(٢) ص ١٢٩ من تاريخ التربية لمصطفى أمين .

(٣) ص ١٨٧ من التربية فى العصور الوسطى لشرف الدين خطاب .

الخاص ، بحسب شروط الواقف وتوافر المدرسين ، والمواد التى يعرفها المدرس . فلم تقتصر وظيفة المكتب مثلا على تعليم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن ؛ وفإن بعض المكاتب كان يعلم مواد أخرى ، فمن ذلك ما رواه ابن قتيبة من أن «علقمة بن أبى علقمة ، مولى عائشة ، كان يروى عن مالك بن أنس ، وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض . ومات فى خلافة أبى جعفر المنصور» (١) ولما أسس سيف الدين شيخو الخانقاه المعروفة باسمه ـ فى خط الصليبة خارج القاهرة ـ رتب بها دروساً عدة منها أربعة دروس للفقهاء الأربعة : وهم الشافعية ، والحنفية ، المالكية ، الحنابلة ، ودروسًا للحديث النبوى ، ودرسا لإقراء القرآن بالروايات السبع ، وجعل لكل درس مدرسًا ، وعنده جماعة من الطلبة ، وشرط عليهم حضور الدرس ، ورتب لكل واحد من الطلبة فى اليوم الطعام واللحم والخبز ، وفى الشهر الحلوى والزيت والصابون ، وتخرج بها كثيرًا من أهل العلم ؛ وكان يدرس بالمدرسة المنصورية ، التى أسسها الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ ، والفقيه على المذاهب الأربعة ، والطب ، والحديث ، والتفسير (٢) ؛ كما كانت المدرسة القبطية لتدريس فقيه الحنفية والشافعية ، وإقراء القرآن (٣) وكان يدرس بالمدرسة المسلمية فقه الشافعية والمالكية وتعليم (٤) الأطفال ، وبمدرسة الأمير جمال الدين الأستادار ـ المؤسسة سنة ٨١١ ـ ، الفقه على المذاهب الأربعة ، والحديث ، وتعليم (٥) الأطفال ، وكان يدرس فى مسجد أبى البناء الحديث والقرآن(٦) .

وإنما سقت كل هذه النصوص لنبحث فى ضوئها ما إذا كان تعدد أنواع المعاهد واختلاف أسمائها دليلا على اختلاف مراحل التعليم التى بها ، وعلى أن كل نوع منها خاص بمرحلة بذاتها . والحقيقة أننا إذا ما تركنا جانبًا الكتاب والمكتب وجدنا أن المدرسة والزاوية والخانقاه والرباط والمسجد ، كل هذه المعاهد قد تشترك جميعها فى نوع المواد التى تدرس بها ، وقد

---

(١) ص ١٨٥ من كتاب المعارف .
(٢) ص ١٧ من القسم الخامس من الملحقات بكتاب التعليم فى مصر .
(٣) ص ١٨ من القسم الخامس من الملحقات بكتاب التعليم فى مصر .
(٤) ص ٢٥ من القسم الخامس من الملحقات بكتاب التعليم فى مصر .
(٥) ص ٢٧ من القسم الخامس من الملحقات بكتاب التعليم فى مصر .
(٦) ص ٦ من القسم الخامس من الملحقات بكتاب التعليم فى مصر .

تختلف من معهد لآخر بحسب ظروف هذا المعهد ، لا بل قد يدرس فى المدرسة المواد التى تدرس بها ، ما لا يدرس فى المسجد ، كالمدرسة المنصورية التى كان يدرس بها الطب تلك المادة التى لم تكن تدرس فى كثير من المساجد حينذاك ، فهل نستطيع القول إذًا بأنه لم يكن عند المسلمين مراحل للتعليم إننا إذا تأملنا وظيفة المكتب أو الكتاب وجدنا أنها - فى الغالب - وظيفة إعدادية ، إذ يتعلم فيه الصبى القراءة والكتابة ويحفظ القرآن ؛ فإذا ما أراد أن يدرس انتقل إلى مسجد [1] أو مدرسة ، حيث يجد حلقات العلم المختلفة ، والشيوخ الذين يتممم عليهم دراساته ، فالمسجد كان فى الغالب مرحلة تكميلية لمرحلة الكتب أو الكتّاب ، وأحيانًا لرحلة المدرسة ، إذا لم يجد المتعلم فى المدرسة كل ما يصبوا إليه من علم ، فهل معنى هذا أن التعليم الإسلامية كان ذا مرحلتين متميزتين بالمعنى الاصطلاحى الذى أشرت إليه فى طليعة هذا الباب؟ إننى لا أعتقد ذلك ، وإن كان هذا لايمنع أن أنواع العلوم والمعارف الإسلامية كانت تدرس على أساس أن المبتدئ ينال منها ما يناسبه من القراءة والكتابة وحفظ القرآن ودراسة بعض المتون ، وكلما ترقى وتقدم فى تحصيله أمكنه أن يزيد فى المواد التى يتعلمها ، والأدلة متوافرة على أن المتعلم كان يقصد إلى معهد تعليم المادة أو المواد التى يريدها ، أو الشيخ الذى يود أن يتلقى عليه ، وذلك بغض النظر عما تعارفنا عليه الآن من مراحل ، إذ قد يتعلم القرآن وبعض المواد فى المسجد ، ويتلقى دروس الفقه وغيره فى المدرسة [2] من غير أن يكون هناك سبب فنى يخص المسجد بمواد دون المدرسة .

وكلما كان التعليم أهليًا ، غير مقيد بنظم حكومية موضوعة كان حرًا فى منهجه ومراحله ، والأصل أن التعليم فى الإسلام ، كان ديمقراطيًا ، مباحًا لكل من يرغبه ، إما مجانًا وإما بنفقات قليلة ، ولم تكن هناك درجات علمية تمنح بعد كل مرحلة [3] ، أو امتحانات تعقد كما هى الحال الآن ، فلم تكن ثمة حاجة إلى تقسيم التعليم إلى مراحل يعقد بعد كل منها امتحان يخول لمن ينجح فيه أن ينتقل إلى المرحلة التالية ، ولم يكن هناك ما يمنع المتعلم من أن يحضر

---

(١) سبقت المساجد المدارس فى التأسيس والقيام بوظيفة التدريس . وكان كثير من العلماء يأنفون من التدريس فى المدارس وينظرون إليها نظرة شبهة وتردد ، ويحسبونها معاهد دنيوية أكثر منها دينية . ولذلك احتفظت المساجد بخيرة الشيوخ .

(٢) لقد ظلت مدرسة دار العلوم إلى الآن تستمد طلبتها من المعاهد الدينية وتعتبر مكملة للمسجد باعتبارها معهدًا عاليًا .

(٣) نعم وجد نظم الإجازات العلمية الذى سنشرحه بعد ، وكلف هذا النظام لم يكن خاضعًا لمراحل التعليم الخاصة انظر الملحق السابع من المجلد الثالث نقلاً عن الوقائع المصرية نمرة ٤٤٤ بتاريخ ٤ ذى الحجة ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٣) .

على أى شيخ يريد ، وفى أى معهد يريد ، متى استطاع ذلك ؛ فله أن يترك المكتب إلى المسجد متى شاء ، وأن يحضر من حلقات المسجد العلمية ما يطيب له .

ويقول الأستاذ أحمد أمين فى صدد حديثه عن مراحل التعليم فى العصر العباسى الأول ، والذى يظهر لى أنه لم تكن هناك مراحل للتعليم معينة ، فليس هناك مرحلة للتعليم الأولى أو الابتدائى ، ومرحلة للثانوى ، وهكذا ، إنما هناك مرحلة واحدة تبتدئ بالكتّاب أو بالمعلمين الخاصين ، وتنتهى بأن يكون له (للتعليم) حلقة فى المسجد ، غاية الأمر أن من المتعلمين من يتم هذه المرحلة ، وقليل ماهم وآخرون يقفون فى نصف الطريق أو ربعه ، فمن الناس من يتعلم فى المكتب حتى يقرأ ويكتب ويحفظ ماتيسر من القرآن ويحسن أمور دينه ، ثم ينصرف إلى عمل من صناعة أو تجارة ، ومنهم من يلزم الشيوخ يأخذ عنهم ، وينتقل من شيخ إلى شيخ . بل من بلد إلى بلد حتى يكتمل علمه ؛ فيحلق [1] له حلقة .

والحقيقة أن هذه الحال ظلت فى مصر - وغيرها من بلاد المسلمين ، إلى نهاية العصر التركى بل ظلت بالمعاهد الدينية إلى مابعد ذلك العصر ، ويحدثنا مؤلف كتاب (مقدمة فى تاريخ التربية بمصر الحديثة) أن الكتّاب - أو المكتب - كان المعهد الذى يتلقى فيه الغلام التعليم الأولى الذى يتكون عادة من حفظ القرآن جميعه ، ومعرفة العبادات المعروفة ، فإذا ما أتم الغلام مرحلة الكتاب بدأت مرحلة الإعداد المهنى ، فإذا كان من أسرة الشيوخ فإنه يلتحق بالأزهر ليصيربعد مضى الزمن المناسب شيخاً ، وقد يحل محل والده فى وظيفته ، وإلا إن أراد الالتحاق بصناعة من الصناعات أو تجارة من التجارات صار (صبيًا) فى محل صناعة[2] أو دكان .

ثم يتكلم المؤلف عن التعليم العالى ، من غير إشارة إلى أن التعليم الثانوى فيقول : إن الجامع الأزهر كان المعهد لهذا النوع من التعليم ، وإن كان ثمة غير الأزهر مساجد أخرى بالقاهرة والأقاليم ، فى القرن الثامن عشر ، وفى كل مسجد منها شيخ مقيم ، ويتوقف عدد طلبة كل مسجد على مقدار ما حبس عليه من [3] أوقاف .

---

(١) ص ٦٦ من الجزء الثانى من ضحى الإسلام .

(٢) ص ٦ من كتاب

Introduction to the History of Education in Modern Egypt, by J. Heyworth-Dunne.

(٣) ص ١٥ من الكتاب عينه .

ومن هذا يمكن أن تنظر إلى الكتّاب ـ أوالمكتب ـ باعتباره المعهد الذى يتلقى فيه الغلام التعليم الأولى الضرورى له ، قبل أن يلتحق بالأزهر ، أو أى مسجد آخر ليستمر فى التعليم ، ومن هذا يمكن أن نفهم أيضًا أن المؤلف يعتبر الأزهر المعهد الذى يتلقى فيه الطالب أنواع الدراسات العالية ، فهو فى هذه الحالة ينظر إلى التعليم باعتباره مرحلتين : مرحلة الكتّاب ، وهى المرحلة الأولى ، ومرحلة المسجد لدراسة العلوم وهى المرحلة العالية أو النهائية .

ويذكر هذا المؤلف فى مكان آخر : أن الطلبة الذين التحقوا بالأزهر ، ولم يسبق لهم إعداد إلا فى الكتّاب ، وقد لاقوا صعوبات كثيرة فى بدء دراستهم ، ولم يكن هناك نظام خاص لتوزيع المواد وتقسيمها على السنوات ولكن كانت هناك مجموعة من المتون يدرسها المتقدمون ، وقد يظل الطالب يدرس فى متون المبتدئين من ثلاث سنوات إلى ست [١] ، ويستمر المؤلف فيذكر المتون التى كانت تدرس لكل من الطائفتين .

فهل لدينا ما يحملنا على استنباط أن مدة التعليم بالأزهر كانت فى الواقع مرحلتين ، مرحلة للمبتدئين وهى تقابل التعليم الثانوى ، ومرحلة للمتقدمين وهى تقابل التعليم العالى؟ إن الحكم على هذا الموضوع أمر اعتبارى . ولكننا لا نرى ـ كما قلنا من قبل ـ فى هذا النظام التعليمى الذى يشمل الكتّاب ، أو المسجد ، ما يحملنا على اعتباره نظامًا ذا مراحل بالمعنى الفنى المألوف في التربية الحديثة .

هذا ما كان من أمر المراحل التعليمية فى معاهد التعليم بمصر فى القرن الثامن عشر ، ولا أخاله إلا شبيها بما كان عليه فى القرون السابقة له ، وفى معاهد التعليم بالبلاد الإسلامية الأخرى .

وإذاً ففكرة تقسيم مدة التعليم إلى مراحل على أسس سيكيلوجية تربوية ولغايات واضحة ـ يعقد فى نهايتها امتحان ـ كانت غير معروفة فى معاهد المسلمين إلى عهد قريب [٢] .

---

(١) ص ٤١ وما بعدها من الكتاب المذكور .

(٢) يمكن القول بأن أول عهد مصر بمراحل التعليم كان فى أيام محمد على باشا حينما أدخل نظام التعليم الأوروبى فى البلاد . وقد ظل الأزهر إلى سنة ١٨٧٢ يتبع نظام الإجازة التى كان الشيخ يمنحها تلميذه فى مادة معينة أو كتاب معين ، متى أتم الطالب دراسة المادة أو الكتاب ، وأصبح قادرًا على تدريسه . وفى هذه السنة (١٨٧٢-١٢٨٨هـ) صدر أول قانون نظامى للأزهر فى عهد الشيخ محمد العباسى المهدى . ونظم هذا القانون طريقة الحصول على الشهادة العالمية ، وجعل مراحل التعليم ثلاثة : أولية وثانوية وعالية ، ينال فى نهايتها الطالب شهادة العالمية (انظر الوقائع المصرية نمرة ٤٤٤ بتاريخ ٤ ذى الحجة ١٢٨٨هـ ١٣ فبراير ١٨٧٢م ، وكذلك ص٤٢-٤٣ من تاريخ الأزهر تأليف مصطفى بك بيرم وص ٤٠ من الأزهر تأليف محب الدين الخطيب) .

وإذا كان الأزهر قد ظل صاحب الصدارة بين جميع معاهد العلم فى بلاد الإسلام إلى نهاية القرن التاسع عشر ، وكان نظام التعليم فيه وفى غيره من المساجد والمدارس غير قائم على مراحل معينة ، وإذا كانت مصر هى البلاد التى كانت تحتذى فى نظمها التعليمية ، وفى مناهجها فى العهد العثمانى ، وكانت قبلة المتعلمين والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، كان طبيعيًا أن يتأثر السودان بالنظام السائد فى مصر ، والقائم على فكرة عدم وجود مراحل معينة للتعليم .

وليس لدينا فى طبقات ود ضيف الله أى دليل على وجود هذه المراحل بل بالعكس تستطيع أن تدلل على أن السودان فى جميع عصور التعليم الدينى لم يعرف نظام [1] المراحل . ونستطيع أن نثبت أيضًا أن بعض الطلبة كان يجلس مجلس الشيوخ للتدريس قبل أن يتمم مرحلة التلمذة . فمن ذلك أن محمداً القدال بن إبراهيم بن عبود مات أبوه قبل أن يستحق التدريس حتى إن العلماء الذين حضروا للتعزية تكلموا مع الطلبة ليحضروا عندهم ، ولكن محمدًا هذا ـ كما يقول مؤلف الطبقات ـ لما بدأ التدريس عبر للطلبة بعبارة بهرت عقولهم ، ودخلت فى قلوبهم مثل فلق الصبح . وبلغ عدد طلبته ألف طالب وقيل ألفين [2] .

ولو كانت هناك مراحل معينة للتعليم لما صح أن يقرأ أبو الحسن بن صالح العوزى القرآن إلى سورة عم فقط ، ثم يخول له أستاذه أن يقرأ مجلس التفتيحة [3] فى الحلقة بالمسجد ، ويطالع بعده للفقراء [4] فى الخلوة ، وكيف يتسنى لمن لم يتم القرآن أن يثق به أستاذه فيفتح درس العلم ويقوم بالتدريس لزملائه إذا كانت هناك مراحل مقررة .

نعم كان من الجائز أن يقدم الشيخ على التدريس من غيرر أن يكون على نصيب وافر من العلم فلو كانت ثمة مرحلة نهائية خاصة يجب أن يتمها المتعلم قبل مزاولة مهنة التدريس لما

---

(١) اللهم إلا ما كان من تنظيم مراحل التعليم فى معهد أم درمان العلمى وفقا لنظام الأزهر وهذا المعهد أسس سنة ١٩١٢ ، ومن تنظيم المدارس الحكومية .

(٢) ص ٢١ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٣) كانت ولاتزال عادة الشيخ أن يختار من بين تلامذته من يقرأ السنن كتمهيد قبل بدء الأستاذ فى الشرح . وعادة يختار أنجب التلامذة . ويسمى هذا المجلس الذى يطالع فيه التلميذ بمجلس التفتيحة . وهذه العادة تشبه ما ذكره سنوك هرجورنى فى كتابه مكة (ص١٨٢ ج٢ الترجمة الإنجليزية) من أن الشيخ كان يجلس أمامه فى الحلقة أحد التلاميذ الكبار ليرتل فى بدء الدرس خلاصة الدرس الماضى أو آخره كتمهيد للدرس الجديد . ويسمى هذا التلميذ بالمقرئ .

(٤) ص١٩ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

جاز ليوسف بن الشيخ محمد بن الطريفي أن يشرع في تدريس مختصر خليل وهو لا يعرف معنى الخف أو الجورب [١] وإنما الذي دفعه لأن يقوم بالتدريس مع هذا الجهل أنه خلف والده بعد موته فكان لابد أن يقوم مقامه في التدريس . وقد روى صاحب الطبقات أن محمد بن مدني كان يقوم بتدريس رسالة ابن أبي زيد ، بينما يذهب إلى خلوة دفع الله العركي في أيام البطالة ليقرأ عنده ليحان [٢] لأسبوع ، أي أنه لم يكن قد أتم حفظ القرآن حينما كان يدرس الرسالة .

ولقد ذكرنا حينما تكلمنا عن وظائف المسجد والخلوة أن المسجد كان ـ أحيانًا ـ مكانًا لتدريس القرآن والعلم ، وأن الشيخ الواحد قد يقوم بتدريسهما [٣] ، وأن الطالب متى أتم دراسة القرآن والعلم رجع لأهله ، وافتتح له خلوة ليقوم فيها بدوره بالتدريس . فلم يكن حينذاك معهد خاص أولي يتم فيه المتعلم مرحلة ، ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى أرقى من الأولى . ولكن كانت العادة أن يقرأ المتعلم القرآن ـ وأحكامه أحيانًا ـ على شيخ . ثم ينتقل إلى شيخ آخر ليتلقى عليه العلم وقد يتعدد شيوخ العلم ، كل شيخ لمادة . فمن ذلك أن محمد بن عبد الرحمن بن حمد الأغبش تلقى عند الفقيه بلال بن محمد الأزرق بالقوز ، وعلى الفقيه أبي الحسن ، وأخذ علم التوحيد عن الفقيه بساطي وفرح بن الفقيه أرباب ، والرسالة عن الفقيه عبد الصادق ولد حسيب وأحكام القرآن عن أبيه عبدالرحمن [٤] . وكذلك الشيخ خوجلي ؛ فقد بدأ المكتب عند عائشة الفقيرة بنت ولد قدال ، وأخذ علم الكلام والتصوف من الفقيه أرباب وتفقه في خليل على الشيخ الزين [٥] ولد صغيرون . ومعنى هذا أن الطالب كان ينتقل من مسجد لمسجد ـ لا من مرحلة إلى مرحلة ـ طلبًا للشيخ الذي يريد أن يتلقى عليه .

ونحن قد ذكرنا أن من الخلوات والمساجد ما كان مقصورًا على تعليم القرآن ، ومن الشيوخ من كان يقوم بتدريس القرآن فقط في مسجد العلم والقرآن . فلا غرابة إذًا أن كان المتعلم يبدأ

---

(١) ص ١٧٢ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ١٤٨ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٣) من ذلك أن الشيخ دفع الله بن محمد أبو إدريس جلس سبعين سنة لتدريس القرآن والعلم في مسجده بأبي حراز ص ٨١ من طبعة منديل . وكذلك الشيخ عبد الرحمن بن أسيد كان يعلم القرآن والفقه والتوحيد ص١٢٤ .

(٤) ص ١٦٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٥) ص ٧١ من الطبقات طبعة منديل .

عند شيوخ القرآن فيحفظ عليهم الكتّاب ويعرف أحكامه وقد يدرس بعض القراءات ثم ينتقل إلى شيخ آخر يتلقى عليه العلم . ولكنا نشك فيما إذا كان حفظ القرآن جميعه أولا شرطًا أساسيًا للبدء فى تعلم العلم بل لقد ذهب بعض الشيوخ إلى أن البدء بتعلم العلم أولى من حفظ القرآن(١) .

فقد روى صاحب الطبقات أن أحمد بن محمد بن على المشيخى ، المشهور عند الناس بولد أم مر يومًا إذ جاءه أحد يريد أن يقيم عنده لقراءة القرآن يقول له : لا يجوز لك أن تقرأ القرآن وأنت جاهل بفرائض العين مما فرض الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة ومعرفة الله ونحو ذلك . وأما القرآن فهو ناقلة . إلا أم الكتّاب (٢) فإنها فرض الصلاة ، ويبدأ مع طالبه بتلقينه مبادئ الفقه وأحكام الدين .

نستخلص مما ذكر أن السودان لم يعرف مراحل التعليم بمعناها الفنى ؛ وأن التعليم كان يبدأ بحفظ القرآن ، وقراءة بعض أحكامه على فقيه القرآن ـ أو على غيره من الفقهاء ـ ثم يرتحل من حفظ القرآن إلى مسجد العلم ـ أو يبقى فى نفس المسجد ـ إذا كان العلم يدرس به حيث يتلقى علوم الدين (٣) .

على أن كثيراً ممن شرعوا فى حفظ القرآن قد يتركون الخلوة قبل إتمامه . من ذلك أن عبد الرحمن بن طراف لم يحفظ إلا ربع يس (٤) . كذلك لم يحفظ عبدالله بن موسى أكثر من هذا الربع . وكثير من الطلبة كانوا يكتفون بحفظ القرآن . وبذلك تبدأ حياتهم المعاشية كفقهاء لتحفيظ القرآن ، كالفقيه دفع الله ، معلم القرآن (٥) بالحلفاية .

وقد يحفظون القرآن ويشتغلون بشىء آخر غير تدريسه مثل داود بن محمد بن حمدان الذى حفظ القرآن على الفقيه دفع الله بن ربه الكاهلى (٦) الهنلى ثم اشتغل بالتجارة .

---

(١) ومازالت الحال كذلك حتى الآن فى السودان ؛ فإن طلبة المعهد العلمى بأم درمان يدرسون إلى أن ينالوا شهادة العالمية ، من غير أن يكون حفظ جميع القرآن شرطًا أساسيًا لذلك .

(٢) ص ٦٤ من طبعة منديل .

(٣) راجع الصفحات الآتية من طبعة منديل : ٦٣ و٧٠ و٧١ و٧٩ و٨١ و٨٢ و١٠١ و١٢١ و١٢٤ و١٣١ و١٣٧ و١٦٦ و١٦٨ .

(٤) ص ١١٢ من طبعة منديل .

(٥) ص ١٦٢ من طبعة منديل .

(٦) ص ٨٣ من طبعة منديل .

وهنا نتساءل : أكانت هناك سن محدودة يبدأ فيها الصبى دخول الخلوة؟

والجواب على ذلك سهل إذا علمنا أن ديمقراطية الإسلام كانت لا تفيد طلب العلم بسن محددة ، فقد كانت معاهد العلم مفتحة الأبواب لمن يدخلها . ولم يكن يخطر على من كبرت سنه أن يجلس للتعلم . على أن الشائع هو أن التاسعة [١] كانت السن التى يرسل فيها الصبى إلى المكتب . وعلى هذا نقول : إنه لم يكن بالسودان مايدعو إلى تحديد سن لبدء التعليم ، إذ كيف يمكن هذا فى عصر كان فيه التعليم كما قلنا حرًا مجانيًا ، لم يقيد بمراحل ، ولم تشرف عليه هيئة منظمة ومن التعسف أن نتوقع سنا معينة للذهاب إلى الخلوة فى ذلك العصر ، ولكن لاشك كان الآباء يرسلون أولادهم إلى الفقيه متى أنسوا فيهم القدرة على حفظ القرآن . ويقول بركهارت فيما كتبه فى رحلاته [٢] عن مدينة بربر :

«ولاتجد فى الغالب أسرة محترمة إلا ولها ابن أو قريب وقف صباه على تعلم الفقه . وفى العادة ترسل الأسرات أبناءها فى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة - إلى مدارس البلاد المجاورة وأشهر هذه المدارس مدارس الدامر - وهى واقعة على الطريق المؤدى إلى شندى - ومدارس مقرات والشايقية» .

ثم يستمر بركهارت فيقول : إن الصبيان كانوا يتعلمون هناك القراءة والكتابة ، ويحفظون أكثر ما يستطيعون من القرآن ، ومن متون العلم ، والتعبد ، وكذلك التعاويذ . وعندى لم يكن هناك مايدعو الصبى إلى الانتظار إلى هذه السن قبل البدء فى التعلم ولذلك أرى أن بدأ تعلم القرآن كان ، لابد ، حوالى الثامنة أو التاسعة . ولعل بركهارت قصد أن الصبى كان يغادر أهله حوالى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ليتعلم فى بلدة أخرى . وهى سن يستطيع فيها أن يعتمد على نفسه إلى حد ما .

بقى أن نسأل عن المدة التى كان يمضيها الحوار (المتعلم) فى حفظ القرآن وتلقى العلم . وليس فى استطاعتنا أن نجيب عن هذا السؤال بما يفهم منه أنه كانت ثمة مدة معينة للدراسة

---

(١) أنظر الملحق الخامس من المجلد الثالث .

(٢) ص ٢٢٧ من رحلات فى بلاد النوبة . وهو يقول بعد ذلك إن الصبيان يستمرون فى التعلم بعيدًا عن أهلهم إلى حوالى سن العشرين وعند ذلك يرجعون إليهم .

وكيف يكون هذا ولم تكن هناك مراحل؟ ، وإنما كانت المدة التى يحتاجها المتعلم لاتمام الكتاب - أو المكتب - الذى يريد تعلمه هى المقياس الزمنى لمرحلة التعليم الضرورية له . فالمدة إذاً كانت تختلف باختلاف عدد الكتب التى يريد التلميذ تعلمها وباختلاف قدرته على التحصيل ، على أننا نستطيع أن نستخلص من الطبقات أن بعض الطلبة كان يمكث فى طلب العلم فقط أكثر من سبع سنين ، وذلك مثل إبراهيم بن عبودى ؛ فإنه بعد أن قرأ على خاله المسلمى - وكان يدرس الفقه - ذهب إلى عبدالرحمن ولد حمدتو فى نورى . وهناك مكث عنده سبع سنين [١] يتعلم الفقه . ومعنى هذا أن المدة التى استغرقها إبراهيم بن عبودى هذا فى طلب العلم ازادت عن سبع سنين ، ومن ذلك أن الفقيه شمه بن محمد عدلان أمضى فى تعلم الفقه اثنتى عشرة سنة ؛ منها ست فى قراءة المتن : وست فى قراءة الشرح . وهذه المدة غير سنوات أخرى أمضاها عند الفقيه بساطى بن أرباب يتعلم العقائد ، وعند عبد الصادق ولد حسيب يدرس الرسالة[٢] . ومن هذا نفهم أن مدة تلمذة شمه للعلم كانت نحو خمس عشرة سنة . وهناك من كان يمضى فى تلقى الفقه سبع سنوات[٣] فمن ذلك أن عبد الرحمن ابن الشيخ النويرى لما ذهب مع عبدالله بن دفع الله العركى لتلقى الفقه عند عبدالرحمن بن جابر ، مكث هناك سبع سنين ، رجع بعدها إلى أريجى حيث عينه الشيخ عجيب قاضياً . وكذلك الحال مع الشيخ عبدالله بن دفع الله العركى الذى صحب عبدالرحمن النويرى إلى عبدالرحمن بن جابر فى طلب العلم[٤] .

ومن الشيوخ من يبدأ يزاول مهنة التدريس فى أول العقد الثالث كالفقيه عبد الدافع القنديل ابن محمد بن حمد الجموعى ، فقد تخلف فى مسجد الحلفاية بعد وفاة الفقيه [٥] دفع الله ،

---

(١) ص ٢٠ من طبقات منديل ، وكذلك ص ١٠٨ .

(٢) ص ٩٣ من طبقات منديل ، ص ١٠١ من طبعة إبراهيم ود صديق .

(٣) وقد تزيد مدة حفظ القرآن وتعلم العلم على عشر سنوات ؛ من ذلك ما ذكره بركهارت فى رحلاته (ص ٥١) من أن كثيرًا من أولاد السكوت والمحس كانوا يرسلون إلى مدارس الشايقية حيث يقضون عشر سنوات أو أكثر يتعلمون ويطعمون مجانا . وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله بركهارت من أن الطلبة يمكثون من ١٢ إلى ٢٠ يتعلمون القراءة والكتابة والقرآن والعلم .

(٤) ص ١٠٧ من طبعة منديل .

(٥) ص ١٠٥ من طبعة منديل .

باشارة منه وكان عمره إذ ذاك اثنتين وعشرين سنة[1] . على أنه لم يكن هناك ما يفيد البدء بالتدريس بسن معينة ؛ فهذا أمر يتوقف على المادة المدرّسة ، فتدريس القرآن مثلاً لا يحتاج إلى الانتظار إلى العقد الثالث ، لأن حفظ القرآن كان مبكراً . ومن الممكن أن يبدأ الفقيه تدريسه بمجرد ما يتمم حفظه ، كما جلس محمد بن أنس لتدريس القرآن من أول بلوغه ، أى حوالى الرابعة عشرة[2] . وهى سن كانت تسمح فى ذلك الوقت بأن يحفظ الطالب القرآن ويقرأ أحكامه ، قبل البدء فى تدريسه .

فإذا قدرنا أن الطالب يتم حفظ القرآن وقراءة أحكامه فى سن الرابعة عشرة ، وأنه قد يحتاج إلى سبع سنين [3] أخرى لتعلم العلم جاز أن نفترض أن الطالب ينتهى من تعلم العلم وهو فى سن الحادية والعشرين فما فوق . ولدينا كثير من الأدلة التى تثبت أن مدة التلمذة فى القرآن والعلم كانت تختلف من بلد إلى بلد ، بل من طالب إلى طالب ، بحسب استعداد الطالب وظروف المعهد الذى يتلقى فيه العلم ؛ فابن خلدون يحدثنا أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس (فى بلاد المغرب) ست عشرة سنة ، وهى بتونس خمس سنين . وهذه المدة بالمدارس على التعارف هى أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية ، أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها فى المغرب إلى هذه المدة من قلة الجودة فى التعليم [4] . وقد أتم جلال الدين السيوطى (المولود سنة ٨٤٩هـ حفظ القرآن وهو فى الثامنة من عمرخ ؛ ثم تفقه فى علوم عصره ، وشرع فى التأليف وهو ابن سبع عشرة سنة . وتولى الإفتاء سنة ٨٧١ أى فى الثانية والعشرين من عمره) [5] .

■■■

---

(١) ص ١٢٧ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٥٣ من طبعة منديل .

(٣) كما احتاج إبراهيم الفرضى إلى هذه المدة ليدرس العلم على عبد الرحمن ولد حمدتو فى تورى بدنقلة (ص١٧٠ من طبعة منديل) .

(٤) ص ٣٠٣ من المقدمة .

(٥) راجع ترجمته فى حسن المحاضرة .

برامج التعليم

نقصد ببرامج التعليم هنا أنواع العلوم التى كانت تدرس فى السودان لذلك العهد والموضوعات والكتب التى كانت تستعمل فى هذه العلوم . وقد أشرنا إلى أن السودان فى عهد اضمحلال الثقافة الإسلامية ، وأنه كان مقلداً لغيره من الأمم الإسلامية ، ولاسيما مصر التى كانت حينذاك صاحبة الصدارة بين الأمم .

وكانت العلوم المتعارفة بين أهل العمران ـ كما يقول ابن خلدون ـ على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة ، وعلوم هى آلية ووسيلة للعلوم المقصودة بالذات كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات ، وكالمنطق للفلسفة . وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين[١] .

وقد ظهر السودان فى عهد التقليد فلم يكن للفلسفة أو المنطق أو غيرهما من العلوم العقلية نصيب يذكر اللهم إلا ماكان يحفظ من متونها . من أجل هذا انصرف المتعلمون فى السداد وغيره من بلاد الإسلام إلى العلوم المقصودة بذاتها ، وفى مقدمة هذه العلوم فى السودان الفقه وعلم الكلام .

وإذاً فقد كان المتعلم يبدأ أولاً بحفظ القرآن [٢] عن ظهر قلب ، من غير اهتمام كثير [٣] بمعناه . ولم تكن هناك مصاحف مخطوطة [٤] فكان المدرس يملى من الذاكرة ، والدروس تكتب

---

(١) ص ٣٩٦ من مقدمة ابن خلدون .

(٢) يقول ابن خلدون فى ص ٣٩٧ «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائد من آيات القرآن . . . . . وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً ، وهو أصل لما بعده» .

وفى صفحة ٣٩٩ يشير إلى السبب فى تقديم تعليم القرآن على غيره من العلوم فيقول : «ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيثار التبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن» .

(٣) هكذا يقول هيللسون فى ص١٩٩ من الجزء السادس مجلة S. N. & R.

(٤) لعله يريد عدداً كبيراً منها يمكن كل تلميذ من استعمال المصحف ، وإلا فقد كانت المصاحف المخطوطة معروفة ومتداولة .

لوحًا فلوحًا على ليحان (ألواح) الحيران . ثم تمحى الليحان متى حفظها التلاميذ (١) . وبهذا كان يتعلم التلميذ القراءة والكتابة عرضًا أثناء حفظه القرآن .

وكثير من التلاميذ كانوا يكتفون بحفظ القرآن ، وبذلك تبدأ حياتهم المعيشية كفقهاء لتحفيظ القرآن . ولذلك كان فى مساجد العلم أو الخلوات نوعان من الفقراء (الطلبة) فقراء العلم وفقراء القرآن (٢) .

وكان الفقه (٣) المادة التى تلى القرآن فى الأهمية . وكان المذهب الشائع هناك هو مذهب مالك ، وتبع مذهب الشافعية قليل من أهل البلاد . أما سبب انتشار مذهب مالك بينهم فيرجع إلى أن من وفدوا على السودان أول عهد الإسلام ونشروا أحكام الدين وتعاليمه فيه ، أيام كانت الجهالة ضاربة أطنابها ، كانوا مالكى المذهب . فمحمود العركى ، وهو أول من نشر تعاليم الدين الإسلامى فى منطقة النيل الأبيض ، تتلمذ على الناصر اللقانى وعلى شمس الدين اللقانى ، وهما من أئمة المالكية كما ذكرنا ، وكان أولاد جابر وغيرهم تلامذة للشيخ محمد البنوفرى وهم من أعلام المالكية . وإذاً فقد سبق مذهب المالكية إلى السودان غيره من المذاهب . هذا إلى أن مذهب المالكية يغلب على أهل الصعيد من مصر . وكان عرب الصعيد أكثر اتصالاً بعرب السودان بحكم الجوار وأكثر هجرة إليه .

وقد وجد مذهب مالك فى السودان موطنًا صالحًا خصبًا . ذلك لأن البداوة كانت غالبة على أهل السودان ، لم يكونوا يعانون من الحضارة ما لأهل العراق مثلا . فكانوا إلى المذهب المالكى أميل . لأن مذهب المالكية ـ كما يقول ابن خلدون ـ أنسب بأهل (٤) البداوة الذين يشبهون أهل الحجاز ، أولئك الذين ظهر فيهم المذهب وانتشر .

---

(١) ص ١٩٩ من مجلة Sudan Notes and Records, Vol. VI.

(٢) ص ٢٠٠ من المجلة المذكورة .

(٣) يقول سنوك هرجرونى فى ص ٧٦٩ ج٢ من الترجمة الإنجليزية لكتابه مكة : «ويوصى الإسلام بأولئك الذين يهتمون بالعلم والعلماء ، ولاسيما الذين يعلمون الفقه . لأن هذه المادة ينظر إليها من الناحية الدينية باعتبارها المادة لا غنى للمسلمين عنها . وكل من يكرس جهوده على تدريس هذه المادة يعفى من الجهاد . وإذا مات وهو يدرسها عد من الشهداء» .

(٤) ص ٣١٥ من مقدمة ابن خلدون .

على أن الأمم المجاورة للسودان والتى هى منطقة التأثير الثقافى فيه كانت ـ ولا تزال ـ مالكية المذهب . فالحجاز فى الشرق وفيه المدينة مهد المذهب المالكى ، وأهل المغرب وهم فى الشمال الغربى على مذهب المالكية كان المذهب عندهم «غضا» ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب [1] . وكان مسلمو السودان الغربى مالكية أيضًا وإذًا فقد كان السودان محوطًا بمذهب المالكية من جميع جهاته . فلا غرابة أن يكون هذا المذهب أول مذهب يدخل السودان ، والمذهب السائد [2] فيه حتى الآن .

هذا إلى أن مذهب الشافعية قد عرف أيضًا فى السودان لذلك العهد . وكان له أتباعه ، وكانت له دراساته . والرأى عندى أن مذهب الشافعى دخل السودان بدخول محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى الشافعى . وذلك حوالى سنة ٩٨٠هـ وكان محمد بن على هذا قد أخذ فقه الشافعية عن الخطيب الشربينى [3] . ثم دخل مدينة أريجى ، وسنار ، وبربر [4] حيث اتخذها مثواه وهناك تتلمذ عليه كثيرون فى مذهب الشافعية ، وإن لم يصيروا جميعًا من أتباع

---

(١) ص ٣١٥ من مقدمة ابن خلدون .

(٢) نشأ مذهب مالك (٩٣-١٧٩هـ) بالمدينة المنورة . ثم انتشر فى الحجاز وغلب عليه ، وعلى البصرة ، ومصر ، وما والاها من بلاد إفريقيا والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى وبلاد السودان . وظهر ببغداد ظهورًا كبيرًا . ثم ضعف فيها بعد القرن الرابع . وفى المقريزى (ص ١٤٥ ج٤) أن أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبدالرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح . وتوفى فى الإسكندرية سنة ١٦٣ . ونشره عبد الرحمن بن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة ، لتوفر أصحاب مالك ولأن مذهب أبى حنيفة يقول بإبطال الأحباس فتقل أمره على أهل مصر وسئموه . ولم يزل مذهب مالك مشتهرًا بمصر حتى قدم الشافعى إليها سنة ١٩٨ فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها : ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر . ومازال مذهب مالك ومذهب الشافعى يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما ، أو إلى مذهب أبى حنيفة إلى أن قدم جوهر القائد سنة ٣٥٨ فمن حينذاك فشا بمصر مذهب الشيعة . ولكن هذا المذهب زال بزوال الدولة الفاطمية . وشجع الأيوبيون مذهب الشافعى فانتشر مع المذهب المالكى . ثم استولى العثمانيون على مصر فحصروا القضاء فى الحنفية ، وأصبح الحنفى مذهب أمراء الدولة وخاصتها . ورغب كثير من أهل العلم فيه لتولى القضاء ، إلا أنه لم ينتشر بين أهل الريف والصعيد انتشاره فى المدن . والآن يتبع مذهب مالك فريق كبير من المصريين ويكاد يعم الوجه القبلى .

(٣) هو محمد الشربينى الخطيب . من علماء الشافعية فى القرن العاشر . وهو مؤلف عدد من الكتب فى مذهب الشافعية منها : كتاب الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع من جزئين على مذهب الشافعية . وقد وجدت فى نهاية هذا الكتاب ما يأتى :

وكان الفراغ من ذلك يوم الاثنين المبارك ثانى شهر شعبان من شهور سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة من الهجرة النبوية ، على يد مؤلفه فقير رحمة ربه القريب المجيب محمد الشربينى الخطيب . فكأنه مات بعد هذا التاريخ .

(٤) ص ١٦١ من طبعة منديل .

المذهب ، كالشيخ عبدالله العركى ، وعبدالرحمن ولد حمدتو والقاضى دشين الذى صار من أعلام الشافعية فى السودان ، وإبراهيم الفرضى [1] وغيرهم .

هذا ، والذى يلفت النظر حقًا هو أن مذهب الشافعى منتشر الآن فى شرق السودان . وقد حاولت أن أعرف لم وكيف انتشر هذا المذهب فى الجهات الشرقية من السودان مثل سواكن وطوكر وبورت سودان وغيرها؟ فلم أعثر على أى وثيقة تاريخية . وقد علل بعض [2] أهل السودان لهذا الانتشار بأن سكان الحبش من المسلمين شافعية ، وكذلك أهل مصوع والصومال وزنجبار ، فلا غرابة أن يكون سكان السودان الشرقى تأثروا بهذا المذهب واتبعوه ، لما بينهم من صلات التجارة والجوار .

والرأى عندى أنه من المعقول أن يتأثر أهل السودان الشرقى بمن ذكرنا ، من سكان البلاد المجاورة ، ولكنهم أكثر تأثرًا بسكان الحجاز واليمن الذين كانوا على صلة تجارية وثقافية دائمة بهم فى أيام الحج وغيرها . «وفى مكة يغلب المذهب الشافعى ، ولكن لما كانت هذه المدينة قبلة كل المسلمين من جميع المذاهب لم يصبح المذهب الشافعى هو المذهب [3] السائد» . ومعروف أن الشافعى ذهب إلى اليمن وأقام هناك زمنا تزوج فيه ، وكان يعلم الناس الفقه وغيره من العلوم ، حتى خشى الرشيد منه ، ومن أن يكون مواليًا للعلويين يدعو لهم . ومعروف أيضًا أن الشافعى

---

(١) نذكر هنا بعض علماء الشافعية فى السودان :

الشكاك بن محمد بن على بن قرم فى بربر (ص ١٦١ طبعة منديل) .

محمد بن شافعى بن محمد بن على بن قرم فى بربر (ص ١٠٣ طبعة منديل) .

وكان خليفة الشكاك هذا هو ضو البيت بن أحمد فى بربر تلميذ محمد بن شافعى (ص ١٠٣ طبعة منديل) .

بلال الصيقيع عالم أريجى (ص ٩٤ طبعة منديل) .

شمة بن محمد بن عدلان الشايقى فى أريجى كان مفتيًا فى مذهب مالك والشافعى (ص ٩٤ طبعة منديل) .

إبراهيم العودى مدرس وخطيب بسنار (ص ٢٥ طبعة منديل) .

الفقيه عمار بن عبد الحفيظ خطيب وعالم بسفار (ص ١١٠ طبعة منديل) .

عبد اللطيف بن الخطيب عمار عالم بسنار (ص ١٣٢ طبعة منديل) .

على ولد الشافعى تلميذ الفقيه عمار عالم بسار (ص ١٢٩ طبعة منديل) .

نواوى بن ضو البيت خلف والده فى بربر (ص ١٢٨ طبعة منديل) .

مدنى ولد دشين وكان فى مدنى (ص ١٤٨ طبعة منديل) .

(٢) من هم هؤلاء أصحاب هذا الرأى الشيخ محمد عبد الرحيم المؤرخ السودانى المجتهد . وهو يسكن الآن أم درمان . وقد وصف ابن بطوطة فى رحلاته مدينة زيلع بأن سكانها طائفة من السودان شافعية المذهب .

(٣) ص ١٨٢ ج٢ من الترجمة الإنجليزية لكتاب مكة .

رجع إلى مكة من بغداد حوالى سنة ١٨١هـ وأقام بها سبع عشرة سنة يعلم الناس العلم [١] وينشر مذهبه . ومن هذا يظهر لنا كيف انتشر مذهب الشافعى فى اليمن وبلاد [٢] العرب .

وإذاً فقد وفد المذهب إلى السودان من مصر ، وانتشر على ضفتى النيل وفى جزيرة سنار . أما فى شرق السودان فإن وفوده من الأمم الإسلامية المجاورة للبحر الأحمر فى أفريقيا ، ومن جزيرة العرب نفسها وهى المصدر الأقوى كما ذكرنا .

أما المذهب الحنفى فلم يعرف بالسودان إلا فى العهد المصرى كما سنشرح ذلك فى القسم الثانى من هذه الرسالة .

وكانت عناية الشيوخ والمتعلمين بالفرائض من مادة الفقه شديدة حتى لقد كانوا يشيرون إليها كأنها شيء مستقل عن الفقه . ولعلهم على حق في ذلك . فقد خص ابن خلدون للفقه بابا في مقدمته [٣] ، وللفرائض بابا آخر ، وعرف الفقه بأنه «معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة ، وهى متلقاة من الكتاب والسنة ، ومانص به الشارع لمعرفتها من الأدلة» ثم عرف الفرائض بأنها معرفة فروض الورثة ، وتصحيح سهام الفريضة» . وذكر أن تسمية باب الميراث بالفرائض إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ، ولم يكن معروفًا صدر الإسلام ، وعلى أية حال فقد كانت عناية أهل السودان بالفرائض طبيعية لحاجتهم العملية الضرورية إلى هذا الفن فى تقسيم الشركات وكان من علمائهم من نبغ فى هذا الفن . وقد أطلقوا لقب الفرضى على إبراهيم بن عبودى ؛ لأنه كان ذا باع طويل فى الفرائض ، وألف الحاشية المشهورة بالفرضية [٤] كذلك كان مالك بن عبدالرحمن بن حمدتو بارعًا فى الفرائض ، وألف ثلاث حواش على الميراث كبرى ، ووسطى ، وصغرى ، فى غاية الإفادة [٥] .

---

(١) انظر ص ٢١٨-٢٢٢ ج٢ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) من هذا يفهم أن مذهب الشافعى ظهر فى بلاد اليمن فى القرن الثانى للهجرة ، ولكن مؤلف أنباء الزمن فى أخبار اليمن يقول «وفى هذه المائة الثالثة ظهر مذهب الشافعى فى بلاد اليمن . . . . وقيل إنه لم يظهر إلا فى المائة الرابعة وهو الأقرب والله أعلم» . (ص٥٥ من الكتاب المذكور الطبعة الألمانية بتصحيح وتقديم وتحشية الدكتور محمد عبد الله ماضى) .

(٣) ص ٣١٢-٣١٦ .

(٤) ص ٢٠ طبعة منديل .

(٥) ص ١٥٩ طبعة منديل .

ويلى علم الفقه والفرائض علم الكلام ، أو علم التوحيد ، أو علم العقائد ، كما كانوا يقولون . وقد نبغ فى هذا العلم علماء شدت إليهم الرحال ، مثل أرباب بن على بن عون ، الذى سمى أرباب العقائد ، والذى كان يدرس «علم التوحيد والتصوف وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيف . . . وألف كتابًا فى أركان الإيمان سماه الجواهر وأنتفع به الناس شرقًا وغربًا [1]» وكذلك كان الشيخ محمد القناوى المصرى ، تلميذ الشيخ سالم السنهورى ويوسف الزرقانى ، يدرس العقائد فيما يدرس من العلوم . وقام ابنه المضوى مقامه فى التدريس . وألف كتبًا قيمة منها أربعة شروح على أم البراهيم فى التوحيد [2] . وكثيرون من العلماء مهروا فى هذا العلم [3] ، واهتموا به اهتمامًا ملحوظًا ، وأكثروا من التصانيف والشروح على أمهات كتبه المعروفة فى ذلك الحين [4] .

ويقول هيللسون ـ بعد أن ذكر القرآن والفقه والتوحيد ـ باعتبارها أهم المواد التى كان تدريسها شائعًا فى السودان ـ «إن نسبة قليلة من المتعلمين كانت تلتمس تعلم المواد الأخرى كالتجويد ، والقراءات ، والحديث ، والتفسير ، والنحو ، والبلاغة . ولم تعد هذه النسبة القليلة أن تجد من يدرس لها هذه العلوم ، التى يظهر أنها لم تكن جزءاً من منهج الدراسة المألوف . غير أن كتاب الطبقات يشير من آن لآخر إلى بعض العلماء الذين يرى أنهم نبغوا فى هذه العلوم[5]» .

---

(١) ص ٢٩ من طبعة منديل .

(٢) ص ٣٠ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) نذكر منهم : عبد الله بن دفع الله العركى فقد نظم مقدمات السنوسى ، وكبرى السنوسى (أو عقيدة أهل التوحيد) وفرغ منها سنة ١٠٠٧هـ (ص ١٠٧ طبعة منديل) ، ومحمد بن داود الأغر العودى تلميذ عبد الله العركى . وكان يدرس الفقه والتوحيد فى حلة عجيب (ص ١٤٤ طبعة منديل) ، ومحمد بن عيسى بن صالح البديرى سوار الذهب تلميذ محمد المصرى وكان يعلم التوحيد فى دنقلة (ص ١٥٧ طبعة منديل) ، ومحمد بن عمران تلميذ المضوى بن المصرى بشندى وقد شرح السنوسية الصغرى أو أم البراهين شرحا مفيدا فى نحو عشر كراريس (ص ١٦٤ طبعة منديل) ، ومحمد بن عدلان الشايقى الذى كان يقول بوجوب معرفة الله بالدليل والبرهان ومن لم يعرف الله بالدليل والبرهان فليس بمؤمن وقد ألف كتاب «حجة العارفين فى شرح أم البراهين» ، وكتاب «تحفة الأطفال» فى العقيدة متنا وشرحا . ويقال إن مدار علم الكلام فى جزيرة سنار كان عليه (ص ١٦٤ طبعة منديل) ، كذلك الشيخ على ولد برى الذى ألف الشرح الكبير على أم البراهين فى ٤٠ كراسًا ، والشرح الصغير فى عشرة (ص ١٣١ طبعة منديل) وعبد القادر البكاى بن فايد ، تلميذ المضوى بن المصرى بشندى . وقد ألف شرحا وافيا على أم البراهين أو السنوسية الصغرى (ص ١١٦) وغير هؤلاء كثيرون (راجع الصفحات ٤١ و٤٣ و٦٩ و٧١ و١٠١ و١٣٧ و١٣٨ و١٤٥ و١٥١ و١٦٦ من طبعة منديل) .

(٤) ويقول مؤلف الطبقات إن الذى كان معروفا من كتب التوحيد فى جزيرة الفونج هو كتاب أم البراهين ، أو السنوسية الصغرى ، إلى أن حضر محمد بن عدلان الشايقى من مجاورته خارج السودان ودرّس فى تنقسى فنشر فى البلاد تدريس كبرى السنوسية ووسطاها (ص ٧٢ طبعة صديق) .

(٥) ص ٢٠٠ ، ٢٠١ من الجزء السادس من مجلة Sudan Notes & Records .

ونحن نخالف رأى هيللسون فى أن القرآن والفقه والتوحيد فقط كانت المواد الشائعة ؛ فإن علوم القرآن وعلم التصوف كانت من المواد شائعة الدرس أيضًا . ذلك لأنه كانت بالسودان طبقة خاصة من العلماء هم طبقة فقهاء القرآن . وهؤلاء كانوا يحفظون القرآن ويعرفون أحكامه ، وتجويده ، وبعض القراءات ، ليتمكنوا من تعليمه وفقًا لهذه الأحكام . وكان هنالك علماء اشتهروا بتدريس أحكام القرآن ، ومنهم من شرح المتون المعروفة فى ذلك العهد ، بل منهم من ألف متونًا جديدة .

ويرى مؤلف الطبقات أن علوم القرآن[1] قد انتشرت فى بلاد الفونج على يد محمد بن عيسى سوار الذهب . وأن محمدًا هذا قد تلقاها من التلمسانى المغربى الذى وفد عليه وسلكه طريق القوم ، وعلمه علوم الكلام ، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها ، وقد نشر تلامذة[2] محمد بن عيسى علوم القرآن فى الجزيرة السنارية ونحن نؤيد هذا الرأى ونضيف إليه أن المصرى محمد القناوى قد سبق التلمسانى إلى السودان ، وأن محمد بن عيسى قد تتلمذ عليه فى بربر .

---

(١) علوم القرآن أنواع كثيرة منها : (أ) ما يتعلق بمواطن النزول وأوقاته ووقائعه . (ب) وما يتعلق بالسند وهو ثلاثة أنواع ؛ التواتر ، والآحاد ، والشاذ . (ج) وما يتعلق بالأداء من الوقف والابتداء والأمالة والمد وتخفيف الهمزة والإدغام . (د) وما يتعلق بألفاظ القرآن كالغريب والمغرب والمجاز المشترك والمترادف والاستعارة والتشبيه (هـ) وما يتعلق بالأحكام كالعام الباقى على عمومه ، والعام الذى أريد به الخصوص . (و) وما يتعلق بالألفاظ من حيث الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والنقصير (ز) وما يتعلق برسم القرآن وكتابته . وقد ألفت فى هذه العلوم كتب كثيرة مثل إعجاز القرآن لعبد القاهر الجرجانى والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى . ومتن الشاطبية فى القراءات المعروف (بحرز الأمانى ووجه التهانى) لأبى قاسم بن فيرة الشاطبى ، والجزرية فى التجويد والتلاوة لمؤلفها محمد بن الجزرى الدمشقى . وكانت عناية أهل السودان بالأنواع العملية من هذه العلوم ، وأعنى بها ما يتعلق بالسند والقراءات ، وما يتعلق بالتجويد والتلاوة ، وما يتعلق برسم القرآن .

وقد نبغ فى علم القراءات أبو عمرو الدانى (نسبة إلى إمارة دانية بالأندلس) وتعددت تآليفه ، وعول الناس عليها ومنها «التيسير» ثم ظهر بعده أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة (المتوفى سنة ٥٩٠هـ) فنظم قصيدته المشهورة بالشاطبية ، التى عنى الناس بحفظها وتلقينها للمتعلمين . وجرى العمل على ذلك فى المغرب والأندلس ومصر والسودان . وأما فن رسم القرآن فالمراد به أوضاع حروف المصحف ورسومه الخطية لأن فيه حروفًا كثيرة وضع رسمها على غير المعروف من قياس الخط فلما جاءت هذه المخالفة احتيج إلى حصرها . وانتهى التأليف فيها بالمغرب إلى أبى عمرو الدانى ، فكتب كتبا من أشهرها المقنع الذى نظمه أبو القاسم الشاطبى فى قصيدته المشهورة على روى الراء . ثم كثر الخلاف فى رسم كلمات وحروف أخرى ذكرها فى كتبه أبو داود سليمان بن نجاح من تلاميذ أبى عمرو الدانى . ثم نقل بعده خلاف آخر فى رسم الحروف فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافًا كثيرًا وقد اشتهرت الخرازية هذه فى السودان فكان المتعلمون يحفظونها كما سنشرح ذلك بعد .

(٢) ص ٥ من الطبقات طبعة صديق ، وص ١٥٧ طبعة منديل .

وقرأ عنده علوم القرآن والعقائد [1] والمنطق . ولا يهمنا هنا أى المصدرين كان أقوى تأثيرًا فى إدخال القراءات وعلوم القرآن بالسودان . المغرب أو مصر ، ذلك لأن أغلب كتب هذه العلوم كانت أندلسية التأليف وشائعة فى المغرب ومصر على السواء . فأبو عمرو الدانى صاحب التيسير فى القراءات من مقاطعة دانية وهو أندلسى ، وأبو القاسم بن فيرة ـ صاحب الشاطبية ـ من شاطبة وهو أندلسى أيضًا . والخراز مؤلف أرجوزة متن الخرازى فى رسم القرآن .

ثم نلاحظ أن القراءات الشائعة الآن عند أهل السودان هى ورش بناحية دارفور وكردفان وأبى عمرو بناحية دنقلة والدامر والخرطوم ، وحفص وهى أقل استعمالا من القراءتين السابقتين وهذا ما يرجح عندى أن السودان تأثر فى قراءتى ورش وأبى عمرو بالمغرب لأنهما شائعتان هنالك أكثر مما تأثر بمصر [2] .

هذا وممن كانوا يدرسون علوم القرآن بالسودان عبدالله الأغبش فى بربر . وله تلامذة كثيرون[3] ؛ منهم الدنقاسى الذى ألف منظومة فى ضبط شكل (رسم) القرآن ، وانتشر تلاميذه كما انتشر علمه فى السودان [4] .

---

(١) ص ١٥٧ من طبعة مندبل .

(٢) ليس لدينا ما يحمل على الاعتقاد بأن روايات قراءة القرآن بالسودان قد تغيرت كثيرًا منذ دخولها فى السودان ؛ لأن الخلوات هى الأماكن التى يعلم فيها القرآن عادة بأحكامه وقراءاته . والخلوات محافظة ، وفيها يتلقى المتعلم الرواية شفهيا ؛ لأن رسم المصحف لا ينص على نوع القراءة . هذا ولما كان القراء عادة حريصين على محاكاة أساتذتهم فى رواية القرآن من المعقول أن روايات القرآن ظلت متوارثة جيلا عن جيل إلى يومنا هذا . غير أن قراءة المدارس الحكومية أغلبها رواية حفص .

(٣) ص ١٢١ طبعة مندبل .

(٤) نذكر هنا من شيوخ علوم القرآن : عيسى ولد كنو تلميذ عبد الله الأغبش . وقد درس القرآن وتجويده فى حياة شيخه . وكان يدرس الخرازى والجزرية ومن تلاميذه عبد الرحمن الأغبش ، وضو البيت : وفضل الدنقلاوى (ص ١٢٠ طبعة مندبل) وعبد الرحمن بن حمد الأغبش وهو الذى قرأ أحكام القرآن فى متن الخرازى والجزرية عند عيسى ولد كنو فى حفير مشو . وله مؤلفات فى علوم القرآن منها : (أ) شرح الخرازى (ب) شرح الجزرية (ج) نظم الهداية فى أحكام القرآن (د) تحفة الهداية . وله تلاميذ كثيرون . وصار مدار علم التجويد فى البلاد عليه ، وعلى تلاميذه (ص ١٢٢ طبعة مندبل) . وعبد الرحمن بن أسيد وهو تلميذ عبد الرحمن بن حمد الأغبش . وقام بتدريس أحكام القرآن بجهة الأبواب وكان يدرس الجزرية والشاطبية والخرازى (ص ١٢٣-١٢٤ مندبل) ومحمد بن عبد الرحمن بن حمد الأغبش . وكان يدرس القرآن وأحكامه فى بربر (ص ١٦٣) وكذلك يعقوب الفضلى ، وكان يعلم القرآن وأحكامه (ص ١٤٤) وابنه موسى وقد تتلمذ عليه (ص ١٤٥) . وعبد الله بن الخطيب عمار وكان مجودا للقرآن (ص ١٣٢) . والمضوى بن محمد أكداوى بن محمد المصرى ، وقد شرح الجزرية (ص ٣١) . وعمارة بن شايقى ، وقد تعلم فى مكة علم التجويد (ص ١٣٧) وحمد بن حميدان ، وكان يعلم القرآن وأحكامه فى مسجد الحلفاية (ص٥٤) . ومن تلاميذه محمد بن ضيف الله جد مؤلف الطبقات .

وأما التصوف فقد كان شائعًا عملاً وعلمًا . وكان معظم العلماء صوفيين يسلكون الطريق على بعض شيوخ الطرق فى زمنهم . نفهم هذا من تراجم الطبقات ، ومن العبارة الشائعة فى كل ترجمة ، «وسلك طريق القوم على الشيخ فلان» وللصوفية أدب خاص وأوراد وأذكار تحفظ وتردد . من أجل هذا كانت دروس الصوفية تعلم وتلقن مع العلوم الأخرى فى المساجد والخلاوى لابد أن من الفقهاء من كان لايكتفى بعلم الظاهر . ويسعى لأخذ الطريق حتى يتم له علم الباطن كما حدث من الشيخ عبدالله بن دفع الله العركى . فقد ترك العلم وسافر إلى الحجاز لكى يسلك الطريق على تاج الدين البهارى . فلما لم يجده سلكه على تلميذه حبيب الله (١) العجمى . ونحن قد ذكرنا أن الخلوة كانت فى الأصل للتعبد ، وأن التعلم والتصوف ظهرا معا وانتشرا فى السودان فلا غرابة أن الخلوة كانت فى الأصل للتعبد ، وأن التعلم والتصوف ظهرا معا وانتشرا فى السودان فلا غرابة إذًا أن نجد كتب التصوف تدرس وتحفظ مع كتب الفقه . ومن ذلك يحدثنا به محمد ابن الشيخ عبدالله الطريفى عن نفسه : أنه دخل سنار ودرس عند الفقيه هارون ولد أبوحصى ، درس عليه ختمة فى العقائد ودرس عليه أيضا ابن عطاء الله يقصد كتاب المناجاة لابن عطاء الله (٢) .

وكان الشيخ ضيف الله بن محمد والد مؤلف الطبقات تلميذ للشيخ خوجلى . وقد جمع بين العلم والعمل والزهد والعبادة وكان محافظًا على قراءة مناجاة ابن عطاء الله والمنجيات والأذكار والأوراد ؛ فإذا صلى الصبح استمر فى موضعه يذكر الله ويقرأ وظيفة الشاذلى (٣) ، وأحزابه ، وسائر أذكار الشيخ خوجلى (٤) . . . الخ . وكان الشيخ عبدالماجد بن حمد الأغبش ممن جمع بين علم الظاهر والباطن ، ومن أرباب المكاشفات . وكانت له طريقته الصوفية التى

---

(١) كذلك نجد محمد أبا إدريس بن دفع الله العركى قد تفقه على أخيه الشيخ عبد الله العركى ، وسلك عليه طريق القوم . وأذن له فى السلوك وتربية المريدين وكتب له بخطه : «لما رأيت أخى الطالب الراغب محمد بن دفع الله الشهير بأبى إدريس أهلا لهذه النعمة العظيمة الشريفة لقنته ذكر كلمة التوحيد ، وإجزته إجازة مطلقة بقراءة الأسماء ، والحزب السيفى ، وغير ذلك من الدعوات المذكورة والأذكار المأثورة . وأجزت له لبس الخرقة واستخلفته كما أجازنى شيخى الشيخ حبيب الله بن الشيخ حسن البصرى . وهو أخذ عن شيخه ومرشده الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى» . (ص ١٣ ، ١٤ طبعة منديل) .

(٢) ص ١٥١ من طبعة منديل .

(٣) تبدأ هذه الوظيفة بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل وسلم بجميع الشئون فى الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة . . إلخ .

(٤) ص ١٠٢ من طبعة منديل .

يعلمها أتباعه ويطلب إليهم قراءة القرآن وحزب [١] البحر . وقد أخذ عليه طريق الصوفية هذا كثيرون يبلغون الألف أو يزيدون [٢] . ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم عبدالرحمن بن صالح ابن بان النقا الشيخ عبد القادر بن مصطفى الذى قرأ عليه مناجاة ابن [٣] عطاء الله .

وفى رواية صالح بن بان النقا ما يفيد أن الشيخ كان إذا سلك الطريق ـ وكثيرًا من سلكوا الطريق فى السودان ـ كان يلقن المريد الأحزاب والأوراد . فقد سلك الطريق على عمه الشيخ صالح ولقنه الأوراد عمه الزين[٤] . وانصرف صالح بن النقا بعد ذلك إلى قراءة دلائل الخيرات .

وفى الطبقات أمثلة كثيرة لمن شغلوا من الصوفية بقراءة الأوراد وكتب التصوف [٥] ودلائل الخيرات . وهذه الأمثلة تدل على أن مما عنى به شيوخ ذلك العهد هو تلقين طلابهم الأوراد وأحزاب التصوف . والحقيقة أن دراسة كتب الصوفية كانت حينذاك جزءًا من طلب العلم لا فى السودان وحده ، بل فى جميع أنحاء العالم الإسلامى[٦] .

هذا ولم تهمل دراسة المواد الأخرى فى السودان كالتفسير والحديث والنحو والمنطق والأصول ومصطلح الحديث وعلوم اللغة والمعنى والبيان والبديع وعلم العروض وإن لم تنل من العناية

---

(١) هو حزب للشيخ أبى الحسن الشاذلى أوله بسم الرحمن الرحيم . يا على يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربى وعلمك حسبى . فنعم الرب ربى ونعم الحسب حسبى (انظر لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى) .

(٢) ص ١٢٢ من طبعة منديل .

(٣) ص ٢٨ طبعة منديل .

(٤) ص ٢٦ طبعة منديل .

(٥) نذكر منهم :

إسماعيل بن مكى الدقلاشى الذى كانت له أشعار وقصائد فى المديح وكلام بين فيه صفة الأولياء . وألف كتابًا فى الطريقة الصوفية وآداب الذكر وله شرح على قصيدته فى مدح النبى وهى التى تقول فى مطلعها :

إنى رأيت فى ليلتى فى منامى   خير البرية ضاحكًا مستبشرا

(صفحة ٢٦ طبعة منديل) .

وكان الشيخ أرباب بن على بن عون ممن شدت إليه الرحال فى علم التوحيد والتصوف (ص ٢٩ طبعة منديل) .

وكان حمد بن المجذوب ممن جمع بين العلم والعمل والتصوف وانتصب للتدريس فى جميع الفنون والفتاوى والأحكام والسلوك فى طريق القوم . وكان يوصى بملازمة دلائل الخيرات فى الذكر (ص ٧٠) وكذلك الشيخ عبد الوهاب ولد أبو قرنى ممن يلازمون قراءة دلائل الخيرات فى تعبدهم (ص ١٢٧) ومن الشيوخ من ألف فى التصوف فقد ألف محمد ولد عدوى كتابا فى صفة «الفقير» (ص ١١٢) .

(٦) راجع الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعرانى .

والذيوع ما نالته العلوم التى ذكرناها . وقد كان محمد بن إبراهيم بن عبود الفرضى يدرس التفسير والحديث ـ كتاب الجامع الصغير للبخارى ـ وبلغ عدد طلبته ألف طالب وقيل ألفين [١] .

وكان حسن بن عبدالرحمن بن صالح بن بان النقا ممن يعنون بقراءة الحديث ودرسه ، حتى لقد كتب للشيخ أحمد الدردير يطلب منه أن يجيزه فى قراءة كتب الحديث ومصطلحه[٢] . وكان عبدالله الشريف من أولياء الله بحرًا فى علم الباطن ، يفسر الآية الواحدة تفسيرًا لو كتب[٣] لجاوز كراسًا .

وكان لعلم المنطق نصيب غير قليل عند بعض الشيوخ ؛ فقد تعلمه محمد بن عيسى سوار الذهب على الشيخ محمد المصرى[٤] القناوىء وكذلك أخذ عبدالرحمن بن صالح بن بان النقا علم المنطق[٥] عن الفقيه عبدالباقى بن فكى تلميذ عبداللطيف بن الخطيب عمار . وكان المضوى بن المصرى يدرس علم المنطق مع غيره من العلوم فى شندى واجتمع عليه خلق كثيرون[٦] وممن كانوا يدرسون المنطق أيضا حامد أبو أمونة تلميذ محمد عدلان الشايقى . وقد أخذ المنطق عن حامد هذا بقادى على بن حمودة الكاهلى الأسودى[٧] . والغالب أن دراسة علم المنطق فى ذلك العهد لم تعد حفظ بعض المتون كما كانت الحال فى كل البلاد الإسلامية .

أما النحو والصرف وعلوم اللغة الأخرى ؛ فممن قام بتدريسها الفقيه عبدالباقى بن فكى تلميذ الخطيب عمار . وتتلمذ عليه فى النحو عبد الرحمن بن صالح[٨] بأن النقا وكان الفقيه حمد ابن نواوى يدرس ألفية ابن مالك . ومن تلامذته حسن[٩] بن عبد الرحمن بن صالح بن بان النقا .

(١) ص ٢١ ، ٢٢ من الطبقات طبعة منديل . وقد يكون فى هذا شىء من المبالغة .
(٢) ص ٧١ من طبعة منديل . والاستجازة بالكتابة أمر معروف بين علماء المسلمين .
(٣) ص ١٣٨ من طبعة منديل .
(٤) ص ١٥٧ من طبعة منديل .
(٥) ص ١٢٨ من طبعة منديل .
(٦) ص ٣٠ من طبعة منديل .
(٧) ص ٤١ وص ١٦٤ من طبعة منديل .
(٨) ص ١٢٨ من طبعة منديل .
(٩) ص ٧١ طبعة منديل .

وكان عبدالله بن صابون بارعًا فى النحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع وعلم العروض وله معرفة بالخط[1] وقد اشتهر الفقيه مكى بن فريعة الرباطابى بالنحو حتى لقب بالنحوى ، وقرأ عليه ناس كثيرون منهم ضيف الله بن على بن عبدالغنى بن ضيف الله الفضلى[2] ولما حج عمارة بن شايقى جاور هناك وقرأ بمكة ثانيًا علوم الدين وعلوم العربية . ولما رجع إلى السودان نصب خلوته واشتغل بالتدريس مدة تسع سنين [3] ، ولما رجع محمد بن عدلان الشايقى من حجه ومجاورته فى مكة قدم بنفسه وأوقد نار القرآن ونار الكرم ونار العلم علم المعقول ، وصار يدرس علم المنطق وأصول الفقه والعربية والتصوف [4] .

من كل هذا يتضح لنا أن السودان كان فى ذلك العهد يدرس من العلوم ما كان يدرس فى بقية البلاد الإسلامية مما أشرنا إليه من قبل ، إلا أن السودان كانت عنايته موجهة إلى العلوم ذات الصبغة العملية الدينية ، أكثر من العلوم العقلية النظرية واللغوية . لذلك كان للقرآن وعلومه التطبيقية وللفقه والتوحيد والتصوف والتفسير والحديث الصدارة بين جميع العلوم . ولا غرابة فى هذا فإن الذى يراجع مناهج التعليم فى ذلك العهد بمصر أو غيرها من البلاد الإسلامية يجد لهذه العلوم الدينية العملية الصدارة [5] كما ذكرنا .

■■■

(١) ص ١٢٩ طبعة منديل .

(٢) ص ١٠١ وص ٣١ من طبعة منديل .

(٣) ص ١٣٧ ، ١٣٨ من طبعة منديل .

(٤) ص ١٧٤ من طبعة منديل .

(٥) راجع رسالة الأستاذ إبراهيم سلامة ص ١٢١ وما بعدها وكذلك راجع صفحة ٤١ من مقدمة تاريخ التربية فى مصر الحديثة لهيورث دن وكتاب تاريخ بلاد السودان (الغربى) ص ٣٨ و٤٣ . وأقصد بالعلوم العملية ما له صلة بحياة المسلم وكمال إسلامه ، كالفقه والتوحيد والقرآن وعلومه والميراث . أما المنطق والفلسفة وعلم الفلك والتاريخ وعلوم اللغة فلم يكن لها فى السودان نصيب مهم .

الكتب
شائعة الاستعمال

إن عمدتنا فى استخلاص الكتب شائعة الاستعمال بالسودان فى المدة من أول القرن السادس عشر الميلادى إلى الفتح المصري هو كتاب طبقات ود ضيف الله وكتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . فالأول يشمل مملكة الفونج والثانى يشمل دارفور فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . وقد ذكر كل من الكتابين الكتب التى كانت مستعملة فى السودان ذكراً عارضًا عند تناول سيرة فقيه من الفقهاء أو عالم من العلماء ، أو عند ذكرحادث من الحوادث . والمطلع على هذه الكتب يرى أنها هى التى كانت معروفة فى غير السودان من البلاد الإسلامية وها هى ذى :

المذهب المالكى:

١ ـ مختصر خليل (١) لأبى الضياء خليل بن إسحق الكردى المصرى .

٢ ـ رسالة ابن أبى زيد القيروانى (٢) .

---

(١) ذكر هذا المختصر فى صفحات كثيرة من طبعة منديل منها : ٤ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٣٢ و٣٧ . . إلخ وصفحة ١٠٩ من تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان أما خليل المؤلف فقد كان عالمًا بمذهب مالك ، متفننًا قويًا فى علوم الشريعة وغيرها . شرح مختصر ابن الحاجب فى الفقه شرحًا حافلاً سماه التوضيح ، عنى فيه برد الفروع إلى أصولها . ثم اختصر هذا المختصر ، وعول على أن يلم فيه بالمعتمد المعنى به من الأقوال . وقد بالغ فى اختصاره حتى عد من الألغاز . ولذلك اعتنى العلماء به ، وقصروا همتهم عليه ، وأكثروا من شروحه وحواشيه ، لاعتماده وكثرة ما فيه من الفروع ، حتى قيل إن شروحه وحواشيه نيفت على الستين . ومات خليل سنة ٧٧٦هـ (راجع ص١١٢ من نيل الابتهاج لأحمد بابا) .

(٢) ذكرت هذه الرسالة فى صفحات ٤ و٢٠ و٢٢ و٣٠ و٣٢ و٣٧ و٥٧ وغيرها ، والمؤلف هو أبو محمد عبدالله بن أبى زيد عبد الرحمن القيروانى كان إمام المالكية فى وقته وقدوتهم ، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله . وإليه كانت الرحلة من الأقطار . وكثر الآخذون عنه . وهو الذى لخص المذهب . وكان يعرف بمالك الصغير . له تآليفه الكثيرة منها : النوادر والزيادات على المدونة ، ومختصر المدونة ، وتهذيب العتبية ، وكتاب الرسالة المذكور . وقد توفى سنة ٣٨٦هـ (ص ٣٦٢ من تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى) .

٣ ـ المدونة (١) لأسد بن الفرات وسحنون (٢) .

٤ ـ شرح المدونة لأبى عمران (٣) .

٥ ـ فتح الجليل مختصر خليل لمحمد بن إبراهيم التتائى (٤) .

---

(١) ص ٦٨ وغيرها طبعة منديل .

(٢) المدونة مجموعة مسائل تبلغ نحو ستة وثلاثين ألف مسألة ، جمعها أسد بن الفرات ، النيسابورى الأصل التونسى الدار . وذلك أنه رحل إلى المدينة فتلقى عن مالك موطأه . ثم رحل إلى العراق وهناك سمع الفقه من أبى يوسف ومحمد بن الحسن على الطريقة العراقية . ثم ذهب إلى مصر ولقى بها أصحاب مالك وعرض على عبد الرحمن بن القاسم ما سمعه من فقه الحنفية من مسائل فأفتاه فيها على مذهب مالك . فجمع أسد ذلك كله فى كتاب المدونة وجاء بها إلى القيروان . وكانت تسمى الأسدية نسبة إليه . وعنه أخذها سحنون الفقيه المغربى (عبد السلام بن سعيد التنوخى أصله شامى من حمص قدم أبوه فى جيش حمص إلى القيروان) فلما ارتحل سحنون إلى الشرق لقى فى مصر سنة ١٨٨هـ عبد الرحمن ابن قاسم ، فعرضها عليه ، وأصلح بعض مسائلها . وكانت لما جمعها أسد بن الفرات غير مرتبة ولا مبوبة فرتبها سحنون وبوبها . وأثبت ما رجع عنه من مسائلها . وكتب ابن القاسم لأسد ليأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه . ولما عاد سحنون إلى القيروان أتبع الناس مدونته على ما فيها من اختلاط بعض المسائل فى الأبواب . فكانت تسمى المدونة والمختلطة . وعكف أهل القيروان وغيرهم من أهل المغرب والأندلس على هذه المدونة وهى ليست من تأليف مالك ، ولكنها جمع لفتاوى مالك فى مسائل ، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه فى وضع أحكام المسائل على قواعده ، ومبادئه (باختصار وتصرف من ضحى الإسلام ج٢ ص ٢١٥ ومن ص ١٦٩-٢٧٤ تاريخ التشريع الإسلامى لعبد اللطيف السبكى وزملائه ومن مقدمة ابن خلدون ص ٢١٣) .

(٣) ص ٦٨ طبعة منديل أما أبو عمران هذا فهو موسى أبو عمران بن عيسى بن أبى حجاج الغفجومى . وغفجوم فخذ من زناته . وهى قبيلة من البرابرة . أصله من فاس ، وبيته فيها مشهور وفيهم نباهة . استوطن القيروان ، وقد حصلت له بها رياسة العلم . وتفقه بأبى الحسن القابسى ، ورحل إلى قرطبة فتفقه بها عند الأصيلى وغيره . ورحل إلى المشرق وحج ودخل العراق ، فسمع من أبى الفتح بن أبى الفوارس وغيره . ودرس الأصول على القاضى أبى بكر الباقلانى . وكان أبو عمران هذا من أحفظ الناس وأعلمهم . جمع حفظ المذهب المالكى إلى حديث النبى صلى الله عليه وسلم . وكان يقرأ القرآن بالسبع ، ويجوده مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم . أخذ عنه الناس من أقطار الأندلس . وله كتاب التعاليق على المدونة كتاب جليل لم يكمل وتوفى سنة ٤٣٠ وهو ابن خمس وستين سنة (من كفاح الديباج لابن فرحون) .

(٤) من طبعة منديل ص ٦٥ و١٣٢ . . إلخ . . والتتاشى هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم التتاشى المصرى قاضى القضاة بها . وكان موصوفًا بدين وعفة وصيانة وفضل وتواضع . تولى القضاء ثم تركه ، وأقبل على التصنيف . له يد طولى فى الفرائض . شرح مختصر خليل بشرحين ، سمى الكبير فتح الجليل والآخر جواهر الدرر . كما شرح رسالة ابن أبى زيد القيروانى ، وشرح ابن الحاجب الفرعى سفرين الخصه من التوضيح ، وشرح الإرشاد لابن عسكر ، والجلاب ، والقرطبية والشامل ولم يكمله ، ومقدمة ابن رشد ، وألفية العراقى . وله حاشية على شرح المحلى على جمع الجوامع وغيرها فى الفرائض ، والحساب والمواقيت . توفى بعد الأربعين وتسعمائة (٩٤٠) أ هـ . ملخصًا من نيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٢٣٥ . وقد أخطأ السير هارولد مكميكل إذ قال فى صفحة ٧٨ من الجزء الثانى من كتاب تاريخ العرب فى السودان : أن التتاشى قد مات سنة ١٠٩٤ هـ سنة (١٦٨٣م) .

٦ ـ مختصر الأخضرى فى العبادات للأخضرى (١) .

٧ ـ شرح مختصر الأخضرى لمختار بن جودة الله (٢) .

٨ ـ حاشية على شرح الرسالة لعلى بن محمد الأجهورى (٣) .

---

(١) من طبعة منديل ص٢٢ و٣٦ و٤٢ و١٥٦ . . إلخ . والأخضرى هذا هو الصدر بن عبد الرحمن الأخضرى أحد علماء الأزهر الذين عنوا بدراسة العلوم النقلية والعقلية . ومن مؤلفاته متن السلم المرونق فى المنطق . وهو أرجوزة فى ٩٤ بيتا ، والجوهر المكنون فى الثلاثة الفنون : المعانى والبيان والبديع ، وهو نظم أيضا ، ورسالة منظومة فى الحساب والمساحة . وقد توفى حوالى سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) .

(٢) ص ٢٢ و٢٦ و٤٣ و١٥٦ . . إلخ . منديل ومختار ابن جودة الله هذا سودانى ولد فى الزلطة من أرض كردفان . كان عالما ومؤلفا . ومن مؤلفاته الأخرى شرح السنوسية ، وشرح الرسالة ، رسالة ابن أبى زيد القيروانى . ويقول مؤلف الطبقات أنه مات فى عهد الملك دكين قتله ملك دارفور . أى مات ما بين ٩٧٠-٩٨٥هـ وهذا خطأ ؛ لأن مختارًا هذا هو تلميذ والده محمد جودة الله وجودة الله تلميذ القدال بن إبراهيم الفرضى . وقد روى صاحب الطبقات أن القدال هذا ارتحل سنة ١٠٩٥هـ ، وهى سنة أم لحم إلى دار تلميذه جودة الله فى كردفان ومعنى هذا أن مختار بن جودة الله لا يمكن أن يكون قد عاشر الملك دكين . وعندى أن ملك الفرنج الذى قتل فى عهده مختار هذا هو الملك بادى أبو شلوخ (١١٣٦-١١٧٥هـ) وفى أيامه حدثت حروب بينه وبين السبعات حكام كردفان وأقرباء سلاطين دارفور (راجع تفصيل هذه الحروب فى ص٨٠-٨٦ من الجزء الثانى من تاريخ السودان لنعوم شقير) وهذا التاريخ يتفق تمامًا وحياة مختار بن جودة الله .

(٣) ص ١٥٧ من طبعة منديل . وهذه الحاشية على شرح رسالة ابن أبى زيد ، الذى ألفه محمد بن إبراهيم التتائى . والأجهورى هو على بن زين العابدين بن محمد بن أبى محمد زين الدين عبد الرحمن بن على أبو الإرشاد الأجهورى نسبة إلى أجهور الورد قرية بريف مصر . شيخ المالكية فى عصره بالقاهرة ، كان محدثًا فقيها ، رحالة كبير الشأن . وقد جمع بين العلم والعمل . طار صيته وعظمت بركته ، برع فى الفنون فقها وعربية وبلاغة ومنطقًا . ودرس وأفتى وصنف ، وألف وعمر كثيرًا . ورحل الناس إليه من الآفاق وللأخذ عنه ، فألحق الأحفاد بالأجداد . أخذ عن مشايخ كثيرين يزيدون عن الثلاثين ، منهم محمد بن سلامة البنوفرى ، وأملى الكثير من الحديث والتفسير والفقه ، وألف التآليف الكثيرة منها : شروحه الثلاثة على مختصر خليل فى فقه المالكية كبير فى إثنى عشر مجلدًا ، ووسيط فى خمسة ، وصغير فى مجلدين . وألف حاشية على شرح التتائى للرسالة . وله شرح على رسالة بن أبى زيد القيروانى فى مجلدات . وكتب رسالة فى مسألة الدخان أسسها «غاية البيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان» . وأصيب أخيرًا فى بصره بسبب غريب . وهو أن بعض الطلبة عن أراد الله به شرا كان يحضر مجلس الأجهورى . وكان فى ظاهر حاله صالحًا . فاتفق أن تزوج ووقع بينه وبين زوجته مشاجرة فطلقها ثلاثًا . ثم أدركه تعب فاستفتى الأجهورى فأفتاه بأنها لا تحل له إلا بعد زوج آخر فتوعده بأن يقتله إن لم يردها ، فلم يكترث الأجهورى بكلامه . فترك الأجهورى يوما حتى جلس للتدريس على عادته ، فجاء وتحت صوفه سيف وضرب الأجهورى على رأسه . فقام عليه أهل الحلقة ومن حضرهم من أهل الجامع ، فتناولوه يمينا وشمالاً بالنعال والحصر ، حتى حالوا بينه وبين الأجورى وقد شج رأسه . وما زالوا به حتى قتلوه ، دوسًا بالأرجل وضربا بالأيدى والنعال والعصى ودفع الأجهورى إلى داره فأثرت تلك الشجة فى بصره . وكانت ولادته فى سنة ٩٦٧هـ ووفاته سنة ١٠٦٦هـ بالقاهرة أ . هـ باختصار من خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ص ١٥٧ جـ٣) .

٩ ـ حاشية على شرح مختصر خليل لأبى عبدالله الخراشى [١] .

١٠ ـ الشرح الكبير للخراشى [٢] .

١١ ـ الشرح الصغير للخراشى [٣] .

١٢ ـ شرح الشبراخيتى على العشماوية [٤] .

١٣ ـ شرح الزرقانى (عبدالباقى) [٥] .

---

(٢) ١ ١٥٧ من طبعة منديل . ويسمى المؤلف أبا عبد الله بن محمد بن على الخراشى نسبة غير قياسية إلى «أبى خراش» قرية من أعمال البحيرة بمصر . أخذ العلم عن جماعة من الأعلام ، منهم الأجهورى ، وإبراهيم اللقانى وغيرهما كان مجلسه بمدرسة الأقبناوية بالأزهر يقرأ درسه من بعد الفجر إلى الضحى . وله درس آخر يقرؤه بعد الظهر عند منبر المسجد . وكان ورعا متقشفا ، كثير الصيام والقيام ، جم الحياء ، كريم النفس ، كثير الشفاعة لأصحاب الحاجات عند الأمراء والعظماء الذين كانوا يجلونه ويهابونه . كان شيخ المالكية ، وإماما فى مختلف العلوم ، ومرجعًا فى الفتوى . اشتهر بذلك فى الأقطار الإسلامية .له شرح نفيس على مختصر خليل . لا تجد فيه من الصعوبة ما تجده فى أغلب مؤلفات المالكية المتأخرين . مات سنة ١١٠١هـ (باختصار من تاريخ التشريع الإسلامى لعبد اللطيف السبكى وزميليه) .

(٢) ص ١٩ من طبعة منديل .

(٣) ص ١٥١ من طبعة منديل .

(٤) ص ٦٧ من طبعة منديل . والشبراخيتى هو :
محمد بن سليمان بن سلام الشبراخيتى أحد علماء الأزهر المالكية . وله شرح على كتاب النزهة (؟) .

(٥) ورد النص صريحا فى ص ٦٧ و١٠٠ بأن للشيخ عبد الباقى الزرقانى شرحًا على مختصر خليل . والمعروف أن شرح الزرقانى (على مختصر خليل) هو لعبد الباقى بن يوسف المتوفى سنة ١٠٩٩هـ ١٦٨٧م (انظر ص ٨٤ جـ٢ من تاريخ الجبرتى) . وقد ورد فى خلاصة الأثر ص ٢٨٧ من الجزء الثانى ترجمة للمؤلف فهو عبد الباقى بن يوسف بن أحمد شهاب الدين الزرقانى المالكى العلامة الإمام ، الحجة شرف العلماء ، ومرجع المالكية . كان عالما نبيلا ، وفقيها متجرا ، لطيف العبارة . ولد بمصر سنة ١٠٢٠ وبها نشأ . ولزم النور الأجهورى سنين عديدة ، ويشيد له بالفضل . وأخذ علوم العربية عن العلامة يس الحمصى وحضر الشمس البابلى فى دروس الحديث ، وأجازه كل شيوخه . وتصدر للإقراء بجامع الأزهر . وألف مؤلفات كثيرة منها شرح على مختصر خليل تشد إليه الرحال وشرح على القرية وغير ذلك . وكانت وفاته ضحى يوم الخميس ١٤ رمضان سنة ١٠٩٩ . ودفن بتربة المجاورين . غير أنه قد ورد فى صفحة ٢٠ من الطبقات طبعة منديل إشارة إلى يوسف الزرقانى باعتباره أستاذًا لمحمد القناوى المصرى . وقد جاء ذكر الشيخ يوسف الزرقانى هذا عرضا فى رسالة كتبها الشيخ على الصعيدى العدوى . وفيها أن الشيخ يوسف الزرقانى ـ والد الشيخ عبد الباقى ـ من المالكية . وهو الإمام المشهور شارح مختصر خليل والقرية ، ومعاصر للشيخ على الأجهورى والشيخ عامر الشبراوى (ص ٣٩٠ من رسالة التصوف الإسلامى فى إبان العصر التركى لتوفيق الطويل) .
وعلى هذا فقد شرح كل من يوسف الزرقانى وولده عبد الباقى مختصر خليل .

١٤ ـ الحاشية لمحمد بن عبدالله حمد الأغبش [١] وهو سودانى .

فقيه الشافعية:

١ ـ المنهاج [٢] .

٢ ـ المنهج [٣] .

التوحيد:

١ ـ متن السنوسية [٤] .

---

(١) ص ١٦٣ من طبعة منديل حيث يقول المؤلف إن محمد بن عبد الله بن حمد الأغبش هو صاحب الحاشية أو شرح الحاشية . وليس ثمة أية إشارة إلى نوع الحاشية . ولهذا يغلب أن تكون هذه الحاشية على أحد شروح مختصر خليل . أما محمد ابن عبد الله الأغبش فقد أخذ الفقه عن محمد الأزرق بن الزين . وحفظ الكتاب على عمه الفقيه عبد الماجد ، وأحكام القرآن على عبد الرحمن الأغبش ، وعلم الكلام ـ ربما ـ على الحاج سعيد . وسلك طريق الصوفية على الشيخ بدوى ولد أبو دقيق . وطال عمره ، واشتهر ذكره ، وطارت فتاويه وأحكامه فى البلاد . وشرح الحاشية التى سارت سير الشمس ، وانتفع به الخاص والعام وتوفى فى بربر ودفن بها أ هـ من الطبقات ص ٢٦٣ .

(٢) ص ٩٤ و١٠٣ من طبعة منديل . ويراد به «منهاج الطالبين» لمحيى الدين النووى . وهو أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى . ولد بنوى من بلاد الشام سنة ٦٢١هـ . نشأ نشأة عبادة وعلم ، حتى كان من أشهر أهل زمانه فى الورع والمعرفة . وقد صرف كل وقته فى التحصيل والتأليف . بل لقد تجنب كثيرًا من الأطعمة مخافة أن يورثه كسلا يعوقه عن مواصلة جده . وقد بورك له فى وقته وعمله فمن تأليفه : شرح صحيح مسلم ، ورياض الصالحين ، والأذكار ، والأربعين ، وشرح المهذب فى الفقه وهو المسمى بالمجموع . وقد توفى سنة ٦٧٦ بنوى . وله من العمر ٤٥ سنة أ . هـ من تاريخ التشريع الإسلامى لعبد اللطيف السبكى وزميله .

(٣) ص ٩٤ و١٠٣ من طبعة منديل «منهج الطلاب» لزكريا بن محمد الأنصارى قال ص ١٠٢ فى النور السافر إنه ولد سنة ٨٢٦ بقرية سنيكة من مديرية الشرقية . ونشأ بها ، وحفظ القرآن ، وعمدة الأحكام ، وبعض مختصر التبريزى بها . ثم ارتحل إلى القاهرة سنة ٨٤١ فقطن فى جامع الأزهر . وكمل حفظ المختصر . ثم حفظ المنهاج الفرعى ، والألفية النحوية ، والشاطبية ، والرائية ، وبعض المنهاج الأصلى ، ونحو النصف من ألفية الحديث ، وجزءاً من التسهيل . وأقام بالقاهرة يسيرا ثم رجع إلى بلده ، وداوم الاشتغال بالعلم . ولما رجع إلى القاهرة لم ينفك عن الاشتغال والأشغال بطريقة جميلة وحسن عشرة ، وتصدى للتدريس فى حياة شيوخه . وشرح عدة كتب ، وألف عددًا كبيرًا منها . وله الباع الطويل فى كل فن ولاسيما التصوف . وتولى منصب قاضى القضاة فى رجب سنة ٨٨٦ واستمر إلى أن كف بصره فعزل للعمى . وكان حامل لواء الشافعية ، فظل يلازم الإفتاء والتدريس والتصنيف حتى توفى فى يوم الجمعة ٤ من ذى الحجة سنة ٩٢٥ هـ ودفن بالقرافة .

(٤) ص ٤١ و٧١ و١٢٨ إلخ . من طبعة منديل تأليف أبى عبد الله محمد السنوسى .

٢ ـ شرح متن السنوسية (١) .

٣ ـ صغرى السنوسية وهى المسماة أم البراهين (٢) .

٤ ـ الشرح الصغير لصغرى السنوسية (٣) .

٥ ـ الشرح الكبير لصغير السنوسية (٤) المسمى حجة العارفين على أم البراهين .

---

(١) ص ٤١ و١٣٨ من طبعة منديل . والمؤلف هو أبو عبد الله محمد بن أبى يعقوب الحسينى السنوسى الصوفى . كان عالمًا صالحًا زاهدًا . كان من أهل تلمسان وقد قرأ كثيرًا من العلوم ، وألف فيها ؛ كالتوحيد ، والقراءات ، واللغة ، والأصول ، والمنطق ، والفقه ، والفرائض ، والحديث ، والحساب ، والأسطرلاب . وكان جامعًا بين علوم الباطن والظاهر ، لا يتقرب إلى السلاطين ، ولا يقبل هداياهم . وهو صاحب طريقة فى الصوفية تعرف باسمه . وله فى التوحيد مؤلفات منها :

١ ـ العقيدة الكبرى المسماه عقيدة أهل التوحيد .
٢ ـ شرح عقيدة التوحيد المسمى بعمدة أهل التوفيق والتسديد .
٣ ـ العقيدة الوسطى .
٤ ـ شرح العقيدة الوسطى .
٥ ـ عقيدة أهل التوحيد الصغرى وتسمى أم البراهين . وقد ترجمت إلى الألمانية والفرنسية .
٦ ـ شرح أم البراهين .
٧ ـ صغرى الصغرى .
٨ ـ شرح صغرى الصغرى .
٩ ـ المقدمات المبينة لعقيدته الصغرى .
١٠ ـ شرح المقدمات .

وقد توفى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٥ أ هـ . باختصار وتصرف من ص ٢٣٧ كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تأليف أبى عبد الله محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتى التلمسانى وص ٢٤٩ من كتاب آداب اللغة العربية الجزء الثالث لجورجى زيدان .

(٢) ص ١١٦ و١٣١ و١٦٤ من طبعة منديل . وقد انتشرت قراءة هذه الرسالة فى الماضى ـ ولاتزال حتى الآن ـ للعلم والتبرك . ومما يروى عنها أن أحد الصالحين مات فرآه قريب له فى المنام ، فسأله عن حاله فقال «دخلت الجنة فرأيت فيها إبراهيم الخليل عليه السلام يقرئ صبيانا عقيدة الشيخ السنوسى يدرسونها فى الألواح ، ويجهرون بقراءتها» من ص ٢٤٥ من كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان . وممن شرح البراهين من علماء السودان الشيخ الضوى محمد بن محمد أكداوى بن الشيخ محمد المصرى ألف عليها أربعة شروح العمدة والأوسط والصغير والحاشية ـ ص ٣٠-٣١ طبقات .

(٣) ص ١١٢ و١٣١ و١٦٤ ألف هذا الشرح الشيخ السودانى محمد بن عدلان الشايقى الواشابى الذى جاور فى مكة ، وقرأ فى المدينة ـ على الشيخ عبد الله المغربى ـ علم الكلام والمنطق والأصول والعربية . ولما قدم إلى تنقاسى أوقد بها نار القرآن ونار الكلام ونار العلم المعقول . وصار إليه تدريس علم الكلام فى جزيرة الفونج . وهم من العلماء البارزين الذين يشار إليهم بالبنان من علماء السودان (تلخيص من ص ١٦٤ من طبعة منديل) .

(٤) ص ١٣١ و١٦٤ من طبعة منديل والمؤلف هو محمد بن عدلان الشايقى المذكور وهو من تلامذة الشيخ الزين بن صغيرون .

٦ - وسطى السنوسية [١] .

٧ - كبرى السنوسية [٢] .

٨ - شرح كبرى السنوسية [٣] .

٩ - نظم كبرى السنوسية [٤] .

١٠ - مقدمات السنوسية [٥] وهى المقدمات المبينة لعقيدته الصغرى .

١١ - نظم مقدمات السنوسية [٦] .

١٢ - صغرى الصغرى للسنوسى [٧] .

١٣ - تحفة الطلاب فى عقيدة التوحيد [٨] .

١٤ - شرح تحفة الطلاب [٩] .

١٥ - منظومة الأجهورى فى التوحيد [١٠] وشرحها .

١٦ - الجواهر فى أركان الإيمان [١١] .

---

(١) ص ١٢٨ و١٦٤ من طبعة منديل .

(٢) ص ٤١ و١٠٠ و١٠٧ و١٢٨ و١٦٤ من طبعة منديل .

(٣) ص ٤١ من طبعة منديل .

(٤) ص ١٠٧ نظمها عبد الله بن دفع الله العركى تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جابر ، الذى قام بالقضاء بتولية الشيخ عجيب الكبير ، والذى قام بالتدريس فى غابة الهلالية ، وأبى حراز . وقد أخذ طريقة الصوفية عن حبيب الله العجمى وقد حج إلى بيت الله أربعًا وعشرين حجة منها ثنتا عشرة أثناء إقامته هناك مجاورا . وقام بالتدريس فى مقام الإمام مالك . وقد مات فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى . ودفن فى أبى حراز (ملخصًا من ترجمة الطبقات ص ١٠٥) .

(٥) ص ١٠٧ و١٢٨ وهى لأبى عبد الله محمد بن يوسف السنوسى .

(٦) ص ١٠٧ والناظم هو عبد الله بن دفع الله العركى المترجم له .

(٧) ص ١٦٤ .

(٨) ص ١٦٤ وهى من تأليف محمد بن عدلان الشايقى المترجم له .

(٩) لمؤلف التحفة نفسه .

(١٠) ص ١٠٩ وهى المنظومة التى ألفها الشيخ على الأجهورى ودرسها عليه تلميذه السودانى عبد الرحمن بن إبراهيم والد الحاج خوجلى الذى أجازه الشيخ أن يدرسها ويدرس شرحها (راجع ترجمة عبد الرحمن بن إبراهيم ص ١٠٨ من طبقات منديل) .

(١١) ص ٢٩-٣٠ ومؤلفه هو أرباب بن على بن عون الخشن من علماء السودان ، وقد توفى بسنار سنة ١١٠٢هـ .

١٧ ـ شرح عقيدة الرسالة [١] .

١٨ ـ العقيدة الأشعرية وشرحها [٢] .

١٩ ـ منظومة الشيخ جويدة [٣] .

٢٠ ـ شرح منظومة الشيخ جويدة [٤] .

الفرائض:

١ ـ الفرضية [٥] .

٢ ـ ثلاث حواش على الميراث [٦] .

---

(١) ص ٣١ هكذا فى الأصل (شرح عقيدة الرسالة) ولست أدرى ما هى هذه الرسالة والشارح هو الضوى محمد بن محمد أكداوى بن الشيخ محمد المصرى كان يدرس الفقه والنحو وعلم الكلام والأصول والمنطق واجتمع عليه خلق كثير فى شندى وله كثير من المؤلفات (ص ٣٠ من الطبقات) .

(٢) ص ١٦٤ والمؤلف هو محمد بن عدلان الشايقى الحوشابى المترجم له فى صفحة ١٦٤ من الطبقات . والعقيدة الأشعرية نسبة إلى أبى الحسن الأشعرى الذى كان تلميذًا لأبى على الجبائى المعتزلى ، إلا أنه انفصل عنه وناهض الاعتزال وناصر أهل السنة ثم كون لنفسه مدرسة جديدة فى التفكير . فبينما المعتزلة يعتمدون فى إقناعهم على الطبيعة وآياتها ، والأدب البليغ وإعجازه ، إذا بالأشاعرة يلجئون إلى الأقيسة فينظمونها ، وإلى منطق أرسطو فيستخدمونه استخدامًا صحيحًا . وليس غريبًا أن تبدو هذه الظاهرة فى جدلهم ، وقد نشئوا فى بيئة انتشر فيها منطق أرسطو . وقد تأثر الأشعرى بذلك ، وتبعه فى ذلك الغزالى . وقد تعرض الأشاعرة لكل المشاكل التى أثارها المعتزلة من قبل فتحدثوا عن وحدة البارى وصفاته ، وعدله ، وعنايته بمخلوقاته ، وفصلوا القول فى قدرة العباد واختيارهم وطاعتهم ومعصيتهم وبحثوا عن أصل المادة والعناصر المكونة لها ، وكانوا فى كل هذا متأثرين بآراء من سبقهم من السلف والمعتزلة . فأحيانًا يميلون إلى أحد الفريقين مرجحين السلف ، وأحيانًا يقدمون حلا وسطا للخلاف القائم بينهما وتوفى أبو الحسن الأشعرى سنة ٣٢٤هـ (انظر ص ١٣٢ من كتاب تاريخ الفلسفة لإبراهيم مدكور) .

(٣) ص ١٦١ وليس فى النص ما يدل صراحة على أن المنظومة كانت فى التوحيد ، أو ما يترجم للمؤلف جويدة .

(٤) ص ١٦١ الظاهر أن الذى شرحها هو محمد بن على بن قرم الكيمائى المصرى الشافعى تلميذ الشيخ الخطيب الشربينى .

(٥) ص ٢٠ من طبعة منديل . وهى لإبراهيم بن عودى الفرضى . وكان من أسرة علم فى منطقة النيل الأبيض . وأخذ علم الفرائض عن الشيخ محمد المصرى الشافعى عندما قدم إلى أربجى ، وعن عبد الرحمن ولد حمدتو . وكان رجلا صالحا ودفن مع خاله المسلمى .

(٦) ص ١٥٩ . وواضع هذه الحواشى هو مالك بن عبد الرحمن ولد حمدتو وهو تلميذ والده عبد الرحمن ، كما أن إبراهيم بن عودى الفرضى تلميذ هذا الوالد . وفى ترجمة مالك ما يدل على أن الحواشى الثلاثة المذكورة الكبرى والوسطى والصغرى كانت على جزء من مختصر خليل يتعلق بالميراث . وقد قام مالك هذا بالتدريس فى مسجده بالزورة فى شمال المناصر وانتفع به المبتدئون والمنتهون .

علوم القرآن:

١ - متن الخرازى (١) .

٢ - شرح متن الخرازى (٢) .

٣ - متن الجزرية (٣) .

٤ - شرح الجزرية (٤) .

٥ - الهدايا وتحف الدراية فى أحكام القرآن (٥) .

٦ - المنظومة التى فى ضبط رسم القرآن (٦) .

---

(١) ص ١٢٢ من طبعة منديل . لم أعثر على ترجمة مؤلف هذا المتن ولكن ورد فى مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٧ أن أبا عمرو الدانى قد ألف فى رسم القرآن كتاب المقنع ، وأن أبا القاسم الشاطبى نظم هذا الكتاب فى قصيدته الرائية المشهورة وأن الخراز من المتأخرين بالمغرب قد نظم أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرًا وعزاه لناقليه . واشتهرت هذه الأرجوزة بالمغرب واقتصر الناس على حفظها : وهجروا بها كتب أبى داود ، وأبى عمرو ، والشاطبى فى رسم القرآن أ هـ . هذا وقد ورد فى كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ص ٩٥ ، أن جلبو بن الحاج بن سعيد المناوى كان أستاذًا فى القراءات السبع يحفظ الشاطبيتين الكبرى والصغرى . وكان يدرس الفرائض والخراز (من غير ياء فى الآخر) والضبط (أى رسم القرآن) وهذا الشيخ توفى سنة ٩٩٨هـ .

(٢) هذا الشرح لعبد الرحمن بن أحمد الأغبش (ص١٢٢ طبعة منديل) الذى شرح الجزرية أيضا وكان مدار علم التجويد فى الجزيرة عليه .

(٣) ص ٣١ و١٢٢ طبعة منديل . والمؤلف هو شمس الدين أبو الخير محمد يسن الجزرى القرشى الدمشقى . وكان من كبار الحفاظ وأصحاب القراءات توفى سنة ٨٣٣ . وكان معاصرا لبايزيد السلطان العثمانى . ووقع فى سنة ٨٠٥ فى قبضة تيمورلنك . فلما مات تيمور عاد إلى فارس . وله مؤلفات عديدة منها :

١ - غاية النهاية فى رجال القراءات أولى الرواية والدراية رتبه على حروف المعجم ، وانتهى من تأليفه سنة ٧٧٤ فى دمشق ومنه نسخة خطية فى دار الكتب .

٢ - النشر فى القراءات العشر وهو فى علم القراءة ، والتجويد منه نسخة مخطوطة فى نحو ألف صفحة بدار الكتب .

٣ - المقدمة الجزرية منظومة فى التجويد مشهورة مطبوعة أ هـ (باختصار من طبقات الحفاظ ص ٨٥ ج ٣ عن تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ لجورجى زيدان) .

(٤) ص ٣١ و١٢٢ من طبعة منديل . ذكر صاحب الطبقات فى كتابه شرحين للجزرية ، أحدهما من تأليف المعنوى محمد ابن محمد أكداوى بن الشيخ محمد المصرى الذى سبقت ترجمته ، والثانى من تأليف عبد الرحمن بن أحمد الأغبش تلميذ الشيخ عيسى ولد كنو فى حفيرمشو . وقد أخذ علوم القرآن عن الشيخ عبد الرحمن هذا كثيرون من علماء السودان .

(٥) ص ١٢٢ ومؤلفها هو عبد الرحمن بن حمد الأغبش .

(٦) ص ١٢١ ذكر صاحب الطبقات مؤلف هذه المنظومة عرضا أثناء الإشارة إلى تلامذة عبد الله الأغبش بأنه البديرى الدهشى ، ولا نعرف شيئًا عن هذه المنظومة .

التصـوف:

١ ـ طبقات الشعرانى [١] .

٢ ـ دلائل الخيرات [٢] .

٣ ـ لطائف المنن [٣] .

٤ ـ مناجاة ابن عطاء الله [٤] .

٥ ـ الوظيفة للشاذلى [٥] .

٦ ـ حزب البحر [٦] .

٧ ـ أحزاب الشاذلى [٧] .

٨ ـ حزب السيف [٨] .

---

(١) ص ١٤٣ و١٤٤ ذكر هذا الكتاب صاحب الطبقات فى موضوعين على سبيل الاقتباس والاستشهاد . ولما كان صاحب الطبقات يمثل العلماء الذين عاشوا فى آخر القرن الثامن عشر الميلادى صح عندنا اعتبار هذا الكتاب مما كان يقرؤه علماء السودان فى التصوف .

(٢) ص ٣٦ و٧٠ و١٢٧ . ومؤلف الدلائل هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الجزولى الذى ولد فى جزولة من مراكش . وله طريقة معروفة تسمى الطريقة الجازولية . وقد توفى سنة ٨٦٩هـ (أو سنة ٨٧٥هـ) ولا تزال طريقته معروفة فى مراكش (انظر ص ٤٣٥ من كتاب Les Confreries Religieuses Musulmanes par Depont et Coppalani.

(٣) ص ٧٢ و١٠٠ و١٢٨ والكتاب لتاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندرى . وهو من كتب الصوفية . وممن تتلمذ على أبى العباس المرسى . وقد توفى سنة ٩٠٧هـ . وله من المؤلفات أيضا كتاب الحكم ، وكتاب التنوير فى إسقاط التدبير .

(٤) ص ٦٣ و١٠٢ و١٥١و ١٦٦ والكتاب لابن عطاء الله المذكور .

(٥) ص ١٠٢ والشاذلى هو الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى الضرير . وشاذلة قرية من إفريقيا ، نزيل الإسكندرية ، وصاحب الطريقة الشاذلية ، كان قطب زمانه فى الصوفية . وكان بصيرا بعلوم الظاهر . ويقول إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة . وقد مات فى صحراء عيذاب سنة ٦٥٦هـ . وأما وظيفته فهى التى تبدأ بقولك : اللهم صل وسلم بجميع الشئون فى الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة . إلخ ، وتنتهى بقراءة الصمدية والمعوذتين والفاتحة ، وهى مطبوعة ، ويقرؤها المويدون .

(٦) ص ١٢٢ هو أحد أحزاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى . وهو رابع أحزابه ويبدأ بقولك : «بسم الله الرحمن الرحيم أعلى يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربى وعليك حسبى فنعم الرب ربى ونعم الحسب حسبى» . وقد سمى حزب البحر لورود ذكر البحر فيه كثيراً .

(٧) ص ١٠٢ وأحزاب الشاذلى المعروفة أربعة ذكرها أحمد بن عطاء الله السكندرى فى كتابه لطائف المنن .

(٨) حزب السيف أو الدعاء السيفى المسمى بالحرز اليمانى من أحزاب عبد القادر الجيلانى (راجع ترجمة حبيب الله الشيرازى فى باب التصوف) .

٩ ـ صفة الفقير [١] .

التفسير:

لم يذكر كتاب بعينه فى التفسير ، ولكن وردت الإشارة إلى مادة التفسير فى الصفحات ٢٢و ١٣٧و ١٣٨ من طبعة منديل .

مصطلح الحديث [٢]

الحديث [٣]:

١ ـ الجامع الكبير فى الحديث للسيوطى [٤] .

٢ ـ الجامع الصغير من حديث البشير للسيوطى [٥] أيضًا .

٣ ـ صحيح البخارى [٦] .

الأصول:

لم يذكر بعينه فى كتاب الأصول ، ولكن وردت إشارة لتدريس هذه المادة فى السودان (ص ٣٠ و١٦٤ من طبعة المنديل) .

---

(١) ص ١١٢ كتاب اشتمل على أخلاق الصوفية ، وصفاتهم ، مؤلفه سودانى اسمه الشيخ محمد ولد هدوى ، وليس له ترجمة معروفة .

(٢) ورد ذكر هذه المادة فى ص٧١ طبعة منديل ولم يذكر لها كتاب معين .

(٣) ص ٧١ .

(٤) ويسمى هذا الكتاب أيضا جمع الجوامع . وقد نهج السيوطى فى تأليفه نهجا جديدا فقد قسمه إلى قسمين : الأول ذكر فيه الأحاديث التى فيها لفظ النبى بنصه ، وألحق كل حديث بذكر من أخرجه من الأئمة ، وأصحاب الكتب الستة ومن رواه من الصحابة من واحد إلى عشرة أو أكثر ، مع ترتيبها على الأبجدية مراعيا الكلمة الأولى . ويرمز بجانب كل حديث إلى من رواه بحرف من اسمه . وذكر فى القسم الثانى الأحاديث الفعلية المحضة ، أو المشتملة على القول أو الفعل أو السبب . ورتبها على مسانيد الصحابة . والمؤلف أشهر من أن يعرف . وقد ولد سنة ٨٤٩هـ وتوفى سنة ٩١١ . وكان ذكيًا قوى الحافظة . فحفظ القرآن وهو فى الثامنة من عمره . وتفقه فى علوم عصره وبلغ شيوخه ١٥٠ شيخًا . وقد رحل فى طلب العلم إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور . وبلغ عدد مؤلفاته ما يزيد على ٣٠٠ كتاب ورسالة . ذكرها فى ترجمته التى فى كتابه حسن المحاضرة .

(٥) ص ١١١ من طبعة منديل .

(٦) ص ١١٠ من تشحيذ الأذهان .

المنطق:

لم يذكر كتاب بعينه فى المنطق ولكن وردت إشارة له فى ص ٣٠و٤١و١٦٤ .

النحو:

ورد ذكر النحو والصرف فى الصفحات ١٠١و ١٢٩ وورد ذكر النحو فقط فى صفحة ٣٠ ـ والأجرومية فى صفحة ٣١ وألفية ابن مالك فى صفحة ٧١ .

علوم العربية [١]:

اللغة والمعانى والبيان البديع والعروض والشعر [٢] .

هذا إلى أنه يجب أن نذكر أن العلوم المذكورة لم تكن فى نظر المتعلمين من أهل السودان فى ذلك العهد متساوية فى أهميتها ، فقد انصرفوا إلى المنقول منها أكثر من المعقول ، وإلى ماله مساس بالدين عباداته ومعاملاته أكثر مما له مساس باللغة ، وطرق تحقيق علوم الدين وكانت بعض جهات السودان أكثر اهتمامًا بالعلوم من بعضها الآخر ، ففى دارفور [٣] مثلا نجد أن «قراءة العلوم متأخرة لعدم العلماء ، وأكثر قراءتهم للفقه والتوحيد . وأما المعقول فقليل جدًا ومع قلته لايقرءون إلا قليلا من النحو . وأما المعانى والبيان والبديع والمنطق والعروض فلا يعرفون منه إلا الاسم . ومن يعرفه منهم يكون قد تغرب لبلد آخر كمصر وتلقاه فيه . فإذا رجع إلى بلده كان هو العالم» .

وإن الذى يراجع تراجم العلماء من أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر الهجرى ليجد أن الكتب التى كانت تستعمل فى السودان هى بعينها التى كانت تستعمل فى البلاد الإسلامية الأخرى ، إلا أن أهل السودان كانوا دون غيرهم فى معرفة أنواع العلوم والفنون واستعمال كتبها . من ذلك أن أحد علماء تمبكتو المدعو محمود بن عمر بن محمد آقيت كان يقرئ المدونة ، والرسالة ، ومختصر خليل والألفية والسلاجية ، وعنه انتشر اقراء خليل هناك [٤]

---

(١) ورد هذا الاصطلاح فى الصفحات ٤١ و٦٩ و١٣٧ و١٦٤ .

(٢) ص ١٢٩ .

(٣) ص ٢٥٦ من كتاب تشحيذ الأذهان لسيرة بلاد العرب والسودان لمؤلفه محمد بن عمر التونسى طبعة باريس ، طبعه حجر بخط اليد . والناشر هو المسيو بيرون سنة ١٨٥٠م .

(٤) ص ٣٨ من كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى .

وتوفى سنة ٩٥٥ ، ومن ذلك أيضًا أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت من علماء تمبكتو فقد قام بالتدريس وكذا التأليف فشرح مخمسات العشرينيات فى مدائح النبى ، ومنظومة المغيلى فى المنطق ، وعلق على موضع من خليل ، وعلى شرحه للتتائى حاشية بين فيها مواضع السهو منه وعلق على صغير السنوسى ، والقرطبية ، وفى الأصول ، وقرأ الصحيحين وغيرهما نيفا وعشرين سنة فى شهر رجب وتالييه [١] . وتوفى سنة ٩٩١هـ . من علماء تلمسان فى ذلك العهد حلّو ابن الحاج بن سعيد المناوى الذى كان فقهيًا عالمًا امتاز فى القراءات السبع ، يحفظ الشاطبيتين الكبرى والصغرى عارف بأحكام القرآن والعربية ، والرسالة ، ومختصر ابن الحاجب القرعى ، وألفية ابن مالك ، والحساب ، والفرائض ، وكان يدرس الخراز والضبط (أى ضبط القرآن ورسمه) وابن برى ، وكذا الأجرومية ، وألفية ابن مالك ، والرسالة ، وله مدائح فى النبى صلى الله عليه وسلم [٢] وتوفى سنة ٩٩٨ . ومن هذه التراجم ومما ذكر فى كتب التربية الإسلامية [٣] يثبت لنا أن الكتب التى كانت تستعمل فى السودان هى بعينها الكتب المعروفة فى البلاد الإسلامية الأخرى ، اللهم إلا عددًا قليلاً من الكتب التى ألفها السودانيون أنفسهم ، وهذه لا نستطيع حصرها أو ذكرها جميعها ؛ لأنها لم تصل إلينا [٤] .

ويظهر من عناية أهل السودان بدراسة القرآن وصنوف العلم وقوانينه ، وعدم ذكر شىء عن الخط ، وقلة عنايتهم بالشعر والأدب أنهم كانوا يحاكون فى مواد الدراسة أهل المشرق أكثر من أهل المغرب . ذلك لأن العناية بمواد الدراسة كانت تختلف باختلاف الأمصار . أشار إلى ذلك ابن خلدون فى مقدمته [٥] .

فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بسواء فى شىء من

---

(١) ص ٤٢-٤٣ من الكتاب المذكور .

(٢) ص ٩٥ من كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تأليف أبى عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم .

(٣) راجع أيضا الصفحات من ٤١ إلى ٦٥ من كتاب An Intorduction to the History of Education in Modern Egypt, by Heyworti-Dunne.

(٤) لم تصل إلينا ما ألفه علماء السودان قبل التاسع عشر شىء . والشائع فى السودان أنه كانت هناك مؤلفات سودانية انتشرت أثناء الثورة المهدية .

(٥) ص ٢٩٧ من مقدمة ابن خلدون .

مجالس تعليمهم ، لا من حديث ، ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه ، أو ينقطع دونه . . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم . وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم ، جعلوه أصلاً فى التعليم فلايقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها ، وتجويد الخط . ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شذا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم . . . وأما أهل إفريقيا فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم ، وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر من سواه . وعنايتهم بالخط تبع لذلك . . . وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على ما يبلغنا . ولا أدرى بم عنايتهم منها . والذى ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ، ولا يخلطونه بتعليم الخط . وإنما أطلت فى ذكر مقدار اهتمام كل ناحية من نواحى البلاد الإسلامية ببعض العلوم دون البعض الآخر ليظهر لنا موقف السودان من هذه العلوم كما أشرت إلى ذلك من قبل .

■ ■ ■

برنامج
الدراسة اليومى



من الإسراف فى التفاؤل أن نتصور أنه كان هنالك برنامج مقرر مرسوم للبدء فى الدراسة اليومية بضبط ساعات العمل ، ومدة الحصة ، ووقت بدئها ونهايتها ، وأنواع الدروس اليومية المختلفة ، إذ إن النظم التعليمية بمعناها الحديث لم تكن معروفة حينذاك . ومن الواضح أن كل شيخ كان له برنامج يتبعه مع تلاميذه . وكان لابد أن يختلف هذا البرنامج من شيخ لشيخ وفقا لظروفه الخاصة ، من حيث المواد التى يدرسها ، والموسم الذى تقع فيه الدراسة . وعدد التلاميذ ، ومعيشتهم فى الخلوة أو خارجها ، ونوعهم باعتبارهم طلبة القرآن فقط ، أو القرآن والعلم معًا ، أو العلم فقط . من ذلك ما يرويه صاحب الطبقات (١) أن ضيف الله بن محمد بن ضيف الله كان ممن جمع بين العلم والعمل والزهد . وكان برنامجه اليومى أن يقوم فى ثلث الليل الأخير فيقرأ مناجاة ابن عطاء الله وأذكارًا وأورادًا حتى يطلع الفجر ، فيصليه . ثم يستأنف أذكاره إلى أن يصلى الصبح . ويستمر فى موضع الصلاة فى الذكر والعبادة وقراءة الوظيفة وأحزاب الشاذلى وسائر أحزاب شيخه خوجلى . ثم يصلى النافلة . فإذا فرغ منها شرع فى التدريس ، فإذا فرع منه أخذ فى تلاوة الدلائل . فإذا فرغ منها يأخذ مسبحته الدقاقة ، ويذكر الله ، ويصلى على النبى حتى يستوفى العدد المقرر . فإذا فرغ منه شرع فى إعداد دروسه لليوم المقبل ثم ينام نومة خفيفة بعدها يصلى الظهر ، ويشرع فى الدرس ، فإذا فرغ صلى العصر واستمر على الذكر والعبادة حتى تغرب الشمس ، فيصلى المغرب ويجلس ويستعمل الذكر الوارد بين المغرب والعشاء ، فإذا صلى العشاء قعد يذكر ، ويتنفل إلى أن يمضى الباب الأول إلا

---

(١) ص ١٠٢ من طبعة منديل .

قليلا منه . . وهكذا كان دأبه . فهذا الشيخ لم يكن يشغله عن الدرس وذكر الله شاغل . ولذلك كان يوزع زمنه بينهما . وكان يدرس الفقه والفتاوى والأحكام ، وظل على هذه الحال اثنتين وخمسين سنة (من سنة ١١٣٠ إلى وفاته سنة ١١٨٢) فهو إذًا شيخ علم وشيخ قرآن . ولعل هذه الحال كانت شائعة بين العلماء الزهاد . فهم ينظرون إلى العلم باعتباره نوعًا من العبادة[١] . وقد ذكر مؤلف تاريخ السودان الغربى فى ترجمة أحد العلماء الصالحين [٢] أنه كان يخرج من داره فى نصف الليل فيذهب إلى الجامع لنشر العلم ، فيجلس الطلبة حوله يأخذون العلم إلى الإقامة لصلاة الصبح . ثم يعودون إليه بعد الصلاة إلى الزوال . وفيها يرجع لداره . ثم صلاة الظهر كذلك إلى صلاة العصر . . هكذا عادته مع الطلبة ، فهذه صورة شبيهة إلى حد ما بما كان عليه الشيخ ضيف الله .

وقد ورد فى طبقات ود ضيف الله [٣] شرح واف لبرنامج يومى للتدريس فهو يذكر فى ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن أسيد صاحب مسجد نورى نقلا عن تلميذه محمد بن الريد العودى أن الشيخ كان أول ما يفرغ من صلاة الصبح يقرأ الماضى من خليل . وبعدما ما يقوم من هذا المجلس يدخل عليه تلامذة القرآن من قراء الخرازى والشاطبيةَ . وبعدهم يأتى قراء العقائد والأخضرى والعشماوى . وعندما يفرغ من ذلك يأتيه المؤذن للظهر فيتوضأ ويصلى الظهر . فإذا فرغ منه يقرأ ظهرية خليل حتى يؤذن المؤذن للعصر . فيصلى العصر ثم يأتيه أهل التجويد ، وأهل العقائد ، وأهل العشماوى ، والأخضرى حتى يؤذن المؤذن صلاة المغرب . ثم يقرأ بعد المغرب متن خليل . ثم يأتونه بعنقريب يجلس عليه ويعرض أهل القرآن الدراس اثنين اثنين . ثم يقوم لصلاة العشاء . وبعد ذلك يصبر حتى يتعشى الطلبة فيأخذ سوطه ، ويجلس لتلامذة القرآن حتى يقرءون [٤] سبع الدراسة ، فإذا فرغوا قام ودخل خلوته ، فيأتيه واحد من الطلبة بحزمة

---

(١) روى الغزالى فى إحياء العلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم فرأى مجلسين ؛ أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه . وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال : أما هؤلاء فسائلون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما وجلس معهم (الإحياء ص ٦ ج١) .

(٢) ص ١٦ من تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى .

(٣) ص ١٢٣ من طبعة منديل .

(٤) عادة قراءة السبع هذه مازالت متبعة حتى الآن فى الخلوات الشهيرة لخلوة أم دبان . والأصل فيها أن يتمكن التلميذ من قراءة كل القرآن فى أسبوع .

حطب ويوقد النار ويقرأ . فإذا فرغ من ذلك أخذ سوطه وأيقظ الفقراء (الطلبة) [1] ناس العلم والقرآن ليمحوا الألواح القديمة ويكتبوا الجديدة . وكانت له سبحة ألفية دقاقة يأخذها ويشتغل بها حتى يكتب الفقراء ألواحهم الجديدة فيشرع فى تصحيحها فقط . ويستمر حتى ينادى المؤذن لصلاة الصبح ، فيصليها ثم يدخل لقراءة الماضى من خليل .

وربما كان مؤلف الطبقات مبالغًا فى هذا الوصف الذى لم يترك فيه لابن أسيد إلا زمنًا قليلا للنوم والراحة وشئون أسرته . ومهما يكن من مبالغة ، فإن هذا الوصف يدلنا على مقدار انصراف العلماء للعلم والتدريس ، وقلة اهتمامهم بشئون الدنيا . وعندى أن هذا الاعتكاف الذى يمثله برنامج ابن أسيد لايمثل العادة المتبعة بين كل المدرسين فى ذلك العهد ، وإن كان المأثور حتى الآن أن الخلوة تعمر بالطلبة والدراسة من صلاة الصبح إلى قرب منتصف الليل . وفى مثل هذه الخلوة يقوم بالتدريس أكثر من شيخ واحد [2] . على أن العلماء فى ذلك العهد ما كانوا ليملون أو يتراخون فى التدريس وإرشاد الناس فى العلم ، وما كان هذا أمرًا خاصًا بسودان وادى النيل ، بل عامًا بين جميع علماء المسلمين ، ومن ذلك ما رواه مؤلف تاريخ السودان [3] (الغربى) من أن الشيخ محمد بن محمود بن أبى بكر التنبكتى كان صبورًا على التعليم بلا ملل ولاضجر فكان يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولاً مختلفة ثم يقوم لبيته ويصلى الضحى مدة ، وربما مشى للقضاء فى أمور الناس بعدها ، أويصلح بين الناس ثم يقرئ فى بيته وقت الزوال ، ويصلى الظهر بالناس ، ويدرس إلى العصر ، ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاصفرار أو قربه ، وبعد المغرب يدرس فى الجامع إلى العشاء ، ويرجع لبيته .

تلك صورة من برنامج الدراسة اليومى لبعض الشيوخ ، شيوخ العلم ، وشيوخ القرآن والعلم معًا ، ولم يصلنا فيما كتب عن السودان إلى نهاية القرن الثامن عشر ما يبين برنامج الدراسة

---

(١) هكذا فى طبعة إبراهيم ود صديق ص ١٣١ .

(٢) يقول هيللسون فى ص ٢٠٨ من مجلة S. N. R. Vol. VI. ولا أحسب أن مؤلف الطبقات ذكر برنامج ابن أسيد الدراسى هذا لأنه شىء غير مألوف فلقد علمت أن ساعات الخلوة حتى فى العصر الحاضر قد تمتد إلى ١٨ ساعة . ولكن المؤلف أراد أن يعرض علينا صورة من عدد المواد التى كان يعلمها ابن أسيد إذا قورن بغيره من الشيوخ الذين كان تدريسهم مقصورًا على كتاب واحد .

(٣) ص ٤٣-٤٥ .

اليومى فى خلوة القرآن ، ولكن إذا صح لى أن أفترض أن نظام الدراسة فى الخلوة لم يتغير كثيرًا عما هو عليه الآن ، شأن كل نظام تقليدى يحرص أصحابه على الاحتفاظ به ، صح لى أن أذكر هنا برنامج الدراسة لخلوة لا تزال عامرة فى السودان بل لأكبر خلوات القرآن فى السودان ، ألا وهى خلوة أم ضبان [1] (أم دربان) ، فقد زرتها فى ١٧ من يونيه سنة ١٩٤٢ ووقفت فيها على النظام الآتى :

يقوم الحوار (التلميذ) فى الفجر لقراءة الدغشية ، وهى قراءة اللوح المكتوب من اليوم السابق فى ضوء الفجر ، ثم يصلى الصبح مع إخوانه ، وبعد ذلك يذهب الجميع بألواحهم إلى المحاية فيمحون ما كتبوا [2] وماحفظوه من اليوم السابق ، ثم يذهبون للفطور ، وبعده يذهبون لمحل الكتابة ليكتبوا ألواحهم بإملاء الفقيه إياهم واحدًا واحدًا من غير مصحف ، وبعضهم يكتب من ذاكرته ما حفظه أمس من القرآن .

ثم يذهبون إلى محل القراءة ويقدمون ألواحهم كل منهم لشيخه ، والشيخ هنا حوار كبير أتم حفظ القرآن وبقى فى الخلوة كالعريف فى مصر ، وهو يقوم بتصحيح حروف اللوح وضبطه ويبدأ التلاميذ بعد تصحيح ألواحهم فى حفظها ويستمرون إلى الضحى ، وعندئذ يطلقون ليستريحوا لى صلاة الظهر والغذاء ، وهم يذهبون فى صلاة الظهر إلى مسجد العبادة المجاور للخلوة (مسجد

---

(١) أم ضبان قرية شرقى النيل الأزرق على بضعة أميال من سوبة فى الجنوب الشرقى منها . اختطها الشيخ محمد أحمد بدر المشهور بالشيخ العبيد . وهو مسلمى الأصل . ولد حوالى سنة ١٢٢٥ وتوفى سنة ١٣٠٢هـ . وكان على جانب عظيم من التقوى ، حلو الشمائل ، حسن المحاضرة ، يتوخى الحكمة فى كلماته . وكان يقضى أغلب أوقاته فى عزلة من الناس ، منقطعًا لعبادة الله ، ولا يكاد يرى مع الناس فى غير الصلوات الخمس وفى غير الضحى وما بين الظهر والعصر حيث يخرج لإصلاح ذات البين ، وقراءة كتب الأخلاق والتصوف . وكان يقصده المرضى وذوو العاهات ، فيصف لهم الأدوية ويعالجهم . أما بناء هذه الخلوة (المسجد) فكان حوالى سنة ١٢٦٥ . وكان الشيخ العبيد ـ كما ذكرنا ـ منصرفا للتصوف . أما القائمون بالتدريس فيها فهم : الشيخ الطيب الأكبر ابنه للقرآن ، والشيخ أبو بكر العوض للعلوم الشرعية ، ومعه القاضى حاج حامد ، والفقيه محمد التركاوى (انظر الملحق الخامس ص ٣٣ وكذلك صفحة ٨٨ من الجزء الثانى من العربية فى السودان للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن) .

(٢) لما كان التلاميذ يميلون إلى محو ألواحهم بطريق البصق فيها اتخذ . . كثير من الخلوات ركنا مخصوصًا لمحو الألواح . وبه إناء كالقدر أو الزير مملوء ماء يسمى المحاية . وقد يتبرك الناس بهذا الماء للشرب أو الرش على الجسم . وشبيهه بهذا ما كان يحدث فى مصر من استخدام ماء السبيل فى مسح ألواح القرآن . ويعتبر بعض المسلمين الصالحين هذا الماء الذى استعمل فى محو الألواح مباركًا مقدسًا . ولذلك يشربونه للاستشفاء . وكانوا يلقون به فى البئر خشية أن ينجس باستعماله فى غير المقصود منه (ص ١٠٢ من كتاب L'Enseigrement Islamique en Egypte) .

العلم) ، وبعد صلاة الظهر يعودون لحفظ ألواحهم حتى قبيل العصر فيطلقون للفسحة وصلاة الفريضة ، ثم يعودون للحفظ مرة أخرى فى ألواحهم ، وهؤلاء هم الصغار منهم أما الكتاب فيدأبون على استظهار القرآن من المصحف [١] لأنهم فى مرحلة العودة [٢] المرة أو العودة الثانية ، وهم يستظهرون قدراً معيناً كى يثبتوه . ويمكنهم أن يكتبوه فى الألواح من الذاكرة صباح اليوم التالى كما أشرنا .

فإذا جاء المغرب ينطلقون لصلاته ثم يعودون ليجتمعوا حول النار ـ نار القرآن ـ لمواصلة الحفظ من الليحان (الألواح) التى سيمحونها فى الصباح . وفى هذه الأثناء يعرضون ألواحهم على شيخهم (العريف) أو على الفقيه الكبير والعرضة [٣] هذه أن يقرأ الحوار اللوح على شيخه أو الفقيه عن ظهر قلب حتى يسمح له بمحوه فى الصباح التالى ، وبكتابة لوح جديد .

وبعد العرض يسمح للجميع بالانصراف للعشاء ثم صلاة العشاء . ويعود الكبار منهم بعد ذلك لقراءة السبع ـ سبع القرآن ـ حول النار . ولا يسمح لهم بالذهاب للنوم قبل إتمام قراءة السبع . أما من المصحف أو عن ظهر قلب . أما الصغار فينصرفون إلى منازلهم ، إن كانوا من أهل الحلة ، وإما إلى الخلوات سكناهم ، إن كانوا من المقيمين بالخلوة (قسم الداخلية) .

ويظهر أن البرنامج اليومى فى كل معهد من معاهد التعليم بالبلاد الإسلامية كان يختلف باختلاف ظروف المعهد . وعلى سبيل الموازنة نعرض صورة لبرنامج يومى فى كتاب بمصر حيث التعليم كان مقصوراً على النهار .

[4]L' emploi de temp était le suivant. L' enfant commer cait par écrire sur tablette, puit Iisait devant le maforo ce qu' il avait écrit agin d' apprenser a

---

(١) كانت المصاحف عندهم ـ ومازالت ـ تنسخ نسخًا . وفى السودان كثير من الفقهاء الذين اتخذوا نسخ القرآن هواية محببة وتعبدًا ، يمضون فيه وقت فراغهم . ومنهم من ينجز كتابة مصحف بأكمله فى شهر رمضان .

(٢) تسمى العودة لحفظ القرآن مرة ثانية بعد حفظه للمرة الأولى «العودة المرة» وأصل مرارتها أن المتعلم عندما ينتهى من القرآن يعتقد أنه قد أتم حفظه . والحقيقة غير ذلك فهو حين يعود لحفظه يعود مكرهاً . فهى إذًا عودة مريرة عليه .

(٣) عرض اللوح إذا تلاه على الشيخ عن ظهر قلب ليعلم أحفظه أم لم يحفظه وهذا من الحديث أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبى القرآن كل سنة مرة ، وأنه عارضه مرتين . قال ابن الأثير أى كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن من المعارضة وهى المقابلة .

(٤) من كتاب L'Ensei, nement Islamique ص ١٠٨-١٠٩ للأستاذ إبراهيم سلامة .

bien pronccer. Enfin il recitait per core ee qu, il avait ecrit apres I' avoir répété plusie: rs fois.(1) Ces trois operatuo s é ritur lecture et recitation finale se passaient dans la matinée chaque meroredi et chaque jeudi avant le coucher du solil I' enfant répétait tout cw qu' il avait retenu pendant la semaine

ومن الواضح أن البرامج التى ذكرناها لم تكن خطة مقدسة لاتغيير فيها ولاتحويل ، غير أننا نلاحظ أنها مكونة من ثلاثة عناصر : عنصر إعداد الدرس الجديد أو اللوح الجديد . وعنصرحفظ هذا اللوح بالتكرار ، ثم عنصر التسميع . فمهما اختلفت البرامج فلا تخلو من هذا النظام . ولدينا صورة أخرى لبرنامج يومى لكتاب فى نهاية القرن الماضى . وهى لاتختلف كثيرًا عن الصورة (٢) السابقة .

إذا بزغت الشمس هرع الأولاد إلى الكتاب مسرعين ، حتى إذا وصلوا إليه أخذ كل منهم فى استظهار لوحه ، أو تكرار الجزء المقرر تثبيته عليه ، إن كان ممن ليس لديهم لوح لسبب من الأسباب . وبعد وثوق الولد من حفظه يتقدم أمام الفقيه ـ أو العريف ـ ليسمعه . فإذا أظهر الاختبار حفظه جيدًا أمر بمحو اللوح القديم . ويكتابة اللوح الجديد . فإذا فرغ من كتابته كان عليه تصحيحه على الفقيه أو العريف . وبعدئذ يعلق إلى الفترة الثانية بعد الظهر . ويلاحظ فى هذا الوقت أن الأولاد الذين يبكرون بحفظ ألواحهم ثم كتابتها وتصحيحها وتعليقها لابد أن يعملوا عملا فى مساعدة غيرهم من المتأخرين . حتى إذا فرغ جميع الأولاد من كتابة ألواحهم وتصحيحها حق لهم الانصراف لفسحة الغذاء أو الظهر . وقد تستغرق فسحة الغذاء ساعة أو بعض الساعة . . ولهذا نجد أن بعض الأولاد يتأخر فى حضوره وبعضهم يبادر بالعودة ، وقد حمل معه رغيفًا أو كسرة خبز يتبلغ بها إلى العصر حين يعود للمنزل ، أى إلى المغرب حين تكون الأكلة الأساسية . فإذا ماتم حضور الأولاد جميعهم بعد الظهر بدأوا بتثبيت الماضى أن تكرير جزء مما سبق حفظه ، حتى لاينسى مع طول الوقت ، وبعد تسميع من يكون عليه أن

---

(١) La correction devant le maitre s'appelle T. II. P. استصراب et la recitatior finale par coeur s'appelle عرض voir العبدرى 315 .

(٢) صفحة ٧٤ من كتاب القرية لمحمد عبد الجواد .

يسمع ماقرأ يتوجه الأولاد إلى الألواح المعلقة فيبتدئون فى حفظها للمرة الأولى قبل انصرافهم عصراً ولعلك ذاكر أن الأولاد حفظوا ألواحهم فى الصباح فماذا يحفظون الآن . وهم يحفظون الألواح الجديدة للمرة الأولى أى حفظًا أوليًا أو تكسيرًا حتى إذا ما انصرفوا إلى منازلهم واستراحوا ليلتهم وعادوا ثانية فى الصباح التالى يستعيدون حفظ هذه الألواح ويسمعونها قبل الظهر وهكذا .

ومما تقدم يظهر أن برنامج اليوم المدرسى فى خلوة التعليم ، أو المسجد بالسودان ، كان يمتد من الصباح إلى ما بعد صلاة العشاء . والرأى عندى أن السبب فى هذا هو أن التلامذة كانوا يقفون كل وقتهم على تحصيل القرآن والعلم ، لايشغلهم عنه شاغل إلا ما كان أحيانًا من جمع الحطب للنار ، ومن مساعدة الشيخ فى زرع أرضه وجلب الماء للخلوة . كذلك كان معظم التلاميذ يعيشون فى معهد التعليم ؛ فلم يكن هنالك مايصرفهم عن الدرس . وأما أولئك الذين يعيشون مع ذويهم فى الحالة فما أسهل أن يهرعوا إلى الخلوة فى الصباح . وعنها بعد انتهاء الدروس لأن الحلة عادة صغيرة الحجم قليلة السكان مما يتيسر معه الوصول إلى الخلوة [1] فى زمن قصير ، والموازنة الآتية تبين برامج الدراسة اليومية فى ثلاثة معاهد لتدريس القرآن .

---

(١) مازالت الحلة السودانية حتى الآن صغيرة الحجم قليلة عدد السكان إذا قورنت بالقرية المصرية . وهذا الصغر نتيجة طبيعية لنظام الرى بالمطر وحياة البداوة التى كانت سائدة .

موازنة بين التعليم اليومى فى السودان وغيره [١] .

أم دبان	من كتاب إبراهيم سلامة	من كتاب في كتاب القرية
الفجر:		
قراءة اللوح المكتوب أمس.		
الصبح:		
محو القديم	**محو القديم.**	**استظهار لوح أمس وتكراره لتثبيت الحفظ**
كتابة اللوح الجديد وتصحيحه.	**كتابة اللوح الجديد وتصحيحه وقراءته أمام الشيخ وتصحيحه.**	**تسميع اللوح القديم.**
بدء الحفظ.	**حفظ اللوح القديم وتسميعه.**	**كتابة اللوح الجديد وتصحيحه.**
الظهر:		
العودة لحفظ الألواح	**يثبت التلاميذ ماحفظوه أثناء الأسبوع (وذلك فى يومى الأربعاء والخميس إلى المغرب).**	**تثبيت الماضى المحفوظ من قبل حتى لاينسى** **تسميع جزء من الماضى** **تكسير اللوح الجديد.** **الاختبار فيه.**
المغرب:		
الاجتماع حول النار والحفظ. **العرضة.**		
العشاء:		
الاستمرار فى القراءة حول النار حتى يتم تسميع سبع القرآن.		

(١) ليس معنى هذا أن برنامج التعليم اليومى كان واحدا لجميع الخلوات فى السودان ، بل كان كل فقيه فى خلوته يضع البرنامج الذى يناسبه . وقد يتبعه يوما ويخالفه يوما آخر . فلم تكن هناك خطة واجبة التنفيذ ، ولكن البرنامج كان بصفة عامة كما ذكرنا .

يظهر من هذه الموازنة ما يأتى:

١ ـ أن البرنامج اليومى كان يختلف نظامه من معهد لمعهد .

٢ ـ مع هذا الاختلاف يشتمل كل برنامج على العناصر الثلاثة : كتابة اللوح وتصحيحه ثم تكراره للحفظ وتسميعه . غير أن نظام الحفظ يختلف أيضًا من معهد لمعهد ، وكذلك نظام تثبيت الماضى .

٣ ـ إن اليوم المدرسى يمتد فى السودان من الصباح وأحيانًا [١] من الفجر إلى مابعد العشاء (راجع أيضًا الملحق رقم ٥ رواية الشيخ عمر الأزرق) .

■■■

(١) وربما قيل إن هذا الحكم يصدق على القرى وسكانها ، ولا يصدق على المدن . والحقيقة أن بلاد السودان جميعها ـ إلا القليل ـ يمكن أن تعتبر قرى . وحتى فى المدن مثل كسلا والقضارف كان اليوم المدرسى يستمر من الصباح إلى ما بعد العشاء (انظر الملحقات) .

أساليب التعليم



الأصل أن الطفل حينما يذهب إلى الخلوة يبدأ بتعلم القرآن لما ذكرنا من إيثار التبرك والثواب به ، ولكن يظهر أنه كانت هناك طريقتان لحفظ القرآن إحداها شفهية والأخرى تحريرية . فالأولى هى طريقة التلقين وبها ينطق الشيخ بالآية يسمعها التلميذ وينطق بعده . ثم يستمر المدرس والتلميذ كذلك حتى يحفظ الثانى القدر المقرر [1] من القرآن . والأخرى هى طريقة الكتابة وبها يكتب التلميذ القدر المقرر من القرآن على اللوح نقلا من مصحف أو جزء أو إملاء من الشيخ[2] أو العريف . وقد ذهب ابن خلدون مذهب ابن جبير من أن أهل المشرق لايخلطون تعليم القرآن بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما يتعلم سائر الصنائع . . وإذا كتبوا للصبيان الألواح فبخط قاصر عن الإجادة [3]

وعندى أنه لم يكن كل أهل المشرق ـ ولاسيما أهل مصر والسودان ـ ليعلموا أولادهم القرآن بالتلقين فقد كانت طريقة الكتابة متبعة فى حفظ الكتاب المبين يظهر هذا من أنهم كانوا يبدأوا التلاميذ[4] بتعليمهم التهجى وتمرينهم على كتابة الكلمات حتى يتمكنوا بعد من نقل القدر المراد حفظه فى الألواح . من هذا وجب علينا أن نبدأ بأسلوب تعليم التهجى .

---

(١) يقول ابن جبير فى رحلته ص ٢٥٢ عند وصفه الجامع الأموى بدمشق : «وعند فراغ المجتمع الشيمى من القرآن صباحا يستند كل إنسان منهم (من قراء القرآن) إلى سارية ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن . . . . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين . ويعلمون الخط فى الأشجار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو وقد يكون فى أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب» .

(٢) ص ١٠٨ من كتاب التعليم الإسلامى فى مصر لإبراهيم سلامة مقتبسًا من كتاب مكة لمؤلفه سنوك ص ٢٦٦ ج٢ من الأصل الألمانى .

(٣) ص ٣٩٨ من المقدمة .

(٤) انظر حسن المحاضرة للسيوطى .

أسلوب التهجى:

لم يرد إلينا فيما كتب عن السودان حتى نهاية القرن الثامن عشر مايصف لنا أسلوب تعليم التهجى غير أن فى كتاب الطبقات (١) إشارة إلى أن الطفل يبدأ عادة بتعلم الحروف الهجائية وكتابتها فى اللوح . فقد ذكر ود ضيف الله أن محمداً المسلمى الصغير بعدما فرغ من قراءة مختصر خليل والرسالة على عمه محمد القدال بن الفرضى أراد التصوف فذهب إلى دفع الله العركى بن الشيخ أبى إدريس ودخل عنده فى خلوة معلم الصبيان وقال له إننى جئت من البادية لأتعلم ، فشرع معلم الصبيان يعلمه من أ . ب .ت . ث والصبيان يساعدونه على الكتابة فى اللوح ويضحكون (٢) منه . وقد كانت وفاة الشيخ دفع الله هذا فى سنة ١٠٩٤هـ ؛ فكأن بدء الخلوة بتعلم التهجى أمر معروف فى السودان منذ أول القرن الحادى عشر الهجرى على الأقل . ومن الثابت أيضاً أن تعلم القرآن فى السودان كان بطريقة الكتابة لا بطريقة التلقين فمما يروى أن الفقيه شكر الله بن عثمان العودى كان جالسًا يومًا يصحح لوحًا من ألواح القرآن فقدم عليه الشيخ حميد السميح من شيوخ العبدلاب فلم يحفل به ولم يعره انتباهًا حتى أتم تصحيح اللوح . وإذاً فقد كان التلميذ يتعلم القرآن بالطريقة التحريرية . وكان تعلم التهجى يسبق تعلم القرآن . وإذا كنا لم نعثر على وصف لأسلوب تعليم التهجى فى الفترة التى بين أول القرن السادس عشر ونهاية الثامن عشر الميلادى فمن حقنا أن نفترض أن الأسلوب لم يتغير كثيرًا فى القرن التاسع عشر عنه فى القرون الماضية(٣) . وقد وصف لنا كثير من السودانيين الأحياء طريقة تعلمهم التهجى فى القرن الماضى من ذلك ما رواه الشيخ أبو القاسم بن دفع الله - الذى أشرت إليه من قبل - حينما زرته فى قرية الحديبة وكان قد ناهز الثمانين(٤) . ذكر الشيخ أنه عندما يأخذ الأب ابنه إلى الخلوة يستدعى فقيه الخلوة أحد المتقدمين من التلاميذ . ويقدم له الطفل

---

(٥) ص ٢٢ من الطبقات طبعة منديل وكذلك ص ٢٢٨ من كتاب تشحيذ الأذهان .

(١) لعل ضحكهم هذا كان لكبر سنه وبدئه تعلم التهجى مع كبر السن .

(٣) أن المبرر لهذا الافتراض هو أن الأسلوب القديم التقليدى لتعليم التهجى الذى كان متبعًا فى كتاب سيدنا فى القرن التاسع عشر لايزال حتى الآن متبعًا فى كثير من المدارس الأولية الأميرية بالرغم من تطور الأساليب وإدخال الطرق الحديثة فالأولى إذًا أن يكون أسلوب القرن التاسع عشر شبيها بأسلوب القرون السابقة له .

(٤) كانت الزيارة فى يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٠ بصحبة حفيده حضرة أحمد أفندى عبد الله الضابط فى الاستيداع والشيخ حسن أحمد المدرس بمعارف السودان .

الجديد ويقول للتلميذ «حورنا لك ده» أى جعلناه حواراً من حيرانك . فأول شيء يعلم العريف (التلميذ المتقدم) الحوار الجديد هو الحروف الهجائية ؛ يكتب له جزءاً منها على اللوح أ . ب . ت ث مثلا وفى العصر يعلمه كتابتها على التراب ويشاركه فى هذا بقية الحيران . وهكذا كلما عرف عدداً من الحروف أضاف إليه عدداً آخر على اللوح ، وثبت كتابته على التراب . وهكذا ينتقل من طور إلى طور حتى يصل إلى : ال ب جاب ألف با ، وال ب جاب ى بى وال ب جاب وبو إلخ . . ويستمرهكذا نحو أربعة أشهر فى تعلم الهجاء من اللوح والأرض . وفى نفس الوقت يتعلم التلميذ بطريق التلقين والمحاكاة ، من الأولاد الذين معه ، بعض السور كالفاتحة والمعوذتين . فإذا أنس العريف من الحوار قدرته على معرفة الحروف كتب له الفاتحة فى اللوم ليحفظها ، عن طريق الكتابة . وكان هذا العمل حادثًا مشهوراً تحتفل به الخلوة وأهل الحوار وتعمل له «الشرافة» وهى التزويق [1] فى اللوح والكتابة بالأحمر والأخضر والأزرق .

فإذا ثبت استعمال التراب فى تعليم المبتدئين القراءة والكتابة كان لنا أن نقول إن الخلوة السودانية قد سبقت مدام منتسورى فيما تسميه الطريقة الحديثة باستعمال الرمل مع المبتدئين فى التهجى .

لا شك أن رواية الشيخ أبو القاسم بن دفع الله هى إحدى الطرق التى كانت متبعة ، وهناك طريقة أخرى رواها لى الشيخ أحمد سليمان [2] فقيه مدرسة كساب الأولية بالسودان قال :

كانت العادة التفاؤل بإرسال الأولاد إلى الخلوة يوم الأربعاء لذلك أخذنى والدى إليها فى يوم الأربعاء . وكان عمرى بين الثامنة والعاشرة . وكان شيخ الخلوة هو الفقيه عبدالرحمن حسين ، فأعطانى الفقيه لحوار من الحيران المتقدمين يلقب بالعريف . وكان اسمه ياسين ، وهو ابن أخت الفقيه . وبدأ العريف يعلمنى ألف باء على الأرض لغاية ما انتهيت من الحروف الهجائية وعرفت أسماءها . ثم رجعت لكتابة الحروف الهجائية مرة أخرى ولكن هذه المرة أقول : ألف لاشى عليها الباء نقطة من تحتيها . . إلخ ولما انتهيت من هذا بدأت أتعلم : ألف قطعة ونصبة أَ ألف قطعة وخفضة إِ قطعة ورفعة أُلف جزم أْ . ب نصب بَ ب خفض بِ ، ب رفع

---

(١) سأذكر معنى الشرافة هذه فى الصفحات القادمة .

(٢) زرت مدرسة كساب الأولية بالقرب من القضارف فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤١ وكان الشيخ أحمد سليمان هذا هو الفقيه الذى يدرس القرآن الكريم والدين . ولم يكن له مؤهلات إلا حفظه القرآن ، ومعرفته أصول الدين فهو من المعلمين غير ذوى المؤهلات الحكومية . وكانت سنه حينئذ نحو خمسين سنة .

بُ ، ب جزم اب ، ثم ب شد ونصبة ب ، ب شدة وخفضة بٍّ ، ب شدة ورفعه بٌّ . ب نصبتين با ، ب خفضتين بٍ ، ب رفعتين بٌ . ثم باب جاب ألف ، بى جاب يه ، بو جاب واو . . . الخ .

وبعد ذلك بدأت سورة الحمد . وكنت أثناء تعلمى ما سبق أكتبه على الأرض أولا بإرشاد العريف ، وبعد ذلك أكتبه على اللوح وكل ما أكتبه على الأرض أكتب مثله على اللوح وكان من خشب ، ويجير بالجير . والعريف يكتب عليه لى بنواة بلح ، وأنا أكتب بالحجر مكان أثر النواة .

فهذه رواية ثانية تختلف فى خطواتها عن الرواية الأولى ، وإن كانت تشابهها فى اتخاذ الطريقة الحرفية المسماه The alpahabetic Method وفى استعمال التراب واللوح .

وقد سمعت فى خلوة أم دبان رواية خلاصتها أن الولد عندما يحضر إلى الخلوة يعطى لأحد الفقراء[1] (التلاميذ القدماء) ليقوم بتعليمه الحروف الهجائية بالطريقة المعروفة . فيحضر له قلمًا ودواة ولوحًا ، ويكتب له الحروف أ ب ت ث ويطالبه بمحاكاتها . أما عليها أولا ، أو حتى يجيد الحروف قراءة وكتابة إلى آخرها ثم ينتقل إلى أ . بَ تَ ثَ إلخ وبعدها إلى با تا ثا الخ . ومتى انتهى من هذه الخطوات كتب له فقيه الخلوة سورة«الحمد» فى اللوح وطالبه باستظهارها حتى يحفظها . وفى الغالب يكون قد حفظها بطريق السماع والمحاكاة من زملائه الكبار .

وليس فى هذا الأسلوب شىء جديد يختلف به عن الطريقتين السابقتين ، اللهم إلا عدم الكتابة على الرمل . هذا أثر من آثار التطور فى طريق تعليم التهجى .

والذى ينعم النظر فى الطرق الثلاثة التى ذكرناها يجدها شبيهة كل الشبه بطريقة سيدنا فى كتاب القرية منذ قديم الزمان [2] إلى الآن . وقد عقد الأستاذ محمد عبدالجواد فصلا ممتعًا لطريقة تعليم

---

(١) يلاحظ استعمال كلمة فقير هنا بمعنى التلميذ القديم أو العريف .

(٢) من المناسب أن نذكر هنا أن الطريقة الحرفية كانت مألوفة فى المدارس الأثينية لأكثر من خمسة قرون قبل الميلاد . فقد كان المعلم يأخذ الغلمان برسم الحروف وتخطيطها على الرمل أولا ، حتى إذا أتقنوا ذلك أخذوا بنسخ أبيات من الشعر وقطع من النثر تختار لهم ، ينقشونها أولا على ألواح من الشمع ، ثم يكتبونها بعد ذلك على الرقوق والجلود الرقيقة بالمداد والأقلام (ص ٥١ من تاريخ التربية لمصطفى أمين) .

الهجاء فى مؤلفه (١) «كتاب القرية» وفيه نجد خطوات الطريقة لا تختلف كثيرًا عن خطوات الطرق التى شرحناها . على أنى لا أرى داعيًا لهذا الاختلاف فى الطرق من قطر إلى قطر ومن بلاد لبلاد ، إلا بقدر ما يمكن أن يقع من اختلاف الطريقة من فقيه لفقيه ، فلكل شيخ كما يقولون طريقة . وقد كانت البلاد الإسلامية العربية إلى عهد قريب متشابهة فى كثير من وسائل التقليدية ، فلم تكن ثمة نظريات حديثة ، ولا نتائج تجارب تربوية تعمل على تغيير الوسائل بوسائل أخرى خير منها .

ويتبين من الطرق المذكورة أن الكتابة لم تحتل مكانًا مهمًا فى حياة التلميذ فى الخلوة ، وأنه كان يتعلم الاملاء والخط عرضًا أثناء كتابة اللوح ، وهذا ما كان جاريًا أيضًا فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى . فقد ذكر المستشرق إدورد (٢) وليم لاين «إنه يندر أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عندما يخصصون لبعض الوظائف التى تتطلب معرفتها (٣) . ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى بعض أساليب التعليم فى مدرسة إنجليزية فى القرن (٤) الماضى . فقد كان واجب التلاميذ أن يحفظوا ما يعطى لهم ، وعلى المدرس أن يسمع ما حفظوا . وكان فى الغالب صلوات الكنيسة وأدعيتها وبعض المختارات من الكتاب المقدس . أما الكتابة فكانت تعلم إذا طلبها الآباء فقط ، وحتى مبادئ الحساب كانت تعتبر عند كثير من المدرسين ترفًا لا ضرورة له . وكان التلميذ يذهب للمدرسة من غير أن يعرف حروف الهجاء فيريها المدرس إياه فى الكتاب مشيرًا إليها ، ويطالبه بحفظها . ثم يعود إليه بعد ساعة ونصف ليختبره . وهكذا .

أسلوب تحفيظ القرآن:

هذا ما كان من أمر تعليم التهجى ، أما تحفيظ القرآن فقد ألمحنا إلى أن الحوار يبدأ فى حفظ بعض سوره الصغيرة بطريق التلقين . وذلك أثناء تعلمه التهجى ، ثم يبدأ فى استعمال اللوح وكتابة الدرس عليه وحفظه ، وطريقة حفظ القرآن هذه نظام تقليدى متعارف . فالقرآن مقسم إلى

---

(١) ص ٥٦ وما بعدها من هذا الكتاب طبعة مطبعة المعارف سنة ١٩٣٩ .

(٢) أنظر كتاب

The Manners and Oustoma of the Modern Egyptians, written during 1833-5 (London 1836).

(٣)ص ١٢٩٩ من الرسالة العدد ٤٣٣ السنة التاسعة من ترجمة عدلى طاهر نور الكتاب المذكور. وفى هذه الصفحة يذكر المؤلف أن أول ما يتعلم الأولاد حروف الهجاء بأسمائها مجردة من الشكل . وبعد ذلك يتعلمونها بالشكل . ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء . وعندما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء يتمرن على قراءة الكلمات السهلة مثل أسماء الرجال . ثم صفات الله التسع والتسعين . وبعد ذلك يحفظ الفاتحة ، فيكررها حتى يعيها تمامًا .

(٤) ص ١٧ من كتاب بستالوتزى .

ثلاثين جزءاً ، وكل جزء يتكون من حزبين وكل حزب من أربعة أرباع ، وكل ربع من ثمنين أى أن الحزب ثمانية أثمان . وكل ثمن من خروبتين . فالخروبة ربع الربع وواحد على ستة عشر من الحزب والثمن عادة يصلح لأن يكون لوحًا للتلميذ المتقدم ، أما الضعيف أو المبتدئ سورة صغيرة أو خروبة . وكان التلميذ الذى يقرأ القرآن لأول مرة يسمى باديًا ، والتلميذ الذى تقدم فى حفظ القرآن يسمى[1] «دارسا» والجمع دراس . والجزء الذى يكتب فى اللوح من القرآن يسمى «الرجعة» وقد حدثنى الفقيه أحمد سليمان أنه بعد أن انتهى من رحلة التهجى كتب له فقيه الخلوة سورة الحمد فى لوحه ، وعملت له «الشرافة» ، وهى عبارة [2] عن تزويقة ، بالحبر الأحمر والأزرق ، والأصفر ، وفى وسطها الفاتحة . فذهب بها إلى والده حيث احتفل هو وأهله بهذا الحدث العظيم وأرسل للفقيه هدية ، وللخلوة طعامًا .

قال الفقيه أحمد سليمان : وكانت العادة أن يكتب اللوح من الجانبين ، فمثلا سورة الفاتحة فى جانب ، وسورة الناس فى الجانب الآخر . ومتى حفظ الحوار (أى التلميذ) الفاتحة محاها وكتب مكانها ـ أو كتب له العريف ـ سورة الصمد [3] وهكذا ويؤيد هذا الرأى أن أهل المغرب الأقصى يستعملون مكان «الشرافة» كلمة «التحريرة» . وهى فى الأصل من حرر التلميذ ، أى أطلقه ، وفكه من ارتباطه بالشيخ والمدرسة فالشيخ لايحرره ولايطلقه إلا إذا قدم المحضرى «التحريرة» .

والبادى هو الذى يكتب اللوح بنفسه من إملاء العريف أو الفقيه؟ ، فإذا لم يستطع كتبه له الحوار الكبير (العريف) أو الفقيه . فإذا كتبه البادى [4] صححه له العريف أو الفقيه ، إما بنفسه

---

(١) ص ١٩٩ من S. N. R. Vol. VI. وكذلك ص ١٢٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) أرى أن كلمة «الشرافة» هذه محرفة من «الصرافة» وهى كلمة شائعة الاستعمال فى مصر منذ زمن طويل . وهى اصطلاح مدرسى يطلق على المبلغ من النقود ، أو الشىء الذى يقدمه والد التلميذ للفقيه عندما يصل التلميذ إلى مرحلة من مراحل تعلمه ، التى يصح أن يحتفل بها ؛ كوصوله فى الحفظ إلى سورة عم أو تبارك أو يس أو ختم القرآن . وهى فى الأصل تطلق أيضا على ما يعطيه التلميذ للفقيه يوم الخميس قبل انصرافه إلى المنزل . وتستطيع أن تتلمس لها أصلا من الفعل صرفه يصرفه صرفا . فانصرف . فالتلميذ يدفع للفقيه ما يدفعه قبل الانصراف . فإذا لم يدفع شيئًا حجزه عنده أو أخره فكأن ما يدفع فك للتلميذ . وصرف له من المدرسة (انظر كتاب إبراهيم سلامة ص ١٠٩ ورسالة النابلسى ص ٦٢-٧٢ وص ٦٦) .

(٣) يقول ادورد وليم لاين فى كتابه : ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد . والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض وكل تلميذ بيده لوحه أو نسخة من القرآن أو جزء من أجزائه الثلاثين (الرسالة السنة التاسعة العدد ٤٢٣ ص ١٢٩٩) .

(٤) مثال ذلك ما ذكره من أن الملك حمد السميح لما ورد على الشيخ شكر الله كان الأخير يصحح لوح تلميذ ، فلم ينتبه له حتى أتم تصحيح اللوح .

أو بإرشاد البادى للتصحيح . ثم ينصرف البادى بعد التصحيح إلى حفظ «الرجعة» والعادة أن يجلس كل جماعة من التلاميذ المتقاربين فى المستوى فى بقعة واحدة ليسهل على العريف الإشراف عليهم أثناء الحفظ . وإلا جلسوا جميعًا معًا . ويمر العريف ـ أو الفقيه ـ عليهم أثناء الحفظ ليصحح نطقهم وتلاوتهم . وفى الليل يجلس كل التلاميذ (الحيران) حول النار .

فإذا أتم التلميذ حفظ لوحه سمع له الفقيه . فإذا كان حفظه جيدًا ، واقتنع الفقيه بذلك أجاز محو اللوح وكتابة غيره ، ويسمى عرض اللوح على الفقيه وتسميعه له حتى يأذن له بمحوه «العرضة» لأن التلميذ يعرض على الشيخ حفظه ليقره أو لا [1] ، وكان الشيخ غالبًا يجلس على عنقريب أثناء العرضة[2] . والعادة أن يكتب اللوح من الجانبين ؛ فمثلا سورة الفاتحة فى جانب وسورة الناس فى الجانب الآخر . ومتى حفظ الحوار الفاتحة محاها ، وكتب مكانها الفلق . ومتى حفظ الناس محاها وكتب مكانها الصمد [3] وهكذا .

يستمر البادى فى الحفظ بهذه الطريقة ، حتى يصل إلى سورة (لم يكن) فتعمل له «شرافة» وكذلك تعمل «الشرافة» عندما يصل إلى كل من سورة سبح ، وعم ، وتبارك ، والرحمن ، ومحمد ، ويس ، والفرقان ، ومريم والأعراف ، والبقرة[4] ؛ فإذا ما أتم حفظ سورة البقرة قيل إنه ختم القرآن . وعندئذ تعمل له «الشرافة» الكبرى .

وبعد ذلك يبدأ الحوار فى «العودة المرة» وهى العودة لحفظ القرآن وتثبيته جيدًا ، من سورة البقرة إلى سورة الناس . وإنما سميت المرة لأن الحوار يكون عندما ختم القرآن قد نسى ماحفظه . فلا بد إذًا أن يعود لحفظه مرة أخرى فهو والحالة هذه يشعر بمرارة العمل الذى سيقوم به بعد أن أداه من قبل . وهو سيجد أيضاً مرارة الحفظ مرة أخرى ، بالرغم من أنه حفظه قبل ذلك ، فمقدار

---

(١) انظر الملحق رقم ٥ عن خلوة أم دبان من الجزء الثالث وفى كتاب «العربية فى السودان» عرض لوحه إذا تلاه على شيخه عن ظهر قلب ليعلم حفظه أم لم يحفظه .

(٢) ورد فى ص ١٣٩ من الطبقات طبعة منديل أن قاقم بن إبراهيم بن برى كان يجلس على الأرض للعرضة فنهاه أبوه . وقال له : اقعد على العنقريب فقد كان باسبار يجلس على العنقريب ويعرض الحيران اثنين اثنين .

(٣) انظر الملحق رقم ٥ من إملاء الشيخ أحمد سليمان فى الجزء الثالث .

(٤) ذكر لى الشيخ أبو القاسم بن دفع الله سورتين أخريين تعمل عندهما الشرافة هما . الإسراء ، والتوبة ، وهو يقول :
إن الشرافة الكبرى تعمل عندما يصل الحوار إلى سورة البقرة ويختم فيذبح الوالد بهذه المناسبة بهيمة ، ويحتفل الأهل والأحباب بهذه المناسبة ويقدم للفقيه عطاء سخى .
ويحدثنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام (ص ٢٨ الجزء الأول الطبعة الأولى) أن حقوق سيدنا التى كان يقتضيها عند ختم القرآن عشوة دسمة وجبة وقفطان ، وزوج من الأحذية ، وطربوش مغربى وطاقية وجنيه أحمر لا يرضى بشىء دون ذلك .

اللوح فى هذه المرة أطول من المرة الأولى . وسيخيب ظنه حينما يجد نفسه ناسيا ما كانقد حفظه[١] . هذا إلى أن «الولد يصادف فى هذه المرحلة مشقة عظيمة فى تثبيت الماضى لأنه يتحتم عليه أن يسمع من الماضى كل يوم حزبًا أو جزءًا ، غير ما يجب عليه تلاوته مرة واحدة»[٢] .

ويستعمل الحوار فى العودة المرة المصحف الذى يكون كتابة يد . والذى يحضره والد الحوار ويعطيه للفقيه ليصححه ويصلح ما عسى أن يكون به من أخطاء خطية . وبعد التصحيح يعطى الفقيه المصحف للحوار ليقرأ فيه «المطالعة» وهى القدر الذى يريد الحوار أن يحفظ ويثبت من المصحف . وتكون «المطالعة» أمام الفقيه لكى يصحح للحوار النطق والتلاوة . ومتى تأكد الفقيه من صحة القراءة ترك الحوار ليحفظ وحده . فيستمر الحوار فى الحفظ إلى الليل . فإذا أجاده أخذ يرتله عن ظهر قلب ويسمى هذا الترتيل بقراءة الدراسة [٣] . وفى الصباح يكتب الحوار القدر الذى حفظه أمس فى اللوح من ذاكرته . وذلك ليتأكد من بقاء الحفظ أثناء الليل [٤] . وتسمى مراجعه القرآن مرة ثانية للحفظ كما فى العودة المرة بالتلية [٥] .

يستمر الحوار فى العودة من أول سورة البقرة إلى سورة الفاتحة . وقد يصل الحوار إلى سورة يس ويقف ويطالبه الفقيه أن يبدأ من سورة البقرة مرة أخرى إذا لم يكن قد حفظ ثلاثة الأرباع الأولى . وتسمى هذه بالعودة الثانية . وقد تكرر العودة إذا لم يجد الحوار [٦] الحفظ .

---

(١) يحدثنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام (ص٣٣-٣٥) عن موقف له بعد أن ختم القرآن وراح والده يختبره فيه . فظهر أنه قد نسيه ، وكيف كان هذا اليوم مشئوما حقا ، ذاق فيه لأول مرة مرارة الخزى والذلة والضعة وكره الحياة .

(٢) ص ٩٩ من كتاب القرية لمحمد عبد الجواد .

(٣) انظر للملحق رقم ٥ رواية الشيخ عمر الأزرق من المجلد الثالث .

(٤) راجع للملحق رقم ٥ رواية الشيخ أحمد سليمان من المجلد الثالث .

(٥) انظر ص ١٩٩ من S. N. R. Vol. VI. حيث تجد بالهامش عبارة dalla al Qurân, to ge through it a second reading وفى الطبقات طبعة إبراهيم صديق ص ١٥٩ عن محمد بن الشيخ عبد الله الطريفى قال : كنت أقرأ القرآن عند رجل غرباوى وكان يضربنى ضربًا شديدًا . فشكته والدتى للشيخ دفع الله . . . فأخذنى الشيخ منه فصرت أعرض لوحى ، وأصححه عند الشيخ حتى جمعت الكتاب ودرسته باديا . ثم أخذت لى عنده عودة فلما دليتها أو قاربت توفى الشيخ دفع الله .

(٦) تقارن هذه الطريقة بالطريقة التى ذكرها الأستاذ محمد عبد الجواد فى كتابه كتاب القرية ص ٦٦ وبالطريقة التى ذكرها الدكتور طه حسين فى الأيام ص ٣٠ وما بعدها .

ولكى يثبت حفظ القرآن عند الدراسين وأولئك الذين يعيدونه كان مقررًا أن يسمع أحد «الحيران» كل ليلة للفقيه سبع القرآن . وهم حول النار ، ولا يسمح لهم بالانصراف إلى العشاء إلا إذا أتم الحوار تسميع السبع [1] وفى هذا التسميع مراجعة للماضى وتثبيت له عند الحوار . وأرى أن تقدير السبع كل ليلة إنما هو على أساس تقسيم كل القرآن على سبعة أيام ؛ لأن الطلاب كانوا يدرسون كل ليالى الأسبوع ، فيمكنهم والحالة هذه أن يراجعوا قراءة كل القرآن مرة واحدة فى الأسبوع [2] وقد يقوم بهذه المراجعة حوار واحد .

وإنما اعتمدت فى شرح طريقة تحفيظ القرآن على ما رواه لى قدماء المعاصرين ، لاعتمادى أن طريقة تحفيظ القرآن التقليدية فى معاهد العلم المحافظة لم تتغير كثيرًا ، ولأننى لم أعثر على أى سجل مخطوط يشرح الطريقة بأكملها .

ومارواه هيللسون فى طريقة تحفيظ القرآن فى الخلوة قريب مما ذكرناه فهو يقول [3]

The foundation of all learning was the Koran which it was the ambition of every student to memorise without troubling himself much obout the meaning of the sacred words' no manusdript copies were used in the Koran schools the teacher dictated from memory and the texts were written down, lesson by lesson on the wooden tablets from which they could be washed off, when they had been thoroughly mastered. Instruction in reading and writing thus inevitably accompanied the study of the Koran. The method of study followed a fixed tradition and the text was divided and subdivided into a number of larger and smallet sections' the prog ess of the student could thus be gauged from the scetion or chapter to which he had attained.

غير أنى أخالف المستر هيللسون فى تصريحه بأنه لم تكن هنالك مصاحف مستعملة فى الخلوة ، ولعله اعتمد فى حكمه هذا على أن الطباعة لم تكن معروفة فى اللغة العربية فى

(١) راجع الملحق رقم ٥ رواية الشيخ عمر الأزرق من المجلد الثالث وكذلك صفحة ١٣٩ من طبعة منديل يقول إن عبد الرحمن ابن أسيد كان يصبر حتى يتعشى الفقراء ثم يجلس لناس القرآن حتى يقرءوا سبع الدراسة .

(٢) تذكرنا هذه الطريقة بما رواه ابن جبير فى رحلته (ص ٢٥١) من وصفه الجامع الأموى ، وكيف كان يجتمع به خلق كثير إثر صلاة الصبح لقراءة سبع القرآن . ويسمى هذا المجتمع المجتمع السبعى . وقد أشار الدكتور طه حسين فى الأيام (ص٣٨) إلى أن سيدنا أمره أن يقرأ القرآن مرة فى الأسبوع . ولما كانت أيام الشغل خمسة فقد وجب عليه أن يقرأ فى اليوم ستة أجزاء .

(٣) ص ١٩٩ S. N. R. Vol. VI.

الحقبة ما بين القرن السادس عشر والثامن عشر ، وأن نسخ الكتب لم يكن أمرًا سهلاً حينذاك ، والحقيقة أن نسخ الكتب كان أمرًا شائعًا فى جميع العالم العربى وكان الوسيلة التى بها تنشر وتذاع المعارف ، وإلا فكيف وصل إلينا هذا التراث الثقافى والأدب العربى العظيم ، وإذا كان العلماء والفقهاء قد عنوا بنسخ أى كتاب من الكتب الدينية أو العلمية ، فإن عنايتهم بنسخ المصحف كانت أعظم لاستعماله فى الحفظ والتبرك به ، وقد أشرت إلى أن عادة نسخ المصاحف باليد ما زالت شائعة فى السودان بالرغم من رخص الطباعة وسهولتها ، ورخص ثمن المصاحف وفى [1] الطبقات إلى إشارة إلى أن الشيخ (أى شيخ الخلوة) كان يستخدم الحيران فى انتساخ المصاحف فقد ورد فى ترجمة الشيخ حسن ود حسونة أن أحد فقرائه اغتابه فى نفسه بقوله : مال الشيخ حسن يكتبنا المصاحف ، وهو يأخذ هدايا الذهب؟ فكاشف عليه الشيخ ، فهذا نص صريح على أن فقراء الخلوة كانوا يكلفون بكتابة المصاحف ، ولدينا فى دور الكتب وعند الأفراد مصاحف مخطوطة من كل العهود الإسلامية ، ولم يكن السودان أقل شأنًا من البلاد الإسلامية الأخرى فى حرص علمائه على اقتناء الكتب واستنساخها [2] ، ولاسيما المصاحف ، ومما يرويه مؤلف الطبقات أن عبدالرحمن بن صالح بن النقا كان يحضر النساخ لينسخوا له الكتب النافعة المفيدة ويكافئهم على ذلك حتى ملأ منها ست [3] خزانات ، وقد كان نسخ الكتب مهنة معروفة فى ذلك العهد ، فمن ذلك أن عبدالله بن صابون كان يقضى معظم نهاره يكتب الكتب احتسابًا لله [4] وقد ذكر بركهارت فى رحلاته أنه رأى مروى كتبًا مخطوطة بخط جميل شبيه بخط النساخ فى القاهرة ، وحدثنى الشيخ شمس الدين الحنفى (انظر الملحق رقم ٥) أن بأيدى الناس الآن مصاحف قديمة مكتوبة بخط دنقلة والشايقية وهو خط معروف طويل ومجوف ومما يدل أيضًا على وجود المصاحف فى المساجد ـ مساجد العلم والعبادة ـ ما ذكره مؤلف الطبقات

---

(١) ص ٥٠ طبعة إبراهيم صديق .

(٢) ورد فى الطبقات طبعة منديل ص١٦٨ أن تنا بن الترابى نازع أخاه حمدا النحلان فى ميراث كتب كانت شركة بينهما . وفى ص ١١٠ أن عمارة بن عبد الحفيظ لما رجع من رحلته فى مصر والحجاز أحضر معه رحلين أو ثلاثة من الكتب ، وفى ص ١٤٩ أن مكى الدقشلاشى لما قامت عليه الحال شد ناقته وشال عليها كتبه وهام على وجهه . وكان محمد ولد دوليب (ص١٥٧) مشهورًا بتحصيل الكتب وجمعها . وقد جمع كتبا كثيرة كان يفتخر بها (أنظر أيضا الصفحات ٢١ و٢٥ و١٠٠ و١١٠ و١١١ و١٢٨) .

(٣) ص ١٣٥ طبعة إبراهيم صديق .

(٤) ص ١٢٩ طبعة منديل .

من أن مكى الدقلاشى لما دخل سنار وهو فى حالة نوبة صوفية وجد فى مسجد الملك [١] مصحفاً فمزقه ، فهذه كلها أدلة تقوم لنقض ماذهب إليه المستر هيللسون من أن المصاحف لم تكن مستعملة فى خلوات القرآن ، نعم ربما لم يكن فى بعض الخلوات مصحف ولكن هذه حال نادرة أكثر منها شائعة لا تبرر ما ذهب إليه .

وكثير من الحيران كانوا يكتفون بحفظ القرآن ، وبذلك تبدأ حياتهم المعاشية ومنهم من يستمر فى التعليم ويبدأ فى دراسة العلم بعد حفظ القرآن ، أو قبله بكثير أو قليل[٢] .

أسلوب تعليم العلم:

مما لا ريب فيه أن التلامذة كانوا يحلقون حول الشيخ ، كما كانت العادة فى جميع البلاد الإسلامية ، وكانت الحلقة تختلف فى عددها من تلميذين إلى ما يقرب[٣] من الألف ، وقد يكون مبالغًا فيه أن الحلقة قد وصلت إلى الألف من الطلبة ، ولكن المراد ـ هو كبر الحلقة وكثرة طلابها .

أما طريقة التدريس فليس لدينا ما يدعو إلى افتراض أنها كانت تختلف عما كانت عليه فى أى مسجد من المساجد فى ذلك العهد ، ورواية الشيخ عمر الأزرق تعطى صورة لهذه الطريقة وإن كانت لما أدركه الشيخ فى نهاية القرن التاسع عشر قال :

كان يجلس شيخ المسجد على الأرض وتحته برش أو فروة أو سجادة [٤] ويجلس الطلبة أمامه فى شكل دائرة إما على الأرض ، وإما على الفراء [٥] ، وكان الشيخ يختار أنبه الطلبة أو ألصقهم

---

(١) ص ٧٠ من رحلات بركهارت .

(٢) ص ١٤٩ من طبعة منديل .

(٣) يروى مؤلف الطبقات أن محمد بن عبد الله الطريفى لما بدأ تعليم العلم استأجر اثنين غرباويين كلا منهما بثوب لقراءة العلم . وأخذ يدرس لهما الرسالة ثم مختصر خليل . وعمرت الحلقة بعد ذلك (ص ١٥١ طبعة منديل) ، وفى مواضع مختلفة يشير ابن ضيف الله إلى أن الحلقة قد بلغت ألف طالب فمن ذلك (ص ١٢٢ طبعة منديل) أن حلقة عبد الماجد ابن حمد الأغبش قد بلغت ألف طالب . كذلك محمد بن مدنى (ص ١٤٨) بلغت حلقته ٥٠٠ طالب .

(٤) كما كان يجلس الحضرى شيخ حلالى بن محمد سوار الذهب (ص ٦٨ طبعة منديل) وقد يجلس الشيخ على عنقريب والطلبة حوله على الأرض .

(٥) ص ٢١ من طبعة منديل .

به قرابة ويجعله المقابل ، ووظيفته أن يقرأ متن الدرس الجديد إلى نهايته ، وهذا المجلس الذى يقرأ فيه المتن يقال له مجلس التفتيحة [(١)] وبعد قراءة المقابل المتن يقرؤه الشيخ بعده ، ويقرر شرح المعنى بعبارته حتى يسهل على الطلبة فهم الشرح المكتوب ، ثم يقرأ الشيخ بعد ذلك الشرح المكتوب الذى على المتن ، وتحصل مناقشات من الطلبة أحيانًا فى الأشياء الصعبة ، فيتركون الدرس ، ويتوصلون لفهم المعنى بضرب الأمثلة المختلفة القريبة من أذهانهم وهكذا حتى ينتهى الدرس[(٢)] وكانت العادة أيضا أن يبدأ الشيخ مجلسه بمراجعة درس الأمس مع تلاميذه كما كانت الحالة مع عبدالرحمن بن أسيد من مراجعته درس خليل فى أول الصباح [(٣)] .

وإذًا فقد كانت طريقة الدرس إلقائية ، وكان اعتماد الشيخ فى مادته أولا على المتن الذى فى الكتاب يأخذه كما هو ليس له إلا الشرح الذى يعتمد فيه غالبًا على ما ألفه غيره [(٤)] من الشراح وإن كان بعض الشيوخ يؤلف بنفسه الشرح الذى يراه[(٥)] مناسبًا ، ويظهر أن الطلبة كانوا ينسخون متونهم بأنفسهم ، فقد كانت بأيديهم متون مكتوبة[(٦)] .

وإذا كان هذا كما ذكرنا عصر تقليد ، ولم يكن فى العلوم الإسلامية تجديد أو مجددون سهل علينا أن ندرك أن الطلاب وشيخهم كانوا مقيدين فى تفكيرهم بنص الكتاب ، فلم يكن لهم أن يخرجوا عليه ناقدين أو مجدين [(٧)] بل كانوا يلتمسون دائمًا فتوى لكل ما يجد من شئون الدين

---

(١) ١-ص١٢٣ من الطبقات طبعة منديل . وفى ص ١٩ من الكتاب نفسه أن أبا الحسن بن صالح العودى كان يقرأ مجلس التفتيحة للفقيه بلال بن محمد الأزرق بن الزين فى مسجده بالقوز . وفى ص١٢٥ أن عبدالرحمن بن محمد بن مدنى كان يقرأ مجلس التفتيحة للفقيه محمد بن إبراهيم .

(٢) راجع ملحق رقم ٥ رواية الشيخ عمر الأزرق ص ٤٣ .

(٣) ص ١٢٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) راجع الكتب التى كانت شائعة الاستعمال بالسودان فى الباب التاسع ، الفصل الثالث ، من هذه الرسالة . ومنها يتبين أن معظمها كان مؤلفا فى غير السودان .

(٥) يكاد يكون كل ما ألف فى السودان من كتب شروحا أو حواشى لا متونا . وقد كانت هذه السنة شائعة فى عصر يتميز بأنه عصر التقليد العلمى فى العالم الإسلامى .

(٦) ص ١٥١ من الطبقات طبعة منديل . وفيها أن محمد بن عبد الله الطريفى لما أراد أن يقرأ على الفقيه عبد العاطى أعطاه متن خليل ووعده أن يلحق به فى بلده .

(٧) يقول سنوك فى ص ١٦٢ جـ٢ من الترجمة الإنجليزية لكتابه مكة «إن تدهور الثقافة الإسلامية فى القرون الأخيرة قد صحبه إهمال العلوم المدنية ، بينما نجد رجال علوم الدين لم يطمحوا فى أكثر من الاحتفاظ بما ألفه من سبقهم من العلماء فى العلوم الدينية» .

والمعاملة فيما ورد من نص ، وطبيعى لم يكن للطلبة مجال يسمح بالمناقشة العقلية ، والمحادثة المنطقة ، والمساءلة ، والنقد إلا فى حدود المنصوص ، وبقدر ما يحتاجون للفهم ، فليس غريبًا إذا ألا يصل إلينا شىء من حاجة الطالب لشيخه أو اعتراض الطالب على حكم لايناسب العصر ، والغالب أن هم الطالب كان موجهًا لدراسة الكتاب وفهمه على الشيخ أو حفظه ، ولاشىء غير ذلك ، نعم وصلت إلينا أخبار بعض المواقف التى اختلف فيها الطالب مع أستاذه ، فمن ذلك ما حدث بين حمد بن محمد المشيخى وبين أستاذه أرباب الخشن المعروف [١] أرباب العقائد ، فقد اعترض التلميذ على شيخه عند ما رأى أن عمل الشيخ لايطابق قوله الذى ورد فى مختصر خليل ، ذلك أن الشيخ كان يصلى الجنازة على من مات من تاركى الصلاة فاعترض عليه التلميذ قائلاً : ، ياسيدى هذا العلم الذى نقرؤه إما مورون نحن بامتثاله ، فقال الشيخ : نعم ، فقال التلميذ : ألم يقل خليل (وكره صلاة فاضل على بدعى أو مظهر كبيرة) ، قال نعم ، قال : وألم يقل فى تارك الصلاة (وصلى عليه غير فاضل) ؟ قال : نعم قال : فلم تصلى على تاركى الصلاة؟ فلم يجر الشيخ جوابًا ، واقتنع بملاحظة تلميذه ، وامتنع عن صلاة الجنازة على العصاة ؛ ولكنه رجع إليها بعد مدة ؛ فتركه تلميذه وأقام فى جزيرة توتى ، فهذا نوع من المجادلة العلمية ، يفصح عما كان عليه بعض الطلبة من فهم للعلم وتطبيقه ؛ ولكن هذا لا يعنى أن كل الطلبة كانوا يفهمون العلم بهذه الصورة وكانوا يجرؤون على مناقشة شيوخهم .

والخلاصة هى أن الطلبة كانوا فى الغالب يقتنعون بقراءة كتاب العلم مرة أو أكثر ، ثم إذا أذن لهم شيخهم بالتدريس قاموا بدورهم بتدريس العلم ، وإلا اكتفوا بتحصيل العلم على سبيل[٢] التبرك ؛ فمن أذن لهم بالتدريس المسلمى ولد أبو ونيسه الذى تفقه على عبد الرحمن بن جابر ؛ وأبو بكر ولد نوير تلميذ الشيخ الزين الذى أخذ عليه ختمة واحدة فى مختصر[٣] خليل ، وليس لدينا فيما وصلنا من الخبر المكتوب أو الشفهى ما يفيد أن التلاميذ كانوا أوسع أفقا ـ أثناء تلقينهم العلم ـ من حدود الكتاب المدروس .

---

(١) ص ٦٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) يقول هيللسون فى S. N. R. Vol. VI. ص ٢٠١ :

For many attendance at a reading of Khalil or the Risala was more in the nature of a devotional exercise than a serious attempt to study.

(٣) ص ٢٠ من الطبقات طبعة منديل . ومن هذا نفهم أن الشيخ . قد ينصب نفسه للتدريس ولو لم يدرس الكتاب إلا مرة واحدة .

ومما سبق شرحه من أساليب التعليم فى المراحل الثلاثة ؛ مرحلة التهجى ، ومرحلة القرآن ، ومرحلة العلم ؛ نستطيع أن نستخلص المظاهر الآتية :

١ ـ إهمال التربية الجسمية ، اللهم إلا ما يحتاج إليه المتعلم من الغذاء والراحة ، وطغيان التربية العقلية على كل شىء . فكان اليوم المدرسى فى السودان أطول يوم ـ على مانعلم ـ فى جميع البلاد الإسلامية (١) وكان مقصورًا على التربية العقلية .

٢ ـ كانت التربية «الخلقية» دينية محضة أساسها تقليد الشيخ فى سلوكه ، وتفهم مافى القرآن والآثار النبوية والتقاليد الاسلامية . وكانت الروح الصوفية هى الغالبة على حياة الخلوة كما كانت طاعة الشيخ وخدمته جزءاً من نظام الخلوة التهذيبى .

٣ ـ كان تعليم التهجى بالطريقة الحرفية . وهى طريقة تقليدية قديمة . ومازالت متبعة حتى الآن فى كثير من الجهات التى لم تتخذ الطرق التربوية (٢) الحديثة . وكان المدرس يستخدم الرمل فى الغالب لتمرين التلاميذ على التهجى مع استعمال اللوح أو قبله .

٤ ـ أن القراءة والكتابة كانتا تعلمان عرضا أثناء حفظ القرآن من اللوح وكان نصيبهما فى منهج التعليم قليل .

٥ ـ أن طريقة الحفظ كانت باستظهار اللوح وتكراره حتى يحفظ ثم يترك إلى درس جديد . وهكذا إلى أن يختم الحوار كل القرآن (٣) . وبعد ذلك يعود لتجديد الحفظ وتثبيت كل القرآن لوحًا لوحًا . وقد يضطر الحوار للعودة مرة ثانية وثالثة حتى يتم الحفظ نهائيًا .

---

(١) يقول هيللسون فى ص ٢٠٨ من S. N. R. Vol. VI.

Reterence may be made to the severe discipline of Khalwa life, which not on'y required disciples to render every kind of menial service to their shaykh but imposed upon them certain habits and long hours of study.

(٢) ونحن لا نبالغ إذا قلنا إنها مازالت الطريقة الشائعة فى المدارس المصرية والأوروبية (انظر ص ١١٤ من كتاب . Principles and Methods of Teaching. by Wolton

(٣) فى هذه الطريقة عيبان : العيب الأول محاولة حفظ اللوح فى اليوم الواحد بتكراره حتى يحفظ . وقد أثبتت التجربة الحديثة للتربية أن توزيع الحفظ على عدة أيام خير من محاولته فى يوم واحد (ص ٩٧-٩٨ Teaching its Nature and Varieties by B. Dumbille,) ، والعيب الثانى هو ترك المحفوظ مدة طويلة وطريقة الحفظ السديدة تقضى بأن المحفوظ يجب ألا يترك مدة طويلة ، بل يواصل التعليم التكرار حتى يثبت الحفظ .

٦ ـ لم يعن الحفاظ ولا الفقهاء بفهم القرآن ، وإنما كانت عنايتهم موجهة إلى القراءة الصحيحة والتجويد .

٧ ـ غلبت الطريقة الفردية فى حفظ القرآن ، فكل تلميذ كان يحفظ بحسب قوته الخاصة وكان الفقيه أو العريف يوجه عنايته لكل تلميذ بحسب حاجته .

٨ ـ ساد التعليم فى الخلوة نظام العرفاء (Moritorial system) هذا النظام الذى لم يعرف فى أوروبا إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر . وكان كشفه ابتكارًا رائعًا فى طرق التدريس ، إذ به أمكن تعليم مئات من التلاميذ فى المدرسة الواحدة ، وبمدرس واحد . هذا إلى مزاياه الاقتصادية . وإذًا فقد كان هذا النظام متبعًا فى المدارس الإسلامية قبل أن يعرف فى الغرب[1] بقرون طويلة .

وكان نظام العرفاء موفقًا لأنه نظام اقتصادى ، ولأن فيه إعداد العريف لتحمل المسئولية وتنشئته على الإدارة والإشراف ، ولأنه خفف عبء العمل عن الفقيه أو الشيخ . فتفرغ لعمل تعليمى آخر ، أو للتعبد والتصوف . وبهذا النظام أمكن أيضًا مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ إذ كان الفقيه يكل بكل مجموعة متناسبة القوى عريفًا .

٩ ـ اعتماد المدرس على طريقة الإلقاء هذه الطريقة التلقينية التى كانت متبعة إلى عصرنا الحاضر والتى لاتبعث التلميذ على النشاط ، إذ لا مجال معها للبحث والتنقيب والكشف وجمع المعارف والاستنباط ، فكان المدرس هو الذى يعد مادة الدرس ، وهو الذى يلقيها والتلميذ يتقبل من غير مجهود إيجابى كبير ، اللهم إلا فى بعض الحالات كما فى قراءة «المقابل» مجلس التفتيحة . ولا يخفى ما لهذه الطريقة من أثر فى تعطيل روح البحث ، والنقد ،

---

(١) ورد فى دائرة المعارف للتربية ج٤ لناشرها بول منرو سنة ١٩١٤ تحت عنوان (Monitorial system) ما يأتى :
فى إحدى قصص ألف ليلة وليلة نجد فقيها خبيثًا كان أميا ، فافتتح مدرسة . ولما لم يكن فى استطاعته تعليم الصبيان القراءة والكتابة أخفى جهله بجعل من يعرفون يعلمون من لا يعرفون ، أو من هم أقل منهم . وقد عرفت طريقته وانتشرت منه ذلك الحين . وقد رأى رحالة برتغالى هذه الطريقة مستعملة فى الهند سنة ١٦٢٣ . وظهرت وانتشرت فى إنجلترا . فى عهد لانكستر وبل . وادعى كل منهما أنه ابتكرها . وقد كان لرخصها أثر فى أن صار من السهل تأسيس عدد كبير من المدارس فى إنجلترا . ومنذ ظهور هذه الطريقة بإنجلترا انتقلت إلى فرنسا والروسيا والولايات المتحدة والنرويج والسويد والدنمركة . أما الأمم التى كان نظام التعليم فيها راقيا كألمانيا وهولندا فلم تستخدم هذه الطريقة .

والتفكير ، ولاشك أن هذه الطريقة أثر من آثار القرون الوسطى ، اضطر إليها المدرسون ، لعدم توافر الكتب المدرسية والمعاجم ودوائر المعارف وغيرها لديهم . وربما تعذر علينا أن نتصور صعوبات التدريس قبل انتشار الطباعة ، ووجود وسائل التعليم الحديثة ، مثل الفهارس والخرائط ووسائل الإيضاح (١) .

١٠ ـ الاعتماد على حفظ دروس العلم والمتون . وعندى أن هذه العادة إنما نشأت عند العرب من قبل الإسلام ، حين كانت حوافظهم سجل أنسابهم وأشعارهم وأخبارهم . وكان الرواة(٢) والنسابون مرجع الخاصة والعامة يحتكم إليهم فى تحقيق التاريخ والحوادث . ولما نزل القرآن كان الصحابة يحفظونه ، إلى جانب كتابته فى الرقاع ، وكانت صدورهم هى السجل المأمون . لذلك لما كثر القتل فى الصحابة ، فى حروب الردّة ، أشار عمر على أبى بكر بكتابة القرآن . وكذلك الحال مع الحديث فإنه لم يدوّن فى عهد الرسول ، بل كان يرويه الصحابة من ذاكرتهم . وكثر الحفاظ بعدهم حتى نشأ علم خاص هو علم رواية الحديث . ولم يدون(٣) الحديث إلا فى عهد عمر بن عبدالعزيز . وهكذا الأمر مع كثير من التراث العربى . المنثور والمنظوم الذى حفظه الرواة ، ولم يسجل منه إلا قليلا ، لقلة الورق وعدم انتشار التعليم . من هذا يظهر لنا كيف أن عادة حفظ(٤) المتون ظلت مألوفة إلى عهد قريب ، حتى بعد أن كثر الورق وانتشرت الطباعة .

---

(١) ص ٨٨ التربية عند العرب لخليل طوطح .

(٢) هكذا كانت الحال مع الإلياذة والأوديسا من الأشعار الإغريقية القديمة التى ظلت عدة قرون تتناقلها الأجيال بطريق اللسان من غير أن تسجل .

(٣) وبالرغم من تدوينه ظل العلماء يحفظون الحديث ويبالغون فى الحفظ فمن هؤلاء جلال الدين السيوطى وعز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الأثير مؤلف كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة الذى ذكر فيه سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة وشهاب الدين أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى المشهور بابن حجر .

(٤) كان من إسراف المتعلمين والعلماء فى الحفظ أن أهملوا ناحية الفهم . لذلك عاب عليهم بعض النقاد هذه الطريقة ومن ذلك قول حاجى خليفة (توفى سنة ١٠٦٧هـ) فى كشف الظنون (ص١٠٦ ج١ طبعة ليدن) : «أعلم أن من كانت عنايته بالحفظ أكثر من عنايته بتحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرف فى العلم . ولذلك ترى من حصل العلم لا يحصل شيئًا من الفن . وتجد ملكته قاصرة فى علمه إن فاوض أو ناظر . ومن ظن أنه المقصود من الملكة العلمية فقد أخطأ . وإنما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط ، وسرعة الانتقال من الدال إلى المدلولات ، ومن الملازم إلى الملزوم ، وبالعكس . فإن انضم إليها ملكة الاستحضار نعم المطلوب . وهذا لا يتم بمجرد الحفظ .

١١ ـ كانت وحدة المنهج عندهم الكتاب أو المادة دون الزمن ، فقد يستغرق الكتاب الواحد سنوات ، وقد يتم درسه فى سنة . ولهذه الطريقة مزيتها فإنها لاتلزم المتعلم بدرس كتاب فى مدة محدودة قد لا تساعده مواهبه على درسه فيها وإنما تترك له حرية الزمن بحيث ينتهى من درس الكتاب بحسب قوته وظروفه .

١٢ ـ كان المتعلم يتتلمذ على الشيخ فى كتاب واحد أو مادة ولا يجمع بين مادتين فى وقت واحد . فإذا انتهى من الكتاب انتقل عادة إلى شيخ آخر يتلقى عليه كتابًا آخر فى نفس المادة ، أو فى مادة أخرى . ولعل هذه الطريقة هى التى نصح بها ابن خلدون (١) حين اقترح ألا يجمع المتعلم أثناء تعلمه بين علمين معًا ؛ لأنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما فى ذلك من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ، فيستغلقان معًا . أما إذا تفرغ الفكر لدرس علم واحد فربما كان ذلك أجدر بتحصيله . والرأى أن هذا يخالف طرق التربية الحديثة التى ترمى إلى التنويع فى الدروس حتى يجدد نشاط المتعلم ويزيد إقباله على العلم ، وينمو تحصيله بنمو رغبته . أما الانصراف إلى علم واحد فمدعاة للسأم والتعب الفكرى .

١٣ ـ عدم تشجيع روح النقد والبحث . وهذا نتيجة طبيعة لروح العصر التى كانت سائدة حينذاك ؛ وتحصيل العلم بطريق الحفظ .

١٤ ـ التوسع فى العلوم المقصودة لذاتها ، لا فى العلوم التى تقصد كوسائل فالعلوم المقصودة لذاتها كالفقه والفرائض والتصوف ، وأما العلوم التى تعتبر وسائل فكالنحو وعلوم اللغة والحساب(٢) .

١٥ ـ استخدام العقاب بالعصا والسوط لحث المتعلم على التحصيل ؛ فمن ذلك أن عبدالرحمن بن أسيد كان يمسك بالسوط ويمر على الفقراء (الطلبة) فيوقظهم من النوم ليبدءوا

---

(١) ص ٣٩٤ من المقدمة .

(٢) قال ابن خلدون فى مقدمته ص ٣٩٦ «إن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين ؛ علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام . . . وعلوم آلية ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب . فأما العلوم التى هى مقاصد فلا حرج فى توسعة الكلام فيها ، وأما العلوم التى هى آلة لغيرها فلا ينبغى أن ينظر فيها إلا من حيث هى آلة لذلك الغير» .

الدرس[1] وكذلك يحدثنا محمد بن الشيخ عبدالله الطريفى أنه كان يقرأ عند رجل غرباوى وكان يضربه ضربًا شديدًا فشكته والدته إلى الشيخ دفع الله فقال له : لا تضربه . فتركه وقتا ثم ضربه[2] ثانيًا ، وقد ورد فى ترجمة دفع الله بن محمد الكاهلى أنه لم يقهر فقيرًا من طلبة القرآن ولا ضربه كعادة الفقهاء[3] .

١٦ ـ الانصراف إلى تحصيل العلم طوال الوقت ، اللهم إلا ما كان من خدمة الشيخ فى ملء الركوة ، أو فلاحة الأرض أو جمع[4] الحطب . وهذا الانصراف إلى تحصيل العلم قد طغى على كل نشاط آخر حتى على أوقات الراحة .

الإجـــازة[5]

سبق أن أشرت إلى أن وحدة المنهج كانت فى السودان ـ كما فى غيره من البلاد الإسلامية حينذاك ـ هى دراسة الكتاب فى المادة الواحدة ، أو دراسة المادة الواحدة ، وربما اكتفى المتعلم بدراسة كتاب واحد وطلب من أستاذه أن يجيزه تدريس هذا الكتاب فيقبل الأستاذ متى اقتنع بأن التلميذ قد درس فى هذا الكتاب دراسة إتقان وفهم . وفى هذه الحال يكتب له الأستاذ إجازة تخول له تدريس[6] الكتاب أو المادة .

---

(١) ص ١٢٣ من الطبقات طبعة منديل . ولم يكن استعمال العصا أمرًا غير مألوف فى تاريخ التربية . فقد ورد فى تقرير كتبته سنة ١٨٤٧ لجنة مجلس التربية بإنجلترا «أن المدرس كان جاهلا بطرق التدريس ؛ فكان يعوض جهله هذا باستخدام العصا ، مما كره التلاميذ فى المدرسة . فلم يتعلموا شيئًا يساعدهم على أن يشعروا بأنهم يعيشون عيشة محترمة» (ص ١٧ من كتاب ستالوتزى) .

(٢) ص ١٥١ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) ص ٨٢ من كتاب الطبقات طبعة منديل .

(٤) يطلق على ذهاب التلاميذ لجمع الحطب «الفزعة» انظر ص ٦٢ من الطبقات طبعة منديل . وقد علمته لما كنت فى الخلوة ، (خلوة أم دبان) أن الجيران الكبار يذهبون صباح الاثنين والخميس والجمعة للأماكن القريبة من الحلة ، لقطع الحطب وإحضاره حتى يستعمل فى الليل لإيقاد النار . وأصل الفزع الإغاثة وكان الصبيان يذهبون للغابة ليحضروا الحطب ويغيثوا به أنفسهم من الظلام فى الليل . وكانت هذه العادة معروفة فى دارفور أيضا ، فإن محمد ابن عيسى التونسى يحدثنا فى رحلته ص ٢٥٦ أن كل صبى من صبيان القرآن كان يحضر الحطب يوميا فيوقدون النار ويحيطون بها ويستضيئون بضوئها . وعلى ذلك الضوء يحفظون ويكتبون .

(٥) اشتقاق هذه الكلمة من أجاز يجيز أى جعل عملا من الأعمال جائزًا بعد أن لم يكن كذلك ، بأن كان حرامًا أو مكروهًا .

(٦) كذلك كان هنالك نوع من الإجازة يجيز لحامله الفتوى (الخلاصة للمحبى ص ٣١ ج١) وفى طبقات الأطباء (ج١ ص٢٢٢) أن الطلبة كانوا يجتازون امتحانا قبل نيل إجازة ممارسة الطب والصيدلة .

ونظام الإجازة هذا قديم فى تاريخ التربية الإسلامية فإن القلقشندى يحدثنا فى صبح الأعشى[1] تحت عنوان «الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها» أن العادة قد جرت إذا تأهل بعض أهلم العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس ويكتب له بذلك . . . . وأن العادة قد جرت أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابًا فى الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويختبره فى مواضع ، فإن مضى فيها من غير تلعثم استدل على حفظه وكتب له مجيزًا .

ويمكننا تشبيه هذه الإجازات بالدبلومات التى تمنحها الآن المعاهد والجامعات للطلبة ، غير أن الدبلومات تمنح عادة بعد قضاء مدة من الزمن بنجاح . أما الإجازة فليست مقيدة بزمن مخصوص ، وإنما شرطها إجادة الكتاب أو الكتيب أو المادة وكما أن قيمة الدبلوم الآن تتوقف على شهرة الجامعة التى نال منها الطالب هذه الدبلوم ، كذلك كانت الحال مع الإجازة فإن قيمتها كانت تتوقف على الشهرة التى للشيخ الذى منحها . ولذلك كان الطلبة يسافرون إلى جهات بعيدة رجاء الحصول على إجازة من شيخ مشهور . وربما كتب الشيخ إجازته على الكتاب الذى يجيز لتلميذه[2] تدريسه .

وقد وصل إلينا كثير من النصوص الصريحة التى تشهد بأن عددًا كبيرًا من علماء السودان كانوا يحصلون على إجازة أو إذن ، قبل الشروع فى التدريس أو الفتوى فإن مؤلف الطبقات يحدثنا بأن عبدالرحمن بن بلال ، الذى عمرت حلقته عمرانًا عظيمًا ، كان مأذونًا له فى الفتوى والتدريس . وكذلك الحال مع على ولد ضياب القريشابى الذى عمرت حلقته وحضرها خلق كثير ، فقد كان «عالمًا علامة مأذونًا له فى التدريس كشيخه الفقيه أبى الحسن» [3] كذلك أذن الشيخ الزين بن صغيرون لأبى بكر ولد نوير بالتدريس بعد أن أخذ عليه ختمة واحدة فى

---

(١) لم أعثر عن تاريخ أول إجازة منحت .

(٢) يقول ابن خلكان فى ص ٤١٨ من الجزء الأول عند ترجمته أبا الحسن الصوفى أنه اشتغل عليه خلق كثير ، وانتفعوا به . ورأيت خطه على كثير من كتب الأدب قد قرنت عليه . وكتب لأربابها بالقراءة كما جرت به عادة المشايخ .

(٣) ص ١٢٥ من الطبقات طبعة منديل .

مختصر خليل . كما أذن عبدالرحمن بن جابر لتلميذه المسلمى ولد أبو ونيسه فى التدريس بعد أن تفقه عليه[1] .

ويجب أن نفهم هنا أن كلمة «إذن» كانت مرادفة فى السودان لكلمة «إجازة» فقد وصل إلينا صورة من «إذن» أعطاه عبدالرحمن بن جابر لأحد تلاميذه المسمى إبراهيم يس أم رابعة وها هو ذا نصه :

«الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين . أما بعد فإن الأخ الفقيه الصالح المتأدب المتواضع الشيخ إبراهيم بن أم رابعة استحق السيادة والإمامة عندى . فجعلته قطبًا فى مكانه ، ولسانًا فى عصره ، وترجمانًا فى أوانه . ومربيا للمريدين ، وقدموه للمسترشدين ، وملجأ للفقراء والمساكين مظهراً شمس المعارف بعد غروبها ، فأذنته فى كل ماحقق نقله ، وسمعه منى أن يغشيه ويعلمه الناس مخلصاً ، وقد أذنت له بإشهارها وإشهار ما فيها وتشييع ما أشرنا إليه ؛ ومن بلغه شىء من ذلك فليحذر كل الحذر من خراب الباطن . بتاريخ اثنين وثمانين وتسعماية من الهجرة النبوية وكتبه الفقير ابن جابر[2] الجهنى .

فهذه إجازة أو إذن من إمام شيوخ السودان عبدالرحمن بن جابر بن تلميذ الشيخ محمد البنوفرى المالكى المشهور ؛ وأحد الذين درسوا فى الأزهر ، ومنها يفهم أن نظام الإجازة كان معروفًا منذ ظهور العلم فى السودان ، لأن عبدالرحمن بن جابر كان من أوائل العلماء الذين زاولوا التدريس فى تلك البلاد .

على أنه يجب أن نقرر هنا ماقاله الدكتور هايورث دن[3] من أن بعض العلماء كان يتساهل فى منح الإجازة ، وأن بعض الإجازات لم تكن لها قيمة علمية كبيرة وإنما كانت تمنح لما بين الشيخ والتلميذ من صلة القرابة ؛ أو بدافع الوفاء ، مثل هذا حصل فى السودان ؛ فقد أجاز الشيخ محمد بن الطريفى ابنه يوسف أن يدرس للناس وأن يسلكهم طريق القوم ، ولم يكن يوسف قد قرأ على والده أكثر من نصف مختصر خليل ، ولم يكن يوسف قد أجاد فهم الكتاب[4] .

---

(١) ص ٢٠ من الطبقات المذكورة .

(٢) ص ٣٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) ص ٦٨ من كتابه Introduction to the History of Education in Modern Egypt,

(٤) ص ١٧٢ من الطبقات طبعة منديل ، ويروى مؤلف الطبقات أنه سمع يوسف يقول : «شرعت فى تدريس خليل فلما جئت عند مسح الجورب والخف قلت إيش الخف والجورب؟ ففتح الله على ببركة أبوى» .

ومن علماء السودان الذين درسوا فى الأزهر ـ كما ذكرنا ـ وأجازهم شيوخ الأزهر عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبو ملاح ؛ فقد تتلمذ على الشيخ على الأجهورى وقرأ عليه مختصر خليل ومنظومته فى التوحيد ، وأجازه فيها بخطه ، وها هى ذى صورة الإجازة بعد حمد الله والصلاة على نبيه .

وبعد فقد قرأ على الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبدالرحمن بن إبراهيم بن أبى ملاح الكبانى نسبا ، والبربرى بلدًا ، عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف ، وشرحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ؛ وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية ، فى نحو نصف الكتاب المذكور ، قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور ، وقد استخرت الله وأجزته بما ذكر وبجميع مايجوز لى روايته بشرطة سائلا منه ألا ينسانى من الدعاء ، بسعادة الدارين ، والدعاء بالرحمة لأمواتنا وأموات المسلمين ، جعله الله من العلماء العاملين ، ووفقه لما فيه الخير ، وما يحبه ويرضاه فى القول والعمل ، وجعله من عباده المخلصين ونفع بعلومه المسلمين ، تجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وكتب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف ، على بن محمد المدعو بزين[1] ابن عبد الرحمن الأجهورى المالكى أ هـ .

ومن المعروف أن الطالب قد يستجيز بعض الأشياخ عند تعذر اللقاء ، وبعد الديار[2] ، بطريق المكاتبة فيجيزه الشيخ أو يرفضه ، وقد حدث فى السودان أن حسن بن عبدالرحمن بن الشيخ صالح ولد بانفا العالم المشهور قد استجاز[3] كتابة ـ يصحبه الشيخ أحمد بن عيسى الأنصارى ـ الشيخ أحمد الدردير[4] ، فى قراءة كتب الحديث ومصطلحها ، كما استجاز الشيخ محمد[5] الأمير ، والشيخ الشريف المرتضى[6] فأجازوهما .

---

(١) هكذا فى الأصل المنقول منه وصحتها على بن محمد زين الدين بن عبد الرحمن الأجهورى .

(٢) ص ١٧١ ج٣ من أزهار الرياض فى أخبار عياض لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى تنقيح مصطفى السقا وزميليه . كذلك ص ٩٢ ، ٩٣ من كتاب إبراهيم سلامة .

(٣) ص ٧١ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) أحمد بن محمد بن أحمد بن أبى حامد العدوى المالكى المعروف بالدردير ، المولود ببنى عدى سنة ١١٢٧ والمتوفى سنة ١٢٠١هـ بالقاهرة . ومن مؤلفاته رسالة تحفة الإخوان فى علم البيان . وحاشية على شرح الهدهدى على السنوسية .

(٥) هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر السنباوى الأزهرى . ولد سنة ١١٥٤ ومات سنة ١٢٣٢ (١٧٤٢-١٨١٧م) ولد فى سنبو . وتعلم بالأزهر . وأصله من المغرب وقام بالتدريس فى الأزهر . ومن مؤلفاته الإكليل فى شرح مختصر خليل ، وحاشية فى شرح الزرقانى على العزبة وحاشية على شرح الشيخ خالد على الأزهرية .

(٦) لم أعثر على ترجمة لهذا الشيخ .

ويذكر الشيخ عمر الأزرق أن جده الأكبر حمد بن محمد المجذوب الذى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر كانت بينه وبين الشيخ على الصعيدى العدوى صلة روحية ، وأن الأول كتب إلى الثانى يستجيزه فى قراءة ما ورد من الأذكار وكذا الأوراد فى الطريقة الشاذلية ، فرد عليه الشيخ على العدوى بالإجازة[١] .

وسأتناول فى فصل (الصوفية بالسودان) كيف كان شيوخ الطرق يجيزون مريديهم بالكتابة .

على أن من المناسب أن أذكر هنا حرص علماء السودان الذين كانوا يتعلمون فى الأزهر على أن يستجيزوا شيوخهم ؛ لما فى كثرة الإجازات من رفعة الشأن والاعتراف بالعلم ، ولذلك كانوا يستكثرون منها ، وفى الملحق رقم ٥ عدد من الإجازات التى نالها شيخ واحد[٢] .

هذا ونستطيع أن نقول إن الحصول على إجازة لم يكن شرطًا أساسيًا لمزاولة مهنة التدريس فكثير ممن نصبوا أنفسهم للتدريس فى الخلوات والمساجد لم يكونوا مأذونين بذلك[٣] .

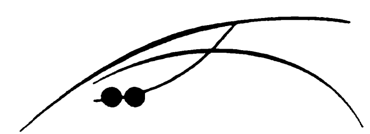
■■■

(١) أنظر الملحق رقم ٥ تقرير الشيخ عمر الأزرق من المجلد الثالث .

(٢) وقد رأيت بنفسى صورة الخطاب ومنه نقلت النسخة الواردة فى التقرير .

(٣) كالشيخ أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى وولده الشيخ محمد . وكالشيخ عبد الرحمن بن أحمد البدرى .

المعلمون
ألقابهم.. ووظائفهم ومكانتهم الاجتماعية



لانريد أن نخوض طويلاً فى المعلم وألقابه ووظائفه ومكانته الاجتماعية فى الإسلام . فلقد وصف الله تعالى نفسه بصفة المعلم حين قال ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم معلمًا ، وهاديًا ، ومبشرًا ، ونذيرًا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، وكانت طائفة المعلمين فى صدر الإسلام من أصحاب الرسول ومن يعتمد عليهم . وقد بعث بعض كبار الصحابة مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وماجاء به من شرائع . واستمرت الحال كذلك مع الصحابة والتابعين . وكان المعلمون منهم موضع إجلال وتقدير كالأئمة الأربعة ، والضحاك بن مزاحم ، وعامر الشعبى معلمى أولاد عبدالملك بن مروان وعلى بن حمزة الكسائى معلم أولاد هارون الرشيد . غير أن المعلمين لما اتخذوا التعليم[1] مهنة يتكسبون بها ، وصاروا طلاب مال وعيش ومنفعة ، نقص مركزهم الاجتماعى ، وصاروا موضع تندر العامة والخاصة . فلا عجب إذًا أن نجد الجاحظ يأتى بباب فى ذكر المعلمين يضمنه ماوصفهم به الناس من الحمق[2] . ولقد تعرضت كتب التربية عند العرب لمقام المعلمين الاجتماعى وما أصابهم من تقدير أحيانًا وتقليل أحيانًا أخرى ، ولأنواع المعلمين ووظائفهم ودرجاتهم الاجتماعية بحسب أنواعهم[3] .

وربما نستطيع أن نميز - من كتاب الطبقات - نوعين من العلماء : أحدهما يسمى الفقيه والثانى يسمى الشيخ . والغالب أن ابن ضيف الله يطلق لقب فقيه على حافظ القرآن ومقرئه ،

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص٢٢ .

(٢) ص ١٧٣ من الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين طبعة ١٩٢٦ بتحقيق حسن السندوبى .

(٣) راجع الفصل الثانى من كتاب التربية عند العرب لخليل طوطح ، وكذلك صفحة ٥٢٩ من كتاب التربية فى العصور الوسطى لشرف الدين خطاب تحت عنوان المعلمون .

ولقب الشيخ على مدرس العلم فقط ، أو مدرس العلم والقرآن ، وإن كان هذا الإطلاق غير مطرد ، فتراه يقول مثلا فى ترجمة عيسى[1] ولد كنو إنه قرأ القرآن على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب والشيخ محمد هذا كان مدرس قرآن وعلم . ولكنه يقول فى الوقت نفسه عن إبراهيم ولد برى أنه أنه تعلم علم الكلام على الفقيه حسين أبو شعر[2] . وفى أرباب ابن على إنه أخذ علم الفقه من الشيخ الزين ولد صغيرون وعلم العقائد من الفقيه على[3] ولد برى وربما يفهم من هذا الاقتباس أن لقب الفقيه كان يطلق على مدرس التوحيد بجانب تدريسه القرآن ، ولكن الواقع أن مؤلف الطبقات لا يستعمل هذا اللقب بالدقة التى نتصورها فهو يقول عن حمد[4] النحلان إنه قرأ خليلا على الفقيه محمد ولد التنقار فى مويس ، ويلاحظ هيللسون على ابن ضيف الله أنه يستعمل لقب فقيه ، من غير تمييز ، لكل من رجل العلم والولى مع أنهما فى الأصل شخصان مختلفان ، فالفقيه هو العالم الذى يستخدم عقله وعلم الظاهر فى فهم المسائل الدينية ، بينما الولى أو الفقير هو من يعتمد على الباطن فى الوصول إلى المعارف[5] .

وعلى كل حال فلقب فيه[6] ولقب شيخ هما المستعملان دون غيرهما فى كتاب الطبقات إشارة إلى رجال العلم والقرآن ، غير أن هناك نوعًا ثالثًا هم الأولياء . وهؤلاء كان يشير إليهم ابن ضيف الله بلقب الولى عند ذكر الواحد منهم ، وإن كان قد يسبق اسم الولى ذكر لقب شيخ أو الفقيه إن كان من العلماء[7] .

---

(١) ص ١٢٨ من الطبقات طبعة إبراهيم صديق .

(٢) ص ٣٠ طبقات طبعة صديق .

(٣) ص ٣١ طبقات طبعة صديق .

(٤) ص ٦٠ طبقات طبعة صديق .

(٥) ص ٦٦٤ من مجلة الجمعية الآسيوية الملكية أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

(٦) يلاحظ مكميكل على هذين اللفظين ما يأتى :

It must be noticed that the word "Sheikh" is with very few exceptions (e.g Sheikh) Agib) used throughout in the technical sense as denoting not temporal power but the spiritual authority of a superior of religious order. (P. 273, Vol. II History of the Arabs in the Sudan.

(٧) مثل الشيخ خوجلى والشيخ بانقا الضرير والفقيه محمد بن ضيف الله .

ويروى لنا بركهارت من أن لقب فقير كان يطلق أيضًا فى السودان على من كان يستطيع القراءة والكتابة ، على حين أنه كان يطلق فى صعيد مصر على المتعلمين الذين يمكنهم قراءة القرآن ، وكتابة التعاويذ والأحجبة(١) وهو يقول فى مكان آخر :

I have more than once mentioned the Fakirs or rdigious men They are likewise known by the appelation of. i,e a man learned in the law(2)

غير أن لفظة فقير لم تطلق فى السودان إلا على الولى أو طالب العلم أو المريد الصوفى . ولم يقصد بها قط مدلول لفظ الفقيه ، إلا تساهلا .

هذا ما كان من أمر المتعلمين وألقابهم ، أما وظيفتهم فقد كان بعضهم - إلى جانب التدريس - يقوم بالفتوى وذلك كالشيخ إبراهيم بن نصير عالم سنار ومفتيها ومدرسها(٣) ، وكمحمد بن عبدالله بن حمد المشهور بالعالم الذى كانت فتاويه حجة فى أرجاء البلاد(٤) ، ومثل حمدتو بن مدنى فقيه دار دنقلة بأسرها ومدرسها ومفتيها(٥) ، والشيخ مالك بن عبدالرحمن ولد حمدتو الذى كان عالم الأبواب على الإطلاق ومدرسها ، ومفتيها ، وقاضيها ؛ والذى كان صلب الأحكام لاتأخذه فى الله لومة لائم ، لايراشى ولايمارى ولايدارى(٦) ومن المعلمين من جمع بين التدريس والقضاء كالشيخ عبدالله العركى الذى كان يدرس فى غابة الهلالية والذى ولاه الشيخ عجيب الكبير القضاء فباشره بعفة ونزاهة(٧) . وكالشيخ عبدالرحمن بن مشيخ النويرى الذى كان يقوم بالتدريس والقضاء ، فقد كان أحد الأربعة الذين ولاهم الشيخ عجيب القضاء فضرب فيهم بسهم وافر ، واشتهر بمقدرته على فصل(٨) الخصومات ، وكالشيخ على ولد عشيب الذى ولى

---

(١) ص ٤٤ من رحلاته .

(٢) ص ٢٢٥-٢٢٦ من رحلاته .

(٣) ص ٢٥ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ١٦٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٥) ص ١٦٠ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) ص ١٥٩ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) ص ١٠٥ من الطبقات طبعة منديل .

(٨) ص ١٠٧ من الطبقات طبعة منديل . ومما يروى من أحكامه أن امرأة تبرعت بثلث مالها قاصدة بذلك ضرر الزوج ، فاحتكم الزوج إلى الشيخ عبد الرحمن النويرى فحكم برد الثلث وبطلان التبرع . واتبع فى حكمه هذا قول مالك واختاره ابن حبيب . وترك ظاهر كلام خليل وهو قول ابن القاسم . ولم يرتح الفقهاء بالسودان لحكمه فكتبوا للأجهورى فى ذلك فأجابهم بصحة الحكم مراعاة للعرف والمصلحة .

القضاء وعدل فيه ، وحكم بالمتفق عليه والقوى من الخلاف[1] والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وابنه حلالى فكلاهما تولى القضاء . والشيخ عبدالرحمن بن أسيد الذى كان يشتغل طوال يومه بالتدريس ، فإذا كان يوم بطالته أمضاه فى الافتاء والحكم وكتابة الحجب[2] .

كذلك كان من عمل الفقيه قراءة القرآن على روح الميت ، كما يحدثنا بذلك بركهارت فهو يقول : إنه كان ذات يوم بالدامر ، فقابله فقيه ، وقال له : أتقرأ القرآن؟ ، فلما أجاب بنعم أخذه إلى منزل شخص حديث الوفاة ، وهناك وجد جماعة من الفقهاء يتلون القرآن بصوت منخفض فاشترك معهم . وبعد ذلك جاء فقيه آخر فأخذ يجوّد القرآن بصوت مرتفع[3] .

ولم يكن جميع الفقهاء منصرفين إلى التعليم والتعبد ، زاهدين فى الدنيا . بل كان منهم من يزاول مهنة التجارة فى السودان ، أو بين السودان وغيره من البلاد المجاورة[4] .

ولاشك كان الفقهاء والشيوخ من المدرسين يؤمون الناس فى الصلوات الخمس بل لابد كان منهم الخطباء فى صلاة الجمعة ، كالشيخ إبراهيم العودى خطيب سنار ومدرسها على مذهب[5] الشافعية ، وكعبد اللطيف بن الخطيب عمار[6] .

ولما كانت الروح الصوفية شائعة فى ذلك العصر كان أغلب الفقهاء وشيوخ المدرسين أهل تصوف ، وهذه حقيقة يلمسها كل من يقرأ الطبقات . ولا بدع فى هذا فقد كانت الحال كذلك فى مصر[7] .

ويحدثنا مؤلف «كتاب القرية» بأن سيدنا الفقى[8] كان المتنور الوحيد فى القرية المصرية ، يجيد حفظ القرآن ويميز الحلال من الحرام . ويعرف سر تفسير الأحلام . وربما عرف شيئًا من

---

(١) ص ١٠٧ طبعة منديل .

(٢) ص ١٢٤ طبعة منديل . وهذه وظيفة أخرى كان يشتغل بها الفقهاء والشيوخ وقد تحدث عنها بركهارت (فى رحلاته ص ٢٢٧) فقال : وأحيانا يكتب الفقهاء الحجاب على قطعة من الورق إذا ابتلعها العاشق المكلوم فإن محبوبه يخضع لرغباته . وكذلك يذكر براون فى رحلاته بدارفور (صفحة ٦) كيف كان الناس يستشفون بالقرآن على أيدى الفقهاء وها هى ذى صورة بعض الأحجبة والتعاويذ نقلاً عن رحلات بركهارت ص ٨ .

(٣) ص ٢٦٩ من الرحلات .

(٤) ص ٢٦٨ رحلات بركهارت ، وكذلك ص ٤٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٥) ص ٢٥ من طبعة منديل .

(٦) ص ١٣٢ طبعة منديل .

(٧) ص ٥- ٦ من كتاب مقدمة تاريخ التربية بمصر الحديثة لها يورث دن .

(٨) ص ٨١ . وشبيه بهذا ما قاله جون يثريك عن فقيه الحصاحيصا الذى زاره فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

أحكام الطلاق والفتيا . وهو فى القرية مرشد عام لأهلها ، يكتب لهم التمائم والحجب ، ويحرر العقود والصكوك وقد يكون إمام المسجد وخطيب القرية وعالمها .

هذا وأما مكانتهم الاجتماعية فما كانت فى أى ظرف من الظروف محل تقليل أو زراية مهما كان نوع المعلم . فالفقهاء والشيوخ فى السودان كانوا دائمًا موضع احترام وتقدير من العامة والخاصة . ولعل السبب فى هذا أنهم لم يتخذوا مهنة التعليم مطلقا وسيلة لكسب الرزق ، بل كانوا على عكس ذلك ينفقون من أموالهم على الطلبة . وهناك سبب آخر جعل للمعلمين فى السودان مكانة جليلة ، ذلك هو ما اتصف به هؤلاء من الورع والصلاح ، والاخلاص فى العمل ومراقبة الله ، ونظرة الناس إليهم باعتبارهم مسلمين روحيين ورجال دين محترمين لا محترفين . لذلك كان الشيخ أو الفقيه موفور الكرامة يقصده الملوك وأهل الجاه ، يلتمسون عنده العلم والبركة ، وحل ما يعرض من مشكلات كماى يقصده العامة أيضًا .

ويروى لنا مؤلف الطبقات كثيراً من الحوادث التى تؤيد ما ذهبنا إليه من مكانة المعلمين الجليلة . فهو يحدثنا عن كيف أن أونسة[1] بن ناصر مالك سنار لما دخل عليه الفقيه المضوى فرق الديوان من أجله ، وقام وعانقه وعاتبه على عدم زيارته إياه[2] . ومن دلائل احترام الملوك لرأى العلماء ومشورتهم أن الشيخ مختار بن محمد جودة الله أشار على سلطان الفور ، حينما عزم على محاربة الفونج ، ألا يحاربهم فتشاءم السلطان من هذه المشورة وقتل الشيخ مختارًا[3] نفسه وكان الشيخ محمد بن ضيف مهابًا عند ملوك الفونج وأولاد عجيب . وعند الخاصة والعامة ، كما كان مقوبل الشفاعة [4] أما أبوه ضيف الله الذى جمع بين العلم والعمل والزهد والعبادة فقد كان رفيع الجاه ، ولم يقف على أبواب السلاطين لغرض دنيوى[5] وكان الشيخ خوجلى صاحب القبة المشهورة يهابه السلاطين حتى قيل إنهم إذا جلسوا بحضرته يكونون كالأطفال هيبة منه[6] .

---

(١) من سنة ١٠٨٨ إلى سنة ١٠٨٨ إلى سنة ١١٠٠هـ (١٦٧٨-١٦٨٩م) .
(٢) ص ٣١ من طبعة منديل .
(٣) ص ١٥٦ من طبعة منديل .
(٤) ص ١٦٧ من طبعة منديل .
(٥) ص ١٠٢ من طبعة منديل .
(٦) ص ٧٢ من طبعة منديل .

وقد ذكر مؤلف الطبقات أن الملك بادى ولد رباط لما احتاج إلى الشيخ دفع الله بن الشيخ محمد أبو إدريس ذهب إليه فى أبى حراز و تبرك به ورجع [1] فهذا دليل واضح على أن العلماء كانوا موضع تجلة وإكرام من الملوك ومن دونهم .

وكان الفقهاء والشيوخ ـ وهم العلماء ـ لا ترد لهم شفاعة . ولذلك كان يقصدهم الناس لقضاء الحاجات ، وفض المشكلات ، و التوسط لدى الملوك وذوى السلطة . كما كانوا يحتكمون إليهم فى الخصومات فيقضون فيها[2] .

والظاهر أن مركز الفقيه فى السودان كان كمركز الفقيه فى مصر لذلك العهد ، محوطًا بالاحترام والتقدير ، وما زلنا نرى آثار هذا الاحترام فى القرى المصرية .

وكان مركز الفقيه الاجتماعى فى ذلك الوقت أفضل منه الآن ، لأنه من حفظة القرآن . وعلى ذلك نجد الفقيه ذا مركز ممتاز فى المجتمع المصرى لسببين رئيسيين ، أولهما لأنه كان القائم على تعليم الصغار فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وثانيًا لأنه كان يقوم بعدد من الوظائف المختلفة لأفراد القرية أو المدينة مما جعله على صلة دائمة بهم[3] .

ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن شيوخ العلم فى السودان ـ وقد عرفنا مركزهم ومكانتهم الاجتماعية هناك ـ كانوا يشبهون فى نفوذهم العلماء بمصر . هذا النفوذ الذى كان لا يقف أمامه المماليك ولا الحكام[4] .

ومن المناسب هنا أن نذكر ما سجله كل من بركهارت والسيد محمد بن عمر التونسى عن مركز الفقيه الاجتماعى . يقول بركهارت .

ويلجأ الناس للفقيه فى جميع حالات السرقة . وهم يعلمون أنه يستطيع أن يأتى بالمعجزات لأنه لا حصر لعلمه . والغالب أن وظيفة الفقيه الكبير وراثية . ولذلك كان من الضرورى أن يكون خليفته ذكيًا حكيمًا ، وعالمًا بأحكام الدين الإسلامى ، حتى يمكنه أن يقوم بمهمته خير قيام ، وليس الفقيه الكبير بالشخص الوحيد فى الدامر الذى يمكنه أن يقوم بالسحر

---

(١) كان حكمه من ١٠٢٠-١٠٢٣هـ (١٦١٢-١٦١٥م) ص ٨٢ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٢٣ و١٢٤ من طبعة منديل .

(٣) ص ٥-٦ من كتاب Heyworth-Dunne

(٤) ص ٢-٢٤ من كتاب Heyworth-Dunne

والعجائب ، فهناك كثيرون غيره وإن لم يكونوا فى قوته . ولهم مع ذلك مكانة تتناسب مع ورعهم وعلمهم ولذا صارت الدامر ذات شهرة عظيمة(١) .

وهو يقول أيضاً : إن شئون الدامر تدار بحكمة عظيمة على يدى فقهائها ويشعر أهل القرى المجاورة باحترام كبير لفقهاء الدامر وشيوخها ، حتى إن البشار بين الغدارين ليخافونهم ويهلعون من إغضابهم ، ولا يجرؤون أن يؤذوا أحداً من سكان الدامر عندما يسافر فى جبالهم إلى سواكن . فهم يخافون أن يمنع العلماء عنهم المطر لتنفق دوابهم(٢) .

ومما سجله بركهارت فى رحلاته أنه سافر من الدامر إلى شندى يوم ١٥ أبريل سنة ١٨١٤ وكان فى قافلته فقيهان ليحرسا القافلة حتى حدود شندى . ذلك لأن الطريق كان مهدداً بالأخطار وباللصوص ، ولكن منظر فقهاء الدامر وهم مسافرون عزلاً فى طليعة القافلة كان كافيًا لأن يبعث فى قلوب الناس الهيبة والخشية ، حتى أنهم كانوا يفدون إلينا ليقبلوا يد(٣) الفقهاء ثم يعودوا . ولا تستطيع قافلة أن تمر فى هذه المنطقة بغير رجال الدين إلا إذا كانت مزودة بقوة مسلحة . وهكذا تقف القوافل القادمة من الجنوب عند حدود شندى الشمالية حتى يجىء فقيه من الدامر ليصطحبها(٤) .

ويذكر لنا (W.G. Browne) أنه كان للعلماء فى دارفور مكان مرموق وأن أحدهم المسمى الفقيه سراج ـ وهو ثانى اثنين من كبار الأئمة فى دارفور ـ كان مقربًا جداً من السلطان عبدالرحمن الرشيد (١٧٨٧ ـ ١٨٠١م) وأنه استطاع بدهائه ودسه ونفاقه أن يكون اليد المحركة للسلطان وأن يبعد عنه كل من يطمح فى منافسته(٥) (الفقيه) .

وهو يقول فى موضع آخر : ويلى الفقهاء فى المنزلة أولئك الذين يشغلون مناصب الحكومة فللفقيه أرقى مرتبة بعد رجال السلطة . وبعض هؤلاء ـ وهم قلائل ـ تعلموا فى القاهرة والاخرون

---

(١) ص ٢٦٦ من رحلات بركهارت .

(٢) ص ٢٦٨ من رحلات بركهارت .

(٣) يذكرنا هذا بما رواه الأستاذ محمد عبد الجواد فى مؤلفه «كتاب القرية» نقلاً عن المرحوم الشيخ محمد حسين من فقهاء إحدى ضياع الصعيد بالقرب من دير مواس . قال الفقيه : «بينما كنت متوجها إلى محطة دير مواس فى الطريق على الجسر ، وإذا شخص يقفز من الحقول فجأة ، حتى جفلت منه أتانى وانخلع لمفاجأته قلبى . وظننت أن هذا اللص لا محالة فاتك بى ، أو مجردى من ملابسى وحمارتى إذا أخذته الشفقة . ولكن سرعان ما سلم على رأسك بيدى يقبلها وإذا هو فلان من قطاع الطريق يحيينى» (ص ٨٥ من الكتاب المذكور) .

(٤) ص ٢٧١ من الرحلات المشار إليها .

(٥) ص ٢٤٠ من كتاب Travels in Africa, Egypt and Syria from the year 1792-1798

فى مدارس دارفور[1] . ومما ذكره محمد بن السيد عمر التونسى فى رحلته أن سلاطين دارفور كانوا لا يردون شفاعة العلماء . وروى حكاية ـ نقلا عند أحد تجار دارفور ـ أن هذا التاجر كان قد وشى به عند السلطان عبدالرحمن الرشيد فأمر السلطان بالقبض عليه . ووضع الأغلال فى عنقه ، وأن يضيق عليه فى الحبس فلم يتجاسر أحد على أن يتشفع له عند السلطان إلا السيد عمر التونسى . لما كان له من مكانة علمية ، ولما جبل عليه السلطان من حب العلم وإكرام العلماء . فعفا عن التاجر[2] . وقد رسم محمد بن عمر التونسى هذا فى رحلته رسمًا وضح فيه مكان حاشية السلطان منه إذا عقد المجلس للحكم ومنه يظهر أن السلطان كان يجلس وزيرًا على كل جانب من جانبيه ، ويلى الوزير العلماء فقد كانت منزلة العلماء إذًا بعد منزلة الوزراء[3] وكان السلطان تيراب يخص العلماء بجيد الطعام ويؤثرهم على الوزراء[4] .

وهكذا يظهر لنا كيف أن المعلمين ـ وهم العلماء فى ذلك الوقت ـ كانوا موضع احترام الملوك والسلاطين فى السودان . وأن مكانتهم كانت بعد مكانة الوزراء بل يقدمون عليهم[5] أحيانًا ، وهكذا نجد العلماء فى السودان ـ كما ذكرنا ـ موضع استشارة الملوك وأعوانهم ، كما كانوا الحراس القوامين على سلوك الملوك وأعمالهم . هذا إلى أنهم كانوا لسان العامة الأميين للمعربين عن رغباتهم ، والمدافعين عن حقوقهم وكان الملوك يهبون لهم الأراضى ويعفونهم من الضرائب إكرامًا لهم وتقديرًا .

■ ■ ■

(١) ص ٢٧٧ من الكتاب المذكور .

(٢) ص ٥٥-٥٦ من تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

(٣) أنظر هذا الرسم فى ص ١٥٣ من الكتاب المشار إليه .

(٤) ص ١٧٠ من الكتاب المذكور . وفيه يروى أن السلطان تيراب صنع وليمة . وحين حضر الطعام تتبعه لينظر أيه أحسن . ثم كشف عن الطعام الذى صنعته السلطانة الكبرى . فأعجبه فأمر به للعلماء فأبت عليه وقالت : أأنا عندك بهذه المنزلة؟ تعطى طعامى للمشايخ ، وطعام غيرى للوزراء! فقال : إنما أمرت به للمشايخ لحسنه ولتحصل لك بركتهم .

(٥) ذكر التونسى فى رحلته أن السلطان عبد الرحمن الرشيد كان يحب العلماء ويكثر الجلوس معهم فى ليله ونهاره . وقلما يجلس مجلسا إلا ومعه عالم أو اثنان . فاغتاظ الوزراء منه ، وقالوا : كيف يتركنا ويجلس مع هؤلاء؟ لئن مات هذا السلطان لا تولى علينا بعده رجلا يقرأ أبدا . فسمع ذلك أحد الحجاب وأمهلهم حتى جلس السلطان فى ديوانه ، وحضر أولئك الوزراء . فجاء الحاجب وقال : لئن مات هذا السلطان لا نولى علينا بعده رجلا يقرأ أبدا . فالتفت إليه السلطان وقال : لم ذلك؟ قال : لأنك تترك الوزراء ، وتجلس مع العلماء ، فاغتاظ السلطان ونظر إليه نظرة الغضب . فقال الحاجب ما ذنبى؟ لقد سمعت هؤلاء الوزراء يقولون ذلك فقلته . فالتفت إليهم السلطان ووبخهم وأراد القبض عليهم . فما خلصوا منه إلا بجهد ومشقة .

المستوى العلمى
للمعلمين والعلماء

أشرت إلى أن طلبة القرآن كانوا أولئك الذين ذهبوا إلى الخلوة ، أو المسجد . وكثيرا من هؤلاء ـ ولاشك ـ حفظوا القرآن ودرسوا أحكامه . أما العلوم الدينية الأخرى فكانوا يتعلمونها لفوائدها العملية ، كمعرفة أحكام العبادات ، والمعاملات ، وكقوانين الميراث ، ولذلك كان كثير من العلماء يقوم بالإفتاء والقضاء ، كما كانوا يتعلمون العلوم الدينية على سبيل التعبد[1] .

على أن بعض العلماء الذين تفقهوا فى علوم الدين قد وصلوا إلى مستوى محترم فى فهم المسائل الدينية . ويظهر هذا مثلا من القضية الفقهية الآتية التى استفتى فيها الشيخ حمد بن حسن أبو حليمة الركابى[2] .

«من الفقير إلى الله قنديل بن الفقيه حمد بن الشيخ على ولد عشيب إلى سيدنا ومولانا من ساعدته الليالى والأيام فى تشميره إلى الإقبال على طاعة الله ، العارف بالله ورسوله ، الورع الولى الصالح ، شيخ الحقيقة ، وإمام الطريقة ، قدوة بلادنا فى هذا الزمان ، ومناقبه كثيرة لانُطيل[3] بذكرها . وذلك الشيخ حمد بن الشيخ أبو حليمة . وبعد ياسيدى وقعت شماتة وخصومة بيننا وبين الفقيه أحمد عبدالحميد . وبلغت إلى السلطنة . ودخل الناس فيها وأرادوا أن يرسلوا إلى

(١) يقول هيللسون فى ص ٢٠١ من جـ٦ من مجلة Sudan Netes & Records سنة ١٩٢٣ : وقد كان كثيرون ممن يحضرون دروس فقه خليل ودروس الرسالة إنما كانوا يحضرونها على سبيل التعبد لا مزاولة جدية منهم للدروس .

(٢) ص ٥٢ من الطبقات طبعة منديل . هذا وقد لاحظ محمد بن عمر التونسى فى أثناء اقامته بدارفور أن دراسة العلوم هناك متأخرة لعدم العلماء ، وأن أكثر قراءة القوم للفقه والتوحيد . أما قراءة العلوم العقلية فقليلة جدًا ، ولا يقرءون منها إلا النحو . وأما المعانى والبيان والبديع والمنطق والعروض فلا يعرفون منها إلا الاسم (ص ٢٥٦ من الرحلة) .

(3) It would be altogether a mistake to take at their face value the eulogistic terms in which our author refers to the scholastic attainments of his heroes (P. 201. S. N. R. Vol. VI. 1923).

الفقهاء الأتقياء أمثالك . وقبل ذلك قدم علينا الفقيه محمد التنقار ، ورضينا به ، وحاباهم وأبطل حجتنا من غير وجه شرعى . ونوضح لك ما نطلبه منك بالنص الجلى الذى نعتمد عليه . ما قولكم رضى الله عنكم ، فى رجل تزوج بنتًا بكرًا عالمًا ببكارتها . ودخل عليها ، وتلذذ زمانًا طويلاً . ثم طلب منها إزالة البكارة عند القاضى . وامتنعت عن ذلك وأسقط القاضى نفقتها لأجل ذلك . ثم رحلت من بيتها ومسها الضر ، ورفعت أمرها إلى القاضى ، وسلمت نفسها بالطاعة وقالت له : أرسل إليه فإنى أطعته فى جميع ما يريد . وأرسل القاضى الذى سلمت نفسها عنده بالطاعة إلى القاضى الذى أسقط نفقتها وقال له : زوجة الرجل التى أسقطت نفقتها لأجل زوال البكارة قد وافقت على ما يريد منها من زوال البكارة وغيرها ، فأمر الزوج بالقدوم . فامتنع الزوج عن الحضور ولم يأت وكتب إلينا كتابًا ثانيًا بالامتناع وعدم الحضور ، وبعد هذا كله تلومنا له شهرًا . فلما لم يحضر ألزمناها الإشهاد على أنه لم يترك لها شيئا . فأحضرت الشهود وشهدوا وحلفتها على وفق كلام الشهود . ولذلك حكمت بالطلاق وأوقعته . ثم قدم الزوج بعد أن خرجت من العدة ومكنته من الحجة ولم أعجزه وقلت له : ألك حجة؟ فقال : لا حجة لى . فأمضيت عليه الطلاق . وقد تزوجت المرأة وهو حاضر ناظر ، ولم يقم دعواه حتى ولدت الأولاد بعد ثلاث سنين . فالآن وقد حضر وادعى وقد حكموا بإعطاء الزوج الأول ومنع الثانى ووجههم وقالوا : إن البكر لا نفقه لها ولو دخل بها زوج عشر سنين ؛ لأن سيدى خليل قال : تركت الخيار للزوجين ما لم يسبق العلم أو يرضى أويتلذذ . وهذا الأمر حاصل . وكذلك النفقة بعد أن أرسل إليه قادر على ردها . والقاضى الآخر فهم عند قوله (أو خرجت بلا إذن ولم يقدر على ردها)» .

فلما تلا جوابه وافقه على طلاقها ورد هؤلاء [1] عنه . وكذلك نسوق المسألة الآتية التى استفتى فيها الشيخ دفع الله الشيخ حلاوى بن جمال الدين الجيجانى وهى تدل على فهم وتعقل فى مسائل الفقه . وها هو ذا نص المسألة :

من دفع الله بن الشيخ محمد إلى عند الأخ فى الله المعروف بحلاوى . امرأة أساء إليها زوجها ، وتكررت شكواها ، أيحكم فيها القاضى بالطلاق من غير إثبات بينة عملاً بقول المدونة

---

(١) ص ٥٢-٥٣ من طبعة منديل وص ٥٥-٥٦ من طبعة إبراهيم صديق وشرح القضية ما يأتى :
أن رجلا تزوج بكرًا وعاشرها ، ولكن لم يفض بكارتها ، ولم يدخل بها . ثم طلبها بعد ذلك إلى بيت الطاعة فرفضت . ففى هذه الحال لا نفقة لها لأنها عصت زوجها . ولكنها رجعت بعد ذلك وعرضت طاعتها على قاض آخر ، وطلبت منه أن يقرر لها نفقة ، ولكن الزوج كان غائبًا . وبعد إمهاله والتماس عذر له لم يرجع فطلق القاضى عنه الزوجة . وبعد أن =

عن ربيعة ، ويعطى الزوج نصف الصداق . قال أبو عمران (معنى حكم لها فى هذا الوجه ـ أى بدعواها ـ ولم تثبت بينة ولم يجز أن يأخذ منها شىء أ .هـ .) .

فأجابه حلاوى بقوله :

السلام من عند محمد حلاوى إلى عند الأخ فى الله دفع الله . أما بعد فإنك سألتنى عن تأويل قول المدونة وشراحها كأبى عمران ونحوه . فأقول إنى لست أهلا لذلك ـ ولكن مسألتكم ليس هذا محلها ، بل فى باب الطلاق وهو لايثبت إلا بعدلين ـ وأنت لا تحكم إلا بنص مثل الشمس والسلام عليك وعلى أهلك وجيرانك . يرحم الله من سلف منا [١] ومنكم .

ومن المحاورات التى تكشف لنا ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العهد بالرغم من عزلة السودان عن العالم الإسلامى ـ كما يقول[٢] هيللسون ـ وحرمان علمائه من أن يشربوا من منابع العلم فى مواطنها ، تلك المحاورة الآتية :

كان شرب الدخان قد عرف فى البلاد الإسلامية [٣] فى القرن العاشر . وكان العلماء مختلفين بين تحليله وتحريمه ، فأفتى الشيخ على الأجهورى بإباحته ، وأفتى الشيخ إبراهيم اللقانى ـ صاحب جوهرة التوحيد ـ بحرمته وكان لهذا الاختلاف بين الشيخين صداه فى السودان ؛ فقد اجتمع بمنزل الشيخ عجيب المانجلك الشيخ إدريس الأرباب والشريف عبد الوهاب راجل أم سنبل فسأل الشيخ عجيب الشيخ إدريس بحضرة الشيخ عبدالوهاب : ما رأيك فى

= انتهت من العدة جاء الزوج ولم يبد اعتراضا . ثم تزوجت المرأة وولدت . فطالب الزوج الأول بها كزوجة له ولم يعترف بالطلاق وإلى هنا تفهم القضية ، ولكن الباقى منها وهو (أن المرأة البكر لا نفقة لها ولو دخل بها زوج عشر سنتين إلخ) غير صحيح وغير مفهوم ، لأن البكر لها نفقتها بمجرد الدخول بها . وعبارة (تركت الخيار للزوجين ما لم يسبق العلم أو يرض أو يتلذذ) هذه لا محل لها هنا لأنها فى باب الخيار بين الزوجين فلا علاقة لها بالقضية (راجع ص٣٩٣ من شرح الدردير على مختصر خليل) .

(١) ص ٧١ من الطبقات طبعة إبراهيم صديق .

(٢) ص ٢٠١ من الجزء السادس من S. N. R. لسنة ١٩٢٣ .

(٣) أول ما عرف استعمال التبغ فى إسبانيا وإنجلترا وقد أحضره من أمريكا (المكسيك) رجل إسبانى يسمى فرانسسكو فرنانديس فى سنة ١٥٥٨ . وهو رجل كان فيليب الثانى ملك إسبانيا قد أرسله لبحث حاصلات المكسيك التى كانت وقتئذ مستعمرة أسبانية . وكان السير والتر رالى أول أوروبى عكف على عادة التدخين (المستمع العربى السنة السادسة العدد ١٣) .

شرب الدخان؟ فقال الشيخ إدريس : إنه حرام فقال الشريف عبدالوهاب : أهذه الفتوى من رأسك أم من كراسك؟ فأجاب الشيخ إدريس بأن السلطان مصطفى الأسطنبولى [١] قد حرمه . ومذهب مالك أن طاعة السلطان واجبة فيما لم يرد فيه نص شرعى . وأخبره بالأمور التى لم يرد فيها نص من الشارع وعمل فيها برأى ولاة المسلمين وكذلك أخبرنى الرسول صلى الله عليه وسلم بحرمته فى المنام . يشهد على ذلك الشيخ محمد الهميم والشيخ حسن ولد حسونة . وكان القاضى دشين يشربه إلى أن توفى ، ولكنه يقول بحرمته الآن إذا سئل فى قبره . قال الشريف عبدالوهاب : رضيت بحكم القاضى دشين . فأرسل الشيخ إدريس دفع الله العركى إلى قبر القاضى دشين فسأله وهو فى القبر . فقال له إن التنباك حرام [٢] ثم إن الشيخ إدريس كاتب الشيخ على الأجهورى مع تلميذه حمد ولد أبوعقرب حين توجه للحج . فلما دخل محمد مصر سأل عن الأجهورى . فقال له الناس إن الشيخ الأجهورى لا يتيسر لقاؤه إلا يوم الجمعة عند دخول الجامع . فترقبه حمد يوم الجمعة عند الجامع حتى قدم فناوله الكتاب . فقرأه فلما وصل إلى قوله سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال التنباك حرام رمى الكتاب وقال لحمد : يابربرى أشيخك صحابى فى عهد الرسول [٣] ؟ .

هذا ويروى صاحب الطبقات بعد ذلك ما حدث من مناظرة بين الشيخ إبراهيم اللقانى وعلى الأجهورى بشأن الدخان ، وما حصل من اعتداء بعد ذلك على الشيخ الأجهورى [٤] .

ويهمنا مما ذكر أن نلاحظ أن موضوع البحث كان من الشئون التى عنى المسلمون بها فى ذلك العهد [٥] كما يهمنا أن نلاحظ طريقة المناقشة والجدل وقرع الحجة بالحجة ، والأحكام إلى علماء مصر ، بإرسال الكتب إليهم واستفتائهم مما يدل على حرص علماء السودان حينذاك على المعرفة والتثبت من الحقائق .

---

(١) يقصد بذلك السلطان مصطفى الأول العثمانى الذى تولى سنة ١٦١٧ ولعل شرب الدخان كان قد حرم فى عهده .

(٢) كلام الميت فى القبر لم ينص الإسلام على إمكانه .

(٣) ص ٨-٩ طبعة إبراهيم بن صديق .

(٤) راجع تفصيل هذا الموضوع فى رسالة «غاية البيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان» للشيخ على الأجهورى .

(٥) لا غرابة فى أن يختلف علماء السودان فى تحريم الدخان وتحليله ؛ لأنه كان شيئًا جديدًا فى تاريخ الإسلام فهو بدعة وكل بدعة فى النار . وشبيه بهذا ما رواه عبد الوهاب الشعرانى (ص ٦ ج٢ من الطبقات الكبرى) من كراهية دخول بيت القهوة . فقد روى أن شخصا كان يغتاب الناس ليلا ونهارا ، ويمزق أعراض العلماء والصالحين ، فقال له صديق : اشتر لى بهذا العثمانى قهوة أشربها . فقال ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لو ضربت بالسيف ما دخلت بيت القهوة .

ولم يكن هذا النوع من النقاش والمناظرة مقصوراً على الأنداد من العلماء والشيوخ . لا بل نجد شبيهاً به يقع أيضا بين التلميذ وأستاذه من غير حرج فمن ذلك أن أرباب العقائد (ويسمى أرباب الخشن) كان يدرس فى ناحية المقرن (بالخرطوم الآن) وكان عنده فى خلوته تلميذه حمد ابن محمد على المشيخى فحدث بينهما خلاف فى موضوع علمى يرويه التلميذ بقوله :

«كنت خادم (شيخى) وملازمه . وذات يوم قلت له : ياسيدى هذا العلم الذى قرأناه أمامورون بامتثاله أم لا؟ قال نعم مأمورون . فقلت له : أما قال خليل (فى مختصره) وكره صلاة فاضل على بدعى أو مظهر كبيرة؟ قال نعم . قلت له : أما قال فى تارك الصلاة : وصلى عليه الجنازة غير فاضل؟ قال : نعم . قلت : لم تصلى عليهم؟ فترك صلاة الجنازة على تاركى الصلاة وقتًا ، وكان الناس عنه غير راضيين ، ثم لاموه على ذلك وقالوا له : تسمع كلام حمد المنافق فعاد كما كان . فرحلت عنه ودخلت جزيرة [(١)] توتى . . . . . إلخ» .

فهذا النوع من المجادلة يدل بموضوعه على ما وصل إليه فهم بعض المتعلمين من علم الفقه ، كما يدل بروحه على مقدار تمسك التلميذ برأيه واعتقاده ، حتى عندما يحاج أستاذه . وتلك لعمرى روح طيبة يظهر فيها تغلب المبدأ على المجاملة .

هذا ولم تكن مناظرات القوم ومحاجاتهم مقصورة على المسائل الدينية ، بل كانت تشمل غيرها من المسائل الفلسفية ؛ ومن ذلك تفسير يعقوب بن بانقا للهيولى حيث يقول : اعلم أن الخلاف الواقع بين أهل السنة والحكماء فى الهيولى ليس فى وجودها وعدمها ، بل هى موجودة وإنما الخلاف بينهم فى قدمها وحدوثها فهيولى أبينا آدم التراب ، وهيولى إبليس النار ، وهيولى الملائكة النور ، وهيولى السرير وعصا موسى الخشب [(٢)] .

ومن العلماء من جمع بين عدد من العلوم والفنون وبرع فيها ، وذلك مثل حجازى بن زيد الذى كان طبيبًا ماهرًا كأنه ابن سينا فى حكمته ، وشاعرًا حاذقا كأنه كعب بن زهير فى شعره ، وله معرفة بالخط الحسن كأنه ابن مثله فى خطه ويعرف جميع الأقلام العربية والسريانية واليونانية وله معرفة بصناعة الكيمياء كأنه جابر فى صنعته ، وله معرفة بعلم الحروف والزايرج[(٣)] يدرك بها الأمور

---

(١) ص ٦٥-٦٦ من طبعة إبراهيم بن صديق وص ٦٢ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٨٠-١٨١ من طبعة إبراهيم بن صديق .

(٣) لمعرفة علم الزايرج راجع ص ٣٥٥-٣٦١ من مقدمة ابن خلدون .

المستقبلة كأنه جعفر الصادق فى أخباره . ومع ذلك يقرأ القرآن والدلايل عامة ليله[1] ومنهم أيضًا الشيخ دفع الله العركى الذى كان يدرس مختصر خليل والرسالة ، والعقائد ، والتجويد وكتب التصوف ، والتفسير ، والشيخ القدال بن الفرضى الذى كانت مجالسه العلمية فى كتب خليل والرسالة والعقائد والجامع الصغير وابن عطاء الله[2] وكان عمارة بن عبد الحفيظ الخطيب عالمًا فى العلوم الفقهية والنقلية والعقلية كعلم النحو والأصول والمنطق والتصوف . وقد جاور فى مصر[3] مكة . والشيخ صالح ولد بان النقا أحد أولئك الذين جمعوا بين عدد من العلوم ، فقد قرأ الرسالة على الفقيه عبدالهادى تلميذ محمد بن مدنى ، وقرأ مختصر خليل على جماعة (من العلماء) وفطامه على الفقيه ضيف الله ، وقرأ كتب النحو وعلم المنطق على الفقيه عبدالباقى تلميذ الخطيب عبداللطيف ، وعلم العقائد على الفقيه أرباب ابن فرح ، وعلى عمه الفقيه على بن أرباب وقرأ كبرى السنوسى ووسطاء والمقدمات على الفقيه اسماعيل بن زين والفقيه محمد الخناقى ، وقرأ ابن عطاء الله على الفقيه عبدالقادر مصطفى ، وكتب التجويد على الفقيه[4] ولد فرقية فهذا عدد من العلوم المدروسة مما يشهد للمتعلم بعلو الهمة وجلال القدر . كذلك جمع عبدالله بن صابون بين عدد من العلوم ، فقد حفظ الكتاب وبرع فى النحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع وعلم العروض وكان شاعرًا ماهرًا وصانعًا وخياطًا وله معرفة[5] بالخط الجميل .

هذا وأما علوم اللغة كالأدب والنحو والبلاغة فيظهر أن مستواهم فيها كان منخفضًا . يظهر ذلك من أنه لم يصل إلينا ولم يؤثر عنهم[6] أى إنتاج أدبى ذو قيمة ، ومن أن ما وصل إلينا من الشعر كان من النوع الغث لخلوه من الخيال وتفاهة الفكرة ، وعامية اللفظ والتركيب ، وخطأ النحو والصرف . وها هى ذى بعض أشعارهم . رثى الشاعر عبدالنور[7] أستاذه أبا إدريس محمد بن دفع الله بن مقبل العركى فقال :

صوفى الصفات فذاك شيخى　　أبو إدريس الورع الوجـــول

(١) ص ٣٤-٣٥ طبعة إبراهيم بن صديق .

(٢) ص ١١١ من طبعة منديل .

(٣) ص ١١٠ من طبعة منديل .

(٤) ص ١٢٨ من طبعة منديل .

(٥) ص ١٢٩ من طبعة منديل .

(٦) لا أريد أن أقطع هنا بأنه لم يكن للسودان أى إنتاج أدبى . ولكنى أقرر أننى لم أعثر على أى مرجع يشير إلى مساهمة علمائه (أى علماء سودان وأدى النيل) فى الإنتاج العربى الأدبى . وربما كان لهم إنتاج لم يصل إلينا .

(٧) فى الطبقات كثير من شعر عبد النور هذا .

لأخراه سريعًا مستعدًا	وعن أعمال دنياه عطول
فلا يشتاق للذات فيها	من المأكول أو شرب العسول
ليرضى ربه سهر الليالى	ولا غرض لشىء ينسبول
فما حرفة قط يعتلقها	
سوى القرآن سرًا والصلاة	وسنة أحمد الهادى الرسول
تخلف بعده الجد المسمى	بدفع الله من أسد شبول[1]

ثم يستمر الشاعر فى القصيدة فيمدح ابن المتوفى ـ وهو دفع الله بن الشيخ محمد ـ وخليفته فيقول :

وفى العصر الذى قد حل فيه	جميع العارفين له ذلول
أطاعته العساكر والأكابر	وكم زاروه أقطاب حجول
ولا يلد الأسد إلا مثيله	ولا يلد البقر إلا العجول
ولايلد النخل إلا لقاحًا	ولا يلد النحل إلا العسول
وأولاده كلهم صالحون	بيض الوجوه أهل الفضول[2]

وكان طه ابن الحاج لقانى قد أخذ طريقة التصوف من الشيخ حسن ود حسونة فمدحه يومًا بالأبيات الآتية :

سلام الله ربى ذى الجلال	على شيخ الطريقة والوصال
سلام من طاء وهاء	على الشيخ المكمل بالخصال
وألحقه التحية ألف مرة	وألف سلام خير تال
جميع الخليق قد جزمت عليه	بحسن الحسن فى حسن الفعال
محبته تقرب كل خير	وتبعد عن كل ذى شر وبال
ونرجو أن نفوز بها جميعًا	بدنيانا وأخرى بالمعالى
ويسعدنا الإله بجاه من	حماك الله من درك الخيال
وإنى فى حماه وجميع أهلى	وما أرجوه من كل الآمال

(١) ص ١٦ من طبعة إبراهيم بن صديق .

(٢) ص ٨٨ من طبعة إبراهيم بن صديق .

بفضل الله ثم رضاه عنى | أروم بحبه نيل النوال
فما أنساكمو فى كل وقت | بليل أو بصبح والزوال
فلا تنسان فى اللحظات أنى | غريق الذنب فى بحر الخيال
فمالى جفاء فى بعادى | ولكنى أخاف من الكلال
فان زرنا أتينا باجتهاد | وإن عدنا لفضلك واشتغال(١)

هذا ، ولعل الشاعر السودانى الذى لايزال محفوظ الأثر ، معروف الخبر هو فرح ولد تكتوك(٢) الموصول بأنه شاعر ماهر ، كلامه مطرب يجذب القلوب . فمن قوله فى الحكمة والتعفف :

يا واقفا عند أبواب السلاطين | أرفق بنفسك من هم وتحزين
تأتى بنفسك فى ذل ومسكنة | وكسر نفس وتخفيض وتهوين
من يطلب الخلق فى جلب لمصلحة | أو دفع ضر فهذا من المجانين
وكم يحاكى لمسجون يدوم له | وكم من السجن فى أيدى المساجين
إن كنت تطلب عزًا لافناء له | فلا تقف عند أبواب السلاطين
ولا تصاحب غنيًا تستعز به | وكن عفيفًا وراعى حرمة الدين
فالطمع يرميك فى ذل ومهلكة | وما يفيدك إلا كل تهوين
والقنع نام قريرًا لا كصاحبه | كما تنام غصون فى البساتين
فثق بربك لا تبغى سواه حمى | والرزق منزله فى ختم ياسين
وكم جرى طامع فى البيد مغتربًا | ولم يجد قصده فى الشام والصين
كم دودة فى عميق الأرض فى حجر | يأتى لها رزقها فى الوقت والحين
ألا لزم العلم والتقوى وما نتجت | من الثمار تفز بالخرد العين
خل الملوك بدنياهم وماجمعوا | وقم بدينك من فرض وسنون
استغن بالله عن دنيا الملوك كما | استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
واعلم بأن الذى ترجو شفاعته | من البرية مسكين ابن مسكين
لايقدر العبد أن يعطيك خردلة | إلا بإذن الذى أنشاك من طين
ما لى أذل لمخلوق وأسأله | وإن سألت الذى أعطاه يعطينى

---

(١) ص ١١١ من طبعة إبراهيم بن صديق ، وص ١٠٤ من طبعة منديل .

(٢) هو شيخ من الشيوخ الأتقياء ، من قبيلة عرب البطاحين . وشعره يمتاز بعزة النفس ، والزهد ، والحكم ، والوعظ . وكان من معاصرى الشيخ خوجلى والشيخ حمد ولد أم مريم فى القرن الثانى عشر الهجرى . (راجع صفحة ٢٦٠ من كتاب شعراء السودان لسعد ميخائيل) .

الـديـن كـنـز عـظـيـم لافـنـاء لـه | والمال عـــــارية والـلـه يـفـنـيـنـى
من باع دينا بدنـيـا واسـتـعـز بهـا | كـأنما باع فـــردوسًـا بســجـيـن
فلقـمـة من طعـام الـبـر تشـبـعنى | وجــرعــة من قليل الماء ترويـنى
وقطعـة من قليل الـثـوب تسـتـرنى | إن مت تكفننى أو عشت تكسينى
والحـمـد لله قـد تمت قـصـيـدتـنـا | ونـشـكـر الـلـه فـى ســـر وتعلـيـن
فرح[1] الفقير كثير الذنب ألفها | منظومـة لعـبـيـد فـى «البطاحين»

وإنما نقلت هذه القصيدة بأكملها لأضع بين يدى القارئ صورة كاملة لأجود ما وصل إلينا من الشعر السوداني فى ذلك العهد . ومن العدل القول بأن مستوى الشعر فى الأمم العربية الأخرى كان قد هبط ، ولاسيما شعر العلماء الفقهاء والصوفية ممن يصطنعون القريض .

على أن أهل السودن لم يكونوا فى النثر بأطول باعا منهم [2] فى الشعر .

ويجب أن نفهم تمامًا أن ما ذكرته من مستوى الفقه الذى وصل إليه بعض العلماء والذى يعتبر مستوى لا بأس به ، إنما هو مستوى ليس فيه شيء من الابتكار أو التجديد ، ومستوى لم يكن ليمثل التحصيل العلمى الشائع عند معظم [3] المتعلمين ، ولكنه كان يمثل تحصيل الطبقة الممتازة من العلماء . وإلا فكيف تفسر الحكاية الآتية التى رواها محمد بن عمر التونسي عما حصل من أحد علماء درافور وكان اسمه الفقيه مالك ، إذ يقول :

كان الفقيه مالك يقرأ فى تذكرة القرطبى فى صفحة أهل النار فأتى على قوله : ومازالت النار تقول يارب زدنى حتى يضع الرحمن فيها رجله والرجل الجماعة من الناس . وعليه قول الشاعر :

فمر بنا رجل من الحمى وانزوى . . . إلخ .

---

(١) نقلا عن كتاب شعراء السودان الجزء الأول ص ٢٦٠-٢٦١ . وقد جمع هذا الديوان سعد أفندى ميخائيل .

(٢) انظر ص ١٣ وما بعدها من الملحقات ففيها نماذج لبعض ما أثر من النثر . ومن المناسب هنا أن نذكر أن سكان السودان من النوبيين جنوبى أسوان إلى أبى حمد كانوا لا ينطقون العربية إلا قليلا منهم . بل إن العرب منهم هجروا لغتهم الأصلية وتعلموا وتكلموا اللغة النوبية المحلية (انظر ص ٢٦ من رحلات بركهارت) .

(٣) لدينا من الأدلة ما يثبت أن هذا النوع من مدرس المسجد أو الخلوة كان خيرًا من بعض المدرسين فى مدارس القرية بأوروبا . فقد أشرنا فى صفحة سابقة من هذه الرسالة أن قسيس قرية فى مقاطعة الألزاس أخذ زميلا له إلى مدرسة فلما دخل الزميل سأل عن المدرس فأشار تلميذ إلى رجل منهك القوى مضمحل باهت كبير السن . فسأله : أأنت المدرس؟ فقال : نعم فسأله : وماذا تدرس؟ فأجاب : لا شيء يا سيد . فقال له : ولماذا صرت مدرسًا؟ فأجاب : ولم لا؟ لقد كنت راعى خنازير فى الريف سنين طويلة . ولما كبرت سنى وضعفت ووهت قواى جئت إلى هنا ، لأشرف على تربية التلاميذ (ص١٧ من كتاب بستالوتزى) .

فقال : وما زالت النار تقول يارب زدنى ـ وكان من عادته أن يقول بعد كل كلمة أو كلمتين أى نعم قال الكتاب ـ فقال : وما زالت النار تقول يارب زدنى أى نعم قال الكتاب وما زالت النار تقول يارب زدنى أى نعم قال الكتاب ، حتى يضع الرحمن فيها رجله أى نعم قال الكتاب ، والرجل هى الجماعة من الناس أى نعم قال الكتاب وعليه قول الشاعر أى نعم قال الكتاب ، فمر بنا رجل أى نعم قال الكتاب ، وكررها مراراً فقال له السنوسى ولده : يا أبو . فقال : فمر بنا رجل ؛ فقال أى نعم فمر بنا رجل وكررها مراراً وكنت جالسًا فلم يسعنى السكوت ، فأخذت نسخة من رجل بجانبى فرأيت فيها : فمر بنا رجل من الحى البيت ، فقلت يا أبو فمر بنا رجل ، فقال لى : أسكت أنت الآن صغير من هذا ؛ فسكت[1] ، على أن هذه الحكاية التى رواها التونسى لا تعتبر غريبة أو مستهجنة إذا قارناها بحكاية (أذئبًا يعونك تحت الشجرة[2]) .

وهناك حكاية أخرى يرويها التونسى أيضا عن والده ، قال :

إن السلطان التمس من الفقيه مالك المذكور أن يخطب يوم العيد ، فقصد الفقيه والدى وطلب إليه أن يؤلف له خطبة ؛ فألفها وكتب فى آخرها (تمت على يد مؤلفها الفقير إلى المنان عمر التونسى بن سليمان فى يوم وسنة كذا) . ثم أعطاها إياه فلما كان يوم العيد وصلى الفقيه بالسلطان ثم رقى المنبر فخطبه وبعد الخطبة قال : تمت إلى آخر ما كتب ، ولم يفطن أن هذه الكلمات خارجة عن الخطبة[3]

والواقع أن الحالة الثقافية للعلماء كانت فى دارفور أكثر تأخراً منها فى مناطق سنار لشدة البداوة ؛ ولشدة العزلة ؛ وعدة العجمة[4] ؛ ويؤيد هذا ما لاحظه التونسى أيضًا من أن قراءة القرآن عندهم متأخرة ، وهو يقول إنهم لايقرأون القرآن إلا بالليل فى المكاتب ، فيكون الصبى فى النهار سارحًا بماشيته من غنم أوبقر ؛ وبعد أن يرجع فى المساء يأخذ لوحه ويذهب إلى

---

(١) ص ١٢١ من رحلة التونسى (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) .

(٢) هذه الحكاية يرويها بعض الأزهريين عن أحد الشيوخ ؛ فقد كان يشرح سورة الفتح فوصل إلى آية (إذ يبايعونك تحت الشجرة) فقرأ أذئبا يعونك تحت الشجرة . وكررها ثم أخذ فى شرحها بقوله : أذئبا أى أذكر ذئب ، ويعونك من عان يعون أى عوى يعوى . . . إلخ .

(٣) ص ١٢١ من رحلة التونسى .

(٤) يقول W. G. Browne فى رحلته (ص ٢٩٧) :

In most of the towns except cobbe which is the chief residence of foreign merchants, the vernacular idiom is in more frequent use than the Arabic.

المكتب . . وعلى ضوء النار يحفظون ويكتبون ؛ وحفظهم غير جيد ؛ فذلك قل من يحفظ القرآن منهم حفظًا جيدًا ، وأما قراءة العلوم فمتأخرة أيضًا لعدم العلماء ، وأكثر قراءتهم للفقه والتوحيد ، وأما المعقول فقليل جدًا ؛ ومع قلته لايقرأون إلا قليلاً من النحو ، وأما المعانى والبيان والبديع والمنطق والعروض فلا يعرفون منه إلا الاسم ، ومن يعرفه منهم يكون قد تغرب لبلد آخر كمصر وتلقاه فيه فإذا رجع إلى بلده كان هو العالم(١) .

ونحن نقسو على فقهاء دارفور إذا تطلبنا منهم مستوى فوق الذى أشار إليه التونسى ؛ فالحالة فى مصر بين جمهرة فقهاء الكتاتيب لم تكن أحسن من ذلك إن لم تكن دونه ، فقد كان معلمو الكتاتيب فى أوائل القرن التاسع عشر قليلى العلم والاطلاع ، والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأوراد والأدعية ، وكان منهم من لايحسن القراءة والكتابة ونجح فى شغل وظيفة مدرس(٢) فبعض معلمى القرآن فى المكتب المصرى كانوا يشبهون إذا بعض معلمى القرآن فى الخلوات بدارفور ؛ هؤلاء الذين قال عنهم W.G. Browne

They are ignorant of everything except the Koran

ونحن بالرغم مما ذكرناه من قيام صلات ثقافية بين السودان والبلاد المجاورة له ، كالحجاز ومصر ، ولانستطيع أن ننكر ما لموقع السودان الجغرافى من أثر فى عزلته ، تلك العزلة التى كانت وما زالت عاملاً من عوامل تخلفه الثقافى عن بعض جيرانه ، ولعل هذه العزلة النسبية وغيرها من الأسباب هى التى جعلت هيللسون يقول :

ليس عجيباً ـ والسودان فى حالة عزلة وبعد عن البلاد الإسلامية ومتأخر عنها ثقافيًا ـ أن نجد علماء بعيدين عن التعمق فى التفكير ، وأن ما ينقل من البلاد الأخرى إلى أرض السودان المجدبة من أجود بذور المعارف والتصوف لا ينمو إلا نموًا شاحبًا نحيفًا(٣) .

■ ■ ■

(١) ص ٢٥٦ من رحلة التونسى . وقد لاحظت أثناء إقامتى بالسودان أن تلامذة دارفور أقل فى مستواهم العلمى من تلامذة مناطق النيل جهة سنار ، وأقل إفصاحا أيضا .

(٢) عن كتاب إدوارد وليم لاين «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم» ترجمة عدلى ظاهر نور . من الرسالة ص ١٢٩٩ العدد ٤٣٣ .

(٣) ص ١٩٥ من S. N. R. Vol. VI

السودان .. والعلم



١ ـ حرص أهل السودان على العلم

من الظواهر البارزة التى يدركها كل من يزور السودان أو يعيش فيه روح الجد (Serious attitude) التى تسود أهله ، فهم بعيدون عن مرح الحياة ولهوها ، وهم يأخذون الأمور بقوة ، وهم يرحبون بالفكاهة والنكتة ويتذوقونها ، ولكنهم لا يميلون إلى إنشائها ، وقد حاولت أن أعلل لهذه الظاهرة فكان أول ما بدا لى من الأسباب أن حياة السودان بدأت وظلت إلى عهد قريب بدوية جافة تنقصها طراوة الحياة وملحها ، وكان لهذا النوع من الحياة أثر فى تفكير القوم وإنتاجهم ؛ فهم كما قلت إذا يميلون إلى الجد فيما يفكرون ويعلمون ، والسبب الثانى أن سكان السودان الإسلامى نشأوا فى عهد تقليد شمل كل نواحى الحياة ، هذا العهد الذى استمر من سقوط بغداد على يد هولاكو إلى وقت قريب ، والذى مرت به كل البلاد الإسلامية ، ومن بينها السودان . فكأن حياتهم أسست بادئ ذى بدء على التقليد ، من لوازم التقليد المحافظة فى الفعل والقول ، ومن لوازم التقليد أيضا ضيق أفق الابتكار والميل إلى الجد والبعد عن المرح والدعابة . والسبب الثالث أن السودان الإسلامى لم يخل فى أية حقبة من تاريخه من المنافسات القبلية والمنازعات ، والحروب ، والغارات الداخلية والخارجية ، فكان هذا مما يشغل القوم عن لهو الحياة ، ومما ينمى فيهم روح الكفاح بمعناه العام ، ونحن إذا جئنا إلى القرن التاسع عشر وجدنا البلاد قد فقدت استقلالها ، وأصبحت تنظر إلى الحكام فيها باعتبارهم أجانب عنها ، فزاد هذا فيما سميته روح الجد ، ثم جاءت الثورة المهدية فأهلكت الحرث والنسل . ولما طلع فجر القرن العشرين كان أهل السودان قد ورثوا تراثًا مثقلا بالهموم ، مشوبًا بنقص فى الأموال والأنفس والثمرات والعلم والحرية . وقوم حياتهم فى الغالب بدوية ، وقوم نشأوا نشأة العرب يتعشقون الحرية ، وقوم طموحون لأن يكونوا كجيرانهم الناهضين ، وقوم هذه صفاتهم ليس لديهم فراغ من الزمن أو القلب يصرفونه فى ترف القول والعمل .

وإنما سقت هذه المقدمة لأبرز ما سأصل إليه من نتيجة ، معززة بالأدلة والمصادر الصحيحة ، من أن أهل السودان لم يكن لهم مندوحة - بحكم ظروفهم التى أشرت إليها - من الإقبال على العلم وتحصيله برغبة وحرص وشره وجد .

فمن الأدلة على حرص أهل السودان على تحصيل العلم ما أشرت إليه من قبل ، من أنه لما مات الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وخلفه ابنه حلالى فى حال الصغر أخذت أم الصبى أسورتها وحجولها وذهبت بها إلى الشيخ الحضرى عووضة وقالت له : ياسيدى أريد أن يجلس ولدى مجلس أبيه فى العلم والقضاء ، فأخذه وعلمه حتى بلغ مبلغًا من العلم والدين والصلاح وفاق على إخوانه وتولى القضاء مثل أبيه[1] .

ونقرأ فى ترجمة عبدالرحمن بن إبراهيم بن أبى ملاح أنه هرب وهو صغير من بيت أهله فى دبة عنتبار ، وذهب إلى دنقلة ليتعلم عند الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب . وهناك حفظ عليه القرآن وعرف أحكامه ، وتعلم العربية . ثم ارتحل بعد ذلك إلى مصر حيث طلب العلم عند الشيخ على الأجهورى وقرأ عليه مختصر خليل ومنظومته فى التوحيد[2] .

وكان الطلبة يتخيرون - أو يتخير لهم أهلهم - الأستاذة المشهورين بالعلم فى مادة ، أو كتاب بذاته ، فيقصدونهم بالرغم من بعد المسافة ومشقة السفر . فمن الشيوخ الذين استحقوا الرحلة إليهم سعد الكرسى الذى كان يدرس فى نورى بعد شيخه عبدالرحمن ولد أسيد . وقد اشتهر بإقراء القرآن وأحكامه ، وشدة رياضته لحيرانه ، فرحلت إليه الطلبة من الأبواب وأرض الصعيد ودار دنقلة[3] .

ومما يروى عن القدال بن إبراهيم بن عبود أن الرحال شدت إليه لطلب العلم حتى بلغ عدد طلبته ألفا ، وقيل ألفين ، من التكارير وأهل السودان ، حتى ليقال إن من بين طلبته طالب من الجن! وكان من تلاميذه من جاء من كردفان كالفقيه جودة الله والد مختار . فهذا مثل آخر من حرص الطلبة على العلم ورحلتهم إليه[4] .

---

(١) ص ٦٨ من الطبقات طبعة منديل .

(١) ص ١٠٩ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) ص ٨٨ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ٢١ من الطبقات طبعة منديل . وكانت شهرة العالم تجلب إليه الآباء والأجداد والأحفاد ؛ فمن ذلك أن مدنى بن محمد بن مدنى شدت إليه الرحال ، وضربت إليه أكباد الإبل ، وطال عمره ، واشتهر ذكره فأخذت عنه الآباء والأبناء والأجداد والأحفاد (ص ١٦٠ من طبعة منديل) .

وشبيه بالشيخ القدال الشيخ أرباب بن عون المعروف بالخشن الذى شدت إليه الرحال فى علم التوحيد والتصوف ، وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيف من دار الفونج إلى دار برنو تلامذته وتلامذة تلامذته[١] .

ومن حرص الناس فى السودان على طلب العلم أن المتعلم كان لايأبى أن يتلقى العلم على من هو أصغر منه سنا أو مقامًا ، فهذا محمد بن أم جدين قد تتلمذ فى الفقه على ابن أخيه محمد بن مدنى[٢] .

ومن أمثلة حرص الناس على العلم ماذكره مؤلف الطبقات على لسان محمد بن عويضة الذى زار مرة الشيخ عمار بن عبدالحفيظ الخطيب فقال فيه : توجهت له فوجدت الخيل والبغال والحمير محيطة بزاويته فدخلت فيها فوجدت الناس حلقات حلقات فناس يتحدثون بتجارة الحجاز ، وناس بتجارة المغرب ، وناس بتجارة الصعيد . فإذا قاموا شرع فى التدريس يقرأ اثنى عشر مجلسًا[٣] .

هذا ما كان من أمر ازدحام الطلبة على الشيخ المذكور رغبة فى تلقى العلم عليه . واستدعى ذلك ـ بطبيعة الحال ـ أن الطالب كان ينتقل من شيخ إلى شيخ سعيًا وراء الشهرة العلمية ، بغض النظر عما يعانيه الطالب من مشاق السفر . فمن ذلك أن تابرى بن الفقيه عبد الهادى حفظ الكتاب بمسجد الحلفاية على الفقيه دفع الله . ثم انتقل إلى دنقلة حيث قرأ مختصر خليل على عمه الفقيه صغيرون ، وعلى الفقيه ضيف الله . ثم سلك طريق القوم على الشيخ محمد بن الطريفى[٤] فى أبى حراز وكذلك محمد بن عبدالرحمن بن حمد الأغبش فقد درس الفقه على الفقيه بلال ، والفقيه أبى الحسن ، وأخذ علم التوحيد على الفقيه بساطى وفرح بن أرباب ، والرسالة عن الفقيه عبدالصادق ولد حسيب ، أحكام القرآن عن أبيه عبدالرحمن[٥] . وبالرغم من أن أسرة الغبش هى أسرة علم مشهورة وكان فى استطاعة محمد بن عبدالرحمن أن يجد فيها

---

(١) ص ٢٩ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٦٠ من طبعة منديل .

(٣) ص ١١٨ طبعة إبراهيم صديق .

(٤) ص ١٧٧ طبعة إبراهيم صديق .

(٥) ص ١٦٣ طبعة منديل .

ضالته من العلم ، نجده ارتحل إلى العلماء بأماكن مختلفة طمعًا فى أن يجد عندهم ماقد لايجده فى أسرته . وشبيه بمحمد بن عبد الرحمن هذا النحوى الرباطابى[1] الذى أخذ العلم ـ بعد دراسته القرآن ـ من الشيخ محمد المصرى فى بربرة ثم سافر إلى دنقلة حيث درس ثانيا على الفقيه محمد بن عيسى سوار الذهب وبعد ذلك ذهب إلى الريداب حيث درس مدة فى جرف عجيب .

ويذكر لنا مؤلف الطبقات أن عبدالرحمن بن صالح قرأ الرسالة على الفقيه عبدالهادى . ثم قرأ مختصر خليل على جماعة ، وفطامه على الفقيه ضيف الله بن محمد بن ضيف الله . ثم قرأ كتب النحو وعلم المنطق على الفقيه عبدالباقى بن فكرى ثم قرأ علم العقائد على الفقيه أرباب بن فرح وعلى عمه الفقيه على بن أرباب ، ثم قرأ كبرى السنوسى ووسطاء والمقدمات على الفقيه إسماعيل ابن الزين وعلى الفقيه محمد الخناقى . ثم قرأ مناجاة ابن عطاء الله على الفقيه عبدالقادر مصطفى . ثم قرأ علم التجويد على الفقيه ولد قرقبه[2].

وممن طلبوا العلم على أساتذة مختلفين أيضًا إبراهيم ولد برى[3] ، وعلى ولد برى الذى حفظ الكتاب على الشيخ باسبار . ثم قرأ مختصر خليل على حسين أبو شعر وسلك طريق القوم على ولد داود[4] .

وقد سبق أن أشرت إلى حرص الصبية على تعلم العلم ، وماحدث من ولدى الحاج فايد ـ وهما عبدالقادر وحمودة ـ وكيف أنهما ذهبا بعد وفاة والدهما إلى المضوى محمد بن محمد أكداوى وقالا له : أبونا مات قبل أن نتعلم . وترك أمنا صغيرة جميلة غنية . فهل لك أن تتزوجها وتعلمنا؟ فقبل منهم الشيخ ذلك وزوجوه أمهم[5] .

ومن أمثلة حرص العلماء على تحقيق مسائل العلم ما يرويه صاحب الطبقات من أن أحد التلاميذ سأل الشيخ المضوى بن المصرى عن النعامة أهى من حيوان البر أم الطير؟ ، فتوقف

---

(١) ص ٣١ من طبعة منديل . ويقول Heywortt-Dunhe فى كتابه (صفحة ٦٨) إن الشيوخ ظلوا حتى القرن الثامن عشر الميلادى يرحلون إلى جهات مختلفة طلبا للعلم ورغبة فى حصولهم على إجازات من علماء مشهورين .

(٢) ص ١٢٨ طبعة منديل .

(٣) ص ٢٨ الطبقات من طبعة منديل .

(٤) ص ١٣٠ الطبقات طبعة منديل .

(٥) ص ٣٠ الطبقات طبعة منديل .

الشيخ فى الجواب وقال إن هذه مسألة لانجد جوابها إلا عند الخطيب عمار بسنار ثم شد رحاله ، وسافر من شندى إلى هناك ليتحقق من الجواب الصحيح (١) .

ومن مظاهر حرص الطلبة والشيوخ على العلم وتحصيله أنهم كانوا يجمعون الكتب وينتسخونها كالشيخ محمد ولد دوليب الذى اشتغل بتدريس الفقه وتحصيل كتبه . وقد جمع كتبًا كثيرة ، كشروح الأجهورى والخراشى وغيرهما (٢) . وقد أشرنا إلى جمع علماء السودان للكتب فى مكان آخر .

وكان ملوك سنار سلاطين دارفور يشجعون العلماء ويقدمون لهم الهدايا حرصًا على نشر العلم فى بلادهم . كذلك كانوا يغرون العلماء الأجانب على الإقامة فى بلادهم ويكرمونهم . فمن ذلك ما ذكره محمد بن السيد عمر التونسى فى رحلته من أن جده أقام فى جدة بعد أداء فريضة الحج مدة ينسخ الكتب بالأجرة فقابله حاج من سنار وقال له : «ألا تتوجه معنا إلى مدينة سنار ويحصل لك العز والافتخار؟ لأن ملكًا رجل مبسوط اليد ، لا يبالى بلجين ولا عسجد . يحب الفضل وأهله ويحل كلا منهم محله (٣) فتوجه الشيخ إلى مدينة سنار . ولما وصل هناك وعرف الملك أنه رجل من أهل العلم غريب الديار رحب به ، وأعظم ملقاه ، وأمر له بجزيل . أنعامه وهناك استقر الشيخ ونسى(٤) أهله وأولاده .

ويروى لنا التونسى كيف أن السلطان عبدالرحمن سلطان دارفور لما ظهر عدله وحبه للعلماء . وأهل الفضل وفد عليه الأشراف والعلماء وكان والده أول من وافد عليه فلما بلغ الخبر السكان اجتمع أكابرهم وطلبوا منه قراءة مختصر خليل . فقرأ لهم ربع العبادات . ثم أرسل إليه السلطان فأكرمه ، وطلب إليه أن يقرأ عنده الحديث فى شهر رمضان ففعل . وأمر السلطان بعد ذلك أن يؤلف ويشرح بعض الكتب الدينية واللغوية فشرح الخصائص المحمدية فى ست عشرة كراسة ، وكتب شرحًا على مختصر خليل فى مجلدتين سماه «الدر الأفاق على متن خليل بن إسحاق» وكتب على الأجرومية شرحًا كبيرًا ، كما كتب شرحًا على متن السلم(٥) .

---

(١) ص ٣١ الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ١٥٧ الطبقات طبعة منديل .

(٣) ص ٢٩ من كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

(٤) ص ٣٠ من الكتاب السابق والظاهر أن الملك الذى كان بسنار حينذاك هو الملك عدلان الثانى (١١٩١-١٢٠٣هـ) .

(٥) ص ١١٠-١١١ من الكتاب المذكور .

ثم يذكر التونسى أيضًا أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم إلى دارفور كرم السلطان عبدالرحمن ومن هؤلاء الشيخ التمر والفلانى [١] والشيخ حسين عمارى الأزهرى ومن مكة الشريف مساعد [٢] .

والواقع أن هؤلاء العلماء وأمثالهم كانوا قليلين بالنسبة لمن يحتاج إليهم السكان . ولعل هذه القلة هى التى دفعت أهل السودان إلى التهافت على العلماء والمعلمين إلى الحرص على العلم وتحصيله .

هذا ويجب أن نعلم أن السودان ـ بالرغم من كل هذه الجهود التى بذلها أهله فى تحصيل العلم ، وما انصرفوا إليه من جد فى الدرس ـ ولم يستطع أن يساهم بأى نصيب يذكر فى الإنتاج الإسلامى العربى . فإننا لم نعثر فيمن ذكروا من علماء القرون الثلاثة : العاشر والحادى عشر والثانى عشر على ذكر عالم من علماء سودان وادى النيل ، وعلى العكس نجد ذكرًا لعلماء السودان الغربى [٣] ولعل السبب فى ذلك ـ كما ذكرنا ـ أن السودان ظهر فى عصر التقليد ، فلم يكن لسكانه ماضى ثقافى من إنتاجه . فكانوا عالة على غيرهم . وكان ضعفهم فى اللغة عاملا من عوامل عدم الإنتاج . فالعرب منهم قد تزوجوا ببنات السكان الأصليين وأكثروا من الاماء . وكانت لغة هؤلاء النساء غير عربية فأثرت كثيراً فى اللغة العربية لدرجة جعلت سكان النوبة العرب من أسوان إلى أبى حمد يتكلمون اللهجات النوبية كلغة أصلية ، ويتكلمون العربية كلغة أجنبية ، كما كان أهل دارفور الأصليون ـ وما زالوا ـ محافظين على لغتهم الأصلية . أما سكان شرقى السودان فلهم أيضا لهجاتهم الخاصة[٤] .

على أن العلماء لم يقتصروا فى تدريسهم العلم على إنتاجهم المحلى ، وما أخرجته العقلية السودانية بل كانوا دائمًا يسعون لتحصيل العلم فى البلاد المجاورة التى تمتاز عن بلادهم . وكانوا

---

(١) هذه النسبة إلى الفلاتة وهم قبيلة مسلمة تسكن غربى إفريقيا عند أعالى نهر النيجر .

(٢) ص ١١ من الرحلة المذكورة .

(٣) أنظر الكتب : تاريخ فتاش وتاريخ السودان (الغربى) ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتى .

(٤) أنظر كتاب The Anglo Egyptian Sudan from Withan وكذلك كتاب «العروبة فى السودان» لمحمد عبدالرحيم المؤرخ السودانى .

يواصلون رحلاتهم إلى مصر والحجاز بغية الدرس والافادة . وإنا ذاكرون هنا شيئًا عن علاقة السودان الثقافية بالأمم المجاورة له .

٢ ـ علاقة السودان بالأمم الإسلامية المجاورة وأثرها الثقافى

لم تقف الهجرة إلى السودان منذ أن اتصل به العرب وعرفوه بعد معاهدة عبدالله بن سعد ابن أبى السرح سنة ٣١هـ (١٦٥٢م) وما إن استقر العرب بالسودان حتى بدأوا يتاجرون فى الرقيق من النساء والأطفال الذين كانوا يخطفونهم أو يغنمونهم فى الحرب . ووجدت تجارة الرقيق لها أسواقًا نافقة فى مصر والحجاز ، ومن هذين البلدين إلى سورية وتركيا والفرس وسائر بلاد المشرق ، بل والمغرب أيضًا ، وإذا فقد كانت هناك صلات تجارية بين السودان والبلاد المجاورة له ولم تقتصر التجارة على الرقيق ، بل شملت أيضا الحاصلات السودانية المختلفة ، مثل الذهب والملح والعاج وريش النعام والصمغ والتوابل والعطور . ولدينا ما يثبت أن العلاقة التجارية بين السودان والحجاز كانت قائمة حتى قبل تأسيس مملكة الفونج[١] .

كذلك كانت العلاقات بين السودان ومصر التى كانت محط القوافل الواردة من شمال إفريقيا . فقد كانت هنالك ثلاث قوافل تحمل إلى القاهرة الرقيق والبضائع ومن إفريقيا واحد من مرزوق (عاصمة فزان) والأخرى من سنار والثالثة من دارفور[٢] . وكانت تعود إلى أماكنها محملة بحاصلات مصر وأوروبا مما يحتاج إليه السكان ، غير أن الصلة بين دارفور وسنار لم تكن كما يرها ؛ لما كان بين ملوك الفونج وسلاطين الفور من عداء ومنافسة لامتلاك[٣] كردفان ولذلك كان الحجاج من دارفور يذهبون إلى الحجاز عن طريق مصر .

ويذكر بركهارت فى رحلاته (ص٤٤) أن الحجاج من التكارير وأهل السودان الغربى كانوا يسافرون من بلادهم حتى يصلوا إلى دارفور . ومن هنالك يعبرون كردفان إلى سنار ؛ أو يذهبون

---

(١) فقد كان داود بن عبد الجليل أحد التجار العظام بين الحجاز والسودان وخلفه ابنه الحاج سعيد الذى كان تاجرًا غنيا أيضا (أنظر ص ٦٤ من كتاب Notes on the Tribes and Prominent Fam..ics in the Elre Nile Province

(٢) ص ١٤٦ من كتاب Travels in Africa, Egypt and Syria

(٣) ص ٢١٩ و٢٥٢ Travels in Africa, Egypt and Syria

وكذلك ص ٥٤ من Notes on the tribes and prominent Families ete.

إلى دنقلة . ومنها إلى سواكن فجدة ، أو ومنها إلى مصر ليحجوا مع المصريين . وهناك فى القاهرة يقيمون مدة من الزمن بالأزهر يدرسون القرآن والعلم . ومن هذا يفهم أن المجاورة مع الحج لم تكن أمراً مقصوراً على أهل سودان النيل . ولكن كانت تشمل غيرهم من المسلمين .

هذا وقد كانت القوافل التى تفد من مصر إلى السودان ثم تصل إلى شندى يذهب بعضها إلى سنار وبعضها إلى التاكة (كسلا) ومن هناك إلى سواكن فالحجاز وقد كتب بركهارت فى رحلاته فصولا مطولا عن الحركة التجارية للقوافل التى تمر بالسودان وتربطه بالبلاد المجاورة[1] .

وإذاً فمن الخطأ أن يقال إن السودان كان منعزلاً نهائيًا عن الأمم الإسلامية المحيطة به . فالقوافل كانت تربطه بها ، وهى الوسائل البرية الوحيدة فى ذلك العهد وإن كانت وسائل بطيئة وغير متواصلة[2] .

ثم هنالك أيضًا قوافل الحج السنوية التى كانت تربط السودان بمصر ، و السودان بالحجاز فقد كان بعض الحجاج السودانيين يؤثر السفر من مصر إلى الحجاز بدلا من طريق سواكن . والسبب فى ذلك أن مصر كانت مر حجاج المغر ب وأهل الأندلس وبلاد البربر والسنغال والتكرور والسودان الغربى . فكان سكان سودان وادى النيل يسافرون إلى مصر ليجتمعوا بهؤلاء ، وليحضروا سفر المحمل والموكب العظيم الذى يقوم فيه أمير مصر ، وليجاوروا بالأزهر . وكانت الطريق من القاهرة إلى قوص ـ براً أو فى النيل ـ ومنها إلى عيذاب أو القصير . وكانت طريق عيذاب[3] أهم من طريق القصير .

ومن هذا يتبين أن وسائل الاتصال الثقافى بين السودان والبلاد الإسلامية الأخرى المجاورة كانت ممكنة ، ولاسيما بواسطة هذه القوافل للنشاط الاقتصادى والدينى ، وقد ذكرت فى

---

(١) ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٢) وقد تمكنت مملكة سنار وسلطنة دارفور من تكوين علاقات تجارية مع الأمم المجاورة لهما . وكانت القوافل تحمل التجارة من السودان إلى البلاد الخارجية ولا سيما مصر والحبشة . وكان التجار يبادلون البضائع السودانية فى مصوع وسواكن ببضائع أسيوية ولاسيما بمنتجات بلاد العرب وفارس والهند ، وكانت سنار تتاجر مباشرة مع مصرع والحبشة فى أثناء القرون الوسطى .

(٣) ص ٢٧ من الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتنونى وكذلك ص ١٣٤ جـ٢ طبقات الشعرانى تحت اسم أبو القاسم المغربى .

الفصل الذى عقدته عن «ظهور الثقافة الإسلامية فى السودان ومصادرها» أن «مصر كانت المصدر الأساسى والأكبر للثقافة الإسلامية التى ظهرت فى السودان فى القرن العاشر، سواء أكان ذلك بقدوم العلماء المصريين أم برحلة السودانيين للتعليم فى الأزهر» وذكرت أيضا أنه «لا غرابة أن نجد مصر قد غرست البذور الأولى للثقافة الإسلامية فى السودان لأنها كانت قبلة المتعلمين والعلماء فى العالم الإسلامى، ولأن المواصلات بين السودان ومصر - بطريق القوافل والنيل - كانت أسهل أنواع المواصلات التى تربطه بأى قطر إسلامى آخر».

نعم استمرت هذه الصلات الثقافية ونمت، وزادت عليها صلات جديدة بين السودان وبلاد الحجاز لقيام العلماء بالتدريس فى الحرمين المكى والمدنى، وحرص الحجاج على المجاورة هناك والتبرك بالأرض المقدسة. كما كانوا حريصين على المجاورة بالأزهر[1].

ونحن واجدون فى كتاب الطبقات أمثلة كثيرة لأولئك الذين خرجوا من السودان طلبا فى العلم ثم جاوروا فى مصر والحجاز ورجعوا إلى قومهم ينشرون بينهم ما أفادوه، وها هو محمد بن عدلان الشايقى قد حج إلى بيت الله وجاور فيه وقرأ هناك علم الكلام والمنطق، والأصول والعربية على عبدالله المغربى[2] عالم المدينة، ثم قدم تنقاسى، فأوقد بها نار القرآن، ونار العلم والكرم، وأخذ يدرس علم التوحيد والمنطق والفقه والعربية والتصوف، وانتفع الناس بعلمه، وشدت إليه الرحال من سائر[3] الأقطار.

ومما يروى أن الشيخ عجيب المانجلك لما حج إلى بيت الله الحرام، بنى بالمدينة منازل سميت برواق السناريين وجعلها وقفا على الحجاج من أهل سنار[4] ولاشك كان لهذا الرواق أثره فى تشجيع الحجاج على الإقامة فى المدينة، وطلب العلم هناك.

(١) أنظر ص ٣٢ من تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان لمحمد بن عمر التونسى ويقول Heyworth-Dunne فى كتابه ص ٦٨ أن الرحلات إلى البلاد المقدسة كانت كثيرة - فى القرن الثامن عشر - للدرس والمجاورة هناك وبذلك يجمع المسافر بين العلم والحج. ولكن الرحلة إلى القاهرة من الخارج كانت أكثر من رحلة المصريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

(٢) لقد بحثت عن ترجمة لعبد الله المغربى هذا فلم أجد. وكل ما عثرت عليه أنه كان من أساتذة الشيخ على الصعيدى فى القرن الثانى عشر الهجرى (ص ٣٤٤ من تاريخ التشريع الإسلامى لعبد اللطيف السبكى وزميليه).

(٣) ص ١٦٤ طبعة منديل.

(٤) ص ٩٩ من تاريخ السودان لنعوم شقير.

ويذكر مؤلف الطبقات أن عبدالله بن دفع الله العركى حج إلى بيت الله أربعًا وعشرين مرة ، منها اثنتا عشرة مرة جاور فيها ، ودرس فى مقام الإمام مالك . وإنه طال مكثه هناك حتى ذهب إليه الشيخ إدريس ومعه الحاج سلامة الضيابى وأحضراه . فلما رجع أخذ يعلم الناس ويرشدهم[1] ويروى أن الشيخ عبدالله هذا استرعى انتباه العلماء إليه فى مكة بلباقته وحسن تدريسه وعلمه ، حتى لقد طلبوا إليه أن يعيش بينهم للتدريس ولكنه رفض ذاكرًا أن عليه واجبًا علميًا لأهل بلاده . وأن الأولى أن يرجع إليهم[2]

ومن سافر إلى الحجاز وتلقى العلم والطريقة هناك محمد بن الشيخ محمود العركى - وقد أخذ طريقة التصوف عن الشيخ محمد البكرى[3] .

وقد كان بعض السودانيين يذهب إلى الحجاز فيجاور هناك ولا يرجع إلى البلاد . وذلك كالشيخ محمد العجمى بن حسونة ، الذى سافر إلى الحجاز وجاور بمكة وسكن فى رباط العباس وأقام هناك للذكر والعبادة والعلم . وقد رآه هناك إبراهيم بن برى وشاهد ماهو فيه من صلاح وشهرة[4] . أما أخوه الشيخ حسن ود حسونة الذى سار بذكره وورعه الركبان . فقد حج إلى بيت الله الحرام وساح فى الحجاز ومصر والشام مدة اثنتى عشرة سنة . ولما رجع انصرف إلى التعليم والإرشاد . وكان عنده من الخلوات إحدى عشرة ، وقيل ثلاث عشرة[5] .

ومن سافر إلى مصر والحجاز عمار بن عبد الحفيظ الخطيب وكان سفره فى طلب العلم والحج . وهنا قرأ العلوم الفقهية ، العقلية والنقلية ، وعلم النحو واللغة والأصول والمنطق والتصوف والعربية وسائر الفنون ورجع إلى السودان بنحو رحلين أو ثلاثة من الكتب . ويقول مؤلف الطبقات أنه وجد مكتوبًا بخط عمار بن عبد الحفيظ الخطيب ما يأتى :

«سافرنا من سنار لطلب العلم بالأزهر والحج فى يوم الجمعة بعد العصر خامس عشر من رمضان سنة ١٠٧٢ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل صلاة وسلام . فلم ندخل مصر إلا

---

(١) ص ١٠٦ من طبعة منديل .

(٢) ص ٢٢ من Notes on the Tribes and Prominert etc.

(٣) لعله من الأشراف البكرية .

(٤) ص ٢٤ من طبعة منديل .

(٥) ص ٤٦ ، ٤٧ من طبعة منديل .

فى أول شهر صفر من سنة ١٠٧٨ من الهجرة وجلسنا بالأزهر إلى شوال . ثم سافرنا إلى الحج وحججنا حجة الإسلام فى تلك السنة أى سنة ثمانية وسبعين ، ثم رجعنا إلى مصر فلم ندخلها إلا فى سنة تسعة وسبعين فى شهر صفر . وجلسنا فى الأزهر بمصر بقية صفر والربيعين والجمادين ورجب وشعبان ورمضان . ثم سافرنا إلى زيادة النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر المحرم سنة ثمانين وجلسنا بالمدينة ما شاء الله أن نجلس . ثم رجعنا إلى أن أتانا مولد النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، ودخلنا فيه وصرنا إن شاء الله من الآمنين . ثم سافرنا من مكة يوم سابع عشر ربيع الأول إلى جدة ، ثم سافرنا بالسلامة إلى مصر فى البحر فى شهر رمضان سنة ثمانين بعد الألف . ثم أدركنا سنة واحد وثمانين بمصر وسافرنا فيها إلى البلد . وكان حجنا حجة الإسلام سنة ثمان وسبعين وحجة التطوع سنة تسع وسبعين . وكان يوم عرفة يوم جمعة . والحمد لله رب العالمين على هذا الطلب اللهم تقبل واعف وسامح ما كان من رياء وسمعة(١) .

فهذا شرح واضح مفصل لرحلة عمار بن عبدالحفيظ ، والمدة التى قضاها فى مصر والحجاز ومجاورته فى كليهما . ولاشك أن هذه صورة لما كان يحدث مع غيره من السودانيين . وهذا لأن نظام المجتمع الإسلامى فى ذلك العهد كان لا يتطلب من الرحالة أو الحاج أن يحمل زاداً ونفقة كثيرة . فكما يقول البروفسور جب :

The Pirlgrim on his journey travelled in a caravan whose members swelled at every stage. He fcund all arrangements made for his marches and his halts, and if the road lay through dangerous country, his caravan was protected by an cscort of soldiers. In all large centres as well as inany intermediate atations were rest houses and hospices where he was hospitably welcomed and entertained out of endowments created by generations of benefactors. When such was the lot ot every pilgrim, the theologian received still greater consideration. His brethren in every town recieved him as one of themselves, furnished his wants, and recommended him to those at the next stations.(2)

(١) ص ١١٧ من الطبقات طبعة إبراهيم صديق .

(٢) 3-1 Ibn Battuta's Travels in Asia and Africa, translated and selected by H. A. R. Gibb.

وقد ذهب عمارة بن شايق ـ بعد أن حفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد فى السودان ـ إلى السودان فحج وجاور فى مكة حيث قرأ الرسالة وعلم التجويد ، وعلوم العربية ، والتفسير ولما رجع إلى الحلفاية نصب خلوته واشتغل بالتدريس مدة تسع سنين(١) .

وقد حدثنى الشيخ شمس الدين الحنفى أن جد أسرته المسمى عيسى بن بشارة الأنصارى ولد بالمدينة المنورة ، وطلب العلم فى الأزهر الشريف فى زمن الشيخ زكريا الأنصارى برهان الدين بن أبى شريف والشيخ محمد البنوفرى . ثم جاء إلى السودان وأسس مسجد كتران (قطر عنج) حيث علم القرآن وعلوم الدين(٢) وكذلك ذهب من نسله الشيخ أحمد البدوى ، وابنه الشيخ محمد ، وأقاما لتحصيل العلوم بالأزهر مدة طويلة . وكان لهما أثر فى نشر العلوم والمعارف الإسلامية فى السودان بعد عودتهما(٣) .

وقد لاحظ بركهارت أن أولئك المتعلمين القلائل الذين يستطيعون القراءة والكتابة من أهل النوبة يذهبون أحياناً إلى الأزهر بالقاهرة . وفى طريقهم إلى هناك ينزلون فى بيوت الأغنياء ليطعموا ، وفى نظير ذلك يعلمون أبناءهم(٤) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان من ذهاب جد محمد بن عمر التونسى إلى الحجاز للحج وتوجه من هناك إلى سنار حيث استقر وأقام بقية حياته . كما أن السيد عمر والد المؤلف ذهب إلى سنار ومنها إلى دارفور . وكان حيث حل موضع الإجلال والتقدير . ولا شك كان للسيد عمر ووالده من قبله أثر علمى بالتدريس للناس والتأليف .

ومن هذا يظهر أن ملوك سنار وسلاطين دارفور كانوا يشجعون العلماء الأجانب(٥) ، وأن السودان كان يتلقى منهم بين حين وآخر من يفد ليقيم فى البلاد وينشر العلم وبذلك توطدت العلاقات الثقافية بين السودان والبلاد الإسلامية المجاورة .

---

(١) ص ١٢٧-١٢٨ طبعة منديل .

(٢) انظر الملحق رقم ٥ تقرير الشيخ شمس الدين الحنفى فى المجلد الثالث .

(٣) راجع ملحق الإجازات رقم ٦ من الجزء الثالث .

(٤) ص ٥١ من الرحلات .

(٥) كان هذا دأب ملوك السودان منذ تأسيس دولة الإسلام . فقد ذكر لنا David Reudeni اليهودى الذى مر بمملكة سنار سنة ١٥٢٤م أنه لما وصل إلى مقر الملك عمارة دونقس زعم أنه شريف من مكة . فأحسن الملك عمارة وفادته وأجله وأكرمه كل التكريم (ص ٢٦٢ من مجلة الجمعية الأسيوية الملكية لسنة ١٩٣٦) .

وقد زادت صلة العلماء فى السودان بالبلاد الإسلامية المجاورة ، ولا سيما مصر بعد الفتح المصرى سنة ١٨٢١ ، إذ نظمت القوافل بين السودان وخارجه . وأصبح من السهل على طلبة العلم أن يجاوروا فى الأزهر ويعودوا ليفقهوا قومهم فى الدين ، وسنشير إلى ذلك فى محله .

هذا وقد كان القرن السابع عشر أزهى عصور السودان ثقافة ، كما كانت صلة هذا القطر بالعالم الإسلامى المحيط به أقوى منها فى أى قرن سبق أو لحق إلى نهاية القرن الثامن عشر . فقد اكتسب شهرة بالغة فى العلم ، وكان يتمتع بحياة داخلية آمنة[1] .

٣- نصيب المرأة السودانية من التعليم

لم يترجم مؤلف الطبقات لأية امرأة ضمن الذين ترجم لهم من العلماء والشعراء والصالحين السودانيين . وليس هذا دليلا على أن المرأة السودانية لم تساهم بأى نصيب فى حياة البلاد الثقافية . كلا ، فالمرأة السودانية ساهمت بنصيب - ولو محدود جداً - فى العلم والتعليم . والغالب أن ابن ضيف الله لم يجد الكثير من أثر المرأة السودانية ونصيبها فى التعليم لأسباب منها : أن مركز المرأة الاجتماعى كان ولاشك دون مركز الرجل فنصيبها إذاً قليل . ومنها أنه لم يكن منهن من برزن ووصلن إلى مستوى الرجال مما يستحق تخليد الذكر . ومنها أن تربية المرأة لم تكن مقصودة بالذات وإنما وجهت العناية للرجال أولا وكان حظ المرأة عرضا . كما هى الحال فى أغلب البلاد العربية فى ذلك العهد .

غير أننا نعثر فى الطبقات على حوادث فردية تشير إلى أن المرأة السودانية كانت يقظة ثقافياً ، وأنها كانت مدركة قيمة العلم وضرورته لنفسها ولأولادها . من ذلك ما ذكر من أنه لما مات الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ترك له ابنًا صغيراً يسمى حلالى . وكانت أمه بنت الملك حسن ولد كشكش ملك دنقلة . فاهتمت أم حلالى لحرمان ابنها من التعليم فى حياة والده . وذهبت إلى شيخ يسمى الحضرى وأخذت ابنها معها وأسورتها وحجولها وقدمتها للشيخ وطلبت منه أن يعلم ابنها لقاء هذه الأسورة والحجول . فهل كانت هذه الأم جاهلة قيمة العلم والتعليم؟ ، ولو كانت جاهلة أكانت تقدم حليها لم يعلم ابنها . فهذه حالة فردية ولكنها ذات مغزى .

(١) ص ٨ من كتاب مذكرات عن القبائل والأسرات الشهيرة فى منطقة النيل الأزرق لناشره المستر وايد .



ولم تكن أم حلالي المرأة الوحيدة في هذا المضمار. فلقد روى صاحب الطبقات أيضًا أن امرأة اسمها الحسنة كانت متزوجة عبد المحمود النوفلابي. وكان هذا الرجل صوفيًا مجذوبًا. فلم ترض الحسنة ببقائها في عصمة الصوفي، بالرغم من أنها ولدت له بنتين. فأرادت أن تتزوج من فقيه عالم. فطلبت من زوجها الطلاق قائلة له إنني أريد «القراءة مع الحيران والرياضة في الليمان» فلم يقبل عبد المحمود أن يطلقها حتى تتنازل عن صداقها. ففعلت وتزوجت بعد ذلك من شيخ عالم[1].

فأي امرأة هذه التي تصر على طلاقها من زوجها بعد أن عاشت معه مدة ولدت منه فيها بنتين؟، وماذا كان الحافز على الطلاق غير رغبتها في أن تكون زوجة عالم؟، وأن تقرأ القرآن والعلم مع الطلبة كما قالت. وهذه حالة فردية أخرى. ولكن مغزاها عظيم.

ومما يرويه مؤلف الطبقات أيضا ما أشرنا إليه من قبل من أن الحاج فايد لما توفي ترك وراءه زوجًا جميلة صغيرة غنية، وترك ابنين هما: عبدالقادر وحمودة، من غير تعليم، فلم يكن منهما إلا أن قصدا إلى الشيخ العضوي المصري، وكان في بربر وعرضا عليه أن يتزوج من أمهما نظير حضوره إلى شندي ليعلمهما. ولما عرض حمودة الأمر على أمه قبلت العرض وولت ابنها عقد الزواج، وتزوجت من الفقيه العضوي[2].

فهذا مثل آخر على مقدار حرص بعض النساء في السودان على العلم إن لم يكن لنفسها فلأولادها، وهو يشير إلى مقدار استعداد المرأة للبذل في سبيل التعليم.

وثمة أمثلة أخرى تثبت أن من النساء من كانت تحفظ القرآن وكانت من أهل العلم، من ذلك أن الحسنة، زوجة الشيخ حمد بن محمد المشهور بامريم، والتي ذكرنا قصتها قبل، لما تزوجت منه أخذت تحفظ القرآن. وكانت ترتله بصوت مرتفع حتى أنه سمع صوتها مرة وهي تقرأ القرآن فأمر بضربها[3].

---

(١) ص ١٢٦ من الطبقات طبعة منديل.

(٢) ص ٢٠ من الطبقات طبعة منديل.

(٣) ص ٦٦ من الطبقات المذكورة.

وقد كانت عائشة الفقيرة بنت ولد قدال تعلم القرآن فى مكتب قريب من جيل أولياء[١] . ومن تعلم عندها الشيخ خوجلى بن عبدالرحمن صاحب القبة المشهورة [٢] فى حلة خوجلى .

ومن اشتهر من النساء السودانيات بالعلم والصلاح والدين[٣] فاطمة بنت جابر ، وكانت تدرس القرآن فى مسجد إخوتها أولاد جابر بجزيرة ترنج . وكان عندها أربعة وعشرون فقيراً تعلمهم القرآن[٤] . نعم لا يصح لنا تعميم الحكم بأن المرأة السودانية كان لها نصيب كبير فى الثقافة والعلم ، ولكن الحوادث القليلة التى ذكرناها جديرة بالتقدير .

ولم تقتصر رغبة المرأة السودانية فى القرآن والعلم والتعليم على العهد الذى تضمنه كتاب الطبقات ، بل سجل لنا التاريخ من ساهمت بنصيبها المحمود فى العهود التالية وها هو ذا رفاعة بك رافع الطهطاوى يحدثنا أنه رأى فى طريقه إلى السودان «ببلاد الشايقية بمديرية دنقلة حرم سنجق (يعنى مك) يدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة أمونة ، تقرأ القرآن الشريف ، ومؤسسة مكتبين : أحدهما للغلمان ، والثانى للبنات . كل منهما لقراءة القرآن . وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله . ولا ترضى أن يشوبه شىء من مال زوجها وبجانب الكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى بالبلاد لأداء فريضة الحج[٥] الشريف . . .

وهكذا لم يقتصر حرص المرأة السودانية على تعلم القرآن والعلم . بل افتتحت الكتاتيب والخلاوى . وعلمت بنفسها الطلاب . وكانت تنفق عليهم من كسبها ولا ترضى أن يشاركها[٦] فى الإنفاق زوجها . وقد يقال إن هذه الحوادث الفردية لا يصح الاعتماد عليها فى الوصول إلى حكم عام . ونحن نقول ليكن هذا ، ولكن أنستطيع إنكار نصيب بعض النساء السودانيات فى التعلم والتعليم؟ .

■ ■ ■

(١) ص ١٣٨ من الطبقات المذكورة .

(٢) ص ٧١ من الطبقات المذكورة .

(٣) ص ٥ من الطبقات المذكورة .

(٤) ص ٨٩ من الطبقات المذكورة .

(٥) ص ٢٦٢ من كتاب مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية لرفاعة بك رافع .

(٦) وسترى فى الجزء الثانى من هذا المجلد وفى مجلد الملحقات كيف أن المرأة لم تهمل نصيبها من التعليم فى القرن التاسع عشر الميلادى .

الصوفيـة
فـى السـودان

لما ظهر السودان الإسلامى كانت الأمم الإسلامية الأخرى غارقة فى بحر من الصوفية ؛ طرقها الكثيرة المختلفة ، وآدابها ، ونظمها ، وتقاليدها ، وأذكارها ، ودورها ، وكراماتها حتى لقد حل رجال الطرق الصوفية من قلوب الجماهير محل الإجلال والتقديس أحياء وأمواتًا ، مما صار معه الفقهاء وأهل العلم فى المرتبة الثانية ، ولم تكن الصوفية بدعا فى حياة الإسلام ، يرجع تاريخها إلى السابقين من الصحابة ، وقد بدأ التصوف أول الأمر زهدًا ، ثم صار معرفة وحبًا ، ثم صار فناء ، وخطت سبل لتربية السالكين فصار التصوف طريقة ، ونشأت فيه أساليب من النظر واختلطت به آراء من الفلسفة ، فصار له فلسفة ، أو ما يشبه الفلسفة . وقد ظهر فى التصوف منذ امتازت معالمه ، ووضحت رسومه ، وأهل الصحو وأهل السكر ، الأولون يضبطون أنفسهم ويؤلفون بين أقوالهم وأعمالهم وبين الشريعة ، والآخرون يرمون حين يغلبهم الوجد بالكلام المغلق المبهم ، والقول الذى لا يوافق الحدود التى حدتها الشريعة للعقائد والأعمال[١] .

ومن هنا نشأ الخلاف بين الفقهاء وأهل التصوف ، فالأولون اعتقدوا أن لتحصيل العلم طرقًا واضحة معلومة هى دراسة القرآن والحديث وما ورد عن الصحابة وأهل السنة ، وهذا ما يسمونه علم الظاهر ، أما الآخرون فإنهم بحثوا عن العلم بطريقة الاتصال المباشر بالله وهو طريق الكشف والإلهام ، وهذا ما يسمونه بعلم الباطن ، وأباح بعضهم لنفسه من الأعمال ما يعتبر فى حكم الشريعة محرمًا[٢] .

---

(١) مقال عن الصوفية للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٤٥٦ من مجلة الرسالة العدد ٤٥٩ السنة العاشرة .

(٢) كان ابن العربى يرى الشريعة من خط العوام ، ويرى الحقيقة من خط الخواص . وكانت دراساته للشريعة تمهيدًا لشرح الحقيقة . وكان الفقه عنده مقدمة لدرس أحوال القلوب (ص ١٦٩ الجزء الأول من كتاب التصوف الإسلامى لزكى مبارك) .

وقد وصف لنا ابن الجوزى فى كتابه (تلبيس إبليس) ما آل إليه الصوفيون من احتقارهم للعلم والعمل ، وانصرافهم إلى الاسراف فى الزهد ، وكيف أن إبليس صدهم عن العلم ، فلما انطفأ مصباحه عندهم تخبطوا فى الظلمات ، فتركوا الدنيا وبالغوا فى الحمل على الناس والنفوس ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق ، وتشعبت بأقوام منهم الطرق ففسدت[1] عقائدهم ، وقد احتوى كتاب ابن الجوزى على شنيع ما وصل إليه الصوفية ، مع أن المؤلف كان من رجال القرن السادس الهجرى .

وكان الخلاف بين الصوفية والفقهاء[2] واسعًا ، ولكن بمرور الزمن رجحت كفة الصوفيين وادعى الصوفية من لا علم لهم بها ، وصارت وسيلة لكسب الرزق والكسل وبسط النفوذ على العامة والبسطاء ، لا بل الخاصة من الملوك والأمراء ، وهنا وجد العلماء والفقهاء أنفسهم أمام قوة لا قبل لهم بها ، فقبلوا ما كان بالأمس ينقدون ويرفضون ، ولم يحل القرن الرابع عشر الميلادى حتى انتصر الصوفيون على الفقهاء ، وصارت الثقافة الإسلامية مصبوغة بالصبغة الصوفية فى كل شيء من العبادات للمعاملات ، وساعدها على هذا الانتصار العنصر التركى فى البلاد الإسلامية وتقبله الإسلام ، وقبضه على زمام السيادة بين المسلمين[3] .

ويرى جولد تسيهر (Goldzeher) أن مذهب الغزالى هو الذى أزال ما بين التصوف والفقه من حواجز ، وجعل التصوف جزءاً جوهريًا من عقيدة الإسلام ، وقد صبغ الغزالى التعاليم الإسلامية بصبغة روحانية صوفية ، ولكنه لم يتفق مع الصوفيين الذين قالوا بمذهب الحلول ولم يحترموا السنة[4] .

---

(١) كل أبواب الكتاتيب فى بيان أخطاء المتصوفين وجهلهم ، ولا سيما ص ١٦٣ وما بعدها . ومؤلف الكتاب هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى المتوفى سنة ٥٩٧هـ .

(٢) من ذلك أنهم رموا تاج الدين السبكى بالكفر ، وشهدوا عليه بإنه يقول بإباحة الخمر والفاحشة . وأتوا به مغلولا من الشام إلى مصر . وخرج جمال الدين الأسنوى فتلقاه من الطريق وحكم بحقن دمه (ص ١٩٥ الجزء الأول من التصوف الإسلامى لزكى مبارك) .

(٣) ص ٣٣-٣٨ من كتاب رحلات ابن بطوطه فى آسيا وإفريقيا مختارات ترجمها إلى الإنجليزية هـ . أ . ر . جب .

(٤) ص ١٧٩ من كتاب Vorlesungen ucher den Islam

ويذكر لنا ابن بطوطة فى رحلاته كيف انتشر التصوف فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وكيف كان الأولياء يأتون من الكرامات بما هو شبيه[1] بالمعجزات .

وقد حدثنا الشعرانى فى كتبه عن كثير من أحوال الصوفية فى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، أى فى أول ظهور الدول الإسلامية بالسودان ، بما يدل على أن الصوفية والشعوذة قد وجدت فى مصر ـ وفى غيرها أيضًا ـ تربة خصبة ، فهو يروي في كتبه ـ أن الأولياء يقدرون على كل شىء وليس من المستبعد عنده أن يعرف الولى أخبار البيوت ، ومن الممكن فى رأيه أن يبيع الحشيش وهو فى حقيقة أمره من الأولياء ، ويجوز عنده أن ينقل الرجل من مكة إلى مصر فى مثل لمح البصر إذا دفعه أحد الواصلين ، وحدثنا أن أستاذه الخواص كان يرسل أصحاب الحوائج إلى رجل كان يبيع الفجل على باب الأزهر فيقضيها لهم فى الحال وأن هذا الرجل كان لا يأكل أحد من فجله وببدنه مرض من جذام أو برص أو غيرهما ، إلا شفى لساعته[2] .

على أن هذا الجو الصوفى وما شاع فيه من كرامات الأولياء الخارقة للعادة ، ومن اعتقاد الناس فيهم ؛ لم يكن مقصورًا على مصر كما ذكرنا ، بل عم جميع البلاد الإسلامية ، فما يرويه مؤلف تاريخ السودان (الغربى) عن أحد أولياء تمبكتو . المسمى محمد الكابرى ، أنه لما أراد جماعة الخروج لرد أحد الغزاة عن بلادهم أعطى كل واحد منهم قدرًا من الدخن ليأكله فأكله إلا واحدًا منهم ، فسلموا جميعًا من القتل إلا من لم يأكل الدخن ، وأن هذا الولى كان من أهل الخطوة ، وأنه كان يعبر النهر بلا قارب (٣) .

---

(١) من ذلك قوله (ص ١٨٦ ج١ من مهذب الرحلة) ومن غريب ما اتفق لي بجدة أنه وقف علي بابي سائل أعمى يطلب الماء ، يقوده غلام . فسلم على وسمانى باسمى ، وأخذ بيدى . ولم أكن عرفته قط ، ولا عرفنى . فعجبت من شأنه . ثم أمسك أصبعى بيده ، وقال : أين الخاتم؟ وكنت حين خروجى من مكة قد لقينى بعض الفقراء . وسألنى ولم يكن عندى فى ذلك الوقت شىء فدفعت له خاتمى . فلما سألنى عنه هذا الأعمى قلت له : أعطيته فقيرًا . فقال : ارجع فى طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار فطال تعجبى به ، ومن معرفته بذلك كله .

(٢) لواقح المنن ص ٩٩-١٠١ ويحدثنا الشعرانى فى الطبقات الكبرى (جزء ٢ صفحة ١٢٣) أن الشيخ محمد الشربينى كان يتكلم سائر لغات الأرض . وأنه لما ضعف ابنه أحمد وأشرف على الموت ، وحضر عزرائيل لقبض روحه ، قال له الشيخ : ارجع إلى ربك فراجعه ، فإن الأمر نسخ . فرجع عزرائيل وشفى أحمد من تلك الضعفة . وعاش بعدها ثلاثين عاما . وأنه كان يقول للعصا التى كانت معه كونى إنسانًا فتكون إنسانًا ، ويرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت وكان يقبض من الهواء كل شىء يحتاجون إليه للبيت وغيره ويعطيه لهم وأخبر بدخول السلطان سليم العثمانى قبل دخوله بسنتين .

(٣) ص ٢٧ و٢٨ من الكتاب المذكور .

وإنما أسهبت فى ذكر أحوال المتصوفين فى غير السودان من البلاد الإسلامية حتى يظهر وجه الشبه بين هذه الأحوال المذكورة ، وبين ما سأتعرض له من ذكر الصوفية والمتصوفين فى السودان .

دخول الصوفية السودان

وتاريخ دخول الطريقة الصوفية فى السودان مقرون فى الروايات السودانية الشفهية ، وفيما كتب من التاريخ باسم الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى «ففى تاريخ ملوك السودان وأقاليمه» أن تاج الدين قدم من بغداد فى عهد الشيخ عجيب وعنه انتشرت طريقة الصوفية ببلاد الفونج(١) ورواية الطبقات أن تاج الدين إنما سمى البهارى من قولهم قمر باهر أى مضىء وسمى بذلك لضياء وجهه (وقد فندت هذا الرأى فى باب سبق(٢) من هذا الكتاب) وقد ولد فى بغداد . كما يقال ، وكان خليفة الشيخ عبد القادر الجيلانى(٣) وقد حج إلى بيت الله الحرام . وقد بلاد السودان باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم! ومن الشيخ عبد القادر الجيلانى . وكان قدومه مع داود بن عبدالجليل والد الحاج سعيد جد ناس العيد . وذلك فى أول النصف الثانى من القرن العاشر ، فى أول مُلك الشيخ عجيب . وقد حققت تاريخ القدوم وبينت أنه كان حوالى سنة ٩٨٥هـ فى أواخر القرن العاشر . ثم سكن الشيخ فى وادى شعير ، وتزوج امرأة من أهل الملك وولد منها . وأقام بالجزيرة سبع سنين وسلك خمسة رجال وقيل أربعين . والمعتمد أنه سلك اثنين هما : محمد الهميم والشيخ بن النقا (٤) الضرير . وإذًا فقد دخلت الطريقة الجيلانية فى السودان ، وجاءت إليه عن طريق الشرق عبر البحر الأحمر فى آخر القرن العاشر . وهذه أول طريقة رسمية تعرف باسم مؤسسها وتنتشر فى هذه البلاد(٥) .

---

(١) ص ١٦ من الكتاب المذكور . وقد بحثت عن هذا الاسم فى طبقات الصوفية فلم أعثر عليه .

(٢) ص ٩١ وما بعدها .

(٣) يريد من سلسلة الخلفاء وإلا كيف يتفق هذا والجيلانى عاش من سنة ٤٧١هـ إلى سنة ٥٦١هـ .

(٤) ص ٤٤ من طبعة إبراهيم بن صديق .

(٥) أرى أن التصوف عرف فى السودان قبل تاج الدين البهارى ، وعرفه الخاصة من الشيوخ الذين تلقوا العلم فى مصر ، وذلك كعبد الرحمن بن جابر فقد كانت له خلوة يتعبد فيها . وكذلك ألف كتابًا فى التصوف سماه «مرشد المريدين» ، ولكن يظهر أن عبد الرحمن بن جابر لم ينصب نفسه منصب شيخ الطريقة ، ويسلك الناس كما فعل تاج الدين البهارى (انظر ص ١١٢ من طبعة إبراهيم بن صديق) .

كيف بدأ تاج الدين فى نشر طريقته

أما كيف بدأ تاج الدين فى نشر طريقته الجيلانية فيعرف من الحكاية الرومانتيكية التى وصلت إلى درجة التواتر . فقد ذكر صاحب الطبقات أن الناس اجتمعوا بالشيخ تاج الدين بالقرب من غويبة أريجى . وأنه خبأ لهم خبيئة بإدخاله كباشه فى حظيرة غنم . ثم قال للناس : إننى أسلك طريق القوم وأرشد ، وأذبح التلميذ الذى يسلك على يدى فيموت على الإيمان ، فلما سمع الناس منه ذلك تفرقوا إلا الشيخ محمد ولد عبدالصادق - وكان حينئذ شابًا - فخلع قميصه وتوضأ ، وصلى ركعتين وتقدم للشيخ الذى أدخله فى الحظيرة ، وسلكه وذبح أحد الكباش وسال الدم من الحظيرة فظن الناس أنه ذبحه . ثم جاء الشيخ بان بن النقا - وكان شيخًا كبيراً - وقال : إننى ثور قد أدى واجبه نحو سيده فى الدنيا ، واخترت لقاء ربى . ثم توضأ وصلى ركعتين ، ودخل على الشيخ فسلكه ، وذبح كبشًا آخر ، فسال الدم ورآه الناس ، ثمقال لهم الشيخ : والآن تعالوا للتسليك فلا حسد ولا بخل . فامتنعوا . وبعد ذلك خرج الرجلان سالمين . فأمر الشيخ كل واحد منهما أن يأكل لحم كبشه لأن فيه سراً قدسيًا . ومن هذين التابعين انتشرت الصوفية فى السودان[1] .

هذا وتؤكد الرواية أيضا أن عبدالله العركى بعد أن تتلمذ على الشيخ عبدالرحمن بن جابر ذهب إلى غابة الهلالية ، وشرع فى التدريس وذاع صيته . وفى أيامه قدم تاج الدين البهارى وسلك محمد الهميم وبان بن النقا الضرير ، وأمر الشيخ عبدالله أن يسلك الطريق فامتنع . ولكن الشيخ عبدالله لما رأى عظم وقدر أتباع الشيخ تاج الدين فى الطريقة ، وأنه قد انقادت لهم الفونج والعرب . وأظهروا الكرامات وخوارق العادات ، وتحركت فى نفسه الرغبة ليسلك طريق الصوفية فسافر إلى مكة ليلحق بالشيخ البهارى ويأخذ منه الطريق ، ولكن الشيخ كان قد توفى فأخذ الطريقة عن خليفته الشيخ حبيب الله[2] العجمى . ولما رجع الشيخ عبدالله العركى إلى

---

(١) ص ٣٥ من طبعة إبراهيم صديق .

(٢) لم يذكر فى كتاب الطبقات لود ضيف الله شيء عن حبيب الله العجمى . وأرى أن حبيب الله هذا هو الملقب عادة بالشيرازى لأن ترجمته وتاريخ وفاته يحملانى على أن أعتقد أن الشيرازى هو بعينه العجمى . وها هى ذى ترجمته نقلاً عن ص ٥٠٠ الجزء الأول من خلاصة الأثر .

هو حبيب الله الشيرازى ، ثم البغدادى ، ثم المصرى ، الشافعى القادرى خرج من شيراز فارًا بدينه مما كان يطرق سمعه من سب أكابر الصحابة على رءوس الاشهاد . فحج ثم قطن بمصر ، بجامع الأزهر ، ملازمًا درس شيخ الإسلام الشمسى=

السودان قال له الشيخ محمد الهميم : أبيت أن تكون أخانا فى الطريقة فصرت ابن أخينا (يريد أنه أخذ الطريق عن حبيب الله العجمى ، وهو أخوهم لأنه تلميذ تاج الدين البهارى) ، ثم أخذ الشيخ عبدالله العركى فى إرشاد الناس فى علم الظاهر والباطن وتسليكهم الطريقة القادرية الجيلانية[١] . وليس المجال هنا مجال ذكر من سلكوا على الشيخ عبدالله العركى أو غيره من شيوخ الصوفية ، وإنما المراد شرح متى ، وكيف دخلت أول طريقة من طرق الصوفية فى السودان ، وظلت منتشرة فيه حتى الآن . وليست هذه هى الطريقة الصوفية الوحيدة بالسودان ، بل هنالك طرق أخرى سنعرض لها بالشرح .

الفقهاء والصوفية في السودان

كان من نتائج دخول الصوفية فى السودان أن رأينا بعض الفقهاء يصيرون شيوخ صوفية ويجمعون بين علم الظاهر وعلم الباطن . فمن هؤلاء الشيخ عبدالله العركى ـ الذى أشرنا إليه ـ والذى جمع بين الظاهر والباطن وسلك الناس طريق الصوفية كالشيخ أبى إدريس والشيخ أحمد النيل والشيخ محمد ولد داود الأغر ، وكان مشهوراً بالعلم ، وقام بالتدريس فى الحجاز وفى أبى حراز[٢] وكذلك كان الشيخ خوجلى بن عبدالرحن بن إبراهيم ممن جمع بين والتصوف والفقه . ومنهم أيضا الشيخ يوسف بن محمد الطريفى الذى مكث خمسا وستين سنة بعد أبيه فى التدريس وسلوك المريدين[٣] وكذلك الشيخ دفع الله العركى . والواقع أن السواد الأعظم من

= الرملى ، وتلميذه النور الزيادى . ففهم الفقه مع مشاركة فى العلوم كالنحو ، والكلام ، والمعانى ، والمنطق . ثم لزم الطريقة القادرية وجاور فى مشهد الشيخ عبد القادر ببغداد ، بعد مفارقة مصر . ومر بحلب فأقام بها أيامًا قليلة . ثم ارتحل إلى البصرة ، لعدم راحته فى بغداد لكثرة الروافض فيها وقوة شوكتهم . فقطنها وأعطى بها جزيرة كثر منها رزقه . وأقام ملازما للعبادة والتقوى ، وقراءة الدعاء السيفى ، المسمى بالحرز اليمانى ، وإكرام الضيفان ، وإقامة حلقة الذكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ وملازمته للجماعة ، والانشاء إلى الشيخ عبد القادر رضى الله عنه إلى أن مات سنة ١٠١٤هـ . فهذه الترجمة تشير إشارة واضحة إلى أن الشيخ حبيب الله العجمى أستاذ عبد الله العركى فى الطريقة القادرية هو حبيب الله الشيرازى . والراجح أن الشيرازى التقى بالبهارى فى بغداد حيث كان الثانى منهما يجاور بقرب ضريح الشيخ عبد القادر وذهب الأول هنالك للسبب عينه .

(١) ص ١١٢ من الطبقات طبعة إبراهيم صديق .

(٢) ص ١١٣ من طبعة إبراهيم صديق . هذا وقد شاع فى ذلك العهد ، والعهودالتالية له ، الجمع بين العلم والتصوف .

(٣) ص ١٨١ من طبعة صديق .

علماء السودان فى ذلك العهد (أول السادس عشر إلى نهاية الثامن عشر) كانوا أهل تصوف وزهد[1] . وكانوا فى هذه الحال شبيهين بالعلماء فى الأقطار الإسلامية الأخرى[2] وكان اتصاف العالم بالتصوف والورع أدعى إلى إقبال المتعلمين عليه ، وإكرام الناس له ، وإجلالهم لمقامه ؛ لأنه جمع بين علم الظاهر وعلم الباطن ، وعندى أن هذا الجمع بين العلم والتصوف هو الذى جعل مكان العبد ، وهو الخلوة ، مكان التعليم أيضا . فمعظم علماء السودان صوفيون . وقد كانت لهم خلواتهم التى ينفردون فيها لذكر الله والتعبد . وكان يفد إليهم طلبة القرآن أو العلم فى أماكن تعبدهم أى فى خلواتهم . ومن ثم صارت الخلوة مكان التعلم . وعندى أيضًا أن هذا الجمع بين وظيفة التعليم والتصوف هو الذى جعل الفقيه يسمى أيضًا فقيرًا ، وجعل الناس يخلطون بين الفقيه والفقير . فقد كان الفقيه متصوفًا أى فقيرًا إلى الله فى لغة التصوف . فأطلق الناس أحد الصوفيين وأراد الآخر معه [3] .

كذلك أرى أن هذا الجمع بين التصوف والتعليم هو الذى جعل الناس يطلقون لفظ حوار على طالب القرآن ، وطالب العلم ، والمريد [4] ، وقد ذكرت السبب فى إطلاق كلمة حوار على مريد الصوفى أو المتعلم ؛ لأن كلا منهما يعتمد على شيخه اعتماد الحوار من الإبل على أمه فى رضاع اللبن هذا إلى أن كلمة فقير استعلمت أيضا للطالب والمريد كأنه مجاز استعمل باعتبار ماسيكون من ذلك أن الشيخ عبدالرحمن بن أسيد كان يوقظ الفقراء فى الصباح المبكر[5] . وقد

---

(١) انظر من كتاب الطبقات طبعة منديل الصفحات ٥ إسماعيل بن جابر و٦ إدريس الأرباب الذى كان لا يتحدث فى علم من العلوم إلا قال السامع إنه لا يحسن غير هذا العلم و١٣ أبو إدريس محمد بن دفع الله و٢٠ إبراهيم بن عبودى و٢١ القدال بن إبراهيم بن عبودى . . . إلخ .

(٢) كشيخ الإسلام زكريا الأنصارى (توفى سنة ٩٢٦هـ) وعبد الرءوف المناوى (توفى سنة ١٠٣١) وعبد الوهاب الشعرانى (٩٧٣) .

(٣) It is significant that in the Sudan the terms faqih and faqi, which usually denote the opposite tendencies of raticnatism and mysticism, lecsme confused is the word fakir (pl. fuqara), which is applied irdiseriminete'y to the scholar and the mystic ano, at the lowest point of the scale, to the ignorsnt hedge-priest and to the dubious dealer in charms and amulets. (P. 664 J. R. A. S. 1937).

(٤) ص ١٠ و٢٤ و١١٨ كلمة حوار بمعنى المريد فى الطريقة . ص٩٤ و١١٤ كلمة حوار بمعنى طالب القرآن . وص ١١٦ حيران بمعنى طلبة العلم .

(٥) ص ١٢٣ من طبعة منديل .

ورد أن الشيخ تاج الدين البهارى لما أراد السفر إلى الحجاز جمع فقراءه وقال لهم : إننى جئت إلى هذه البلاد من أجل محمد الهميم خاصة . فكلمة فقراء[1] هنا تعنى المريدين من أتباع الشيخ تاج الدين .

ومما ذكر يتضح لنا كيف أن التصوف أثر فى تفكير الناس وفى اللغة التى كانوا يستعملونها ، بل وفى نظرتهم إلى العلماء باعتبارهم شيوخًا روحانيين . وهذا ما أضفى على الشيخ الفقيه وقارًا وقداسة ، وجعل الطلبة يقصدونه فيقتبسون من علمه ويشملون ببركته . وليس معنى هذا أن سلوك طريق الصوفية لم يجد مقاومة من بعض الفقهاء فى ذلك العهد ، لا فالأمر على عكس ذلك ، فإن الخلاف القديم بين الفقه والتصوف[2] قد ظهر فى السودان أيضًا . ولكن مؤلف الطبقات لصلاحه وطيبته ، واتباعًا لسنة الجماهير من الخلط بين الفقيه والفقير ، وقد جمع فى كتابه كل من هب ودب من العلماء والفقهاء والمتصوفيين والملامتية والمجاذيب والمعتوهين ، وأطلق عليهم اسم الأولياء والعلماء الصالحين[3] والواقع أن فى كتاب الطبقات خلطًا كبيرًا عجيبًا بين العلماء المتصوفين ، والمتصوفيين من غير العلماء[4] .

أما الخلاف بين الفقهاء والمتصوفين فى السودان فيظهر من الحوادث الآتية :

كان عبد الماجد بن حمد الأغبش من العلماء الفقهاء ، فقد حفظ القرآن على أبيه حمد وقرأ مختصر خليل على الفقيه شيخ الأعصر ، ودرس بعد أبيه ، واستمرت دراسته خمسين سنة ، وبلغت حلقته ألف طالب . ولكنه لم يسلك طريقة من الطرق ، بل كانت صلته بالله مباشرة من غير أن يتبع طريقة خاصة . وكان غيورًا على أصحابه ويمنعهم سلوك طريق القوم ويقول لهم :

---

(١) ص ١٤٣ من طبعة منديل .

(٢) وقد عقد توفيق الطويل فصلا فى رسالته عن التصوف فى مصر إبان العصر الإسلامى تحدث فيه عن حملات الناس على الصوفيين ، وعن النزاع بين أهل الفقة وأرباب الطرق ص ١٩٠-١٩١ .

(٣) ص ١٩٦ من Sudan Notes and Recorde, Vol. VI.

(٤) من ذلك أنه فى تراجمه للأسماء المبدوءة بحرف العين يأتى بفقهاء متصوفة حتى يصل إلى على النيل بن الشيخ محمد الهميم فيقول (ولما فرغنا من العلماء العاملين نذكر الصوفية فمنهم . . .) ثم يترجم لعلى النيل وهو صوفى فقط . ويأتى بعد ذلك بتراجم لشيوخ هم فى الواقع فقهاء وصوفية مثل عمار بن شايقى وغيره ص ١٤١ وما بعدها من طبعة صديق .

طريقتى القرآن وحزب البحر ، وقال تلميذه ، وابن أخيه ، حمد بن عبدالله حمد الأغبش ، سلكت الطريق على الشيخ بدوى أبو دبليق . وكان عمى غير موافق على هذا فرأيت فى المنام كأن عمى مسك بيدى والشيخ بدوى - شيخى فى الطريق - مسك بيدى الأخرى وكل منهما يجرنى إليه . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للشيخ بدوى : أيصح أن تنازع عبدالماجد فى ابنه[1] وحواره .

كذلك يروى صاحب الطبقات أن الشيخ صغيرون لما قدم من دار دنقلة إلى دار الأبواب (جهة شندى) وجد الناس على فريقين ، فرقة تقدح [2] فى الشيخ إدريس الأرباب وفرقة تمدح فيه . والشيخ ادريس هذا كان من كبار رجال الصوفية عالمًا بالغيب والأسرار السماوية ، نزل عليه الفيض الإلهى والعلم الربانى فتكلم فى علوم الأولين والآخرين والأمم الماضية من غير أن ينظر فى كتاب[3] فقد ظهر من هذاا أنه كان للشيخ إدريس قادحون ، لا لأنهم كانوا لا يؤمنون بالصوفية كمذهب مقبول ، ولكن لشكهم فى أن الشيخ إدريس كان صوفيًا يعلم الغيب[4] حقا .

الصوفية من غير الفقهاء والعلماء

وكان أغلب صوفيى السودان - كما قلت - من غير العلماء . ذلك لأن حالة الشعب الثقافية كانت بدائية لدرجة لم يتوافر معها من استخدام العقل ، والغوص على حقيقة التعاليم الإسلامية ، وتدبر أصول الدين مايجعل الناس يميزون ماهو من أصل الدين وما هو بدعة . وفى مثل هذه الحال ينفذ إلى قلوب الناس ، ويتملكهم كل شيء غريب طريف غير مألوف كالتحدث بالغيب والكرامات ، وادعاء الطب الروحانى ، ولاسيما إذا جاء هذا الغريب عن طريق الدين وكان بين أقوام متعطشين للدين هذا إلى أن ملوك السودان وأمراءه - وقد وجدوا أنفسهم يؤسسون دينًا جديدًا وينشرونه بين وثنيين ومسيحيين - رحبوا بكل من تحدث باسم الدين .

---

(١) ص ١٢٢ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ٩ من الطبقات طبعة منديل .

(٣) ص ٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) يدل على ذلك أن الشيخ صغيرون قال لتلاميذه سافروا إلى هذا الرجل فإن وجدناه على حق سلكناه عليه طريق القوم ، وإن وجدناه على باطل رددناه عنه (ص ٩ من طبعة منديل) .

فكان لهذا أثره فى ظهور كثيرين من الأولياء والمتصوفين من الجهلاء والأميين وفى اجتذاب كثيرين من هذا النوع من خارج السودان [1] .

وكنتيجة لحال أهل السودان الثقافية البدائية ، ولتعطشهم لكل شىء يمت للدين بسبب ، أكبروا من قيمة العلم والعلماء ولكن الصوفية والمتصوفين كانوا أهم من العلم والعلماء عندهم . فإن حالة الشطح التى كانت تعترى الصوفيين ، وأخبارهم بالغيب ، وقيامهم بالكرامات الخارقة للعادات ، كانت تغنيهم عن اللجوء إلى العلماء والفقهاء ومن هذا نفهم لم كان السودان ـ أكثر من غيره من الأقاليم الإسلامية ـ مغريًا الجهال والأميين بادعاء الصوفية واتخاذها .

ومن الصوفيين الجهلة الذين ذكرهم مؤلف الطبقات خليل بن على الصاردى[2] ، الذى كان فى ابتداء أمره خمارًا شرابًا ، فأصابه مرض فى بطنه ، فشكا للشيخ حسن ولد حسونة . فقال له : لقد دخل بطنك خير ، فصم . ثم شرع فى الصيام فصام النهار وقام الليل . وكان يصلى نهاره أجمع . وله كرامات مشهورة ، ومنهم الشيخ محمد الهميم الذى أخذ الطريق عن الشيخ تاج الدين ، فقد كان من أكبر الصوفيين ذوى الكرامات والشطحات ، مع كونه أميًا لم يقرأ إلا إلى سورة[3] الزلزلة . ومنهم أيضا أبو القاسم الجنيد بن الشيخ على النيل[4] الذى كان خليفة والده فى الطريقة الجيلانية ، والذى كان يرشد الناس ويسلكهم ويربى المريدين . وغير هؤلاء كثيرون فى الطبقات .

كرامات الصوفية

وكان للصوفية فى السودان[5] كرامات كتلك التى لهم فى أى قطر آخر من الأقطار الإسلامية ، كرد الغائب مثلا ، فمن ذلك أن خليل بن الرومى الولى قدم عليه رجل وقال له :

---

(١) ويقول هيللسون فى ص ٦٦١ من مجلة الجمعية الأسيوية الملكية : والظاهر أن ملوك هذه الأسرة رحبوا بإقامة العلماء فى بلادهم وكان كرمهم وتسامحهم من الأسباب التى لم تجذب فقط إلى السودان العلماء النابهين ، والصوفيين المخلصين ، بل اجتذبت أيضًا كثيرًا من يدعون العلم والتصوف والذين همهم استغلال حسن نية هؤلاء القوم الطاهرى القلب المتمسكين بدينهم الجديد .

(٢) ص ٧٨ طبعة منديل . ومثله أيضا سليمان الطوالى ص ٨٥ .

(٣) ص ١٤٣ طبعة منديل .

(٤) يلاحظ الشبه بين هذا الاسم واسم أبى القاسم الجنيد الصوفى المشهور . ولا شك كانت التسمية على سبيل التيمن .

(٥) عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا ممتعا عن علم التصوف . وفيه يعلل لقدرة المتصوفين على كشف حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شىء منها .

لى خادم هربت منى ، فأسال الله أن يردها لى . فقال له الولى : أحضر لى برمة من المريسة ، وشلاتيت ، وديكا خصيبًا . . فجاءه الرجل بذلك . فلما شرب الولى ومريدوه المريسة ، قال الرجل : اذهب إلى النيل ، وناد يا بخيتة ثلاث مرات . ففعل الرجل ولم يكد يتم الثالثة حتى جاءته الخادم حاملة قربة ماء ، فقالت له : ياسيدى ما جاء بك هنا فى نهر عطبرة ، فقال لها : هذه سنار وليست ناحية عطبرة ، ثم أخذها السيد[١] وانصرف .

ومن كراماتهم الإخبار بالغيب كما حدث من مختار[٢] ولد أبو عناية فقد أخبر شيخه طه ابن عمار النويرى بالغيب فى عدة مناسبات منها تاريخ زواج الشيخ ، وتاريخ حمل زوجه ، وتاريخ ولادة ابنه أبى القاسم الجنيد . ومن كراماتهم أيضا العلاج من الجان والصرع وقد كان الشيخ سرحان بن الفقيه صباحى[٣] ولد طراف طبيبًا يطيب من الجن والصرع . وكذلك كان الشيخ حسن ولد حسونة يبرئ ذوى العاهات والمرضى . فقد جاء إليه رجل أعمى فمسكه من قفاه وهزه فأبصره . وكان لملك سنار أخ «ماسكاه غزالة» (مريض بالجن) فسافر إليه الشيخ[٤] حسن وشفاه . ومنها الطيران فى الهواء وقد ذكر مؤلف الطبقات أن عبد الشركة بن الحاج الجعلى خطف جملا وطار به فى الهواء حتى رده إلى محله[٥] ، وشبيهه بهذا أيضا ما يروى عن محمد قيل ابن الحاج حبيب ، فقد ذهب لزيارته صديق ومكث عنده مدة . وكان يصلى معه الصلوات الخمس ففى ذات يوم ذهب الصديق هذا لصلاة الصبح مع الشيخ فرآه طائرًا بين السماء والأرض حتى نزل عند باب الخلوة . فخطا خطوات عند نزوله كالصقر . ثم دخل خلوته[٦] . ومن كراماتهم المشى على الماء كالذى حدث من الشيخ حسن ولد بلبل الركابى فقد كان مرة يمشى على الماء ، ومعه بعض جيرانه ، وهو يقول «ياكيوم» بحسب لسانه الأعجمى ، ولكن حواره نطق الكاف قافا فهوت رجله فى الماء[٧] .

---

(١) ص ٧٧ وكذلك ص ١٢ و١٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٢) ص ٥٦ طبعة منديل . ومن أمثلة الأخبار بالغيب قول محمد بن عبد الدافع عن طعام قدم له إنه حرام . وبالبحث عن حقيقته ظهر أنه من كسب عاهر ص ١٥٢ طبعة منديل .

(٣) ص ٨٩ و٩٥ من الطبقات طبعة منديل .

(٤) ص ٥٠ من الطبقات طبعة منديل . كذلك كان عبد الرحمن بن طراف يطيب من الشياطين بألف ب ت ث ج ح خ (ص ١١٣) .

(٥) ص ١٦٧ من الطبقات طبعة منديل .

(٦) ص ١٥٨ من طبعة منديل .

(٧) ص ٥٤-٥٥ من طبعة منديل . وشبيه بهذا ما رواه الشعرانى عن الشيخ على الدويب (ص١٢٣ الجزء الثانى من الطبقات) وما رواه مؤلف تاريخ السودان (العربى) عن الشيخ محمد الكابرى أنه كان يمشى على الماء (ص٤٨) .

ومما اختص به الأولياء - في السودان كما في غيره في البلاد - رؤية الخضر[1] أو مقابلته والاجتماع به ، كالذي حدث للشيخ موسى بن يعقوب الفضلي[2] وللشيخ حمد النحلان الذي اجتمع بالخضر[3] وأخذ عليه الطريق . لا بل من الأولياء من رأى النبي صلى الله عليه وسلم كالشيخ خوجلي[4] الذي كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم ٢٤ مرة في الليلة . وكالشيخ إدريس الأرباب[5] وكالشيخ عبدالرحمن بن صالح ولد بان النقا[6] .

ولم يكن اعتقاد الناس في الأولياء مقصوراً عليهم مدة حياتهم ، بل كذلك بعد موتهم . وكيف لا؟ والولي بعد الموت أقرب إلى الله ، وأطهر ، وأقدر على البركة والشفاعة ، والنفع ، والضرر[7] وكان الولي الميت في السودان يتحدث إلى من يستشيره أو يزوره ، كما حدث من بان بن النقا ولد عبد الرازق مع حمد بن المجذوب[8] ، وكما حدث من مدني الناطق بن عبدالرحمن ولد حمدتو[9] . وشبيه بهذا ماذكره عبدالوهاب الشعراني عن نفسه أنه كان صديقًا حميمًا للشيخ أبي الفضل الأحمدي . فلما مات الشيخ ذهب الشعراني سنة ٩٤٢هـ إلى قرب

---

(١) حقيقة الموضوع (موضوع الخضر) هي : كما ورد في القرآن أنه نبي من الأنبياء قال فيه الله تعالى ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلمناه من لدنا علما﴾ ، وكان له مع سيدنا موسى حديث طويل ذكر في سورة الكهف الآيات (٦٤-٨١) . والروايات الإسلامية على أنه حي حتى الآن . وأنه يأتي الناس في صور مختلفة ويعطيهم بعض الطرق الصوفية ويرشدهم .

وفي دائرة المعارف للدين والأخلاق Encycl pf Rel. & Ethics أن أصل هذه الشخصية غامض ولها عدة مصادر من الأساطير والخرافات Legends & Myths التي كانت شائعة في البلاد التي انتشر فيها الإسلام .

(٢) ص ١٤٦ من طبعة منديل .

(٣) ص ٥٧ من طبعة منديل . راجع كذلك الصفات ١٧ و٣٦ و٨٨ و٩٥ و١٠٠ و١٤٨ .

(٤) ص ٧٢ .

(٥) ص ١٢ .

(٦) ص ١٢٩ . ومن هؤلاء الأولياء من زعم أنه رأى الله تعالى .

(٧) والواقع أن هذه كانت الحال في جميع بلاد الإسلام وهي مستمرة إلى الآن ويقول إدوارد وليم لاين في كتابه Minners and Customs of Modern Egyptians ويحمل المسلمون ، وبخاصة المصريين على اختلاف مذاهبهم - ما خلا الوهابيين - للأولياء المتوفين احتراما وتقديسا لا سند لهما في القرآن أو الحديث أكثر مما يحملون للأحياء منهم . ويزور المصريون هذه الأضرحة وغيرها أحيانا إما إجلالا للميت وقياما بأعمال تستحق الثواب لأجل هؤلاء المكرمين ، وإما بقصد التماس البرء من مرض أو طلب النسل معتقدين أن فضائل الميت تكفل قبول دعواهم قبولا مرضيا (الرسالة العدد ٤٦٠ من المجلة) .

(٨) ص ٣٦ .

(٩) ص ٩٠ و٩١ طبعة منديل .

قبره وقال له : أقسم عليك بالله إلا ما نطقت من القبر وعرفتنى بقبرك . فناداه بقوله : تعالى فإنى هنا وعندئذ عرف الشعرانى مكان قبره تمامًا[1] .

وإنما ذكرت كل هذه الكرامات لأبين فقط ، ما كان يعتقده الناس فى الأولياء من قدرة على الإتيان بالمعجزات وخوارق العادات ، ولأبين أيضا مقدار تغلغل الروح الصوفية ، والمظاهر الصوفية فى حياة الناس وثقافتهم وإيمانهم وسلوكهم فى ذلك العهد . ولم يكن هذا فى السودان بدعًا - كما أشرت من قبل - بل كان روح العصر السائدة فى جميع البلاد الإسلامية ليس فقط من القرن العاشر الهجرى بل قبل ذلك بقرون . يحدثنا عنه القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ ، إذ يقول فى مقدمة رسالته[2] «ثم اعلموا أن المحققين من هذه الطائفة ، طائفة الصوفية انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحى غير نسائها

وحصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقل الشبان الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام . واستخفوا بأداء العبادات ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال . وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال . وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو ، وليس لله عليهم عتب ولا لوم . وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، وزالت عنهم أحكام البشرية . . . .» .

وهذا القول من القشيرى يدلنا على أمرين : أما أحدهما فهو أن التصوف بمعناه الصحيح دخله زيغ وغش ، وادعاء من ليس له أهلا منذ عهد القشيرى أى قبل ظهور الإسلام بالسودان بخمسة قرون . والأمر الثانى هو ظهور طائفة من الصوفية تدعى أنها قد تحررت من الأغلال ، وأن ليس لله عليهم عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بالأسرار الأحدية وزالت عنهم أحكام البشرية . وهؤلاء هم الذين يسمون بالملامتية وقد ظهروا فى السودان أيضًا ، ولذلك نذكر عنهم شيئًا .

---

(١) ص ١٥٧ ج٢ من الطبقات الكبرى .

(٢) ص ١٧ .

وأصل الملامتيـة[١] فى التصوف قوم تعودوا فعل ما يجلب عليهم من الخلق السخط والازدراء ، ويرسل ألسنتهم بالذم والتأنيب . أو هم قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم . فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع التقرب . وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا محاسنهم .

ويذكر لنا عبدالوهاب الشعرانى فى كتابه الطبقات بعض هؤلاء الملامتية وماكانوا يأتونه ، فمنهم الشيخ على الدويب[٢] الذى كان يمشى على الماء فى البحر ومنهم الشيخ بركات الخياط الذى ما كان يصلى أبدًا[٣] . ومنهم أيضا الشيخ شعبان المجذوب الذى كان يجلس على كراسى المساجد يوم الجمعة وغيرها ويقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن فلا ينكر عليه أحد[٤] .

وقد كان ملامتية السودان كملامتية المسلمين فى البلاد الأخرى يفعلون ما يخالف الشرع وهم فى أفعالهم مفوضون ويستوجبون لوم الناس فيعطب الملائم ، ومن هؤلاء الملامتية الشيخ محمد الهميم الذى تزوج نحواً من سبعين امرأة والذى جمع بين بنتى الشيخ بان بن النقا الضرير الاثنتين ـ كلثوم وخادم الله ـ كما جمع بين بنتى أبى دندودة فى رفاعة . ولما لامه على ذلك القاضى دشين قاضى أريجى وقال له لقد خمست وسدست وعشرت . ثم بعد ذلك جمعت بين الأختين إنك تخالف بذلك كتاب الله وسنة رسوله . قال له محمد الهميم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لى بذلك . ولكن القاضى دشين لم يقتنع بهذا العذر وقال له : إننى فسخت كل هذه الزيجات . فدعا عليه الشيخ محمد الهميم وقال : الله يفسخ جلدك . فمرض القاضى ومات بفسخ الجلد[٥] .

---

(١) ص ١٦ من كتاب الملامتية والصوفية وأهل الفتوى للدكتور أبو العلا عفيفى .

(٢) ص ١٢٣ الجزء الثانى من طبقات الشعرانى .

(٣) ص ١٣٠ الجزء الثانى من طبقات الشعرانى .

(٤) ص ١٦٧ الجزء الثانى من طبقات الشعرانى .

(٥) ص ١٤٢ من الطبقات طبعة منديل . وفى S. N. R. Vol. VI صفحة ٢٢٣ «هذا ما ورد فى الطبقات ولكن تتمة القصة لم ترد فى هذا الكتاب وإنما على ألسنة الناس . فإنه يقال إن النبى ظهر للقاضى دشين فى المنام وقال له إن حقيقة الأختين اللتين تزوّج بهما الهميم هى أن الأختين كانتا فى الواقع من أمين مختلفتين . وقد حملت إحدى هاتين الأمين بواحدة من الأختين سفاحا . وإذاً فلا علاقة بين هاتين الزوجتين» .

ومن الملامتية أيضاً إسماعيل بن مكى الدقلاشى الذى كان يتغزل فى النساء والذى كان إذا أخذه بالجذب لا يفيق إلا على ضرب الربابة والرقص .

ويظهر أن طبقة الملامتية هذه كانت منتشرة فى كل البلاد الإسلامية ، وكانت حقا موضع نقد وازدراء ، وأن كثيراً من المثقفين لم يعتقدوا فى الملامتية هؤلاء بل اتهموهم بالإلحاد والزندقة . من ذلك قول المقريزى(١) : إن قومًا «من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا إليهم وما هم منهم فى شىء بل هم فى غرور وغلط يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة ودعوة أخرى وينتهجون مناهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله وأن هذا هو الظفر بالمراد والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام . وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد . . ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة» .

وإذا جاز لنا القول بأن كلام المقريزى ينطبق على كثير من متصوفة السودان ولاسيما الملامتية فإننا لانعدو الواقع . ولكن يظهر أن متصوفة البلاد الإسلامية الأخرى كانوا يدعون التصوف طلبًا للعيش وبدافع الكسل والميل إلى الراحة بينما كان ملامتية السودان من النوع المعتوه المجذوب الذى كان يأتى المنكر لضعف فى العقل .

نفوذ الصوفيين فى السودان

أوضحت فى باب سابق نفوذ العلماء ومكانتهم الاجتماعية . والذى يقرأ كتاب الطبقات لايجد للصوفيين نفوذًا أو مركزًا دون نفوذ العلماء(٢) وجاههم . ذلك لأن العالم والصوفى ـ كما ذكرت ـ كانا يجتمعان فى شخص واحد(٣) غالبًا وأن العالم إذا لم يكن صوفيًا مريدًا تابعًا لطريقة بعينها فإنه زاهد ورع صالح تقى فاضل على صلة بالله . وهذه الصلة وحدها تكفى

(١) ص ٢٧٢ جزء ٤ من الخطط .

(٢) راجع طبقات الشعرانى فهى ملأى بأخبار الصوفيين ونفوذهم وسلطانهم على الأمراء وأفراد الشعب .

(٣) وكان الفقراء يقومون بوظيفة الوعاظ والمعلمين والأطباء والمحدثين بالغيب وهم يهيمون فى البلاد على وجوههم يحملون معهم عصا وسلطانية يملؤها الناس بالطعام . ويعتقد العامة والبسطاء أن هؤلاء الدراويش هم أولياء الله حتى إن الباشا العظيم نفسه ليستدعيهم أحيانا إلى داره الفخمة ليقرأوا له القرآن فى المساء أمام الضيوف (ص ٣٢ من كتاب مهدى الله تأليف رتشارد برمان الترجمة الإنجليزية) .

لاعتقاد الناس فيه البركة والتقرب إليه . ويروى لنا مؤلف الطبقات أمثلة كثيرة تدل على عظم تقدير الخاصة والعامة للصوفيين الحقيقيين منهم والأدعياء . ومن ذلك الشيخ حمد بن المجذوب[1] الذى سلك طريق القوم على الشيخ على الدراوى تلميذ أحمد بن ناصر الشاذلى فقد كان كثير الشفاعة عند الملوك والسلاطين ولاسيما ملوك جعل ولم ترد له شفاعة ومن ردّها نكب سريعاً . وكان السلاطين و الملوك والعامة يقبلون شفاعة الأولياء والصوفيين خشية غضبهم وعطبهم .

وقد استشفع الشيخ نور الدين بالشيخ العجيل الكبير فى رفاعة لم يقبل الشيخ العجيل الشفاعة فدعا عليه نورالدين فما دخل العجيل[2] قرى حتى مرض ومات . ومن الأولياء من كان واسع النفوذ يفد إليه الناس من جميع أنحاء السودان للتبرك وتقديم الهدايا كالشيخ إدريس ابن أرباب الذى كانت تفد إليه من جهة البحر قبائل عرب أكد وعرب التاكة وجهينة كما يأتيه الناس من الغرب من جهة جبل أم على وجبل أريجى ومعهم السمن والعسل والدقيق والقماش والإبل . ومما يروى عن الشيخ إدريس هذا أنه ذهب إلى سنار إحدى وسبعين مرة مستشفعًا عند الملوك فى مصالح المسلمين[3] .

على أن من رجال الصوفية من كان يأبى أن يتصل بالملوك وذوى السلطان اعتزازًا بنفسه وترفعًا عن الطلب وقضاء الحاجات كالشيخ أبى إدريس محمد بن الشيخ دفع الله فإنه ما وقف على باب أحد للشفاعة ، وقد رأى مرة الشيخ عجيب المانجلك مارا فى ركبه فانزوى منه فى ظل شجرة ورقد وقال لمريديه إن سألكم من الراقد فأخبروه أنه فقير مجذوب[4] ، وكذلك كان الشيخ خوجلى فإنه ما كان يقوم لأحد من أولاد عجيب ولا ملوك جعل[5] .

---

(١) ص ٧٣ من الطبقات طبعة إبراهيم صديق .

(٢) ص ١٦٧ طبعة منديل .

(٣) ص ١١-١٢ طبعة منديل وكذلك ص ٢١-٢٢ من الكتاب نفسه .

(٤) ص ١٤ من طبعة منديل . يظهر أن الاستشفاع عند الملوك والسلاطين كان أمرًا شائعًا فى السودان . ولذلك نجد الشيخ فرح بن تكتوك ينهى عنه فى قصيدته التى مطلعها .

يا واقفا عند أبواب السلاطين ... أرفق بنفسك من هم وتحزين

(٥) ص ٧٣ من الطبقات طبعة منديل .

وعلى أية حال فقد كان الناس يتقربون من الصوفية ولايخالفون رغباتهم لأنهم مصدر خير وبركة ولأن كلمتهم مقبولة عند الله ولأنهم وسيلة للتقرب إليه وجلب الخير أودفع الضرر كما حدثنا بذلك بركهارت عن أسرة المجاذيب بالدامر ومقدار احترام الناس لأفرادها حتى لقد كان اللصوص وقطاع الطرق لايقربون القوافل التى فى أرضهم أو قاصدة ديارهم[1] .

أنواع الطرق الصوفية فى السودان

ذكرت أن الطريقة القادرية الجيلانية كانت أولى الطرق التى دخلت فى السودان وأن دخولها كان من الشرق على يد تاج الدين البهارى ، كما ذكرت أيضًا أن التصوف بمعناه الأوسع وهو الزهد فى الدنيا والتقرب إلى الله بالعبادة وترك الشهوات والاختلاء بعيدًا عن الناس قد عرف بالسودان وكان له معتنقون قبل دخول الطريقة الجيلانية .

والظاهر أن صلة السودان الثقافية بالبلاد الإسلامية الأخرى قد سهلت لبعض الفقهاء من السودانيين أن يسلك طرقًا أخرى غير الجيلانية ، ومن هذه الطرق الطريقة الشاذلية ، وقد دخلت السودان بعد الطريقة القادرية ، واشتهرت بها أسرة المجاذيب[2] فى الدامر ، والظاهر أيضًا أن هذه الطريقة دخلت السودان فى أواخر القرن الحادى عشر أو أول الثانى عشر الهجرى بدليل أننا لم نسمع بأحد شاذلى الطريقة فى السودان قبل الشيخ خوجلى (١٠٧٨ ـ ١١٥٥) فقد ورد فى الطبقات[3] أن أوراده شاذلية ؛ لأن شيخه كان تلميذ الشيخ محمد بن ناصر الشاذلى[4] (المتوفى سنة ١٠٨٠هـ) ، هذا ويجوز أن يكون الذى أدخل الطريقة الشاذلية فى السودان هو عبدالله[5] الشريف نزيل الحلفاية الذى سلك الطريق على الشيخ محمد بن ناصر الشاذلى نفسه .

---

(١) ص ٢٧٠-٢٧٢ من الكتاب المسمى رحلات فى النوبة . هذا وقد كان الصوفيون موضع إجلال العامة والخاصة أيام الحكم المصرى بالسودان أيضا فقد كان الشيخ (أى شيخ الطريقة) ينال من إجلال الناس له ما يشبه إجلال الحاكم العام . ويقبل الجماهير أيادى الفقراء ومعلمى القرآن المدثرين بالخرق والحفاظ وكتاب الحجب (ص٣١ من كتاب مهدى الله المشار إليه الترجمة الإنجليزية) .

(٢) ص ١٣٩ الجزء الأول من كتاب تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٣) ص ٧٤ طبعة منديل .

(٤) أنظر ص ١٧٠ من كتاب Les Confreries Religieuses Musulmanes .

(٥) لم يذكر مؤلف الطبقات تاريخ قدوم عبد الله الشريف إلى السودان . ولكنا نجد (ص١٢٨) أن عبد الله بن صالح بن بان النقا قص حلما له على هذا الشريف . وقد عاش عبد الرحمن بن صالح من سنة ١١٢١ إلى سنة ١١٧٧ ومعنى هذا أن الشريف عبد الله كان بالسودان فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى .

وممن اتبع الطريقة الشاذلية أيضًا الشيخ حمد بن محمد مجذوب الجد الأكبر للمجاذيب الذى أخذ الطريق عن الشيخ على الدراوى تلميذ سيدى محمد بن ناصر الشاذلى[١] وإلى هذا تشير الإجازة التى بعث بها الشيخ على الصعيدى العدوى (١١١٢ ـ ١١٨٩) إلى حمد بن محمد بن مجذوب (١١٠٥ ـ ١١٩٠هـ) وفيها يجيزه الشيخ العدوى ما ورد عن أبى الحسن الشاذلى من الأذكار والأوراد[٢]، وقد اشتهرت هذه الطريقة فى السودان باسم جديد هو الطريقة المجذوبية نسبة إلى المجاذيب الذين كان لهم فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) شهرة واسعة فى السودان لما كانوا عليه من العلم والصلاح[٣]، ومن هذا يتضح أن الطريقة الشاذلية وردت على السودان من الغرب على حين أن القادرية الجيلانية[٤] وردت عليه من الشرق .

وكان من الممكن أن يسلك الفرد الواحد طريقتين من الطرق الصوفية ويجمع بين فضائلها وأذكارها وأورادها وآدابها ، ولكن المتقدمة من هاتين الطريقتين هى الأساس وهى التى ينبغى للمريد الإكثار من أذكارها وأورادها[٥]، وكان معنوى بن مدنى ممن جمع بين الطريقتين فقد أخذ عن الشيخ بركان بن أحمد وأخذ أيضًا من الفقيه شرف الدين ولد برى وكان يسلك الطريقتين ، وقد ورد لنا ما يفيد أن الشيخ خوجلى كانت طريقته الأساسية قادرية بينما كانت الأوراد[٦] شاذلية ، وكان هو يتابع السادة الشاذلية فى أقوالهم وأفعالهم بل كان يلبس الثياب الفاخرة ـ بعكس طريقة القادرية التى كانت تتميز بلبس المرقعات ـ اقتداء بالشيخ أبى الحسن الشاذلى[٧] .

---

(١) ص ٧٠ الطبقات طبعة منديل تجد الاسم أحمد بن ناصر وصحته كما ورد فى ص ١٧٠ من كتاب Les Confreries Rel. هى محمد بن ناصر توفى ١٠٨٠هـ .

(٢) انظر هذه الإجازة فى المجلد الثالث مجلد الملحقات .

(٣) انظر ص ٢١٣ من The Anglo-Egyptian Sudan from Within .

(٤) من اشتهروا بالطريقة القادرية الجيلانية فى أواخر الفتح للمصرى الشيخ العبيد ود بدر شيخ أم ضبان والشيخ الضوى بن عبد الرحمن من ذرية الشيخ إدريس بن الأرباب فى العيلفون على النيل الأزرق .

(٥) ص ٦٠ من الرسائل الميرغنية فى آداب الطريقة الختمية .

(٦) ص ٧٤ من الطبقات طبعة منديل .

(٧) ص ٧٣ من الطبقات طبعة منديل .

ومن الطرق المعروفة فى السودان أن الطريقة السمانية التى هى فى الأصل إحدى فروع الطريقة الخلوتية والتى أسسها فى الحجاز الشيخ محمد السمان[1] المدفون بالمدينة وقد دخلت بلاد سنار على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير الذى مات[2] سنة ١٨٢٣ ، وممن سلك هذه الطريقة وترك الطريقة القادرية اليعقو باب وكان الشيخ محمد شريف نور الدايم مدرس المهدى رئيس هذه الطريقة فى العهد المصرى . وكان المهدى نفسه من أقوى أتباعها حتى اختلف مع شيخه واتخذ طريقة خاصة به[3] .

وفى آخر سلطنة الفونج دخلت الطريقة الميرغينية السودان من بلاد الحجاز على يد السيد محمد عثمان الميرغنى المولود فى قرية السلامة من أرض الطائف[4] سنة ١٧٨٧م وقد سمى بالميرغنى نسبة إلى جد له يسمى السيد على الميرغنى ومات السيد محمد عثمان هذا سنة ١٨٥١ (١٢٦٨ هـ) بالطائف ودفن بمكة . وقد طوف السيد محمد عثمان فى أنحاء السودان بنشر طريقته التى اتبعها خلق كثير فى دنقلة وكردفان وكسلا . ثم أسس قرية له تسمى الختمية فى جهة كسلا وهى مركز الأسرة . ولهذه الطريقة رسائل مطبوعة تجمع آدابها وأورادها وأذكارها وكل ما يتصل بها[5] .

ومن فروع الطريقة الميرغنية الطريقة الإسماعيلية . وهذه منتشرة فى كردفان ومؤسسها هو الشيخ إسماعيل الولى بن عبدالله الكردفانى . وقد جاء عبدالله من دنقلة[6] بتجارة إلى كردفان

---

(١) ص ٣٧٩ من كتاب .Les Confreries Rel. Musul

(٢) ص ٨٠ من Notes on the Tribes and Prominent etc

(٣) ص ٢١٢ من .The Anglo-Egyptian Sudan from Within

(٤) ص ١١٣ من الرسائل الميرغنية فى آداب الطريقة الختمية . وينتهى نسب الأسرة الميرغنية إلى على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على . وكذلك انظر ص ٥٤٢ من كتاب Les Confreries Religieuse Musul.

(٥) للسيد محمد عثمان الميرغنى تآليف عظيمة اطلعت على بعضها منها تفسير القرآن ومنها كتاب فى الحديث اسمه «رحمة الأحد فى اقتفاء أثر الرسول الصمد» ونظم عقيدة التوحيد وله كتاب فى الوعظ وشرح ألفية بن مالك وشرح الأجرومية . وله فى التصوف كتاب «الخزانة القدسية» والفيوضات الإلهية والفتح المبروك والهبات المقتبسة السنية .

(٦) هذه الأسرة مشهورة بالعلم والدين من قديم الزمان . فقد كان جدها الفقيه على بن برصى رجل علم ودين . أرسل ابنه بشارا إلى جزيرة ترنج ليتلقى العلم على إبراهيم البولاد حينما رجع من مصر . ولما كانت منازل أسرة بشارا فى حوش مار غربى النيل وغربى جزيرة ترنج . وكان اسم بشارا من الأسماء الشائعة بين تلاميذ الشيخ البولاد أطلق الشيخ على بشار لقب القرباوى إشارة إلى أنه قدم من غرب الجزيرة (عن النسبة صفحة ٧١ ج٢ تاريخ العرب فى السودان) .

وتوطن فيها ورزق هناك ابنه إسماعيل . فنشأ مشتغلا بالقرآن وعلوم الدين وأخذ يعلم الناس العلوم الإسلامية إلى أن حضر إلى كردفان السيد محمد عثمان الميرغنى . فأخذ عليه إسماعيل الطريقة وصار من كبار الأولياء وفرع منها طريقته الخاصة التى عرفت بالطريقة الإسماعيلية . وهى لاتختلف عن الطريقة الميرغنية فى شىء إلا باختصار بعض الأذكار وتطويل بعضها . وللشيخ إسماعيل تآليف كثيرة جاوزت الأربعين وتوفى سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠هـ) بالأبيض ودفن هناك بمسجده وبنى على قبره قبة تزار إلى الآن[١] . وقد خلف السيد إسماعيل فى الطريقة ابنه السيد المكى الذى كان موضع ثقة كبيرة من الخليفة عبدالله[٢] .

والتيجانية[٣] من الطرق التى دخلت السودان فى القرن التاسع عشر أواخر الفتح المصرى وهى فروع من الخلوتية وأتباعها من أولئك المهاجرين الذين وفدوا على السودان من الغرب كالفلاتة والهوزا . وهى معروفة ومنتشرة[٤] فى دارفور . وقد كان لها خلفاء فى بربر عند استرجاع السودان .

والطريقة الأحمدية أو الإدريسية معروفة فى السودان ولها أتباع غير قليلين فى دنقلة وغيرها . وهى تعزى إلى السيد أحمد بن إدريس[٥] وهى حديثة العهد فى السودان . ولهذه الطريقة فروع فى مصر وفى بلاد العرب .

ومن فروع هذه الطريقة ، الطريقة الرشيدية نسبة إلى إبراهيم الرشيد من مريدى السيد أحمد ابن إدريس ، وأتباعها فى دنقلة وأم درمان وبعض جهات النيل الأبيض ولاسيما الكوة[٦] .

---

(١) ص ١٣٩ ج١ من تاريخ السودان لنعوم شقير . ومن أبناء السيد إسماعيل هذا الشيخ أحمد الأزهرى الذى ذهب إلى مصر وجاور فى الأزهر من ١٨٣٠-١٨٤٠م وكان أثناءها طالبا ومدرسا لمذهب المالكية . ثم رجع إلى الأبيض . وفى سنة ١٨٨١ أرسله رؤوف باشا مع البعثة التى أرسلها إلى جزيرة أبا للمفاوضة المهدى وقضى عليه هناك مع بقية أعضاء البعثة (ص ٦١ ج٢ من تاريخ العرب فى السودان لمكميكل) .

(٢) ص ٢١٢ من كتاب The Anglo-Egyptian Sudan from Within .

(٣) ومؤسسها هو أحمد بن محمد بن المختار التيجانى المولود فى عين مهدى من مراكش سنة ١٧٣٧ (١١٥٠هـ) والذى مات فى سبتمبر سنة ١٨١٥ (شوال ١٢٣٠) وقد انتشرت طريقته فى إفريقيا الغربية وفى الصحراء الكبرى إلى أن وصلت السودان (ص ٤١٣-٤٦٨ Les Confreries) .

(٤) ص ٢١٣ من كتاب The Anglo-Egyptian Sudan from Within.
وكذلك ص ١٣٩ ج١ تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٥) ظهرت هذه الطريقة على يد أحمد بن إدريس بمدينة فاس فى مراكش فى القرن الثامن عشر . وكان السيد أحمد بن إدريس من أتباع الطريقة الشاذلية .

(٦) ص ٢١٣-٢١٤ من كتاب The Anglo-Egyptian Sudan from Within .

ويجب هنا أن نذكر أنه لما دخلت الطريقة الجيلانية والطريقة الشاذلية بالسودان لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه ، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين فى أنحاء البلاد كل منهم شيخ وخليفة ومريد فى الوقت نفسه . وكل منهم مستقل عن بقية إخوانه اللهم إلا من حيث الرباط الروحى الذى يربطهم جميعًا باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة . ولم يدخل النظام على الطرق الصوفية إلا فى العهد المصرى حين تجمع مريدو كل طريقة حول شيخ الطريقة الأكبر الذى كانت له الكلمة العليا والذى كان له خلفاء مجازون يمثلونه فى جهات مختلفة ولهم الحق المفوض فى تسليك المريدين[١] . والرأى عندى أن هذا النظام الصوفى إنما هو أثر من آثار احتكاك شيوخ الطرق فى السودان بالصوفيين من المصريين سواء أكان فى السودان أم فى مصر فأخذ الصوفيون السودانيون تنظيم الطريقة عن إخوانهم المصريين .

هذا إلى أننا نجد الآن بجانب هذه الطرق الصوفية المعروفة فى السودان مذاهب صوفية صغيرة هى آثار تلك الطرق التاريخية وهى تشتمل فى جماعات يربطها رباط من الولاء لولى من الأولياء المتوفين والذين كانت لهم شهرة فى التصوف والورع والتعليم الدينى . وهذه الجماعات تعيش عادة فى الجهات التى بها أضرحة هؤلاء الأولياء وتحتفظ بذكرياتهم وتعاليمهم وتحيى لياليهم وتنتسب إليهم روحيًا وتداوم زيارة أضرحتهم وتفاخر بأنها الورثة الروحيون لهؤلاء الصالحين ومن أمثال هذه الجماعات أسرة خوجلى بالقرب من الخرطوم البحرى وأسرة إدريس الأرباب وأسرة العركيين فى أبى حراز وأولاد مدنى فى جهة ود مدنى وأولاد بدر بناحية أم ضبان .

إجازة الصوفية وأورادهم وأحزابهم

كان شيوخ الصوفية يجيزون لمريديهم أن يسلكوا طريق القوم لن يأنسون فيهم القدرة على الاحتفاظ بشعائر الطريقة وأداء ما تستدعيه من صلوات وأذكار وتلاوة أوراد أو أحزاب . وقد تكون هذه الإجازة شفهيًا كما حدث للشيخ محمد الهميم فقد سلك الطريق على الشيخ تاج

---

(١) ص ٢١١ من كتاب The Anglo-Egyptian Sudan from Within .

الدين البهارى الذى جعله خليفة مكانه يسلك الناس[1] وكما حصل للشيخ محمد بن داود الأغر العودى فقد خلفه الشيخ عبدالله العركى مكانه فى الطريقة وأمر أن تعطى له آلات الخلافة ؛ الرايات والككارة ومكاتيب السلطنة وجبة الشيخ حبيب الله العجمى وكوفيته وجبة الشيخ عبد الله نفسه[2] . وهذه إجازة شفهية تفيد أن المريد يقوم مقام شيخه فى التسليك أما باعتباره مريدًا مجازًا أو باعتباره خليفة للشيخ . وقد عثرنا على إجازات مكتوبة[3] من بعض شيوخ الصوفية فى السودان لمريديهم نذكر منها إجازة الشيخ عبدالله العركى لمحمد بن الشيخ دفع الله هى ذى كما وجدت بخطه [4] .

«لما رأيت أخى الطالب الراغب محمد بن دفع الله الشهير بأبى إدريس أهلا لهذه النعمة العظيمة الشريفة لقنته ذكر كلمة التوحيد وأجزته إجازة مطلقة بقراءة الأسماء والحزب السيفى وغير ذلك من الدعوات المذكورة والأذكار المأثورة وأجزت له لباس الخرقة واستخلفته كما أجازنى شيخى الشيخ حبيب الله بن الشيخ حسن البصرى[5] . وهو أخذ عن شيخه ومرشده الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى» .

أما الأوراد والأحزاب فهى تلك التى كان يلقنها الشيخ لمريديه كجزء من خصائص الطريقة ليقرأها المريد وفقا لنظام خاص . ولكل طريقة أورادها وأحزابها ونظام أذكارها وآدابها . ولابد للمريد من أن يعرف كل هذه الأمور حتى يتتبعها فى تعبداته وصلاته بشيخه وزملائه . «ولا الفرق بين الورد[6] والحزب أن الورد يقرأ فى أوقات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل . أما الحزب فليس لقراءته وقت مخصوص» . وكان متصوفة السودان يداومون قراءة الأحزاب والأوراد والتوسلات على عادة غيرهم من رجال الصوفية . والراجح أن كل صوفى كان يحافظ على تلاوة

---

(١) ص ١٤١ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٤٣ من طبعة منديل . الككارة كرسى من الخشب يجلس عليه الملوك ، ومكاتيب السلطنة هى المراسيم التى تصدر من الملوك والتى يقررون فيها إهداء شىء للأولياء .

(٣) انظر رسالة توفيق الطويل ص ٣٤١ ففيها إجازات لشيوخ الصوفية .

(٤) ص ١٣ من الطبقات طبعة منديل .

(٥) هكذا فى الأصل والحقيقة أن حسنا البصرى هو شيخ الشيخ حبيب العجمى أنظر ص ٢٤٣ من رسالة توفيق الطويل . وفى الملحق بعض إجازات الصوفية بالسودان .

(٦) ص ٧٩ جـ٢ من التصوف الإسلامى لزكى مبارك .

أوراد طريقته وأحزابها فمن الإجازة السابقة نجد نصًا صريحًا دالاً على أن الشيخ عبدالله العركى لما سلك مريده محمد بن دفع الله أجازه قراءة الأسماء ـ أسماء الله العظمى ـ والحزب السيفى وغير ذلك من الدعوات والأذكار . ومعروف أن حزب[١] السيف أو الحزب السيفى هو من أحزاب الطريقة الجيلانية . وكان الشيخ عبدالله العركى جيلانى الطريقة ومع ذلك يقرأ دلائل الخيرات زيادة فى التعبد[٢] .

وكان الشيخ خوجلى يجمع بين الطريقة القادرية والشاذلية ويقرأ الأوراد الشاذلية . والغالب أن معظم أولياء السودان ما كانوا يتقيدون بأوراد طريقتهم وأحزابها بل كانوا يداومون العبادة المشروعة والتنفل وصيام بعض الأيام وذكر اسم الله ودخول الخلوات . ومنهم المجاذيب الذين لم يكن لهم نظام خاص فى أدعيتهم وأورادهم .

بعض مظاهر الصوفيين وأدواتهم

كان دخول الخلوة المظهر الأول الذى يميز المريد الصوفى سواء أكان هذا المريد قد سلك الطريق على يد شيخ أراد أن يجعل صلته بالله مباشرة من غير واسطة صوفى آخر . من ذلك أن الشيخ حمد النحلان لما سلك الطريق على الشيخ دفع الله العركى ترك تدريس العلم إلى الأبد ودخل خلوة وسدها عليه ولم يفتحها ومكث فيها اثنين وثلاثين شهرًا . ولم يكن معه إلا سبع تمرات وثلاثة عناقيد من القرض . وكان الخدم يناولونه كل ليلة من طاقة الخلوة قدرًا من الماء ولقمة من الخبز قدر عين الجمل . ولما خرج من الخلوة وجد الناس القرض والتمر ولقيمات الخبز وركوة الماء على حالها لم تمس[٣] . وكتاب الطبقات مملوء بأوصاف الأولياء الذين انقطعوا فى أول تصوفهم وأثناء حياتهم الصوفية عن العباد إلى ذكر الله فى الخلوة[٤] .

---

(١) ويسمى أيضا الدعاء السيفى والحرز اليمانى . انظر الملحق الخاص بالأوراد فى المجلد الثالث .

(٢) ص ٧٠ حمد بن المجذوب كان شاذلى الطريقة ومع ذلك يقرأ دلائل الخيرات .

(٣) ص ٥٨ من الطبقات طبعة منديل . ويقول مؤلف الطبقات إن هذا الحادث أمر غير مستغرب فإن إبراهيم بن أدهم أول ما سلك الطريق ظل سنة كاملة لا أكل ولا شرب ولا نوم . ويشير إلى أنه اقتبس هذا من طبقات الشعرانى ولم أجد فى طبقات الشعرانى هذا الذى يذكره وإنما وجدت (ص ٥٩ جـ٢) فى ترجمة أبى إسحق إبراهيم بن أدهم أنه كان إذا لم يجد الطعام الحلال يأكل التراب وأنه مكث شهرًا يأكل الطين وكان يقلل الطعام والأكل ما استطاع حتى لقد كان يصلى خمس عشرة صلاة بوضوء واحد .

(٤) ص ٦٦ و١٥٢ و١٦٨ من طبعة منديل .

ومن مظاهر الصوفيين لبس الدلاقين (جمع دلق أى الخرقة) أو الدمور أو الجبب المرقعة كما فعل على أبو دليق[1] الذى لقب بهذا اللقب لزيه المكون من الدلاقين والمرقعات وكما فعل محمد بن عبودى الذى كان لباسه قميص دمور وفردة دمور وفراشه الأرض[3] .

ومن مظاهرهم إطلاق شعر الرأس وتمشيطه أو من غير تمشيط كالشيخ موسى بن يعقوب الفضلى[3] .

هذا إلى ما كان يلازم بعض الصوفية من الشطحات والجذب وعدم اكتراثهم بمتاع الدنيا وقيامهم الليل وصيامهم النهار وقراءة الأذكار وحمل السبحة والهيام فى الأرض من غير قصد واضح .

أما أدواتهم فقد كانت تختلف باختلاف الطريقة . وكان الشيخ إذا مات تنتقل هذه الأدوات (الآلات كما تسمى) إلى خليفته[4] ، وقد يكون فى الطريقة الواحدة عدة شيوخ عند كل واحد منهم آلات . وهذه الآلات عبارة عن رايات ذات لون خاص يمثل لون الطريقة وعليها كتابة خاصة بالطريقة وكرسى ككارة (أوككر) يجلس عليه الشيخ عادة وبعض آثار من الشيخ كجبة أو طاقية أو منطقة أو حزام وقد كان عند الشيخ بان بن النقا الضرير مجموعة من هذه الآلات أخذها من بعده ابنه وخليفته الشيخ يعقوب . وكان من بين هذه الآلات جبة الشيخ تاج الدين البهارى وكوفيته[5] . وقد روى أن الشيخ عبدالله العركى لما دنت وفاته قيل له من الخليفة بعدك فقال : محمد بن داود الأغر . فلما مات تسلم محمد بن داود آلات الخلافة وهى الرايات والككارة ومكاتب السلاطين والملوك وجبة حبيب الله العصمى وكوفيته وجبة الشيخ عبدالله العركى التى فيها الأسماء والرياضات ودخول الخلوات[6] .

---

(١) ص ٢٦ من طبعة منديل .

(٢) ص ١٥٥ من الطبعة عينها . وكذلك ص ٢٣ . ومن الصوفيين من كان لا يتقيد بزى الصوفية كالشيخ خوجلى .

(٣) ص ١٤٥ من طبعة منديل .

(٤) جرت العادة أن يكون الخليفة ذكرًا وليس ضروريًا أن يكون ابن الشيخ وقد عثرنا فى الطبقات (ص ١٦) ما يدل على أن أحد الشيوخ أوصى بالخلافة لبنته . فقد جعل الشيخ على أبو دليق بنته عائشة خليفة من بعده .

(٥) ص ١٧١ من طبعة منديل . وهذه المجموعة هى التى أعطاها الشيخ تاج الدين لتلميذه الشيخ بان بن النقا عند ما رجع إلى الحجاز (ص ٧٨ مذكرات عن قبائل النيل الأزرق) .

(٦) ص ١٤٣ من طبعة منديل . «وفى مذكرات عن قبائل مديرية النيل الأزرق والأسرات الشهيرة فيها ص٨» . أنه لما قامت الثورة المهدية ألغى نظام الخلافة الصوفية . فلما مات هجو عبد القادر من خلفاء الطريقة السمانية لم يعين بعده خليفة وظلت آلات الخلافة الصوفية عند ورثته .

والآن نحاول أن نتصور كيف وجدت الصوفية فى عقلية المسلم السودانى أرضًا خصبة فنمت وترعرعت وانتشرت . لم يكن العهد عهد تفكير وتدبر وتعمق منطقى فلسفى وإنما كان عهد تقليد واتباع لما قرره السابقون ، وكان الناس فى غموض وغفلة عن حقيقة الدين تحدوهم الرغبة الملحة فى معرفة شىء عن دينهم وخلق روابط بينهم وبين صاحب هذا الدين ومنزل كتابه المبين ولم يكن ثمة مفر من أن يصدق الناس ما يقوله الفقهاء والصوفية وهم الطبقة المتنورة والطبقة التى فتح الله عليها ولم يكن بد من أن يتقبل الناس تعاليم الصوفية ويعتقدوا صدقها ويؤمنوا بأنها حق لأنهم قوم صالحون لا يأتون منكرًا ولايطمعون فى غنم دنيوى . فهم إذًا مخلصون لله وهم إذًا عباده المقربون . وكل ما يصدر منهم إذًا بركة وطهر وفيه الخير فى الدنيا والآخرة .

ولهذا وجدت الصوفية فى قلوب الناس هوى ومكانًا خاليًا . ولم يكن رجال الصوفية ممن يتحرون دائمًا الحقائق الشرعية وما هو من الدين حقًا وما هو بدعة أو خرافة لنقص فى علمهم بحقيقة الدين ولأن استعداد الناس لقبول الخرافات والبدع شجعهم على ذكرها ونشرها فكان الصوفية إذًا رسل دعاية للثقافة الإسلامية الممزوجة بالخزعبلات والكرامات الزائفة كالقدرة على إبراء المرض بالقراءة والأحجبة[1] والأخبار بالغيب ورد المسروق والإحياء والإماتة والاتصال بالله ورسله للشفاعة والحرمان من الجنة أو زيادة النصيب منها . وهكذا مما تصبوا إليه العقول الساذجة ويشبع رغبة عندها . ولم يكن ينتظر فى ذلك العهد وتلك البلاد السودانية غير هذا النوع من الإسلام المشوّه . الإسلام السهل البسيط الذى هو أقرب إلى القلب وإشباع الرغبات الفطرية منه إلى العقل والتفكير السليم .

ولم يكن أثر الصوفى ونفعه ملازمًا له فى حياته فقط بل كان يستمر معه بعد وفاته مما جعل الناس يبالغون فى بناء الأضرحة والقباب التى لا تزال منتشرة فى السودان مشرقة متصاعدة فى السماء بين القرى والحلات .

(١) ص ٥٨ و٨٠ طبعة منديل كان كل الأولياء يكتبون الحجب ولايزالون إلى اليوم .

ولا غرابة أن تكون الحال فى السودان كذلك وقد كانت الحال فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية السابقة إلى الدين والمتمكنة فيه شبيها بذلك أو أسوأ . فقد كان الرجل من دجاجلة الصوفية يدرس عقائد الشرك بين من يسميهم مريديه ويعبث ما شاء له الجهل أن يعبث بعقول هذه الطوائف الساذجة[١] . ولم يقاوم شيوخ الأزهر هذا المرض أو ينكروه بل بلغ من بعضهم أن يمشى فى ركاب الصوفى الدجال ويدعو إلى احترامه وإجلاله . بل لقد كتب الفقهاء وأئمة العلماء من رجال الأزهر يحثون على اتباع شيخ عارف قد سلك طريق أهل الله ويقولون : إن من لا شيخ له فشيخه الشيطان[٢] . ويروون من مناقب الأولياء ما لا يصدقه العقل ولا يقبله الدين[٣] .

وهذا بعينه ما حدث بالسودان إذ صار الإسلام فيه ممزوجًا بالخرافات والخيالات الوجدانية وصار الناس يعتقدون فى الأولياء أن لهم قوة فوق قوة البشرة ووهبوهم من الاحترام والتقديس أكثر مما يشعرون به نحو الأنبياء[٤] ، بل إن منهم من زعم أن اسم الشيخ هو اسم الله[٥] .

ونحن الآن وقد كشفنا عن الجانب المظلم من الصوفية يمكننا أن نتساءل : وهل كان للصوفية فى السودان أثرصالح فى حياء القوم ودينهم .

والجواب نعم ، فإن اعتقاد الناس فى رجال الصوفية وأنهم يعلمون الغيب ويملكون النفع والضر جعلهم يتحاشون الرذائل العلمية إلى حد ما خشية من كشف الصوفى لهم ، ومن غضبه عليهم ومن إيقاع العقاب الدنيوى أو الأخرى عليهم وإذًا فقد كان رجال الصوفية كالبوليس الإلهى رقباء على سلوك الناس وأعمالهم .

---

(١) ص ١٤٣٠ من العدد ٤٣٨ من مجلة الرسالة مقالة للأستاذ محمود أبو رية .

(٢) راجع الخريدة البهية لسيدى أحمد الدردير .

(٣) من ذلك ما رواه سيدى أحمد الصاوى فى حاشيته على الخريدة من مناقب سيدى الرفاعى أنه أراد شراء البستان فأبى صاحبه ألا يبيعه إلا بقصر فى الجنة فقال الرفاعى : قد اشتريته منك بذلك . وكتب له عقدا هذه صورته «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما ابتاع إسماعيل من السيد أحمد الرفاعى ضامنا على وكرم الله قصرًا فى الجنة يحف به حدود : الأول جنة عدن والثانى جنة المأوى والثالث جنة الخلد والرابع جنة الفردوس بجميع حوره وولدانيه وفرشه وأشربته .

(٤) تقرير الكولونيل استيوارت سنة ١٨٨٣ .

(٥) ص ٨٠ طبعة منديل .

كذلك اعتقد الملوك والسلاطين ورؤساء القبائل فى قدرة هؤلاء الصوفيين فكانوا لايجرؤون على ظلم الرعية واغتصاب أموالهم إلا إذا عرضوا أنفسهم لغضب هؤلاء الأولياء وما بهم من عقاب سماوى . ولذلك كان يلجأ الناس إلى الأولياء يستعينون بهم على دفع الظلم ورد ما غصب منهم وليتشفعوا بهم عند ذوى السلطان ، وفى الحق أننا لو نظرنا إلى هذا الأثر للصوفية لأدركنا أنهم كانوا مصدر خير ونفع للضعفاء والفقراء الذين لا عون لهم ولا نصير .

وهنالك أمرثالث ذو بال هو أن الإسلام فى طليعة حياته بالسودان كان قد اتخذ طريقه بين قبائل متوحشة من الزنوج سكان الجنوب وجبال النوبة ومن المسيحيين سكان البلاد الأصليين . وهؤلاء كانوا على حال من الفطرة تحتاج إلى نوع من الدين تستهوى قلوبهم وعواطفهم وأخيلتهم لا عقولهم ومنطقهم إلى نوع من الدين مملوء بالآمال سريعة التحقيق والوعود الخلابة المزخرفة واستئلاف النفوس بالصلات الشخصية الروحية والتنزل إلى المستوى البدائى فى التفكير . وهذه كلها تتيسر بواسطة رجال الصوفية الذين يأتون من الأعمال ما يشبه السحر . ذلك لأن علماء النفس يرون أن «معتقدات الجماعات البدائية ليست ناتجة عن إدراك خاطئ أو غامض وإنما هى أثر من آثار حاجاتهم ورغباتهم وأثر لمايساور خيالهم من قلق . هذا الخيال الذى لم يهذب منه الواقع أو القدرة على النقد والذى يقويه إجماع الناس على صحته ، وأن خيال الرجل البدائى لتثيره حاجته الملحة فى الحياة اليومية فى الصيد والحب والحرب والزراعة ؛ نعم تثيره وجداناته الملازمة للجوع والكراهية والحزن والخوف[1] والشبهة .

وقد وجد رجال الصوفية فى غير المسلمين من السودانيين جماعات بدائية من هذا النوع الذى يخضع خياله لحاجاته اليومية فأمكنهم أن يغنوا رغبات هذا الخيال بإبراء المريض ورد المفقود والإخبار بالغيب والوعد بالجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر وبإطعام الجائع وإيواء ابن السبيل بالعطف والحب الأخوى وبالتواضع والتسامح الذى قد يصل إلى حد التساهل ، وبعقد مجالس الذكر التى تجد فيها الغرائز مرتعًا صالحًا لإشباعها وللتنفيس عن المكبوت منها . نعم وجدوا هذه الجماعات وقدموا لها ما تحتاج إليه فاستجابت لهم باعتناق الدين الجديد الدين البسيط السمح السهل .

■ ■ ■

(١) ص ٨٦ من كتاب The Origin of Man, by Carveth Lead,

الجزء الثانى

التربية في السودان

والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها



هذا هو الجزء الثانى من «التربية فى السودان» . وهو استمرار لموضوع البحث الذى بدأته فى الجزء الأول . غير أن الجزء الأول يتضمن القرون : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلادية ، وهذا يتضمن القرن التاسع عشر منذ ضم السودان لمصر إلى قيام الثورة المهدية .

وهذا القرن يتميز بأن حكم السودان فيه كان مصريا ، أى أن والى مصر كان والى السودان ، وكانت النظم الرسمية فى السودان توضع فى القاهرة أو فى الخرطوم ويوافق عليها الوالى .

وقد كانت هذه الحقبة من تاريخ السودان مجهولة ، ولم تبحث بتفصيل إلا منذ عهد قريب . وقد اخترت ناحية منها هى ناحية التربية .

وإن الفضل الأكبر فى كشف هذه الناحية ، والعثور على المواد البكر والحقائق المسجلة الدامغة ، ليعزى إلى ما وجدته فى قسم المحفوظات بعابدين من وثائق لم يسبق نشرها . وهى التى اعتمدت عليها فى بحثى هذا . ولقد لقيت من موظفى هذا القسم ـ وعلى رأسهم چورج بك وسمان بك ـ كل إكرام وعناية ومساعدة . فلهم منى جميعًا جزيل الشكر .

والقارئ لهذا الجزء يلاحظ نوعًا جديدًا من التعليم لم يكن معروفًا من قبل ، هو التعليم المدنى الذى عنى الوالى بإدخاله السودان . ولم يكن هذا النوع من التعليم ليمنع عطف الوالى وتشجيعه السخى للتعليم الدينى .

وبعد فهذه صفحات جليلة من تاريخ التربية فى السودان تشهد بما أدّته مصر من خدمات خالصة فى سبيل تثقيف الشعب السودانى وتقدّمه فى العلم والحضارة .

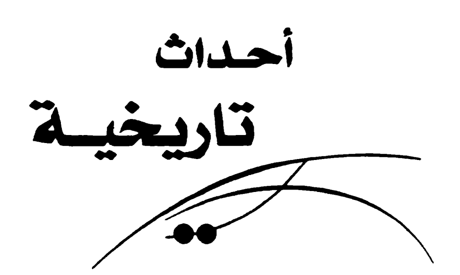
وسيجد القارئ بنفسه صحة هذه القضية عند قراءته الكتاب .

ولعلى بعملى هذا أكون قد أدّيت بعض ماوجب علىّ نحو بلادى ـ مصر والسودان ـ وأرجو أن أوفق للقيام بعمل أجلّ .

ومن الله أستمدّ العون والهداية ،

عبد العزيز أمين عبد المجيد

■ ■ ■



أحداث تاريخية

نحن الآن فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وفى سودان وادى النيل الإسلامى ، الذى يمتد من الشلال الثالث شمالاً إلى جبال تقلا وجبال فازوغلى جنوبًا ، ومن البحر الأحمر والحبشة شرقًا إلى وداى غربا . وقد ظلت القبائل الواقعة وراء خط عرض ١٠ شمالاً غير خاضعة للعرب ، ولم تسمح لهم بالهجرة إلى أرضها أو غاباتها مدة القرون الثلاثة التى كان فيها السودان خاضعًا للعربية والإسلام . وكان سكان هذه الجهات الواقعة جنوبى خط ١٠ من قبائل زنجية مغرمة بالحروب كالشلوك والنوير والبارى والنيام نيام والدنكا وغيرهم[١] أى أن هذه الجهات كانت مجهولة حقا ، ولم يتسرب إليها دين أو عمران أو حضارة .

وفى هذه الرقعة الإسلامية العربية التى ذكرنا حدودها قامت ثلاث دول : مملكة سنار وما تبعها من ولايات ومشيخات فى الشرق ، وسلطنة دارفور فى الغرب ، وبينهما كردفان التى كانت تابعة لدارفور وعليها حاكم من قبل سلطانها يسمى المقدوم .

أما مملكة سنار فكانت قد أنهكتها الحروب الداخلية المتوالية بعد أن ضعف نفوذ ملوك الفونج ، وتلاشى أمرهم ، وصار الحل والعقد بيد وزرائهم من الهمج[٢] . وانتشرت الفوضى فى البلاد نتيجة لهذه الحروب والفتن الداخلية واختل الأمن .

---

(١) ص ٥٢ من كتاب L'Egypte et Le Soudan par Chaine طبعة القاهرة ١٩٠٢م .

(٢) ص ٢٢ وما بعدها من (مخطوط) تاريخ ملوك السودان وأقاليمه لإبراهيم بن عبد الدافع . ومن الحروب التى قامت فى أواخر القرن الثامن عشر ما حدث من خروج الشكرية على وزراء الهمج المستبدين ، ومن خروج الحلابقة عليهم أيضا ومحاربتهم . وقد انتقم الملك عدلان الثانى من الهمج وقتل وكيل وزيرهم واضطهد نسلهم . وكان الوزراء يقتلون الملوك حتى لا تكون لهم اليد العليا عليهم ، كما قتل الوزير ناصر الملك نوّار سنة ١٧٨١ . وكان بين وزراء الهمج وأقاربهم حروب ومنازعات أدت أحيانًا إلى القتل . ووقعت بين الجعليين ووزراء الهمج حرب دامية ، بل قامت بين الجعليين أنفسهم خلافات ومنافسات بشأن تولى الملك . وقامت حرب سنة ١٨٠٣ بين البطاحين والشكرية ، وبالجملة كانت هذه الفترة فترة حروب وقتل واضطراب داخلى .

وفى سنة ١٨١٠ انتشرت الحمى الصفراء وفتكت بخلق كثير ، وفى سنة ١٨١٣ حصل غلاء شديد قاسى الناس من أجله الأهوال . وهكذا مرت على البلاد موجة من الفتن والحروب والأمراض والقحط . وكانت الثورات والمؤامرات تدبر باستمرار بين وزراء الهمج ورؤساء المشيخات التى خضعت لمملكة الفونج[1] . وفى النهاية اختلف ملوك سنار ووزراؤها واقتتلوا ، وأذن سلطانهم[2] بالزوال .

وكانت مجاعة شديدة قد أصابت سكان النوبة جنوبى أسوان بعد أن هرب إليهم المماليك من مصر ، فهلك نحو ثلث[3] السكان . كما كان بعض عرب الشايقية يغيرون عليهم من الجنوب من حين لآخر ، ويغتصبون[4] ممتلكاتهم ، أو يغيرون على المسافرين إلى الشمال[5] أو الجنوب .

وكان طريق القوافل بين مصر وداخل بلاد السودان معرضا لخطر قطاع الطريق ، ولاسيما إذا كان المسافرون قلائل أو أوروبيين[6] . وكان سكان النوبة وكشافها يشتبهون فى كل من يمر ببلادهم من غير التجار المعروفين ، ويخشون أن يكونوا جواسيس لمحمد على ، عدوهم وعدو المماليك الذين فروا من وجهه بعد مذبحة القلعة[7] .

وكان عرب البشاريين يغيرون على القوافل ، ويفتكون بالمسافرين ، ويسلبون أموالهم[8] وإبلهم . وبذلك كانت المواصلات بين مصر والسودان غير آمنة ، اللهم إلا بواسطة القوافل الكبيرة المسلحة .

---

(١) ص ٢٥ وما بعدها من المخطوط المذكور .

(٢) كانت هذه نبوءة الشيخ إدريس بن الأرباب راجع ص٦٧ من المخطوط المذكور .

(٣) ص ١٢ من رحلات بركهارت .

(٤) ص ٤٣ من رحلات بركهارت .

(٥) ص ٤٥ ، ٤٦ من رحلات بركهارت .

(٦) ص ٢٤٦ من رحلات براون وكذلك ص ٤٩ من رحلات بركهارت .

(٧) ص ٦١ من رحلات بركهارت وفيها يقول المؤلف : إنه لما وصل إلى منطقة ساى منعه الكاشف محمد من التقدم إلى الجنوب بتهمة أنه أحد جواسيس محمد على عدو المماليك .

(٨) ص ١٤٩-١٥٠ من رحلات بركهارت المذكورة .

أما دارفور فيحدثنا عنها وليام جورج براون بأنها كانت فى آخر القرن الثامن عشر فى حال انحلال وحرب مع سنار[١] . وكانت القوافل لا تستطيع المرور من دارفور إلى سواكن[٢] أو العكس .

من هذا كله يظهر لنا أن الدول والولايات التى كانت تكوّن سودان وادى النيل الإسلامى فى ذلك الوقت لم تكن فى حال استقرار وأمن ، ولم تكن بينها وحدة فى المشرب أو الغاية ، بل كانت مفككة الأواصر ، تحترق بنار الغيرة والتنافس[٣] . وكأن الله قد قيض لهذه البلاد من ينقذها مما كانت فيه ويؤمّن سبلها ، ويجمع كلمتها ، ويوحد غايتها ، ويفتح بينها وبين العالم الخارجى أبواب التجارة والحضارة والعرفان ـ كأن الله قد قيض لها هذا الرجل فى شخص محمد على باشا مصلح مصر العظيم ، فقد سارت جيوشه تحت إمرة ابنه إسماعيل ففتحت دنقلة وبربر . ثم اجتازت النيل إلى الخرطوم (٢٨ مايو سنة ١٨٢١) ، ومنها تقدمت فى جزيرة سنار حتى وادمدنى ومنها دخلت سنار ظافرة فى[٤] ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ .

ثم لحق إبراهيم باشا بأخيه إسماعيل ، وقررا أن يستمرا فى الفتوح وتنظيم البلاد ، وكشف منابع النيل . ولكن إبراهيم لم يتمكن من تنفيذ خطته لمرضه ورجوعه إلى مصر . أما إسماعيل فزحف بجيوشه إلى جبال فازوغلى فخضع له أمراؤها ، ثم توجه إلى بنى شنقول للبحث عن الذهب .

وكان أن ثار بعض القبائل والزعماء الذين خضعوا لإسماعيل ، فرجع لإخماد ثورتهم . وكان مصيره فى النهاية أن أحرقه الملك نمر ملك السعداب غدرًا كما هو معروف .

---

(١) ص ١٨٢ من كتابه المشار إليه .

(٢) ص ٢٨٩ من الرحلات المذكورة لبراون . وفيها يقول :

«ويبدو أنه كان بين أهل دارفور وأهل كردفان عداء مزمن . ولقد فهمت من محادثات لى مع أهل الإقليمين أن حروبا وغزوات مستمرة قامت بينهما منذ أزمان بعيدة» .

(٣) ص ٤٢٨-٤٣٤ ج٤ من كتاب :

Histoire de la Nation Egyptienne (Le Soudan Egyptien de Mohamed Aly à Ismail Pacha par Renri Dehérain).

(٤) من ص ٥ وما بعدها ج٢ تاريخ السودان لنعوم شقير .

أما كردفان فقد وجه إليها محمد على صهره محمد بك الدفتردار ، فاستولى عليها بعد قتال مرير دار بينه وبين المقدوم مسلم ، واليها من قبل سلطان دارفور . ولما استولى الدفتردار على كردفان أخذ فى الأهبة للزحف على دارفور - وكان عليها السلطان محمد الفضل (١٨٠٦-١٨٣٩) - ولكنه اضطر أن يعجل ذهابه إلى المتمة لما سمع بأن الملك نمر قد أحرق الأمير إسماعيل . وذلك فى أكتوبر سنة ١٨٢٣ .

بهذا وفى تلك الفترة القصيرة ، استطاع محمد على أن يكونّ سودانا واحدا ، ضم فيه كردفان[١] إلى سنار تحت راية واحدة ، ووال واحد ، وحكومة واحدة .

وكان هذا الفتح بدء تاريخ جديد فى حياة هذه البلاد التى بدأت منذ ذلك الحين تلعب دوراً مهمًا فى تاريخ العالم السياسى ، بعد أن كانت مجهولة ، ولو أن هذا الدور جاء متأخراً . وبهذا الفتح استطاع الأهالى والأجانب على السواء أن يذهبوا أنى شاءوا فى البلاد التى يحكمها محمد على ، سواء أكان ذلك فى حوض النيل إلى أقاصى حدود السودان أم فى غيره . فالسودان قد ساده الأمن كما ساد غيره من البلاد التى حكمها . ففى كردفان مثلا - حيث كان التاجر لا يأمن على نفسه أن يسير منفردا - استطاع الرحالة «بالم» أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه سوى خادم واحد ، ولم يصب باعتداء أو أذى . وكذلك ساح فيه الرحالة «كوتشى» مطمئنا سنة ١٨٣٩ . وساح الأمير الألمانى «بكلر مسكاو» فى السودان إلى الخرطوم دون أن يناله سوء . وجاءت أسرة المسيو «مولى» إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهة كما لو ساحت فى ربوع إيطاليا[٢] .

ومنذ فتح السودان لم تغفل مصر هذا الجزء المهم من جنوبى الوادى ؛ فقد عملت على تنظيم إدارته بتنصيب حاكم له يسمى الحكمدار ، يعاونه فى مهمته موظفون ويكون مسئولا أمام الوالى مباشرة . نعم كان بعض الحكمداريين والموظفين غير موفق أو سيئ الخلق ، ولكن ولاة مصر

---

(١) نعم لم تصبح بعد دارفور جزءاً من السودان ، ولكن محمد على بفتحه السودان قد فتح الطريق إلى قلب القارة المظلمة وأعالى النيل ، وجعل الطرق آمنة لتسيير القوافل ، وأقام فى جوار دارفور حكومة منظمة متحضرة يمكن أن تؤثر فى حياة سكان دارفور ونظام حكومتها إن لم تنجح فى النهاية - كما نجحت فعلاً - فى ضمها إلى الرقعة الكبرى من السودان .

(٢) من كتاب السودان المصرى من عهد محمد على إلى إسماعيل لدهران .

كانوا يأخذونهمْ بالشدة والعقاب . وكانت مهمة الحكمدار تأمين الأهالى واستئلافهم وتعمير البلاد ، وتنميتها اقتصاديًا بالزراعة والتجارة والصناعة ، وترقيتها ثقافيًا(١) ، وضم أطرافها ، وما لم يدخل فى رقعتها إليها(٢) . وقد بلغ من اهتمام الوالى أن أرسل إلى السودان بعض المزارعين الخبراء من مصر ليعلموا الناس كيفية فلاحة الأرض(٣) . وأعطى للسودان رأس مال مناسب لصنع وتركيب السواقى لرى الأراضى التى على النيل(٤) .

وكان من اهتمام محمد على باشا بشئون السودان أن زاره سنة ١٨٣٨ مع ما كان عليه من كبر السن ، ومع صعوبة السفر . وهناك استقبل رؤساء العشائر وكذا أعيان البلاد وعلماءها ، وأكرمهم وأمر لهم بالكسى ، وعبر عن رغبته فى إصلاح البلاد وتقدمها(٥) .

وفى سنة ١٨٤١ ضمت بلاد التاكة (كسلا) إلى السودان المصرى الذى أصبح بعد ذلك مقسما إلى سبع مديريات هى : كردفان ، ودنقلة ، وبربر ، وكسلا ، والخرطوم ، وسنار ، وفازوغلى .

وفى سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٥٧ زار سعيد باشا السودان لتفقد أحواله ، فساءه ما كان عليه الناس من إرهاق مادى ، فأمر بعدة إصلاحات منها إلغاء تجارة الرقيق ، وتحريم دفع أجور الجنود رقيقا . ومنها تخفيض الضرائب ، وعقد اجتماعات سنوية من المديرين وأعيان البلاد وشيوخها لتقدير ما يجب أن يفرض منها(٦) .

وفى أثناء إقامة الوالى فى الخرطوم أدخل نظامًا إداريًا جديدًا بمقتضاه حل شيوخ العشائر والمكوك فى الوظائف محل الموظفين غير السودانيين ، وألغى وظيفة الحاكم العام للسودان ، وقسم السودان إلى أربع مديريات لكل مديرية مدير مستقل ومسئول أمامه . وهذه المديريات هى :

---

(١) سنرى فى الأبواب الخاصة بالتعليم مقدار ما نال البلاد من ثقافة فى العهد المصرى .

(٢) من ذلك فتح القلابات وضمها فى عهد الحكمدار خورشيد باشا سنة ١٨٣٠ .

(٣) الوقائع المصرية نمرة ٩٧ الصادرة فى ٧ رجب سنة ١٢٤٥ (يناير سنة ١٨٣٠) ، وكذلك ص ١٨٣-١٨٦ ج٣ تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

(٤) الوقائع المصرية نمرة ٢٧ الصادرة فى ذى القعدة سنة ١٢٤٤ (يونية ١٨٢٩) .

(٥) ص ٢٥ ج٣ من تاريخ السودان لنعوم شقير . وكذلك الوقائع المصرية نمرة ٦١٨ بتاريخ ٦ صفر ١٢٥٥هـ (٢١ أبريل ١٨٣٩) .

(٦) ص ١٢٥ ج٤ تاريخ مصر لشاروبيم .

الخرطوم وتشمل سنار وفازوغلى ، ودنقلة ومعها بربر ، والتاكة ، وكردفان . وهكذا أحدث تغييرًا جوهريًا فى إدارة السودان ونظامه الاجتماعى . ولكن الأيام لم تحقق ما رمى إليه سعيد من غايات سامية ؛ فإنه لم يستطع وهو فى مصر أن يتتبع تنفيذ إصلاحاته ، ولم يكن لديه الزمن الكافى للقيام بذلك . ثم ثبت أن قيام أربع مديريات فى السودان أسوأ أثرًا من قيام حاكم عام واحد لصعوبة التوافق بينهما وانسجام أعمالها[1] . وعلى هذا لم تتحسن حال السودان كثيرًا . فألغى سعيد باشا نظام المديريات المستقلة وأعاد النظام القديم .

على أن تقدم الحال فى السودان كان فى الواقع أمرا متوقفا على مقدار نشاط الحاكم العام وموظفيه وإخلاصه ورغبته فى الإصلاح . وكان كثير من الحكام العامين لا تتوافر فيه هذه الخصائص ، ومنهم من لم يتح له الزمن الكافى لتحقيق برنامجه . أما أن ولاة مصر كانوا يعنون كل العناية بشئون السودان ، واختيار الحكام والموظفين الصالحين له ، فهذا أمر ثابت من أوامر التعيين التى كان يصدرها الوالى[2] . ومن الحكام المصلحين المخلصين موسى حمدى باشا (١٨٦٣–١٨٦٥) الذى أشرك مشايخ البلاد وأعيانها فى إدارة شؤون البلاد وسن القوانين وتقدير الضرائب وتنظيم رفعها وضبطه «وجعل من الأهالى نظار أقسام ومعاونين ، وأمرهم فلبسوا الملابس العثمانية ، وبذلك حسنت[3] الحال» .

وكان عهد إسماعيل عهد إصلاح شامل فى كل مرافق الحياة لا فى مصر وحدها ، بل فى السودان أيضا ، إذ امتدت حدوده فى الشرق والجنوب والغرب ؛ ففى الشرق ضمت إلى البلاد

---

(١) ص ١١٦ ، ١١٧ الرق فى السودان فى عهد إسماعيل لمحمد فؤاد شكرى وكذلك ص ١٢٧ من كتاب

Egypt, the Soudan and Central Africa, by F. Petherick.

وبما يدل على شدة رغبة سعيد فى إصلاح حال السودان أنه لما رأى سوء حاله فكر فى إخلائه إن كان إخلاؤه صالحا للسكان ، ولكن شيوخ البلاد وأعيانها التمسوا منه عدم تحقيق هذه الفكرة قائلين : إن إخلاء السودان سيترتب عليه عودة الفوضى إليه .

(٢) راجع الملحق الخاص بتعيين جردون ثم رءوف باشا فى الجزء الثالث وهو جزء الملحقات وكذلك صورة محضر مجلس المشورة ٨ المحرم سنة ١٢٤٢ ، وخطاب الجناب العالى إلى خورشيد باشا بتاريخ ٢٨ ربيع أول سنة ١٢٥١ ، والوثيقة رقم ٢١ بتاريخ المحرم سنة ١٢٥٥ . وكذلك الوقائع المصرية نمرة ٢٨٠ بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٢٨٥ ، ونمرة ٣٢٠ بتاريخ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ .

(٣) ص ٢٣ ج٢ تاريخ السودان لنعوم شقير . وكذلك ص ١٠٦ من مخطوط تاريخ ملوك السودان . وفيه يقول المؤلف : ولما وردت البشائر بترتيب سعادة مرسى باشا حكمدارًا بالسودان ، استبشرت بذلك الرعية بحصول الراحة والأمانية وطابت النفوس ، وعاد إلى الحكمدارية رونقها . . . إلخ .

سواكن ومصوع سنة ١٨٦٦ وقد كانتا فى عهد محمد على تحت حكمه ولكن من أملاك الدولة العثمانية . وفى الجنوب امتدت الحدود إلى بحيرة فيكتوريا(١) . وصارت هذه البلاد المتوحشة مفتوحة للحضارة والعمران(٢) . وأما فى الغرب فقد ضمت دارفور إلى السودان سنة ١٨٧٣ ، وبذلك صار السودان يضم أكبر رقعة من الأرض عرفها التاريخ ، تحت راية واحدة ، ووال واحد(٣) .

وقد بذل الخديو إسماعيل عناية عظيمة لإصلاح شئون السودان اقتصاديا وثقافيًا ـ كما سنشرح ذلك فى الأبواب الخاصة بالتعليم ـ وعمل على توطيد الأمن فى البلاد ، وكسب ثقة الناس(٤) فى الحكام ، وألغى الرقيق بالفعل بعد أن فشل فى محاولة إلغائه من سبقه من ولاة مصر ، واستعان فى إدارة السودان بذوى الكفاية من غير المصريين رغبة منه فى تقدم البلاد ، وظهرت بوادر قبول سكان الجنوب للتحضر فى إسلام منيسا ملك أوغندا ، ورغبته فى الحصول على علماء لإرشاد أهله للدين الإسلامى ، وقد أرسل الخديو إسماعيل رسالة إلى منيسا يخبره باستعداده لتلبية رغبته وعزمه على إقامة جامع فى بلاده(٥) .

نعم بذل الخديو كل جهده لتحقيق هذا الإصلاح فى نواحيه المختلفة ، ولكنه لم يظفر بكل ما هدف إليه ؛ شأنه فى ذلك شأن كل حاكم مخلص تقف الظروف ضد تحقيق خططه وآماله . فقد قامت فى وجهه صعوبات سنشير إليها بعد .

---

(١) أرسل صمويل بيكر إلى إسماعيل باشا خطابا ذكر فيه أن مصر قد ضمت جزءاً كبيراً من أواسط إفريقيا ، وأن حدودها أصبحت تمتد إلى خط الاستواء ص١٦ من إسماعيل المفترى عليه ترجمة صروف .

(٢) وقد اقتنع السير صمويل بيكر ـ بعد خدمة الحكومة المصرية فى مديرية خط الاستواء ـ بأن مصر دون غيرها هى الدولة التى يمكنها إدخال النظم العصرية الإدارية إلى الأقطار الواقعة على جنوبى الوادى ، وأن المدنية لم تصل إلى قلب إفريقيا إلا بعد أن امتدت الحدود المصرية إلى خط الاستواء (ص ٤١٢ من كتاب الإسماعيلية لصمويل بيكر) .

(٣) كان إسماعيل يرمى إلى جعل الدولة المصرية ممتدة فى حدودها الطبيعية من سواحل البحر الأبيض إلى خط الاستواء ومنابع النيل ، ومن سواحل البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ومنه إلى البحيرات . وقد دأب منذ بداية حكمه على إنفاذ هذه الخطة الكبرى (ص١٤ ، ١٥ من كتاب مصر فى أفريقيا الشرقية لمحمد صبرى) .

(٤) كتب مرة إلى صمويل بيكر يقول : «لقد وصلت الآن إلى بلاد خصبة جميلة وحولك شعوب قد أثار عدوانها وشكوكها جماعة النخاسين الذين قضيت عليهم . ووسائل اتصالك بالخرطوم عسيرة من طول الشقة بينك وبينها . لذلك أرى من الخرق أن توالى الزحف ، وتترك وراءك قبائل لم يتم إخضاعها ، ولا هى تثق بنا فقف فى عند وركرو ، وحسن موقفك ، وابذل جهدك لتبسط أغراضك» .

(٥) راجع كتاب الخديو إسماعيل إلى ملك أوغندا بتاريخ ١٩ رجب ١٢٩١هـ .

وكانت غيرة إسماعيل على إسعاد الأهالى وبعث الطمأنينة فى نفوسهم حتى تتألف قلوبهم ، أمنيته التى عبر عنها قولا وكتابة عند كل مناسبة ، فقد ذكر فى الفرمان الذى أصدره بتعيين جردون حاكما على مديرية خط الاستواء[1] :«وعند وصولكم إلى تلك الجهات واختباركم أحوالها تجروا ترتيبها بحسب ما يتراءى لكم وتستحسنوه . . . مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها ، مع معاملة أهاليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عمار يتهم وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم فى سلك الإنسانية شيئًا فشيئًا . . . وعلى هذا ، وما هو منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والأهلية مؤملين الاستحصال على ما فيه عمارية جهات خط الاستواء المحكى عنها ، وراحة أهاليها ، وحسن توطنهم وتأليفهم» .

والحقيقة أن الحضارة المصرية والثقافة العربية الإسلامية المصرية كانتا أصلح الحضارات والثقافات لسكان إفريقيا جمعاء ، مسلمين وغير مسلمين . والسر فى ذلك أنها حضارة ـ أو ثقافة ـ ديمقراطية يشترك فيها الحاكم والمحكوم كما هو معروف بين العرب والمسلمين ، وأن المصريين كانوا دائما راغبين فى الاختلاط بالسكان للتزاوج والتجاور والمشاركة فى المأكل والمشرب ، وبالتجارة والعمل المشترك ، بعكس الحضارات الأوروبية التى كانت ـ ولا تزال ـ تنظر إلى سكان الأمم المفتوحة نظرة السيد للمسود ، لذلك لا غرابة أن نجد الحضارة المصرية سريعة الانتشار فى كل ما فتحته مصر من بلاد فى إفريقيا ، ولا غرابة أن نجد الفتح المصرى يجلب معه تقدما ورقيا . ولولا ما كان يقوم فى سبيل ولاة مصر من عقبات كصعوبة المواصلات ، والثورات المحلية ، وسوء إدارة بعض الحكام ، وقلة المال الضرورى للتأسيس فى بدء الفتح ، والدسائس الأجنبية ، لكان ما فتحته مصر من القارة المظلمة جزءا من امبراطورية واحدة عظيمة متجانسة فى اللغة[2] والدين والغاية . أجل لم يكن فى مقدور الحبشة الهمجية ولا فى مقدور أية دولة أوروبية أن تفعل ما فعلته مصر فى الأقطار التى فتحتها ؛ لأن المدنية المصرية العربية لا تبقى

(1) ٢ محرم سنة ١٢٩١ (١٩ فبراير ١٨٧٤) نمرة ٩١ سايرة .

(2) كتب «بوليتشكا» النمسى بمناسبة زيارته لمدينة هرر بعد أن فتحها المصريون يقول : «إن الاحتلال المصرى حادث كبير فى تاريخ هرر . وكيف لا يكون كذلك وقد تمكن المصريون من إدخال ثقافة شرقية فى بلد همجى ونشروا التجارة وأمنوا السبل . وإن الذى يعرف الشرق ـ ولاسيما البلاد الإفريقية الحالية من أبسط مبادئ الثقافة ـ لا يسعه إلا أن يقرر أن المدنية المصرية تحتل مكانة عالية من المدنية عامة» . (نقلاً عن كتاب مصر فى إفريقيا الشرقية ص٧٥ ، ٧٦) .

على السطح ، بل تذهب إلى الأعماق ، وتعنى بالبناء الصحيح لا بالطلاء إذ تجد فى البيئة واللغة والدين والقلوب أساسا ترتكز عليه[1] .

ومما يدل على صدق نية إسماعيل وإخلاصه فى إصلاح السودان وتقدمه ، أنه لم يتردد فى تعيين غوردون حاكما عاما على هذه البلاد عندما أيقن صلاحيته لهذه الوظيفة ، فأصدر فى ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ أمرا بولايته على جميع بلاد السودان المصرى مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الأحمر وهرر ، ومنحه السلطة العسكرية والمدنية عليها ، ومنحه سلطة القتل والعفو ومنع دخول أحد إلى السودان إلا بإذنه ، ووكل إليه منع تجارة الرقيق ، وتحديد التخوم بين السودان[2] والحبشة . ولكن المهمة كانت فى الحقيقة شاقة ، فأطراف السودان مترامية ، ووسائل المواصلات شاقة بطيئة متعبة وغير متوافرة ، ومشروعات الإصلاح فى إقليم واسع بكر كهذا كثيرة متنوعة ، ورجال الإدارة المتمرنون المستعدون للتضحية فى سبيل المثل العليا قليلون . وكانت فى البلاد ثورات محلية وقلاقل تظهر من حين لآخر سببها انتشار تجارة الرقيق ، ومطاردة التجار ، وأنانية ذوى النفوذ القديم من شيوخ القبائل والأعيان الذين يخشون على سلطانهم ، ومحافظة كثير من رجال الدين الجهلة الذين كانوا يشتبهون فى كل إصلاح جديد ، وعدم ألفة الناس نظام الضرائب المنتظم ، وفوق هذا كله حدثت فى مصر أزمات مالية واجتماعية وسياسية عطلت من نشاط إسماعيل لا فى مصر وحدها ، بل فى السودان أيضا .

فلما ولى الخديو توفيق بعد اعتزال والده إسماعيل (يونيو سنة ١٨٧٩م) كانت المصاعب تحيط بالبلاد من كل جانب ، وشغل بكثير من المشكلات المباشرة فى مصر[3] . وبينما كانت

---

(١) ص ٧٦ من كتاب مصر فى إفريقيا الشرقية .

(٢) انظر أمر التولية فى مجلد الملحقات .

(٣) وبالرغم من المشاكل هذه بحد عنايته بالسودان واضحة فى الأمر العالى الذى أصدره فى ١٥ ربيع الثانى ١٢٩٧ (٢٧ مارس ١٨٨٠) بتعيين رءوف باشا حاكمًا عامًا للسودان وفيه يقول : «والحالة هذه لا نرى لزومًا للإسهاب فى شرح وتفصيل ما يجب اتخاذه واجراؤه من الوسائط والأعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التى نحن ناظرون إليها بعين الأهمية . وهى تقدم وانتظام أحوال مملكة واسعة مثل السودان ، وبذل ما يجب من المساعى للوصول إلى توطيد أسباب عمارتها ، وتمدن ورفاهية أهاليها ، بتوسيع نطاق دائرتى التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منافع الثروة العمومية . . . ثم يورد بعد ذلك أربع مسائل ذات أهمية ويوجه نظر الحاكم العام إليها وهى : المالية ، والإدارة الملكية ، والقسم العسكرى ، ومنع تداول بيع الرقيق ، (انظر مجلد الملحقات) .

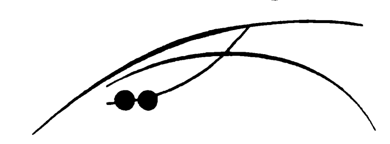
مبادئ الثورة العرابية تتكون فى مصر كانت بذور الثورة المهدية تنمو فى السودان . ثم حصل انفجار أول قنبلة من قنابل الثورة بجزيرة أبا فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ حينما فتك أنصار المهدى بعساكر الحاكم العام الذين لم ينج منهم إلا القليل .

انتشرت الثورة منذ هذه الحادثة وكان لها ـ ككل ثورة ـ أثرها فى تعطيل مرافق الحياة وتوجيه جهود الحكومة إلى إخمادها . ولكنها كانت ثورة وإن لم تحقق أغراضها التى رمت إليها فقد افتتحت بانتهائها عهدًا جديدًا فى حياة بلاد السودان . وليس المقام هنا مقام عرض أسباب الثورة وظروفها وتطورها ونتائجها لأننا سنشرح أثر الثورة فى الحياة الثقافية والتعليمية بالسودان فى باب آخر .

■■■

التعليم

التعليم فى السودان
فى عهد محمد على



واجهت محمد على بعد فتح السودان صعوبات مادية كثيرة ، كان عليه أن يذللها قبل أن يوجه عنايته للتعليم . وقد كان محمد على رجلا عمليًا ينظم مشروعاته على أسس من الاقتصاد وتدبير المال . وقد صارت بلاد السودان بعد الفتح مباشرة خرابًا نتيجة لما أصاب الناس من ذعر ، فتركوا ديارهم وقراهم ولجئوا إلى الخلاء يعيشون عيشة البدو ، أو إلى الجبال والغابات بعيدين عن أعين رجال الحكومة الجديدة . وأهملت الأرض لمدة من الزمن فلم تزرع ، وأهملت السواقى عقب الفتح مباشرة فلم تعمر . وخشى الهاربون إن هم رجعوا إلى أوطانهم أن يقرر عليهم من الضرائب ما يرهقهم مما لم يدفعوه فى السنوات الماضية[١] . نعم حدث هذا عقب الفتح مباشرة . ولكن الأمور أخذت بعد ذلك فى الاستقرار والانتظام .

وكان العرب وبعض شيوخ القبائل المعادين للجيش المصرى قد أطلقوا أيديهم فى نهب أموال الناس ، فلم يستطع من أقام منهم أن يدفع ما فرض عليه من الضرائب[٢] .

ولم يكن الأمن قد استتب فى البلاد المفتوحة ، ولا دخلت كل الأطراف فى الحكم المصرى فكان الجيش مهددًا دائمًا بالثورات . كما كان الجيش فى حاجة إلى الميرة ولمرتباته المتأخرة .

وكانت المواصلات صعبة وشاقة لا يتيسر معها سرعة نشر العمران واستغلال الموارد . وكانت الأمراض قد تفشت[٣] واشتد الغلاء . نعم حدث كل هذا عقب الفتح ، ووجد محمد على تركة مثقلة بالأعباء الفادحة التى تحتاج لإصلاح وتعمير .

---

(١) راجع ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ صورة محضر مجلس المشورة فى مجلد الملحقات .

(٢) ص ١١ ج٢ تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٣) ص ٧١-٧٩ من مخطوط تاريخ ملوك السودان لإبراهيم ود عبد الدافع .

لهذا كله كان لابد أن ينصرف محمد على باشا أولاً إلى تدبير المال باستغلال موارد الثروة وترغيب الناس فى العودة إلى أوطانهم ، وفرض ضرائب محتملة ومنظمة ، وتنسيق الإدارة الحكومية فى البلاد . ومن طبع محمد على أن يعمل على تنمية موارد الإنتاج واستغلال المرافق ؛ لأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية الخراب أو الصائر إلى الخراب وهو ينمى المال لأنه يريد أن يعلم ، وأن يحيى عالما راكدًا ، ويوقظ أمما من سبات الدهور(١) . وقد أرسل إلى السودان فعلا من الخولية والصناع المهرة من يستطيع الحكمدار استخدامهم فى العمران . وقد جرب الخبراء زراعة الأفيون فلم تفلح فأعيد بعضهم إلى مصر ، وكذلك رجع عمال الجبس والجير وناشرو البلاط لعدم إنجازهم شيئا ، وجربت زراعة البن فلم تنجح . ولم يوفق الدباغون المرسلون من مصر للقيام بشىء(٢) من العمل .

غير أن الأمور قد أخذت فى التحسن والاستقرار بالتدريج ، فإن خورشيد باشا الحكمدار قرّب إليه مشايخ البلاد وأعيانها ، وعاملهم بالبشر والإيناس ، ووعدهم بالراحة فاطمأنت النفوس ثم أطلق سراح المسجونين . وبعد وصوله إلى السودان بشهر (أغسطس سنة ١٨٢٦) هطلت أمطار غزيرة فزرع الناس ، وأمنوا شر القحط ، وجمع خورشيد(٣) مشايخ البلاد وسألهم أن يختاروا شيخًا ينوب عنهم لديه فى تعديل الضرائب ، وكان أعظم ما وجه إليه اهتمامه تعمير البلاد ، وإرجاع الأهالى الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إليها . وأعفى الفقهاء والأعيان من الضرائب حثًا لهم على المساعدة فى تأمين الأهالى . وبنى بالخرطوم مسجدًا(٤) سنة ١٨٣٠ وأمر الناس بالبناء(٥) بالطوب بعد أن كانوا يبنون بالبوص وجلود البقر . وكذلك بنى جامعًا فى سنار (سنة ١٨٣٥) وأخذ يطوف فى أنحاء البلاد يتفقد أحوالها ، ويطمئن سكانها ويدرس شئونها .

---

(١) ص ٩٨ محمد على الكبير لشفيق غربال . وقد أشرت من قبل إلى أن سياسة محمد على نجحت إلى حد كبير فى إعادة الأمن والنظام ، وإصلاح حال البلاد .

(٢) محضر جلسة مجلس المشورة فى مجلد الملحقات .

(٣) تقلد منصب الحكمدارية فى السودان لعهد محمد على خورشيد باشا (أغسطس ١٨٢٦ ـ ديسمبر ١٨٣٨) وأحمد أبو ودان (إلى ٢٥ أكتوبر ١٨٤٣) وأحمد المنيكلى (إلى ديسمبر ١٨٤٥) وخالد باشا (إلى نوفمبر ١٨٤٩) .

(٤) جددت بناية هذا المسجد وكبرت سنة ١٨٣٨ .

(٥) الوقائع المصرية نمرة ١٤٧٢ ص٤ من كتاب سياحة فى السودان لمحمد نيازى .

ونهج نهج خورشيد باشا من جاء بعده من الحكام ؛ فنظموا الدواوين ، ووطدوا الأمن ، وعاملوا الناس بحسن السياسة وبعد النظر . وبذلك اطمأن الأهالى ، وزادت عمارتهم ، وخصبت أرضهم ، ونظمت التجارة بين مصر والسودان ، واستخدم الخبراء فى دراسة مناجم الذهب ، وأصلح بين القبائل . وأمن المسافرون على أنفسهم وأموالهم[1] .

وكان لابد إذًا أن تستقر الأمور فى السودان ، وأن تعود المياه إلى مجاريها وأن تنظم شئون البلاد المادية قبل الشروع فى شئونها الثقافية ؛ لأن العلوم ـ كما يقول ابن خلدون ـ إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة . ولم يأل محمد على جهدا فى سبيل نهضة السودان[2] المادية واستقرار أموره حتى يتيسر له بذلك النهوض الثقافى . وكان من وصاياه ما بعث به فى كتاب لخورشيد باشا يقول :

«وقم بجولات متواصلة فى فيافى البلاد السودانية ليلا ونهارًا ، فى سبيل تمشية أمور البلاد تمشية حسنة ، والعناية بها كل العناية . وسس كافة الأهالى بسياسة طيبة ، واجعل الاهتمام ببسط العمران والرفاهية فى هذه الأقاليم كالأقاليم المصرية نصب عينيك حتى تستحق المزيد من عطفى»[3] .

وإذًا فلم يكن محمد على متراخيًا فى شئون التعليم بالسودان ، ولكنه رأى أمامه ما هو ضرورى لنجاح التعليم فبدأ به .

على أنه كان لمحمد على سياسة معروفة تتعلق بالتعليم ، فقد كان يغلب المنفعة على النظريات وقد أبقى فى مصر التعليم القومى ـ وهو التعليم الدينى المنتشر فى القرى والحواضر ـ على أوضاعه المألوفة . أى أنه واجه مشكلة الثقافة عمومًا ومسائل التربية والتعليم خصوصًا بروح الاعتدال فتجنب الإملاء على الناس ، كما تجنب الفصل بين نظم ونظم . فلم يخلق «ثنائية» فى معاهد التعليم ، بل تمت تلك الثنائية فى أيام الجيلين الحاضر والسابق من

---

(١) اعتمدت فى جمع هذه المعلومات على مخطوط تاريخ ملوك السودان لإبراهيم ود عبد الدافع ص٨٠-١٠٣ .

(٢) انظر خطابه إلى عثمان بك فى الملحقات .

(٣) من ترجمة الأمر الكريم رقم ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥١ دفتر ٦٦ معية تركى ، نعم هذه وصايا قد لا تنفذ ، ولكنها تدل على مزايا الحاكم ، والخطة التى يريدها لإصلاح البلاد وتقدمها .

المصريين - ولم تعرف أيام محمد على إلا ثقافة عربية إسلامية فى كل مكان ، أضف إليها إعدادا فنيا فى أمكنة معينة(1) .

وهذا ما فعله محمد على فى السودان ، فإنه لم يحاول أن يتدخل فى أنواع التعليم القائمة فيبدل فيها أو يغير احتراما لتقاليد الناس وعاداتهم وما ألفوه . ولم يحاول أن يملى عليهم ما قد يتعارض مع رغباتهم . وقد كانت عندهم معاهد للتعليم عرفناها وتحدثنا عنها فى الأبواب الماضية . وكان «اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد . ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم»(2) .

وكان محمد على حريصاً على أن يظل السكان على عقائدهم ومذاهبهم . ولذلك أرسل إلى السودان مع الحملة ثلاثة من نخبة العلماء : وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى ، والسيد أحمد البقلى الشافعى(3) ، والشيخ أحمد السلاوى المالكى ، حتى يكون لكل مذهب من المذاهب الشائعة شيخ يشرف على شئونه ، وحتى لا يجبر معتنق مذهب على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه .

نعم كان محمد على لا يريد أن يملى إرادته فيما يتعلق بتعليم أهل السودان ، وكان يؤثر أن يدعهم على ما كانوا عليه من نظم التعليم الدينى ، كما كان يؤثر أن يتعلموا أولاً فنون الزراعة والصناعة وما من شأنه عمار البلاد(4) بدلا من العلوم الثقافية الحديثة . ولكن هذا لم يمنعه مطلقًا من مد يد المعونة والتشجيع لكل مشروع تعليمى صالح . من ذلك أن قاضى الشرع

---

(1) ص ٩٦ ، ٩٧ من محمد على الكبير لشفيق غربال .

(2) ص ٢٥٢ من مناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

(3) عين الشيخ أحمد السلاوى المالكى قاضيًا عامًا للسودان ، أما السيد أحمد البقلى الشافعى فرجع إلى مصر لعدم وجود شافعية فى السودان (هكذا يقول نعوم شقير فى ص ١٧ ج٢ من كتابه) . والحقيقة أن بالسودان شافعية كما شرحنا ، ولكن عددهم فى المناطق التى دخلت أولا فى الحكم المصرى كان قليلا .

(4) تدلنا على ذلك أنه لما ذهب إلى السودان ونزل فى إقليم الرصيرص وحضر إليه رجال العشائر وملوك سنار وفازوغلى «صار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها ، وعن أحوال زراعة البلاد وما يناسبها . وأرشد رؤساء السودان إلى طرق جديدة فى الزراعة وفى الصنائع والفنون التى لا يعرفونها ، وأمرهم بالحصول عليها واستعمالها» (ص ٢٥٧ من مناهج الألباب المصرية) . ويدلنا على ذلك أيضا ما سنشير إليه من أن محمد على لما رجع إلى مصر ذهب بعده عدد من صبيان السودان ليتعلموا فنون الزراعة .

والعلماء بدنقلة رفعوا إليه يرجون إنشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية وتتلى الخطبة ، وإقامة مدرسة تعليم القرآن الصبيان . فكتب إلى مأمور دنقلة[1] يقول : «نطلب منكم أن تعملوا على إنشاء الجامع وإقامة المدرسة إلى جانبه» . فهذا أمر قصير وصريح بالموافقة على رغبة العلماء فى بناء المسجد وفتح المدرسة . ذلك لأنه يثق بالعلماء ، ويعتقد أن رغبتهم تمثل رغبات الأهالى التى يحرص على تحقيقها .

ولكن محمد على قد يتردد فى تشجيع مشروع من مشروعات التعليم إذا لم تتوافر عنده الثقة بالداعين إليه ، أو القائمين به . مثال ذلك أن على أغا ـ مأمور دنقلة ـ كتب إليه يقول : إن يمن أغا رئيس متطوعة «السر دليلان» قد أنشأ جامعًا ومدرسة بدار الشايقية ، كما أنشأ مزرعة هى فدان وساقية للإنفاق من أثمان محصولها على الجامع ، والمدرسة . والمرجو إصدار إرادة الجناب العالى بإقامة الشعائر الدينية فى الجامع ، وإعفاء المزرعة من التكاليف الأميرية . فرد على المأمور[2] يقول : «نحن نود أن نعرف ما إذا كان الأغا المذكور قد أقام الجامع والمدرسة حقا وصرف على إقامتها من ماله الخاص أم أنه يريد ـ بحجة الجامع ـ أن يجعل له هذه المزرعة إيرادًا حسنًا إذا ما أعفيت من التكاليف الأميرية . فعليكم بموافاتنا بالحقيقة» . ومحمد على بعيد النظر حكيم الرأى حين يشك فى أمر من الأمور ، فهو لا يريد أن تستغل نواياه الحسنة لمصلحة الأفراد باسم الخير والصالح العام ، ولاسيما فى بلاد بعيدة عن سمعه وبصره .

وقد ظهر تشجيع محمد على للعلم والعلماء عندما زار السودان فى سنة ٣٨-١٨٣٩ واجتمع بالقضاة والمفتين والعلماء ، وأنعم عليهم كبارهم وصغارهم[3] بالخلع الفاخرة ، وعندما أصدر إرادته ـ بناء على طلب *الفقيه إبراهيم عيسى* ـ بإنشاء مسجد لتعليم *العلم* وصرف راتب شهرى للفقيه قدره مائة وخمسون قرشا[4] . ولم يقف تشجيع الوالى على إنشاء المسجد وتقرير المرتب ،

---

(١) دفتر رقم ٢٢٠ عابدين ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨٩ بتاريخ غرة جمادى الثانية سنة ١٢٥٢ .

(٢) دفتر ٢٢٠ عابدين . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٤٠ بتاريخ ١١ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ . وفى نهاية هذه المكاتبة نجد حاشية : إذا كان الأغا المذكور قد قام بنفقات بناء الجامع والمدرسة والمزرعة حقا فما المبلغ الذى أنفقه فى هذا السبيل؟ وكيف كان الإنفاق؟

(٣) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين . ترجمة وثيقة ٥٩ أصلية ١١٢ حمراء بتاريخ ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٥٤ .

(٤) دفتر ٣٧٩ صادر ديوان المعية . صورة المكاتبة رقم ٣٤٣٢ بتاريخ ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٠ إلى وكيل ديوان المالية .

بل وإلى هذا التشجيع حينما قدم الفقيه المذكور طلبا يقول فيه : إن طلبة العلم بالمسجد قد زاد عددهم ، ولم يعد المرتب المقرر يكفى لمصروفات المسجد ، وإنه يرجو أن يزاد فيه حتى يتمكن من القيام بوظيفته أى وظيفة التعليم . فكان رد محمد على على هذا الطلب موجهًا إلى وكيل ديوان المالية[1] أن «اكتبوا لحضرة الباشا منظم أمور السودان ، واسألوه عن مقدار من فى المسجد المذكور من الطلاب ، واسألوه عن المقدار الذى يلزم ترتيبه بالنسبة لمقدار من هم فيه ، وأن يذكر هو ما يراه موافقا ويخبركم به لتوافقوا عليه فإذا جاءكم الجواب منه فاكتبوا لنا به» فأى تشجيع ينتظر أكثر من هذا التشجيع العملى؟ وأى مضاء فى التفكير والتدبير والتنفيذ أنفذ من هذا المضاء الذى يتضح فى رسم الخطة ، والأمر بتنفيذها ، وإخباره بعد ذلك .

كان محمد على سخيا فى سبيل التعليم لأنه كان مؤمنا بضرورته «لترقية البلاد وإصلاح العباد . ولا أهمية للمال إذا ما صرف فى هذا السبيل»[2] . لذلك حينما كتب حكمدار السودان يخبره أن مسجد إبراهيم عيسى الذى فى كترنج يحتاج للتجديد ، ويعرض «بناء عشر حجرات لسكنى الفقراء ، وعمل سور للجامع من الطوب النئ . وأنه إذا عمل ذلك من الطوب الأحمر يكون أقوى وأمتن . وأن تكليف ذلك ثمانية آلاف قرش» كتب إليه يقول : «قد وافقت إرادتنا على إقامة السور ، وبناء الحجرات المذكورة من الطوب الأحمر بمبلغ ثمانية آلاف قرش . وقد كتبنا لكم هذا الكتاب لتباشروا العمل»[3] . نعم كان سخيًا حقًا وحريصًا على نشر التعليم ، وإلا لما آثر أن تكون البناية من الطوب الأحمر بدل اللبن مع ما فى ذلك من تكاليف زائدة ، ولما كانت استجابته سريعة صريحة واضحة قوية كما رأينا .

ولم يفت محمد على أن يحث الناس على التعليم كلما سنحت له الفرصة فى السودان[4] .

---

(١) المكاتبة السابقة .

(٢) دفتر رقم ٢٨٠ شورى المعاونة ملكية . ترجمة الوثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٥٥ .

(٣) دفتر رقم ٤٠٨ صادر معية سنية . صورة المكاتبة رقم ١١١٠ بتاريخ ٨ ربيع الأول سنة ١٢٦٣ . وهذا المسجد هو الذى تحدث إلى عنه الشيخ شمس الدين الحنفى فى مجلد الملحقات . والشيخ شمس الدين هذا من نسل إبراهيم بن عيسى .

(٤) ص ٤٩١ من كتاب :

Histoire Sommaire de l'Egypte Sous Le Gouvernment de Mohammed Aly, par Félix Mengin.

«Le Vice-roi pronençe un discours devant les netables du pays pour les exeiter à envoyer leurs enfants s' instraire en Egypt; plesieurs se laissérent persuader, un chcikh du pays, qui n' avait pas d' enfant, permit d' envoyer un de ses novea x»(1)

وقد لبى القوم رغبة ولى النعم ، فبعد عودته من السودان «جاء ستة أشخاص من أبناء وجهاء تلك البلاد . فلما عرض مجيئهم على الجناب العالى صدر أمره الكريم بتعليمهم علم الزراعة ، وأن يرسلوا إلى المدرسة التجهيزية فى الحال ليتعلموا فيها العلم المذكور بمشيئة الله تعالى . وأمر بلزوم العناية بهم ، وتمييزهم على غيرهم من تلاميذ المدرسة الآخرين وأن يخصص لهم خادم يقوم بما يلزم لهم - ولو أن لكل عشرة تلاميذ فى المدرسة خادم - وألا يفرق بينهم ، بل يكونوا معا . وأن يعنى بتعليمهم القراءة والكتابة بكل وجه ممكن ، حتى إذا أتقنوها يبدأ بتعليمهم علم الزراعة»(٢) . هذه هى عبارة الرسالة التى وجهت من ديوان المعاونة إلى مدير المدارس . ومنها يتضح مقدار عناية محمد على بالبعثة السودانية الأولى التى أمر بإرسالها إلى مصر . ومنها يتضح أيضا كيف رسم لها خطة الدراسة وكيف اختار المواد ، وكيف أوصى بأن يميزوا عن غيرهم ، وأن يعنى بهم عناية خاصة . وأمر فى الرسالة «أن يجرى إعلامه بكل ما يتم من أمرهم» فلله ما أبعد نظر هذا الرجل العظيم! وما أوسع آماله! وما أحكم سياسته!

ومن المناسب هنا أن نذكر شيئًا عن المدرسة التجهيزية التى أرسل إليها الطلبة السودانيون سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) . كانت مدرسة قصر العينى أول مدرسة تجهيزية فتحت بمصر سنة ١٨٢٥ . وكانت تعد لمدارس الطب والمشاة والفرسان والبحرية والمهندسخانة وأركان الحرب . وفى سنة ١٨٣٦-١٨٣٧ نظمت المدرسة طبقًا للوائح الجديدة ، وصار الغرض منها إعداد التلاميذ للمدارس الخصوصية . فكانت تتلقى تلاميذ المكاتب ، وتقوم على تربيتهم وتعليمهم قبل نقلهم

---

(١) وكذلك انظر كتاب :

Il viagio di Mohammed Aly al Soudan (15 Octobre 1838-15 Marzo 1939) par Angelo Sammarce (1929).

وفيه يقول : إن محمد على لما وصل إلى فازاغور جمع رؤساء القبائل وخطب فيهم ، مبينا فوائد الزراعة والتجارة ، حاثا إياهم على تعلمهما . فلما تضرعوا إليه أن يأخذهم معه إلى مصر حتى يتعلموا هذه الفنون قال : إن الأولى أن ترسلوا أبناءكم لأن تعلمهم يكون أسهل من تعلمكم لأنهم أصغر . ويمكن أن يكونوا أكثر فائدة لهذه البلاد . . . وسألحقهم بالمدارس التى يتعلمون فيها . وسأعتبرهم أولادى الذين أتبناهم (ص ٢٨ ج٢٥١ السنة السادسة من مجلة الرابطة العربية) .

(٢) رفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة جهادية . وثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ .

إلى المدارس الخصوصية . وكانت مهمة المدرسة التجهيزية صعبة ؛ لأن تلاميذ المكاتب الذين كانوا يلتحقون بها لم يصيبوا من العلم إلا حفظ القرآن وقراءة بعض الكتب الأزهرية الأولية فى النحو والصرف والدين وقواعد الحساب الأربع وخط الثلث . وكانت مدة الدراسة بالمدرسة التجهيزية أربع سنوات ـ قد تزاد إلى خمس فى ظروف خاصة ـ ويتلقى التلاميذ فيها دروسًا فى اللغات العربية والتركية والحساب ومبادئ الجبر والهندسة والتاريخ والجغرافيا وخطى الثلث والرقعة ورسم الخطوط ورسم الصفات . وقد أولت الحكومة تلاميذ المدارس التجهيزية عناية كبيرة كالنوم على أسرة ، والجلوس على مقاعد وقت الدرس ، وإطعامهم من اللحم والخضر فى كل يوم ، وأخذهم بالطريقة الغربية فى تناول الطعام وإلباسهم[1] الكسى (البذلات) . وقد نقلت المدرسة التجهيزية من قصر العينى فى سنة ١٨٣٧ إلى أبى زعبل فى المكان الذى كانت تشغله مدرسة الطب ، ونقلت مدرسة الطب إلى قصر العينى . وظلت المدرسة التجهيزية فى أبى زعبل حتى سنة ١٨٤١ ، أى أن الطلبة السودانيين دخلوها (١٨٣٩) عندما كانت فى أبى زعبل .

أما علم الزراعة الذى اقترح محمد على أن يعلموه فالغالب أنه كان بمدرسة[2] الزراعة ، وهى إحدى المدارس الخصوصية التى كان يلتحق بها من أتم الدراسة التجهيزية . وكانت بشبرا مدرسة للزراعة نقلت من نبروه سنة ١٨٣٩ . وكانت مواد دراستها تشمل ، إلى دراسة النباتات وما تحتاج إليها دراسة الصحة والكيمياء . ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات . وكان التلاميذ يتمرنون عمليا فى مزرعة كبيرة من أطيان باسوس . وكان تلاميذ هذه المدرسة[3] قلائل يتراوحون بين ٢٥ و٣٠ .

فكأن محمد على فتح أمام هؤلاء الطلبة السودانيين أبواب خير المدارس عنده ، وجعل عنايته بهم فوق عنايته بالطلبة المصريين . ونحن لا نسمع بعد ذلك شيئا عن هؤلاء الطلبة ، اللهم إلا ما يقوله رفاعة الطهطاوى[4] من أنهم «نقلوا إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن . وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم» . ثم هو يقول : «وقد شاهدت بعضهم مستخدمًا بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب» .

---

(١) تلخيص من ص ٢٣٠ إلى ٢٥٧ من كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على لأحمد عزت عبدالكريم .

(٢) يؤيد هذا ما سنذكره بعد من رواية رفاعة الطهطاوى عن هؤلاء الطلبة وأنهم دخلوا مكتب الزراعة .

(٣) ص ٣٥٤-٣٥٨ من كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على لأحمد عزت عبد الكريم .

(٤) ص ٢٦٣ من كتاب مناهج الألباب المصرية .

وسواء استفاد هؤلاء الطلبة من الدراسة التى أتيحت لهم أم لم يستفيدوا فإن محمد على قد فعل ما يثبت حسن قصده ورغبته فى تقدم البلاد وإصلاحها .

هذا ما وصلنا حتى الآن من الوثائق التى عثرنا عليها مسجلة مجهود محمد على التعليمى فى السودان . ولعل هناك جهوداً أخرى لم تنكشف بعد . على أن بعض الحكمداريين كان يقوم بأعمال خيرية من ماله الخاص . ولذلك لا يرد لها ذكر فى سجلات الحكومة . فقد ورد عرضا ما يفيد أن أحمد باشا أبو ودان الحكمدار كان يقيم فى التاكة (كسلا) مسجدًا ليتولى الإنفاق عليه من ماله الخاص ، وأنه مات قبل أن يتم بناء هذا المسجد . فلما بلغ محمد على الخبر[1] بعد موت الحكمدار أمر «بإكمال بناء المسجد المذكور من أموال المديرية ، وكذا العين المراد وقفها عليه ، يجب أن تخصصها المديرية من غير أن يؤخذ أى شىء من أموال المرحوم لهذا الغرض» . ولعمرى لست أدرى أى الرجلين أولى بالفضل : البادى بالخير أو المنافس فى القيام به والمتمم له .

وإذا كنا قد لاحظنا أن محمد على لم يضع سياسة منظمة مفصلة للتعليم فى السودان ، كما كانت الحال فى مصر ، فما ذلك إلا لأنه ـ كما قلنا ـ أراد ألا يملى إرادته على القوم وهم حديثو الصلة به حتى لا ينفر قلوبهم . وهو أيضا قد آثر أن يترك ما كان عندهم من تعليم عربى إسلامى على حاله ، وأن يمد يد التشجيع والمساعدة كلما دعت الحال . ثم هو كان يريد البدء بالإصلاح والتعمير بعد الخراب والتدمير . نعم إن هذه الحال لا تدل على أن محمد على كان له برنامج إصلاحى ثقافى واضح ، ولكنها تشير إلى أن الصعوبات التى أمامه جعلته يهتم بأشياء عمرانية مباشرة اهتماما إيجابيًا .

ونحن نفترض ـ ويحق لنا هذا الافتراض ـ أن حركة التعليم التى كانت معروفة فى السودان بالمساجد والخلوات أثناء القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر قد استقرت ، اللهم إلا ما حدث من تعطيل مؤقت لها خلال سنوات الفتح كنتيجة لازمة لاضطراب الأمور ، وهرب الناس ، ولكن لابد بعد أن استقرت الأحوال ورجع الناس لمواطنهم ، استأنف الفقهاء حياتهم

---

(١) دفتر ٣٧٧ معية تركى صورة المكاتبة رقم ٦٤٩ بتاريخ ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٦٠ .

العلمية والتعليمية ، وسلكوا نهجهم القديم فى التدريس ، كما كانت الحال مع الشيخ إسماعيل بن عبد الله الولى(١) بالأبيض وغيره من الفقهاء .

ونحن أيضا نفترض ـ ويحق لنا هذا الافتراض ـ أن إقبال أهل السودان على التعليم بالأزهر قد زاد لسلامة الطريق وأمنه ، ولنمو الصلة بين مصر والسودان . ويؤيد هذا الفرض ما حدث من تأسيس رواق السنارية بالأزهر سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٦م) فقد حضر لطلب العلم بالأزهر سودانى يسمى محمد على وداعة سنة ١٢٥٣هـ فوجد به ستة من السنارية قد سبقوه إليه . فقدم هؤلاء الطلبة إلى محمد على يرجون ترتيب خبز لهم فوافق على ذلك(٢) فى سنة ١٢٥٨هـ . ثم قدّم محمد على وداعة وزملاؤه السناريون المجاورون طلبًا «يلتمسون إنشاء رواق خاص لهم فى الأزهر للإقامة فيه أسوة بالصعايدة(٣) والمغاربة وسائر الأجناس» . ولما كان عدد الأروقة الموجودة فى الأزهر عبارة عن اثنين وعشرين رواقًا ، وكل رواق منها مخصص لجنس من المجاورين ، لم يعد فى الإمكان ـ كما قال وكيل ديوان المالية فى رسالة لمحمد على ـ إنشاء رواق جديد خاص بالسناريين ، وإن إنشاء رواق جديد خاص بهم يتوقف على إرادة الجناب العالى . فكان ردّه على هذه الرسالة «قد اقتضت إرادتى لشراء محل جديد وتخصيصه رواقًا للمجاورين السناريين أسوة بأمثالهم من طوائف المجاورين»(٤) .

ولا يزال هذا الرواق قائمًا الآن ملاصقًا(٥) للأزهر . وقد زرته وحدثنى شيخه بشير أحمد عبد الجبار بأن مكان هذا الرواق كان بيتا لورثة أحد العلماء . وكان الأتراك يريدون شراءه ليضموه إلى

---

(١) كتب الشيخ إسماعيل هذا إلى محمد على لما زار السودان يقول : «إن سألت عن حالى فإنى رجل صاحب طريقة ودرس منقطع على باب الله . فالحمد لله منذ قدموا أولادك بأرض السودان حصلت لنا الراحة والإكرام التام . وكل ذلك بسبب إقبالك وإكرامك لأهل الدين وحفظ حرمهم» (محفوظة رقم ٢٦٥ عابدين . ملف متفرقات سنة ١٢٥٤ . صورة الوثيقة العربية ص ١٥٤ حمراء بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٤) . ومما هو جدير بالذكر أن الشيخ إسماعيل هذا هو الجد الأكبر للأستاذ الأزهرى رئيس الوفد السودانى .

(٢) ص ٥١٣ ج٢ من كتاب السودان لعبد الله حسين .

(٣) دفتر رقم ٤١١ معية سنية . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٤٨ بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٦٣هـ .

(٤) نفس الوثيقة التى أشرنا إليها الآن . وفى ص٢٣ من كتاب الأزهر لمحب الدين الخطيب أن إنشاء رواق السنارية كان سنة ١٢٢٠ (وهذا خطأ طبعا) وأن عزيز مصر اشترى ربعا كان فى مكان هذا الرواق وبناه ووقف عليه .

(٥) يقع هذا الرواق فى شارع محمد عبده فى بناية تضم فى الدور الأول (الأرضى) مكتبة الأتراك ، ومكتبة المغاربة ، أما الدور الثانى ففيه على شمال الصاعد رواق السنارية الذى نتحدث عنه . وعلى اليمين رواق المغاربة . والدور الثالث يضم رواق الأتراك وجزءاً من رواق المغاربة .

رواقهم ، والمغاربة يريدون ذلك أيضا . فلما أخبر الوالى محمد على به أصدر أمره بشرائه واشترى «ورزغ» باسم السنارية . ولما تم بناؤه أراد المجاورون من النوبيين أن يسكنوا فيه وقالوا نحن سنارية أيضاً ، وكان ذلك فى عهد سعيد باشا . فاعترض السنارية على دعوى النوبيين وحولت القضية على الشيخ السقا فأجرى امتحاناً ليميز به بين السناريين والنوبيين ؛ وذلك بأن كتب على لوحة كلمتى : «محمد وحمص» ثم تقدم المجاورون من أهل السودان لقراءة هاتين الكلمتين ؛ فأما النوبيون فنطقوهما مهمد وهمص ، وأما السناريون فنطقوهما صوابا . وبذلك سمح للسناريين فقط بالإقامة فيه[1] .

ولرواق السناريين وقف منذ عهد محمد على قدره ٥٦ رغيفا فى اليوم لاثنى عشر طالبا ، وللشيخ منها ثمانية أرغفة[2] .

وقد يكون من الإنصاف والتقدير لجهود محمد على فى سبيل التعليم بالسودان ألا ننظر إليها بعين الوقت الحاضر ، بل بعين الوقت الذى عاش فيه ، وفتح فيه للعالم قلب القارة المظلمة ، بعين الوقت الذى كانت فيه أرقى الأمم حضارة الآن مازالت نسبة التعليم بها قليلة ؛ فقد ورد فى الوقائع المصرية[3] بعنوان الحوادث الخارجية (انكلترا) ما يأتى :

لما كان فن الكتابة والقراءة لم ينتظم فى سلك اللياقة فى انكلترا وملحقاتها من أسقوجيا وأرلاندة وكان أهل انكلترا لا يكاد يوجد فى كل مائة نفس منهم عشرون نفسا يعرفون الكتابة ، ولا فى المائة ثلاثون يعرفون القراءة وقد تحقق عند العارفين بحقائق الأشياء استغراقهم فى بحر الجهالة ، وحرمانهم من حسن التربية والتأديب أراد وكلاء الدولة تمشيهم على أصول الانتظام فى عموم المدارس ، وتشبثوا بالتدابير المستحسنة . وقد عرضوا ذلك على مجلس مبعوثى الملة ، وحصلت لمذاكرة فى شأنه مراراً . وفى آخر الأمر وقعت مجادلة كبيرة ، ومناقضة كثيرة فيما بين

---

(١) للنوبيين رواق أسس سنة ١٨٣٥ ولأهل دارفور أيضا رواق أسس قبل رواق السنارية . وهو الآن ثلاث حجرات مجاورة لرواق السناريين .

(٢) وقد زاد إسماعيل باشا هذه الجراية إلى ٤٠ رغيفا فى اليوم ، كما أن للرواق وقفا هو حصة من وقف حيدر أغا يصرف ريعها نقداً لشيخ الرواق وطلبته ، وحصة من وقف برلنته هانم حرم المرحوم محمد شريف باشا الكبير ، وموقوف على هذا الرواق دكان فى جهة الحنفى . وللرواق مكتبة ، وبه ٨ غرف يسكنها الآن ١٢ طالبًا .

(٣) انظر الوقائع المصرية العدد ٢٣٨ .

أعضاء المجلس المذكور[1] . وإذاً فقد كانت سياسة نشر التعليم فى عصر محمد على غير معروفة فى أوروبا . وإذا قارنا ما اقتبسناه هنا من الوقائع المصرية بجهود محمد على الجبارة فى نشر التعليم بمصر أدركنا كيف أن هذا الرجل كان سخيًا فى مشروعاته التعليمية ، حريصا على تربية أبناء الشعب . ولم يكن سخاؤه وحرصه على ذلك فى السودان بأقل منهما فى مصر ، ولكن ظروف السودان كان لها حكم آخر ونتائج أخرى .

وبعد ، فإذا كان محمد على قد غرس بذرة الثقافة والتعليم فى السودان بتشجيعه لهما كلما دعت الحال فإن شجرة هذا الغرض قد تعهدها بالإنماء والرعاية حفيده العظيم إسماعيل ، كما سأشرح ذلك .

■ ■ ■

---

(١) وما نشرته الوقائع المصرية غير مبالغ فيه ولا يعدو الحقيقة . فإن قيل إن هذا خبر نشر فى صحيفة ولا يعتمد على صحته فإن الوثائق الأخرى المعتمدة تؤيد ما ورد فى الوقائع المصرية . ففى ص ٨٢٢ من الجزء الثانى عشر من Popular Eney-codaedia نجد أن متوسط التلاميذ الذين كانوا يذهبون للمدارس بإنجلترا فى سنة ١٨٨٠ هو ٢,٧٥٠,٩١٦ وهم تلاميذ دون العاشرة ، بينما كان عدد التلاميذ الذين هم دون العاشرة فى كل إنجلترا والذين يجب ذهابهم للمدرسة (٥-١٠) هو ٤,٢٤٠,٧٥٣ أى أن نسبة من كانوا يذهبون للمدارس ما بين ٥-١٠ من الأطفال كانت نحو ٥٠٪ من الواجب ذهابهم . والمعروف أن نسبة المتعلمين تقل كلما ارتفعت السن . أى أن نسبة المتعلمين (الذين يعرفون القراءة والكتابة) فى إنجلترا سنة ١٨٨٠ كانت أقل من ٥٠٪ . ومعروف أيضا أن التعليم الأولى فى إنجلترا صار إلزاميا سنة ١٨٨٠ . فمن المعقول أن نسبة المتعلمين فى إنجلترا قبل سنة ١٨٨٠ وهى نسبة التعليم الإلزامى ، لابد كانت أقل بكثير من ٥٠٪ .

أما مستوى التعليم فى تلك السنة فتقول عنه وزارة المعارف المشار إليها ما يأتى :

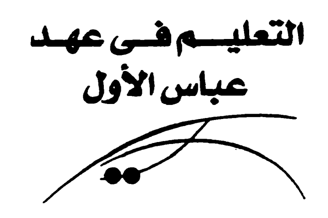
The Standard of instruction now adopted contrasts srikingly with the humble proposals of fifty years ago (i.e. 1930) when writing and arithmetie were nct deemed necessary.

التعليم

فى عصر

عباس الأول وسعيد

التعليم في عهد عباس الأول



يكاد يجمع المؤرخون على أن عصر عباس الأول كان عصر ركود وضعف بعد العصر الذهبى الذى سبقه ، عصر محمد على العظيم وابنه إبراهيم . ولم يكن عباس بأنشط فى ميدان التعليم منه في الميادين الأخرى . فالمدارس قد ساءت حالها فى عهده فألغى معظمها (بعد الذى عطل منها فى أواخر عهد محمد على) وأقفلت أبوابها بين عالية وثانوية وابتدائية . ولم يبق منها إلا النذر اليسير[١] .

نعم أبقى عباس من المدارس وجمع لها من التلاميذ ما يكفى فقط لتخريج العدد الكافى لإدرارة المرافق المحدودة[٢] التى لم يقفلها . وقد كان الوالى شديد الحرص على الاقتصاد فى الصرف على معاهد التعليم ، ولكن الاقتصاد لم يكن عنده سياسة مرسومة يمليها عليه الشعور بضرورة التنسيق بين مختلف حاجات البلاد فى حدود طاقتها المالية ؛ لأنه كان يقتر على مرافق التعليم من ناحية وينفق على قصوره ومرافقه من ناحية أخرى[٣] .

---

(١) ص ١١ ج١ عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى .

(٢) ص ١٢-١٤ عصر إسماعيل وسعيد لعزت عبدالكريم .

(٣) ص ١٣ من كتاب عصر عباس وسعيد لعزت عبدالكريم . ومن الإنصاف أن نسجل هنا ما قاله هيورث دن عن رأيه فى خطة عباس التعليمية فهو يقول فى ص ٢٩١ من كتابه ما يأتى :

The outstanding factor to be borne in mind is that if Muhammad Ali and Ibrahim both saw fot to ourtail their educational schemes, and they were men who had made some practical use of western schools (even if only for military purposes and ostentation), what was Abbas to do with them, he who had no natural inclination for European learning (if the Egyptian adaptation of it entitles it to the name of learning), and still less inclination to make use of them for ostentstion and propagands abroad?

If the educational system had failed under Muhammad Ali, and it certainly had failed, then why should Abbas be made a scapegoat for this failure? Why should he be blamed for giving the coup de grace to the few derelict institutions that were left?

وواضح ما فى كلام هذا الكتاب من سخف وتحامل .

وقد ظل عباس فى الحكم ست سنوات من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ إلى شوال سنة ١٢٧٠ (نوفمبر سنة ١٨٤٨ ـ يوليو سنة ١٨٥٤) يؤخذ عليه فيها أنه لم يعن بالسودان عناية جده ، ولم يفكر يومًا فى زيارة ذلك الإقليم العظيم الذى يعد الجزء المكمل لمصر ، ليشاهد بنفسه شئون البلاد وأهلها ، ويتعرف أحوالها ، كما فعل محمد على الذى لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة من أن يجوب السودان باحثا مستطلعًا[1] .

وإذا عرفنا أنه توالى على السودان فى عهد عباس ستة حكمداريين[2] لم تزد مدة معظمهم على سنة واحدة أدركنا أن الأحوال هنالك لم تكن كما يرام[3] .

والتعليم بالسودان لعهد عباس يشمل نوعين : النوع الأهلى الدينى الذى كان سائدا منذ قيام دول الإسلام بالسودان ، والذى لقى من محمد على تشجيعا وعطفا ، والتعلم المدنى الحكومى الذى ـ وإن لم يكن محمد على قد بدأه ـ كان لعباس اليد الطولى فى وضع أساسه وإدخاله هناك .

التعليم الأهلى

أما التعليم الدينى الأهلى فليس لدينا من الأدلة ما يثبت أنه وهن أو رجع القهقرى ؛ لأن الناس كانوا ـ بعد سنوات الفتح ـ قد أخذوا فى الاستقرار ، وألفوا الحياة الجديدة والحكم الجديد ، بما فيه من محاسن وعيوب . وكانوا أيضا قد أيقنوا أن الحكومة إسلامية قلبا وقالبا تشاركهم عاداتهم ومظاهرهم الدينية ، وتحتفى معهم فى كل المناسبات بالمواسم الإسلامية . وكان معظم الحكمداريين من الأتراك ، وهم معروفون بحرصهم على شعائر الدين والتمسك الشديد به . فلا غرو إذًا أن يشجعوا ما كان قائما من الخلوات ومساجد العلم والعبادة ، وأن يعملوا على ترقية المستوى العلمى الذى وصل إليه القوم حينذاك .

---

(١) ص ١٧ ج١ تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

(٢) هم خالد باشا الذى كان منذ عهد محمد على ، ولطيف باشا الذى أنشئت فى عهده مدرسة الخرطوم ، ورستم باشا وقد مات بالخرطوم ، وإسماعيل باشا أبو جبل ، وسليم باشا صاحب ، وعلى باشا سرى .

(٣) راجع الوثيقة التركية رقم ١٨٩ محفظة رقم ١ تفتيش عموم قبلى . قرار المجلس الخصوصى بتاريخ ٢١ ذى الحجة سنة ١٨٦٥هـ . ومنه يفهم أن عباسا الأول كان حريصا على إسعاد السودان ، ونشر العدل والإنصاف فيه ، كذلك المكاتبة التركية رقم ١٠٢٠ معية تركى صادر دفتر ٤٦٧ بتاريخ ١٤ شوال سنة ١٢٦٥ .

غير أنه لم يكن فى استطاعة الحكمدار أن يعمل شيئا إنشائيا من غير استشارة ولى النعم . ومن ذلك تعرف السبب فى بطء الإجراءات التى يحتاجها دائمًا أى مشروع إنشائى ، تعليميًا كان أو غير تعليمى . هذا إلى أن مدة كل حكمدار كانت من القصر بحيث لم يتمكن من وضع خطط إصلاحية . وإذا عرفنا أيضا أن بقاء الحكمدار بالسودان كان على مضض منه وكراهية أمكننا بالإضافة إلى ما سبق أن نفهم السر فى عدم نشاط الحكمداريين فى نواحي التعليم وغيرها بالبلاد الإسلامية السودانية .

وبالرغم من قلة ما عثرنا عليه من الوثائق التى تتعرض للتعليم الدينى بالسودان فى عهد عباس نجد أن ما عثرنا عليه ملىء بالتشجيع والعمل على تقويته ومؤازرته . من ذلك أن أحد أهل السودان المسمى الشيخ السنوسى كان مقيما بالجامع الأزهر لتحصيل العلوم ، فلما أتمه وأراد العودة إلى بلاده كتب الباشا الكتخدا إلى حكمدار السودان يقول : «وعند قدوم حضرته إليكم أحسنوا ملاقاته وعاملوه بما يجب لقدر فضله ، وابذلوا الوصية عليه إلى سائر الحكام الذين يصادفهم فى طريقه ، حتى ينفذ من صدور الحكمدار راضيا داعيا[1] بالخيرات» . وشبيه بهذه المكاتبة مكاتبة أخرى أرسلها الباشا الكتخدا إلى الحكمدار يوصى خيراً بأحد العلماء الأزهريين من أبناء السودان المسمى أبا بكر محمد . وقد توجهت نيته إلى العودة إلى وطنه لينشر على أهل تلك الجهة من ثمرات العلوم الشريفة التى حصلها ، ويرجو أن يؤذن له ببناء مسجد فى بلده الداخلة فى خط سقادى وبالخطبة وإقامة الجمعة . وفى هذه المكاتبة يقول الباشا : «وبما أن الشيخ المومى إليه قد علم فضله فقد أذن بأجرى ما ذكر ، ومن حيث إن حسن الانتفاع بعين المساعدة إلى أهل الفضل هو من الوجوب فينبغى أن تبذلوا الوصية الواجبة إلى من يلزم واحترامه ومزيد[2] إكرامه» .

ويظهر أن عباس ـ بالرغم من حرصه على الاقتصاد ـ لم يضن على مساجد العلم وبيوت الله بالإصلاح والتعمير جريا على السنة المباركة التى استنها جده . فقد رفعت إليه عريضة من الشيخ إبراهيم بن أمين تفيد أن بناحية الخندق مسجداً قديمًا للصلاة والعبادة وتلاوة القرآن ودراسة العلم ، وأنه فى حاجة إلى ترميم وإجراء راتب شهرى أو سنوى[3] . وقد حقق الوالى

---

(١) المكاتبة العربية رقم ٥٠ ص ٨٣٠ دفتر ٨٤ صادر معية فى ٦ ذى القعدة ١٢٦٨ .

(٢) المكاتبة العربية رقم ١١٠٧ دفتر صادر معية رقم ١٠٦ بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٦٩ .

(٣) راجع الملحق رقم ١٠ من الجزء الثالث وبه عريضة غير مؤرخة .

رجاءه فأصدر أمره العالى بتنفيذ ما جاء بالعريضة وكتب للحكمدار بذلك ليجرى البحث ويعمل المواصفات اللازمة . فقام الحكمدار بذلك وكتب يقول : «إنه وجد فى هذه الناحية مسجدًا متخربًا ، وظهر أن تكاليف الترميم وحفر بئر للميضأة[1] تبلغ ٨٧٥ قرشًا» .

ولم يكن والى مصر ليضن على النابهين من أهل السودان بالوظائف أو ليحتكرها للمصريين ، بل كان يعين الصالح منهم فيما يصلح له . ولا شك كان لهذا التعيين أثره فى تشجيع التعليم ؛ لأن معناه فتح باب الترقى أمام المتعلمين وتحسين مركزهم الاجتماعى والأدبى . وفى عهد عباس عين بمجلس الدعاوى (المحكمة العليا) بالسودان الشيخ على جلابى والشيخ محمد نور ضيف الله وهما سودنيان . كما عين الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتيًا للمحكمة . وهؤلاء ممن تعلموا فى السودان[2] .

التعليم الحكومى

هذا ما كان من أمر التعليم الأهلى وتشجيع الوالى له . ولا شك استمر هذا النوع من التعليم ـ من حيث برامجه وأساليبه وأماكنه ومدرسوه ـ كما كان[3] من قبل .

أما التعليم الحكومى فلم يكن معروفا فى السودان قبل عباس ، وإن كان الفضل يرجع إلى محمد على فى استقدامه إلى مصر بعض أبناء الأعيان وإدخالهم المدرسة التجهيزية ومدرسة الزراعة ، ولكن هذا غير تأسيس مدارس حكومية فى البلاد نفسها .

وتاريخ مدرسة الخرطوم ـ أوَّل مدرسة حكومية بالسودان ـ يقرن باسم رفاعة بك رافع الطهطاوى . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن عباسا الأوَّل إنما أسس مدرسة الخرطوم ليتخلص من رفاعة . وأن عباسا الذى أغلق المدارس بمصر ما كان ليفكر فى فتح مدرسة بالسودان . وعلى ما بهذا الرأى من وجاهة أعتقد أن الوالى ، بعد أن تقرر تأسيس هذه المدرسة ، صرف إليها

---

(١) الوثيقة رقم ١١٩ ورقة ٢ محفظة معية تركى رقم ١ بتاريخ ١٠ صفر سنة ١٢٧٠ . من عبد القادر وكيل الحكمدار إلى الباشمعاون .

(٢) المكاتبة العربية رقم ٢٠٦ ص١٨٦ دفتر وارد معية رقم ١٤٤ بتاريخ ١٨ شعبان سنة ١٢٧٠ . من مجلس الأحكام إلى المعية السنية . الشيخ إبراهيم عبد الدافع هذا هو مؤلف مخطوط ملوك السودان وأقاليمه .

(٣) ولا شك عندى أيضا فى أنه قد كثر إقبال طلبة السودان على الأزهر بعد الذى قام به محمد على من تأسيس رواق السنارية ، وتأمين الطريق بين مصر والسودان .

اهتمامه وأولاها عنايته حتى تثمر خير الثمرات ، وأنه لو كان قصده فقط نفى رفاعة والتخلص منه لتحقق هذا القصد ففتحت المدرسة أم لم تفتتح . وسيظهر لنا من الوثائق الرسمية مقدار صحة هذا الرأى .

فى ٦ رجب سنة ١٢٦٦ (١٨ مايو سنة ١٨٥٠) وجهت المعية السنية إلى ديوان المدارس مكاتبة تقول : «قد رأى المجلس الخصوصى أن تؤسس مدرسة بالأقاليم السودانية إنقاذًا لأولاد أهلها والمستوطنين بها من جحيم الجهل حتى يمتازوا باكتساب العلوم والمعارف . على أن يقبل ويقيد فيها مائتان وخمسون غلاما . واستحسن المجلس أن يولى رفاعة بك ناظرا على هذه المدرسة فيرسل إليها . وأن يصطفى مدرسوها من هنا باختيار البك المشار إليه . فنرجو أن تفهموه مهمته هذه ، وتضعوا بيانا عن المدرسين الذين سينتخبهم ، وعما تبلغه لوازم تلك المدرسة سنويا وشهريا من مأكولات وملبوسات وغيرها ، طبق الترتيبات الجارية بالمدارس المصرية ، ولا سيما الأصول الجارية بمدرستى المبتديان والتجهيزية . ثم ترسلون البيان سريعا إلى المجلس لكى يطلع عليه فيصدر فيه قراره اللازم» (١) .

كان هذا رأيا أبداه المجلس الخصوصى بناء على إشارة من الذات السامية الآصفية . وقد طلب المجلس من مدير المدارس ـ وهو المختص الفنى بهذا ـ أن يعمل الترتيب اللازم ويرسل به بيانا للمجلس حتى يبحثه قبل أن يصدر القرار النهائى . وقد تم هذا فعلا ، فإن مدير المدارس بعث إلى المعية السنية يقول : «قد تشاورنا فى الأمر بالديوان واجتبينا المعلمين من بين أكفاء الرجال ووضعنا بيانا عن سائر الخدم وعن الملابس والفرش والجرايات والمرتبات الشهرية ، فرفعناه إلى أعتاب جناب الخديو ، فوافقت عليه إرادته السامية ، كما أرسلنا كشف الترتيب طيا إلى سعادتكم . وستعلمون سعادتكم عند الاطلاع عليه أن أثمان الأشياء المذكورة قد قدرت وفق رائج أسعار القاهرة ، وأن المدرسين الذين ذكرت أسماؤهم فيه قد كلفوا التدريس للطلبة ، والقيام بمهمة الضبط والربط معا . وأنه ينبغى انتداب الكتاب والوزان ووكيل الخرج (العهدة)

---

(١) دفتر ٢١٣٣ مدارس تركى ترجمة المكاتبة رقم ١٦٧ ص ١٢٠ بتاريخ ٦ من رجب سنة ١٢٦٦هـ . ولم تكن هذه المكاتبة قرارًا أصدره المجلس الخصوصى ـ كما يقول الدكتور عزت عبدالكريم ص ١١٤ من تاريخ التعليم فى عهد عباس وسعيد ـ وإنما كان مجرد رأى يراد مناقشته وبحثه مع مدير المعارف . والقرار إنما صدر فى ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ كما سيأتى .

والغسال والسقاء والطباخ والخدم الآخرين من تلك الديار . وقد اعتبر التلاميذ مبتدئين وخصص لهم والحالة هذه مرتب شهرى قدره ستة قروش ؛ إذ إنهم لا يكونون إلى بدء دخولهم المدرسة إلا مبتدئين ، ولا يستطيعون الدخول فى عداد الطلبة التجهيزية إلا بعد نحو أربع سنوات»[١] .

وإذاً فقد أبدى ديوان المدارس رأيه الفنى وبعث بالبيانات اللازمة إلى المعية السنية حيث رفع الأمر إلى الأعتاب «فنال موافقة ولى النعم» فلم يبق إلا قرار المجلس الخصوصى . وقد صدر هذا القرار فى ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ متضمناً الترتيبات السابقة . وأن يكون تلاميذ المدرسة «من أولاد المشايخ والأهلين القاطنين بدنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وملحقاتها . وكذلك من أولاد الأتراك الذين توطنوا بتلك الديار[٢] وأحفادهم» . كذلك تضمن القرار الموافقة على الميزانية التى وضعها ديوان المدارس[٣] لهذه المدرسة وقدرها ثلاثمائة وثمانية وثلاثون ألفا وثلاثة وثلاثون قرشا وتسع وثلاثون بارة[٤] .

ومما يلفت النظر فى هذا القرار أن المدرسة كانت لأولاد الأتراك وأولاد السودانيين على السواء من غير تمييز بينهم ، مما يثبت حسن نية الوالى والحكام ، وأنهم لم يكونوا ينظرون إلى أولاد السودانيين نظرة أقل من نظرتهم إلى أولاد الأتراك ، وأن العناية كانت موجهة أولا وبالذات إلى أولاد السودان ، ثم «كذلك أولاد الأتراك الذين توطنوا بتلك الديار» . لقد حدث هذا منذ قرن تقريبًا بينما نجد الآن فى قلب الخرطوم بعض المدارس الإنجليزية لا تفتح أبوابها إلا لأولاد الإنجليز .

ويقرر المجلس الخصوصى فى نفس القرار «استصدار أمر إلى رفاعة بك بأن يستصحب ـ حين يبلغه القرار ـ الأحد عشر معلما والطبيب الذين انتدبوا من هاهنا ويسرع بهم ، صوب مهمته ،

---

(١) دفتر رقم ٢١٢٤ ديوان المدارس تركى . ترجمة المكاتبة رقم ٧٢ صفحة ١٩٥ بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٦٦ .

(٢) دفتر رقم ١٩٥٨ قرارات المجلس الخصوصى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤ ص ١١٩ . فصل المدارس . بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ .

(٣) يقول الدكتور عزت عبدالكريم (ص١١١ من تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد) أن رفاعة بك هو الذى وضع الميزانية السنوية لهذه المدرسة . ولا أدرى كيف وصل إلى هذا الحكم .

(٤) إذا عرفنا أن هذه الميزانية قدرت منذ قرن تقريبًا ، وأن قيمة النقود كانت مرتفعة جدًا إذا قورنت بقيمتها الآن ، وأن القرش فى ذلك العهد كان يساوى عشرة قروش بسعر الآن ، قلنا إن ميزانية هذه المدرسة السنوية كانت تعادل بنقود اليوم ٣٣٨٠٥ جنيها مصرية .

ويبادر إلى تأسيس المدرسة المذكورة ، وينظمها وفق المطلوب السامى عند وصوله إلى الخرطوم ، بعد أن يخابر حضرة الباشا حكمدار السودان وعليه ألا يألو جهدا فى التأكيد على المعلمين ، وفى البحث والتحرى ، ولا تعد عيناه عن التلاميذ ، وأن يرغبهم فى العمل ، ويبذل همته فى سبيل تقدمهم فى اكتساب العلوم والمعارف» .

هذا ما كان من أمر رفاعة بك ، أما حكمدار السودان فإن المجلس قد قرر استصدار أمر إليه «بأن يخصص محلاً مناسبًا للمدرسة المذكورة حين يصل إليك المشار إليه إلى الخرطوم وأن يختار الخدم والموظفين الآخرين الوارد ذكرهم فى الترتيب من أهل تلك الديار ، وأن يقيد للمدرسة المذكورة - بالتشاور مع الناظر المشار إليه - طلبة من أولاد مشايخ الجهات السابق ذكرها ، وأهليها ومن أولاد الأتراك المتوطنين بتلك الديار» .

وهكذا تم القرار بتأسيس مدرسة الخرطوم ، وأخبرت الجهات المختصة[1] لإجراء ما يلزم . أما المدرسون المنتخبون والطبيب فها هى ذى أسماؤهم :

١ - القائمقام[2] محمد بيومى أفندى - من قدامى أساتذة مدرسة المهندسخانة ورئيس قلم ترجمة الكتب الرياضية بقلم الترجمة ومفتش العلوم الرياضية[3] .

---

(١) دفتر ١٢٣٣ تركى ص ٥٧ ترجمة الوثيقة رقم ٤ بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ أمر كريم إلى ديوان المدارس .

(٢) سجل رقم ٢١٣٤ مدارس تركى ص ٢٤١ ترجمة الوثيقة ٧٩ بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٢٦٦ من ديوان المدارس إلى المعية الخديوية .

(٣) أرسل بيومى أفندى إلى فرنسا فى بعثة سنة ١٢٤١هـ (سنة ١٨٢٦) وله من العمر سبع عشرة سنة . ولبث فى فرنسا تسع سنوات تخصص خلالها فى فن قوى المياه (Hydrauliqua) الهيدروليكا . ثم عاد إلى مصر فى ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٠ (١٣ أبريل سنة ١٨٣٥) فعهد إليه فى الحال بترجمة كتاب فى الهندسة الوصفية . ثم عينه محمد على مدرسا بمدرسة المهندسخانة بالقناطر مع قيامه بمعاونة باشمهندس القناطر ولما ضمت مدرسة المهندسين بالقناطر إلى المهندسخانة ببولاق سنة ١٢٥١هـ (يناير سنة ١٨٣٦م) نقل بيومى أفندى أستاذًا بهذه المدرسة أو كما يقول على مبارك (باش خوجة) . وقد عنى بيومى أفندى عناية خاصة بترجمة الكتب الريادية إلى العربية وتولى رياسة قسم ترجمة هذه الكتب فى قلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن الذى أنشئ سنة ١٨٤٨ . وفى سنة ١٢٦٦ عين بمدرسة الخرطوم ومات هناك فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٨ . ومن مترجماته : كتاب الهندسة الوصفية ، وكتاب الجبر والمقابلة ، وكتاب ميكانيقة (جر الأثقال) وثمرة الاكتساب فى علم الحساب ، وجامع الثمرات فى حساب المثلثات ، ومبادئ اللوغاريتمات وقطع الصخور ، والفحم الحجرى (انظر الخطط التوفيقية م٢ ج م ص ٧٨ وكذلك تقويم النيل وعصر عباس وسعيد م١ ج٣ ج ص ٣٨ وكذلك تقرير الدكتور بورنج) .

٢ ـ الصاغقول أحمد طائل ـ كان من مدرسي المهندسخانة وارتكب أمرا عوقب عليه بالأشغال الشاقة ثم عفي عنه وعين معاونا بديوان المدارس (مفتشا) في عهد أدهم[١] باشا .

٣ ـ الملازم أول على محمد أفندى .

٤ ـ الملازم ثان على عثمان أفندى .

٥ ـ الملازم ثان إبراهيم محمد أفندى .

٦ ـ الملازم ثان محمد مرسى أفندى .

(٣ ـ ٦) يرجح أنهم من تلامذة رفاعة بك فى مدرسة[٢] الألسن

٧ ـ الملازم ثان أمين أفندى .

٨ ـ الشيخ رجب .

٩ ـ الشيخ مكاوى .

(٨ ـ ٩) كانا عالمين[٣] بالأزهر

١٠ ـ الشيخ إسماعيل فرغلى .

١١ ـ الشيخ أحمد الواعظ[٤] .

١٢ ـ سليمان السيوطى أفندى ـ طبيب .

هؤلاء هم هيئة التدريس فى مدرسة الخرطوم وناظرها . وهم ولا شك من نخبة الأساتذة الذين كان لهم فى تاريخ التعليم بمصر نصيب وافر فى تأسيسه وإنهاضه بعهد محمد على .

---

(١) ص ١١٦ من تاريخ التعليم فى عهد عباس وسعيد لعزت عبد الكريم ، وكذلك دفتر ٩٤ وارد معية عربى صورة المكاتبة رقم ٣٨ ص ٥٩٩ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٦٨ وكان أحمد طائل فى بعثة إلى فرنسا منذ سنة ١٨٣٠ ثم عاد منها سنة ١٨٣٦ قبل أن يتم الدراسة ، فعين معيدًا لدروس بيومى أفندى بالمهندسخانة على أن يتم دراسته عليه . ثم عين سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥) معاونا بالديوان واشتغل بترجمة كتب الرياضة . ثم عين مدرسًا بمدرسة الخرطوم ولما عاد مع رفاعة بك كان مريضًا بالحمى فتوفى فى بولاق بعد وصوله بليلتين (الخطط التوفيقية) .

(٢) ص ١١٧ من كتاب التعليم فى مصر فى عصر عباس الأول وسعيد لعزت عبد الكريم .

(٣) دفتر ١٥٢ مدارس عربى ص٢٥٦٣ رقم ١٨٦٥ من ديوان المدارس إلى شيخ الجامع الأزهر فى ٢٠ رجب سنة ١٢٦٦ .

(٤) يظهر أنه كان من علماء الأزهر أيضًا ؛ لأنه بعد تعيينه اختفى فلزم البحث عنه ، ولما لم يعثر عليه صار الاتصال شيخ الجامع الأزهر فوافق على تعيين الشيخ محمد المكاوى بدلاً عنه .

(انظر دفتر ١٥٣ مدارس عربى ص ٢٦٥٦ رقم ١٩٦٢ من الديوان إلى ناظر مدرسة الخرطوم فى ٢٨ رجب سنة ١٢٦٦)

ويغادر رفاعه بك مصر فى ذهبية بصحبة الخوجات الذين عينوا ومعه المهمات اللازمة للمدرسة[1] الحديثة كالطرابيش والمراكيب وغيرها ، مثل :

٢٥٠ حزام بفته .

٢٥٠ سجادة صوف .

٥٠٠

٢٥٠ ألواح صفيح .

٧٥٠

ثم يصل رفاعه بك وأعوانه إلى الخرطوم وتمضى الأيام والشهور ولا تفتح المدرسة ، ذلك لأن رفاعة غاضب حانق على نفيه من مصر . فكيف يقبل على العمل وقد قصد عقابه والتخلص منه بإرساله للخرطوم . ويحدثنا الرحالة الأمريكى بايرد تيلور ـ Bayard Taylor ـ أنه لقى فى الخرطوم أثناء رحلته سنة ١٨٥١ رفاعة بك الذى ظل يشكو له نحو ساعة بما لاقاه على يدى عباس باشا من متاعب ومضايقات وإيذاء وإيلام . وكيف أنه لما ولى الحكم عزل الرجال الذين قربهم إليه محمد على . وكثير منهم كانوا من الأذكياء المثقفين الأمناء ، أولئك الذين شاركوا محمد على فى إصلاحاته . وكيف أنه أرسل إلى الخرطوم باسم تأسيس مدرسة (كلية) والحقيقة لغرض نفيه . ثم يقول رفاعة بك : وقد مضى على وصوله سنة ونصف ولم يتلق من القاهرة أية تعليمات تتعلق بهذه المدرسة . وقد كان لهذه الحال من التعطل وغموض المستقبل ورداءة الجو أثر فى أن مات[2] من زملائه اثنان .

(١) دفتر ١٥٢ مدارس عربى ص ٢٥٦٠ إلى الترسانة فى ٢٩ رجب سنة ١٢٦٦ وص ٢٥٧٣ من نفس الدفتر رقم ٣٠٥ إلى المهمات الحربية فى ٢٢ رجب سنة ١٢٦٦ . وكذلك دفتر ١٢١ دار معية المكاتبة العربى رقم ٢ ص ٢ من ديوان المدارس إلى المعية السنية فى ٦ ذى الحجة سنة ١٢٦٩ .

(٢) ص ٢٦٢ من كتابه المسمى رحلة إلى أواسط أفريقيا . الترجمة الألمانية طبعة سنة ١٨٥٥ .

Reise Nach Centro la frikx, oder Leben U. Landschaften, Leipzig 1856.

وقد سجل رفاعة بك ما يعتقده السبب فى إرساله إلى الخرطوم بقوله : وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف كنت سافرت إلى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر ، بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم[1] ، فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل .

نعم لم يقبل رفاعة على افتتاح المدرسة وظل يشكو ويتذمر ومضى نحو سنتين ولم تصل منه إلى القاهرة أخبار ، فكتب إليه ديوان المدارس يذكره بأنه اختير لنظارة هذه المدرسة لما هو مشهور به من بذل السعى والاجتهاد والهمة وحسن الالتفات فى تعليم التلاميذ لأجل إكسابهم المعارف والعلوم والتربية ، وأنه قد صار له مدة من عهد ما توجه لتلك البلاد ، ولم يحضر من طرفه إفادة عما صار فى بحر هذه المدة ، من التعليمات وبيان ما اكتسبه التلاميذ فى العلوم ، وما مقدار عددهم ، وبيان درجات كل منهم أيضا ، حتى كان يعلم لهذا الطرف كيفية الجارى بالمدرسة والتحصيلات ، ويجرى العرض عنه كما هو مرغوب . ثم تستمر المكاتبة فتطلب من رفاعة بك أنه بوصولها يكتب مفصلا عن عدد التلاميذ بالمدرسة ، والعلوم التى تعلموها فى ظرف هذه المدة مع إرسال جدول ببيان الدروس فى أوقاتها ، كى بورود ما ذكر يجرى العرض للأعتاب[2] الآصفية .

وأنا هنا أتهم رفاعة بك بالتراخى فى أمر المدرسة ، وعدم اهتمامه بفتحها ، وأحمله تبعة البطء فى القيام بما كلف به طيلة هذه المدة ، ومن مظاهر تهاونه أنه تصرف فى الأشياء والمهمات

---

(١) ص ٢٦٥ من مناهج الألباب المصرية . وفى أثناء إقامته بالخرطوم ترجم كتاب «وقائع تلماك» وقد طبع فى بيروت ، ونظم هنالك قصائد يتوسل بها أن ينقذه الله مما هو فيه من نفى وبعد ، ومنها :

وما السودان قط مقام مثلى	ولا سلماى فيه ولا سعادى
وقد فارقت أطفالا صغارا	بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سرا وجهرا	ولا سهرى يطيب ولا رقادى

ويقول فى قصيدة مخمسة :

رفاعة يشتكى من عصبة سخرت	لما رأت أبحر العرفان قد زخرت
فارفع ظلامة نفس عدلك ادخرت	وهاك جوهر أبيات بك افتخرت

جاءت إليك بخط الذنب ترفعه

(٢) دفتر ٢٠٩ مدارس عربى ص ٢٤٩٥ رقم ١٦٩٥ إلى ناظر مدرسة الخرطوم بتاريخ غاية جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ .

التى أخذها عند ما غادر القاهرة حتى وزعت على الآيات خهادية بمعرفة الحكمدار لطيف[1] باشا .

غير أن محاولة رفاعة بك التخلص من تبعة فتح المدرسة لم تقابل فى مصر إلا بالإصرار على فتحها ، فهو يقول فى رسالة منه لمدير[2] المدارس : «إن أغلب التلاميذ يتهربون فى الجبال البعيدة وغير ممكن الحصول على حضورهم ، وفضلا عن ذلك أنهم ناس غلائظ العقول ، وأنه صار وفاة ثلاثة من الخوجات المسلمين ، وأن المدرسة قد صارت اسم بلا جسم» .

أما مدير المدارس فيعود يستحث همة رفاعة بك ويقول له : أنه بورود رسالتك قد صار العرض[3] للأعتاب الأصفية ، وصدرت الإرادة العلية إلى سعادة حكمدار السودان بفتح المدرسة وإدارتها ، وإن مهمات المدرسة مثل الطرابيش وغيرها التى وزعت على الألايات الجهادية قد تحرر لسعادة الحكمدار بتداركها وإعادتها لحضرتكم ، ثم يكون منكم بذل الهمة والاجتهاد فى حضور الأنفار تطلبونها من سعادة الحكمدار ، وعليكم المبادرة ، بإفادة هذا الطرف أولاً بأول عن كيفية حركات وأصول المدرسة ليعلم مقدار ما ورد من التلامذة ، وكيفية الجارى من التحصيلات .

ومما لا شك فيه أن حالة رفاعة بك النفسية كانت سيئة ، وكذلك حال زملائه ـ وهم من خير أساتذة مصر ـ وكان من أثر هذا الحال ، ورداءة الجو أيضا ، وانتشار الأمراض أن توفى أربعة من زملائه[4] ، والحكيم ، وصار عقد جمعية بديوان المدارس من حضرات البيكوات المهندسين ،

---

(١) دفتر ٢١٥ مدارس عربى ص ٣٧٥٢ رقم ٢٣٥٦ إلى ناظر الخرطوم بتاريخ ٥ شوال سنة ١٢٦٨ .

(٢) دفتر ٢٣٢ مدارس عربى ص ٢١٧٩ رقم ١ من ناظر الخرطوم فى غرة شعبان سنة ١٢٦٨ . وهنا أعتقد أن رفاعة بك كان يتكلم عن عاطفته ووجدانه لما كان فيه من شعور بغضب الوالى عليه ونفيه ، فلم ينصف أولاد السودان فى حكمه هذا ، وهو الذى يقول عنهم فى كتابه مناهج الألباب المصرية (ص٢٦٢ ، ٢٦٣) مع قبول أهل السودان للتمدن الحقيقى ، لدقة أذهانهم فإن أكثرهم قبائل عربية . . . وجميع أهلها ـ ما عدا بعض الجبال ـ لسانهم عربى فصيح وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة .

(٣) دفتر ٢١ مدارس عربى ص ٣٧٥٢ رقم ٢٣٥٦ إلى ناظر الخرطوم فى ٥ شوال سنة ١٢٦٨ .

(٤) كانت وفاه محمد بيومى فى صباح يوم الخميس ١٢ رمضان سنة ١٢٦٨ انظر دفتر ٩٤ وارد معية عربى . صورة المكاتبة رقم ٣٧ ص ٥٩٩ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٦٨ . وكذلك دفتر رقم ٨٣ صادر معية . صورة المكاتبة العربية رقم ١١٠٠ ص١١٠٨ بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٦٨ .

وناظر قلم هندسة ، وناظر مدرسة الطب البشرى ، وما لزم من عمد الحكما ، لأجل أن يصير انتخاب خمسة أشخاص بدلا من المتوفين يكونون من أرباب المعارف ذوى المفهومية والاستعداد مجربين[1] الأطوار ، وقد تم انتخاب من يحلون محل المتوفين وها هى ذى أسماؤهم :

المتوفون	من عينوا بدلاً عنهم
١. محمد أفندى بيومى	اليوزباشى عبدالله أفندى حسين مهندس
٢. الشيخ إسماعيل فرغلى	صاغقول أغاسى خليفة مهندس
٣. محمد أفندى مرسى	يوزباشى أول مصطفى أفندى السراج مهندس
٤. على أفندى عثمان	الملازم أول أحمد أفندى عبدالله مهندس
٥. سليم أفندى الحكيم	القائمقام مصطفى السبكى أفندى طبيب

وانتخب الثانى والثالث[2] من السكة الحديد ، أما الثلاثة الآخرون فمن ديوان المدارس ، وصدرت الأوامر بترحيلهم إلى الخرطوم ، ثم يحث مدير المدارس رفاعة بك بقوله : ثم يكون من حضرتكم بذل الجهد والهمة فى تحصيلات التلاميذ العلوم كما هو المأمول والمشهور من حضرتكم ؛ حيث إنه ولابد بمرور هذه المدة أى من تاريخ جواب حضرتكم لغاية الآن تكون التلامذة وردت إلى المدرسة بناء على الاجتهاد الواقع من حضرة الحكمدار فى فتوحها . . . ويكون من حضرتكم غاية الاهتمام فى ذلك . ويكون أيضا من حضرتكم المبادرة بأخبار ديوان المدارس أولاً بأول عما هو جار بالمدرسة وكيفية أحوالها وحركاتها[3] .

---

(١) دفتر ٢٤٩ مدارس عربى ص ٢٣٨٥ رقم ٦٠٠ إلى ناظر مدرسة الخرطوم بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ .

(٢) دفتر ٢٤٧ مدارس عربى ص ٢١٥٦ رقم ٥٠٣ إلى المالية فى ٨ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ . ومما يلفت النظر أنه لما حوكم اليوزباشى إبراهيم سالم باشمهندس القليوبية ، وحكم عليه بتنزيله إلى ملازم أول قرر إبعاثه إلى مدرسة المهندسخانة بالخرطوم (دفتر ٧٠ وارد المعية عربى . صورة المكاتبة رقم ٢٥٢ ص ٥٦٢ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٦٧) ويتساءل الدكتور عزت عبدالكريم عن مدرسة المهندسخانة أهى مدرسة الخرطوم؟ ، وأميل إلى أن المقصود بها دار الترسانة ، لأننا نجد فى رسالة أخرى عبارة ورشة المهندسين بالخرطوم (دفتر صادر معية رقم ٦١ مكاتبة ٧٨٣ ص ٧٦٩ من المعية للمالية بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٦٧) وكانت الترسانة قد أنشئت فى عهد محمد على ، وتشتمل على مسبك للحديد ومعمل للتجارة ، وفيها بنيت السفن النيلية التى كانت تنقل الجنود والمتاجر على النيل ص١٨١ ج٣ تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

(٣) الوثيقة السابقة .

ويظهر أن حكمدار السودان ـ إسماعيل أبو جبل باشا من رمضان سنة ١٢٦٨ إلى ١٦ رجب سنة ١٢٦٩ ـ كان لا يميل لفتح هذه المدرسة ، ويرى تخفيفا لمصاريف إقليم السودان عدم ضرورة هذه المدرسة ؛ لأن وجودها معناه ، استجداد مصاريف على هذا الإقليم بدون فائدة[1] .

ولكن هذا الحكمدار لا يلبث أن يغادر السودان ، ويحل محله سليم باشا صائب (١٦ رجب سنة ١٢٦٩ ـ جمادى الأولى سنة ١٢٧٠) فيوجه همته لفتح (مدرسة التلاميذ وإدارة العملية بها طبق مرغوب[2] إرادة ولى النعم) ، ويبعث للمعية السنية بخبر افتتاح المدرسة ورجاء صدور الأمر بإرسال ما تحتاج إليه المدرسة من أربع دفاتر لزوم عملية المدرسة ، وألف فرخ ورق أبيض ، وطرابيش وبدل (طقم) جوخ مخيطة ، وطقم مطبخ يكفى ٢٥٠ تلميذاً ، وأرز أبيض بالأقة يكفى التلاميذ مدة سنة .

وإذاً فقد افتتحت مدرسة الخرطوم ، وكان افتتاحها لابد فى شوال سنة ١٢٦٩ ، إذ إن الرسالة التى بعث بها سليم باشا خبر الافتتاح إلى المعية السنية كتبت بتاريخ ٧ شوال وهو لم يصل السودان إلا فى شعبان قبله ، وكان رمضان عادة شهر إجازة وبطالة ، وإذاً فقد افتتحت بعد مضى أكثر من ثلاث سنوات على قرار تأسيسها ، وظل رفاعة بك ـ وزملاؤه أيضا ـ بالسودان طول هذه المدة يشكو ويتذكر وينظم الشعر توسلا إلى الله وذوى النفوذ أن ينقذوه من منفاه . وظل رفاعة بك منذ غادر مصر لا يصرف له مرتب حتى يتم جرد الكتبخانة الإفرنجية التى كانت بمدرسة الألسن[3] ، وكان افتتاح المدرسة غير مشجع ، فإن تلامذتها كانوا بادئ الأمر واحداً وثلاثين بالرغم من مجهود سعادة الحكمدار بفتح المدرسة وإدارتها . ولم يزد عدد التلاميذ إلا سبعة

---

(١) دفتر ١١٣ وارد معية عربى . صورة المكاتبة رقم ٨ مرور ص ٣٠٨ بتاريخ غرة جمادى أول سنة ١٢٦٩ .

(٢) دفتر ١٠١ صادر معية . صورة المكاتبة العربية ١٦٣ ص ٧٢٤ بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٩ ، وكذلك دفتر ١١٧ وارد معية . صورة المكاتبة العربية رقم ٣٥ ص ٥٩١ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦٩ . دفتر ١٢١ وارد معية صورة المكاتبة العربية رقم ٢ ص٢ بتاريخ ٦ ذى الحجة سنة ١٢٦٩ ودفتر ١٢٣ وارد معية صورة المكاتبة العربية رقم ٧ ص ١١٨ بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٧٠ ودفتر ١٢١ وارد معية صورة المكاتبة العربية رقم ١١٣ ص ١٠٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٧٠ ودفتر ١٢١ وارد معية صورة المكاتبة العربية رقم ١١٦ ص١٠٩ بتاريخ ١٠ محرم سنة ١٢٧٠ .

(٣) لا بل ظل حجز مرتبه مستمراً حتى نهاية إقامته فى السودان ، وبعد إلغاء المدرسة ، انظر : دفتر ٣٢١ مدارس عربى ص ٨٣٩ رقم ٤٥٢ من المالية فى ١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٧٠ ودفتر رقم ١٤٥ وارد معية صورة المكاتبة العربية رقم ٢٤ ص ٩١ بتاريخ ٢ ذى القعدة سنة ١٢٧٠ .

آخرين بعد مضي شهر ونصف من افتتاحها ، ويكتب رفاعة بك إلى ديوان المدارس ليذكر أنه حصل الاجتهاد فى تعليم التلاميذ ، وإن شاء الله فى شهر شعبان سنة ١٢٧٠ يصير تقدم للتلاميذ وعمل امتحان بحضور أرباب[1] العرفان .

وقد توسم رفاعة بك فى عشرة من تلامذة المدرسة النجابة والتفوق على أقرانهم فخصهم بحفظ القرآن ودراسة الآجرومية وحفظ مفردات وجمل تركية وخط الثلث والحساب ليكونوا قريبًا مقدمين على أقرانهم وقلفوات للمدرسة ، وكتب رفاعة يطلب كتبًا فى اللغة التركية والنحو والصرف والحساب مما يستعمل فى المدارس[2] المصرية .

ونحن لم نعثر على نظام الدراسة ، ولا بيان المواد التى كانت تدرس فى هذه المدرسة[3] التى أسست بالخرطوم (مدرسة المبتديان) ، ولكنا نستطيع أن نعرف النظام والمواد إذا عرفنا نظم مدرسة المبتديان بالقاهرة . كانت المدرسة داخلية لما فى الداخلية من[4] مزايا صالحة . وكذلك كانت مدرسة الخرطوم لأن تلامذتها كانوا من جهات مختلفة خارج العاصمة ، كما ذكرنا ، ولأنها كانت مزودة بكل ما يحتاج إليه القسم الداخلى من غذاء وفرش[5] وغيره وكان الغرض من المدرسة الابتدائية (المبتديان) إعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية[6] . ومدرسة الخرطوم الابتدائية كانت المرحلة السابقة للمدرسة التجهيزية التى قرر الوالى إنشاءها . وكان التلميذ يقبل بها فى سن بين السابعة والثانية عشرة على أن يكون سليم البدن عاريا من الأمراض وبريئًا من السقامة متمتعا بالصحة والعافية . ومدة الدراسة بهذه المدرسة ثلاث سنوات يمكن أن تزاد إلى أربع لمن يحصل له عطل فى دروسه بسبب أعذار وأمراض . وكان التلميذ يبدأ

---

(١) دفتر ٣٢١ مدارس عربى ص ٩٢٠ رقم ٤ من ناظر الخرطوم فى ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٠ .

(٢) دفتر ٣٧٩ مدارس عربى ص٣٩٩ رقم ٦ من حكمدارية السودان فى ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٧٠ وص٤٢٩ رقم ٢ من ناظر مدرسة الخرطوم فى ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٠ .

(٣) يفهم من القرار الصادر بتأسيسها أنها كانت على غرار مدرسة المبتديان والتجهيزية ولكنها لم تدم حتى يتكون بها قسم تجهيزى فكانت إذًا مدرسة ابتدائية فقط (مدرسة المبتديان) . وكلمة مبتديان فى التركية جمع مبتدى بزيادة الألف والنون .

(٤) ص ٨٩ من تاريخ التعليم فى عهد محمد على لعزت عبد الكريم .

(٥) كان لكل تلميذ حصير وسجادة عسكرية ومخدة علوءة بالقطن وحرام بلدى (للغطاء) راجع ص ٦٩٢ التعليم فى عصر محمد على لعزت عبد الكريم .

(٦) ص ٩٥ من تاريخ التعليم فى عهد محمد على لعزت عبد الكريم .

بالفرقة الثالثة ، فإذا نجح نقل للثانية ، وإذا نجح بعد عام نقل للأولى . وتلامذة السنة الأولى بعد نجاحهم ينقلون للمدرسة التجهيزية .

وكانت مواد الدراسة هى الكتابة ، والقراءة ، وقراءة مبادئ النحو والصرف العربى ، وتعليم العمليات الأربع من علم الحساب (الجمع والطرح والضرب والتقسيم) وتعليم الفرائض الدينية[1] .

أما طريقة التدريس فقد كان التلاميذ يجلسون على حصر (انخاخ) على الأرض ، يتلون القرآن الكريم ، أو يكتبونه على الألواح ، أو يقرءون فى كتب النحو والصرف . والمدرس أمامهم يستمع إليهم ، أو يلقى درسا فى إحدى عمليات الحساب الأربع . ولما أدخلت النظم الأوروبية حوالى سنة ١٨٣٩ كان التلاميذ يجمعون طوراً فى حلقة وقوفًا بالقرب من الحائط ليقرءوا الألواح المعلقة عليها ، وتارة يجلسون على التخت ويدرسون الدرس[2] . وهذه الطريقة هى التى كانت متبعة فى إنجلترا لعهد لانكستر وبل . على أن مدرسة الخرطوم - كما يفهم من الوثائق التى عثرنا عليها - لم تجلس تلامذتها على التخت . ولعلها راعت فى ذلك مجاراة مدارس المبتديان بالأقاليم فى مصر . وعلى أية حال فلم يطل عمر المدرسة لتكون لها خطة واضحة ونظام مميز .

إن المدرسة استمرت سنة دراسية واحدة من شوال سنة ١٢٦٩ إلى شعبان سنة ١٢٧٠ ، أى نحوا من تسعة أشهر «تعلم فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط[3]» ، وكان رفاعة قد عزم على أن ينهض بالمدرسة ، فبعث يطلب كتباً فى التركية والنحو والصرف والحساب مما يستعمل فى المدارس المصرية[4] .

---

(١) راجع ص ٦٨١ من تاريخ التعليم فى عهد محمد على لعزت عبد الكريم .

(٢) ص ١٣٧ ، ١٣٨ من كتاب التعليم فى عهد محمد على لعزت عبد الكريم ويظهر أن نظام العرفاء Monitorial System كان مألوفا فى مدارس المبتديان بمصر ولذلك حاولت مدرسة الخرطوم اتخاذه بتعيين التلميذ على بن المرحوم حسن أفندى قائمقام ٣ جى بيادة ريس فرقة ويكون مساعدا لخوجة الخط لأن خطه حسن . وكذلك طلبت المدرسة تعيين اثنين آخرين فى وظيفة رؤساء فرق ويساعدون الخوجات (دفتر ١١٩ وارد معية صورة المكاتبة العربية رقم ٦٠٧ ص٩١٩ بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٢٦٩ ، وكذلك دفتر ١٠٧ صادر معية صورة المكتبة العربية رقم ٤٠٢ ص١٥٦٧ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٦٩) .

(٣) ص ٢٨ من كتاب مناهج الألباب المصرية .

(٤) دفتر ٣١٩ مدارس عربى ص ٣٩٩ رقم ٦ من حكمدارية السودان فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٧٠ وص٤٢٩ رقم ٢ من ناظر مدرسة الخرطوم فى ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٠ .

ويبلغ الجناب العالى افتتاح المدرسة وحسن سيرها وتقدمها فيعرب عن ممنونيته لحكمدار السودان ويطلب إليه أن يسرع فى توريد باقى الأنفار[١] اللازمة للمدرسة ، وإجراء امتحان تلامذتها فى شعبان سنة ١٢٧٠ أسرة بما يجرى فى المدارس بمصر [٢] . وكانت ا لعادة أن يحتفل بعقد الامتحان فى مصر ، وهذا ما حدث فى الخرطوم ؛ فإن امتحان تلامذة المدرسة عقد فى شعبان سنة ١٢٧٠ فى حفل حضره الحكمدار ورئيس مجلس الدعاوى هناك وبعض الأعيان والعلماء والقاضى والعمد والشيوخ وأرسل جدول الامتحان إلى القاهرة[٣] وطلب للتلاميذ كتب جديدة[٤] (مصاحف ، والسنوسية فى التوحيد ، وتحفة الأطفال ، وكتبًا حساب ، وهندسة ، وجغرافيا وخرط . . إلخ) .

ولم تبدأ المدرسة السنة الثانية من حياتها حتى مات مُنشئها عباس فماتت بموته ، إذ أصدر سعيد باشا فى ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ إرادة سنية إلى حكمدار السودان يخطره بإلغاء مدرسة[٥] الخرطوم .

وكأنما أفرج على رفاعة بك من سجنه فبادر بالعودة إلى القاهرة . ولم يتريث حتى يتم جرد حسابات المدرسة[٦] ، وترك وراءه على أفندى محمد المهندس وقد احتفظ الحكمدار به ليعمل فى الجهادية للحاجة إليه[٧] .

وبالرغم من إلغاء المدرسة المذكورة تستمر المراسلات بين دواوين الحكومة متسائلة عما يجب إجراؤه بشأن إرسال الأصناف اللازمة لمدرسة الخرطوم حتى يصدر أمر كريم بأنه «من حيث إن تلك المدرسة لم يظهر لها أدنى ثمرة والبك المومى إليهِ حاضر إلى المحروسة ، فالأولى الانتفاع بما كان تجهز لها فيما يرجى صلاحه»[٨] .

---

(١) دفتر ٢٩٢ مدارس عربى ص ٥٥ رقم ٤ إلى حكمدار السودان فى ٥ صفر سنة ١٢٧٠ ورقم ٦ فى جمادى الأولى سنة ١٢٧٠ .

(٢) دفتر ٣٢٩ مدارس عربى ص ٢٤٣٠ رقم ٨ من مدرسة الخرطوم فى ٦ شعبان سنة ١٢٧٠ .

(٣) دفتر ٣٣١ مدارس عربى ص ٢٩٤٠ رقم ١١ من حكمدار السودان فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٧٠ .

(٤) دفتر ٣٢٩ مدارس عربى ص ٢٥٦٥ رقم ١٠ من مدرسة الخرطوم فى ١٣ رمضان سنة ١٢٧٠ .

(٥) دفتر رقم ٤٨٤ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٤٩١ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ .

(٦) دفتر وارد معية من على سرى باشا حكمدار السودان نمرة ٦٧ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٠ وكذلك محفظة ٤ معية تركى رقم ١٥٠ من وكيل الديوان الخديو إلى كاتب ديوان الخديو ١٩ محرم سنة ١٢٧١ .

(٧) دفتر رقم ٤٩٢ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣١٠ صفحة ٤٨ بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٧١ .

(٨) دفتر ١٨٨٠ أوامر . صورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص ٣١ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٧١ .

ويعود رفاعة إلى القاهرة وقد أرسل معه حكمدار السودان إلى الجناب العالى ألفا وستمائة وخمساً وعشرين قطعة من الذهب السنارى المتجمع من خزينة الخرطوم[1] العامرة . ويصدر أمرًا بصرف بعض استحقاقه الذى كان محجوزًا لعدم تكدير خاطر المير المومى إليه[2] .

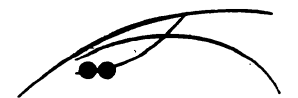
وهكذا أقفلت مدرسة الخرطوم قبل أن تؤتى أكلها طيبة ، ويسجل رفاعة بك شيئًا عن بعثته إلى السودان فيقول : «وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معى من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك» . والحق أنه كلما حدث أى اتصال بين أبناء السودان وغيرهم من مثقفى أبناء العرب ، كان الأولون سباقين للاستفادة والتعليم . ولم يضع جهد رفاعة بك هباء ، فإن بعض من تعلموا فى مدرسته تلك المدة القصيرة وظفوا ـ فى عهد إسماعيل ـ بالمدارس التى جددت بالأقاليم السودانية[3] .

■■■

(١) محفظة رقم ٣ معية تركى . ترجمة الوثيقة رقم ٢٨٩ بتاريخ ٨ ذى الحجة سنة ١٢٧٠ من على سرى باشا حكمدار السودان إلى الجناب العالى .
(٢) دفتر ٣٣٣ مدارس عربى ص ٥٤ رقم ٢ إلى حكمدارية السودان فى ٨ ربيع الأول سنة ١٢٧١ وكذلك دفتر ١٦٠٩ وارد معية . صورة المكاتبة العربية رقم ٢١ ص١١ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٧١ .
(٣) ص ٢٨٠ مناهج الألباب المصرية .

التعليم في عهد سعيد

شوال سنة ١٢٧٠ - رجب سنة ١٢٧٩
يوليه سنة ١٨٥٤ - يناير سنة ١٨٦٢



لم يمض على حكم سعيد أكثر من سبعة أيام حتى ألغى مدرسة الخرطوم . ولا نستطيع أن نحكم من هذا الإلغاء على كراهيته للتعليم أو عدم عنايته بالسودان . وكل ما يمكن أن يذكر كعلة لهذا الإلغاء ما كان معروفًا من أن إرسال رفاعة بك للسودان كان بقصد نفيه هناك ، وأن رفاعة بك كان مستمر[1] الشكوى من بقائه بالسودان وحرمانه من الوطن ، والعمل ، والإنتاج ، وأن المدرسة بعد أربع سنوات من تأسيسها لم تثبت ضرورة وجودها . ولسنا ندرى أى الرجلين - عباس أو سعيد - أولى بالقدح أو المدح : من فتح مدرسة لينفى إليها نخبة من العلماء ، أو من ألغى مدرسة بعد أن مضى على افتتاحها أقل من عام؟ . وعلى أية حال فكلا العملين دليل على أن الوالى كان مطلق السلطان ، وأنه كان يعمل من غير رقابة من الشعب ما يقاسى الشعب الآن نتائجه المريرة .

ولما تولى سعيد بعد حكم عباس وما حل بالبلاد من تقهقر فى نظامها الاقتصادى والتعليمى اللذين وضع أساسهما محمد على كان الأمل قويا فى أن يرعى خطة أبيه ويتعهد

---

(١) يقول شارل ديديى فى كتابه 500 Lieues Sur Le Nil ص ٣٧ : إن مدينة الخرطوم صارت فى عهد عباس الأول منفى يبعث إليها كل من يشتبه فيه مهما كان مقامه . ومن هؤلاء رفاعة بك الذى كان ناظر مدرسة الألسن école normale مدة من الزمن . وهناك فى الخرطوم أخذ رفاعة يعلم الأطفال القراءة . وقد كان الحظ قاسيًا عليه ولكن صاحبنا تقبله كمسلم صالح - باعتباره قضاء من الله . ولقد رأيته عدة مرات وهو كمصرى رجل مثقف . . . . . ويقول عبدالرحمن الرافعى (ص٤٨٨ ج٣ من تاريخ الحركة القومية) ولكن إقفال المدارس فى مصر ينم عن محاربة عباس للعلم والتعليم ، فكيف تتفق هذه النزعة مع التفكير فى فتح مدرسة ابتدائية بالخرطوم يرسل إليها جماعة من أركان النهضة العلمية فى مصر . . .؟ ولا يقبل المنطق أن يكون الغرض من إرسال هؤلاء الأقطاب إلى السودان نشر العلم فى ربوعه ، إذ لو كان عباس يقصد خدمة العلم بإنشاء «مدرسة ابتدائية بالخرطوم» لما كان معقولاً أن يقع الاختيار على كثير من علماء مصر وعلى رفاعة بك ليتولى نظارتها ، ولا أن يعهد بتدريس الحساب فيها إلى كبير علماء الرياضيات .

جذورها ـ التى كانت ماتزال حية دفينة ـ بالدرس والنصح والإرشاد ، لاسيما وقد كان فى صدر شبابه مقبلا على العلم مختلطا بالناس ـ ومنهم الأجانب ـ عارفًا عنهم ومنهم الكثير .

وكان سعيد سمح النفس إلى درجة الانقياد للأهواء المتناقضة ، كما كان قليل الثقة فى عباس ورجاله ومؤسساته ، فلم يلق إليها بالا وأزمع أن يبدأ البناء من جديد . ولم يترسم خطة أبيه ولم يتعهدها بالتقوية ، فجاءت خططه سقيمة تعصف بها أهواء المحيطين به وهواه هو ، مع ما كان عليه من نقص فى الكفاية والقدرة على كسب الأعوان[1] .

وإذاً فلم يكن عهد سعيد بأسعد من عهد عباس ؛ لأن الأول لم يوجه عنايته لإحياء النهضة العلمية ، واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد[2] عباس . وعمل سعيد على تشتيت رجال العهد البائد فبعث بعلى مبارك معاونا لأحمد باشا المنكلى قائد حملة القرم وقرب إليه أعوانا آخرين ، وأبطل العمائر التى كانت تقام فى القاهرة والأقاليم ، ثم شتت التلاميذ من المدارس وألغى ديوانها (١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧١-١٨٥٤) ، وبعد ذلك ألغى مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والطب[3] . ثم هو ينشئ بعض المدارس ويلغيها تبعًا لهواه .

وهكذا لم يكن سعيد موفقًا فى سياسته التعليمية بمصر ، بل فى سياسته الإصلاحية عامة . أما نصيب السودان من عنايته فيظهر من المكاتبة التى بعث بها إلى مدير أسيوط وجرجا يقول : «كانت دائمًا رغبتنا وغايتنا تقدم البلاد السودانية وعمرانها التى هى من أجزاء بلادنا . ولكن والحق يقال صرنا آسفين كل الأسف لكون تلك البلاد لم تدخل تحت رابطة[4] ، ولا نظام» .

وإذاً فقد كان سعيد غير غافل عن شئون السودان ولا مهمل لأحواله ، وكان ينظر إليه باعتباره جزءا من بلاده يرجو له الإصلاح والتقدم والعمران . ولكن التجربة التى أجريت فى عهد عباس من افتتاح مدرسة الخرطوم مازالت ماثلة فى الذهن ، ولم تكن من النجاح بحيث تشجع سعيدا على الاستمرار فيها أو الاستزادة منها ، فلا أمل إذًا فى أن ينشئ سعيد مدارس

---

(١) ص ١٧٠ تاريخ التعليم فى مصر عصر عباس وسعيد لأحمد عزت عبد الكريم .

(٢) ص ٤٤ ج١ من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

(٣) ص ١٧٣-١٧٥ تاريخ التعليم فى مصر فى عصر عباس وسعيد لعزت عبد الكريم .

(٤) محفظة رقم ٣ مديريات قبلى . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٧٩ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ .

بالسودان وهو الذى يغلق القائم والضرورى من المدارس بمصر . ويظهر حرص سعيد على تقدم السودان فى أنه ذهب بنفسه[1] لزيارته وتفقد أحواله فوصل إلى الخرطوم فى (١٦ يناير سنة ١٨٥٧) فساءه حاله وعزم فى بادئ الأمر على إخلائه ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه بإلحاح أن يعدل عن رأيه وقالوا له : إذا أخليت البلاد عمت الفوضى لا محالة وربما لحق أذاها مصر . فعدل عن رأيه ، وأمر بعدة إصلاحات ، وخفض الضرائب ، ومنع الجند من جمعها ، وأمر بعقد جمعية من الأعيان فى الخرطوم كل سنة للنظر فى راحة البلاد . وقسم السودان إلى مديريات تتبع للقاهرة رأسا بدلا من تبعيتها للحكمدار فى الخرطوم . ولكن هذا النظام لم يستمر طويلاً ، فإنه ألغى فى سنة ١٢٧٨ وعاد النظام القديم كما كان[2] .

ومما يتميز به عهد سعيد فى السودان أنه أمر بإحصاء الأراضى الزراعية والسواقى وربطها وتنظيم توزيع الضرائب عليها . وكان كل ما يجبى منها ينفق فى السودان على الإدارة والجيش[3] .

وإذا كان سعيد لم ينشئ بالسودان مدارس حكومية ، فإن رغبته فى تشجيع التعليم الأهلى الدينى كانت قوية ومتصلة . من ذلك أن مدير كردفان كتب له يقول إن الشيخ إسماعيل الولى بكردفان له أولاد وتلامذة «سالكين فى سبيل الرشاد بتعليم الصبيان القرآن العظيم ومواظبين على تحصيل العلوم والتدريس ومجدين فى إقامة[4] شعائر الدين» . وليس لهم إيراد يعيشون منه سوى أطيانهم وسواقيهم التى كانت معفاة من الضرائب . ولكن وفقا للنظام الجديد يجب قياس أراضيهم وسواقيهم وتقدير ضرائب عليها . ولما كان هذا الشيخ وتلاميذه من أهل العلم نرجو إعفاءه من الضريبة» . فكتب سعيد إليه يقول : «بما أن من شيمتنا إكرام أهل العلم والتحبب إلى مواظبتهم فى نشر العلوم وإحيائها وأقصى مرغوبنا وأجل آمالنا إقامة شعائر الدين على الدوام . وحيث كان أولاد الشيخ المومى إليه بهذه الصنعة ، فمكارمنا تقضى بالالتفات إليهم ليزول عن فكرهم ما يشق عليهم ويداوموا على ما هم عليه من أمور الدين . فيقتضى أن تنظروا فى ما لهم

---

(١) يقول فى الوثيقة السابقة : قد عزمت على أن أذهب بنفسى إلى تلك البلاد أولا بقصد النزهة والسياحة . وثانيا بقصد الوقوف على أحوال تلك البلاد ومعرفة أطوار أهلها . وثالثا لأضع أسس النظم والقوانين التى تكفل لتلك البلاد عمرانها ورفاهية أهلها .

(٢) ص ٣١-٣٣ ج٣ تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٣) ص ١٣٠ من كتاب Egypt, the Soudan and Central Africa, by F. Petherick .

(٤) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى ص١٦ . صورة المكاتبة العربية رقم ٨ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ .

من السواقى والأطيان بموجب السندات المعطية من السابق المثبتة ذلك . ولا يطلب منهم أموال عنها ، بحيث أنهم على ممر الأيام يسلكون فى التعليم والتدريس وإقامة الشعائر كما يجب»[١] .

فهذه العبارة تدل بجلاء على روح سعيد الطيبة ، واستعداده لتشجيع رجال العلم ومعاونته إياهم ماديا . والحق أن هذه كانت شيمته فى كل طلب يقدم إليه من رجال التعليم والقرآن . وقد تقدم خلف الله حمد من أهل دنقلة برجاء يلتمس مساعدته بترتيب شيء للإعانة على مصاريف المحل المفتوح لقراءة القرآن وتدريس العلوم ، فبعث سعيد إلى مدير دنقلة وبربر : «قد اقتضت مكارمنا أن ينظر إلى ما يقوم بهذا المحل من المصاريف الضرورية ويعطى له كم فدان نظير ذلك بلا مال»[٢] .

وشبيه بهذا ما حدث من خدمة الجامع الشريف بأوردى ودنقلة وشكواهم قلة المرتب المقرر فإن الوالى أمر «بزيادة مرتباتهم ، وبناء عشرة دكاكين على طرف الميرى يصير تأجيرهم ويتحرر بهم وقفية من طرف سعادة[٣] ولى النعم» . وهكذا صارت القاعدة أن كل من بيده وثيقة من العلماء والفقهاء والشيوخ تثبت أن أرضه معفاة من الضرائب لمزاولته مهنة التدريس أو القضاء أو الإمامة يستمر إعفاؤه مهما كان مقدار ما عنده من أرض وسواق[٤] . أما إذا مات الفقهاء ومعلمو القرآن وخلفهم غيرهم «فإذا كان الأشخاص المذكورون فى الواقع محلاتهم مفتوحة للتعليم وقائمين بهذه الشعائر فيربط لكل منهم مقدار معلوم سنوى بحسب ما يرى فى كيفيته وحالته»[٥] ، ولم تقتصر المساعدة على رفع ضريبة العلم ، بل كان الوالى يقرر مرتبًا شهريًا لمن يقوم بتدريس القرآن والعلم ، وكانت هذه سنة قديمة من عهد المغفور له محمد على ، وكان ورثتهم يستمرون فى تسلم هذه المرتبات حتى ولو أنهم لا يقومون فعلاً بالتدريس . فنظم سعيد الأمور وقرر ألا تصرف المرتبات إلا لمن ثبت فعلا أنه يقوم بالتدريس من الورثة[٦] .

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) سجل رقم ١٨٨٩ ص ١٣ جزء أول . الأوامر العالية الصادرة للدواوين والمجالس . عربى المعية بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٧٤ .

(٣) دفتر رقم ١٩٦١ صادر قرارات المجلس الخصوصى . صورة الوثيقة رقم ١٥ ص١٢ بتاريخ ١٣ رجب سنة ١١٧٦ .

(٤) دفتر رقم ١٨٩٣ صادر الأوامر . صورة الأمر الكريم رقم ٤ ص ٢٢٠ من أمر كريم إلى مدير التاكة .

(٥) دفتر ١٨٩٣ صادر الأوامر . صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ٤٨ من أمر كريم إلى مديرية سنار والخرطوم .

(٦) جزء أول قيد صادر الأقاليم من صفر سنة ١٢٧٧ إلى غرة رجب سنة ١٢٧٧ للمعية عربى رقم ١٦٥٧ بتاريخ ٩ جمادى الثانية سنة ١٢٧٧ .

ولقد كان لهذا العطف البادى من سعيد على رجال العلم ، وأئمة المساجد وخدمتها ، ما شجعهم على الاستزادة من المرتبات وطلب «الإنصاف» . وها هو ذا الشيخ أحمد مكى إمام جامع الخرطوم «يلتمس ترتيب مؤونة إليه شهرياً حسبما هو مرتب لأقرانه أرباب المساجد» ، وهو قائم بالإمامة ويعلم أولاد المسلمين . ولذلك قرر الوالى أن يزاد على مرتبه الشهرى - وقدره مائتان وخمسون قرشا - أربعة أرادب حب ذرة كما هو مرتب(١) لأقرانه .

ونحن نذكر كيف أن عباسا كتب إلى حكمدار السودان يوصيه خيرا بالشيخ محمد على قرنى النقشبندى الطريقة ، وها هو ذا سعيد يجعل مساعدته للشيخ عملية ، فيكتب إلى مدير دنقلة وبربر بأن «حامل أمرنا هذا الشيخ محمد على النقشبندى أنهى أنه معتاد على تعليم الأطفال ، والتمس أن يرتب له شيء من إحساننا ليستعين به على معاشه وتعليم الجارى تعليمهم ، وقد سمحت إرادتنا بترتيب ما يقوم بمعاشه ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتنظروا ما يناسب ترتيبه إليه وتجرون ترتيبه باسمه ابتغاء لمرضاة الله وجاه خاتم(٢) أنبياه» .

ونحن - وإن عثرنا على مجموعة من الوثائق تثبت مساعدة سعيد لأهل العلم والتدريس ورجال الدين - نعتقد أن عدداً كبيراً من الوثائق المشابهة لما عثرنا عليه لم يصل إلينا ، وهذا ما يؤكد صدق نية الوالى أن يقدم كل ما يمكن من تشجيع مالى للقائمين بالتعليم الدينى الأهلى ، ومعنى هذا أن هذا النوع من التعليم ظل قائما نشيطا فى عهد سعيد ، وبفضل مؤازرته ، وإن لم يكن سعيد افتتح أية مدرسة حكومية بالسودان .

أما أساليب التدريس والبرامج وأماكن التعليم فقد ظلت جميعا كما كانت عليه من قبل ، وكما وصفناها فى الجزء الأول من هذه الرسالة . ويؤيد هذا ما كتبه مؤلف إنجليزى بالسودان سنة ١٨٦٠ ، وهو يصف لنا خلوة من خلوات القرآن فى بلدة الحصاحيصا على النيل الأزرق بقوله(٣) :

«وفى وسط القرية قامت راكوبة . وهى المدرسة التى يذهب إليها البنون فقط من الأطفال ليتعلموا القرآن ، وهناك يحفظونه عن ظهر قلب . وعندما يتم حفظه ويستطيعون القراءة والكتابة

---

(١) دفتر ١٨٩٧ صادر أوامر . صورة الأمر الكريم رقم ١ ص ٢٥ بتاريخ ٦ ذى الحجة سنة ١٢٧٧ .

(٢) دفتر ١٧٩٨ أوامر عربى . صورة الأمر العربى رقم ٧ ص ١٠٨ بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٢٧٨ .

(٣) ص ٢١٧ من كتاب .Egypt, the Soudan & Central Africa by V. Petherick

تنتهى تربيتهم . ومع ذلك فقليل جداً منهم يتمكنون من إتمام حفظ جميع القرآن أو يستطيعون الكتابة لدرجة تمكنهم من كتابة خطاب . والفقير (الفقيه) الذى وظيفته تعليم القرآن للتلاميذ من غير تعرض لمعناه هو معلم المدرسة ، ويتقاضى من كل تلميذ شهريا قرشين . والأطفال يحضرون المدرسة من الرابعة إلى السادسة فى الصباح ومن السابعة إلى التاسعة فى المساء ، وذلك حتى لا تتعارض حياتهم المدرسية مع أعمالهم المعاشية . ولما كانت الليالى عادة مظلمة ـ إذا استثنينا القمرية ـ كان على كل تلميذ أن يحضر معه حزمة من الحطب لتوقد بها النار التى يتجمع حولها الأطفال للقراءة فى الليل . ويقرأ الفقير الآية من القرآن غيبا ، وبعد ذلك يحاكيه التلاميذ بأصوات مرتفعة جدا . ويستمر الفقير فى القراءة والتلاميذ فى المحاكاة عدة مرات ، حتى إذا حفظوا الآية انتقل بهم الفقير إلى آية أخرى . ويبدأ كل درس بمراجعة الدروس السابقة ، وذلك بقراءة جميع التلاميذ فى وقت واحد وبصوت مرتفع جدا . وحينما يسمع الأجنبى هذه الأصوات الكثيرة المرتفعة يتصور كأنه فى سراى المجاذيب ، وكل تلميذ يحضر معه لوحا ويكتب عليه آية أو آيات من القرآن بقلم البسط والحبر . ويأخذ التلميذ اللوح معه إلى المنزل ، ويكرر هذه الكتابة أثناء فراغه . وبهذا يتعلم الكتابة . أما الإنشاء فلا ينتظر منه أن يتعلمه .

وبعد نحو ثلاث سنوات من هذا النوع من التعليم يتم كل شىء . والغالب أن المتعلم ينسى عادة ما حفظه من القرآن فى زمن أقل من زمن الحفظ ، اللهم إلا آيات قلائل تظل عالقة بذهنه» .

هذا ما كان من أمر المتعلم وطريقة تعلمه أو تعليمه ، والخلوة التى يتعلم فيها . أما المعلم ويسميه الفقير فيقول عنه[1] :

«والفقير عادة رجل حكيم يعرف من أين تؤكل الكتف . وهو قارئ الخطابات وكاتبها ويتقاضى على كل عملية بحسب أهميتها . وهو كاهن القرية وعرافها يستشيره أهلها جميعًا فى المهمات ، ولاسيما الأمهات اللواتى يردن تزويج بناتهن ؛ فيسألنه عن مقدار ما يطلبن من المهر . ومزايا الزيجة المنتظرة ومثالبها .

(١) ص ٢١٨-٢١٩ من الكتاب المذكور .

والفقير عادة رجل مهيب ، يلبث ثوبًا أبيض طويلا . وعلى رأسه حرام يغطى معظم وجهه . وحول عنقه مسبحة ، أو فى يده اليمنى . وتتساقط حباتها ما بين السبابة والإبهام بينما هو يكرر الأسماء أو الأدعية .

ومما يقوم به الفقير كتابة التعاويذ التى لا تمكن قراءتها ، والتى تجلد وتحمل على أجزاء مختلفة من الجسم . ويقوم الفقير بمعالجة المرضى بالأحجبة التى يكتبها ، ويضعها المريض على مكان الألم . وعند الفقيه لكل مرض جسمانى علاج . فإذا مات المريض فهذا قضاء الله ؛ لأن لكل أجل كتابًا» .

وهكذا نجد عصر سعيد خاليا من التعليم المدنى[1] الحكومى ، ولكنه مع هذا لم يخل من تشجيع التعليم الأهلى الدينى . وسار سعيد فى تشجيعه ودعمه سيرة والده وابن أخيه من قبل .

■■■

(١) وبالرغم من هذا نجد محاولة قد بذلها حكمدار السودان موسى باشا حمدى (١٢٧٩-١٢٨١هـ) فى عهد سعيد . لإدخال «كل من يرغب من أولاد العمد والأعيان والأهالى فى دواوين المديريات وديوان الحكمدارية ، بقصد التعليم فى فن الكتابة من حسابات وتحريرات . ويتخصص لهم ماهيات من ثلاثين قرشًا لحد ٧٥ غرش حتى إنه فى زمن قريب يتحصلون على اكتساب ذلك الفن . ومنهم يؤخذ ما يلزم إلى وظائف الكتابة والمعاونين بحسب اللزوم . ليكونوا أوفق ممن يطلبون من جهة المحروسة» . وكانت هذه المحاولة فى كتاب بعث به الحكمدار إلى سعيد باشا بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٧٨ (دفتر ١٩٠٤ أوامر كرام عربى صادرة إلى الأقاليم . صورة الأمر العربى رقم ٢ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩) وسنشير إلى هذا الموضوع فى دراسة عهد إسماعيل .

العهـد

المأسى للسودان..
عصر إسماعيل

٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ . ٦ رجب سنة ١٢٩٦
١٨ يناير سنة ١٨٦٣ . ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩

ارتقى إسماعيل باشا العرش فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣م مستعينا على إنجاز واجباته بسعة معرفته بالناس وأحوالهم ، وبمقدرته فى الشئون الإدارية على وجه لم يكن يعهد فى أمراء الشرق إلا نادراً . وقد وقف نفسه منذ ارتقاء العرش على خدمة مصر وترقيتها ، مبديا فى ذلك حماسة لا تعرف الملل(١) .

وكان قد مضى على مصر خمسة عشر عاما منذ انقضاء عهد محمد على كانت خلالها فى حال من الركود وإهمال المرافق العامة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية ، مما وقف النمو الذى بدأه مؤسس الأسرة العلوية .

لذلك نجد إسماعيل عندما تولى الحكم قد تسلم ميراثًا مثقلاً بالمتاعب ، تسلم إدارة مختلة ، ودواوين ملغاة ، ونظاما تعليميا منحلا ، واقتصاديًا أهليًا ضعيفًا حديث التكوين على إثر انفكاكه من قيود الاحتكار الحكومى ، وامتيازات أجنبية وضعت فى القرن السادس عشر وتطبق فى القرن التاسع عشر ، ونظاما قضائيًا معقداً يسوده الظلم والفساد . وتسلم إسماعيل مع هذا كله عقود امتياز لشركة أجنبية تشق قناة عبر الأرض المصرية ، وحكما مختلا فى السودان(٢) .

---

(١) نقلا عن مجموعة المراسلات السياسية للقنصلية الأمريكية العامة بمصر من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٣ ص ٤٢٥ المحفوظة بين مجلات المفوضية الأمريكية بالقاهرة .

(٢) ص ٦ من تاريخ التعليم فى مصر (عصر إسماعيل) المجلد الأول لعزت عبد الكريم .

وقد كان إسماعيل صادق العزم على أن ينهض ببلاده ، وأن يعيد لها اصلاحات جده العظيم حتى يجعلها قطعة من أوروبا . وقد دعا فى اليوم التالى لتوليته حكم مصر قناصل الدول ولخص لهم الرسالة التى عاهد نفسه على أدائها فى النقط الخمس الآتية :

١ ـ النظام الاقتصادى فى المالية ، ومن ذلك تقرير مرتب سنوى له لايتجاوزه .

٢ ـ إنماء شئون الزراعة وتحسينها ، ومن ذلك الغاء السخرة .

٣ ـ تشجيع التجارة الحرة .

٤ ـ الاهتمام بالتعليم «أس النجاح والرقى» .

٥ ـ إقامة العدالة وتوزيعها بين الناس بالقسطاس[١] .

ولقد استطاع إسماعيل المفترى عليه خلال الستة عشر عامًا من حكمه أن ينهض بشئون البلاد بقوة وذكاء ، وأن يوجد من المنشآت ما لا يزال قائمًا تقع عليه العين فى كل ناحية ، مما جعله جديرا بما وصفه به سماركو من أنه :

Le Souverain civilisateur et magnifique de l'Egypt.[٢]

وقد نفذ إسماعيل ما عاهد نفسه عليه ، فنمى ثروة البلاد الزراعية ، وقام بمشروعات مهمة منها حفر ١١٢ ترعة جديدة ، وإنشاء ٤٢٦ جسرًا جديدًا . وفى عهده تم حفر قناة السويس ، وانتشرت فى البلاد السكة الحديدية ، وكذلك خطوط التلغراف والتليفون ، وزادت مساحة المزروع من الأرض نحو مليون[٣] ونصف من الأفدنة ، وشجع زراعة القطن والقصب ، وألغى الرقيق ، واكتسب لمصر استقلالها الداخلى ، وأصلح القضاء حتى ضمن لجميع الناس المساواة أمام القانون المدنى والمختلط . وأنشأ مجلس شورى النواب ، وافتتحه فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٣ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦) .

---

(١) من تاريخ التعليم فى مصر (عهد إسماعيل) المجلد الأول لعزت عبد الكريم .

(٢) Précis de l'histoire d'Egypte, Rome, 1935.

(٣) ص ١٤٢ إسماعيل المفترى عليه ترجمة فؤاد صروف .

وعنى بمسائل التعليم عناية تامة ؛ فزيد عدد المدارس التى أنشئت على الطراز الأوروبى من ٨١٥ مدرسة فى سنة ١٨٦٢ إلى ١٨٨٧ مدرسة سنة ١٨٧٥ ، وفى هذه السنة بلغ عدد الأساتذة ٦٠٤٨ ، وعدد الطلبة ١٤٠,٩٧٧ ؛ فزاد عدد المدارس على عددها فى السنة السابقة ١٠٧٢ مدرسة ، وعدد الأساتذة ١٦١٥ أستاذًا ، وعدد الطلبة ٢٧,٧٢٢ طالبًا . وتغير طراز التعليم ، وأصبح فى بعض الحالات من طراز راق[١] جدا .

أما التجارة والأسطول التجارى فقد وجه لهما عنايته ؛ فبنى خمس عشرة منارة فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لإرشاد السفن ، وشرع فى إصلاح ميناء الإسكندرية والسويس ، ورقى وسائل المواصلات ، وأنشأ المصانع للسكر .

هذا ما كان شأنه فى مصر ، أما فى السودان فيكفى أن نقول إن تجارة الرقيق التى ظلت رائجة فى تلك البلاد منذ عشرات القرون لم يقض عليها غير إسماعيل «وإن استخدام رجل أوروبى (صموئيل بيكر) لمحاربة النخاسة احتراما للرأى العام فى العالم المتمدن كان بمنزلة إنكار للحقوق وللضرورات المزعومة التى كان رعاياه يتمسكون بها . ولا يستطيع الرأى العام فى أوروبا أن يدرك عظيم شأن تلك الحرب إلا متى علم أنه لم يكن فى مصر العليا ولا فى مصر السفلى بيت لا يعتمد على خدمة العبيد ، وأن حقول السودان كانت تفلح بأيديهم وأن «الحريم» فى منازل الأغنياء ومتوسطى الحال كنّ محوطات بالعبيد والأرقاء يقومون على خدمتهن . ولم يكن للزوجة الفقيرة مطمح أعظم من أن يكون لها أمة . وفى الحقيقة أن النظام الاجتماعى فى مصر لو جرد من العبيد فى ذلك العصر لأشبه مركبة بلا عجلات»[٢] ، وإن بلاد السودان لمدينة لذلك العاهل العظيم بنعمة الحرية الفردية . ولم تكن النخاسة فى ذلك الوقت أمرًا بدعا فى قارة إفريقيا «بل كانت أوروبا كلها تنظر إلى النخاسة نظرة عدم اكتراث . أضف إلى ذلك أن ممثلى حكومة الولايات المتحدة أنفسهم فى الخرطوم وحواليها كانوا[٣] أنصار النخاسة» . وقد

---

(١) تقرير لجنة كايف ويقول أحد المؤرخين (ده ليون فى كتابه The Khedive's Egypt, 1879. ص ٢٧١) وإذا أردنا أن نعدد كل ما فعله الخديو من أجل التعليم أعوزتنا المجلدات الضخمة ؛ ولم يكفنا فصل واحد ذلك لأن مجهوداته فى هذا السبيل جديرة بكل مديح .

(٢) هكذا يقول دوجلاس ومرى فى كتابهما عن السير صموئيل بيكر ص ١٢١ .

(٣) ص ٢٧ من كتاب إسماعيل المفترى عليه ترجمة صروف .

ألغى إسماعيل هذه التجارة البغيضة ، تجارة بيع الإنسان وشرائه . بينما الأمم الأوروبية فى القرن العشرين مازالت تتاجر لا فى أفراد ، بل فى أمم بأكملها .

ومن الفرمان الذى أصدره إسماعيل بشأن تأليف حملة على النخاسة برياسة السير صمويل بيكر يتضح أن الخديو كان يقصد أيضًا إلى إنشاء تجارة منظمة ، وفتح البحيرات الاستوائية للملاحة ، وإدخال نظام تجارى فى تلك البلاد الهمجية ، وسيادة القوانين والأمن ، ونشر الحضارة والعمران[1] . ولقد نجح إسماعيل نجاحًا عظيمًا فضم إلى مصر جانبا كبيرًا من أواسط أفريقيا وصار ملكه يمتد إلى خط الاستواء . شرع إسماعيل فى تمدين القوم هناك وإدخال وسائل العمران ونشر الدين الإسلامى وإحلاله محل الوثنية[2] .

نعم نجح إسماعيل فى ضم أعالى النيل إلى بقية الوادى ، وإدخال مبادئ الحضارة والعمران والأمن فى هذه القبائل الهمجية . وكانت نواياه طيبة حسنة فلم يكن يقصد إلى غنم مادى من وراء هذا كله لأنه كان ينفق عليه بسخاء اعتبره الأوروبيون والدائنون إسرافًا .

---

(١) صيغة هذا الفرمان هى :

نحن إسماعيل خديو مصر

نظرا إلى همجية القبائل التى تقطن حوض النيل ، ونظرا إلى كون تلك البلاد ليس فيها حكومة ولا قوانين ولا أمن ، ونظرا إلى أن من مستلزمات الإنسانية القضاء على النخاسين الذين يقيم عدد كبير منهم بتلك البلاد ؛ ونظرا إلى أن نشر التجارة المحللة فى تلك البلاد يكون خطوة فى سبيل تمدينها فى المستقبل ، ولابد أن يؤدى إلى فتح بحيرات إفريقيا الوسطى الاستوائية العظيمة للملاحة التجارية ، وإلى إنشاء حكومة ثابتة . فقد رسمنا بما هو آت : تؤلف حملة للأغراض الآتية هى : (١) إخضاع البلاد الواقعة جنوبى جوندوكرو لسلطاننا (٢) القضاء على النخاسة (٣) إدخال نظام تجارى (٤) فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة (٥) إنشاء سلسلة من الحصون العسكرية والمستودعات التجارية فى أواسط إفريقيا يبعد كل منها عن الآخر مسيرة ثلاثة أيام ؛ على أن تكون جوندوكرو قاعدة الأعمال الحربية . ويعهد فى قيادة هذه الحملة إلى السير صمويل بيكر لمدة أربع سنوات ابتداء من أول أبريل سنة ١٨٦٩ . وقد خولناه السلطة العليا المطلقة حتى سلطة الحكم بالموت على جميع الأشخاص الذين تتألف منهم الحملة . وكذلك خولناه مثل تلك السلطة على جميع البلاد المتعلقة بحوض النيل الجنوبى لجوندوكرو (ص ٦ ج١ من كتاب الإسماعيلية . تأليف السر صموئيل بيكر) .

(٢) انظر خريطة السودان فى عهد إسماعيل فى ص ٧ من هذا الجزء ويقول السير صموئيل بيكر فى رسالة له إلى الخديو إسماعيل! «وأرجو أن تكونوا يا صاحب السمو مرتاحين إلى العمل الذى قد أنجزته ، فقد كانت العقبات التى اعترضتنى مما يكاد يتعذر التغلب عليها . ولكن الحمد لله قد ذللتها ، فزال أثر تجارة الرقيق من البلاد ، وأصبح الأهالى يثقون بحكومة سموكم . وسأضع الراية المصرية قبل عودتى فى مكان يقع على بعد درجة على الأقل جنوبى خط الاستواء بحيث تمتد حدود مصر جنوبا ٣٣ درجة إلى جنوب الإسكندرية . ولقد دخل ملك أوغندة فى دين الإسلام وبنى جامعا ، وسأشرع أنا فى بناء مدرسة» (راجع الملف رقم ١٠٧٣ من محفوظات عابدين) .

نعم نجح إسماعيل فى توسيع رقعة السودان العربى الإسلامى وجعله يمتد إلى بحيرة فيكتوريا ، وكان له الفضل الذى يأبى المستعمرون إلا أن يمحوا آثاره . ونجح إسماعيل فى ضم السودان الجنوبى إلى السودان الشمالى باسم مصر وجعلهما وحدة سودانية بل وحدة سودانية مصرية يربطهما رباط وثيق من النيل والحضارة التى كان يريد نشرها . وهو حين ضم السودان الجنوبى إلى السودان الشمالى لم يكن ليخطر بباله أن من أبناء السودان الشمالى من سينسون فضله ، فينادون بانفصالهم عن مصر ، ويزعمون أن السودان الجنوبى هو أرضهم ووطنهم مع أنه لولا إسماعيل لما كانت لهم به صلة .

ولم يفقد السودان ما وصل إليه من اتساع فى الرقعة ، ولم تعد إليه النخاسة ، ولم يفقد المزايا الاقتصادية التى نجمت عن فتح إفريقيا الوسطى إلا بعد عزل الخديو والعمل على الجلاء عن السودان فى عهد توفيق ، وتدخل النفوذ الأجنبى . على أن الكارثة التى حلت بالسودان بقيام الثورة المهدية لم تمح صفحة تلك الأعمال الباهرة ، وما أداه إسماعيل من خدمات جليلة للعلم[١] .

أما الأمن فى هذه البلاد التى عرفنا حال الأمن فيها ، مما وصفه لنا براون وبركهارت وغيرهما من السائحين الأجانب ، وفى أعالى النيل حيث كانت تسكن القبائل المتوحشة أكلة البشر فيقول عنه السير صموئيل بيكر : «إنه فى خلال حكم إسماعيل كان الناس يشعرون بالأمن والطمأنينة فى جميع أنحاء ؛ البلاد فكان الأجنبى المسيحى يسير من الإسكندرية إلى الخرطوم وهو يتمتع بطمأنينة لا يتمتع بها الرجل الإنجليزى فى حديقة هايدبارك بعد الظلام . والآن ـ حوالى سنة ١٨٨٤ ـ نجد مرجل الثورة يغلى فى السودان[٢] .

وقد نظمت الضرائب فى عهد إسماعيل ـ وكانت دائمًا مصدر الشكوى من السكان ـ وقررت بطريقة «تمنع حصول الضرر على الرعية ، فقد جعل لكل فلاح سركى قيد فيه ما هو مقرر عليه ، وكل ما يورده الفلاح من التقسيط يورده لدى طرف ناحيته المعين ، ويوضع القدر الذى

---

(١) ص ١١٠ من كتاب إسماعيل المفترى عليه ترجمة فؤاد صروف .

(٢) ص ٢٨٥ من كتاب دوجلاس ومرى عن «السير صموئيل بيكر» وقد كان إسماعيل نفسه يفتخر باستتباب الأمن فى السودان ويقول : بأنه فى أثناء حكمه كانت أية كاعب حسناء تستطيع أن تسير وحدها من الإسكندرية إلى خط الاستواء وهى مثقلة بالحلى واللآلئ من دون أن تفقد عفافها أو شيئًا من حليها (ص ٧٥ إسماعيل المفترى عليه) .

ورده على السركى[1]» . وكانت سياسة إسماعيل ترمى إلى تقليد الوطنيين شئون البلاد . وقد شرع فى أسبابها فعلا ونفذ جزءا منها ، فجعل منهم نظار أقسام ومعاونين وأمرهم فلبسوا الملابس العثمانية[2] .

وكان إسماعيل يعلن عند كل مناسبة أن أمله الوحيد هو قيام الشعب السودانى بتحصيل العلوم وتعلمها ، ودخول السكان فى سبيل المدنية بتعلمهم القراءة والكتابة وصلاح[3] حالهم . وكان من أقصى الآمال عنده «انتشار حالة التمدن والرفاهية وحسن التواطن[4] والعمارية» .

ويقول سلاطين باشا فى كتابه «السيف والنار» - تغريب وطبع جريدة البلاغ - إن الذين يرغبون فى دراسة حال السودان الآن - أثناء الثورة المهدية - يجب قبل كل اعتبار أن يدركوا أن السودان ليس هو ذلك السودان فى أيام إسماعيل عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة المصرية ، فى الوقت الذى كانت فيه البقاع والأمم المختلفة المجاورة للنفوذ المصرى إما فى درك الهمجية أو عابدة للأوثان . فقد كان السودان حينذاك زهرة تلك البقاع ، والمتميز عن جميع ما جاوره بما له من مدنية ونهوض[5] .

وفى عهد إسماعيل ضمت دارفور إلى السودان المصرى ودخلت الجيوش المصرية[6] الفاشر فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٩١ (٢ نوفمبر سنة ١٨٧٤م) ، ضمت هذه البلاد التى كانت تقاسى الفقر والجهل والعزلة وتجارة الرقيق ، إلى السودان المصرى المتحضر ؛ منظم الإدارة ، الذى انتشرت فى ربوعه معاهد العلم ، والذى صار معروفا للعالم ، وثيق الصلة والمواصلات بمصر وما وراءها من أمم . وتكونت من هذه البلاد الفوراوية ومن سودان وادى النيل وحدة جديدة تحت علم واحد ، وحاكم واحد ، وخديو واحد . وبدأت الحكومة الجديدة تنظم أموره وتنشر فيه أسباب «العمارية»

---

(١) ص ١٠٧ من مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه تأليف إبراهيم عبد الدافع .

(٢) ص ٣٣ ج٣ من تاريخ السودان لنعوم شقير . وممن عينهم الخديو من السودانيين أحمد بك أبو سن الذى نصب مديرا بالخرطوم وعموم جزيرة سنار (أنظر ص ١٠٨ من مخطوط إبراهيم عبد الدافع) .

(٣) دفتر ٥٢٩ معية تركى . ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٢ ورقة ١١٧ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ .

(٤) دفتر ١٩٠٤ أوامر كرام عربى . صورة الأمر العربى رقم ٢ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ .

(٥) ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ من الطبعة المذكورة .

(٦) دفتر رقم ٥ معية سنية عربى . مكاتبة رقم ٦ مرور ص ٣٨ بتاريخ ١٨ شوال سنة ١٢٩١ .

والأمن[1] . وبالرغم من أن دارفور كانت منذ ظهورها أمة إسلامية تعيش مستقلة لها سلاطينها وإدارتها ، ونظامها الحكومى والمعاشى ، بالرغم من هذا كله ضمت للسودان وصارت جزءاً من وحدته ، وأصبح أبناء السودان الآن ينظرون إليها كجزء لا يتجزأ من وطنهم الأصلى ، ناسين أن إسماعيل باشا هو الذى خلق هذه الوحدة ، وهو الذى جعل من دارفور وكردفان وسنار وشرقى السودان[2] وأعالى النيل بقبائله المختلفة ، بلاداً واحدة ، ووحدة صحيحة ، تربطها بمصر روابط مشتركة من الدين واللغة والاقتصاد والتعاطف الجنسى والمستقبل .

غير أن إسماعيل لم يهنأ بهذه المشروعات العظيمة ، ولا هذه الفتوحات المجيدة . بل لم يتمكن من إتمام ما بدأه من إصلاح وحضارة ، ومن تنمية ما غرسه من بذور الرقى والأمن فى بلاد مجهولة ، بلاد كان يطلق عليها اسم القارة المظلمة . فتدخلت الدول الأوروبية ذات المصالح المالية فى سلطته بحجة إسرافه فى المال ، وإفلاس مصر ، وعدم قدرتها على دفع المستحق من الفوائد . وقد انتهى هذا التدخل بنزوله عن العرش وتولى ابنه محمد توفيق باشا[3] .

اعتزل إسماعيل الحكم بعد أن أدى لبلاد مترامية الأطراف خدمات ذات فوائد عظيمة ، خدمات لا تقدر بالملايين من الجنيهات ، ولكنها ستظل مدى الدهر أثراً خالداً يدل على نبوغه وبعد نظره[4] .

■ ■ ■

---

(١) أنظر تفاصيل فتح دارفور فى كتاب تاريخ السودان لنعوم شقير ج٣ ص ٦٠ - ٨٨ . رواية الزبير باشا .

(٢) كانت الحكومة التركية قد تنازلت عن سواكن ومصوع فى سنة ١٨٦٦ للخديو إسماعيل نظير زيادة فى الجزية قدرها ٣٠٠٠٠ جنيه ، كما ضمت إلى أملاك الخديو بلاد البوغوس والقضارف . وصارت البلاد الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر من السويس إلى باب المندب تابعة للحكومة الخديوية (انظر مصر فى أفريقيا الشرقية لمحمد صبرى) .

(٣) ص ١٣٥ ج١ من تاريخ مصر الحديثة لكرومر . وكذلك محفوظات عابدين ملف إبراهام سنة ١٨٧٩ .

(٤) راجع المراسلات الرسمية من محفوظات المفوضية الأمريكية بالقاهرة سنة ١٨٦٩-١٨٧٣ ص ٤٦٩ وبها تقرير رسمى قدمه قنصل الولايات المتحدة ـ المستر بردلى ـ إلى وزارة الخارجية الامريكية . وفيه يقول :

وإن تقدم مصر العظيم خلال السنوات العشر الماضية لجدير بالذكر . وقد كانت له ثلاث نتائج ذات أثر بعيد من وجهة نظر الديانة المسيحية ، وهى أولا ـ تمدين إفريقيا الوسطى . وثانيا ـ إبطال النخاسة وإلغاء الاسترقاق . وثالثا ـ تنقيح المبادئ الدينية والاجتماعية فى الشرق . وإذا عاش إسماعيل وحكم عشر سنوات أخرى فسيتاح تحقيق هذه الأغراض إلى حد بعيد .

التعليم الأهلى الدينى



رأينا وصف جون بتريك[1] (Patherie) لمدرسة القرية ، أو الخلوة فى السودان فى أواخر عهد سعيد (سنة ١٨٦١م) وكيف أن معاهد التعليم الأهلى الدينى ظلت محتفظة بطابعها التاريخى من حيث المكان ومادة الدراسة ، وأساليب التعليم ، ومركز الفقيه فى القرية . والواقع أن خلاوى القرآن والعلم لم تتطور كثيراً فى السودان ، وأن وصف جون بتريك لايزال ينطبق حتى الآن - إلى حد كبير - على خلوة الفقيه غير الخاضعة النظام مصلحة المعارف .

وإذاً فنحن حين نفترض استمرار التعليم الأهلى الدينى بالسودان فى عهد إسماعيل ، على الحال التى كان عليها من قبل ، لا نكون بهذا الفرض قد عدونا الواقع .

وإسماعيل السخى الكريم ، إسماعيل المحب للعلم ، إسماعيل العامل على نشر أسباب الرقى والحضارة والتعليم والعمارية فى بلاده ، يعطى كثيراً ، ويشجع كل من يأنس منه أن يعمل لنفس الأهداف التى يرمى إليها الخديو الطموح . وقد احتوت محفوظات عابدين على أوراق كثيرة هى وثائق تسجل لهذا الخديو أياديه البيضاء على التعليم الأهلى الدينى بالسودان ، وتؤيد ما وصفنا به عهده من أنه العهد المآسى للتعليم بالسودان . ولم يلق التعليم الأهلى الدينى بالسودان قبل إسماعيل أو بعده إلى الآن من حاكم ما لقيه منه . وكان إسماعيل يرى أن تعمير مساجد العلم والدين ، ومساعدة الرعايا على إقامة «الشعائر الإسلامية من الخيرات التى جبلت سجيته على حب إجرائها» . ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك .

---

(١) كان جون بتريك مهندسا من مهندسى مناجم الفحم فى مقاطعة ويلز . وقد استخدمه محمد على نحو أربع سنوات فى مصر وبلاد العرب والنوبة . وفى سنة ١٨٤٠ عينته الحكومة الإنجليزية وكيل قنصل لها بالخرطوم . ولم تعطل هذه الوظيفة الجديدة من نشاطه ، لأنه كان مباحًا له أن يتنقل ثلاثة أشهر فى قضاء أعماله الخاصة . وقد استطاع سنة ١٨٥٣ أن يكون من كبار تجار العاج بعد فتح النيل الأبيض . وفى نفس السنة أسس مخازن للعاج فى مشروع الرق على بحر الغزال . وفى سنة ١٨٦٠ عين قنصلا لحكومته بالسودان (ص١٠٥ من كتاب الخديو إسماعيل والرق بالسودان لأحمد فؤاد شكرى) .

ورد إلى المعية السنية أن بمديرية كردفان مسجدين : أحدهما هو الجامع العتيق بالأبيض ، وقد حصل به خلل من نزول الأمطار ولا أوقاف له ، وأنه يستحق العمارة . وقد أجريت مقايسة تبين منها أن تكاليف العمارة تبلغ خمسين ألف قرش ، خلاف أجرة البنائين الذين سيرسلون من الخرطوم . والثانى هو الجامع الكائن بحلة أبو صفية الذى أنشئ قبل الحكومة المصرية . وكانت له سبع حلات معفاة من الخراج نظير الإنفاق عليه . ولكن هذا الإعفاء قد ألغى (فى الغالب فى عهد سعيد؟) وأنه قد أصيب بتلف ، ويحتاج لإصلاح تبلغ تكاليفه ٤١٤٠٠ قرش عدا أجرة البنائين . فصدر الأمر الكريم بأنه لما كانت «الإعانة على إقامة الشعائر الإسلامية بتعمير هذين المسجدين وتهيئتهم) إلى إقامة الصلوات هو من الخيرات التى جبلت سجيتنا على حب إجرائها فقد سمحت إرادتنا بأجرى عمارة المسجدين المذكورين بواقع المقايسات التى عملت عنهما مع ما يزيد عليهما نظير أجرة البنائين الذين يحضرون من الخرطوم بحيث تحصل الدقة والملاحظة الكلية فى صرف ما يلزم صرفه على عمارتهما ، ومتانة وضبط البناء . وبانتهاء العمارة وحصر المصاريف يخصم بها على الأبعادية إحسانا من لدنا» ، ولم يكتف الخديو بالإصلاح المطلوب ، بل أضاف إليه أنه «لأجل إقامة الشعائر فى تلك المساجد واستمرار إقامة الصلوات بهما فقد سمحت إرادتنا أيضًا أنه بمعرفتكم ينظر ما يلزم ترتيبه سنويًا من أجرة الخدم الدائمة والمؤذنين ، وثمن فرش وزيوت للقيادة ونحوه . وبمعلومية مقدار ما يبلغ فى السنة الواحدة تنظروا ما يوافق ربطه من الأشياء سواء أكان أطيان أو عقارات مما يقتضى ترتيب إيقافه عليهما وتعرضوا ذلك لطرفنا بالتفصيل لنصدر لكم أمرنا[1] بما تعتمده» .

وإذا ذكرنا أن مصاريف إصلاح هذين المسجدين ستزيد على ألف جنيه وأن هذا المبلغ يعادل الآن عشرين ألف جنيه تبين لنا مقدار سخاء الوالى وعنايته بالمساجد ونشر شعائر الدين والعلم . وبتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٠ وردت للمعية مكاتبة تشير إلى أن مسجد الأرباب الكائن ببندر الخرطوم معد لقراءة القرآن وتدريس العلم ، وليس له أوقاف ، ويحتاج لإصلاح بالطوب الأحمر والمونة ، وتبلغ قيمة التكاليف ٤٦٩٣ قرشا وعشرين بارة فرد الخديو على هذه المكاتبة

---

(١) دفتر ١٢٥ وارد معاونة . وثيقة رقم ١١ ص ٤٧ بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٣٧٩ ودفتر ١٩٠٤ أوامر عربى تاريخ ٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ .

بقوله : «حيث إن من أمانينا تعمير مثل هذه المساجد الشريفة ، فإننا نأمركم ببناء هذا المسجد وتعميره بحسب المقايسة الموضوعة ؛ وخصم المبالغ التى ستصرف فى هذا السبيل من الديوان بصفة إحسان[1] من لدنا» .

وثمة صورة أخرى من صور إخلاص النية فى الإصلاح ؛ فالفقيه عبد الله خليفة الشيخ الأغبش ـ بحلة الهلالية بمديرية جزيرة سنار والخرطوم ـ يعرض بأن مسجد الحلة تهدم من طول المدة وكثرة الأمطار ؛ ويلتمس عمارته من إحسان ولى النعم . وقد عملت مقايستان إحداهما لعمارته بالطوب الأحمر والمونة وتكاليفها ٢٩٨٠ قرشا و٣٠ بارة ، والثانية لعمارته باللبن والطين وتكاليفها ١٤٨٢ قرشا[2] . فصدر أمر كريم ذكر فيه أنه «لما كانت طبيعتنا جبلت على عمارة المساجد وإقامة الشعائر الإسلامية اقتضت إرادتنا عمارة هذا المسجد بالطوب الأحمر والمونة على مقتضى المقايسة البالغ قدرها ٢٩٨٠ قرشا و٣٠ بارة[3]» فهلا كان فى استطاعة الخديو أن يوفر خمسة عشر جنيها من الإصلاح ويكتفى باللبن والطين؟ ولم لم يفعل هذا؟ .

ونحن نعلم أن السنة قد جرت أن يربط (يقف) والى مصر على المساجد والخلاوى قدرًا من الأطيان أو النقود أو الحبوب مساعدة للفقيه وتلامذته . وقد استمرت هذه السنة إلى عهد إسماعيل ؛ بل زاد هو فيها . وها هو ذا مصطفى بن إبراهيم الأصونلى القاطن ببندر بربر ينهى بأنه بنى زاوية للصلاة وتعليم أولاد المسلمين القرآن والعلم الشريف ؛ ويلتمس ربط شىء كأمثاله أرباب المساجد . وبالاستفسار عن حال الشيخ مصطفى ظهر أنه له زاوية صغيرة معدة للصلاة وبجوارها راكوبة لتعليم الأطفال وبها ٢٢ طفلا ؛ وأن الزوايا الكبيرة (الخلوات) مربوط لأصحابها ٢٥٠ قرشا فى الشهر وأربعة أرادب من الذرة . فيكفى إذًا لإعانة هذا الشيخ أقل من ذلك . ويقترح المدير ربط ٧٥ قرشا وإردبا واحدًا من الذرة كل شهر[4] . ولكن الخديو السخى المحب

---

(١) دفتر رقم ١٦٩٤ وارد العرضحالات دواوين ومديريات . صورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص٩٣ بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٠ . ودفتر رقم ٥٢٩ معية تركى ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٠ .

(٢) دفتر رقم ١٢٦ وارد الأقاليم لمعاونة عربى . صورة المكاتبة العربية رقم ٢٦ ص ٢١ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٨٠ .

(٣) دفتر رقم ١٩٠٤ أوامر عربى . صورة الأمر الكريم رقم ٢١ ص٦٤ بتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٠ .

(٤) دفتر رقم ١٧٠١ وارد معية عرضحالات دواوين وأقاليم . وثيقة رقم ٧ صفحة ١٠٢ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠ .

للخير ونشر العلم يرى غير ذلك . لقد أصدر أمرًا كريمًا يقول فيه : «بما أن أملنا الوحيد هو قيام الشعب بتحصيل العلوم وتعليمها ، وصلاح حالهم ودخولهم إلى سبيل المدنية بتعلم القراءة والكتابة ؛ وحيث إن إنشاء مثل هذه الزوايا والأعمال الخيرية مما يستوجب سرورنا ؛ نأمر بتوسيع زاوية الشيخ مصطفى إبراهيم وتجديد بنائها لتكون مثل الزوايا الأخرى التى بالسودان على نفقة الحكومة ؛ واحتساب المصاريف وخصمها من الإحسانات على جانب الديوان . ونأمر أيضا بصرف ٢٥٠ قرشا شهريا إلى ما شاء الله وكذلك صرف أربعة أرادب شهريًا بصفة إحسان للزاوية المذكورة لفقراء الأهالى الذين سيقصدونها لتعليم القرآن والعلوم الشريفة أسوة بالمساجد الكبيرة . فنأمركم بتنفيذ ذلك كما نطلب منكم أن تبلغوا الشيخ مصطفى المذكور سرورنا وممنونيتنا ، وتطلبوا منه أن يعنى عناية كبيرة بتعليم القرآن وتدريس العلوم للأهالى فى مقابل هذا الالتفات[1] السامى» . فهل كان إسماعيل بأعماله هذه مستعمرًا؟ ، وهل نظر والى مصر إلى السودان وسكانه نظرة المستعمر إلى مستعمرته ، وهل كان إسماعيل يعطى سكان السودان العلم (بالقطارة) كما هى الحال فى المستعمرات؟ ، وهلا كان كافيا أن يوافق الوالى على ما اقترحه مدير بربر من معونة شهرية قليلة تتفق وصغر الزاوية؟ وأى وال أعظم فى قلبه وفضله وآماله من هذا الذى يبعث بسروره وممنونيته إلى فقيه يعلم اثنين وعشرين طفلا ويطلب منه أن يعنى بتعليم القرآن وتدريس العلوم؟ . هذه هى نظرة خديو وادى النيل إلى السودان وأهله ، وهذه هى الروح التى كان يعاملهم بها ، فهل كانت تشف عن استغلال للبلاد؟ وتحقير لسكانه؟ وسياسة موضوعة لنشر الثقافة بقدر قليل ، وهل كان الوالى يعامل ورعيته من أبناء السودان بغير ما يعامل به أبناء الجزء الشمالى من الوادى؟

وها هو ذا طلب آخر يقدمه الفقيه يس خليفة الولى الصالح محمد أرباب ، ويلتمس فيه عمارة الجامع الذى بناحية الشبارقة لأنه معد لقراءة القرآن والتدريس ، وأنه من المساجد القديمة وقد عملت مقايسة بواسطة ناظر عمارات الميرى المهندس ، وقدرت نفقات العمارة بمبلغ ٥٢٤١ قرشا وعشرين بارة خلاف عشرة أحمال قش لواجهة[2] الجامع ، فأصدر الوالى أمره

---

(١) دفتر ٥٢٩ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢ ورقة ١١٧ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ .

(٢) دفتر رقم ١٧٠١ وارد معية عرضحالات الدولوين . صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ١٠٢ بتاريخ ٢٠ رجب سنة ١٢٨٠ .

الكريم بالموافقة على ترميم الجامع المذكور بموجب المقايسة السالفة الذكر، ودفع مبلغ خمسة آلاف قرش والكسور من جانب الديوان محسوبًا على إحساناته[1] .

وقد ذكرنا فى الجزء الأول من هذه الرسالة كيف أن بعض النساء السودانيات كن يساهمن فى تعليم القرآن والعلم، كما ذكرنا ما شاهده رفاعة بك الطهطاوى من قيام أمونة، بمديرية دنقلة، بإقراء القرآن الشريف والمتون، وإدارتها مكتبين، أحدهما للغلمان والثانى للبنات، وكانت تنفق على المكتبين من كسبها بغزل القطن وتشغيله، وكان منزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله[2] الحرام، وكان بالسودان كثيرات غير هذه السيدة ومنهن اثنتان بناحية شركيلة، تسمى إحداهما عائشة، والثانية آمنة؛ وكان لهما مسجد لتعليم أولاد المسلمين القرآن، وكانتا منقطعتين لهذه الوظيفة[3] وقد كبرت سنهما، ويقترح مدير كردفان أن يرتب لهما إردب ذرة واحد شهريا على سبيل الإعانة، وبالعرض على الأعتاب السنية صدر النطق بالموافقة وبخصم ثمن الإردب من طرف الديوان[4] .

وللشيخ خلف الله فقيه الخلوة الكائنة بجهة الكتياب بقسم الزيداب بمديرية بربر قضية وجيهة، فالشيخ كان قد تقدم لسعيد باشا أثناء حكمه يرجو منحه إعانة على مصاريف محله المفتوح لقراءة القرآن وتدريس العلوم. وقد صدر الأمر لمدير دنقلة نمرة ١٣ فى ٢٤ محرم سنة ١٢٧٤ بإعطائه كم فدان بدون مال نظير وجود ١٥٠ نفراً بمسجده، منهم ٥٧ من[5] المديريات الأخرى فتم ذلك الإعطاء. ولكن لما صدر الأمر - فى عهد سعيد - بأن المسموح الذى كان مرتبًا للمشايخ يربط على الزمام ويدفع عليه الخراج ضمت أطيان الفقيه خلف الله إلى زمام السودان، ولم يعط شيئا من الإعانة سوى مبلغ ١٢٥٠ قرشا سنويا، وقد تشكى الشيخ خلف الله من الإعانة القليلة التى كانت تصرف له، وصارت مناظرة محله بمعرفة مدير بربر. ووجد أن محله أو مسجده مازال معمورا بالتدريس إلى الآن وعنده ١٧٣ نفر طلبة قرآن و٥٢ طلبة علم، والذين منهم أهاليهم بالمحلة ٢٥ نفرا والباقى من أهالى المديرية والمديريات الأخرى، ومأكولاتهم من

(١) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى. ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣ أصلى صفحة ١١٧ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ .

(٢) ص ٢٦٢، ٢٦٣ مناهج الألباب المصرية .

(٣) جزء أول وارد معاونة سنية (عربى) نمرة ١٤٧ ص ١١٦ رقم ٢ مرور بتاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٨٠ .

(٤) دفتر ١٣٧ صادر معاونة ص ١٧٢ رقم ٢٨ بتاريخ ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٠ .

(٥) دفتر ١٤٧ وارد معاونة صورة المكاتبة العربية نمرة ٥ مرور ص ١٢٠ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٨٠ .

طرفه ، والمذكور مستقيم للتدريس وفاتح له مضايف ، وأمثاله مربوط لكل منهم شهرى ٤٠٠ قرش و٤ أردب ذرة ، والمذكور فايق عنهم فى وجود[1] التلاميذ .

وقد رفعت هذه القضية إلى الخديو العادل فأصدر أمره الكريم وفيه يقول : «وحيث إن سجيتنا جبلت على استدامة مجرى الأمور الخيرية ، وإعمار المحلات المعدة لتلاوة العلوم بما يوجب ازدياد عماريتها لكثرة انتشار العلوم والانتفاع بها ، وتسهيل أمر التعيش على طلبة العلم رجاء لنيل الثواب الجزيل اقتضت إرادتنا ربط ٤٠٠ أربعمائة قرش شهرى إلى ذلك المحل ، واستمرار صرفها على الفقيه المذكور مع إعطاء الخمسين فدانا البادى ذكرها ، ورفع مالها سوى للانتفاع بما يتحصل منها ، وخصم المبالغ المجبية عليه بالحسابات ؛ حتى بذلك يحصل تسهيل وتيسير أمر تعيش الفقيه والطلبة ، وإعانتهم على الاشتغال بتدريس العلوم الدينية مع ملاحظة عمارية المحل المذكور دواما ، وعدم تعطيله من الاشتغال بتدريس العلوم وتلاوة القرآن المعظم»[2] .

هذا هو الحكم الذى أصدره الخديو السمح ، وهو حكم يتفق مع سجيته فما أكرمها من سجية!

وقرية عبود قرية قديمة عرفت منذ ظهور دولة الفونج . وكان بها مسجد للعلم[3] والعبادة . وقد عرض الفقيه عبد القادر البدوى نائب الشرع بناحية عبود يلتمس تعمير المسجد الذى فى هذه القرية . وعمل مهندس عمارات الميرى مقايسة فبلغت تكاليف الترميم ٥٦٣١ قرشا و٢٠ بارة خلافاً لأجرة نقل الجير من محله إلى الجامع المذكور . ولما عرض الأمر على الجناب الخديو أصدر أمره بالموافقة وخصم التكاليف على إحساناته .

وكان من الفقهاء من يعفون من طلب المساعدة بالرغم من حاجتهم إليها ، وكانوا بالطبع يقومون على كفالة التلاميذ والإنفاق عليهم من أموالهم الخاصة . ومن هؤلاء ثلاثة كتب عنهم الحكمدار موسى باشا حمدى (٤ صفر سنة ١٢٧٩- ٨ شوال سنة ١٢٨١) إلى الخديو يقول : إن لكل واحد منهم مسجداً لتدريس العلم وتعليم أولاد المسلمين القرآن العظيم . وهم أرباب أولئك

---

(١) دفتر ١٤٧ وارد معاونة صورة المكاتبة العربية نمرة ٥ مرور ص ١٢٠ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٨٠ .

(٢) دفتر ١٩١٠ أوامر عربى . صورة المكاتبة العربية رقم ١٤ ص ٧٣ بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٨٠ .

(٣) انظر فى جزء الملحقات ، الملحق رقم ١٢ .

المساجد ومن بيوت صلاح ومنقطعون إلى العبادة والتدريس . ومساجدهم معمورة من قديم . وقد استحسن الحكمدار أن يربط لكل منهم ما هو لازم من الماهيات والتعيينات من صنف الذرة كما هو مربوط لأصحاب المساجد[1] الأخرى . وهؤلاء الفقهاء الثلاثة هم : الولى الصالح أبو صفية ، والسيد المكى[2] بن الشيخ إسماعيل الولى ، وكلاهما من كردفان والثالث الولى محمد توم بمأمورية سنار وفازوغلى . فأصدر الوالى أمره استجابة لهذا الرجاء وفيه يقول : «وحيث إن سجايانا جبلت على إجراء ما فيه استدامة مجرى المواد الخيرية ، وإعمار المحلات المستعدة لتدريس العلوم وتلاوة القرآن بما يوجب زيادة عمارهم ، والانتفاع بهم ، وتيسير أمر تعيش الطلبة رجاء لنوال الثواب الجزيل ، فقد اقتضت إرادتنا بأنكم تنظروا لما هو مرتب من الماهية وصنف الذرة لأصحاب المساجد أمثال هؤلاء بالسودان ؛ وتجرون الربط لهم بمثلهم وصرف ما يترتب لهم فى أوقاته وخصمه بالأبعادية إحسانا[3] من لدنا» .

وكان اشتراك الموظفين المصريين والسكان السودانيين فى دين واحد ، هو الإسلام ، من الروابط التى قوت التعاطف بينهم ، ووحدت من تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة الدنيا والآخرة ؛ فالمسلم الحاكم أو المحكوم يعتقد أن المسجد بيت الله وأن ما يقدم له من مساعدة ، إنما هو لوجه الله . لذلك نجد بعض الحكام المصريين يقفون من أموالهم على المساجد . فهذا جامع بسنار بنى سنة ١٢٤٧ وجددت بنايته فى عهد المغفور له محمد على باشا سنة ١٢٥١ . ووقف عليه أحد ضباط الجيش برتبة صاغ قول أغاسى منزلا وست أشجار . ولما كان إيراد هذا الوقف لا يكفى خطيب الجامع وخدمه قدم هذا الخطيب ـ الفقيه صادق عبد القادر ـ شكوى رفعت إلى ولى الأمر[4] إسماعيل وصدرت إرادته فقرر لإمام المسجد وخطيبه ـ صادق عبد القادر ـ خمسين قرشا شهريا وإردب ذرة ، وللمؤذن أربعين وسدس إردب ، وللخادم ثلاثين وسدس إردب . وأن تنفق نفقات فرش الجامع وتنويره ليلاً من قبل الحكومة ، ليكون ذلك مدار إقامة الشعائر الدينية

---

(١) سجل رقم ١٤٧ ج١ وارد الأقاليم بالمعاونة السنية . مكاتبة رقم ١٣ مرور ص١٥٣ بتاريخ ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٠ .

(٢) هو الجد الأكبر للأستاذ إسماعيل الأزهرى رئيس مؤتمر الخريجين الآن .

(٣) دفتر رقم ١٩١٠ أوامر عربى مكاتبة رقم ١٦ ص ٨٨ بتاريخ ١٨ صفر سنة ١٢٨١ .

(٤) دفتر رقم ١٧٠١ معية عربى وارد عرضحالات الدواوين والأقاليم . صورة المكاتبة العربية رقم ١٤ ص ١٨٧ بتاريخ ١٥ محرم ١٢٨١ نمرة ٢٨ مرور .

الإسلامية فيه . على أن تصرف هذه المبالغ على الاستمرار طبق الأصول إلى ما يشاء[1] الله تعالى .

وها هو ذا الشيخ يوسف خضر النائب الشرعى بناحية المسلمية التابعة لمديرية الخرطوم يلتمس ترميم المسجد القائم بالقرية المذكورة . وقد استوضح الحكمدار الأمر فتبين له أن المسجد بناه أحد التجار سنة ١٢٤٩ ، وكان ينفق عليه إلى وفاته . ولم تكن له أوقاف . وقد آل إلى السقوط . وأن به من فقراء القرآن (الطلبة) والعلم ٣٩ . وقد عملت مقايسة ، وبلغ مقدار التكاليف ١٥,٨٢٣ قرشا و٢٣ بارة . وبعث الحكمدار إلى الجناب[2] العالى بالموضوع ، فصدر الأمر وفيه «بما أن ترميم أمثال هذه الجوامع والمساجد الشريفة تسهيلا للإكثار من وسائل إقامة الشعائر الإسلامية ، مما ننشده ونبتغيه ، فقد كتبنا أمرنا هذا بأن تتخذوا الإجراءات اللازمة فى ترسيمه على نفقة الحكومة بموجب المقايسة[3] المذكورة» .

والتمس عبد الرحمن ناطق[4] من أهالى مروى أن يرم جامعه الذى تهدمت حيطانه واندرست وقايته . وقد عمل حاكم خط مروى مقايسة تبين منها أن بناء المسجد باللبن يكف ٦٩٥٩ قرشا وإذا صار بناؤه بالطوب الأحمر زادت التكاليف ٣٠٠٠ قرش . فلما رفع الأمر إلى الخديو إسماعيل أصدر أمره الكريم يقول : «قد وافقت رغبتى على ترميم المسجد بالطوب الأحمر على ألا تتجاوز نفقاته مبلغ تسعة آلاف وتسعمائة قرش والكسور . . . . إذا لم يكن فى الناحية التى هو فيها جامع غيره ، أو كان فيها جامع آخر ، وكان بعيداً فلا يستغنى عن ترميم هذا المسجد وصرحت لكم بتخصيص شىء بقدر معرفتكم من أجل لوازمه . فأصدرت أمرى هذا لتتخذوا الإجراءات[5] اللازمة» .

---

(١) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى . ترجمة الأمر الكريم رقم ٢ ص ١٩٧ بتاريخ ١٨ جمادى الأولى ١٢٨١ من الجناب العالى إلى حكمدار السودان .

(٢) دفتر ١٧٠١ معية عربى صورة المكاتبة ١٥ ص ١٨٧ بتاريخ ٢٣ صفر ١٢٨١ .

(٣) دفتر ٥٢٩ معية تركى ترجمة المكاتبة التركية ٣ ص ١٩٧ فى ١٨ جمادى الأولى ١٢٨١ .

(٤) دفتر ١٧٠٢ وارد معية عرضحالات الدواوين والأقاليم صورة المكاتبة العربية ٢ ص ٥١ بتاريخ غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٨١ .

(٥) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٠ ص ٢٤٧ بتاريخ ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٨٢ .

وقدم الشيخ أحمد الريح من المتمة التابعة لبندر بربر يذكر أن مسجد المتمة قد خرب ، وأنه محتاج لترميم ، فصدر أمر الجناب العالى إلى حكمدار السودان بترميم الجامع وفق الأصول إذا كان محتاجا لترميم ، وأن ينظر إلى الشيخ المذكور ، وموارد رزقه ، فيخصص له شيء من الحكومة إحسانًا إن كان محتاجا ومستحقًا للمساعدة(١) .

وحلة الغبش من الحلال القديمة بالسودان . وقد سميت كذلك نسبة إلى أسرة الغبش الذين أسسوها ، والذين عمروها ، والذين اشتهروا فى تاريخ البلاد بالعلم والدين والصلاح وتدريس القرآن وأحكامه . ولاتزال هذه الأسرة محافظة على تقاليدها . وها نحن أولاء نجد بها فى عصر إسماعيل مدرستين إحداهما للشيخ الأمين محمد الخوجلى ، وبها مائة وثلاثة وخمسون تلميذا يتعلمون القرآن ، والأخرى للشيخ محمد عبد الله الخوجلى وبها سبعة وخمسون طالبا يدرسون العلم . وقد التمسا من مراحم ولى(٢) النعم أن تخصص لهما معونة شهرية . واستحسن وكيل الحكمدار أن يربط للأول ٤٠٠ قرش وستة أرادب ذرة شهريا ، وللثانى ١٥٠ قرشا وأربعة أرادب . ولما رفع الأمر إلى سمو الخديو أصدر أمره بأنه «قد وافقت إرادتى على تنفيذ ما أشعرت به الحكمدارية من تخصيص المرتب الشهرى(٣) للمدرستين» .

وفى نفس الوثيقة التى وافق عليها الخديو على تخصيص المرتب الشهرى المذكور لمدرستى حلة الغبش نجد موافقته على تخصيص ١٥٠ قرشا للشيخ أبى صالح بن الأستاذ الشيخ أحمد الطيب المدفون بجهة الحلفاية ؛ لأنه منقطع لتدريس العلوم وتعليم الأطفال فى مسجد أبيه ، وكذلك تخصيص ١٠٠ قرش وأربعة أرادب وسدس إردب شهريا للطلبة البالغ(٤) عددهم ٥٤ فقيرًا .

ويظهر أنه لما شاع خبر سخاء الخديو إسماعيل ، وأنه لا يرد لصاحب حاجة رجاء ولا سيما إذا كان من رجال الدين أو العلم ، تشجع كل صاحب حاجة على أن يقدم شكواه . ومن هذه الشكاوى عريضة قدمها خادم الجامع الذى فى الخندق بمديرية دنقلة ، والذى كان قد عمر فى عهد عباس

---

(١) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى أوامر وعرائض . صورة ترجمة الوثيقة رقم ٨ ص ٢١٦ بتاريخ ٦ ذى القعدة سنة ١٢٨١ .

(٢) دفتر رقم ١٢٥٤ وارد عرضحالات الداخلية . ترجمة الوثيقة التركية رقم ١ ص٢١ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٨٢ .
ودفتر رقم ١٢٥٧ صادر عرضحالات الداخلية . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ ص ٤ بتاريخ ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢ .

(٣) دفتر رقم ٥٢٩ معية عرضحالات . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣ صفحة ٢٧٣ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ إلى حكمدار السودان .

(٤) دفتر رقم ٥٢٩ معية عرضحالات . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣ ص ٢٧٣ فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ .

الأول . ويذكر صاحب الشكوى ـ الحاج إبراهيم الأمين ـ أن المسجد مستعمل للتدريس ، وأنه يقوم فيه بوظيفة كناس وفراش ووقاد وملء السبيل للمترددين(١) ، وأنه فقير جدًا ولما رفع الأمر إلى الخديو كتب يقول : «وقد وافقت رغبتى على تخصيص مرتب شهر لخادم الجامع المذكور قدره مائة(٢) قرش» .

نعم كثر التهافت على طلب المعونة المالية من خديو مصر باسم العلم والتعليم والانقطاع لعبادة الله والتدريس وصيانة المساجد حتى لنجد بعض طالبى المعونة يتقدمون باعتبارهم مدرسين فقط ، من غير ذكر للمسجد أو المعهد الذى يدرسون فيه . ومع هذا يربط لهم ولى النعم قدرًا شهريًا إحسانًا منه . ومن هؤلاء الشيخ الأمين محمد «أحد زمرة المدرسين الذين ببندر الخرطوم» ويستحسن الحكمدار(٣) أن يصرف له مرتب شهرى قدره ١٥٠ قرشًا من إحسانات ولى النعم لأنه من زمرة المدرسين الذين بالخرطوم ، وماهر فى العلوم الفقهية مهارة كاملة ، كما أنه مشتهر بالزهد والصلاح . فهذه هى مؤهلات الشيخ وكل ما يستحق من أجله المساعدة المالية أنه من العلماء . وأنه رجل صالح ، ويستحق العطف والإحسان . والخديو يوافق على هذا كعادته ويكتب إلى حكمدار السودان قائلا : «قد اقترن التماسكم هذا بإرادتنا وأذنا فى ربط مرتب شهرى قدره مائة وخمسون قرشا(٤) وصرفه إحسانًا من لدنا» .

كان جعفر باشا مظهر رجلا نشيطا مفكرا . وقد ولى حكمدارية السودان من ١٧ شوال سنة ١٢٨٢ إلى ٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٨ (٥ مارس سنة ١٨٦٦ ـ ٢٠ يوليو سنة ١٨٧١) فأدار شئون البلاد بعفة وشهامة ، واكتسب قلوب الناس وعطف الوالى .

وقد لاحظنا منذ تولية الخديو إسماعيل باشا الحكم كيف أقبل الفقهاء والشيوخ على تعمير المساجد والخلاوى للعبادة وتدريس القرآن والعلم ، وكيف وجه الخديو إلى هذه الطائفة كل تشجيع ممكن . وكان سخاؤه مُطمعا حتى لقد كان من السهل على من تحدثه نفسه بأن ينال مساعدة سهلة باسم الدين والعلم أن يكتب للوالى ، فيوافق على منحه المساعدة إحسانا من

---

(١) دفتر قيد وارد العرضحالات عربى رقم ١٣٦٦ ص ٣ بتاريخ ١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ .

(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية عرضحالات بند حكمدارية السودان . ترجمة الوثيقة رقم ٤ ص ٢٧٣ بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٨٢ .

(٣) دفتر رقم ٥٦٥ معية تركى وارد عرضحالات . صورة ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ١٧ بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ والشيخ الأمين هذا هو الأمين الضرير الذى سنشير إليه بعد .

(٤) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى . ترجمة الوثيقة رقم ٦ ص ٣٠٩ بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٢ إلى حكمدار السودان .

لدنه . ولا يخفى أثر هذا السخاء فى تشجيع العلم والعلماء ، كما لا يخفى أثره فى سوء استغلاله والتحريض على الكسل والإهمال مادامت المربوطات مقررة ومنظمة الدفع ، ومادام الأمر موكولا لضمير الشيخ فلا مفتش ولا رقيب . وكنتيجة لهذه الحال كثر عدد الفقهاء والمساجد ، ولكن من نوع غير راق . وقنع المسلمون بحفظ القرآن ـ كله أو بعضه ـ وبعض المتون . ولم يظهر من بينهم كثير من العلماء المهرة الذين يُعتمد عليهم فى التدريس والقضاء والإفتاء .

Le Soadan, à la vérité. ne mangu it pas de fikis, mais ils étaient pour la plupart trop igrorants pour pouvoir éngeigner la religion. (1)

من أجل هذا نجد جعفر باشا عند ما ذهب إلى مصر فى ذى الحجة سنة ١٢٨٣ (أبريل سنة ١٨٦٧) قد أخذ معه اثنين من أبناء مديرية كسلا إلى الأزهر . وهما الفقيه أحمد والفقيه عثمان ، ابنا الشيخ عمر العالم القاضى السابق لمديرية تاكه . وكان عمر أولهما نحوا من ٢٢ سنة والثانى ٣٠ سنة . وقد حفظا القرآن حفظا تاما وأحاطا ببعض المسائل الفقهية بفضل رعاية عمهما الفقيه أبو بكر قاضى تاكة حينذاك . وقد أخذهما جعفر باشا معه إلى مصر وسلمهما للشيخ مصطفى العروسى شيخ الجامع الأزهر (من سنة ١٣٨١ ـ سنة ١٣٨٧) وأوصاه بهما خيراً . وكان غرضه من هذا أن يشجع الذين حفظوا القرآن من أهالى السودان ، وحصلوا على بعض المبادئ النحوية والفقهية على الانتساب إلى الجامع الأزهر لمدة ثلاث سنوات أو أكثر ، لإكمال علومهم وثقافتهم . حتى يمكن بذلك ترقية السلك العلمى والتقدم الفقهى بالسودان . وحتى يمكن وجود علماء وفقهاء كالقضاة والمفتين والأئمة الواجب تعيينهم من كل مركز . وحتى يمكن إعداد المدرسين والواعظين لتعليم الشعب أصول الدين وأحكام الشريعة . فقد اتضح له أن العلماء الذين يرسلون إلى السودان من مصر قليلو العدد ولم يحصل منهم نفع بالدرجة المطلوبة(٢) .

وتلك لعمرى سياسة رشيدة طيبة الأهداف . وهى تدل على أن الحكومة المصرية ما كانت لترمى من وراء إشرافها على السودان احتكار الوظائف للمصريين ، بل ترقيه السودانيين أنفسهم . وهناك أمثلة كثيرة سنذكرها للتدليل على صحة هذه القضية .

---

(١) ص ٤١٤ ، ٤١٥ المجلد ٣ الجزء الأول تحت عنوان L'Instruction Public من كتاب Histoire du Régne du Khédive Ismail. Par G. Douin.

(٢) محفظة رقم ٤٢ معية سنية . صورة ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٩٨ بتاريخ ٢٧ رجب سنة ١٢٨٤ من حكمدار السودان إلى سكرتير خاص الجناب العالى .

ونحن وإن كنا نحمد للحكمدار اهتمامه هذا بإدخال السودانيين فى الأزهر نخشى أن يوهم فعله هذا القارئ بأن إقبال السودانيين على الأزهر كان قليلا ، فالأمر بالعكس . لأن لدينا من الوثائق ما يدل - مع قلتها - على أن السودانيين كانوا مقبلين على الذهاب للأزهر كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ومنهم من تتلمذ هو وابنه وأبوه على شيخ واحد أو شيوخ[1] . بل منهم من أقام وتزوج بمصر وزاول مهنة التدريس بالأزهر كالشيخ أحمد بن محمد بن عيسى السنارى وابنه الشيخ محمد والشيخ عبد الرحمن بن أحمد البدوى وكأفراد من أسرة الشيخ إسماعيل الأزهرى .

ولم يقف اهتمام الحكمدار بإحضار الشيخين إلى الأزهر وتسليمهما للشيخ العروسى ، بل حرص على أن تتوافر لهما وسائل الراحة منعا لنفورهما وتثبيط عزائمهما ، وخوفًا من عدم رغبة غيرهما فى الالتحاق . وطلب من المعية أن يخصص مرتب يومى لكل منهما قدره قرشان[2] . وقد صادف هذا الطلب استحسانًا وموافقة من الجناب[3] العالى .

ولجعفر باشا مظهر أفكار سديدة ومشروعات طيبة ؛ فهو لا يكتفى بإرسال الطلاب من السودان للأزهر ، حتى إذا رجعوا سدوا الفراغ الذى كان يشعر به الحكمدار ، بل هو يرى أن الأولى أن يوضع نظام ثابت به يمكن إعداد القضاة والنواب والواعظين والمدرسين فى السودان ، وبه يوضع حد لعبث الفقهاء الذين كانت تصرف لهم المرتبات الشهرية وهم فى الواقع جهلاء ، ولا يعلمون إلا القليل من التلاميذ . لذلك تقدم إلى مهردار الحضرة الخديوية بالرسالة الآتية[4] :

حضرة صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية

تفتقر الأقطار السودانية إلى السلك الدينى والتقدم الفقهى لانعدامه فيها ، كما أنه لا يوجد فيها طلبة علم يليقون لوظائف القضاة والنيابة والإمامة . ونشأ من عدم الالتفات إلى هذا السلك فما مضى ، ومن عدم إعارته الاهتمام الواجب أن أكثر أهالى السودان إلى وقتنا هذا لم يتمكنوا

---

(١) انظر مجلد الملحقات الملحق رقم ٦ . وفى الوقائع المصرية نمرة ٢٢٠ بتاريخ ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ (٢٦ أغسطس سنة ١٨٦٩) مقال عن تقدم العلوم والمعارف بالسودان ؛ واهتمام السودانيين بالتعليم وفيه «ولقد تردد علينا أناس منهم مشتغلون بالعلم فى الأزهر المعمور هم فى غاية التهذيب والنجابة والاستقامة فى كل الأمور تحسبهم من خطط الأمصار لا السودان» .

(٢) الوثيقة السابقة بتاريخ ٢٧ رجب سنة ١٢٨٤ .

(٣) دفتر ٥٧٦ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤ ص ١٥ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٨٤ .

(٤) محفظة رقم ٤٦ معية تركى . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٠ بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ .

من تصحيح ديانتهم وشرائعهم . ولما كانوا لا يرجحون كفة الدين على الملاعب والملاهى غير المشكورة أصبح من المتعذر وجود قضاة ونواب وواعظين ومدرسين ، ومن العسير إحضار مثل أولئك المدرسين والعلماء من مصر بمرتبات قليلة . وقد تمكنا بكل صعوبة من إيجاد ثلاثة فقهاء لتعليم أصول الدين وتلقين الإسلام إلى أهالى سبع حلل من أهالى جبل الداير ، أحد جبال كردفان ، الذين تشرفوا بشرف الإسلام فى هذه السنة المباركة فى ظل الحضرة الخديوية ، وإرسالهم إلى تلك المنطقة . ولا ينقطع ورود نفوس كثيرة من سكان الجبال المتوحشة الموجودة فى جهة البحر الأبيض للتشرف بشرف الإسلام . وإزاء ذلك نرى لزاما علينا تحويل البصر إلى الطريق الدينى . وقد كان المتبع فى العهد القديم صرف مرتبات ومؤونة إلى بعض الجهلة من الفقهاء فى سبيل التقدم العلمى وكانت تصرف إليهم شهريا . ونظرًا لأن أكثر أصحاب المرتبات جهلاء فإنهم استحقوا تلك المرتبات بالشهادات الكاذبة واغتالوا المرتبات المنصرفة إليهم وإلى طلبتهم بدون وجه حق ، فأصبحوا بدون طلبة لأنهم لم يصرفوا شيئًا من تلك المبالغ فى تعليم الطلبة . ولو وجد لدى البعض منهم طلاب فإنهم لا يزيدون على بضعة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة إلى العاشرة وهؤلاء يتركون المكتب قبل أن يكملوا قراءة جزء عم ويذهبون للعمل كرعاة أو جمالة أو مزارعين . لذلك ألتمس إعطائى تصريحًا أقوم بالتفتيش على أعمالهم والبحث فى مؤهلاتهم العلمية ، وقطع مرتبات من لا علم له ، ونقلها إلى من يفوقونهم علما ، لأنى أخاف أن يزعجوا المعية بشكواهم الكثيرة بدعوى أن الحكمدار قطع عنهم إحسانات ولى النعم الجارية عليهم منذ سنين عدة بموجب أوامر عالية . ويجب انتخاب مدرس بعد الامتحان ، لكل من بربر ، ودنقلة ، والخرطوم ، وسنار ، والتاكة ، وكردفان ، وفاشودة ، وربط مرتب لهم علاوة على المرتب القديم من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قرش شهريا وصرف مؤونة من الذرة من إردب إلى ثلاثة . وتحديد عدد الطلبة لكل معلم . وإعفاء الطلبة من دفع الضرائب والأموال والمطلوبات الأميرية الأخرى إذا ما تركوا الاشتغال بالتجارة والزراعة ، وتعيين أحد العلماء المبرزين فى الخرطوم بعد امتحانه ، ليكون ناظرًا وملاحظًا على الجميع بعنوان شيخ العلماء ، وإعطائه مرتبا قدره ٥٠٠ قرش شهريا ، وثلاثة أرادب من الأذرة ، وتعيين أحد الفقهاء المتقدمين ليكون قارئًا وحافظًا بعنوان شيخ الفقهاء بمرتب قدره ٣٠٠ قرش شهريا وأردبين من الذرة .

فإذا وافق الجناب العالى على ذلك ألتمس استصدار الأمر العالى اللازم لذلك .

ومن هذه الرسالة نفهم أن الحكمدار أراد أن ينظم التعليم الأولى الأهلى ويجعله حكوميًا . ويختار له المدرسين الصالحين بعد الامتحان ، ويحدد لهم المرتب والمؤونة ، ويحدد كذلك عدد التلاميذ ، ويعين مشرفا عاما (ملاحظًا أو ناظرا) على جميع المدرسين بعنوان «شيخ العلماء» ويعفى من يزاول من التلاميذ ـ بعد التخرج ـ الزراعة أو التجارة ، من الأموال الأميرية . . . وقد استحسن الخديو هذا المشروع الذى كان سيبدأ صغيراً بعدد من الجوامع والمدارس الملحقة فى بربر ، ودنقلة ، والخرطوم ، وسنار ، والتاكة ، وكردفان ، وفاشودة . ولكنه لاحظ أن لقب «شيخ» لا يتناسب والوظيفة التى سيشغلها رئيس المدرسين وملاحظهم . ولذلك يقترح تسميته «رئيس الأساتذة» أو بعنوان آخر بدلا من أن يكون بعنوان (شيخ) ومع هذا يعطى الخديو أمره بالمبادرة لإجراء اللازم[1] . وقد أشارت الوقائع المصرية إلى هذا المشروع فنشرت خبراً تقول فيه :

«إن درجة العلوم الشرعية والعبادات الدينية ، لما كانت قليلة الجدوى بين الأمة السودانية صدر أمر الجناب الخديو الأعظم فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٦ نمرة ٣ تركى بالتكرم بإنشاء جملة مساجد ومدارس ومكاتب منسقة لإحياء العلوم الشرعية والمعالم الدينية ، ورتبت إليهم المدرسون والمعلمون وما يلزم لهم من مؤونات وكسوات ، وعدل ما كان قبل ذلك ولم تظهر نتيجته . فعند ذلك رفعوا أكفهم بالدعوات الخيرية للحضرة الكريمة الخديوية» .

ويبادر الحكمدار إلى تنفيذ مشروعه فتصادفه عقبات مادية ؛ فهو يريد بنائين خبيرين قديرين ، ومهندسين معماريين ، ويريد أن يوافق الجناب العالى على الاعتماد المالى اللازم للبناء . ولهذا يكتب بأنه سيشرع «فى الوقت الحاضر ببناء مسجد ومكتب فى جهتين أو ثلاثة طبقًا للأمر العالى . . . الخاص بترتيب المعلمين والمدرسين والفقهاء اللازمين لنشر أنوار العلوم الشرعية وتعيينهم ، وإنشاء جامع ومكتب فى كل ناحية من النواحى التى دخلت حديثًا تحت إدارة الحكومة . . . وأنه لا يوجد مساجد فى بندر الخرطوم اللهم إلا الجامع الموجود فيها من الأصل الذى بناه المرحوم خورشيد باشا[2] السنارى على حساب الحكومة . وقد اشتدت الحاجة

---

(١) دفتر رقم ٥٨٣ معية سنية تركى . ترجمة المكاتبة رقم ٣ ص ١٤ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ .

(٢) كان يسمى السنارى لأنه كان ناظر سنار أى مديرها من قبل أن يولى الحكمدارية .

إلى بناء جامع جديد آخر» . ولهذا يطلب اعتماد ٥٠٠ كيس للصرف منها على نفقات البناء ، وإرسال البنائين والمهندسين المعماريين من المحروسة[١] .

والخديو قد وافق على مبدأ بناء الجوامع والمكتب بالملحقة بها[٢] ، ولكن الموافقة شىء والتنفيذ شىء آخر . ولابد من الدقة عند التنفيذ وعدم الإسراف ومراعاة الظروف . ولذلك ردّ على رسالة الحكمدار بقوله : «حيث إن الخشب والحجارة والطوب والحمرة وما إليها من المواد اللازمة لبناء الجامع يمكن تدبيرها عندكم بسهولة فقد استكثرنا الـ ٥٠٠ كيس التى قدرتموها للعمال والبنائين فاعملوا على بناء جامع بأقل من هذا المبلغ . وإذا كان من الممكن إرسال أحد مهندسى البناء من هنا فإنه يتعذر إرسال البنائين . فدربوا بعض الناس على البناء واستخدموهم[٣]» . وفى نفس اليوم الذى كتبت فيه هذه الرسالة صدرت من المعية السنية إلى ديوان الداخلية أوامر بانتخاب مهندس معمارى «وإبعاده إلى تلك[٤] الجهات» .

كل هذا جميل ، ولكنا نتساءل ماذا تم فى هذا المشروع؟ إننا لا نجد له ذكراً بعد ذلك . وليس لدينا من الوثائق ما يثبت أن المساجد والمكاتب التي اقترحت وقررت قد بنيت أو افتتحت . ولكن شيئاً من هذا المشروع لابد قد نفذ . ذلك هو أن الحكمدار قد قام بتفتيش على المساجد والخلاوى المعانة وكشف عن خبيئتها ، وعرف العامل منها وغير العامل . ثم قرر قطع الإعانات عن أولئك الذين لا يستحقونها . ويظهر أن الخديو نفسه قد شعر بشدة الضغط وكثرة الرجاءات والالتماسات ، وتضخم المساعدات ، فوافق على إلغاء الإعانات المالية وإعانات الحبوب ، ولكن على أن يحل محلها نوع آخر من الإعانات كان معروفًا من قبل ، هو رفع أموال الحكومة عن الأراضى التى يزرعها[٥] الشيخ .

هذا وقد صدر أمر من الجناب العالى سعيد باشا فى ٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٧ نمرة ١٦ بأنه إذا مات أحد الفقهاء أو العلماء الصالحين ، وكان له مرتب مربوط فلا ينقل إلى أحد من بعده إلا بموافقة الحكومة . وفى هذه الحال ينقل إلى خليفته القائم بما كان يقوم به من تعليم

---

(١) محفظة رقم ٤٦ وثيقة ٣٦١ . ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان فى ٨ رمضان ١٢٨٦ .
(٢) هذه غير المدارس الخمس التى سبق إنشاؤها فى الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والتاكة .
(٣) دفتر رقم ٥٨٣ معية تركى . ترجمة المكاتبة رقم ٧ ص ٢٥ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٨٦ والكيس خمسة جنيهات .
(٤) دفتر رقم ٥٨٤ معية سنية تركى . ترجمة الوثيقة رقم ١١ ص ٢٣ بتاريخ ٢٨شوال سنة ١٢٨٦ .
(٥) أنظر الملحق الثانى عشر من مجلد الملحقات .

العلم ونشر الصلاح . يفهم هذا من الشكوى التى قدمها أولاد الشيخ الطيب وتلاميذه ، وذكروا فيها وفاة الشيخ أبى صالحة خليفة الأستاد المذكور ، والتمسوا تخصيص الإنعام الذى كان مرتبًا له من زمن لأخيه المدعو الشيخ عبد الرحمن . وكان قد خصص للشيخ المتوفى مائة وخمسون قرشا . ولتلاميذه مائة قرش وأربعة أرادب وسدس من الذرة شهريا كما ذكرنا . وقد ذكروا فى الشكوى أن الشيخ عبد الرحمن أهل لإقامة الشعائر الإسلامية بالمسجد ، ولتعليم العلم ونشر الصلاح ، وأنهم لذلك يرجون اعتماد تعيينه خليفة بدل أخيه أبى صالحة المتوفى ، وإبقاء الإنعام كما كان من قبل(۱) . ولما عرض الأمر على الجناب العالى صدرت إرادته بالموافقة على قيد هذا المبلغ باسم الشيخ عبد الرحمن أخيه ، وتعيينه خليفة مكانه(۲) .

وشبيه بهذه الحال ما حدث للفقيه أوسيد بن الفقيه إبراهيم حمدتو بخط مروى . فقد كان للوالد مرتب سنوى قدره أربعة أرادب من الذرة ، وساقية تزرع بلا مال ، نظير عمار المسجد والقيام بتدريس العلوم فيه . وكان قد قطع هذا المرتب بوفاة الوالد . فالتمس الفقيه أوسيد تخصيصه(۳) له . فلما عرضت الحال على الخديو صدر أمره بالموافقة قائلا : «ومن حيث إن الإعانة على عمارية المساجد واستدامة إقامة الشعائر الإسلامية هو من مألوف سجايانا لمداومة مجرى الخيرات ، فوافق لدينا إعادة ترتيب الأربعة أرادب حب ذرة سنوى من الآن باسم الفقيه أوسيد المذكور ، إعانة له على قيامه بتلك الشعائر وتدريس العلم(٤) والقرآن» .

ونحن قد أشرنا فيما سبق إلى أن الجناب العالى قد وافق على أن يخصص لمدرسة جد الشيخ محمد عبد الله الخوجلى ـ بحلة الغبش ـ مائتان وخمسون قرشا شهريا وأربعة(٥) أرادب ذرة إعانة له على تعليم العلم الشريف . وها نحن نجد وثيقة جديدة تشير إلى أن هذا الشيخ بعينه كان قد سمح له بزراعة عشر جدعات(٦) من غير أن يدفع مالا للحكومة منذ سنة ١٢٥٠

---

(١) دفتر رقم ١٢٨٢ . ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ٢٠ صادر داخلية عرضحالات تركى فى ١٦ رجب سنة ١٢٨٦ .

(٢) دفتر رقم ٥٨٣ معية تركى . ترجمة الإرادة التركية رقم ١٢ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٦ .

(٣) دفتر ١٨٥٨ قيد وارد عرضحالات من الدواوين والمحافظات نمرة ١٤١ صفحة ٧٠ بتاريخ ٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ رقم ٤٩٥ سايرة من مديرية دنقلة وبربر ولعل صحة الاسم «اسّيد» من غير واو .

(٤) دفتر رقم ١٩٤١ أوامر كريمة ص ٢٠ رقم ١ بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٩ .

(٥) أنظر الرسالة .

(٦) الجدعة هى ثمانية أمتار بعرض الحقل أما الطول فيتوقف على طبيعة الأرض .

فى عهد الحكمدار خورشيد باشا إلى سنة ١٢٧٧ حين صدر إبطال مالية الجدعات . والحفيد - الشيخ محمد الخوجلى - يطالب برفع الأموال عن هذه الجدعات مرة أخرى ، كما كانت الحال قبل سنة ١٢٧٧ ؛ فكأنه لم يكتف بالمرتب المالى المقرر والحبوب المقررة شهريًا ولكنه يطلب المزيد ، والحكمدار[١] يوافق على هذا ويزكيه لدى ولى النعم .

وبالرغم من أن جعفر باشا مظهر قد اقترح أن تلغى المرتبات والمربوطات ممن لا يثبت قيامه بالتدريس من الفقهاء ، أو من كانت خلوته صغيرة غير جديرة بالإعانة ، نجد الخديو يستمر فى الإعانة على بناء المساجد . وكان قد سبق أن صدر أمر كريم بتاريخ ٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ بإجراء عمارة مسجد حلة أبى صفية ، وحسبان التكاليف من[٢] أموال الحكومة ، ولكن العمارة لم تتم نظرًا لقلة المياه ومضى وقت الأمطار ، فيطالب مدير كردفان بالسماح له بإتمام العمارة تشجيعا للشيخ صاحب المسجد ، لأنه أهل صلاح ومنقطع لتدريس العلوم ، فيوافق الجناب العالى على هذا[٣] .

ويظهر أن ممتاز باشا ، لما خلف جعفر باشا مظهر ، سار على رأيه من حرمان من لم تثبت أهليته من الشيوخ والفقهاء للحصول على المرتبات والمربوطات . وقد أشرنا إلى أن هؤلاء الشيوخ والفقهاء قد استغلوا هذا العطف الكريم وجنحوا للكسل والتواكل . وزاد طمعهم فألحوا فى زيادة العطاء . فلما كانت أيام ممتاز باشا ، رفت بعضهم[٤] ، واستنسب أن من يرغب منهم تعمير ساقية بالأطيان البور فتكون معفاة من المالية إحسانا لمساعدتهم على التعيش ، أى أن السياسة الجديدة فى مساعدة هؤلاء الشيوخ والفقهاء هى أن يعطى لكل منهما قدر من الأرض - بمقدار ساقية أو[٥] أكثر - حتى يستفيدوا هم أنفسهم ويساعدوا على تعمير الأرض وإصلاحها ، لأن تشجيعهم بالنقود والحبوب صرفهم عن العمل فى الأرض كما كانت الحال من قبل . فلما جاء إسماعيل أيوب باشا سنة ١٢٨٩ - سنة ١٢٩٣ سار على نهج سلفه ، إلا أنه رأى أن من

---

(١) وثيقة رقم ١٨٥٨ معية عربى صورة المكاتبة رقم ٤٥٦ سايرة ص ٧٥٠ من مديرية دنقلة وبربر إلى المعية بتاريخ ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ .

(٢) أنظر ما ورد فى صفحات سابقة من هذه الرسالة .

(٣) دفتر رقم ١٩٤٢ أوامر عربى . صورة الأمر الكريم ص ٧٣ رقم ٢ من أمر كريم إلى مدير كردفان بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٨٩ .

(٤) دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى صورة الأمر الكريم رقم ٩ ص ٦٨ من أمر كريم إلى مدير عموم قبل السودان فى ٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ .

(٥) الساقية هى كما ذكرنا ثمانية أفدنة فى أرض الجزر وعشرة فى الأرض النابتة .

المحرومين من لا يستطيع العمل فى الأرض ، وذلك كالشيخ الأمين محمد الضرير رئيس العلماء ومميز الطائفة العلمية والفقهية ، والشيخ محمد أحمد رئيس ومميز الوظائف القرائية والحفاظ ، والشيخ محمد النقيب واعظ ومدرس للأهالى بجامع الخرطوم . فقرر لهؤلاء استمرار مرتبهم : للأول ٣٥٠ قرشا وثلاثة أرادب من الذرة ، وللثانى ٣٠٠ قرش وأردبان ، وللثالث[١] ٢٠٠ قرش فقط . أما باقى أرباب المرتبات لكونهم مزارعين ويمكنهم التعيش من أنفسهم حذفت مرتباتهم ، ومن يرغب منهم تعمير ساقية من الأراضى البور يعامل كما يتراءى للمدير .

ومن المساعدات التى يجدر ذكرها هنا ما ورد فى إحدى الوثائق من أن جعفر باشا مظهر لما كان حكمدارا للسودان توفى السيد حسن الميرغنى ـ صاحب الطريقة الميرغنية التى أشرنا إليها فى باب الصوفية ـ وترك وراءه ولدين بالغين وفتاتين وزوجاته ، وكان مرتب له من لدن الحكومة ٢٥٠ قرشا شهريا ، وأربعة أرادب من الذرة ، وقد سلك ولداه الطريق الممدوح الذى كان يسلكه أبوهما ، وهما يصرفان أوقاتهما فى تعليم الشريعة والطريقة ، وتعليم الطلبة ، وفى عظة العامة ، ومصاريفهما كثيرة . واقترح الحكمدار ترتيب المائتين والخمسين قرشا التى كانت مرتبة لوالديهما ، مع ضم جزء عليه ، والأربعة الأرادب من الذرة لهما ولأختيهما وأمهاتهم[٢] إكراما لهم ، وقد وافق الخديو على ذلك .

وقد أشرنا إلى ضم سواكن ومصوع سنة ١٨٦٦ إلى الأملاك الخديوية . ومنذ أن ضما وجهت إليهما عناية الخديو الاقتصادية والثقافية . وقد تقدم إلى المعية السنية رجاء من ثلاثة أئمة من سواكن يطلبون زيادة رواتبهم والمربوط على مساجدهم أسوة بغيرهم[٣] من أئمة المساجد ، فوافق الجناب العالى على ملتمسهم وزاد مرتباتهم ، ومما يلفت النظر هنا أنه لما ضمت جزيرة سواكن ، وكان بها من قبل مساجد للمسلمين ، صدر أمر كريم إلى ناظر الداخلية يقول :

حيث إن عمران جزيرة سواكن فى اطراد ، وقد أخذ الكثيرون من الأحباش يتجولون فى أنحائها ، وحيث إن أكثر الأحباش على المذهب القبطى ، ومن المناسب أن تشاد هناك كنيسة

---

(١) الوثيقة المذكورة فى (٣) بهذه الصفحة .

(٢) محفظة رقم ٤٦ وثيقة ٣٦١ ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان فى ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ . وكذلك دفتر ١٨٦٤ معية . صورة المكاتبة ص ٢٣ من مدير دنقلة وبربر إلى المعية السنية فى ١٩ رجب سنة ١٢٨٩ .

(٣) دفتر ١٨٧٣ معية عربى . صورة المكاتبة رقم ١ ص ٢٦ بتاريخ ٢٣ المحرم سنة ١٢٩٠ وكذلك دفتر رقم ١٨٦٥ وارد عرضحالات الدواوين . صورة المكاتبة العربية رقم ١ ص ١١٨ بتاريخ صفر سنة ١٢٩٠ .

للأقباط أسوة بالمسلمين الذين لهم جامع فى هذه الجزيرة ، فإننا نأمر أن تقوموا بما يجب[1] نحو ذلك .

فهذا مثل يبين حرص الوالى على ثقافة شعبه الدينية لا فرق فى ذلك بين مسلم وقبطى ، وإنما ذكرت أمر بناء الكنيسة هنا لأستدل به على أن رقى الشعب بأية وسيلة من الوسائل كان همّ إسماعيل ، وأنه كان يعرف أن وظيفة الكنيسة بالنسبة للقبطى هى وظيفة المسجد بالنسبة للمسلم .

والآن نعود إلى الأزمة التى خلقها جعفر باشا مظهر حينما كان حكمدارا للسودان واقترح أن يقوم بالتفتيش على أصحاب الخلاوى والمساجد الذين رتب لهم الخديو إعانات وأعطية ، وأن يبحث عن مؤهلاتهم ، وأن يقطع مرتبات من لا علم لهم ، وقد كان على حق حينما تنبأ أن هؤلاء الفقهاء سيزعجون المعية بشكواهم الكثيرة ، ودعوى أن الحكمدار قطع عنهم إحسانات ولى النعم . وها نحن أولاء نواجه الأزمة فى أشدها . فها هو ذا إبراهيم محمد عوض الكريم من منطقة البحر الأبيض بمديرية الخرطوم يتقدم إلى الجناب العالى ملتمسا ربط إحسان من فيضه للمساعدة على إقامة شعائر الدين[2] وتعليم الطلبة الذين بمسجده ، فيتشكك الخديو فى صحة دعواه ، ويبعث للحكمدار ليتحرى الأمر فيجيبه ، بأن الشخص المذكور هو من أفراد الأهالى «وما أوراه بإعراضه لم ير فيه سوى إصراره على الطمع فى مال الميرى ، إذ هو وأمثاله لم يكن لهم جوامع حقيقة ولا مساكن معدة بجهات إقامتهم ، بل جاعلين لهم عشش ، ويزعموا أنها جوامع لتمكنهم من أغراضهم فى استحصالهم على المعاش بوسيلتها ، كما أن ربط المعاش له مما يوجب تمادى خلافه على ذلك وعدم التفاتهم لمزارعهم بالارتكان على ما يربط لهم ، ويحصل التأخير فى سداد مال الميرى المطلوب»[3] .

ويتقدم الشيخ المهدى مصطفى إمام زاوية بربر ، والشيخ حبيب المجذوب ، أحد العلماء بتلك المديرية وصاحب زاوية أيضا (خلوة) بالشكوى من أنه كان مرتبا لكل منهما بعض نقدية وذرة

---

(١) دفتر نمرة ٥٨٣ معية تركى . ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٢٠ صفحة ٢٢ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٨٦هـ .

(٢) دفتر رقم ١٨٦٨ صادر عرضحالات المعية . صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ١١٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ .

(٣) دفتر رقم ١٨٧٦ وارد عرضحالات ص ٦٧ وثيقة رقم ١٥ بتاريخ ١١ صفر سنة ١٢٩١هـ .

من طرف الميرى لإقامة شعائر الدين والتعليم . وقد صار قطع هذا المرتب بقصد إعطاء أطيان للزراعة بدله ، وهما يتضرران من ذلك ويلتمسان إعادة المرتبات المذكورة لعدم إمكانهما إجراء الزراعة(١) .

وترسل المعية هذه الشكوى لحكمدار السودان ، فيبحث الأمر ، ويجيب «بأن هؤلاء الأشخاص وأمثالهم جاعلون هذه وسيلة فقط لتحمل الميرى بتعيشهم ، مع أنهم ليسوا عاجزين . بل الواجب عليهم الاشتغال بالزراعة لتعيشهم . والذى يحدث له زاوية أو جامع يقصد الثواب لنفسه ؛ فلا له أن يكلف الميرى بمصاريفهم . وفضلا عن هذا فإنه موجود بكل مديرية مدرسة متحمل الميرى بمصاريفها . وتلك المدارس هى كافية لتعليم الأطفال ونشر العلوم . وإذا صار الالتفات لما أبدوه فضرورة جميع من كان مربوط لهم إحسانات يتركوا زراعة الأرض التى أعطيت لهم هذه الدفعة ويتشكوا فى ذلك . إذ طبعا يرجحوا ما كان مربوطًا لهم بدون اشتغالهم بالحراثة والزراعة العايد(٢) منها منفعة العامة» .

ثم نجد شكوى أخرى من الشيخ الأمين محمد خوجلى والشيخ محمد عبد الله خوجلى (من حلة الغبش) ببربر ، تفيد أنهما من أهل العلم «وأنه كان مرتب لهما وللمدرستين المقيمين بهم بعض مرتبات نقدية وذرة من طرف الميرى للإعانة على مصروفات المدارس المذكورة . والآن صار قطعها بقصد إعطاء بدلها أطيان للزراعة . ويتضرروا من ذلك . ويلتمسوا إعادة المرتبات المذكورة لعدم إمكانهم الزراعة»(٣) . وترسل هذه الشكوى من المعية إلى الحكمدار فيكتب هذا قائلاً : «وحيث إذا صار الالتفات لما أبدوه المذكورين فأمثالهما يسارعوا فى تقديم شكواهم ؛ إذ طبعا يرجحوا الاستولى على ما كان مربوطًا لهم بدون اشتغالهم بالزراعة ؛ مع أن هذه الجهات محتاجة لزيادة المصاريف الضرورية للمستخدمين والعساكر . والأولى إذا زاد شىء يصرف على هؤلاء . ويرام الإحاطة بذلك ، وعدم الالتفات لما يبدوه(٤) من سلف ذكرهم» .

---

(١) دفتر رقم ١٨٦٨ صادر عرضحالات المعية . صورة المكاتبة العربية رقم ٩ ص١١٨ بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٢٩١ .

(٢) دفتر رقم ١٨٧٦ وارد عرضحالات ص ٦٧ وثيقة رقم ١١ عموم بتاريخ ٣ ربيع الأول سنة ١٢٩١ .

(٣) دفتر رقم ١٨٦٨ صادر عرضحالات المعية . صورة المكاتبة رقم ١٠ صفحة ١١٨ بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٢٩١ .

(٤) دفتر رقم ١٨٧١ وارد العرضحالات . وثيقة رقم ٢٧ عموم شرح ما قبله بتاريخ ١٧ ربيع الأول سنة ١٢٩١ .

والآن وقد عرضنا لمظاهر هذه الأزمة نرى أن السياسة التى اتبعها الخديو من البدء كانت مغرية بالطمع ؛ وأنه لحسن نيته ورغبته فى «عمارية» البلاد ورقيها ما كان يتردد فى بذل المعونة بسخاء . غير أننا نأخذ على هذه السياسة شيئا آخر هو عدم تنظيمها وجعلها مركزة فى يد الخديو من غير خطة موضوعة . فلو كان هناك نظام ثابت محدد المعالم لإعانة الخلوات ومساجد العلم والعبادة ، لما حصل رد الفعل هذا ، ولما استغل الفقهاء هذا التشجيع المبنى على الثقة . ولو كانت هنالك مصلحة أو ديوان للتعليم كالذى كان بمصر ؛ أو لو عمل نظام للتعليم بالسودان على غرار الذى كان بمصر لتشجيع التعليم الأهلى والكتاتيب[1] لربما كانت النتيجة خيرًا مما حدث وأضمن . ولو كان مشروع جعفر باشا مظهر قد نفذ عمليا ، لكان هناك ما يبرر حرمان الكسالى والمهملين والأدعياء من شيوخ الخلوات ، ويقف دليل واضح على أنهم فشلوا فى أداء واجبهم فحل غيرهم محلهم ، ولشجعهم تنظيم التعليم الأهلى على أن يحسّنوا من أنفسهم مادة وطريقة . وإذاً فاللوم لا يوجه إلى عدم توافر النية الطيبة عند حكام السودان من الحكمداريين ، ولا إلى عدم عطف الخديو على ترفيه الشعب وتثقيفه ، بل يوجه إلى عدم وضع سياسة واضحة وخطة حكيمة لإدارة البلاد الثقافية . وربما تتساءل : أكان من الممكن ذلك والسودان لما يزل فى مرحلة التكوين والاستقرار ، وتوحيد الرقعة ، وإيلاف القلوب ، ومحاربة العادات الهمجية فى الجنوب ، والنخاسة فى جميع أنحاء البلاد؟ . والجواب على ذلك هو أن مصير السودان كان إلى حد كبير مرتبطاً بمصير مصر وأن مصر نفسها كانت فى مرحلة انتقال فى الداخل والخارج . وكان الخديو مثقلا بالشئون المهمة التى صرفت بعض جهوده الشخصية عن أن تبذل فى أمور السودان الثقافية . هذا إلى أن الحكمداريين لم يكونوا دائمًا من الطراز الذى يعتمد عليه .

وقد أشرنا إلى أن فتح دارفور كان فى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) ؛ غير أن الإغارة على أطراف هذه الديار كان قد سبق سنة ١٢٩١ حينما بدأ الزبير باشا يهاجم قبائل الزريقات ويؤدبها فى سنة ١٢٩٠ . ومن البلاد التى دخلت فى السودان المصرى قبل فتح الفاشر قرية تسمى أم شنقة من دارفور . وكان بهذه القرية مسجد للتعليم . وكان لهذا المسجد خمس حلات مقيدة عليه ومعفاة من الخراج فى عهد سلاطين الفور . فكتب الحكمدار : حكمدار السودان إلى المعية

(١) ص ٢٩٨ تاريخ التعليم بمصر ، عصر إسماعيل (المجلد الأول) لأحمد عزت عبد الكريم .

السنية يقول : «إن الفقيه سراج الدين بن يعقوب إمام المسجد المذكور ؛ وإنه شخص محترم مقبول عند أغلب الأهالى . وبمسجده اثنان وثلاثين نفسا مشتغلين معه بالتدريس . ويلتمس ترك الحلات الخمس كما كانت بدون خراج ، مساعدة له على لوازم المسجد[1] المذكور» . فصدر أمر كريم بالموافقة على ما عرضه الحكمدار من إعفاء الحلات[2] من الأموال .

ويظهر أن التدقيق فى إعفاء شيوخ المساجد وفقهاء الخلوات من أموال الأرض التى يزرعونها ، وفى حذف ما كان مربوطًا لهم من مرتبات لم يكن نتيجة لاستغلالهم التشجيع الذى قدمه الولاة فحسب ؛ ولكن لأن ميزانية السودان لم تكن لتسمح بهذا الإعفاء وكانت الإيرادات أقل من المصروفات . لذلك تراكمت على خزينة السودان ديون لخزينة مصر . ومن أجل هذا نجد ديوان المالية يصر على تحصيل الأموال حتى على السواقى التى كانت قد أعفيت منذ عهد سعيد باشا «لأنه ما كان يصح ترك مالها ارتكانا على مقولة أعطاها ؛ حتى نشأ عن هذه الارتكانات تراكم الأموال من سنة لسنة فصار اللازم الآن تدارك الأمر فى الحصول على تسديد تلك المبالغ إذ إن الأحوال لا تساعد على ترك أموالها»[3] .

ولم تكن حال مصر المالية من الرخاء بحيث تساعد على استمرار ما نهج عليه الخديو منذ توليته من إعفاء أراضى الفقهاء وشيوخ العلم ومن منحهم مرتبات تشجيعًا لهم على التعليم . لذلك نجد الخلوات والمساجد تعود فى أواخر عهد إسماعيل إلى حالتها الطبيعية من اعتماد الشيخ على موارده فى القيام بنفقاتها . وهكذا نجد التعليم الدينى الأهلى ازدهر فى عصر إسماعيل ثم ذوت نضرته فى أواخر هذا العصر السعيد .

■ ■ ■

(١) دفتر رقم ٥ معية عربى . صورة المكاتبة العربية رقم ١ مرور ص ١٦ بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩١ من الحكمدار إلى المعية السنية .

(٢) دفتر رقم ٢ أوامر . صورة الأمر الكريم رقم ٦ بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٩١ . أمر كريم إلى حكمدارية السودان .

(٣) دفتر رقم ١٥ قيد وارد الإفادات . صورة المكاتبة رقم ١ ص ٧ بتاريخ ٥ ذى الحجة سنة ١٢٩٣ . وكذلك دفتر رقم ١٢ جزء أول . صورة المكاتبة العربية رقم ٢ ص ٦٨ بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٢٩١ . دفتر صادر العرضحالات توقع سنة ١٥٩٢ . صورة المكاتبة رقم ٥٣ ص ١٨٥ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٩٣ . وكذلك دفتر ٣١ وارد معية عربى ص ٦٤ رقم المكاتبة ١٩ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٩٥ .

التعليم الحكومى المدنى

لقد كان موسى حمدى باشا (٤ صفر سنة ١٢٧٩ ـ ٨ شوال سنة ١٢٨١) هو الذى كتب للخديو سعيد يستأذن فى إدخال كل من يرغب من أولاد العمد والأعيان والأهالى فى دواوين المديريات وفى ديوان الحكمدارية ـ بصفة صبيان مبتدئين ـ بقصد تعليمهم فن الكتابة ، من حسابات وتحريرات وغيرها ، حتى يتمكنوا فى زمن قصير من اكتساب هذا الفن . وبذلك يؤخذ منهم من يلزم فى وظائف الكتابة والمعاونين بحسب اللزوم . ويكون هذا الترتيب ـ أى استخدام هؤلاء الكتبة والسودانيين ـ أوفق من طلب كتبة من مصر ؛ لأن هؤلاء الأخيرين يتكلفون مصاريف كثيرة وأجرة على إيصالهم إلى السودان ، فضلا عن اختلاف المناخ مما يؤثر فى صحتهم ولا يوافقهم . وكان اقتراح الحكمدار هذا يتضمن أن يمنح الصبى ـ مادام تحت التمرين ـ من ثلاثين[1] إلى خمسة وسبعين قرشا .

وأراد الله أن تقع هذه المكاتبة فى يد إسماعيل وأن يفتح بها عهده فى السودان فيصدر إلى الحكمدار أمرا كريما يقول فيه :

«بما أنه من أقصى الآمال انتشار حالة التمدن والرفاهية وحسن التواطن والعمارية . ومن لزوم ذلك استحصال الرعايا على اكتساب العلوم ليمتازوا بها ، ويكونوا دايمًا مجبولين على حب الوطن ، ومتشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم فى المعارف والفنون ؛ فلذلك قد سنح لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم ، بحيث يترتب به خوجات تركى وعربى ممن يثبت مهارتهم فى ذلك ، ليعلموا قدر خمسماية نفر تلامذة من أهالى تلك الجهات . وأصدرنا

(١) الخطاب بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٧٩ نمرة ٢٦ .

أمرنا هذا إليكم لتبذلوا مزيد اعتناكم فى ترتيب ذلك المكتب وتعينوا بيان الدروس التى يلزم دراستها فيه على حسبما يليق ، لأجل تحصيل ما ذكر ، مع إشهار ما يلزم من التشويق والترغيب إلى الأهالى فى استحصال هذه الثمرات المدنية . وإذا كان غير متيسر وجود بعض الخوجات بطرفكم فاطلبوا ما يلزمكم[1] من المحروسة . . . الخ» .

بهذا افتتح إسماعيل العظيم عهده فى السودان . وكان افتتاحا موفقا . ولم يفت الخديو أن يُحشِّيَ على أمره السابق بقوله : «إذا كان بحسب أحوال السودان تجدوا أن يعمل مكتبين بدل المكتب المذكور عنه بمتن أمرنا فلا بأس» . فكأن الخديو لم يوافق فقط على ما طلبه الحكمدار من إدخال من يرغب من أولاد العمد والأعيان والأهالى فى دواوين الحكومة ليتمرنوا على فن الكتابة ، بل أضاف إلى ذلك أن تنشأ مؤسسة أصلح وأهم نفعا ، فأمر بإنشاء مكتب للتعليم . لا بل إنه تدارك هذا وأشار بعمل مكتبين بدل المكتب إذا كانت الأحوال مناسبة ، وهذا هو إسماعيل كما عرفه التاريخ ؛ إذا أصلح يصلح بسخاء ووفرة ولا يقتنع بالقليل .

ويصادف الأمر الكريم هوى فى نفس موسى باشا فيعجل بالكتابة إلى سيده وهو خارج الخرطوم بعد وصول الأمر بيومين ، ويقرر أنه سيشرع فى إلحاق من يرغب من أولاد العمد والأهالى وأبناء الترك العارفين بالقراءة والكتابة ، على قدر الإمكان ، من الذين تعلموا القرآن وختموه ، بمعية الكتاب فى دواوين الحكمدارية ومديرياتها . ثم هو ينتهز فرصة رغبة الجناب العالى فى إنشاء مدرستين فيقول : «وبما أن من المعلوم أن بلاد السودان عبارة عن ديار متسعة وأن المديريات بعيد بعضها عن بعض ، وأن قصر خمسماية التلميذ السالف ذكرهم على مدرسة أو مدرستين يوجب تمتع أهل المديرية التى بها تلك المدرسة بحب ثمرات التمدن وحرمان أهل غيرها من تلك الثمرات النافعة ، وبما أن افتتاح المدارس من جملة مراحم ولى النعم وإحساناته السنية ، فلو أسست خمس مدارس صغيرة فى مديريات الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والتاكة بدلا من مدرستين عظيمتين وتعلم فى كل منها مائة تلميذ ، كى تشمل ثمرات التمدن وانتشار

---

(١) دفتر رقم ١٩٠٤ أوامر كرام عربى صادرة إلى الأقاليم . صورة الأمر العربى رقم ٢ تاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ كذلك تقويم النيل وعصر إسماعيل ص ٤٥٢ ج٢ م٢ .

العلوم أهالى عموم بلاد السودان ومتوطنيها ، ويمتازوا بتحصيل العلوم والفنون النافعة ، ببركة إحسان ولى النعم ، فإنى أظن أن الناس كلهم يرغبون فى تعليم أولادهم ، فنجنى حينئذ ثمرات التمدن والتقدم ، ويعم[1] نفعها .

والحكمدار باقتراحه هذا يرمى إلى إعطاء كل مديرية نصيبها من التعليم الحكومى بإنشاء مدرسة فيها ، وإن كان لا يقترح أن يزيد مجموع ما بالمدارس عن خمسماية تلميذ كما أراد الخديو . ولعله أراد بهذا التقييد ألا يتوسع فجأة فى عدد التلاميذ ، بل يتروى حتى يضمن السماح بالمدارس الخمس ، ويترك زيادة العدد للظروف . ولعله أيضا قد سمع عن عدم إقبال التلاميذ على مدرسة الخرطوم فى عهد عباس فلم يشأ أن يكون متفائلا أكثر مما ينبغى .

وظفر الحكمدار بموافقة الخديو فجاءته الإرادة السنية وفيها «وحيث إن تأسيس خمس مدارس فى المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس المصلحة . بناء عليه بادروا إلى إجراء إيجابه واسعوا فى تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم[2] بأحسن وجه .

ويصدع الحكمدار بالأمر وينشئ المكاتب الخمسة فى المحرم سنة ١٢٨٠ ، ويرتب لمكتب الخرطوم ٢٠٠ تلميذ ولكل مكتب من المكاتب الباقية ٧٥ تلميذا ويحرر للمديرين بهذا النظام . ويكتب لولى الأمر يخبره بذلك وبأنه قد ورد لمكتب الخرطوم ١٢٤ تلميذا وقد رتب الخدم والخوجات «اللازمة لتعليم القرآن الشريف والدروس العربى» ، ولكنه يطلب إرسال خمسة خوجات ترك من جهة المحروسة . لكل مكتب واحد «بحيث يكونوا من أرباب المعارف فى تعليم التركى والنحو والصرف والخط الثلث والرقعة وأن يرسل معهم أيضا الكتب اللازمة لهم مع إرسال ثلاثمائة وواحد وخمسين نسخة من ثلاثة عشر كتابا عربيًا متعلقين بعلم النحو[3]

---

(١) محفظة ٢٩ معية تركى . ترجمة الوثيقة رقم ٥٠٨ فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ من موسى حمدى حكمدار السودان إلى حضرة باشمعاون الخديو .

(١) دفتر رقم ٥٢٦ معية تركى . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ ص ٨٢ بتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ .

(٣) دفتر رقم ١٢٦ وارد معية . صورة المكاتبة العربية رقم ٢٩ ص ٢١ بتاريخ ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠ ، وكذلك سجل رقم ١١٦ صادر المعاونة . صور المكاتبة العربية رقم ١٦ بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٨٠ .

والصرف» . وتكتب المعاونة السنية إلى ديوان المدارس لتعيين الخوجات المذكورين وإرسالهم إلى الحكمدار ومعهم الكتب التى تلزم مما يتعلق بعلم النحو والصرف[١] والمنطق واللغة ونحوه ويصدر الخديو أمره إلى حكمدار السودان قائلاً : «وحيث إن أقصى آمالنا هو انتشار حالة التمدن واستحصال الرعايا على اكتساب العلوم ليمتازوا بها ويكونوا دائما مجبولين على حب الوطن ومتشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم فى المعارف والفنون فما أجريتموه من ترتيب الخمسة مكاتب المذكورة قد قورن بمساعدتنا[٢]» .

ويعيد الخديو مع أمره الكريم هذا كشف المصروفات التى بعث بها الحكمدار ويوافق عليه . ومن هذا الكشف يتضح أن مقار تكليف هذه المكاتب الخمسة فى الشهر الواحد قد بلغت ١٩٩٠٦ قروش و٢٨ فضة . كما هى مفصلة بكشوفات[٣] المصروفات .

وتفتتح المدارس (المكاتب) ويكون من تلامذتها أحفاد الملك نمر الذى أحرق الأمير إسماعيل وخرج على الحكومة . فإن الجنود المصرية كانت قد طاردتهم على حدود الحبشة وأسرت منهم ١٥٠ نفسا . فأرسل الخديو للحكمدار يقول عنهم : «إنه ينبغى تجنيد من يستطيع أن يقوم بالجندية العسكرية من ذكور الأسرى وتزويج إناثهم اللاتى يصلحن للتزوج من العساكر . وأما الأطفال فيدخلون المدارس إذا كانوا لا يصلحون للخدمة العسكرية[٤] ولا لفرق الموسيقى» .

ثم يكتب ديوان المدارس للمعاونة السنية يذكر أنه عثر على خوجات لازمين ليعلموا التركى والنحو والصرف والخط الثلث وإنما لا يعلم الرقعة ويطلب الموافقة[٥] . فتطلب المعاونة معرفة أسماء هؤلاء الخوجات ومقدار الماهية التى رتبت لكل منهم . وماذا تم فى أمر الكتب المطلوبة[٦] .

---

(١) سجل رقم ١٩٠٤ أوامر عربى . صورة الأمر الكريم رقم ٢٣ بتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٠ .

(٢) نفس الوثيقة السابقة .

(٣) أنظر سجل رقم ١٩٠٤ أوامر عربى الأمر الكريم رقم ٢٣ .

(٤) هذا مثل ناطق على نبل الخديو إسماعيل وحسن معاملته لأعدائه ، حتى عندما يقدر عليهم . فهو لا يريد أن يذل الأطفال ، بل يدخلهم المدارس . وهذا بعينه ما حدث بعد الثورة المهدية ، فإن أبناء زعماء هذه الثورة الذين وقعوا فى الأسر أرسلوا للمدارس بمصر ومنهم عبد الله النجومى باشا . دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى ص ١ ، ترجمة الإدارة السنية رقم ١ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٨٠ .

(٥) سجل رقم ١٣٩ وارد معاونة . صورة الوثيقة صفحة ١٨ بتاريخ ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ .

(٦) دفتر رقم ١٢٧ صادر معاونة . صورة الوثيقة رقم ٢ ص١٢ بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ .

ويبعث ديوان المدارس إلى المعاونة بأن الكتب المطلوبة ، وعددها ٣٥١ نسخة من ١٣ كتابًا ، قد وجد بعضها بالكتبخانة وأمكن الحصول منها على ٩٠ نسخة ، وأن الذى لم يوجد قد «صار قطع بزاره مع أربابه» أى شراؤه من المكاتب التى بها هذه الكتب ، ويوضح[١] الديوان أسماء الخوجات ومرتباتهم الشهرية كالآتى :

١٠٠٠ قرش محمد شاكر أفندى أستانة لى يتوجه مكتب الخرطوم .

١٠٠٠ قرش حافظ محمد على أفندى خربوطلى يتوجه مكتب دنقلة .

١٠٠٠ قرش محمد أفندى بوده لى يتوجه مكتب بربر .

١٠٠٠ قرش حافظ خليل أفندى إسكليلى يتوجه مكتب التاكة .

١٠٠٠ قرش إسماعيل يوسف أفندى خربوطلى يتوجه مكتب كردفان .

وتكتب المعاونة إلى ناظر المالية تخبره بتعيين الخوجات ومرتباتهم ، وتطلب ترحيلهم مع الكتب إلى[٢] الحكمدارية بطريق الوابورات ثم الجمال ، وأن يكتب إلى حكمدار السودان بما صرف لهؤلاء الخوجات وبأثمان الكتب ليجرى خصمها من مالية السودان[٣] .

ويتبين لنا من تعيين الخوجات وجمع الكتب اللازمة أن هذه المدارس كانت تحت الإشراف الفنى لديوان المدارس ، وأنها كانت تعامل معاملة المدارس المصرية من حيث البرامج ، وخطط التدريس ، والإجازات ، والامتحانات ، أما من الناحية الفنية فقد كان ديوان المالية يشرف عليها ولكن نفقاتها كانت من خزينة السودان .

والآن نترك هذه المدارس الخمس بعد تأسسها سنة ١٢٨٠-١٨٦٣م لننظر ما عسى أن تكون الحكومة قد قامت به من نشاط آخر فى سبيل التعليم بالسودان .

---

(١) سجل رقم ١٣٩ وارد المعاونة السنية . وثيقة رقم ٥ ص ١٨ بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ .

(٢) وكانت الكتب مما يقرؤه تلاميذ المدارس الابتدائية فى النحو والصرف وهى : شرح الكفراوى ، وشرح الشيخ خالد ، وشرح الأزهرية ، وشرح بن عقيل على ألفية ابن مالك . ثم كتاب تاريخ واصف فى اللغة التركية (دفتر رقم ٣٤٨ مدارس عربى ص ٢٤ رقم ١ إلى المعية فى ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ ، وكذلك ص ٩٤ رقم ٥ فى ٢٣ منه ، وص ١٦٨ رقم ١٤٠ فى ١٩ جمادى الأول سنة ١٢٨٠) .

(٣) سجل ١٢٧ صادر معاونة سنية . وثيقة ٨٢ ص ٧٢ بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ من المعاونة إلى نظارة المالية .

إن قصة كشف منابع النيل ، وفتح النيل الأبيض ، طويلة . وتبدأ فى القرن التاسع عشر برحلات بمباشى فى عهد محمد على ١٨٣٩-١٨٤١ ، ولم تحدث أية محاولات لفتح النيل الأبيض لمدة خمس عشرة سنة بعد ذلك ، حتى عهد سعيد[١] ، ففى عهده ذهب البرنس حليم إلى السودان (١٨٥٥) وهناك أقام محطات حربية من الجند لمسافات متقاربة على النيل الأبيض ، وامتد سلطان الحكومة - وبالتالى امتدت رقعة السودان - إلى ما وراء قرية إليس (الكوة الآن) حتى وصل إلى مصب[٢] السوباط ، وقامت بعد ذلك محاولات لإبقاء النيل الأبيض مفتوحًا للتجارة واكتشاف منابع النيل ، منها رحلة صمويل بيكر التى قام بها من الخرطوم فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٦٢ فوصل غوندوكرو فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ ، أى أنه عندما تولى إسماعيل كان النيل الأبيض قد صار جزءا من البلاد السودانية ، ولكن سكان الجزء الجنوبى من هذا النيل (من الدويم إلى الجنوب) كانوا من الشلوك والقبائل غير العربية ، فلابد والحال هذه من إيلافهم وتمدينهم ولابد من تنظيم جهات البحر الأبيض ، وهذا ما شرع فيه إسماعيل ، فقد أرسل إلى حكمدار السودان بتاريخ ١٨ صفر سنة ١٢٨١ (١٨٦٤) لائحة تشتمل على[٣] مقدمة ، و١٨ بندًا ، وخاتمة تعتبر فى الحقيقة دستورًا لما يجب أن تسير عليه الحكومة فى المنطقة الجديدة ، منطقة البحر الأبيض ، وفى هذه اللائحة يبسط إسماعيل خططه الإصلاحية ، «ومنها إرسال أرباب الصنايع المختلفة من بنائين ونجارين ومهندسين ، حتى يتيسر انتشار الصنايع بتلك الجهة وتعلماتها لأهليها ، ونوال انتفاعهم بها» ، وهو يحث الحكمدار على «تشويق الأهالى فى دخول من يرغبون دخولهم من أولاد الأهالى للتعليم وتعاطى مشغولات تلك الصنائع ، وإرشادهم إليها بالرفق والترغيب . . . وكل من دخل من أولاد الأهالى بتلك الصنائع يتخصص له قدر مناسب من الماهية أو اليومية ويتلاحظ حسن تعليمهم بمعرفة من يعلم من أرباب الصنائع . . . ولا بأس من تقدير جعل معين للمعلمين يتقدر على تعليم النفر الواحد فى الصناعة الواحدة مكافأة له ، لالتفاته إلى التعليم ، وعند ظهور استوفى التعليم لأى نفر كان

(١) ص ١٢٢ من كتاب الخديو إسماعيل والنخاسة فى السودان لأحمد فؤاد شكرى .

(٢) ص ١١٢ من كتاب الخديو إسماعيل والنخاسة فى السودان .

(٣) دفتر رقم ١٩١٠ أوامر عربى . صورة المكاتبة رقم ١٧ ص ٨٨ بتاريخ ١٨ صفر سنة ١٢٨١ .

بالصناعة التى يتعلمها ، وامتحانه ، وظهور استعداده ، يصرف للمعلم ما يكون سبق تقديره له ، ثم ومن يتعلم من أولاد الأهالى يستعمل فى تشغيل صناعة ، ويعان من طرف الحكومة بما يثبت إقدامه لرسوخ الاشتغال فى تلك[1] الصناعة» .

فهذا مشروع يقترحه الخديو للتعليم الفنى بالمناطق الجديدة حديثة العهد بالمدنية ، وهى مناطق خليط من عرب السودان وقبائل شبه زنوج ، وهو مشروع لو كان قد تم تنفيذ لوصلت هذه القبائل الهمجية فى بضع سنوات إلى ما لم تصل إليه قبائل أعالى النيل بعد نصف قرن فى ظل الحكم الحاضر منذ استرجاع السودان .

والخديو لا يفوته أمر التعليم الثقافى فهو يقول للحكمدار فى نفس اللائحة «ومن حيث إن تعليم ما يمكن تعليمه من أهالى هناك (أى منطقة النيل الأبيض المفتوحة) بلسان عربى ، والتكلم به هو من أحسن الأسباب الموصلة إلى المقصود ، وهذا التعليم يكون لأطفالهم أقرب وأنجح ، وأقربه ما كان بواسطة تعليم القراية والكتابة ، فلا بأس من إرسال ما يمكن إرساله من الخوجات زيادة على أمام الأورطة ، لأجل أن يتفرقوا فى المحطات ، ويعلموا الأطفال القراية والكتابة بالعربى ، بقدر ما يلائم أحوالهم ، وتعمل ماهيات وتعيينات كافية إلى الخوجات والأطفال ، وكل من تعلم وظهرت براعته فى ذلك يصير مكافأته ومكافأة خوجته ، بقدر ما يبعث فيهم زيادة الرغبة فى التعليم[2] والتعلم» .

فهذا مشروع ضخم لنشر العربية وإزالة الأمية بين بعض السكان فى منطقة النيل الأبيض . والخديو يوضح طريقة التنفيذ بصورة مغرية يحسبها القارئ سهلة التنفيذ ، ولكن أين النظريات من العمليات ، فالمال الذى يحتاج إليه مثل هذا المشروع ، والمدرسون ، والأماكن ، والأدوات ، والإشراف ، وإقبال الناس على المشروع وانتشار الطمأنينة ، كل هذه الأشياء يجب أن تتوافر حتى يأخذ المشروع صورته التنفيذية . ولكن صاحبه هو إسماعيل الطموح ، إسماعيل ذو الآمال الواسعة . ونحن لا نعجب إذا لم تخرج محتويات هذه اللائحة عن الأوراق التى كتبت فيها .

---

(١) البند السادس من المكاتبة رقم ١٧ المذكورة .

(٢) البند العاشر من اللائحة المذكورة .

والآن نعود إلى مدارسنا الخمس لنرى ما كان من أمرها . ولم نعثر فى الوثائق التى لدينا على تفاصيل برنامجها ، ولا نظم الدراسة بها ، ولكننا نرجح أنها كانت تشبه فى نظم دراستها نظم الدراسة الابتدائية بمصر مع اختلاف توجيه ظروف المدرسة[1] .

ونحن نعثر فى ما لدينا من الوثائق على مكاتبة مرسلة من ديوان المدارس إلى المعية السنية تشير «إلى الإفادة الواردة من ناظر المبتديان بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٨٥ المذكورة بها أن مائة نفر من التلاميذ السودانيين بالمدرسة المذكورة ، بعضهم مسنون وأغبياء الذهن ، وبعضهم أحداث وذوى عاهات ، وليس فى بقائهم بالمدرسة إلى الوقت الحالى أية فائدة ، كما أنهم ليس من المأمول أن يتقدموا فى العلوم ، ويستأذن فى إرسالهم إلى الجهادية لاستخدامهم فى خدمات تتناسب[2] وأحوالهم» . وهنا نتساءل : كيف جىء بهؤلاء التلاميذ المائة من السودان إلى مصر أبعد أن درسوا فى مدارس السودان الحكومية وأتموا مرحلتها ، أم لم يكن لهم نصيب من التعليم فى تلك المدارس؟ وما الظروف التى أتت بهم إلى مدرسة المبتديان بالقاهرة ، كل هذه أسئلة لم نعثر على جواب لها ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يؤذن لطلبة هذه المدارس بالانتقال (والتحول) إلى المدارس المصرية «لأن المدارس بالسودان وبجهة بحرى على حد سوى ، وقد وجد نفر منهم موفقين فى القراءة والكتابة فألحقوا بالمدرسة[3] التجهيزية بالقاهرة» .

ومع هذا فنحن أمام حقيقة مسطورة ، هى أن أولئك التلاميذ لا يصلحون للبقاء فى مدرسة المبتديان ، وأن ناظر المدرسة يريد أن يتخلص منهم . ويكتب مدير ديوان المدارس إلى المعية السنية بذلك ، فيصدر الرد من الجناب العالى إلى ناظر المبتديان رأسا باقتراح أسلم وأصلح ، وأدل على بعد النظر ، ودقة التفكير . ويتضمن هذا الاقتراح أن إدخال مثل هؤلاء التلاميذ

---

(١) تعرض الدكتور عزت عبد الكريم لخطة الدراسة الإبتدائية ومناهجها فى عهد إسماعيل بكثير من التفاصيل فى ص ٢١١ وما بعدها من كتابة تاريخ التعليم فى مصر (عصر إسماعيل . المجلد الأول) .

(١) دفتر رقم ٥٧٧ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية ٧ ص ٣٩ بند ديوان المدارس بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٥ من ديوان المدارس إلى المعية السنية .

(٣) دفتر ٤٤٣ مدارس عربى ، صفحة ٩٢ رقم ٦٣ من الداخلية بتايخ ٧٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ .

المعلولين إلى الجهادية ليس صوابًا ، وأن الأولى إرسالهم إلى فرقة التلاميذ الذين يتعلمون الحرف والصناعات بدلاً من الجهادية[1] . ويرسل للجهادية صحاح البنية والأغبياء[2] .

أما مصير هؤلاء التلاميذ ، وكيف انتهت بهم دراستهم فشىء غير معروف ولكن لدينا من القرائن ما يشير إلى أن الحكومة كانت مهتمة بمزج السودانيين بالمصريين وتوحيد ثقافتهم ، وتقوية الصلات المعاشية ، وصلات التزاوج بين الشعبين . فكان الوالى يشجع أحيانًا قدوم السودانيين - من تلامذة وغيرهم - إلى مصر للتعلم والإقامة أو الرجوع إلى بلادهم . وقد عثرنا على مقال قيم لفيجارى بك[3] نشر بالوقائع المصرية تحت عنوان «بساتين التجارب التى ينبغى فعلها بالقطر المصرى» يقترح فيه إنشاء حقول نموذجية فى اطفو ، وقنا ، وجرجا ، وأسيوط ، والمنيه ، وقليوب ، وفى وسط البحيرة . ويقترح[4] أن يجلب لهذه الحقول «أشخاص من السودان يتعودون على أهوية القطر المصرى شيئًا فشيئًا بأن يمكثوا بالبستان الذى يجعل باطفو . ثم ينقلوا فى البساتين التى بعدها على التعاقب . فبعد مضى نحو عشرين سنة تتعود أولادهم على الأهوية ، حتى يصلوا نحو القاهرة ستعلمين ما يلزم للزراعة . وينبغى أن يتعلموا القراءة والكتابة بالبستان المذكور ، وتجعل لهم قوانين زراعية حربية يتبعونها بهذه الكيفية ، تعود على أهل السودان بمنفعة عظيمة بتعليمهم أصول التمدن ، وتداخلهم مع زراعى القطر المصرى الذين هم أكثر تمدنا منهم . وهؤلاء الأشخاص إذا رجعوا إلى بلادهم يدخلون فيها ما تعلموه من الزراعة والخصال الحميدة التى اكتسبوها . وبهذه الزراعة والخصال الحميدة التى اكتسبوها ، وبهذه الكيفية ينتشر التمدن بالسودان شيئا فشيئا ، وتزداد متحصلات الزراعة فتكثر التجارة والرفاهية والراحة العمومية .

---

(١) الراى الحديث فى التربية هو أن أولئك الذين لا يساعدهم ذكاؤهم أو استعدادهم على مواصلة الدراسات النظرية Academic يمكنون من الدراسات الفنية المهنية (راجع سياسة التعليم فى مصر لإسماعيل القبانى) .

(٢) دفتر رقم ٥٧٥ معية تركى . ترجمة الأمر الكريم ٦ ص ٦٣ بتاريخ ١٠ محرم سنة ١٢٨٥ .

(٣) كان فيجارى بك Figari أستاذًا للنباتات ومشرفًا على حديقة النباتات بمدرسة الطب البشرى التى أسست فى عهد محمد على باشا سنة ١٢٤٢ (١٨٣٧) . ولما أنشئت مدرسة الزراعة سنة ١٢٨٤ (١٨٦٧-١٨٦٨) فى عهد إسماعيل كان فيجارى بك من أساتذتها ، وأحد الذين عهد إليهم بوضع لائحتها . ويظهر أنه عين أخيرا رئيسا لهذه المدرسة (دفتر ٤٣٥ مدارس عربى ص١٠٣ رقم ١١ إلى الخاصة الخديوية فى ٢٧ رجب ١٢٨٧) وقد عاش فى مصر زمنًا طويلاً من حياته .

(٤) الوقائع المصرية نمرة ٢١٣ فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٥ (٤ يوليو ١٨٦٨) .

الكلام على بستان التجربة الذى ينشأ فى أطفو
وهو المعد لتعليم بعض السودان

يوجد على الجهة الشرقية من أطفو أرض متسعة تنسب إلى وادى عبابدى ومقدارها نحو ٣٠٠٠ فدان . وهى منحدرة نحو أرض النيل . وهذه الأرض مكونة من طفل ضارب للصفرة ، مار على أرض النيل . وهى مناسبة لإنشاء بستان التجربة الذى ذكرناه . ولأجل زراعة الأرض المذكورة ينبغى أن يجعل بها ١٢٠٠ شخص من السودان سن الواحد منهم من ١٢ إلى ١٥ سنة ، يأتى ٢٠٠ منهم على التعاقب . وعند وصولهم إلى أطفو ينبغى أن يتعلموا كيفية صناعة ضرب الطوب النئ لبناء مساكنهم ، والشونات ، والمخازن اللازمة ، والإسطبلات ، وزاوية من الأجر للعبادة على مقتضى رسم مخصوص . وينبغى تقسيمهم إلى ست فرق كل واحدة منها ٢٠٠ نفر ، يجعل عليهم ٢٠ أونباشة ، وعشرة جاويشية تؤخذ من السودان المتمرنين بالآلايات ، وواحد من الخولة المصريين . وإدارة هذا البستان يناط بها ناظر ذو دراية كافية ، مصحوب بما يلزم له من الضباط ، والكتبة ، والقوام ، وحكيم بيطرى ، وطلومبة حريق ، ونجار ، وحداد ، وصانع عجلات ، ومدابغى وما يلزم من الأشخاص لصناعة الزبد والجبن والزيوت . وإذا اقتضت الحاجة قاضيا ، أو طبيبًا ، أو مهندسًا ، يجلب من المحل الأقرب للبستان المذكور .

وعند دخولهم بالبستان ينظفون أجسامهم بالاغتسال فى بحر النيل ، ويحلقون رءوسهم . ثم تعطى لهم الملابس الجديدة اللائقة بهم ، ثم يلقح لهم الجدرى بمعرفة الطبيب . وبعد استراحتهم فى الخيام يشرعون فى تعلم الطوب النئ الذى يبنون به مساكنهم . ثم يجهزون مقدارًا آخر من القوالب اللازمة لمساكن المائتين الذين يأتون بعدهم وهكذا .

وينبغى للسودان المذكورين متى استوطنوا أن يتزوجوا بنساء من جنسهم ، أو من صعيد مصر وهو الأحسن ، لأن أولادهم تكون أكثر قبولا للتعود على أهوية القطر المصرى .

وكل فرقة يكون بها أحد القوام ، لحفظ الحيوانات الأهلية والعليق والآلات الزراعية ، وطرمبيطى من الجهادية لينبههم على القيام من النوم ، والنداء ، والفطور والذهاب إلى البستان . ويكون بها إمام للعبادة وتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، ويكون بها حلاق أيضًا .

ويأخذون ملابسهم وأغذيتهم من القيم الخولى بحضور الناظر الذى يقيد ما يأخذونه فى دفتر . ومتى تأهلوا يأخذون خرجهم بدون طبخ كل أسبوع ، وللناظر أن يعطى جزاء للأشخاص الذين يتميزون عن أقرانهم بفهوميتهم ، أو غيرتهم ، أو اجتهادهم فى الشغل ، أو بعض شجاعة تظهر منهم ، بأن يعطى لهم طربوشًا أو نعلاً أو منديلاً من قطن . وأعظم جزاء يعطى لهم محجن . وهذه الهدايا التى تعطى لهم لا يلبسونها إلا فى يوم الجمعة أو فى الأعياد . ويمنعون من أن يوجد بمنازلهم شىء من أنواع الشفرات أو العصى .

وينبغى للأنباشية والجاويشية أن يفتشوا أنفارهم ، ليعلم من أصيب منهم بالجرب أو نحوه لينبهوا عليه القيم ، ثم الناظر فيدخله الاسبتالية .

والزوجة تكون منوطة بأشغال المنزل ، ونظافته ، وملابس العائلة . وينبغى أن تأتى كل يوم بالماء اللازم لمنزلها من بحر النيل ، لا من ماء الآبار ؛ لأنه يستعمل للرش وتنظيف الأوانى فى الأوقات الخالية من الشغل خصوصا فى فصل الصيف . ويجب على الزوجة أن تغزل جانبًا من القطن ، أو من الصوف ، وأن تتعلم كيفية صناعة المنسوجات التى من قماش أو من صوف . فبهذه الكيفية تصير كل زوجة ذات غيرة على منزلها وذات صناعة متممة للقاعدة المؤسس عليها بستان التجربة ، من أن البطالة إحدى الرذائل .

ثم يتناول فيجارى بك تربية الأطفال فى هذه البساتين فيقول :

وأولاد السودان الذكور والإناث الجيدو الصحة ، متى صار سنهم أربع سنوات ، يشتغلون بجمع الوقود الموجود بأكتاف البستان لاستعماله فى إنضاج الخبز ونحوه . ويجمعون الحشيش الذى قلع من البستان ليستعملوه فى تغذية ما عندهم من المعز والضأن والدجاج ونحو ذلك . فبذلك تزداد وسائط تعيشهم .

والصبيان من صار منهم خمس سنوات يجتمعون عند الإمام ساعتين صباحًا وساعتين وقت العصر ، ليعلمهم القراءة والكتابة ، ثم قواعد الحساب الأربعة . وهى الجمع والطرح والضرب والقسمة . ومتى صار سنهم ثمانى سنوات يتعلمون الإملاء ويداومون عليها إلى سن العشر سنوات فيتقدمون فى التعليم . فيتعلمون بعد ذلك الأجرومية العربية ثم الحساب ،

واستعماله فى المحاسبة ومساحة الأراضى . وفى سن الأثنتى عشرة سنة يبتدئون فى الشغل بأيديهم فى بستان التجربة . ويداومون على ذلك إلى سن الخمس عشرة سنة .

وبعد السن المذكورة يؤخذ منهم للعسكرية كغيرهم من الأهالى . ومتى خرجوا من العسكرية يدخلون بستان التجربة فى سن العشرين سنة فيأخذ كل منهم جانبًا قليلاً من الأرض كنصف فدان أو فدان يزرعه لعائلته .

وبنات السودان متى صار سنهن سبع سنوات يتعلمن ما يلزم من الخياطة والطباخة ونحوها بحيث إنهن متى وصلن إلى سن الزواج يكون لهن إلمام بإدارة منازلهن أ هـ .

ولسنا ندرى ماذا تم فى هذا الموضوع . ولكن يظهر أنه كان مجرد أمنية حلوة تخيلها أستاذ فنى برئ من الشبهات السياسية ، ورآها ضرورية لمزج سكان القطرين وتوحيدهما وتكوين شعب واحد منهما يكون أقوى عودا ، وأكثر إنتاجًا وحيوية ؛ من بقائهما شعبين منفصلين . ولو قد حققت هذه الأمنية ؛ ولو كان أولو الأمر قد أخذوا بأسبابها ؛ لكان للسودان ومصر اليوم شأن غير ما هما عليه الآن من محاولة فصلهما ، والتفرقة بين أبنائهما .

وتأتى سنة ١٢٨٧ وترد الأخبار إلى مصر بأن تلامذة المدارس الأميرية التى افتتحت منذ سبع سنوات ، والتى بمراكز مديريات السودان ، قد تقدموا فى تعلم فن الكتابة والقراءة ، وأخذ بعضهم للتخصص فى فن التلغراف ، وبعض آخر عين فى وظيفة كاتب بالدواوين ، وآخرون جارى تعليمهم فن الهندسة[1] . ويسر الجناب العالى لهذه الأخبار ، وتحصل له «غاية الممنونية من تقدم أولئك التلاميذ لما يستلزم على هذا من انتشار المعارف بالجهات السودانية وانتظام أهاليها فى سلك التمدن كما هو أقصى آماله» . ولما كان هذا التقدم نتيجة لبذل جهود المدرسين وقيام النظار بأعمالهم ، وحسن مساعى الحكمدار ، فقد وافق الخديو على منحهم ما استحسنه الحكمدار من علاوة مائة قرش على ماهية كل من النظار ، وجعل ماهية الخوجات من ثلاثمائة قرش إلى خمسمائة بحسب استعداد كل منهم ووظيفته ، مع صرف إردب ذرة فى كل شهر

---

(١) دفتر رقم ١٨٣٩ معية عربى قيد وارد العرضحالات . صورة المكاتبة العربية صفحة ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ .

لكل من النظار[1] والخوجات : ويطلب الخديو من الحكمدار أن يفهمهم «بأننا مسرورين من قبلهم ، وأنهم إذا استداموا على ما هم عليه من حالة الاجتهاد ، وصرف الأفكار فى التعليمات مازال تحصل لهم المكافأة ، وحسن[2] الالتفات» .

وكأن هذه اللفتة الكريمة قد شجعت جعفر باشا مظهر الحكمدار على أن يفضى للخديو بكل ما حدث مع خريجى المدارس الأميرية فى السودان . فهو[3] يقول له إن تلاميذ هذه المدارس لم يتقدموا فقط ، ولم يدخلوا فقط مدرسة التلغراف . بل قد أخذنا منهم فريقا فعلا ـ بعد إكمالهم دراسة التلغراف فى ثلاثة أشهر ـ وقد استخدموا فى المحطات المحتاجة إليهم ، وأن نيته قد اتجهت إلى أن يعين نحو ٢٠ تلميذا ـ بعد أن يتعلموا الهندسة والحساب فى بضعة أشهر ـ فى بواخر الحكومة ، لكى يتعلموا فن هندسة البواخر . وفوق هذا كله فإن الأمر يحتاج لأطباء «لأن الأطباء فى السودان قلة ، والموجود منهم أصبحوا عاجزين وأشرفوا على الكهولة . وقد كنا طلبنا نحو عشرة أطباء إلا أن مجلس الصحة لم يصرح بإعطاء هذا العدد القليل من الأطباء . ولذلك أخذنا عشرين تلميذا لتعلم علمى الطب والصيدلة أسوة بالتلاميذ الذين يخصصون لتعليم العلوم والصناعات الأخرى ، خصوصًا أن الصاغ الطبيب محمد سكرى أفندى طبيب المستشفى العام بالخرطوم ، المتخرج فى فرنسا ، قد تعهد بتعليم هؤلاء التلاميذ يوميا ، وتدريس كتب الطب الأفرنجية والعربية لهم تعليمًا جيدًا فى مدة وجيزة . وقد شهد الأطباء الموجودين هنا بكفايته التامة لهذا العمل» .

وهذا الحماس البادى من مظهر باشا غير غريب على من يعرف نشاطه[4] فى السودان . ولكن المتحمس قد تخطئه الحكمة أحيانًا ، فيندفع إلى غايته متخطيًا فى تفكيره كثيرًا من

---

(١) نحن نفهم أن الخوجات التركى الذين أرسلوا من المحروسة كان مرتب الواحد منهم فى الشهر ألف قرش . وعلى هذا فهؤلاء الخوجات الذين صارت مرتباتهم من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ قرش لابد أن يكونوا من السودان . والغالب أن من بينهم بعض تلامذة رفاعة بك الطهطاوى الذين تعلموا فى مدرسته بالخرطوم ، والذين قال عنهم فى كتابه مناهج الألباب المصرية (ص٢٨٠) «والآن حين جددت الحكومة الأسعيلية عدة مدارس بالأقاليم السودانية توظف بها البعض من هؤلاء المتعلمين . ولابد أن يرجى نجاح تلك المدارس بداعى أن تأسيسها مبنى على الإخلاص فى النية وحسن الطوية» .

(٢) دفتر رقم ١٩٣٣ أوامر عربى . صورة الأمر الكريم رقم ٢ ص ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ . من الجناب العالى إلى حكمدار السودان .

(٣) محفظة ٤٧ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٥٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ ، من حكمدار السودان إلى مهردار خديو .

(٤) انظر ص ٤١٤ المجلد ٣ الجزء ١ من كتاب تاريخ حكم الخديو إسماعيل للمسيو ج . دوان G. Dowin تحت عنوان التعليم العام .

الصعوبات . ولهذا نجد الخديو إسماعيل ينبه الحكمدار إلى أن «الأطباء والصيادلة الذين يوكل إليهم الشئون الصحية يجب أن يكونوا حاذقين ومهرة فى فنهم . وغير خاف على سعادتكم أنه لا يمكن تخريج أطباء أكفاء فى مدة وجيزة ، وأن الأطباء المحتاج إليهم السودان على وشك[1] الانتخاب والإيفاد» . ويدرك الحكمدار رأى الخديو ، ويقتنع به ، ويأمل «أن يكون الأطباء المقرر انتخابهم بواسطة نظارة الداخلية أكفاء وكفاية» . ثم يستدرك فيقول : إن التلاميذ السودانيين الذين بدأوا فعلا تعلم فن الطب منذ شهرين سيمكنهم أن يعرفوا مبادئ الطب وكيفية عمل التلقيح (يعنى التطعيم) بالتمام فى مدة وجيزة ، قد لا تزيد فى كل حال على سنة[2] واحدة .

وقد ذكرنا أن اللغة التركية كانت إحدى المواد التى تدرس بتلك المدارس . ويظهر أن مدرسى هذه اللغة لم يبذلوا فى تعليمها العناية الكافية أو أن التلاميذ ـ لاسيما فى غير مدرسة الخرطوم ـ لم يقبلوا عليها . يدلنا على ذلك ما ذكره مدير عموم دنقلة وبربر فى خطاب إلى المعية السنية من أن الخوجة التركى الذى هو ناظر مدرسة دنقلة غير معتن بتدريس المادة ، وأنه مشغول بصيد السمك . ويقترح الاستغناء عنه . وكذلك الأمر مع مدرس اللغة التركية فى مدرسة بربر ـ المربوط له ألف قرش فى الشهر ـ «ليس حاصل منه ثمرة فى التعليم[3] ومرارًا يتنبه عليه بالالتفات ولم يحصل ثمرة» ؛ فالأولى أن يستغنى عنه أيضا ، ويكتفى بمعلمى اللغة العربية والقرآن . ويعرض الأمر على الأعتاب السنية فيصدر النطق بعدم ضرورة تعليم اللغة التركية لتلاميذ المدرستين المذكورتين والاكتفاء بتعليمهم مبادئ النحو[4] والحساب فقط .

وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة مهمة وهى أن سكان منطقة دنقلة لغتهم نوبية أى غير عربية . فأبناؤهم والحال هذه عجم ، يتعلمون العربية كلغة أجنبية تمامًا ، بينما الحال ليست كذلك مع تلامذة مدرسة بربر أو الخرطوم . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر فيما قاله مدير دنقلة وبربر من أنه عندما تفقد مدرسة دنقلة وجد بين تلاميذها من تقدموا فى السن وصارت

---

(١) دفتر رقم ٥٨٤ معية تركى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢ ص٥٨ بتاريخ ٢٣ شوّال سنة ١٢٨٧ (١٦ يناير سنة ١٨٧١) .

(٢) محفظة ٤٧ معية تركى . ترجمة الوثيقة التركية رقم ٨٧٤ بتاريخ غاية ذى الحجة سنة ١٢٨٧ . من حكمدار السودان إلى سهدار خديو .

(٣) جواب رقم ٤ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٢ ص٥٢ من الدفتر رقم ١٨٥٩ من دفتر قيد الإفادات الواردة من الأقاليم والمحافظات من عموم دنقلة وبربر إلى المعية السنية .

(٤) دفتر ١٨٥٣ معية عربى ص١٠ الوثيقة رقم ٣ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ .

أعمارهم تتراوح بين العشرين والثلاثين ومع ذلك لا يفهمون شيئًا فى النحو والصرف والتركى ، وفقط يفهمون شيئًا قليلاً فى العربى» . ومن أجل ذلك فرز منهم ٥٥ نفرا وأدلهم الجهادية ليكوّن منهم البلك[1] الرابع الذى أراد إنشاءه .

ويظهر أن السياسة التى كانت مفهومة ضمنا هى أنه كلما تقدم جماعة من تلامذة مدارس السودان فى التعليم ، وظهرت صلاحيتهم لأى عمل أو وظيفة ، أو أمكنهم الالتحاق بمدرسة من مدارس مصر فرزوا ووجهوا لما هم صالحون له . ففى عهد مظهر باشا جعفر عين منهم فى الدواوين ، ودرب بعضهم على التلغراف وهندسة البواخر ومبادئ الطب . . إلخ . وكذلك ألحق بالجهادية ٥٥ تلميذاً من مدرسة دنقلة ، كما رأينا .

وها نحن أولاء نجد الحكمدار ممتاز باشا يقترح «فرز» ١٠٠ شاب من الأهالى ـ من تلاميذ مدرسة الخرطوم ، أو من أولاد العساكر وخلافهم ـ ليرسلوا إلى المحروسة لتعليمهم[2] بمدارس العمليات الميكانيكية والزراعية . وبعد إتمام تعليمهم يعودون إلى السودان لتوزيعهم على ماكينات ودواليب حلج وكبس القطن المنشأة فى الجهات المختلفة بالسودان[3] . . . ويوافق الجناب العالى على الاقتراح ويرى «أنه لا مانع من إرسال المائة نفر المحكى عنهم إلى الداخلية ، من الشبان المنظور فيهم القابلية للتعليم ، ويؤمل فيهم النجابة . لأجل أنه بمعرفتها يجرى توزيعهم[4] على المدارس المذكورة للتعليم» وتصدر مكاتبة إلى ديوان الداخلية ليتولى توزيع هؤلاء التلاميذ عندما يحضرون إلى مصر[5] على المدارس الملائمة لهم . ويجىء التلاميذ إلى مصر ويقوم ديوان المدارس بتوزيعهم على مدارس القاهرة[6] والإسكندرية .

---

(١) الدفتر رقم ١٨٥٩ ص٥٢ الجوابات رقم ٤ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٢ .

(٢) دفتر رقم ١٨٥٩ معية عربى . صورة المكاتبة التركية رقم ١٨ ص٥٠ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٨٨ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية . ولمعرفة شىء عن مدرسة العمليات (راجع ص٥٠٢ ج٢ من كتاب تاريخ التعليم فى مصر عصر إسماعيل) .

(٣) كان ممتاز باشا مهتما بزراعة القطن المصرى فى السودان فنشر زراعته فى جهات مختلفة وأنشأ له محالج ومكابس قريبة من حقوله (ص ٥٩ ج٣ من تاريخ السودان لنعوم شقير) .

(٤) دفتر رقم ١٨٥٣ معية عربى . صورة المكاتبة العربية رقم ٧ ص ٣٤ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان .

(٥) دفتر رقم ١٨٥٢ معية تركى صورة المكاتبة العربية رقم ١٩ ص ٨٣ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية إلى ديوان الداخلية .

(٦) دفتر رقم ٤٥٠ مدارس عربى ص ١٣٩ رقم ٤٢ إلى الداخلية فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ .

وقد جرت العادة منذ العقد السابع من القرن التاسع عشر أن تنشر الوقائع المصرية نتيجة إحصائية للمدارس الملكية ، والمكاتب الأهلية ، كما هى واردة إلينا من ديوان المدارس . ونحن نجد فى العدد نمرة ٤٩٩ بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٩٠ إحصاء لتلاميذ كل مدرسة . ومن بين المدارس الأميرية تذكر مدرسة كردفان وبها ٢٧ تلميذا[١] . وفى نفس العدد من الوقائع نجد إشارة إلى أن تلاميذ المدارس الأميرية «يتعلمون ، فضلاً عن العلوم المختصة بكل مدرسة الجارى تدريسها باللغة العربية اللغات الأورباوية . وهى الفرنساوية ، والإنكليزية ، والنمساوية ، والطليانية ، بحسب رغبة كل تلميذ فيما يروم تحصيله منها» . وأرى أن تعلم اللغات الأوروبية كان مقصوراً على المدارس بمصر ، ولم تعلم بمدارس السودان لغات أوروبية ، اللهم إلا الخرطوم ؛ فقد كانت اللغة الفرنسية تعلم بها ، كما سنبين ذلك بعد[٢] .

وتعلن الوقائع المصرية[٣] نتيجة امتحان المدارس الأميرية والمكاتب الخيرية وتظهر نتيجة مدرسة الخرطوم ، فإذا الذين تقدموا للامتحان ٢٦ تلميذاً نجحوا جميعا ، ومنهم ١٥ نجحوا بدرجة «أعلى» ، و١٠ بدرجة «عال» ، وواحد بدرجة وسط .

ونستطيع أن نقول اعتماداً على ما بأيدينا من وثائق إن امتحان التلاميذ كان شفهيًا وعمليًا ، بحضور علماء البلد وكبار موظفيها ؛ كالمدير والقاضى وأساتذة المدرسة . وكان التلميذ يعد شيئًا قبل الامتحان ـ أو يُعَد له ـ كخطبة أو قصيدة . ويمتحن عادة فى الدروس التى تعلمها . وكان الخط يمتحن فيه تحريريًا وتوجه إليه عناية كبيرة . وقد نشرت الوقائع المصرية[٤] مقالة للشيخ محمد أحمد هاشم ناظر مدرسة بربر ومدرسها العربى . ومنه نفهم أن رئيس الامتحان كان قاضى المديرية ـ الشيخ حسين المجدى ـ وكان معه آخرون من أعيان المديرية «ومنذ استقر المجلس بأهله ، وانضم كل إلى جنسه وشكله ، آن وحان وقت الامتحان لمعرفة ما اكتسبه التلامذة من الآداب والعلوم ، وما حصلوه من المنطوق والمفهوم . فامتحنهم فى الكراسة وبعضها ذوو العرفان .

---

(١) الرأى عندى أن هذا العدد يمثل الفصل النهائى فى مدرسة كردفان أى التلاميذ الذين تقدموا للامتحان النهائى .

(٢) راجع عهد توفيق والثورة المهدية فى هذه الرسالة .

(٣) نمرة ٥١٦ بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ (٢٥ يوليه سنة ١٨٧٣) .

(٤) نمرة ٦١١ بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢ (٢٠ يونيه سنة ١٨٧٥) .

فكان أول متقدم إليها تلميذ يدعى محمد حسين بركارة . فسألوه فأجاد ، وأتى بالسداد . من بعد أن ألقى مقالة سنية ، تلقوها منه بكمال القبول وغاية الممنونية . . . ثم أعقبها بقصيدة نونية من إنشائه ، مثنيًا على ذلك الجناب العالى ، شاكرًا لآلائه» . . . وتستمر المقالة فى وصف حفل الامتحان ، وذكر أسماء المتقدمين والناجحين وعددهم عشرة «وبالفراغ شكرهم جميع من حضر . وأثنوا على ما أتوا به من الفكر . حيث وجدوهم ما بين معرب وحاسب ، وقارئ وفقيه ، وشاعر وعروضى وكاتب . وحرروا جدولاً بدرجاتهم الامتحانية . وأرسل بتحقيق ما اكتسبوه من الفنون إلى الحكمدارية فصدر أمرها بنقل عشرة تلامذة ممن برعوا إلى أقلامها لاستيفاء الأصول الخطابية والكتابية» . ومن بقية المقالة نفهم أن أولئك الناجحين كانوا قد أمضوا فى المدرسة ثلاث سنوات ، وأن زملاءهم الذين نجحوا فى الامتحان من قبل قد عينوا فى مصلحة السلك (التلغراف) .

وإذًا فقد نجحت هذه المدارس المؤسسة بالسودان ، وأدت وظيفتها . وكان يؤخذ من تلامذتها من احتاجت إليهم مصالح الحكومة .

وتستمر المدارس الخمس فى رسالتها ، ويضيف إليها الخديو مدرستين أخريين إحداهما فى مصوع[1] ، والثانية فى سواكن ، وذلك أن المسيو منسنجر ـ محافظ شرقي السودان وسواحل البحر الأحمر ـ كان فى الحضرة الخديوية ، فبحث موضوع هاتين المدرستين ، وتقرر أن تكون مواد البناء من تلك الجهات ، ولا يرسل من المحروسة إلا صنف الكرسنة (نوع من الخشب) ، وأصدر الجناب العالى لمنسنجر بك التنبيهات اللازمة لفتح هاتين[2] المدرستين .

هذا ، ومن نص المعاهدة التى عقدت بين الحكومة المصرية والحكومة الإنجليزية بشأن إبطال تجارة الرقيق[3] يجب إدخال من يحررون من أطفال الأرقاء فى المدارس المناسبة لهم إن كانوا ذكورا ، أو إناثا . من أجل هذا أسس محافظ شرقى السودان وسواحل البحر الأحمر مدرسة لمن

---

(١) دفتر صادر الدواوين بديوان الداخلية جزء أول من ابتداء ١٨ رجب سنة ١٢٩٠ ص٤٢ رقم ١١ بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٠ . من الداخلية إلى خيرى باشا .

(٢) دفتر رقم ١٥٤٩ أوامر شفاهية . صورة المكاتبة العربية رقم ٤٢ ص ١٣ فى ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٠ .

(٣) ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ . انظر الوقائع نمرة ٧٣١ بتاريخ ٤ شوّال سنة ١٢٩٤ .

حرروا من العبيد وكان عمرهم أقل من عشر سنوات فى ضيعة[١] سواكن ، والسر فى تأسيس مدرسة خاصة بهم مع وجود مدرسة أخرى يمكن أن يدخلوها أن أولياء الأمور الأحرار من التلاميذ كانوا يأنفون أن يتركوا أولادهم يجالسون الأرقاء . وتستمر المدارس فى عملها ولا نسمع شيئاً عن مدرسة سنار إلا عرضا فى وثيقة من حكمدار السودان إلى المعية السنية بشأن تعيين مدرسين هما الشيخ على والشيخ ميرزا حسين - وهما فارسيا الأصل - لتعليم التلاميذ الخط ، لأجل تعيشهم لكونهم فقراء جدا ، ولمناسبة أنه لم يوجد من يحسن الخط مثلهم ، ويكون أحدهما بالخرطوم ، والثانى بمدرسة سنار[٢] ، ويصدر الجناب العالى أمره بالموافقة على تعيينهما بالمدرستين[٣] المذكورتين .

ونحن ، وإن لم نسمع شيئًا كثيراً عن مدرسة سنار ، ليس لدينا من الأدلة ما يشير إلى أنها كانت أقل نجاحا من غيرها من مدارس الحكومة بالسودان .

ثم نجد السودان قد اتسعت رقعته ، وامتدت أطرافه بضم دارفور وفتح أعالى النيل وضم مديرية خط الاستواء ، وتزداد الحاجة للموظفين بمصالح الحكومة من كتاب إلى تلغرافجية ، إلى أطباء ، وينشط الحكمدار فيطلب الموافقة على فتح مدرستين لتعليم فن التلغراف إحداهما فى الخرطوم والأخرى فى كسلا ، ويؤيد هذا الطلب مدير مصلحة السكة الحديد[٤] .

كذلك لا تسعف المحروسة بإرسال الكتبة اللازمين لأعمال الحكومة بالسودان ، ولعدم لياقة أغلب من يرسلوا منها لتلك الجهات يرى الحكمدار «استنساب وإرسال أربعة أو خمسة كتبة من المحروسة بحيث إنهم يكونوا مستعدين ومستدركين فى الأشغال الحسابية ، ويجرى إرسالهم للحكمدارية لأجل اقامتهم هناك ، وتعليم فن الكتابة والحساب بمعرفتهم للتلامذة ، ومن يوجدوا من فقهاء السودان الذين يكون لهم رغبة فى ذلك ، حتى إن كل من حصل منهم على

---

(١) دفتر رقم ١٨٦٤ صورة المكاتبة العربية رقم ٢٥ ص ١١٥ بتاريخ ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٩٠ كذلك انظر الوقائع المصرية نمرة ٥٧٣ فى١٣ رجب سنة ١٢٩١ . (٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤) .

(٣) دفتر ١٨٧٥ معية عربى صورة المكاتبة ٦٥ ص ٣ فى رجب سنة ١٢٩٠ .

(٤) دفتر ١٩٤٨ أوامر عربى صورة المكاتبة العربية رقم ٤ ص٤ بتاريخ ١٧ شعبان سنة ١٢٩٠ .

(٤) المكاتبة الصادرة من المعية السنية إلى حكمدار السودان ص ٦٩ بتاريخ ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩١ ، دفتر ١٨٧١ معية عربى ص ٦٩ . كذلك دفتر ١٨٧٠ معية عربى صورة للكاتبة رقم ٤٢ ص ٧٩ بتاريخ ٢٨ صفر سنة ١٢٩١ .

الاستعداد[1] يصير إلحاقه بالجهات ، التى بها نقصان فى الكتبة» . ويتم تنفيذ هذا الاقتراح ، ويرسل الكتبة الخبراء إلى السودان .

ويستمر نشر التعليم فى السودان ، ويستمر معه تقدم البلاد وإصلاحها والعمران وملء وظائف الحكومة بالسودانيين الصالحين ، وتستمر المدارس مفتحة الأبواب تعلم وتهذب ، ويزداد عددها سنة بعد سنة ، كما رأينا ، بالرغم من اضطراب الحال المالية فى مصر ، وقيام رقابة أجنبية شديدة على الإيراد والمنصرف . ومن المدارس التى توج بها عهد إسماعيل بالسودان مدرسة للطب هناك ، وإن لم تفتح إلا فى عهد توفيق[2] .

وقبل أن نختتم هذا العهد الماسى ، عهد إسماعيل ، نسجل هنا أن هذا الخديو العظيم قد وهب من الذكاء ، وبعد النظر ، وفهم دقائق الأمور ، ما جعله يبنى للمستقبل ، ويستهين بالمال فى سبيل الإصلاح والتعمير ، وأن السودان لم يحظ فى عهد من عهوده باتساع فى الرقعة ونمو فى الإصلاح ، كما حظى فى عهد إسماعيل ، وأن إسماعيل الطموح الذى كان يطفو ببعض اصلاحاته فى مصر كان يستعمل من الإناة والحكمة فى مشروعاته الإصلاحية بالسودان ما يجعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنه كان فاهما لنفسية الشعب السودانى ، وإنه كان يقدم له من أنواع التعليم ما يتناسب مع هذه النفسية ، وإنه نجح فى كثير من محاولاته .

وسنرى ما آلت إليه مؤسسات إسماعيل فى أول عهد توفيق ، وعند ما قامت الثورة المهدية .

■■■

---

(١) دفتر رقم ١٧ معية عربى . صورة المكاتبة رقم ١٤ مرور ص ١١٢ فى ٧ شوّال سنة ١٢٩٣ . من حكمدارية السودان إلى المعية السنية . وكذلك دفتر رقم ١١ معية صادر . صورة المكاتبة رقم ٩٣ ص ١٦٦ من المعية السنية إلى الداخلية . وأيضا دفتر رقم ١٤٧ بتاريخ ١٢ شوّال سنة ١٢٩٣ (٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧٦) .

(٢) انظر الوقائع المصرية رقم ٨٢٣ بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٦ (١١ أغسطس سنة ١٨٧٩) .

عهد توفيق
والثورة المهدية

استمرار التعليم فى السودان
بقوة الدفع السابقة

لم يكن توفيق يتوقع أن يصير خديو مصر قبل وفاة أبيه . ولكن الأقدار ساقت إليه الحكم فى ظروف غير مشجعة ، ظروف كانت فيها مالية البلاد تحت إشراف صندوق الدين ، وكانت المصاعب تحيط بالبلاد من كل جانب ؛ فالخزينة خاوية ، والجيش معتل النظام ، والأهلون ساخطون . ولم يكن لتوفيق من الدهاء والحكمة والعزم ما كان لوالده ، ومع هذا كان محبًا لبلاده لا يدخر وسعًا فى العمل على إسعادها .

ولم تكن الحال فى السودان بأسعد منها فى مصر . وقد وجه توفيق عنايته لتلك البلاد . وعبر عن هذه العناية فى الفرمان الذى أصدره بتعيين رءوف باشا حاكمًا عامًا ، وحثه على اتخاذ الوسائل والأعمال المؤدية لنجاح الحكمدار فى مهمته وهى «تقدم وانتظام أحوال مملكة واسعة مثل السودان ، وبذل ما يجب من المساعى للوصول إلى توطيد أسباب عمارتها ، وتمدن ورفاهية أهاليها ، بتوسيع نطاق دائرتى التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منابع الثروة»(١) . ثم يوصى الخديو الحكمدار فى هذا الفرمان بالعناية بأربعة أمور هى :

١ ـ مالية السودان وتنظيمها .

٢ ـ نظام الإدارة وإجراؤها بحيث تلائم أحوال تلك البلاد ، سواء أكانت شرعية أم مدنية .

٣ ـ تنظيم وإصلاح الحالة العسكرية لتوطيد الأمن والنظام فى أنحاء البلاد كافة .

٤ ـ منع تداول بيع الرقيق .

---

(١) أمر عال صادر إلى سعادة تلو رءوف باشا حكمدار السودان فى ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٧ الوقائع نمرة ٨٦٦ بتاريخ ١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٧ – ٢٤ مارس سنة ١٨٨٠ .

وقد أقبل رءوف باشا على واجبه بعزم وإخلاص . فهو يكتب للخديو تقريراً يشرح فيه رأيه فى إصلاح أحوال السودان ، ويذكر أنه «بوصوله إلى بربر وجد الأهالى يشكون من الفقر بسبب تحملهم ما لا طاقة لهم به من كثرة المالية المقررة على سواقيهم ، وتعدى الحكام عليهم . ويرى[1] تخفيف الأموال» ، وهو يذكر فى تقريره أيضا أن إرهاق الأهالى بالأموال ترتب عليه تشتتهم ، وعدم ثباتهم بأوطانهم ، مع أن غاية القصد هى «عدم وقوع مثل هذا ، واستمرار رفاهيتهم ، وتقدم عماريتهم ، وركوزهم بأوطانهم ، وعدم حصول زعزعة أو نفور لأحد منهم . وقد تراءى فى أن الوساطة فى الحصول على مال الميرى بسهولة وتجمع شتات الأهالى المتفرقين ، ونمو المزارع ، وتكاثر الإيرادات ، الترخيص برفع قيمة ربع المالية[2] على جهات السودان» .

وتجيب نظارة المالية على هذا التقرير بأن «جل متمنى جميعنا هو رفاهية الأهالى وتقدمهم وعمارتهم ، وأن سعادة الحكمدار يستطيع عمل الترتيب اللازم لأنواع الإيرادات والمصروفات بما يحقق إسعاد[3] الأهالى ، ويرسل بذلك للمالية» .

وإذاً فلم يكن لتغيير الخديو ـ حاكم مصر ـ أثر فى الهدف الذى نصب بشأن السودان ، وهو إسعاد الأهلين ورفاهيتهم . ويبادر الخديو فيصدر أمره إلى الحكمدار «بتخفيف الضرائب والعفو عن فوائدها المتراكمة عليهم سنين طويلة» حتى تطمئن قلوبهم ، وتتألف نفوسهم[4] .

هذا ما كان من أمر الضرائب وتخفيفها ، أما التعليم فقد استمر ـ كما ذكرنا ـ فى أول عهد توفيق يسير بقوة الدفع التى بدأ بها فى عهد إسماعيل . وها هى ذى الوقائع المصرية تطلع علينا بخبر فحواه أنه قد «أنشئت فى جهة السودان مدرسة طبية لتعليم التلامذة الفنون الطبية فيها . فاحتاج الأمر إلى معلم يعلم التلاميذ فن الكيمياء والطبيعة . فطلبت حكمدارية السودان تعيين أحد المعلمين لذلك . فعين لهذه الوظيفة رفعتلو السيد أفندى نعيم الإجزائى . حيث إن له دراية تامة بذلك . وتحرر للمالية بصرف ما يلزم له من الترحيلة[5] وأثمان الكتب» .

---

(١) الوقائع المصرية ٩٢٢ فى ٢٢ رمضان ١٢٩٧ (٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٠) .

(٢) نفس التقرير المشار إليه .

(٣) الوقائع المصرية نمرة ٩٢٢ بتاريخ ٢٢ رمضان سنة ١٢٩٧ (٢٨ أغسطس ١٨٨٠) .

(٤) الوقائع المصرية نمرة ١٢٣٧ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ (١٧ أكتوبر ١٨٨١) .

(٥) الوقائع المصرية نمرة ٨٢٣ بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٦ (١١ أغسطس ١٨٧٩) .

وإذا علمنا أن تولية توفيق كانت فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ اتضح لنا أنه لم يمض عليه خمسة أيام حتى ظهر هذا الخبر فى الوقائع . وليس من المعقول أن يكون أمر تأسيس هذه المدرسة قد قرر فى عهده بل لابد أن يكون قد تم ذلك فى عهد إسماعيل ، وإنما ظهر التنفيذ فى عهد توفيق . ونحن نذكر أن تأسيس مدرسة طبية فكرة قديمة قد حاول جعفر باشا مظهر إخراجها إلى حيز الوجود[١] فلم يتمكن . ولكنها قد صارت حقيقة بعد ذلك .

أما المدارس التى كانت قد افتتحت فى عواصم المديريات فقد ظلت تعمل كما كانت من قبل ، ولم يؤثر عليها خلع خديو وتنصيب غيره . وتنشر[٢] لنا الوقائع المصرية وصفا لامتحان مدرسة الخرطوم ، وأنه فى يوم الاثنين الموافق «١٨ شعبان سنة ١٢٩٧ قد انعقد مجلس عظيم ، ومحفل فخيم . تحلى عقد نظامه بسعادة الباشا الماجد ؛ وكوكب العدل المتصاعد . حضرة محمد باشا رءوف حكمدار عموم السودان ، وجملة من العلماء الأعلام ، والذوات الفخام ، ورؤساء المجالس المعتبرين ، وقناصل الدول المحتشمين . وبعض الضابطان العظام ، من الجهادية الكرام . وبمحضر تلك الحفل العظيم الجليل الشان ، قد صار إجراء عملية الامتحان . فأبدى نجباء تلامذتها ، ما دل على يمن وسعود الحضرة الفخيمة الخديوية ، من نفائس علم العربية ، وأحاسن اللطائف الأدبية . ومحكم الصناعة الإعرابية ، ومتقن القواعد الحسابية . وقد تلى اثنان منهم - أحدهما محمد نور إبراهيم ، والثانى حسن على أغا - مقامتين حريريتين فأبانا عما ينشرح له الصدر ، وتقر به العين» . ومن وصف الامتحان ومحفله يتضح لنا أنه كان علنا ، وأنه جمع نخبة القوم وأعيانهم . وأن مواد الامتحان كانت اللغة العربية بفروعها ، من نحو لصرف لأدب (شعر ونثر) . والحساب ، وعلوم الدين . وكان الأساتذة والتلامذة ينتهزون فرصة هذا اليوم فيلقون المقالات ، وينشدون القصائد تسجيلا لمآثر ولى النعم ، وفضل الحكمدار . وفى هذا المقال الذى نشرته الوقائع إشارة إلى أن الحكمدار رءوف باشا قد عين الشيخ أحمد محمد الجداوى الأسوانى ، الذى كان قاضيا بعموم دارفور ، باشخوجة لمدرسة الخرطوم . وسنعرف بعد مصير هذا الشيخ .

---

(١) راجع الجزء الثالث وهو مجلد الملحقات .

(٢) نمرة ٩٣١ بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٢٩٧ ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٠ .

وكذلك تنشر الوقائع[1] المصرية فى السنة التالية وصفا لحفل الامتحان الذى عقد فى ٢١ شعبان سنة ١٢٩٨ «كما جرت العادة المألوفة فى كل عام . فكان هذا الاحتفال جميل الهيئة جليل المنظر . حضره جمع غفير من رؤساء الحكومة الكرام ، ووجوه العلماء الأعلام ، وعدد كثير من الذوات الفخام . وتحلى جيد هذا المحفل بواسطة هذا العقد النضيد . سعادة محمد رءوف باشا حكمدار السودان» .

ومن حسن الحظ أن نجد من تلاميذ هذه المدرسة سودانيا لايزال حيا هو الشيخ محمود القبانى وقد تحدث إلىّ طويلاً عن هذه المدرسة[2] . واقتبس هنا ما ذكره عن حفل هذا الامتحان .

«كان أول امتحان شهدته سنة ١٢٩٨هـ . وكنت فى السنة الأولى . واستمر الامتحان نحوا من عشرة أيام . وقد حضر هذا الامتحان الحكمدار رءوف باشا ، والتف حوله عدد كبير من الموظفين العظام . وكانت الموسيقى تصدح أثناء الامتحان . وقد بدأت بالسلام الملكى . ثم قدم للحاضرين القهوة والشربات . وتقدم بعد ذلك اثنان من التلامذة وأنشدا قصيدة رائية من نظم الباشخوجة الشيخ الجداوى . وكانت القصيدة رائية[3] ومطلعها :

بشموس أشرقت الدار   أم لاحت فيها أبدار

ومنها :

وإلى نجليه[4] : أبادير   وحسين طالت أعمار

ويديم سعادة باشانا   ويبلغه ما يختار

وبعد إنشاء القصائد وقف الحكمدار وأثنى على همة الناظر والخوجات ، وفتش على صفوف التلاميذ وانصرف . ثم تشكلت لجان للامتحان ، لجنة لامتحان العربى ، ولجنة لامتحان الفرنسى ، ولجنة لامتحان الحساب . وكان فى هذه اللجان ضباط وموظفون . وكان الممتحنون لا

---

(١) نمرة ١١٩٤ بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ١٢٩٨ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٨١ .

(٢) راجع ملحق الروايات الشفهية بالمجلد الثالث . ويقول الشيخ محمود القبانى أنه ولد سنة ١٨٧٣م .

(٣) يتفق هذا مع ما نشرته الوقائع المصرية رقم ١١٩٤ التى أشرنا إليها .

(٤) يشير إلى نجلى رءوف باشا وكان اسم أحدهما أبادير واسم الثانى حسين .

يذهبون لبيوتهم للغذاء بل تقدم لهم موائد عليها الخراف ، والديكة ، والحلويات طول مدة الامتحان .

وتقدمت للامتحان ، فامتحنونى شفهيًا . وكان كل الامتحان شفهيًا ، والحساب على السبورة ، والخط فى كراسة للخط تسمى «غرلة» . وكنت قد اجتزت الامتحان بتفوق فى الفرنسية والعربية والحساب . ولكن لم يكن حظى جيدا فى الخط لضعف فى يدى . فأرادوا أن يسقطونى فى الامتحان . وكان الفائز إذا خرج يعرف بضرب الموسيقى . واستمر هكذا الامتحان» .

أما المدرسة نفسها ، موقعها ونظامها ، وبرنامج الدراسة فيها فقد عثرنا على القليل مما يشرح هذا كله . فقد كانت المدرسة أولا فى منزل أحمد[1] بك أبو سن زعيم الشكرية ومدير مديرية الخرطوم . ثم نقلت إلى بناية الاسبتالية[2] الأميرية وموقعها فى الجنوب الغربى من بناية كلية جردون الحالية . وكان ناظر المدرسة فى أيام تلمذة محمود القبانى[3] يسمى اليوزباشى حسين طه خليل أفندى وهو من مديرية البحيرة . ومن المدرسين الباشخوجة الشيخ أحمد الجداوى الأسوانى والشيخ محمد إبراهيم عبدالدافع بن الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى السودان من عهد الفتح المصرى . وكان يدرس الحساب . والشيخ على التمرجى يدرس الخط وهو من أصل مصرى مولود فى الخرطوم . ومدرس اللغة الفرنسية السيد أفندى نعيم الذى كان صيدليا لعموم السودان . وهو إسكندرى الأصل وقد تخرج فى معاهد باريس[4] . وكان يتبع هذه المدرسة «خلوة» من فصلين لتعليم القرآن وكان أولاد الخلوة داخلية . وبها فقهاء هم الشيخ على طلبه وهو فقيه مصرى ذو صوت جميل . والشيخ بكرى الجرجاوى ، والشيخ محمد عبد القادر التربى من نسل مصرى ومولود فى الخرطوم .

---

(١) هذه هى رواية الشيخ القبانى ، كما نشرت فى مجلة مرآة السودان . العدد السادس ديسمبر سنة ١٩٣٩ . ولا ندرى أين كان منزل أحمد بك أبو سن .

(٢) انظر خريطة الخرطوم فى تاريخ السودان لنعوم شقير . وفيها موقع الاسبتالية الأميرية .

(٣) هكذا رواية الشيخ المذكور . راجع الملحق .

(٤) لم أعثر على هذا الاسم بين طلبة البعثات الذين ذكر أسماءهم الدكتور عزت عبد الكريم فى كتابه تاريخ التعليم فى عهد إسماعيل ولا فى العهود السابقة له . ونحن نعرف السيد نعيم هذا الذى عين لمدرسة الطب بالخرطوم ليدرس الكيميا والطبيعة . ولعل هذه المدرسة لم تفتح مطلقا (انظر ص ٣٩١ من هذا الجزء) .

وكانت المدرسة نفسها قسمين : قسم «براني» يدفع مصاريف قدرها ريال مجيدى عن كل شهر (وهو ١٦ قرشا) وقسم داخلى ونظامه عسكرى . وكان يصرف للتلامذة أكل وملابس ومرتبات عسكرية . وكانت أعمارهم تتفاوت من ١٨ إلى أكثر من عشرين سنة . ويتعلمون مجانًا .

وكان الداخلى والبرانى يتعلمون فى فصول واحدة مشتركة ، ويتلقون نفس المواد إلا اللغة الفرنسية فقد كانت اختيارية للقسم البرانى . وكان عدد تلاميذ القسم البرانى أكثر من ٣٠٠ وتلاميذ القسم الداخلى نحو ٢٠٠ ، وكان التلاميذ يجلسون على الأرض أثناء الدروس ويكوّنون أربعة فصول . أما فى دروس الفرنساوى فكانوا يجلسون على مقاعد وأمامهم مكاتب . وكانت المواد التى تدرس لهذه المدرسة هى اللغة العربية والحساب والفرنسية اختياراً والتركية . ولم يعلم فيها[١] القرآن . وكان يعنى بالخط الرقعة والفارسى عناية شديدة . ويسقط من لم ينجح فيهما . وهذا طبيعى لأن هذه المدرسة كانت تعد بعض التلاميذ ليكونوا كتبة . ومن شروط الكاتب أن يكون جيد الخط .

ومن الوصفين اللذين وردا فى الوقائع المصرية لحفل الامتحان ومن رواية الشيخ محمود القبانى نفهم أن مدرسة الخرطوم كانت تقوم بوظيفتها حتى سنة ١٨٨١ ، وهى السنة التى صدرت فيها الوقائع تصف أحد احتفالات الامتحان . ولدينا من الرقائق ما يثبت أن مدرسة بربر كانت عامرة حتى شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٨ (أكتوبر سنة ١٨٨١) فقد نشر فى الوقائع المصرية الصادرة فى هذا الشهر «من حضرة ناظر وخوجة[٢] عربى مدرسة مديرية بربر رسالة مطولة من إنشاء حضرته ، أثنى فيها على الجناب الخديو المعظم بما هو أهله» ومعنى هذا أنه بينما كانت الدعوة المهدية قد أخذت تظهر كانت مدرسة الخرطوم ومدرسة بربر ـ وكذلك مدرسة كردفان ـ مفتوحة . ولا ندرى شيئًا عن المدارس التى أسست فى المدن الأخرى .

ويكاد يكون من المحقق أن مدرسة كردفان بقيت تعمل إلى حصار الأبيض وسقوطها فى ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ ، ذلك لأن التقرير الذى وضعه اللفتننانت ستيوارت بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٣

---

(١) هكذا يقول الشيخ محمود القبانى فى روايته بالملحق .

(٢) انظر الوقائع المصرية نمرة ١١٧٢ بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٨ الموافق ٢٤ يوليه سنة ١٨٨١ ، وكذلك نمرة ١٢٢٤ بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١٨٨١ . والناظر صاحب المقالتين هو بعينه الشيخ محمد أحمد هاشم الذى سبقت الإشارة إليه .

عن حال السودان جميعه ، ينص على أنه كان بمديرية كردفان (الأبيض) مدرسة حكومية ، وأن مصاريف هذه المدرسة[1] بلغت ٣٩٨٠ قرشا فى الشهر الواحد ، أى نحوا من أربعين جنيها . فإذا فرضنا أن هذا التقرير وضع عن السنة السابقة لتاريخ تحريره ، كان معنى هذا أن مدرسة كردفان ظلت مفتوحة حتى سنة ١٨٨٢ ، أى حتى الثورة المهدية ، وانتشارها فى كردفان .

وقد حدثنى الشيخ محمود القبانى[2] فقال : «إن مدرسة الخرطوم استمرت حتى الثورة المهدية ، وحتى سقوط الخرطوم فى يناير سنة ١٨٨٥ ، وقد قتل أثناء هذا السقوط ناظر المدرسة والشيخ التمرجى وكذلك السيد نعيم . أما الشيخ محمد إبراهيم عبد الدافع فهجر الخرطوم فى وقت الحصار . والشيخ الجداوى كان قد هاجر إلى مصر قبل الحصار بزمن وجيز ، وخلفه فى وظيفته الشيخ حسين المجدى الدمياطى الأزهرى وقد قتل عند فتح الخرطوم .

ومما سبق نستنبط أن المدارس التى أسسها إسماعيل فى السودان قد استمرت تؤدى رسالتها إلى أن أغلقت وشرد تلامذتها ، وقتل مدرسوها أو هربوا أثناء الثورة المهدية .

هذه هى الحقيقة التى وصلنا إليها ، وهى تختلف عما ذكره الدكتور عزت[3] عبد الكريم من أن مصير هذه المدارس لا يعلم على وجه التحقيق وعما ذكره سير هنك[4] باشا من أن جردون باشا ـ عندما عاد إلى السودان فى سنة ١٨٧٧ حكمدارا عامًا ـ أقفل هذه المدارس «بدعوة أنها تكلف الحكومة المصرية نفقات طائلة لا وجوب لها . . . وأمر أيضًا فأبطل إرسال الطلبة الناجحين بمدارس الحكومة بالخرطوم إلى مصر» وقد رأينا كيف أن هذه المدارس استمرت مفتوحة حتى بعد أن استقال جردون باشا من حكمدارية السودان فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٩ لأن تواريخ الامتحانات التى أشرنا إليها كانت بعد مغادرة جردون باشا للسودان[5] فى المرة الثانية .

---

(١) انظر ص ١١ من تقرير Egypt No. 11 Report on the Sudan by Leu C1. D. H. Stewart.

(٢) أنظر مجلد الملحقات .

(٣) ص ٣٩٣ من تاريخ التعليم فى مصر (عصر إسماعيل) المجلد الأول .

(٤) حقائق الأخبار ص ٢٣٥ ج٢ .

(٥) لعله من المناسب أن نذكر هنا أن جردون لما ذهب للسودان لأول مرة مارس سنة ١٨٧٤ ووصل إلى الخرطوم واستقبله الحكمدار أيوب باشا كان من الأشياء التى أعجب بها الكولونيل الإنجليزى نظام المدارس الأميرية والمستشفى

(Sudan Notes & Records Vol. X, 1927, P. 4).

وإذاً فقد ظلت هذه المدارس الأميرية عاملة تنشر رسالتها حتى زالت بزوال النظام المصرى فى السودان أمام التيار الجارف ، تيار المهدية . ولم يكن لجردون أو غيره يد فى إقفالها .

وقبل أن نغادر التعليم الحكومى إلى التعليم الأهلى نسجل هنا أن الحكومة المصرية ، جريا على السنة التى اتبعتها من نشر الحضارة والعرفان فى السودان ، قد أنشأت فى عهد توفيق - وعلى يد أمين بك البروسى - (دكتور شنيتزر) مدرسة لتعليم أبناء الأهلين ، ومستشفى ومسجداً بمدينة اللادو ، عاصمة مديرية[1] خط الاستواء .

هذا ما كان من أمر التعليم الحكومى ، أما التعليم الأهلى فلم نعثر على شىء من الوثائق يوضح لنا نصيب الحكومة فى تشجيعه . والحقيقة أن سكان السودان الإسلامى من وادى النيل لم يكونوا فى حاجة إلى التشجيع المادى ليرغبوا فى العلم والتعلم ، لأنهم قوم - بحكم دينهم وتقاليدهم التاريخية - يشعرون بالحاجة إلى التعليم . والقرائن تؤيد أن نظام التعليم فى الخلاوى قد استمر بصورته التى كان عليها منذ ظهر وانتشر فى السودان[2] .

وقد حدثنى الشيخ با بكر البدرى ، ووصف لى الحياة العلمية فى الخلاوى والمساجد فى أواخر القرن التاسع عشر ، فإذا هى صورة لما نعرفه عنها من قبل ، وها هى ذى بعض الخلاوى ومساجد العلم التى كانت معروفة عند ظهور المهدية .

مسجد الفقيه أحمد بيوضه البرعى . . . . بالمليحة بالقرب من بارة

مسجد الفقيه عبد الله أبارو . . . . بالمليحة بالقرب من بارة

مسجد الفقيه بدوى أبو وصيفة . . . . بالقرب من الأبيض

مسجد الفقيه ولدسوار الذهب . . . . بالقرب من الأبيض

مسجد الفقيه القاضى عربى . . . . بالأبيض

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية (عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢) .

(٢) راجع مجلد الملحقات وفيه جزء من حديث لى مع الشيخ بابكر البدرى وهو من أهل السودان المسنين (عمره فوق الثمانين هذا العام ١٩٤٦) وصاحب وناظر مدارس الأحفاد الثانوية والابتدائية . وهو عصامى مخاطر له تاريخ كتاريخ الأبطال ذوى المشروعات النافعة .

مسجد السيد المكى . . . . بالأبيض

مسجد الفقيه ولد دوليب . . . . بالأبيض

مسجد الفقيه الضو . . . . بأبى غريرة

مسجد الفقيه محمد ولد دوليب . . . . بخرسى

مسجد الفقيه محمد عثمان فزع . . . . ببارة

مسجد السيد محمد عثمان الميرغنى . . . . بسواكن

خلوة الشيخ العبيد . . . . فى أم ضبان

منزل الشيخ الأمين الضرير . . . . فى أم درمان

خلوة الفقيه أحمد خليفة . . . . بالرباطاب

خلوة الفقيه أحمد المجذوب . . . . بالدامر

خلوة الشيخ المضوى[1] عبد الرحمن . . . . فى كركوج

مسجد الشيخ محمد خير[2] . . . . بالغبش

خلوة الشيخ القرشى . . . . باالحلاويين

خلوة الشيخ حسين الزهراء . . . . فى وادى شعير

خلوة الشيخ محمد شريف[3] نور الدايم . . . . أم مرحى بالقرب من الخرطوم

وغير هذه كثير من الخلوات والمساجد التى كانت عاملا من عوامل انتشار مبادئ الثقافة الدينية الضرورية بين العامة فى السودان .

---

(١) ورد فى تاريخ السودان ج٣ لنعوم شقير أن الشيخ المضوى هذا كان من ذرية إدريس ود أرباب . وأنه بعد أن أتم تعلمه بالخلوة ذهب للأزهر فدرس هناك ثم عاد للسودان ، وافتتح له خلوة للتدريس فى كركوج بأعالى النيل الأزرق واشتغل أيضا بالزراعة .

(٢) هو أستاذ المهدى .

(٣) نقيب (خليفة) الطريقة السمانية هناك بالسودان .

أما الإقبال على الأزهر ، والسفر للتلمذ على شيوخه ، فلا شك نشط وزاد بعد أن توافرت كل عوامل التشجيع من مسكن وجراية وأمن فى الطريق ، يؤيد ذلك ما ورد عرضا فى حديث للإمام الشيخ محمد عبده ، دار بينه وبين مندوب (بال مال جازيت) حينما كان[1] بانجلترا ، وكانت الثورة المهدية فى عفوانها ، وقد سأل المندوب الإمام : أليس السودانيون قوما متعصبون فكان الجواب : ليس السودانيون أكثر تعصبا منى ، فحينما كنت أعلم الفلسفة فى القاهرة كان كثيرون من الطلبة المصريون يخشون حضور دروسى ، بينما كان هناك أربعة وثمانون طالبا من السودان يحضرون جميعًا ليستمعوا إلى ، أنهم ليسوا متعصبين ، وفى مدينة رفاعة بالسودان لايزال حيًا الشيخ البشير نعمة ، وهو من تلاميذ الشيخ جمال الدين الأفغانى ومن زملاء الشيخ محمد عبده .

وإذاً فقد كان السودان يخطو إلى الإمام فى طريق العلم والعرفان ، ولكن بخطى وئيدة إذا قورن بمصر فى ذلك الوقت ، وخطى حثيثة إذا قورن ببعض الأمم الإسلامية الأخرى كتونس[2] مثلا أو بلاد العرب ، وكان لمصر الفضل الأول فى الدفع الثقافى بالسودان إلى الأمام سواء بطريق العلماء والمدرسين ، الذين كانوا يذهبون إلى هنالك ، أو بطريق السودانيين الوافدين على مصر للتعلم فى معاهدها ، ومصر بكل هذا لم تمن ولم تفاخر لأنها ـ وإن وفقت فى هذه الناحية ـ كانت تحمل أوزاراً ، وترتكب أخطاء شوهت جمال أعمالها ، وأبطلت حسن فعالها ، وقد نهض السودانيون يتخلصون مما كانوا فيه من إرهاق وسوء إدارة بالثورة المهدية .

---

(١) نشر الحديث بالعدد الصادر فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٨٤ .

(٢) ورد فى الوقائع المصرية نمرة ١١١٢ بتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ الموافق ١٥ مايو سنة ١٨٨١ على لسان كاتب تونسى ما يأتى : «إن سير العلوم والمعارف فى بلادنا بطيء ، إن لم نقل معدوم بالكلية . فإنه ليس عندنا من المدارس إلا المدرسة الصادقية التى لا يتجاوز تلامذتها المائة والخمسين . وهى مع ذلك ابتدائية أو شبيهة بالابتدائية . ولذا أرسل من طلبتها ثلاثة إلى الأستانة . ومثلهم أو أكثر منهم إلى باريس لتحصيل العلوم الرياضية . وتتميم الأدبية . ويا ليت حكومتنا أرسلت مثل ذلك العدد أو أضعافه إلى القطر المصرى . فإن أسباب التحصيل متوفرة فيه إلخ . . .

نعم قد لا تكون هذه الوثيقة كافية للدلالة على حال التعليم فى تونس ولكنها تشير على كل حال إلى أنه كان فى حالة دون الحالة فى السودان .

أما فى بلاد العرب فإن كتاب «مكة» لمؤلفه S. Hurgronje يفيد أن مركز العلم كان فى المدينة ومكة فقط ومعظم العلماء والمتعلمين هناك من غير أهل الحجاز .

إنه لمن الواضح أن لا تناقض بين تقدم البلاد ورقيها فى ناحية من نواحى حياتها ، وضعفها وتدهورها فى ناحية أخرى . فنحن نشاهد اليوم ، من بين الأمم المتحضرة ، ما فشت فيها الرشوة ، وسوء الإدارة ، وحب الذات ، والظلم ، وبالرغم من هذا نجد لهذه الأمة إنتاجها العلمى والأدبى بل وقوتها المادية . فإذا ما نظرنا إلى السودان فى ضوء هذه المقدمة ، لم نعجب لما ينكشف لنا من تناقض غريب . فالسودان ، ولا شك ، اتسعت رقعته ، ونهض ماديا وأدبيًا فى أواخر القرن التاسع عشر بسبب الحكم المصرى . والسودان صار معروفًا للعالم . وفتحت أمامه طرق التجارة والعرفان والتمدين ، بعد أن كانت مغلقة ، أو كان هو مغلقًا . ولكن إلى جانب هذا كله كان الناس متذمرين من سوء «الإدارة التركية» ، كما كانت تسمى ولاتزال كذلك ، والظلم والاضطهاد ، والاضطراب فى تنظيم الضرائب ، وفداحتها فى الغالب ، مما تمنوا معه «زوال هذه الحكومة التى سلطت عليهم من لا يرحمهم ، واستبدالها بأية حكومة أخرى» . نعم كانت الحكومة إسلامية ، ولكن ما يجرى فى ظلها لا يتفق مع الدين الإسلامى ، فقد كان الناس «بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم إلى التكالب على لذاذات الدنيا والانغماس فى الشهوات ، وبين فقير طحنه الإملاق والظلم ، ففقد زمام التجمل والصبر ، وانزلق على قلة ذات يده فى مهاوى الغواية والرغائب . . . وكانت قوانين الحكومة تحل شرب الخمر ، والغواية ، وتأخذ الضرائب الفادحة ولا تقطع يد السارق ، ولا تجبى الخراج والزكاة . إنها حكومة غير إسلامية ، إنها حكومة[1] الكافرين» . هكذا كان يقول دعاة الثورة المحرضون عليها . وقد وجدوا لذلك آذانًا مصغية سواء أكانت دعواهم حقًا أم باطلا .

وأهل السودان ، على تنور بعضهم وتثقفه ، كانوا لايزالون بسطاء القلوب ، سهل التصديق شأنهم فى ذلك شأن كل أمم العالم تنقاد العامة فيها لمن يتحدث إلى القلب والروح باسم الدين . وثمة كانت الظروف مواتية لأن يتبعوا زعيمًا منهم يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . وكان أقرب الناس إلى قلوب الشعب رجال الصوفية . وقد عرفنا سلطانهم ووظائفهم بين العامة

(١) ص ٣٥ - ٣٦ من كتاب مهدى الله لتوفيق البكرى .

والخاصة ، وقدرتهم على كسب الجماهير ، وشدة اعتقاد الجماهير فيهم . ولم يكن محمد أحمد المهدى أحد أولئك الصوفية المقلدين ، ولكنه كان زعيمًا ومصلحًا ومجددًا ، لا بل متزمتًا ثائرًا على كل البدع والمنكرات التى تقع أمام عين الحكومة وبصرها ، بل من رجال الحكومة أنفسهم . وإذاً فلا غرابة أن يثور هذا الرجل على الأوضاع القائمة ، لا يهمه فى ثورته أفراد أو هيئات . فهو رجل مؤمن بضرورة تغيير الحال ، وقوى فى إيمانه ، والأرض ممهدة لغرس بذور الثورة . وقد رفع صوته ووجد المستمعين والأتباع ، فهو يحث على «ترك الآثام الفاشية ، فلا خمر تشرب ، ولا غواية ترتكب ، ولا انزلاق فى الموبقات ، ولا لهو ولا مجانة فى حفلات ختان أو زواج ، ولا كذب ولا حسد ، ولا ترك لصلاة من الصلوات»[1] . ويجتذب الرجل قلوب الناس بصوته الجميل ، ووجهه الصبوح النورانى الجميل ، وكلامه الممتع الجميل . ويفد إليه الناس من كل فج عميق ، ويكثر أنصاره ويقوى رجاله ، فيسير بهم : ينشر الدعوة ويبسط السلطان . وقد نجح فى كل محاولة وأتى بالشبيه بالمعجزات ، وتغلب على الحكومة فى كل موقعة ، فدانت له منطقة النيل الأبيض ومديرية دارفور وكردفان . وقام رجاله بالثورات ضد الحكومة فى شرقى وشمالى السودان ، وأنبثت الأخبار تعلن ظهور هذا المهدى المنتظر الذى أعلن الجهاد ضد أعداء الدين ، والذى جعل شعاره ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ . ويتقدم المهدى ورجاله ، والنصر فى ركابهم ، ولا يقف فى سبيلهم حاجز أو حائل . لا بل إنه ليبعث بكتبه إلى ملوك الدول وأمرائها يدعو إلى الإسلام والرجوع إلى مبادئه وتتدفق إلى معسكراته الأسرى من الأعداء الأتراك والمصريين والسودانيين والأوروبيين المسيحيين ، ومنهم من أسلم كسلاطين باشا ، الذى تسمى بعبد القادر صلاح الدين ، ويسالمه من كان من قبل يناوئه من السودانيين ، كالشيخ محمد شريف نور الدايم شيخه فى الطريقة .

ويتقدم المهدى إلى أم درمان فيدخلها ، وإلى الخرطوم فيقتل الحكمدار جردون ، وتسقط المدينة ، ويزول ظل الحكومة القاهرة ، ويعلن النصر له ، والفوز لرسالته . وإذاً فلم يمض على هذه الثورة الدينية أربع سنوات حتى اكتسحت كل ما اعترضها ، وأزالت حكمًا كان فى نظر الثوار بغيضا آثما . واستقر صاحب الثورة مؤقتا لينظم أموره حتى يتخلص من البقية الباقية من

(١) ص ٣٧ من كتاب مهدى الله لتوفيق البكرى .

الأعداء ، ويستأنف جهاده في[1] سبيل الله . وقد كان يأمل أن يفتح مصر والشام والقسطنطينية ومكة وغيرها[2] . ولكن القضاء لم يمهله حتى يحقق آماله ، فقد أصيب بالحمى الخبيثة (الالتهاب السحائي الشوكي) ومات في ٤ رمضان سنة ١٣٠٢ (٢٢ يونيه سنة ١٨٨٥) .

وطبيعي أن يكون لهذه[3] الثورة - ككل ثورة في العالم - نتائجها المدمرة المخربة ، والمعطلة للأعمال والمرافق العامة . ألم يهاجم الثوار الفرنسيون الباستيل رمز الظلم والاستبداد ويستولوا عليه؟ ، وألم يهاجموا قصور الأشراف وممتلكاتهم[4] ويحرقوها أو يمتلكوها؟ . ألم يستول الشيوعيون على قصور القياصرة الروس وينهبوا ما فيها؟ ويقتلوا سكانها؟ أو يأسروهم؟ ألم يدخل الوهابيون مكة (سنة ١٨٠٢) والضريح النبوي ، وينهبوا كل ما فيه من الكنوز ، وينزلوا ما على الكعبة من ستائر ، ويحرموا لبس الحرير وشرب الدخان ، ويغلقوا جميع المقاهي؟ ، وألم يدمر الثوار بإسبانيا - في الحرب الأهلية الأخيرة - ما وقعت عليه أيديهم من ممتلكات أعدائهم؟ حتى لقد أحرقوا مكتبة الأوسكريال؟ إن الثوار مجانين . وهم في تعصبهم - سواء أكانوا على حق أم باطل - يدمرون إن استطاعوا كل ما يقاوم حركتهم ، أو يدعوا إلى غير رسالتهم . وطبيعي أن تقوم الحركة المهدية بتدمير أو تعطيل كل ما يتنافى مع رسالة زعيم هذه الحركة . لقد أعلن المهدي «تعاليمه الدينية مجتهدا ، مجدداً ، مصلحا ، مستندا في ذلك على الكتاب والسنة ، وحكم العقل البرىء من الضلالات والأوهام . فأبطل المذاهب الأربعة ، واستخرج منها مذهبًا اجتهاديًا جديدا ، وحد فيه تلك المذاهب ، فسوى ما بين بعضها البعض من خلافات ، وألغى بعضا منها وعاد بها سيرتها الأولى موحدة لا اختلاف فيها ولا تباين . ويسر العبادات كالوضوء والغسل ، وشدد في العقوبات ، فقطع يد السارق ، وجلد على المعصية وشرب الخمر . وجدد في المعاملات فنهى عن زواج البالغة بلا ولي ولا مهر ، وحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر ، إذا لم

---

(١) أنظر الجزء الأول والثاني من مناشير المهدي (مخطوطة وبالزنكغراف) .

(٢) ص ٣٤٥ ج٣ تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٣) إن الدارس لأسباب الثورات ليجد في الغالب أنها ترجع إلى اصطدام رغبات الشعب المتطورة الطموح برغبات الحكام الجامدين الأنانيين ؛ الذين يريدون استغلال الشعب لحسابهم ولمصلحتهم . فالثورة الفرنسية ؛ والثورة العرابية ؛ والثورة الروسية ، والثورة الإسبانية الأخيرة ، كل هذه الثورات أسبابها متشابهة في المبدأ ، وإن اختلفت في الشكل .

(٤) ص ٤٦ ، ٤٧ من الثورة الفرنسية لمحمد صبري .

يترك لها زوجها ما تنفقه فى حاجتها ، إلا إذا كانت غيبته فى موطن الجهاد[1] . . .» . وبالجملة جاء المهدى بتعاليم جديدة تتعارض مع ما كان قائمًا من تعاليم يدرسها وينشرها رجال الدين الرسميون وغير الرسميين . ومن هم رجال الدين؟ إنهم قوم مرتزقة يحلون الشىء عاما ويحرمونه عاما . وهم يراعون فى إفتائهم وأقوالهم رغبات الحكام وأغراضهم . وهم الذين قالوا ـ حينما سألهم رءوف باشا الرأى فى محمد أحمد ـ إنه قد حصل له جذب سماوى من انعكافه على الزهد والعبادة وحكموا جميعًا بوجوب القبض[2] عليه .

فلا عجب إذا أن يكون المهدى وأنصاره مبغضين للعلماء الذين لم يوالوه ، كارهين لهم ، يناوئونهم ويسومونهم العذاب إن قبضوا عليهم ، أو لاقوهم . ولا عجب أيضا أن يمنع المهدى دروس الفقه كما كانت من قبل ، ويأمر بحرق كتبها ، ولا يسمح لأحد بقراءة شىء غير القرآن ويحظر أن[3] يشرح .

وكان من غير الطبيعى أن يترك المهدى وأنصاره مدارس الأتراك الظلمة مفتحة الأبواب ، تعلم الدين الزائف والعلوم الدنيوية ومن غير الممكن ـ ونيران الثورة مندلعة فى كل مكان ـ أن يستمر التلاميذ فى ذهابهم للخلوات والمساجد يتعلمون العلم ، كما كانوا فى أيامهم السابقة . إن البلاد كانت أشبه بمرجل يغلى . وقد انتشر السلب والنهب فى بعض أجزائها ، وذعر الناس وصاروا يفرون من مكان لآخر طلبا للأمن . وتفشت المجاعة فى الخرطوم بصورة مريعة جدًا ، حتى إن كثيراً من السكان تورمت أطرافهم ، وصاروا لا قوت لهم إلا ورق اللوبية[4] ، بل وأكلوا الكلاب والحمير .

وإذًا فقد كان من نتائج هذه الثورة أن أقفلت المدارس والخلاوى ، وتعطلت دروس العلم وهرب أو اختفى من لم يوال المهدى من العلماء . وجمع المهدى حوله من العلماء ثلة يعتمد عليها فى

---

(١) ص ١١٣ ، ١١٤ من كتاب مهدى الله لتوفيق البكرى .

(٢) ص ١٢٨ ج٣ من تاريخ السودان لنعوم شقير .

(٣) ص ٩٥ السيف والنار تأليف سلاطين باشا وتعريب جريدة البلاغ . وكذلك ص١٧٨ وفيها يذكر المؤلف «أن المهدى أمر بأن تحرق كتب الفقه وتفاسير القرآن وأن تلقى فى النار» . ولا يخفى علينا أن المؤلف موتور .

(٤) ص ٢٨٧ من كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر تأليف إبراهيم فوزى .

نشر تعاليمه ، ونهج طريقه الجديد فى الإفتاء والقضاء . وبذلك ختمت صفحة من صفحات التعليم الدينى ، *كما كان معروفا فى القرن التاسع* عشر .

ولم يكن خليفة المهدى - عبد الله التعايشى - ليرجع عن تعاليم سيده . وهو الذى أيده ونصره ووقف بجانبه فى السراء والضراء ، وقدم نفسه ورجاله فداء لمبادئه الجديدة وسياسته الإصلاحية . غير أن التعايشى كان يختلف كثيراً عن المهدى . فالأول رجل حرب وخديعة ، ومكر ودهاء . وهو رجل دنيا وقوة وبطش . ولم يكن له من الدرس والتحصيل والعلم والتصوف نصيب . نعم كان رجلا عبقريًا جباراً ، ولكنه كان يستخدم عبقريته فى الانتقام من خصومه ، وإحكام الخطط لنجاح سياسته . وكان - كما تواترت الروايات - يكره العلماء ، ولا سيما إذا تعارضت آراؤهم مع سياسته . وهذا طبيعى مع كل سياسى له خطة يريد تنفيذها . وقد كان السلاطين والملوك يتخلصون من العلماء لمجرد اختلافهم فى الرأى . وإذا حكمنا على التعايشى بما وصل إلينا من الروايات المكتوبة والشفهية أمكننا أن نقول : إن الرجل كان يجهل الفقه الإسلامى ، ويعرف الشىء القليل من قواعد الدين وأصوله ، وقد صار التعليم الدينى فى عهده فى حكم العدم . وكل ما يقال إن بعض البنين والبنات كانوا يتلقون القليل من المدروس فى الآيات القرآنية والحديث الشريف على أيدى شيوخ دينيين فى حجرات صغيرة مجاورة للمسجد بأم درمان . وكان عدد قليل من الأولاد الذين يحضرون هذه الدروس يحفظون ما يلقى عليهم من القرآن . وكان المتبع أن يرسل قليل من أولئك الأولاد - بعد إتمامهم دراستهم الأولية - إلى بيت المال ليصيروا تلاميذ تحت التمرين ، ويتعلموا قدراً محدوداً[1] من كتابة الرسائل . أما الخلاوى التى كانت من قبل فقد قضت عليها الثورة وفزعها واضطراب الناس وهربهم ، وهجرهم ديارهم وأموالهم ، وما جرى من تخريب فى المدن والقرى .

ومما يحكى عن الخليفة عبد الله أنه لما دفن كتب الحديث ، واحتج عليه العلماء أحضرهم إليه وسألهم : من الذى قال الحديث؟ فقالوا : النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : وأين هو الآن؟ قالوا : إنه ميت مدفون فى قبره . فقال : إذا كان صاحب الحديث مدفونًا فى التراب فهل

(١) ص ٢٥٤ من كتاب السيف والنار لسلاطين باشا تعريب جريدة البلاغ .

تنكرون على دفن[1] الحديث نفسه؟ ويروى عنه أيضا قوله : مثل العالم كالشجرة فى وسط الزرع يأوى إليها الطير فيفسد الزرع . ولعل فى هذه الروايات شيئًا من المبالغة سببها أن الخليفة كان يعادى العلماء الذين ليسوا على مذهب المهدى ، وكان قاسيًا عليهم . ولم تكن بينه وبينهم صلة روحية أو علمية . فله إذًا عذره .

ويقول إبراهيم باشا فوزى : «إن التعايشى كان أميا يجهل القراءة والكتابة . وكان إذا أم الناس فى الصلاة الجهرية يسر فى القراءة حتى لا يسمع من وراءه قراءته التى يرجح الأكثرون أنها لم تكن قرآنًا . . . . وفى سنة ١٣١١ (١٨٩٣م) شرع فى قراءة السور الصغيرة من القرآن الشريف . وخطب فى الناس قائلا : يجب على كل فرد من أفرادكم صغيرًا كان أو كبيرًا أن يحضر بعد ثلاث ليال لوحا من الخشب ، ويبتدئ فى كتابة القرآن كما يفعل صبية المكاتب . فأجابه أحدهم بأن كثيرًا من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلبهم ومنهم العلماء والفقهاء . فالأولى أن تكون القراءة إلزامية بالنسبة للأميين والذين لا يحفظون القرآن . فأجابه التعايشى بأن حفظة القرآن والعلماء والفقهاء لا تنفعهم معرفتهم ، ولا تغنى عنهم فتيلا إلا إذا امتثلوا ما أشرت به عليهم . فأجابوا بالسمع والطاعة ، وانصرفوا إلى حوانيت النجارين لصناعة الألواح فارتفعت أثمان الألواح . وكان الفائز من يتحصل على لوحه قبل الميعاد المضروب لكيلا يصبح تحت طائلة العقوبة .

وبعد ثلاثة أيام أحضر جل الناس الألواح . فلما رآهم رقى منبر الخطابة وقال لهم : هيا ابدأوا بقراءة القرآن من أوله . وعلى كل أمير أن يجمع أتباعه فى المسجد بعد غروب الشمس ، ويوقد نارا من الحطب يحيط بها الناس . ويقرءون ألواحهم على ضوئها حيث يصير الأمير كفقيه يعلم الصبيان . فينتهر هذا ويزجر ذاك وهكذا . ثم يمر التعايشى متفقدًا تلك الحلقات كأستاذ أكبر ويقف على كل حلقة . ويبدى ما يعن له من الانتقاد . . . . والحاصل أن الناس ظلوا أكثر من عامين عاكفين على القراءة فى المسجد ، والتعايشى يتلذذ بالتبختر حولهم ، وتفقد أحوالهم التى كانوا يتكلفون فيها ويرفعون أصواتهم[2] بالقراءة» .

---

(١) من حديث ذكره لى الشيخ إبراهيم وهبى بالدويم .

(٢) ص ٣١١ ، ٣١٢ الجزء الثانى من كتاب السودان بين يدى جردون وكتشنر لإبراهيم فوزى . مطبعة الآداب والمؤيد سنة ١٣١٩هـ .

ونحن نعلم أن إبراهيم فوزى باشا كان موتورا عندما كتب هذا ، لأنه كان من أسرى المهدية . وطبيعى أن يكتب عن الخليفة التعايشى بأسلوب تهكمى لاذع وألفاظ انتقامية ، ولكننا نفهم مما كتب ـ على أية حال ـ أن الخليفة عبد الله قد وجه عنايته فعلا إلى التعليم ، وشرع فى نشره إلزاميا بين من يحيطون به . فعل هذا بالرغم مما كانت عليه البلاد من اضطراب وحال حرب ، وحصار لمدنها ، وتهديد لجيوشه ، ومجاعة ، ومرض ، ومؤامرات ضده . وهو لفعله هذا يستحق التقدير .

وقد أراد فوزى باشا أن يلتمس لعبد الله التعايشى سببا معقولا فى نظره يبرر به عناية هذا الخليفة بالتعليم فقال : «على أنه ربما كان الباعث له على هذا الأمر هو أن والده (التعايشى) كان يعلم الصبية القرآن . وقد كانت نفسه قبل نيله الملك تتوق لأن يكون معلم صبيان كأبيه . وكان بينه وبين تلك الأمنية صعوبة تعلمه القراءة والكتابة . فلما قدر لها أن يكون ملكا رأى أن يقضى وطره[1] من تلك الأمنية» .

ولسنا نستطيع أن نتكهن بما كان ينوى الخليفة عبد الله عمله لنشر العلم والتعليم لو مد له فى الحكم ، ومكن من الأمر . ولكنه قتل فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وبذلك انتهت حقبة من الزمن مليئة بالفزع والأهوال ، والمجاعات ، وسفك الدماء ، وتعطيل المرافق . انتهت بعد أن قتل خلالها ـ كما يقول الأب أورفالدر ـ ثلاثة أخماس السكان على الأقل أو هلكوا بالحرب والجوع والمرض[2] . انتهت هذه الحقبة ولم تحقق ما قامت الثورة من أجله . ولكن بانتهائها بدأ بالسودان عهد جديد لا يمكن أن نحكم عليه الآن وفى هذا المقام . وكان ما يمكن أن يقال عن الحكم المصرى هو أن السودان ـ بعد أن ظل مصريا أكثر من سبعين سنة منذ دخول محمد على ـ قد كان طيلة هذه المدة مفتوحًا للجميع ، ومستعدًا لقبول كل جديد تأتى به المدنية ، ويدعو إليه العمران .

«وأن أعظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام كل فرد بشعائره الدينية ، وبنشر العلوم حسبما يوحى إليه ضميره . فكنت ترى مساجد المسلمين ، وكنائس المسيحيين[3]

---

(١) ص ٣١٢ من الكتاب نفسه الجزء الثانى .

(٢) كتاب : Ten Years of Captivity on the Mandi's Camp

(٣) سنشير إلى كنائس المسيحيين وجهودهم التعليمية فى الباب القادم (الباب السادس) .

فى أماكن قريبة ، يقصدها أبناؤها بمطلق الحرية ، وفى هدوء واطمئنان . كما كنت ترى مدارس المسيحيين الأوروبيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لا فرق فى ذلك بين الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة . وإن أول ما يتبادر إلى ذهن المفكر فى شئون السودان ، بعد قيام حكم المهديين ، هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التى وجدت فى سنى حكم المصريين منذ عهد محمد على . فليس من شك فى أن تغيير الحال ، وحلول الفوضى محل النظام ، يولدان فى العقل شعورا صادقا بانقضاء كل أثر ظهر للمدنية فى السودان قبل المهديين . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد اندثرت معالم المدنية رغم طراوتها وجدتها . وإنى لن أستطيع ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الهمجية غير[1] السودان» .

■■■

(١) ص ٣٣٨ تاريخ السيف والنار لسلاطين باشا . تعريب جريدة البلاغ وطبعها .

نشاط المبشرين
التعليمى فى السودان

لقد فتح السودان ، وبافتتاحه فتح الطريق إلى قلب القارة المظلمة . فتح السودان الإسلامى سودان وادى النيل واستتب الأمن فى ربوعه ، فلا خطر إذًا على المسافر مسلمًا كان أو غير مسلم إفريقيا كان أو غير إفريقى ، فتح السودان ونشطت تجارة الرقيق وسهل الاتصال بزنوج أواسط أفريقيا أولئك الذين مازالوا على الفطرة والوثنية . فهم إذًا فى حاجة إلى مرشد دينى يأخذ بأيديهم من ظلمة الوثنية وينقذهم إلى نور الدين السماوى الصحيح .

ولم يكن الإسلام فى حاجة إلى تلك البعوث التبشيرية المنظمة التى تبعث بها هيئات أو حكومات لإغراء غير المسلمين بالإسلام ، ولتأسيس مراكز تبشيرية فى المناطق غير الإسلامية ، فقد انتشر من قبل بتعاليمه السهلة السمحة فى معظم أنحاء إفريقيا . ولو ترك وشأنه من غير مقاومة لكان قد تغلغل فى كل أجزاء القارة وتم له النصر[1] .

والآن وقد ظهرت فرصة سانحة لنشر المسيحية فى أواسط إفريقيا أليس من الواجب انتهازها؟ ، وأى باب أصلح للدخول إلى قلب إفريقيا من الخرطوم عاصمة السودان الجديدة ومقر سلطة محمد على الحاكم القوى؟ ، وقد مضى على قيامها نحواً من ربع قرن ، وهى تسير فى طريق النمو والازدهار يوما بعد يوم؟ وإذًا فليؤسس مركز تبشيرى وليكن مقره الخرطوم .

أعلن الباب جريجورى السادس عشر هذا القرار فى سنة ١٨٤٦ قبل موته . وبمقتضى هذا القرار صارت منطقة أواسط إفريقيا a vicarate apostolic وظيفتها تنصير الزنوج والعمل على إلغاء تجارة الرقيق ، وصلاح الحال الروحية عند من يقيم فى أعالى النيل من الرومانيين الكاثوليك[2] .

---

(١) أنظر حاضر العالم الإسلامى تأليف لوثروب ستوؤارد وترجمة نويهض وكذلك كتاب The Preaching of Islam .

(٢) ص ١٩٦ ج١ من كتاب Travels in Africa by W. Junker .

وكانت قيود الامتيازات الأجنبية قائمة ودخلت السودان بضمه إلى مصر . وكانت العادة جارية على أنه إذا أراد أجنبى السياحة أو الانتقال فى القطر المصرى أو البلاد التابعة له أن يحصل على فرمان من الوالى يبيح له التنقل موضحا الغرض من تنقلاته . ويطالب من يقرؤه من الحكام أو رؤساء العشائر والعمد بعدم التعرض له بشر وبمساعدته(١) . وقد نجح البطريق موريقاستر Morsignnor di Mauricaster أحد أعضاء البعثة التبشيرية التى قررها البابا فى أن يحصل من محمد على باشا على فرمان بطريق قنصل الإنجليز فى القاهرة وبتاريخ ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧) يسمح له بأن «يمر على أقاليم الصعيد ويدور فى بلاد السودان . وصدرت الإرادة بعدم المعارضة إليه وإلى أتباعه ومنع تفتيش الصناديق والمهمات التى صحبته بطرف جهات الجمارك»(٢) .

ويصل موريقا ستر الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٤٨ فى إرسالية تبشيرية مكونة من ريللو البولندى Ryllo وأنجلوفنسى Angelo Vinci وبدمونتى Pedmonti الإيطاليين والدكتور إجناتيوس كنبليخر Ignatus Knoblecher النمساوى ولحق بهم بعد ذلك ثلاثة من غير رجال الكنيسة : وكان ريللو(٣) رئيس هذه الإرسالية .

ولم تلبث الإرسالية غير قليل حتى نجحت فى شراء قطعة أرض بالخرطوم تمهيدًا لبناء كنيسة ومكاتب لتعليم الرجال والنساء وتنصيرهم(٤) . ويظهر أن رجال الإرسالية لم يعمدوا إلى إعلان نيتهم بل حاولوا سترها بكل الطرق الممكنة . فهم لم يشتروا أرضا خلاء أولا بل اشتروا منزلا - منزل عثمان بك - وسكنوا فيه ثم اشتروا الأرض المجاورة له . وشرعوا فى إصلاح المنزل وترميمه وتكييفه بحسب حاجاتهم التبشيرية(٥) .كما كانوا يجتمعون كل يوم أحد للصلاة والتعبد فى ديوان المنزل .

---

(١) راجع رحلات بركهارت ورحلة كايو إلى الواحات ففيهما ذكر صريح لحصول كل منهما على فرمان (أو خطاب) لهذا الغرض .

(٢) محفظة ١٩ بحربرا . صورة المرفق العربى «ب» للوثيقة العربية ٩٧ و٨١٤ عموم .

(٣) خلفه بعد موته فى السودان بمدة قصيرة كنبليخر .

(٤) محفظة ١٩ بحر برا صورة المرفق العربى «ب» للوثيقة العربية ٩٧ .

(٥) محفظة ١٩ بحر برا صورة المرفق العربى «د» للمكاتبة ٩٧ فى ٥ رمضان سنة ١٢٦٤ .

ويتنبه مدير الخرطوم لهذه الخطة المحكمة المدبرة وتثور ثورته ، ويجرى البحث والتحقيق اللازم لمعرفة حقيقة الأمر . ويعرض الأمر على الحكمدار - خالد خسرو باشا - بعد عودته من ود مدنى ، كما يعرض عليه أن رجال هذه الإرسالية قد حالوا أخذ ستة صبيان من أولاد النصارى الذين توفى أباؤهم وكانت أمهاتهم من الرقيق وذلك بقصد تنصيرهم[1] .

وكان البطريق كاسولانى موريقا ستر هو المتصدى للمسئولية أمام الحكومة والمدافع عن وجهة نظر الإرسالية . وهو لهذا يكتب للحكمدار بالنيابة عن أعضاء الإرسالية ليرد الحجة[2] بالحجة ويحاول أن يوقع بالحكمدار ومن يتصلون به من الموظفين ، ويدس لهم بأنهم يرمون من إخباره بما أخبروه به إلى التخلص من الحكومة القائمة وإثارة الخلاف بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية ذات الامتيازات . ولم لا يقول البطريق هذا ويؤكده وهو يعلم أن محمد على كان حريصاً على إرضاء الحكومات الأجنبية لا يريد أن يخوض معهم فى خلاف أو نزاع؟ وإذًا فأى اعتراض على أعمال البطريق موريقاستر يسبب احتجاج حكومته على الحكومة المصرية . فالأولى بالحكمدار إذًا أن يضع حدًا لاعتراضاته وتحقيقاته . والبطريق موريقا ستر رجل يعرف القانون وقد نال إرادة سنية تخوله بعض الأعمال والتصرفات فى السودان . وهو يفهم مضمون هذه الإرادة . وهو يسير بمقتضاها فلا معنى إذًا لأن يرسل للحكمدار تفسيرًا لمضمونها . أما شراء منزل وسكناه فهذا أمر عادى جدًا وكل الإفرنج يفعلون هذا فلم إذًا الاعتراض على البطريق ورفقائه . هكذا يحتج موريقا ستر ويقول للحكمدار : «أفهمونا ما هو سبب زعلكم يا هل ترى مرامكم تجعلونا أقل من الإفرنج كون موجود معنا أمر شريف والغير[3] لم موجود معهم» .

والبطريق موريقا ستر لا يفهم لماذا يهتم الحكمدار لأمر بناء الكنيسة ويعارض فيه مع أنه أولا لم يحدث شىء من ذلك ، وثانيًا عند الشروع فى حدوثه هناك سلطات أخرى عليا سيلجأ إليها البطريق ليحصل على الترخيص اللازم . فلا محل إذًا لاحتياط الحكمدار وخشيته . والبطريق يشعر بأن والى مصر سيحقق رغبته وأنه سيستعمل الضغط السياسى بواسطة قناصل الدول

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا صورة المرفق العربى «هـ» للمكاتبة رقم ٩٧ .

(٢) أرسل له الحكمدار خطابا يستفهم عن السبب فى شراء الأرض والمنزل وإصلاحه ليكون كنيسة ومحاولة تنصير بعض الأولاد بتاريخ ٩ رمضان محفظة ١٩ بحر برا المرفق العربى وللمكاتبة العربية رقم ٩٧ .

(٣) نفس الوثيقة السابقة .

حتى يقيم الكنيسة ويتخذها مقراً للتبشير ، وأنه من أجل هذا الشعور يتمسك بطلب تسليم الأولاد الستة حتى يأخذهم إلى بيت الإرسالية لتنصيرهم وتعليمهم . وهو مسافر قريبًا إلى المحروسة وهناك سيبحث الأمر بين قناصل الدول والأعتاب الخديوية . فليكف إذًا الحكمدار عن مناقشاته حتى يذهب البطريق للمحروسة ويعود للخرطوم . وليحذر الحكمدار من اتخاذ أى شيء ضد رفقاء البطريق المقيمين بالمنزل أثناء غيبته . وإذا كان لدى الحكمدار أى احتجاج أو اعتراض أو شكوى فليتقدم بها إلى سيده الخديو الأعظم لأن العدالة عنده ولكن «أغلب الأوقات وكلاه[1] فى البعد ينكروها» هكذا يدافع البطريق عن أعماله وهو فى دفاعه عن أعماله يحس بأنه مرعى[2] بدولته وأنه ليس تابعًا للرعاية المصرية . ولذلك يهدد الحكمدار ويقول له : «اعلموا وثم اعلموا بأنكم غلطانين كثيراً كون نحن ليس من رعاياكم ولا لكم حكم علينا فلازم تلاحظوا إلى عواقب الأمور . وحاسبوا إلى الكلام والمعنى الذى يحصل منكم لئلا فيما بعد يحصل لكم قهر وندامة» .

هذه هى وجهة نظر الإرسالية ، أما وجهة نظر الحكمدارية فقد كانت نتيجة لاستشارة مفتى السودان ـ الشيخ إبراهيم[3] عبد الدافع ـ الذى أفتى بأن كل مولود يولد على الفطرة . والصبى الذى يمكن أن يستفتى فى الإسلام أو غيره من الأديان التى يريد اعتناقها هو من أكمل سن السابعة ومن كان دون السابعة فهو تابع لأبيه فى الدين . ومع أن آباء هؤلاء الأولاد كانوا نصارى لم يقبل البطريق هذه الفتوى . ذلك ـ على ما أستنبط ـ لأن الأولاد كانوا أكبر من سبع سنوات فلهم إذًا الحق فى اختيار النصرانية أو غيرها .

والآن وقد أطنبت فى ذكر ما أحاط بتأسيس الكنيسة من ظروف وملابسات أخشى أن يذهب القارئ إلى أن هذا عمل لا علاقة له بالتعليم . والحقيقة أن الكنيسة التى نجحت الإرسالية فى بنائها بعد كل هذه المفاوضات والمناقشات اتصلت بها مدرسة للتعليم وكان يتعلم فيها أبناء غير المسلمين[4] والمسلمين . وسيظهر لنا بعد كيف اتسع نشاط هذه الإرسالية وشمال التعليم .

---

(١) المرفق العربى «و» للمكاتبة العربية رقم ٩٧ محفظة ١٩ بحر برا بتاريخ ٩ رمضان سنة ١٢٦٤ .

(٢) لم أستطع أن أتبين الدولة التى كان ينتمى إليها هذا البطريق ويغلب على ظنى أنه إيطالى .

(٣) هو صاحب المخطوط «تاريخ ملوك السودان وأقاليمه» .

(٤) انظر الملحق الخاص بكلام الشيخ محمود القبانى .

ذكر موريقا ستر أنه كان ذاهبًا للمحروسة وسيعود للخرطوم بعد زمن وجيز . أما حكمدار السودان فقد كتب إلى الوالى بكل ما حدث وأرسل إليه بيانات وافية مفصلة عن سلوك رجال الإرسالية ومحاولاتهم . ويظهر أن البطريق موريفا ستر كان بالمحروسة عندما وصلت هذه الأوراق والبيانات المرسلة من الحكمدار وأنه استخدم نفوذ قناصل الدول فى حمل محمد على على أن يوافق على إنشاء الكنيسة . ويظهر لنا هذا من الإشارة التى عثرنا عليها تعليقا على خطاب حكمدار السودان خالد خسرو الموجه للوالى بهذا الصدد . وعبارة الإشارة هى «صار تلاوتها (الأوراق) بالمجلس . وقر الرأى بالاستغنى[1] . وصار الاستغنى» .

وإذًا فقد ضاعت جهود الحكمدار وموظفيه سدى ، ولم يستطيعوا أن يمنعوا بناء الكنيسة . وقد بدئ فعلا فى بناء الكنيسة ودار الإرسالية سنة ١٨٥٣ (١٢٦٩هـ) وجاءت معظم الأموال لهذه الإرسالية من Austria Associtiion for promating the Cathotie Mission in Central Africa .

ولم يقف نشاط رجال الإرسالية على الخرطوم فإن مهمتهم الأساسية كانت فى بلاد الزنوج لذلك نجدهم انتشروا فى أعالى الوادى ؛ فمنهم من ذهب إلى بنى شنقول على النيل الأزرق ، ومنهم من ذهب إلى أعالى النيل الأبيض حيث أسس محطة جوندوكرو[2] التبشيرية سنة ١٨٥١ .

ولا يهمنا هنا أن نتتبع تاريخ النشاط التبشيرى فى السودان ولا كيف تطور ، وإنما نريد أن نعرف شعور الجمهور السودانى نحو هذه المؤسسة المسيحية التى قامت بنايتها أمام أعينهم ، والتى أرادت أن تبشر غير دينهم وهو أعز شىء عليهم وأن تعلم غير تعاليمهم . والحقيقة أننى لم أعثر على أى وثيقة تشير إلى موقف السودانيين من هذه الإرسالية . والرأى عندى أن ما نسميه الآن «بالرأى العام» لم يكن قد تكون . ولم يوجد من بين السودانيين فى ذلك الوقت من ينبههم إلى أخطار هذه الإرسالية ونواياها . أليس رجالها إفرنجا ككثير من الإفرنج المقيمين

---

(١) محفظة رقم ١٩ بحر برا . صورة الوثيقة العربية رقم ٩٧ بتاريخ ٢٢ رمضان سنة ١٢٦٤ .

(٢) ص ١٩٧ ج١ من كتاب Travels in Africa, by W. Junker .

بالخرطوم . وإذا كانت الحكومة راضية عن هذه الإرسالية فما شأن الفرد أو الشعب فى هذا . إن الحكومة تعمل ما تراه صالحا . والفرد لا يهمه ما يجرى حوله ما دام لا يمس مصلحته المباشرة أو شرفه أو كرامته . ولِمَ أفترض غضب الشعب منذ قرن على قيام مؤسسة تبشيرية تعليمية فى الخرطوم وأمام هذا الشعب السودانى الآن المؤسسات التبشيرية فى أعالى النيل تنشر مدارسها كما تشاء وتتلقى من الحكومة السودانية الإعانات السنوية ، ولم يتحرك الرأى العام السودانى بالغضب والاحتجاج ضد هذه الأعمال؟ ؛ فإذا كان شعب اليوم قد صار أكثر تسامحًا فإنه قد صار أيضا أكثر تنورًا وإدراكًا لعواقب الأمور وهو يعرف معنى انتشار دين غير الإسلام فى الجزء الجنوبى من السودان . على أن تعصب السودان لدينه منذ قرن ، وألا يزاحمه دين آخر أو يطغى عليه ، لابد كان أشد من حماس السودانى المتنور لأمور الدين الآن . ومع هذا لم يصل إلينا ما يدل على أن الشعب وقف ضد قيام المؤسسة التبشيرية التى أشرنا إليها .

ذكرت أن نوايا رجال المؤسسة كانت نشر الدين المسيحى والتعليم كذلك . ويؤيد هذا التلغراف الذى بعث به رئيس الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم إلى المعية السنية فى ٧ محرم سنة ١٢٩٠ يقول : «إن رئيس عموم الكنائس الكاثوليكية بالسودان حضر بربر وبرفقته حملة معلمين وأرباب صنايع ومعلمات راهبات . ولعدم وجود ذهبيات بطرفنا لأجل إحضارهم من بربر فنروم من مراحم سعادة ولى النعم صدور الأمر بتعيين وابور لأجل إحضارهم»[1] وإذًا فقد صار وجود الكنائس للتبشير والتعليم بالسودان أمرا مقررا ولا اعتراض عليه ، بل بالعكس كانت الحكومة تقدم ما يمكن من مساعدة .

ومعنى هذا أن الحكومة لم تكتف بالسماح للإرسالية ببناء ما تشاء من كنيسة ومكاتب للتعليم بل كانت تقدم كل مساعدة ممكنة لرجال الإرسالية وتوصى بهم خيرًا وتبعث لرجالها فى كل جهة بضرورة تقديم الرعاية التامة[2] والاحترام . فهل بعد ذلك تسامح أكثر وعطف أكثر؟

---

(١) دفتر ١٨ عابدين وارد تلغراف . صورة التلغراف العربى رقم ٨٣٢ بتاريخ ٧ المحرم سنة ١٢٩٠ .

(٢) راجع الوثيقة دفتر رقم ٣١ معية عربى صورة الإفادة رقم ٣٠ ص ٣٨ بتاريخ ١٤ أبريل سنة ١٢٩٤ الموافق ٢٨ أبريل ١٨٧٧ .

لقد كانت سياسة الحكومة فى السودان مبنية على فتح أبوابه للتعمير والإصلاح ، وكانت الامتيازات الأجنبية تقف فى سبيل معارضة الوالى لرغبات الأجانب دينية كانت أو غير دينية . من أجل هذا لم يجد النشاط التبشيرى أو التعليم التبشيرى مقاومة من الحكومة أو الشعب .

ولم ينقطع وصول القسس والمبشرين ، إلى السودان من أوروبا ولم ينقطع نشاطهم فى الجهات التى ضمت لممتلكات الحكومة المصرية بل منهم من ذهب إلى أبعد [1] منها . وكانت آخر جماعة وصلت إلى السودان هى تلك التى جاءت مع الآب أروڤالدر Ohrvalder النمساوى الذى وصل إلى الخرطوم فى يناير سنة ١٨٨١ أى قبل قيام الثورة المهدية بشهور . غير أن الآب أورڤالدر ورفاقه توجهوا إلى دار النوبة فى جنوبى كردفان . وهناك فى قرية الدلنج بدءوا بناء كنيستهم . واستمر كل شيء على ما يرام حتى فاجأتهم الثورة المهدية فى أبريل سنة ١٨٨٢ ، ولكنهم ظلوا قليلا مهددين إلى أن أخذوا أسرى فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكانت الثورة المهدية كالحريق المدمر الذى أهلك الحرث والنسل فزال بانتشارها كل ما قام فى السودان من نشاط للمبشرين .

■■■

(١) ص ١٠٢ من كتاب الخديو إسماعيل والرق فى السودان محمد فؤاد شكرى .

الجزء الثالث

التربية في السودان

والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها



بدأت حياتى العملية ، بعد عودتى من البعثة الدراسية فى أوروبا بالعمل فى حكومة السودان ، فقد ندبتنى وزارة المعارف لكى أقوم على إصلاح مناهج التعليم العربى والدينى بمدارس السودان ، فى خدمة مصلحة المعارف هناك . وكان مقر عملى فى «بخت الرضا» ، وهى قرية تعليمية نموذجية أنشئت وبها عدد من المدارس التجريبية فى مراحل التعليم المختلفة . وكان فى هذه القرية أن تفرغت لوضع المناهج وتنقحيها بواسطة لجان مختلفة ، واختيار الصالح منها للتجربة وتجربته وتأليف الكتب اللازمة للتلميذ والمدرس وفقا لهذا المنهج المجرب ، وتقديم هذه الكتب لمصلحة المعارف التى تقوم بطبعها .

وكانت مدة عملى فى السودان ـ وهى ثلاث سنوات ونصف ـ فرصة ذهبية استطعت أثناءها أن استخدم وقت فراغى القليل فى جمع مايمكن من وثائق مكتوبة أو شفهية حول موضوع (التربية فى السودان منذ أول القرن السادس عشر إلى نهاية التاسع عشر) .

غير أننى أدركت عندما تقدم بى البحث أن ثمة وثائق أبكاراً لم تمتد إليها يد باحث ، وأنها فى حاجة إلى الكشف والفحص والاستخلاص ، وأنها مصادر حجة عن التربية بالسودان فى القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذى انضم فيه السودان إلى مصر تحت علم واحد ووال واحد ، وهو القرن الذى لم يوفه المؤرخون بعد حقه فى البحث وإعلان الحقيقة .

واتجهت إلى قسم المحفوظات بسراى عابدين العامرة ، وهناك وجدت أكداسًا من هذه الوثائق القيمة عن السودان ، وهناك وجدت من رجال هذا القسم ترحيبًا جميلاً ، وعطفًا نبيلاً وإكرامًا وتشجيعًا ، وعطفًا وصبراً ولا غرو فهم خدام المليك المعظم ، فاروق المحبوب ، وسدنة رحابه . وكان

لعطفهم وإكرامهم وتشجيعهم ما قوى عزمى على أن استخلص من تلك الوثائق ما له صلة بالتربية فى السودان ، وقد تم هذا بعد مثابرة دامت خمسة أصياف كنت أمضى كل صيف منها مكبًا على تصفح كل وثيقة ، ونقل ما احتجت إليه . وقد تركت فى قسم المحفوظات نسخة مبيضة من كل وثيقة نقلتها لبحثى .

ضممت هذه الوثائق الخطبة إلى غيرها من الوثائق التى جمعتها أثناء إقامتى فى السودان ، وانصرفت لدرسها ، وتمحيصها ، وتبين الغث من السمين فيها ، واستخلاص الأحكام العامة ، حتى فرغت من جمع كل ماهو ضرورى لرسالتى .

كتبت الرسالة التى تقدمت بها لنيل الدكتوراه من قسم الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وكان الامتحان فى اليوم الأول من يوليه سنة ١٩٤٦ ، وقد وفقت ـ والحمد لله ـ لنيل هذه الدرجة بمرتبة جيد جدًا .

وهذا الكتاب يضم بين جنبيه أهم الوثائق التى اعتمدت عليها فى كتابة الرسالة ، ومن مراجعة هذه الوثائق ، يتبين مصدرها ، وأن معظمها لم ينشر من قبل .

ولا يسعنى ، وأنا قدم هذه الوثائق للطبع ـ بعد أن طبعت هذه الرسالة نفسها ـ إلا أن أكرر شكرى لجميع من تفضلوا بمساعدتى فى جمع الوثائق والوقائع التى احتجت إليها فى رسالتى ، سواء منهم من فى جنوب الوادى من إخوانى أهل السودان ، ومن فى شماله من أهل مصر .

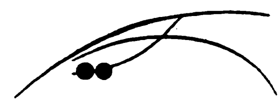
وأخص بالشكر والوفاء حضرات أصحاب العزة والأساتذة رجال قسم المحفوظات بسراى عابدين العامرة على ما غمرونى به من فضل وتشجيع .

جزاهم الله خير الجزاء

عبد العزيز امين عبد المجيد

■ ■ ■

الملحق (١)
الحدود بين مصر والسودان منذ فجر التاريخ إلى الآن



كانت البلاد الواقعة جنوبى مصر تسمى عند قدماء المصريين «بأرض السودان» (Ta Nehesu) وعند الإغريق باسم «أثيوبيا» أما اسم «النوبة» فهو مأخوذ من كلمة «نب» ومعناه بلغة النوبيين الذهب أى أن بلاد النوبة هى بلاد الذهب وقد وردت كلمة «كوش» فى الآثار المصرية[١] العتيقة ولكن يظهر أنها كانت جزءاً من بلاد النوبة ، لا بلاد النوبة جميعها[٢] .

وقد تغير الحد الفاصل بين مصر والسودان منذ القدم ، ففى الغالب أنه كان قبل عهد الأسرات شمالى أسوان عند جبل السلسلة وكوم أمبو حيث تحل اللغة النوبية الآن محل العربية .

وفى عهد الأسرة السادسة كان الحد هو جزيرة الفنتين جنوبى أسوان وذلك حوالى ٢٦٠٠ ق . م .

وفى أيام الأسرة الثانية عشرة أى حوالى ٢٠٠٠ق . م امتد سلطان مصرجنوبًا إلى سمنه وقمه ، على مسافة ٢٥٠ ميلا جنوبى أسوان .

---

(١) من المهم أن نذكر أن «أمى» قد سجل لنا فى كتاباته أن الملك هزم أعداءه فى إقليم موحش اسمه كاش . وهذه عبارة مهمة ؛ لأنها تدل على أن جزءاً من السودان كان يطلق عليه المصريون لفظ «كاش» وهذه أول مرة يظهر فيها اسم كاش فى السجلات المصرية ، وهى أصل كلمة كوش التى يستعملها الكتاب عندما يتحدثون عن نوبيا فى كتاب «العهد القديم» وكذلك يستعمل هذه الكلمة معظم معظم الشعوب التى اتصلت باليهود فى العصور القديمة (P. 555 vol. I The Egyptian Sudan by Budge)

(٢) لانعرف بالضبط حدود كاش فى عهد الملك أوزرتسن الأول ، ولكن يظهر أن الحدود الشمالية كانت جنوبى قرية كورسكو الحالية ، بينما الحدود الجنوبية كانت فى الغالب بالقرب من ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق . ويمكن القول بصفة عامة أن المصريين كانوا يقسمون شمالى السودان إلى قسمين القسم الشمالى القريب من مصر ويسمى واوات ، والقسم الجنوبى يسمى كاش . (انظر ص ٥٣٦ من الجزء الأول من كتاب السودان المصرى لبدج) .

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة أى حوالى ١٤٠٠ ق . م وصلت حدود مصر الجنوبية إلى مدينة بنتا وموقعها الآن بلدة مروى وهى على مسافة ٦٠٠ ميل بواسطة النيل من أسوان .

ولما ظهرت ملكة أثيوبيا (وعاصمتها نبتا) ومملكة مروه (Mero) بين ١٢٠٠و ٦٠٠ ق . م واستقلتا عن مصر انتقلت الحدود شمالا إلى أسوان وظلت كذلك بضعة قرون[١] إلى عهد البطالسة حين انتقلت قليلا إلى الجنوب بالقرب من بلدة المحرقة .

وقد تمكن الرومان فى مصر من احتلال بلدة ابريم جنوبى المحرقة وذلك فى عهد الامبراطور أغسطس ، غير أنهم رجعوا إلى حدود المحرقة القديمة .

وفى أواخر حكم الرومان استولى النوبيون الوثنيون على معبد الفيلة وعلى أسوان . وظلوا وثنيين إلى أن اعتنقوا المسيحية فى القرن السادس الميلادى[٢] .

ولما فتح العرب مصر ، وغزا عبدالله بن سعد بن أبى السرح بلاد النوبة وانتصر عليها . عقد مع ملكها معاهدة نصلت على أحد النوبة من الشمال هو أرض أسوان[٣] .

وفى عهد السلطان ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) غزت جيوش المسلمين النوبة وضمت إلى مصر أرض الشلال . وكانت مساحة هذه الأرض تعادل ربع مساحة نوبيا تقريبًا وهى تنتج القطن والبلح فى ذلك الحين[٤] .

ولما أسس الفونج مملكتهم فى جزيرة سنار سنة ١٥٠٥م امتد سلطانها شمالاً إلى الشلال الثالث[٥] وكانت المنطقة الواقعة بين الشلال الثالث جنوبًا وبين أسوان شمالاً فى أيدى بنى

---

(١) كانت الفنتين هى الحد الفاصل بين مصر وبلاد النوبة فى عند الأسرة السابعة والعشرين الفارسية . ويدلنا على ذلك أيضا ما كتبه هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٤ ق . م) فى الفقرة التاسعة والعشرين من كتابه The H story of Herodotus وصلت فى تجوالى إلى مدينة بلفنتين فما كاتبه وصفا لمصر إلى هذه المدينة رأيته بعينى أما ما أكتبه وصفا لما وراء الفنتين فهو مبنى على السماع وعلى أوصل إلى من الأخبار . انظر ص ١٥ ص ١٥ من على هامش التاريخ المصرى القديم الجزء الأول لعبد القادر حمزة .

(٢) pp.I.I.A General Introductory Guide To the Egyptian Collection in the Britdh Mudeum

(٣) انظر المعاهدة التى عقدت بين عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر سنة ٣١هـ (٦٥٢م) وبين ملك المقرة وأولها عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة .

(٤) See the Egyptian Vel.II. P 194. by Sir. Budge

(٥) ص ٧٣ من الجزء الثانى من تاريخ السودان القديم لنعوم شقير .

كنز منذ سنة ١٠٢٠ واستمرت خاضعة لنفوذهم خضوعًا غير متصل حتى سنة ١٥١٧ حين فتح سليم الأول مصر وجعلها جزءاً من الدولة العثمانية[1] .

وقد ظلت الحدود بين مصروالسودان عند الشلال الثالث شمالى جزيرة ساى[2] إلى أن فتح محمد على باشا السودان سنة ١٨٢١م ، وبقيت كذلك حتى الثورة المهدية .

وبعد إخماد الثورة المهدية واسترجاع السودان نصت اتفاقية سنة ١٨٩٩م بين بريطانيا مصر على الحدود التى أشرنا إليها فى الرسالة ص ١٤ .

■■■

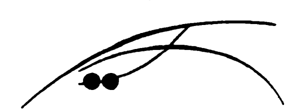
---

(١) تجد بحثًا مختصرًا شاملا عن بنى كنز فى ص ١٤٨ الفقرة الخامسة عشرة من الجزء الأول من كتاب :

A History of the Arabs in the Sudan by. H Meanichael.

(٢) انظر خريطة السودان المصرى فى عهد محمد على .

الملحق (٢)
ثلاثة عهود بين مصر والنوبة



١ - عهد عبدالله بن سعد بن أبى السرح

لعظيم النوبة ص ٣٢٣ ج١ من الخطط للمقريزى.



«عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ، ولجميع أهل مملكته . عهد عقده على الكبير والصغير من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة . أن عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية وبينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة . إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسول محمد النبى (ﷺ) ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ، ولانغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بينناوبينكم ؛ على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقمين فيه ؛ وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أوبطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم . وأن عليكم رد كل آبق اخرج رليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه ، ولا تمتنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه . وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه ، وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأسًا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب ؛ يكون فيها ذكران وأناث ، ليس فيها شيخ هرم ، ولا عجوز ؛ ولاطفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى ولى أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان . فأن أنتم أويتم عبدا لمسلم ؛ أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا ، أو تعرضتم للمسجد

الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ؛ أو منعتم شيئًا من الثلثمائة رأس والستين رأسًا ؛ فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد (ﷺ) ولنا عليك بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح ، وذمة الحواريين ، وذمة من تنظمونه من أهل دينكم وملكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك . كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة ٣١هـ» .

٢ـ عهد عبدالله بن الجهم لكنون بن عبدالعزيز

عظيم البجة بأسوان من فتوح مصر لابن عبدالحكم

هذا الكتاب كتبه عبدالله بن الجهم ، مولى أمير المؤمنين ، صاحب حيش الغزاة ، عامل الأمير أبى إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين ؛ لكنون بن عبدالعزيز عظيم البحة بأسوان ، أنك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة ؛ وأعقد لك ولهم أمانًا وعلى وعلى جميع المسلمين ؛ فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين ، أمانًا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى وشرطت لى فى كتابى هذا ؛ وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبدالله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين ؛ ألا أنك تكون فى بلدك ملكًا على ما أنت عليه فى الجبة . وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة . وذلك مابه من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال ، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته ، وليس لك أن تحزم شيئًا عليك من الخراج ، وعلى أن كل واحد إن ذكر محمدًا رسول الله (ﷺ) وكتاب الله أو دينه بما لاينبغى أن يذكره به ، أو قتل أحدًا من المسلمين حرًا أو عبدًا ، فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله (ﷺ) وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وذمة جماعة المسلمين ، وحل دمه كمايحل دم أهل الحرب وذراريهم ، وعلى أن أحدًا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين ، أو أثر لعزتهم ، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحدًا منكم إن إن قتل أحدًا من المسلمين عمدًا أو سهوًا أو خطأ حرًا أو عبدًا أو أحدًا من ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلدة البجة ، أو ببلاد

الإسلام ، أو ببلاد النوبة ، أو من شيء من البلدان برًا أو بحرًا ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات ، وفي قتل العد المسلم عشر قيم ، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم ، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعاف وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البحة تاجرًا ، أو مقيمًا ، أو مجتازًا ، أو حاجًا ، فهو آن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم . ولا تؤوا أحدًا من آبقي المسلمين ، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين . وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك وعلى أنكم إذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهروا سلاحًا ولا تدخلوا المداين والقرى بحال ، ولا تمنعوا أحدًا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برًا وبحرًا ، ولا تخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ، ولا تسرفوا لمسلم ولا ذمي مالا ، وعلى ألا تهدموا شيئًا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر سائر بلادكم طولاً وعرضًا . فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة . وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي للمسلمين بما شرط للمسلمين من دفع الخراج ، ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال ، وعلى أن أحدًا من البجة لايعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من النوبة حدا لا عمدة ، عقد عبدالله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبدالعزيز كبير البجة والأمان على ماسمينا وشرطنا هذا ؛ وعلى أن يوافي أمير المؤمنين . فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة ، وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة ، وعلى كنون الوفاء بمن شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلفه من الوفاء والميثاق ولكنون بن عبدالعزيز ولجميع أهل البجة عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبدالله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم ، وترجم جميع مافي هذا الكتاب حرفًا حرفًا زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة ، وعبدالله بن اسماعيل القرشي ثم نسق جماعة من شهود أسوان .

٣- نص اليمين التي حلف عليها مشكذ ملك النوبة الجديد بدنقلة

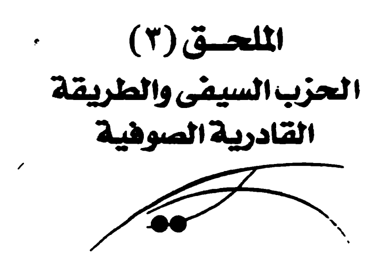
للظاهر بيبرس بعد فتح المماليك لتلك البلاد سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) وهو منقول من النويري (نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٢٥٩ ب صور شمسية بدار الكتب المصرية معارف عامة رقم ٥٤٩) وقد

صحح وقوبل على النص الوارد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ وما بعدها) .

والله والله والله ، وحق الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والمرسلين والحوار بين والمقدسين والشهداء والأبرار وألا أجحد بالمسيح كما جحده يودس ، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه ، وألا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة ، إنى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس ، وإنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وإنى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى . وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لم تقدم من ملوك النوبة . وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصًا من كل حق ، والنصف الآخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدوه يطرقها . وأن يكون على كل سنة من الأفيلة ثلاثة ، ومن الزرافات ثلاث ، ومن إناث الفهود خمس ، ومن الصهب الجياد مائة ، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة ، وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارًا عينا ، وأن يُفرد بلاد العلا والجبل خالصًا للسلطان ، وأنه مهما كان لداود ملك النوبة وأخيه سنكو ولأمه وأقاربه ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة أحمله إلى الباب العالى مع من يرصد لذلك . وأننى لا أترك شيئًا منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحدًا من إخفائه ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو شىء من هذا المذكور أعلاه كنت بريئًا من الله تعالى ، ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية وأصلى إلى غير الشرق وأكفر بالصليب وأعتقد ما تعتقد اليهود ، وإنى لا أترك أحدًا من العربان ببلاد النوبة ومن وجدته أرسله إلى الباب السلطانى . ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان وفى وقته وساعته ولا أنفرد بشىء من الأشياء إذا لم تكن مُصلحة . وإننى ولى من والى السلطان وعدو من عاداه ولله على ما أقول الوكيل .

■ ■ ■

الملحــق (٣)
الحزب السيفى والطريقة القادرية الصوفية



ويشمل الحزب السيفى . وهو من الأحزاب التى كان يقرؤها فى السودان أتباع الطريقة القادرية الجيلانية الصوفية . ويقال إنه من تأليف الإمام على كرم الله وجهه . وقد ذكرته هنا لندرة الحصول عليه فى المتداول من كتب التصوف . ولعدم معرفة المتصوفة الآن لعبارته لقلة استعمالهم له .

هذا الحزب السيفى[1] الذى تلقاه وأذن مريديه به سيدنا وأستاذنا القطب الفريد سيدى إبراهيم الرشيد . المكى الدويحى تلميذ السيد أحمد بن إدريس قدّس الله أسرارهما آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أنت الله الملك الحق المبين القديم المتفرّد بالعظمة والكبرياء المتفرد بالبقاء الحى القيوم القادر المقتدر الجبار القهار الذى لا إله أنت (تقرأ الإخلاص ثلاثًا) أنت ربى وأنا عبدك عملت سوءاً وظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى كلها . فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت . ياغفور ياشكور ياحليم ياكريم ياصبور يارحيم . اللهم إنى أحمدك وأنت المحمود وأنت للحمد أهل . على ماخصصتنى به من مواهب الرغائب . وأوصلت إلى من فضائل الصنائع . وأوليتنى به من إحسانك . وبوأتنى به من مظنة الصدق عندك . وأنلتنى به من منتك الواصلة إلى . وأحسنت به إلى كل وقت من دفع البلية والتوفيق لى . والإجابة لدعائى أناديك داعيًا وأناجيك راغبًا . وأدعوك متضرعًا مصافيًا ضارعًا . وحين أرجوك راجيًا . فأجدك كافيًا . وألوذ بك فى المواطن كلها . فكن لى ولأهلى ولإخوانى كلهم جارًا حاضرًا حفيًا بارًا وليًا فى الأمور كلها ناظرًا . على الأعداء كلهم ناصرًا وللخطايا والذنوب كلها غافرًا .

---

(١) ص ٢٧ من كتاب أوراد القطب الربانى السيد أحمد بن إدريس طبعة إسماعيل الجبالى سنة ١٢٩٨ ، وهذا الكتاب فى مكتبة البلدية بالإسكندرية تحت غرة سلسلة ٦٩٢د .

وللعيوب كلها ساتراً . لم أعدم عونك وبرك وخيرك وعزك وإحسانك طرفة عين منذ أنزلتنى دار الاختبار . والفكر والاعتبار . لتنظر ما أقدم لدار الخلود والقرار والمقامة مع الأخيار . فأنا عبدك فاجعلنى يارب عتيقك . يا إلهى ومولاى . خلصنى وأهل وإخوانى كلهم من النار . ومن جميع المضار . والمضال والمصائب والمعائب والنوائب واللوازم والهموم . التى قد ساورتنى فيها الغموم . بمعاريض أصناف البلاء وضروب جهد القضاء . إلهى لا أذكر منك إلا الجميل . ولم أر منك إلا الفضيل . خيرك لى شامل . وصنعك لى كامل ، ولطفك لى كافل . وبرك لى غامر . وفضلك على دائم متواتر ونعمك عندى متصلة لم تخفر لى جوارك . وأمنت خوفى . وصدّقت رجائى ، وحققت آمالى . وصاحبتنى فى أسفارى . وأكرمتنى فى أحضارى . وعافيت أمراضى . وشفيت أوصابى . وأحسنت منقلبى ومثواى . ولم تشمت بى أعدائى وحسادى . ورميت من رمانى بسوء وكفيتنى شر من عادانى فأنا أسألك يا الله الآن الأن لى ولأهلى ولإخوانى كلهم . وأن تدفع عنا كيد الحاسدين . وظلم الظالمين . وشر المعاندين واحمنى وأهلى وإخوانى كلهم تحت سرادقات عزك يا أكرم الأكرمين وباعد بينى وبين أعدائى كما باعدت بين المشرق والمغرب . واخطف أبصارهم غنى بنور قدسك . واضرب رقابهم بجلال مجدك . واقطع أعناقهم بسطوات قهرك وأهلكهم ودمرهم تدميراً . كما رفعت كيد الحساد عن أنبيائك . وضربت رقاب الجبابرة لأصفيائك . وخطفت أبصارهم الأعداء عن أوليائك . وقطعت أعناق الأكاسرة لأتقيائك . وأهلكت الفراعنة . ودمرت الدجاجلة لخواصك المقتربين . وعبادك الصالحين يا غياث المستغيثين أغثنى . (ثلاثا) على جميع أعدائك . فحمدى لك يا إلهى واصب . وثنائى عليك متواتر دائبًا دائمًا من الدهر إلى الدهر بألوان التسبيح والتقديس وصنوف اللغات المادحة وأصناف التنزيه خالصًا لذكرك . ومرضيًا لك بناصع التحميد والتمجيد . وخالص التوحيد . وإخلاص التقرب والتقريب والتفريد . وإمحاض التجيد بطويل التعبد والتعديد . لم تعن فى قدرتك . ولم تشارك ألوهيتك . ولم تلم لك ماهية . فتكون للأشياء المختلفة مجانسًا . ولم تعين إذ حبست الأشياء على العزائم المختلفات . ولاخرقت الأوهام حجب الغيوب إليك فأعتقد منك محدوداً فى مجد عظمتك . لايبلغك بعد الهمم . ولاينالك غوص الفطن ، ولاينتهى إليك بصر ناظر فى مجد جبروتك . ارتفعت عن صفات المخلوقين صفات قدرتك . وعلا عن ذكر الذاكرين

كبرياءعظمتك . فلا ينقص ما أردت أن يزداد . ولا يزداد ما أردت أن ينقص . لا أحد شهدك حين فطرت الخلق ، ولاند حضرك حين برأت النفوس كلت الألسن عن تفسير صفاتك . وانحسرت العقول عن كنه معرفتك وصفاتك . وكيف يوصف كنه صفاتك يارب . وأنت الله الملك الجبار القدوس الأزلى الذى لم يزل ولا يزال أزليًا باقيًا أبديًا سرمريًا دائمًا فى الغيوب وحدك لاشريك لك . ليس فيها أحد غيرك ولم يكن إله سواك . حارت فى بحار بهاء ملكوتك عميقات مذاهب التفكر . وتواضعت الملوك لهيبتك . وعنت الوجوه بذلة الاستكانة لعزتك . وإنقاذ كل شىء لعظمتك . واستسلم كل شىء لقدرتك . وخضعت لك الرقاب وكل دون ذلك تحبير اللغات . وضل هنالك التدبير فى صفات تصاريف الصفات . فمن تفكر فى إنشائك البديع وثنائك الرفيع . وتعمق فى ذلك . رجع طرفه إليه خاسئًا حسيراً . وعقله مبهوتًا . وتفكره متحيراً أسيراً . اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا دائمًا متواليًا متواتراً متضاعفًا متسعًا متسقًا يدوم ويتضاعف . ولا يبيد غير مفقود فى الملكوت . ولا مطموس فى المعالم . ولا منتقص فى العرفان ، فلك الحمد على مكارمك التى لاتحصى . ونعمك التى لاتستقصى . فى الليل إذا أدبر . والصبح إذا أسفر . وفى البر والبحار والغد والآصال والعشى والإبكار والظهيرة والأسحار . وفى كل جزء من أجزاء الليل والنهار . اللهم لك الحمد بتوفيقك قد أحضرتنى النجاة ، وجعلتنى منك فى ولاية العصمة . فلم أبرح منك فى سبوغ نعمائك . وتتابع آلائك . محروسًا بك فى الرد والامتناع . ومحفوظًا لك فى المنعة والدفاع عنى . اللهم إنى أحمدك إذ لم تكلفنى فوق طاقتى . ولم ترض منى إلا طاعتى . ورضيت منى من طاعتك وعبادتك دون استطاعتى . وأقل من وسعى ومقدرتى . فإنك أنت الله الملك الحق الذى لا إله إلا أنت . لم تغب ولا تغيب عنك غائبة . ولاتخفى عليك خافية . ولن تضل عنك فى ظلم الخفيات ضالة . إنما أمرك إذا أردت شيئًا أن تقول له كن فيكون (تقرأ الإخلاص ثلاثا) اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا دائمًا مثلما حمدت به نفسك وأضعاف ماحمدك به الحامدون . وسبحك به المسبحون . ومجدك به الممجدون . وكبرك به المكبرون . وهلك به المهللون . وقدّسك به المقدسون . ووحدك به الموحدون . وعظمك به المعظمون . واستغفرك به المستغفرون حتى يكون لك منى وحدى فى طرفة عين وأقل من ذلك مثل حمد جميع الحامدين وتوحيد أصناف الموحدين والمخلصين

وتقديس جميع العارفين . وثناء جميع المهللين والمصلين والمسبحين . ومثلما أنت به عالم وأنت محمود ومحبوب ومحجوب من جميع خلقك كلهم من الحيوانات والبرايا والأنام . إلهى أسأل بمسائلك . وأرغب بك فى بركات ما أنطقتنى به من حمدك ووفقتنى له من شكرك وتمجيدى لك . فما أيسر ما كلفتنى به من حقك . وأعظم ما وعدتنى به من نعمك . ومزيد الخير على شكرك . ابتدأتنى بالنعم فضلا وطولا . وأمرتنى بالشكر حقا وعدلاً . ووعدتنى عليه أضعاف مزيداً . وأعطتنى من رزقك واسعًا كثيرًا اختياراً منك ورضاء . وسألتنى عنه شكرًا يسيرًا ، لك الحمد اللهم على أن نجيتنى وعافيتنى برحمتك من جهد البلاء ودرك الشقاء ولم تسلمنى لسوء قضائك وبلائك . وجعلت ملبسى العافية وأوليتنى البسطة والرخاء . وشرعت لى أيسر القصد وضاعفت لى أشرف الفضل ، مع ماعبدتنى به من المحجة الشريفة وبشرتنى به من الدرجة العالية الرفيعة . واصطفيتنى بأعظم النبيين دعوة . وأفضلهم شجاعة . وأرفعهم درجة وأقربهم منزلة . وأوضحهم حجة . سيدنا مجمد صلى الله عليه وسلم . وعلى جميع الأنبياء والمرسلين . وأصحابه الطيبين الطاهرين اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأغفر لى ولأهلى ولإخوانى كلهم ما لا يسعه إلا مغفرتك ولايمحقه إلا عفوك . ولا يكفره إلا تجاوزك وفضلك . وهب لى فى يومى هذا . وليلتى هذه . وساعتى هذه . وشهرى هذا . وسنتى هذه . يقينا صادقًا يهون على مصائب الدنيا والآخرة وأحزانهما . ويشوقنى إليك ويرغبنى فيما عندك . واكتب لى عندك المغفرة وبلغنى الكرامة من عندك . وأوزعنى شكر ما أنعمت به على فإنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الواحد الأحد الرفيع والبديع المبدئ المعيد السميع العليم الذى ليس لأمرك مدفع . ولا عن قضائك ممتنع . وأشهد أنك ربى ورب كل شىء فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة العلى الكبير المتعال . اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد والشكر على نعمك . وأسألك حسن عبادتك . وأسألك من خير كل ما تعلم . وأعوذ بك من شر كل ما تعلم إنك أنت علام الغيوب وأسألك لى ولأهلى ولإخوانى كلهم أمنا . وأعوذ بك من جور كل جائر ومكر كل ماكر . وظلم كل ظالم . وسحر كل ساحر . وبغى كل باغ وحسد كل حاسد . وغدر كل غادر . وكيد كل كائد . وعداوة كل عدو . وطعن كل طاعن . وقدح كل قادح . وحبل كل محبل . وشماتة كل شامت . وكشح كل كاشح ، اللهم

لك أصول على الأعداء والقرناء وإيدك أرجو ولائه لأحباء الأولياء والقرباء . فلك الحمد على ما لا يستطيع إحصاءه ولا تعديده من عوائد فضلك . وعوارف رزقك . وألوان ما أوليتنى به . من أرفادك وكرمك . فإنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الفاشى فى الخلق حمدك . الباسط بالجود يدك لاتضاد حكمك . ولا تنازع فى أمرك وسلطانك وملكك . ولاتشارك فى ربو بيتك . ولا تراحم فى خليقك . تملك من الأنام ماتشاء ولا يملكون منك إلا ما تريد . اللهم أنت المنعم المتفضل القادر المقتدر القاهر المتقدس بالمجد فى نور القدس . تردّيت بالمجد والبهاء . وتعظمت بالعزة والعلاء . وتأزرت بالعصمة والكبرياء . وتغشيت بالنور والضياء ، وتجللت بالمهابة والبهاء . لك المن القديم والسلطان الشامخ . والملك الباذخ . والجود الواسع . والقدرة الكاملة والحكمة البالغة والعزة الشاملة فلك الحمد على ماجعلتنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى آله وهو أفضل بنى آدم عليه السلام الذين كرمتهم وحملتهم فى البر والبحر . ورزقتهم من الطيبات وفضلتهم على كثير من خلقك تفضيلا . وخلقتنى سميعًا بصيراً . صحيحًا سويًا سالمًا معافى ولم تشغلنى بنقصان فى بدنى عن طاعتك . ولا بآفة فى جوارحى . ولا عاهة فى نفسى ولا فى عقلى . ولم تمنعنى كرامتك إياى وحسن صنيعك عندى . وفضل منائحك لدى ونعمائك على . أنت الذى أوسعت على فى الدنيا رزقًا . وفضلتنى على كثير من أهلها تفضيلا . فجعلت لى سمعًا يسمع آياتك . وعقلا يفهم إيمانك وبصراً يرى قدرتك . وفؤادًا يعرف عظمتك . وقلبًا يعتقد توحيدك فإنى لفضلك على شاهد حامد شاكر . ولك نفسى شاكرة وبحقك على شاهدة . وأشهد أنك حى قبل كل حى . وحى بعد كل ميت وحى . لم ترث الحياة من حى . ولم تقطع خيرك عنى فى كل وقت ولم تقطع رجائى ولم تنزل بى عقوبات النقم . ولم يتغير على وثائق النعم . ولم تمنع عنى دقائق العصم . لو لم أذكر من إحسانك وإنعامك على إلا عفوك عنى . والتوفيق لى . والاستجابة لدعائى حين رفعت صوتى بدعائك وتحميدك وتوحيدك وتمجيدك وتهليلك وتكبيرك وتعظيمك وإلا فى تقديرك خلقى حين صورتنى فأحسنت صورتى . وإلا فى قسمة لأرزاق حين قدرتها لى لكان فى ذلك مايشغل فكرى عن جهدى . فكيف إذا فكرت فى النعم العظام التى أتقلب فيها ولا أبغ شكر شىء منها . فلك الحمد عدد ماحفظه علمك وجرى به قلمك . ونفذ به حكمك فى خلقك . وعدد ما وسعته

رحمتك من جميع خلقك . وعدد ما أحاطت به قدرتك وأضعف ما تستوجبه من جميع خلقك . اللهم إنى مقر بنعمتك على فتمم إحسانك إلى فيما بقى من عمرى أعظم وأتم وأكمل وأجمل وأحسن مما أحسنت إلى فيما مضى منه برحمتك يا أرحم الراحمين . اللهم إنى أسألك وأوسل إليك بتوحيدك وتمجيدك وتحميدك وتهليلك وتكبيرك وتسبيحك وكمالك وتدبيرك وتعظيمك وتقديسك ونورك ورأفتك ورحمتك وعلمك وحلمك وعلوك ووقارك وفضلك وجلالك ومنك وكمالك وكبريائك وسلطانك وقدرتك وإحسانك وامتنانك وجمالك وبهائك وبرهانك وغفرانك ووليك ونبيك وعترته الطيبين الطاهرين . أن تصلى على مولانا محمد وعلى سائر إخوانه الأنبياء والمرسلين . وأن لاتحرمنى أنا وأهلى وإخوانى كلهم رفدك وفضلك وجمالك وجلالك وفوائد كرامتك . فإنه لا يعتريك لكثرة ما قد نشرت فى العطايا عوائق البخل . ولا ينقض جودك التقصير فى شكر نعمتك . ولا تنفد خزائنك مواهبك المتسعة . ولا يؤثر فى جودك العظيم منحك الفائقة الجليلة الجميلة الأصلية . ولاتخاف ضيم إملاق فتكدى . ولا يلحقك خوف عدم فينقص من جودك فيض فضلك إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير (تقرأ الإخلاص ثلاثا) اللهم ارزقنى قلبًا خاشعًا خاضعًا ضارعًا . وعينًا باكية وبدنًا صحيحًا صابرًا . ويقينا صادقًا بالحق صادعًا . وتوبة نصوحا ولسانًا ذاكرًا وحامدًا . وإيمانًا صحيحًا ورزقًا حلالاً طيبًا واسعًا وعلمًا نافعًا وولدًا صالحًا وصاحبًا موافقًا . وسنًا طويلاً فى الخير مشتغلا بالعبادة الصالحة . وخلقًا حسنًا وعملاً صالحًا متقبلاً . وتوبة مقبولة ودرجة عالية رفيعة . وامرأة مؤمنة طائعة . اللهم لا تنسنى ذكرك ولا تولنى غيرك ولا تؤمنى مكرك ولاتكشف عنى سترك . ولا تقنطنى من رحمتك ولا تبعدنى من كنفك وجوارك . وأعذنى من سخطك وغضبك . ولا تؤيسنى من رحمتك وكن لى ولأهلى ولإخوانى كلهم أنيسًا من كل روعة وخوف وخشية وغربة . واعصمنى أنا وأهلى وإخوانى كلهم من كل هلكة . ونجنى من كل بلية وآفة وعاهة وغصة ومحنة وزلزلة وشدة وإهانة وذلة وغلبة وقلة وجوع وعطش وفقر وفاقة وضيق وفتنة ووباء وبلاء وغرق وحرق وبرق وسرق وحر وبرد ونهب وغى ضلالة وضآلة وهامة وزلل . وخطايا وهم وغم ومسخ وخسف وقذف وخلة وعلة ومرض وجنون وجذام وبرص ونقص وفالج وباسور وهلكة وفضيحة وقبيحة فى الدارين إنك لا تخلف الميعاد . اللهم ارفعنى ولا تضعنى . وادفع

عنى ولا تدفعنى . واعطنى ولاتحرمنى وزدنى ولاتنقصنى . وارحمنى ولاتعذبنى . وفرّج همى واكشف غمى . واهلك عدوى وانصرنى ولاتخذلنى واكرمنى ولاتهنى واسترنى ولاتفضحنى وآثرنى ولا تؤثر على . واحفظنى ولا تضيعنى فأنك على كل شىء قدير يا أقدر القادرين ويا أسرع الحاسبين وصلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد وآله وسلم أجمعين يا ذا الجلال والإكرام اللهم أنت أمرتنا بدعائك ووعدتنا بإجابتك وقد دعوناك كما أمرتنا . فاستجب منا كما وعدتنا يا ذا الجلال والإكرام أنك لاتخلف الميعاد . اللهم ما قدرت لى من خير وشرعت فيه بتوفيقك وتيسيرك فتممه لى بأحسن الوجوه كلها وأصوبها وأصفاها فإنك على ماتشاء قدير وبالإجابة جدير نعم المولى ونعم النصير . وما قدرت لى من شر فتحذرنى منه فاصرفه عنى ياحى ياقيوم يامن قامت السموات والأرضون بأمره . يا من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . يا من أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون . سبحان الله القادر القاهر القوى العزيز الجبار الحى القيوم بلا معين ولاظهير برحمتك أستغيث . اللهم هذا الدعاء ومنك الإجابة وهذا الجهد منى وعليك التكلان (ثلاثا) ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم . والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا وصلى الله على مولانا محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدا إلى يوم الدين وحسبنا ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين .

■■■

الملحق (٤)
بعض نماذج نثرية سودانية
كتبت فى القرن التاسع عشر

نماذج نثرية مختارة لبعض الكتّاب السودانيين(١)

النموذج الأول

كتب السلطان تيراب إلى السلطان هاشم سلطان كردفان يقول :

إلى ابن العم المكرم السلطان هاشم سلطان كردفان أعزه الله . أما بعد فإنى لا أعلم السبب الذى يحملك على غزو بلادى مع ما هنالك من صلات القربى وعلاقات المودة التى تربطنا ، ولم يكن منى ما يكدر صفاءها ، وأنت تعلم أن هؤلاء الذين تغزوهم هم مسلمون مثلك يعبدون الله ورسوله ، وما من عاقل يفعل ما أنت فاعل . فعند وصول كتابى هذا أرجو أن تكف عن العناء رفقاً بالرعية وتذكر أن الظالم ينال جزاء فعله والسلام .

النموذج الثانى

كتب السلطان عبدالرحمنسلطان دارفور إلى نابليون بونابرت يقول :

بسمالله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . من سلطان دارفور السلطان عبدالرحمن الرشيد إلى المعظم سلطان الجيوش الفرنساوية ألف سلام .

أما بعد فنعلمكم أن خبر انتصاراتكم على المماليك وصل إلينا فتلقيناه بغاية السرور ، وقد أخبرنا أحد الأفرنج الذين اعتنقوا الإسلام بحسن معاملتكم للأجانب . فأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلانى وكلفناه أن يؤكد لكم صدق مودتنا ، التى نسأل الله دوامها . ونحن توصيكم بالخبير لتحموه وأتباعه وعبيده ولكم منا ألف تحية وسلام .

---

(١) النماذج الثلاثة الأولى مقتبسة من تاريخ السودان لنعوم شقير ج٢ ص ١١٧ ـ ١٣١ .

النموذج الثالث

كتب السلطان محمد الفضلى إلى محمد على باشا يقول :

الحمد الله الذى حكم بين عبادة الحق قطعًا ، سبحانه يجزى كل نفس بما تسعى ، وإليه المعاد والرجعى وهو حسبى وكفى .

من حضرة من زمن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعًا من كل أحد ، وصيره فى قلوب الأعداء نارًا تستعر وجمرًا يتوقد ، وجعل الله على يده وضرب من طغى وتمرد ومن ضل وتعند ، هو شاب صغير السن ولو صار كهلا لخضعت له الأنس والجن ، وقد اشتهر بالكرم والجود ، وحال بعوارضه أنجم السعود . وإن قامت الهيجاء بنفسه يجود ويصل إلى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود ، هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبدالرحمن الرشيد أعزه الله .

إلى حضرة الكوكب العالى والنير المتلالى بهجة الأنام وقدرة الليالى ، صاحب العز والافتخار محمد على باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات ، واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنه وكرمه .

أما بعد فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته ولديكم . قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله إلى رضوانه ، وفهمنا خطابكم ومقتضى جوابكم ، وكل كلمة من المرقوم يستحق جوابها للمفهوم ، ولكن يكفى من ذلك كله كلام الحى القيوم حيث قال :

﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحًا ولايشرك بعبادة ربه أحدًا ، أنكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم ، وهل بلغكم أننا كفار وجب لكن قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا؟ أو غركم كما قتالكم مع ملوك سنار والشايقية؟ فنحن السلاطين وهم الرعية ، أورد لك دليل من الله تجد فيه ملكك؟ أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليككك؟ أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك ربا قويا ولنا رب ضغيف؟ الحمد الله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ، ندين بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ونؤدى الفرائض

ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، والذى لم يصل نأمره بالصلاة ، الذى لم يزك نأخذ منه الزكاة ونضعها فى بيت المال ولاندخرها ، ونرد الأمانات إلى أهلها ، ونعطى كل ذى حق حقه ، حتى دانت لنا القبائل العظام : ومن أتى دولتنا يرجع مكرمًا بإذن الله تعالى ، ولو اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، ألم تر إلى قوله ﷺ «لو بغى جبل على جبل لدك الباغى» أما علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية ، وخيول حرد أدهمية؟ وعليها كهولة وشبان يسرعون إلى الهيجاء بكرة وعشية؟ أما علمت أن عندنا العباد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا؟ وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رمادًا ، ويرجع الملك إلى أهله ويكفى من بعد ذلك والله يكفى شر الظالمين .

النموذج الرابع (١)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن عبدالله إلى قاطبة العلماء والتجار والعمد والفقهاء والمساكين القاطنين بمدينة الأبيض ، اعلموا وفقنى الله وإياكم على اتباع الكتاب والسنة أنه قد أيدنى الله تعالى بالخلافة الكبرى ، وأعلمنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى المهدى المنتظر وخلقنى بالجلوس على كرسيه مرارًا بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر عليه السلام ، وأوتيت سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم ، وأعلمت أنه لاينصر علىّ واحد ، وأيدنى الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا ، وكذلك الجن إلى وقتنا هذا ، بعد أن أسلموا وصدقوا بمهديتى ، وفى حالة الحرب يحضر مع الجميع أمام جيشى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة والخلفاء والأقطاب والخضرعليه السلام ثم قال صلى الله عليه وسلم قد جعل لك على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن وجعل علامة أخرى تخرج رأية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت بها صحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله ولو كان الثقلين الإنس والجن ، ثم قال صلى الله عليه وسلم أنك مخلوق من نور

---

(١) من مناشير المهدىّ الجزء الأول (مخطوط) .

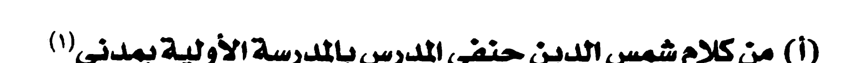
عنان قلبى فمن له سعادة صدق بأنى المهدى المنتظر ومن لا جعل الله له عوارض تصده عن التصديق بأمر المهدى والمهدية لى . ولكن لايخفى أن البيان لايهدى وإنما الهادى هو الله تعالى ، وقد أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بأن ليس عليه إلا البلاغ وأنه لايهدى من أحب ، وأنى قد كاتبتكم لظن الخير فيكم ، وأعلمتكم بالحقيقة التى لا كذب فيها ولست فيها بمتحيل ولا متصنع ، وإنماهو الحق الصدق الآتى من الله ورسوله ، ومعلوم أنه لايكذب على الله ورسوله إلا من لا خلاق له عند الله تعالى ، ومن يعلم علم اليقين أن متاع الدنيا قليل لا يزن عند الله جناح بعوضة لا يؤثره على ما عند الله ولو آثره عليه لكأنه لم يكن وأعقب عليه حسرة لا آخر لها فلا يؤثر حياة الدنيا على التقوى والاقتداء بالأنبياء والأصفياء إلا من لا عقل له . وإنى عبد مسكين لا طاقة لى بقوام أدنى شىء فلولا أنى على نور من الله وتأيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدرت على شىء ولا ساغ لى أن أحكى بشىء . وما أخبرت عن النبى صلى الله عليه وسلم بما أخبرت إلا بأمر منه صلى الله عليه وسلم . وقد أخبرنى عليه الصلاة والسلام بأخبار ليست عند الأولياء ولا عند العلماء . وقد قال تعالى ويخلق ما لا تعلمون ، وقد دلت كرامات وآيات على صدق إخبارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا تنفع الكرامات والآيات من أراد الله شقاوته . وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم مراراً أن من شك فى مهديتى كفر بالله ورسوله ، وأن من عادانى كافر وأن من حاربنى يخذل فى الدارين وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين . وليكن معلومًا عندكم أنى لا أفعل شيئًا إلا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم والجهاد الذى حصل للترك فإنه من أمرسيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقد أخبرنى عليه الصلاة والسلام بأخبار وأسرار كثيرة إلى آخر فتح البلاد بالدين والسنة وبعض ما يحصل فيها وإنى منصور دائمًا على من عادانى وقد أقسم صلى الله عليه وسلم مراراً أنى منصور ومنظور منالله تعالى ، وقد كشف يوم القيامة وأن الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل فقالوا يا إلهنا ويامولانا ، الإمام المهدى قتلنا من غير إنذار فأقول يارب أنذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا وتركوا قولى وتبعوا قول علمائهم وصالوا على فحضر شاهد على ذلك سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم ذنبكم عليكم الإمام المهدى أنذركم وأعلمكم فما قبلتم وسمعتم قول علمائكم فأقبلوا على بعضهم بعضا يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين

استكبروا ولولا أنتم لكنا مؤمنين . وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وأما عدم تسليم أهل الدولة من أول مرة فإنه حكمة أزلية ووقت تسليمهم علم عند الله تعالى ؛ وفى ذلك أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لم تسلم له الملوك من أول الأمر وقد حصلت له صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاق كثيرة ومقاتلات عظيمة مع الأكابر وعلماء اليهود والنصارى الذين كانوا يدعون أنهم يكونون أول أتباعه صلى الله عليه وسلم وكانوا يستفتحون به وكل ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم خيرخليقة الله عز وجل ،وإنى مقتف أثره ومهتد بنوره ، وقد أخبر أن الترك لاتطهرهم المواعظ بل لا يطهرهم إلا السيف إلا من تداركه الله بلطفه وقد أخبرنى صلى الله عليه وسلم أن الأمة تهدى بى بدون المشقة التى حصلت له صلى الله عليه وسلم وأتباعه وأنى مخلوق من نور عنان قلبه صلى الله عليه وسلم . وبشرنى صلى الله عليه وسلم أن أصحابه كأصحابى وأن عوامهم له رتبة عند الله كرتبة الشيخ عبدالقادر الجيلانى رضى الله عنه فإن الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء وقد يدخر الله للمتأخرين ماعسر على المتقدمين . ولكن لا يخفى عزيز علمك أن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدى لأنه ليس على معتقدهم الذين يظنونه ولاته يخالف مذاهبم فلمهديتى من الله دلائل ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومما يخبرك بعدم معلومية عين المهدى للعلماء اختلاف الروايات ، وكثرة الأقوال من أهل الكشف . والمعلوم أن ما علمه فى أزله لا يكون على هذه الروايات الكثيرة وقد وردت فيه أحاديث منها المقطوع والموضوع والضعيف بل الحديث الصحيح بنسخه الحديث الصحيح كما أن الآيات تنسخها الآيات والتصديق بالمهدية صعب لا يتوفق له إلا من أدركه الله بسابق سعادة لأنه لايهتدى إلى معرفة حقيقية إلا الأولياء العارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم صلى الله عليه وسلم . وأما ما ذكرت لى فى رسالتك إلى فمعلوم جواب كل كلمة منها فى إصابة أمرى لمن أنصف ، وكنت أردت أن أبين جواب كل كلمة ، ولكن قد علمت أن الهداية ليست من كثرة البيان إنك أن أمعنت النظر بعد تصديقك بمهديتى وجدت جواب ذلك أوضح من الشمس كما علم ذلك من صحبنى من العلماء على التصديق فمن هو دون علمك فى الظاهر ولو علمت حقيقتى لما كنت تكتب لى ما كتبته ولما وسعك إلا المعاونة على ما قلدنى الله تعالى فتدارك عمرك فقد مضى

ولا تؤثر على إجابتى أهلا ولا مالاً ولا جاهًا لتفوز بالفوز العظيم والخير الجسيم ، ولا تعاون الظلمة بعد هذا فإنه لا يخفاك ما أحدثوه فى الإسلام . وقد أخبرنى النبى صلى الله عليه وسلم فيهم بأخبار كثيرة ومثلك تكفيه الإشارة والسلام .

■ ■ ■

الملحق (٥)
روايات شفهية لبعض المعاصرين السودانيين عن التربية بالسودان فى القرون الماضية



(أ) من كلام شمس الدين حنفى المدرس بالمدرسة الأولية بمدنى[١]

كيف دخل العرب المسلمون السودان؟ .

دخلوا من ثلاث نواح : من مصر ، ومن الحجاز عن طريق البحر الأحمر بعضهم من الحبشة .

ما أول مسجد أسس للصلاة فى السودان؟

هو مسجد الأنصار بكنرانج ، شرق السيد (المسجد) بعد سنة ٩٠٠هـ .

ماذا تعرف عن تأسيس المسجد وتطوره؟

عيسى بن بشارة الأنصارى الخزرجى ولد بالمدينة المنورة ، وطلب العلم فى الأزهر الشريف فى زمن زكريا الأنصارى (شيخ الإسلام بمصر) وكان أساتذته برهان الدين بن أبى شريف ، والشيخ أحمد البنوفرى وغيرهم . جاء من مصر إلى السودان بعد التسعمائة الهجرية ، واتصل بملك الجموعية الأول سليمان النار ، فزوجه ابنته عائشة ، وولدت له عبدالدايم . ثم توفى الملك ولم يصل بعد الوفاة اتفاق فى السياسة بين أبناء الملك وعيسى بن بشارة فرحل من دار الجموعية (التى هى بالقرب من أم درمان ؛ القيزان) إلى عرب رفاعة . فوجدهم بادية وتزوج منهم وأسس مسجد كتران (قطر عنج وهم ملوك النوبة) وبنيت حوله الحالة القائمة الآن المسماه كتران .

وكان القرآن والدروس الدينية تعلم فى هذا المسجد على يد عيسى المذكور إلى أن توفى فخفه ابنه عبدالديم ، وإن كان لم يخلف والده فى قدره العلمى بالرغم من حفظه القرآن ومعرفته

---

(١) أعطانى هذه الرواية فى ١٧ إبريل سنة ١٩٤٠ .

للشريعة التى تلقاها على والده ، ولكنه مات صغير السن ، ثم خلف الدايم ، ابنه مدنى وأخذ علمه بالكمال عن أبيه . ثم مات وخلفه ابنه مضوى فأخذ علمه عن والده مدنى . ثم طلب العلم فى البحر الأحمر على الشيخ محمد المصرى تلميذ الشيخ يوسف الزرقانى المشهور بالأزهر ؛ ووالد الشيخ مضوى ببربر ويسمونهم المصاورة . فكان المضوى بن مدنى على علم كثير حوالى ١٠٥٠ ثم خلفه ابنه مدنى ، وابنه عيسى الأصغر فى معلوماته . فولد عيسى أحمد بن عيسى الذى انتفع منه القطر السودانى أجمع .

هاجر أحمد بن عيسى المذكور إلى الأزهر فى القرن الثانى عشر وأخذ العلم عن فحول الأزهر كالشيخ الدرديرى والشيخ محمد الأمير والشيخ عبدالرحمن العريش والشيخ عبدالله اللبان والشيخ محمد الحفاوى والشيخ حسن الجداوى والشيخ البيلى والشيخ محمد الصبان والشيخ أحمد جاد الله والشريف المرتضى شارع القاموس المحيط . وقد قال الشيخ عبدالرحمن البدوى لقد رأيت خطوط كل هؤلاء الشيوخ فى التركية السابقة .

وهذا الفقيه أحمد بن عيسى لما رجع ومن الأزهر أقام بكسران ووجد فيها الفقيه أحمد بن مدنى ابن عمه خليفة فأقام معه واجتمع عليه الناس من كل جهة . فلما كثر الطلبة ترك أحمد ابن عيسى بالمسجد المذكور الخليفة أحمد بن مدنى ومعه أحد تلايمذه الشيخ محمد الجبيل العمرابى بعد أن تخرج عليه وزوجه من ابنته وذهب الشيخ أحمد عيسى إلى سنار ، فبقى الطلبة الصغار مع محمد الجبيل وذلك مثل الشيخ الأزرق الجنوباوى (ابن الفقيه أحمد أبوجدرى) ود عكر المشهور بالسودان .

ولما وصل الفقيه أحمد إلى سنار اجتمع عليه طلبة كثيرون منهم الشيخ بدوى ود أبو صفية المدفون بالأبيض ، والذى كان له أثر محمود فى نشر الإسلام فى جبال النوبة . وقد أسلم على يده آلاف من الناس لبركته . ومنهم الشيخ الضو ولد الراجل فى أم عرق بكردفان والشيخ شنبول بجهة الساعانة والشيخ جميل الله التعايشى ولد أم بدى ، جميل الله القاضى الأول للمهدى ، والشيخ إبراهيم بن عبدالدافع أول مفتى السودان . والشيخ الجمرى ود الكارب بالقضارف والشيخ عيسى وداد بالسلمية . والشيخ دفع الله بن شرف بأبى حراز وغيرهم .

وكان اجتماع الفقيه أحمد بسنار فى أماكن أعدها لهم ملوك سنار المسمون بالفونج ووزراؤهم الهمج . واجتمع عليه فى نفس الزمن عدد كبير من الجبارتة من الحبشة أشهرهم الفقيه الصادق الجبرتى الذى كان أمام جامع سنار فى السلطة الزرقاء وتوارث الأمامية بعده أبناؤه حتى زمن التركية .

مات الفقيه أحمد بن عيسى سنة الفتوح المصرى بسنار ورأى الحكومة المصرية . وكان فى حياته يمد ابن عمه الخليفة أحمد المدنى بكتران بشىء من المال والنفقة إلى أن توفى أحمد بن مدنى قبل أحمد بن عيسى ، وكذلك توفى ود الجبيل قبل أحمد بن عيسى .

أرسل أحمد بن عيسى إلى كتران ابنه إبراهيم فى السلطنة الزرقاء وصار إبراهيم يدرس ومعه أحمد البدوى ابن أخيه فى مسجد كتران واستمرا فى التدريس بالمسجد بعد الفتوح أيضا (أيام الحكومة المصرية) ثم رحل الفقيه إبراهيم بن أحمد بن عيسى من كنزان إلى المكان المسمى الآن المسيدو ترك ابن أخيه أحمد البدوى بمسجد كتران تحت إشرافه . وبنى المسجد فى المسيد بالطوب الأخضر ، فالتفت الحكومة المصرية إليه . وعملت هذا المسجد معهدًا علميًا بالسودان ، فبناه محمد على باشا بواسطة أحمد باشا المنيكلى .

وكان المدرسون فى هذا المسجد أحمد بن إبراهيم بن عيسى وأخوه محمد شاقوق بن إبراهيم وابن عمهم الفقيه الصويلح الذى أخذ عنه محمد أحمد المهدى (راجع تاريخ نعوم) وكان هذا المسجد له مرتب من الحكومة المصرية يصرف إلى أن قتل غردون وقد خرب هذا المسجد فى الحكومة الحضرة وبنى بناء جديدًا ، ولكن المنارة القديمة التى هى من بناء محمد على ما زالت قائمة إلى الآن .

ذهب الأستاذ أحمد[1] البدوى بن أخى الفقيه إبراهيم إلى مصر ليزيد معلوماته التى أخذها عن محمد الجبل ، وقد لقى بالأزهر محمد عليش والشيخ إبراهيم الباجورى والشيخ حسن القويسى وأخذ عنهم من العلم ماشاء ، فصار عالـمًا كبيرًا أجازه كل هؤلاء ، وقد احتفل به عند

(١) هو أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى . وقد أجازه كثيرون من علماء الأزهر . انظر هذا المجلد (ص٤٤ ومابعدها) وكان معه بالأزهر ابنه محمد الذى ذكر اسمه فى الإجازات المشار إليها .

إنهائه من الأزهر سعيد باشا الخديو ودعاه للغداء معه فى منزله وتحادث معه كثيرًا على المائدة ، وسأله عن السودان وأحواله ، فشرح له أحوال السودان وفى هذا العام نفسه جاء سعيد إلى السودان ، وكان مع أحمد البدوى هذا ابنه محمد الذى حضر معه كل دروس العلم ، وتركه بالأزهر إلى أن توفى محمد البدوى فى الأزهر ، وقد مكث به اثنتين وعشرين سنة ، وكان مدرسًا جليلا بالأزهر ، ثم لحق به أخوه الأمين بن أحمد البدوى ومكث بالأزهر مدة ثمان سنوات ومات هناك طالبًا ثم ذهب أخوه عبدالله إلى الأزهر ومكث فيه نحو أربع سنوات ورجع إلى السودان ببضاعة قليلة من العلم ، وكان قاضيًا فى السودان آخر الحكومة التركية ، ثم ذهب عبدالرحمن[1] البدوى إلى الأزهر ومكث فيه مدة طويلة تزيد عن أربع عشرة سنة ، أخذ الشهادة وعاد إلى السودان يدرس فى مسجد كتران المذكور إلى أن توفاه الله ، وهو مدفون به .

ومسجد كتران الآن يدرس فيه القرآن ومبادئ الدين على يد محمد بن عيسى بن عبدالرحمن البدوى ، وعدد طلبته الآن نحو اثنين وعشرين طالبًا جاءوا إليه من نواح خارج الحلة ، وبه أيضًا عدد من أبناء الحلة .

وإجازات هذه الشيوخ موجودة الآن بخطوطهم وأختامهم عند الشيخ محمد الأمين عبدالرحمن المدرس بالمدرسة الوسطى ببورسودان (انظر ص ٥١ وما بعدها من هذا المجلد) .

أسماء بعض الشيوخ الذين درسوا بالأزهر من أهل السودان

الشيخ محمد ود غشيب صاحب القبة شرق الكاملين ، أخذ فى الأزهر سنة ١٠٥٠ هـ تقريبًا أحمد ود الطيب رجع من الأزهر فى القرن الثانى الهجرى وشيوخه هم شيوخ أحمد بن عيسى الأنصارى .

والشيخ عبدالله الموازرى رجع من مصر فى أوائل الفتوح ومات بمدنى أيام كانت عاصمة السودان قبل الخرطوم .

ومن العلماء المصريين الذين زاروا السودان الشيخ عبدالرحمن الأفغانى والشيخ حسن المجدى الذى قتل فى فتوح الخرطوم وقد انتفع به الناس كثيرون بالخرطوم كالشيخ النذير بن خالد

---

(١) انظر ص ٥ .

المذكور قاضى القضاة بعد ولد أم بدى جميل الله أمام المهدية ، والمفتى شاكر الذى جاء من مصر إلى السودان آخر الحكومة المصرية والشيخ السلاوى أيضا كان قاضى قضاة السودان وانتفع به خلق كثير منهم الفقيه الضرير تلميذ الشيخ إبراهيم بن عيسى بالمسيد وكانت وظيفة القضاء عند أولاده من بعده ، فتخللهم أحد العبابدة المتخرج بالأزهر المدعو عثمان داود .

وفى النهاية كان محمد بن خوجلى بن هيك المحمى قاضى قضاة السودان آخر قاضى فى التركية السابقة وقتل بسيف المهدى ، وهو من تلاميذ إبراهيم بن أحمد بن عيسى الذين درسوا عليه بالمسيد وهذه كل دراساته .

(ب) تقرير عن كيفية تعليم الخلاوى

من إملاء الشيخ أحمد سليمان فقيه القرآن الكريم

والدين والمعلم بمدرسة كساب الأولية[1] وهى قرب القضارف

ولدت فى القضارف سنة ١٣١٢ هجرية . وتعلمت فى خلوة القضارف على يد الشيخ عبدالرحمن حسين والد حسين أفندى عبدالرحمن المدرس الآن بمدرسة الزراعة . وهو من المواليد . ويقال أنه جداوى .

وكان فى ذلك العهد نحو من ست خلاوى فى القضارف . وكانت العادة التفاؤل بإرسال الأولاد إلى الخلوة يوم الأربعاء . ولذلك أدخلت الخلوة يوم أربعاء وكان عمرى بين ٨ و ١٠ سنوات ، فأعطانى الشيخ لحوار من الحيران (التلميذ لشيخ الطريقة والحوار لمن يتعلم القرآن فى الخلوة) يسمى العريف وكان هو ياسين ابن أخت الشيخ . وكان من أكبر الأولاد سنًا .

ابتدأت أكتب فى الأرض ألف باء لغاية ما انتهيت من الحروف الهجائية .

ثم رجعت لكتابة الحروف الهجائية مرة أخرى . ولكن هذه المرة أقول ألف لا شىء عليها الباء نقطة من تحتيها إلخ .

ولما انتهيت من هذا بدأت أتعلم أَ ألف قطعة ونصبة أَ ألف قطعة وخفضة إِ ألف قطعة ورفع أُ ألف جزم أْ . وبعد ذلك بَ نصب بِ خفض بُ رفع بْ جزم .

---

(١) أعطانى هذه الرواية فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤١ .

ثم بٌ شدّة ونصبه بً وخفضة بٍ شدّة ورفعة إلخ .

باً نصبتين بٍ خفضتين بٌ رفعتين بْ جزم أ بْ

ب جاب ابا ، ب جاب ى بى ، ب جاب وبو . . إلخ .

وبعد ذلك بدأت بالحمد .

وكان أثناء تعلمى ما سبق أكتب على الأرض أولا بإرشاد العريف . وبعد ذلك أكتب على اللوح . وكل مرحلة على الأرض أكتب مثلها على اللوح . وكان اللوح من خشب ويجبر بالجير . والعريف يكتب عليه بنواة البلح لى . وأنا يطلق على الحوار . وكنت أنا أكتب مكان أثر النواه بالجير . وهكذا .

وفى المساء يجتمع الحيران من المغرب إلى العشاء حول النار التى جمعوا حطبها ، ليقرأوا عليها من الليحان (جمع لوح) . ويجلس الشيخ ساكتًا . وبعد زمن كل واحد يقوم يسمع لوحة للشيخ فإذا حفظ يصدق له أن يمحو فى الصباح ماحفظه ليكتب لوحًا جديدًا مما طالعه فى العصر .

والأولاد الذين يقيم أهلهم فى نفس الحلة يذهبون إلى بيوتهم بعد صلاة العشاء . أما الكبار أو الذين يجيئون من أماكن بعيدة ويسمون «طلبة» فإنهم يبقون فى الخلوة حول النار فى دراسة القرآن وقراءته من الرأس ثم ينامون فى الخلوة .

وفى الصباح يشتغلون فى كتابة الألواح . وكل واحد من العرفاء يمسك جماعة من الصغار ليشتغل معهم . وبعد ما يشتغل يجلس فى مكانه ويمر عليه الحوار ليقرأ اللوح ليصحح له الفقيه الشكل والمد إلخ .

وفى بعض أوقات يكون صاحب الخلوة غير الفقيه لأن صاحبها شيخ طريقة .

وما تعلمنا فى الخلوة غير القرآن . أما العلم فتعلمناه على ناس آخرين يعلمون العلم فقط مثل الفقيه والتوحيد . وهؤلاء الناس مثل ولد الأزرق وهو عالم كان فى الأزهر . وكان يدرس فى بيته ويعطى هدايا له .

ومن أولاد الشيخ الأزرق هذا الشيخ عمر الأزرق المدرس بكسلا والذى أحيل على المعاش فى العام الماضى وارجع ليشتغل مدة سنة فقط بمدرسة كسلا بعد إخلاء الطليان منها .

(جـ) رواية الشيخ أبو القاسم بن دفع الله [1]

وقد زرته فى حلة الحديبة بالقرب من أبى حراز فى ٢٥ إبريل ١٩٤٠

زرت هذا الشيخ وقد ناهز الثمانين وهو مشهور فى السودان بمعرفته للروايات التاريخية ، وهو من أسرة دفع الله المشهورة . ودار بيننا الحديث الآتى :

س : كيف دخل التعليم السودان؟

جـ : كانت السودان غلب عليها الجهل لخلوها من العلماء الراشدين ، فقام الشيخ عبدالله ابن مقبل المنسوب إلى العركيين وتوجه إلى دنقلة وكان بها أولاد جابر العلماء . فقرأ عليهم العلم حتى أجازوه فى المذاهب الأربعة ، وحضر وجلس للتدريس فى أبى حراز ، وتعلم عليه خلق كثير ، منهم صاحب القصير ، ونشر العلم بالسودان ، وتعلم عليه ابن عمه الشيخ شرف الدين (جدنا) وإخوانه أولاد مقبل الأربعة وهم : أبو إدريس وحمد اليل وعمر وأبوبكر ، ومنهم انتشر العلم بالسودان . وقام أحدهم الشيخ شرف الدين توجه إلى جزيرة أنقاوى فى مديرية بربر ونشر بها العلم والطريق وأصلح بها خلقًا كثيراً ، ومن ضمن تلامذته الشيخ باسبار العونى ، ومسبق وهيب وابن خالته الشيخ عبدالله الأغبش جد الأغبش ، غبش بربر ، وغيرهم مما لا يحصون . وأما الشيخ عبدالله فقدنشر العلم هنا فى أبى حراز وقد عاش الشيخ عبدالله هذا من مدة ٣٨٠ سنة .

وأولاد جابر جاءوا بالعلم من مصر . ويوجد لهم نسل الآن وذرية كثيرة فى دنقلة .

س : كيف جاء طريق الصوفية إلى السودان؟

جـ : جاء من الشرق ؛ جاء به الشيخ تاج الدين البهارى من مكة ؛ جاء بالطريقة القادرية فوقد إليه الناس أفواجًا لأخذ الطريقة . فطلع فى سطح فى الدور الثانى وأطلع معه ثلاثة خرفان .

---

(١) توفى هذا الشيخ إلى رحمة الله .

للناس الطريقة بالذبح فمن أراد منكم أن يضحى بنفسه ويرضى بالذبح أعطيته الطريق
ف الناس عن ذلك ، ومنهم الشيخ عبدالله العركى . وقال لهم ماهذه بطريق الله ولم نؤمر بذلك . ونهينا بقوله تعالى (ولاتقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا) فتوقف الناس عن الصعود إلى تاج الدين . فقام أحدهم (ود بانقا) وكان رجلا كبيراً مكفوف البصر وطلع السلالم . فلما وصل عنده قال له : أنا جدت بنفسى للوصول إلى الله تعالى . فضحك الشيخ تاج الدين وأعطاه الطريق وذبح خروفًا وسال دمه فوق السلالم حتى وصل إلى الأرض . فصعد آخر وهو الشيخ محمد ود عبدالصادق (رجل المندرة) جد الصادقاب فأعطاه الطريق وذبح الخروف الثانى ، وكان ابن خالة الشيخ شرف الدين . فأراد الشيخ شرف الدين أن يطلع وبكى ، وظن أن ابن خالته ذبح . فجاء الشيخ عجيب المانجلك ـ وهو ابن خالة الشيخ شرف الدين وابن خالة المذبوح ـ وأسر إلى الشيخ شرف الدين وقال له تأخر فإنى طالع إليه فإن وجدته ذبح ابن عبدالصادق ذبحته ومعى خنجر تحت قميصى . فلما طلع وجد الاثنين حيين وذبح الخروف الثالث . فلما ذبح الخروف الثالث هجم الناس على الشيخ تاج الدين ، فوجدوا الثلاثة أحياء ، فلما وجدوهم كذلك ندم من لم يصعد ، وطلبوا من الشيخ الطريق خصوصًا الشيخ عبدالله العركى . فقال لهم الشيخ أنا لم أؤذن بإعطاء الطريق إلا لثلاثة . وأما أنتم فقد حرمكم الله نور العلم ، ثم ترجاه الشيخ عبدالله العركى فقال له تاج الدين تأبيا لك لا أعطيك الطريق إلا إذا لحقت بى فى مكة . فلحقه بمكة وترك الشيخ شرف الدين نائبًا عنه فى التدريس بأبى حراز ، فلما وصل مكة وجده توفى إلى رحمة الله ، ووجد خليفته حبيب الله العجمى ، وطلب منه أن يعطيه الطريق فقال له لا أعطيك الطريق إلابشرط وهو أن تعلف دوابى دهرًا طويلاً . فرضى بذلك وأقام معه بمكة سبع سنين ، ثم انتقل إلى زبيد باليمن وأقام معه بها ست سنين ، والجملة ١٣ سنة . فأعطاه الطريق حينئذ . ، فلما حضر السودان أعطى إخوته الطريق وكذلك الشيخ شرف الدين وترامت عليه الناس أفواجًا لأخذ الطريق . فما كان غير قليل حتى عمت طريقة مشارق السودان ومغاربها وانتشرت طريقة فى بلاد فور وبرهو وبرنو وفى الشرق إلى البحر الأحمر والحبشة . فقال بعض العلماء انتشرت طريقته لأنه سعى إليها وما نالها إلا بعد التعب . وكل ما ناله الإنسان بعد التعب كان أكثر نفعًا من غيره .

س : كيف كان التعليم فى أبى حراز؟

جـ : كان التعليم فى أيام الشيخ عبدالله العركى فى الخلوات . والخلوة كانت عبارة عن حجرة . وكان يعلم فيها القرآن أو العلم : التوحيد والفقه الحديث وجميع العلوم الدينية ، وعلم العربية ، ثم بعد دهر طويل تكاسل الناس وتضاءل ا لعلم وفشا فيهم الجهل حتى جاء الفقيه أحمد ود عيسى [1] الأنصارى من مدة ١٦٠ سنة . وهو صاحب المسيد ؛ جاء من مصر وقد أخذ كل العلوم على الشيخ والقطب الدرديرى . فلما حضر نشر كل العلوم بأنحاء السودان وأصبح كل جماعة فى المسيد تبنى وتسكن فيها حتى إن المسيد هذا كان يشتمل على نحو ١٦٠ خلوة . ومن ضمنهم والدى الذى كانت له خلوة هناك ، وهو الفقيه دفع الله . ولما مات الشيخ أحمد ود عيسى قام بالأمر من بعده ابنه الشيخ إبراهيم بن الفقيه أحمد عيسى .

س : كيف تعلمت أنت؟

جـ : حفظت القرآن على شيخى الفقيه مدنى بن عبد الصادق من بلدة أم دوم . وحضرت لأهلى بأبى حراز وعمرى ثمانى سنوات فأخذت العلم على أبى وأخى الفقيه محمد القاضى . وأبى أخذ العلم عن الفقيه إبراهيم عيسى وأخى عن أبى وعن الفقيه الأمير الضرير ، ثم أرسلنى أبى إلى الشيخ محمد إبراهيم عيسى فأخذت عنه العلم والفقه والنحو التفسير والحديث إلى أن بلغت العلم وأنا معه . فقامت المهدية وكان ذلك فى سنج ١٢٩٩هـ فتعطلت العلوم فى كل ناحية من السودان .

س : كيف كانت طريقة التعليم؟

جـ : كانت صفة التعليم أن يحضر كل واحد من بيته إلى الخلوة ويجلس أمام الشيخ على التراب ويقرأ كل منهم لوحه المكتوب له . ويكون مكتوب فى اللوح الحروف الهجائية فيقرئ الشيخ الولد الحروف الهجائية أ . ب إلخ . وبعد أن يتعلمها بطريق الحفظ فى الصبح يكتبها على الأرض فى العصر .وينتقل من طور إلى طور حتى يتعلم ال ب جاب ا با وال ب جاب ى بى

(١) انظر رواية الشيخ شمس الدين الحنفى ، ص ١٨ من هذا المجلد .

وال ب جاب وبو وأب وجاب سكون . وبعد ذلك يبدأ الحوار فى القرآن فينادى الفقيه أحد التلاميذ الكبار يقول له حورنا لك ده ، أى أن هذا الولد صار من حيرانك وأنت عريفه . فيبدأ الحوار الجديد فى سورة الفاتحة ثم المعوذتين فالإخلاص . ثم يصعد من سورة إلى سورة حتى يختم . وعندما يتعلم الحوار الفاتحة تعمل له وليمة ، ويعطى الفقيه شيئًا معلومًا من الدراهم . وعندما يصل إلى سورة لم يكن تعمل له شرافة ، وهى التزويق والكتابة بالأحمر ويعطى له أيضا جزء من الدراهم . ثم لما يصل إلى سورة عم تعمل له كرامة وهى أكبر من الشرافة ويعطى للفقيه شىء . ويمر الحيران على الأقارب يجمعون المال والحبوب للفقيه . فإذا وصل إلى تبارك عملت أيضا شرافة ، وكذلك إذا وصل إلى قد سمع والرحمن ومحمد ويس والفرقان ومريم والإسراء والتوبة والأعراف . فإذا وصل إلى البقرة عملت الشرافة الكبرى وذبح له بهيم كبير بقرة أو ناقة أو خروفان ثم يأتى مارًا راجعًا من أعلى إلى أسفل وتسمى هذه بالعودة المرة حتى يصل إلى المعوذتين . فإن كان ذا فهم وحفظ من هذه العودة فبها ونعمت وإلا عاد ثانيًا وثالثا إلى أن يتم الحفظ . ثم يتوجه إلى قراءة العلم . يعنى أن العلم لا يبدأ به إلا إذا انتهى من القرآن . وربما أغلب الناس يتركون العلم ويكتفون بالقرآن ، ويشتغلون معلمين للقرآن ولا يعرفون الوضوء ولا الصلاة .وأما الذين يشتغلون بالعلم . فيبدأون أولا بقراءة التوحيد ، مثل كتاب أم البراهين والخريدة وجوهرة التوحيد وبعد معرفة الله وصفات الرسل يشتغل بالنحو بأصغر كتاب منه ، وهو الأجرومية ثم الأزهرية ثم القطر ثم شذور الذهب ثم الألفية ، وإن شاء يقرأ التفسير بعد أن يكون عالمًا بالتوحيد والنور ولكنه يقرأ الفقه أولاً قبل التفسير ، مثل كتب العشماوية والعزية والرسالة وأقرب المسالك والمختصر . وكل هذه الكتب من مصر ، وبعضها يكتب باليد هنا وثمنها غالٍ قد يبلغ ثمن المائة صفحة ٨٠ قرشًا . ومتى انتهى الإنسان من تعلمه وأتم دروسه وأراد أن يكون قاضيًا أو مفتيًا يمتحن فى الخرطوم بمحضر علماء ويلقون عليه مسائل نحو الثلاثين أو الأربعين مسألة فإذا حلها استحق الرتبة . وكان ذلك فى عهد الحكومة التركية .

والحكومة التركية هى التى رتبت للفقيه ود . عيسى وللفقيه الأمير الضرير مرتبات شهرية وكذلك مرتبات [1] للفقراء والحكومة التركية عملت مدارس فى الخرطوم لتعليم الحساب

(١) راجع الملحق الثانى عشر من هذا المجلد .

والتحرير فى الخط ، وفى الخلوة ما كان حساب إلا القليل . وإذا أراد الوالد أن يعلم ابنه مهنة الكتابة يضعه مع الباشكاتب فيتعلم التحرير .

وكان فى الخرطوم مدرسة تعلم اللغة التركية ، ولما كان يرسل بعض الأولاد إلى هذه المدرسة كانت تقام المساحات .

وكان يذهب عدد من السودانيين إلى الأزهر ويتعلمون هناك ثم يعودون لنشر العلم ومنهم من أقام فى مصر .

(د) ذكريات الطفولة

للأستاذ محمود القبانى نشرت فى حضارة السودان ١٩٣٤و١٩٣٥و ١٩٣٦ فى صورة مقالات . هى منقولة عنه شخصيًا .

الشيخ محمود القبانى وعمره نحو ٦٨ سنة يقول إنه من الخرطوم من أسرة مصرية الأصل معروفة (اليوم ١٩٤١/١٢/٢٤) ولد سنة ١٨٧٣ .

س : أين تعلمت؟

جـ : تعلمت أولاً فى مدرسة الخرطوم الأميرية .

س : فى عهد مَنْ من خديوى مصر تأسست هذه المدرسة؟

جـ : هى المدرسة التى أسسها رفاعة بك[1] دخلت هذه المدرسة سنة ١٢٩٨ وذلك فى السنة الأولى .

س : مَنْ كان خديوى مصر فى ذلك الوقت؟

جـ : توفيق وحكمدار السودان محمد رءوف باشا .

س : هل كان فى السودان مدارس أخرى كثيرة من هذا النوع؟

جـ : لا . كان فقط فى كل عاصمة من عواصم المديريات مدرسة أقل من هذه المدرسة الأولية .

---

(١) واضح ما فى هذا القول من غلط ؛ لأن مدرسة رفاعة بك كانت فى عهد عباس الأول . ولعله أراد المدرسة التى كانت فى عهد إسماعيل .

س : من كان ناظر مدرستك فى ذلك الوقت؟

جـ : اليوزباشى الحسن طه أفندى خليل من مديرية البحيرة ، وهو قريب عائلة فتح الله باشا .

س : ومَنْ من المدرسين؟

جـ : باشخوجة المدرسة ومدرس اللغة العربية الشيخ العلامة أحمد محمد الجداوى الأصوانى . وكان قبل ذلك قاضى عموم دارفور ، لأن دارفور كانت مديريات وليست مديرية واحدة - والشيخ محمد إبراهيم عبدالدافع والشيخ إبراهيم عبدالدافع مفتى السودان من عهد الفتح مدرس الحساب ، والشيخ على التمورجى مدرس الخط وهو من أصل مصرى مولود فى الخرطوم ، ومن تلاميذ رفاعة مثل محمد إبراهيم عبدالدافع ، ومدرس اللغة الفرنسية السيد أفندى نعيم الذى أصبح بعد ذلك السيد بك نعيم - وهو إسكندرى تخرج فى مدارس باريس وكان صيدليا لعموم السودان وهناك مدرسون آخرون لم أقرأ عليهم .

وكان يتبع هذه المدرسة خلوة من فصلين لتعليم القرآن . وكان الأولاد داخلية وبها مدرس الفصل الأول الشيخ القره على طلبه المعروف فى السودان بأنه فقيه مصرى وكان له صوت جميل . وفى الفصل الثانى الشيخ بكرى الجرجاوى والشيخ محمد عبدالقادر التربى من نسل مصرى ومولود فى الخرطوم .

وكان فى المدرسة قسمان : قسم برانى يدفع المصاريف وأنا من القسم البرانى وقسم داخلى عدده مائتين ونظامه عسكرى يصرف للتلامذة أكل وملابس ومرتبات عسكرية . وكانت أعمارهم تتفاوت من ١٢ إلى أكثر من عشرين وكانوا يتعلمون مجانًا .

وكان الداخلى والبرانى يتعلمون فى فصول واحدة ويتلقون نفس المواد إلا اللغة الفرنسية فإنها كانت اختيارية للقسم البرانى . وقد كنت أنا ممن يتلقون اللغة الفرنسية . وكنت بجانبى بنت المدرس وهى البنت الوحيدة التى كانت تحضر الدروس دروس والدها السيد نعيم . وهذه البنت اسمها فاطمة ونقلت من الخرطوم قبل الحصار وأتت دروسها فى أوروبا وتزوجها المرحوم محمد بك مسعود المؤرخ .

وكان عدد التلاميذ البرانى أكثر من ٣٠٠ ، وكان معى فى درس الفرنساوى تلميذ من أولاد البرانى وهو محمود سامى فهمى بن أحمد فهمى الأجزجى البائى مع السيد نعيم .

وكان كل التلاميذ الداخلية والبرانى ٢٠٠و ٣٠٠ فى وقت الدرس يجلسون على الأرض ويكونون أربع فصول . أما فى درس الفرنساوى فنجلس على تخت ومكاتب أمامنا .

س : كم مصاريف البرانى؟

جـ : ريال مجيدى كل شهر وهو ١٦ قرشاً .

س : ما العلوم الأخرى التى كنتم تتعلمونها؟

جـ : الحساب . واللغة العربية والفرنسية للبعض ، والتركية ، وما كنا نتعلم القرآن . وكانوا يعتنون جداً بالخط الرقعة والفارسى (وكان يسقط فى الامتحان من لم ينجح فى الخط) .

س : التلاميذ الذين يتخرجون فى هذه المدرسة ماذا كانوا يلبسون؟

جـ : الداخلية يلبسون لبسا عسكريًا . أما البرانى فكانوا أحرارًا يلبسون كما يشاءون .

س : الذى يتم التعليم فى المدرسة ماذا كان يصنع؟

جـ : القسم الداخلى يعينون فى وظائف بلكات أمناء وكتّاب فى السلك العسكرى ، وبعضهم أيضا فى السلك الإدارى .

أما البرانى فهم مخيرون . من يطلب وظيفة يعطى مثل وظيفة كاتب أو صراف . وكان أغلب تلاميذ هذه المدارس من العنصر المصرى ٩٩٪ والباقى من العنصر السودانى أولاد العساكر وقليل جدًا من أولاد القبائل .

س : ولماذا لم يقبل أولاد رجال القبائل على التعليم فى هذه المدرسة؟

جـ : لأنهم كانوا يفضلون العلم الدينى على الشيوخ الآخرين .

س : هل أتممت تعليمك فى هذه المدرسة؟

جـ : لا .

س : ولم؟

جـ : لأنه فى منتصف السنة الثانية ألغى القسم الفرنسى لحوادث الثورة المهدية ، وانشغال المدرس بما يلزم . فانتقلت إلى المدرسة الكاثوليكية بالخرطوم .

س : هل أفهم من هذا أن المدرسة ألغيت عند الثورة المهدية؟

جـ : لم تلغ ولكننى خرجت لأننى أردت تعلم اللغات الأجنبية .

س : طبعا استمرت هذه المدرسة إلى سقوط الخرطوم فمن كان الناظر والمدرسون عند سقوط الخرطوم؟

جـ : الناظر كان بعينه وكذلك الشيخ التمرجى وقتلا وكذلك السيد نعيم . أما الشيخ محمد إبراهيم عبدالدافع فهجر الخرطوم فى وقت الحصار . وأما الشيخ الجداوى فهاجر إلى مصر قبل الحصار بوقت وجيز وخلفه الشيخ حسين مجدى الدمياطى الأزهرى الباشخوجة وكان من أكبار العلماء وكان يدرس فى المسجد . ومن تلاميذه الشيخ أبو القاسم وأخوه الشيخ الطيب والشيخ النذ الذى كان قاضى القضاة فى آخر أيام المهدية .

س : أين مكان المدرسة؟

جـ : كانت بقرب القشلاق العسكرى والجبخانة وفى أثناء الحصار نقلت إلى داخل البلد .

س : تقول إنه كان بكل عاصمة مديرية صغيرة فمن أين كانت تأتى النقود اللازمة لهذه المدارس؟

جـ : من الحكومة السودانية . والتوظيف من الحكومة السودانية .

س : هل كانت كل من مدرسة حلفا وسواكن تابعة للحكومة السودانية؟

جـ : لا ، لأن حلفا تابعة للحكومة المصرية وهى جزء من مديرية أسنا ، وكذلك كانت سواكن التى تبعت تركيا إلى عهد إسماعيل حين تنازل عنها السلطان عبدالعزيز .

س : مسجد الخرطوم أين كان ومن أسسه وماهو نظام التدريس فيه؟

جـ : لاتزال آثاره موجودة جنب مكتبة الأقباط وينتظر أن يجدد ، وأسسه خورشيد باشا وهو الذى عمل الجسر أو التراس الذى منع النيل الأبيض من الطغيان والوصول إلى المكان الذى هو الآن النادى المصرى . وكان مبنيًا باللبن ثم جدد بالطوب الأحمر وكان تابعًا للأوقاف المصرية وكذلك جامع سنار وكل جوامع المديريات .

س : كيف كان نظام التدريس فى الجامع؟ كان حسب المشايخ؟

جـ : كان فى المسجد مدرسون رسميون من شيوخ الأزهر ومن السودانيين وكانوا ينظمون دروسًا بحسب حالة الطلبة ، وكان لهؤلاء الشيوخ مرتبات وليس للطلبة ، ومن هؤلاء الشيوخ الشيخ حسين الجدى وقبله الشيخ إبراهيم عبدالدافع وقبله الشيخ أحمد السلاوى قاضى القضاة .

وكان خير الناس وفضلهم يغمر الطلبة والعلماء .

س : ما الذى نشرته الوقائع المصرية عن مدرسة الخرطوم؟

جـ : نشرت الوقائع عن حفلة امتحان سنة ١٢٩٧ وهى السنة الأولى فى هذه المدرسة وقد أشرت إليها فى ذكرياتى .

س : كيف كان نظام الامتحان؟

جـ : أول امتحان شهدته فى السنة الأولى استعداد المدرسة واستعدادنا ، وأنا كنت فى الثانية ألبس كسوة تشريفة . ينتظر الامتحان نحواً من عشرة أيام ، جاءت موسيقى الخرطوم دعى الحكام وأكابر الموظفين فدخل الحكمدار رءوف باشا وحوله جميع الموظفين العظام وصدحت الموسيقى بالسلام ، ثم قدم لهم الشربات والقهوة والسجاير ، ثم تقدم اثنان من التلامذة وأنشدا قصيدة بأصوات شجية من نظام الباشخوجة الجداوى وكانت القصيدة رائية ومطلعها :

بشموس أشرقت الدار	أم لاحت فيها أبدار
وإلى نجليه أنا دير	وحسين طالت أعمار
ويدوم سعادة باشانا	ويبلغه ما يختار

وأبا دير وحسين هما ابنا رءوف باشا .

ثم أثنى الحكمدار على النظام . وفتش صفوفنا وانصرف . وتشكلت لجان : لجنة لامتحان العربى ولجنة لامتحان الفرنسى ولجنة للحساب ومعهم ضباط وموظفون .

ولا يذهب الممتحنون لبيوتهم للغداء ، ولكن تقدم لهم الخراف والديكة و الحلويات مدة أيام الامتحان .

وكانت المدرسة تنصرف قبل غروب الشمس بساعة . والعادة إذا انصرفنا من المدرسة أن نقف صفين والناظر يقف فى الوسط ونرفع صوتنا بقراءتنا أسماء الله الحسنى ثم نقرأ من يرى ما فى الضمير ويسمع ، ثم يرفع الناظر يديه بالدعاء للخديو والخليفة ثم بعد ذلك . . ينصرف التلاميذ بانتظام .

وتقدمت للامتحان فامتحونى شفهيًا ـ وكان كل الامتحات شفهيًا والحساب على التختة والخط يقدم كراسة الخط التى تسمى غولة ، وكنت أنا قد اجتزت الامتحان بتفوق فى الفرنسية والعربية والحساب ، ولكن خطى لضعف فى يدى لم يكن جيدًا فأرادوا أن يسقطونى فى الامتحان كان الفائز إذا خرج يعرف بضرب الموسيقى ، ويستمر هكذا الامتحان ويبدأ عادة يوم ١٥ شعبان وفى رمضان كنا نذهب نصف يوم قبل الظهر ، ولم تكن هناك إجازة .

وخروجنا فى العادة كل يوم قبل غروب الشمس بساعة فقط .

س : هل تذكر أسماء بعض الكتب؟

جـ : لم نعط كتبًا .

س : والمدرسة الكاثوليكية كانت تابعة لأية دولة؟

جـ : هى دار رهبنة إفريقية وكانت تحت حماية امبراطور النمسا وفيها قسس من كل الملل ، وكانت تدرس الإيطالية والفرنسية وحضرت فيها دروسًا عربية كان يلقيها قسيس ألمانى مستشرق اسمه جوانى دخل ، وقال لنا إنه تعلم اللغة العربية ودرسها فى القدس وكان يدرس لنا الإيطالية قس إيطالى اسمه فرانسكو ـ ويدرسنا الفرنسية قس فرنسى اسمه ليون هانريوت ومساعد ومدرس نمساوى اسمه لورانسو . وأتذكر أنه قبل أن تقفل المدرسة طلب هذا الأخير للعسكرية فى النمسا ، وكانت المدرسة فى الكنيسة الكاثوليكية التى محلها الآن المديرية .

ثم فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ لما اضطربت الحال وأسرع الناس بالمهاجرة بعد هلاك جيش هيكس قفلت المدرسة الكاثوليكية وسافر من فيها .

أما كاميونى فإنه كان مطران هذه الإرسالية ومات فى الخرطوم قبل المهدية وباسمه أسست هذه الكلية .

كانت الأوقاف المصرية تنفق كثيراً على السودان ومساجده ومعاهده .

نظام المولد كان مثل مصر وتقام الحفلات فى الحكمدارية كما تقام فى مصر ويحضرها حكمدار السودان نائباً عن الخديو كما يحضر كل المواسم الدينية .

أبناء السودان الذين تعلموا فى الأزهر:

كانت مدرسة الخرطوم ترسل بعثات من طبقة أكبر منا سناً لتتعلم فى مصر . مهندسين ومساحين وأكثر مهندسى الخرطوم ومساحيها من أبنائها الذين أتموا تعليمهم فى مصر على نفقة الحكومة .

الشيخ البدوى هو من تلاميذ السيد أحمد الأزهرى فى كردفان وهذا البدوى قضى فى الأزهر نحو بضع سنوات ولكنه أتم الدروس على السيد أحمد الأزهرى سواء فى مصر أو كردفان . ثم كان قاضياً فى إحدى مديريات دارفور فى عهد الحكومة السابقة ولما جاءت المهدية خدم فى القضاء وكان مشهوراً بالتقوى والفهم ويضارع الأزهريين فى إلقائه وعلمه . ولما جاءت الحكومة الحاضرة تولى مشيخة الجامع بأم درمان . وكانت تدرس فيه العلوم الدينية والعربية ، وكانت وظيفته شيخ العلماء ، وكان يدرس فى بيته ، وكان يذهب إليه طلبة قسم العرفا لحضور الدروس الدينية المقررة فى المدرسة إلى سنة ١٩١٥ وكانت هذه عادة معظم علماء السودان .

تعليم البنات فى السودان فى عهده:

لم تكن هناك مدارس لتعليم البنات كالبنين إلا عند الكاثوليك والمتعلمات هن زنجيات أحضرن من الجنوب والجبال ويعلمهن الراهبات القراءة والعلوم ولكن قليلا والباقى هو الطبخ وشئون البيت .

كانت فيه مدارس نسائية فى البيوت يعلمونهن التطريز والطبخ وما أشبهه .

ومَنْ الذى يقوم بهذا؟

ـ نساء متعلمات من عنصرمصرى ومولد .

ولم تكن هذه المدارس حكومية ، ولكن كانت خصوصية تذهب إليها البنت قبل الزواج وهى صغيرة . وكانت هذه المدارس منتظمة ويدفع لها أجر من التلميذات وتقدم للمعلمة هدية عن الزواج أى (زواج البنت) .

كان فى الخرطوم فقهاء يقرءون القرآن باللغة المصرية و تراهم بين أسود ومشلخ ، وهم لم يجيئوا من مصر ولكنهم تعلموا على يد شيوخ مصريين فى الخرطوم ، وكان يوجد فى الخرطوم شيخ للفقهاء كما فى مصر يعطى راتبًا ويعلم الناس التجويد ومنهم الشيخ محمد السقا الذى قتل فى سقوط الخرطوم ويجلس فى المدرسة التى كانت تسمى خلوة أمام بيته .

وكذلك يوجد نساء مقرئيات للقرآن كما فى مصر يعلمن بنات الأكابر فى بيوتهن القرآن والدين والخط ولايعلمن التطريز ولا الطبخ إلى غير ذلك .

ملاحظة : كان بعض شيوخ القضاء وقاضى القضاة فى السودان يعطون دروسًا عامة للجمهور فى المسجد مثل الشيخ شاكر ، وكان الشيخ قراعة يعطى درسًا خاصًا فى منزلة فى عند الحكومة الحاضرة .

(هـ) وصف لخلوة أم دبان (أم صبان)

ذهبت لزيارة خلوة القرآن فى ربان يوم ١٩٤٢/٦/١٧ ، وكان بصحبتى محمد أفندى حسن عبدالله وجمال الدين أفندى وأحمد أفندى حامد من العيلقون وهو الذى أعد الرحلة . وذهب معنا من العيلقون أخوه الشيخ يوسف حامد نظار مدرسة بن الأولية والشيخ الشريف محمد الأمين .

ووصلنا ساعة الخامسة والنصف بعد الظهر . فأخذت بعض الصور المبينة مقابل بعض الصفحات فى المجلد الأول مجلد الرسالة .

والمسجد عبارة عن مربع ٥٠ مترًا فى ٥٠ مترًا تقريبًا يحيط به سور خارجى من بناء الجالوس يقدر قامة الرجل وفى هذا السور الخارجى باب من كل جانب .

وبعد الاستقبال وتقديم التحية سألت الأمثلة الآتية :

- لم سميت الحلة أم ضبان؟

- يقال - وهو الراجح - إن الشيخ محمد بدر العبيد حينما رحل بحاشيته من الشرق - من قرب النحيرة التى هى قرب الشيخ حسن ود حسونة - استقر فى هذا المكان حوالى سنة ١٢٦٥هـ وبنى مسجده (مسيده للقرآن) هذا وكان طبعًا فى صورة مصغرة ، ولما كان هذا المسجد مصدرًا للنور والضوء سمى المكان أم ضوّ بان .

ورأى آخر - وهو الشائع - أن ذباب النحل كان يسكن فى هذا المكان فى أثناء وجود المسجد فسماه الناس أم ضبان .

- هل كان المسجد للعبادة فقط أو للعبادة والإرشاد؟

- كان المسجد للعبادة وتدريس القرآن وتدريس العلم .

- ما المقصود بالعلم هنا؟

- التوحيد والفقه والتفسير وكتب التصوف .

- ما الكتب المشهورة والتى كانت تدرس؟

- السنوسية الصغيرة ، العشماوية ، والرسالة ، المختصر ، الجلالين ، الإحياء للغزالى :

- مَنْ كان يدرس فى عهد الأستاذ محمد العبيد؟

- ابنه الشيخ الطيب الأكبر للقرآن ، والشريف أبوبكر العوض للعلوم الشرعية ، ومعه القاضى حاج حامد والفقيه محمد التركاوى ، وكان الأستاذ الشيخ محمد العبيد يدرس علم التصوف .

- أين تعلم كل واحد من هؤلاء؟

- الشيخ محمد بدر العبيد أخذ عن أحمد ود عيسى فى المسجد ، كما أخذ طريقة التصوف من الشيخ عوض الجيد بالجزيرة والشيخ الطيب ابنه حفظ القرآن على الشيخ عبد الرحمن

المهلاوى والعلم على الشيخ الأمير الصويلح فى مسجد ود عيسى ، والشيخ الشريف أبوبكر فقد تعلم على الفقيه مدنى صقيرون والقاضى حاج حامد فأخذ عن أستاذه من مديرية كسلا وتعلم العلم على يد الشيخ الأزرق بالقضارف والشيخ محمد التركاوى على الشيخ أحمد ود عيسى ، وهناك آخرون من الأستاذة ولكنهم لم يستمروا طويلا .

ـ من أين جاء التلاميذ لما أسس المسجد؟

ـ سمع به الناس من كافة نواحى السودان فجاءوا إليه .

ـ أتذكر اسم بعض الحيران الذين جاءوا أولا من كافة جهات السودان .

ـ راجع التاريخ المكتوب الذى سيرسل لك .

ـ من خلف الشيخ محمد بدر العبيد فى المسجد؟

ـ ابنه أحمد (وترى قبته فى غرب المسجد) وقد توفى ابنه الشيخ الطيب فى حياته .

ـ ماذا كان يدرس الشيخ أحمد؟

ـ كان الشيخ أحمد لإرشاد التلاميذ المريدين ، أما تدريس القرآن والعلوم الشرعية فكان على يد الشيخ حسب الرسول بن الشيخ محمد بدر العبيد .

واستمر الشيخ حسب الرسول فى التدريس من سنة ١٣٠٨ هـ إلى سنة ١٣٤٩هـ حين توفى وهو يدرس القرآن فى سنواته الأخيرة .

ـ كيف كان يعيش الحيران فى عهد الشيخ محمد بدر العبيد؟

ـ على الشيخ نفقة هؤلاء الطلبة وكسوتهم إلى أن يحفظوا القرآن ، وكان يزوج منهم من يستمر معه ، ثم يقيم فى مسجد أم دبان ويستقر ، أما الذين يتركون فقد كانوا يتوجهون إلى أهلهم لفتح خلوات ومساجد .

ـ كم عدد التلاميذ الآن؟

ـ بين ٢٠٠ و ٢٥٠ وهذا لأن الموسم الخريف قد اقترب وبعضهم يذهب لأهله للزراعة ، أما فى غير الخريف فهم بين ٣٠٠ و ٥٠٠ .

- من أين يجيء المال للإنفاق على هؤلاء؟

- من مزارع الخليفة ، ومن بعض الأوقاف والهبات والهدايا .

- ومَنْ هو الخليفة الآن؟

- هو الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد بدر العبيد (وقد ذهبت بعد ذلك للسلام عليه فكان يظهر عليه الورع والفلاح ، وكان يميل للسمنة والكبر ، وقد علمت أن عمره يبلغ نحو ٦٥ سنة ، وأن ضعفه هو نتيجة الجلوس الدائم) .

- هل يزرع الحيران شيئًا من مزارع الخليفة؟

- كانوا يفعلون هذا فيما مضى أما الآن فلا .

(ذهبت بعد هذا الحديث الطويل إلى المسجد مرة أخرى فوجد التلاميذ حول النار وهم جلوس كل جماعة (٥ - ٧) تحت إشراف حوار أكبر يلاحظهم ويساعدهم ، والفقيه يمر حولهم فى الدائرة ليقدم المساعدة العامة ، وظهر لى أن الضوء كان ضعيفًا . وقد سألت بعضهم عن البلاد التى قدموا منها فعرفت أن منهم من جاء من بارا ، والمناصير ، والرصيرص ، وأرترية والجيتينه وملكال إلخ .

- كيف يسير الحوار فى الدراسة؟

- الخليفة عدة لا يدرس ، ولكنه يشرف على كل شيء وهو صاحب المسجد ، ومن تحته الوكيل ، وهو الذى يحفظ القرآن ، كالفقيه الشيخ هارون ، ويكون عادة من الحيران القدماء .

ومن تحت هذا الفقيه الكبير فقهاء (أو فقراء) كالعرفاء يشرف كل واحد منهم على جماعة من الحيران ويعلمه القرآن ، وهؤلاء الفقراء أو العرفاء يحفظ بعضهم كل القرآن وبعضهم لا يحفظه كله .

وعندما يحضر الولد للخلوة أول يوم يعطى لأحد الفقراء القدماء ليقوم بتعليمه الحروف الهجائية بالطريقة التقليدية المتبعة ، فيحضرله قلمًا ودواة لوحًا ويكتب له الحروف أ ب ت ويطالبه بمحاكاتها إما عليها أولاً أو تحتها حتى يجيد الحروف قراءة وكتابة ثم ينتقل إلى اَ بَ تَ إلخ .

ثم يتنقل لحظ الحمد ، فيكتب له الفقيه السورة فى اللوح ويطالبه بالقراءة حتى يحفظها وهكذا يستمر من سورة إلى التى فوقها حتى يختم القرآن ، ثم يعود مرة ثانية من البقرة إلى يس ويقف ، وهذه تسمى العودة المرة ، ثم يرجع إلى البقرة مرة ثانية وتسمى هذه العودة الثانية ويسير إلى الناس إن كان حفظ ثلاثة أرباع القرآن أى إلى يس .

ويكون الحفظ دائمًا من اللوح والتثبيت من المصحف .

نظام اليوم:

يقوم الحوار الساعة الرابعة صباحًا لقراءة الدغشية ، وهى قراءة اللوح فى الفجر ثم يصلى الصبح مع إخوانه ، ثم يحضرون ألواحهم ويمسحونها فى المحاية[1] ثم يذهبون للفطور ، ثم يذهبون لمحل الكتابة ليكتبوا ألواحهم بإملاء الفقيه إياهم من صدره ، وبعضهم يكتب من رأسه ما حفظه أمس فى العصر .

يذهبون لمحل القراءة ، ويقدمون ألواحهم كل منهم لشيخه ليصحح الشكل والحروف ، ثم يقرأ التلميذ الساعة العاشرة تقريبًا ، ثم يطلق التلاميذ مدة من الزمن ليرتاحوا إلى صلاة الظهر ويتغدوا ويصلون الظهر عادة فى مسجد العبادة ، وتكون صلاتهم جميعًا وراء أمام المسجد ، وليس عادة وراء الفقيه .

وبعد ذلك يعودون إلى جامع القراءة ليقرءوا ألواحهم ثم يدرسون إلى الساعة الرابعة تقريبًا ثم يطلقون للفسحة ولصلاة العصر .

ثم يرجعون لجامع القراءة مرة ثانية ، ويطالع الكبار فى الجزء (وهؤلاء هم أصحاب العودة المرة أو العودة الثانية بعد المرة وهم يطالعون فى المصحف حتى يستطيعوا كتابة ألواحهم من عقولهم صباح اليوم التالى) .

أما الصغار ففى ساعة المطالعة يوكل بهم من هو أكبر منهم للكتابة فى الأرض - كتابة كلمات صعبة كإملاء .

ثم يطلقون لصلاة المغرب ، وبعد الصلاة يعودون حول النار لقراءة الليحان التى يمحونها صباح الغد ، ثم يقرأون لغاية الساعة الثامنة تقريبًا فى الألواح وفى هذه الأثناء يعرضون ألواحهم

---

(١) انظر رسم خلوة أم ضبان ، رقم ٥ فى الرسم .

على الشيخ الكبير (الشيخ الفقيه هارون) وبعضهم يعرض على أستاذهم الصغير أى يقرأ عليه اللوح أويسمع اللوح المحفوظ حتى يسمح له بمحوه غداً لكتابة لوح جديد .

وبعد العرضة يسمح لهم بفسحة نحو نصف ساعة للعشاء ثم لصلاة العشاء ، ثم يعود الكبار منهم لقراءة السبع حول النار . أما الصغار فينصرفون أما لمنازلهم إذا كانوا من أهل البلد ، وأما لخلواتهم ليناموا . ونظام سكناهم هو أن كل جماعة وافدة من جهات واحدة تعيش فى خلوة واحدة (حجرة) .

جمع الحطب:

يذهب التلاميذ يوم الإثنين والخميس والجمعة صباحًا لمحلات قريبة من الحلة لجمع الحطب ، وتسمى هذه الحال الفزغة ، ويكلف بإحضارها الكبار الذين يمكنهم القطع .

ومسجد أم دبان الآن يهتم بتدريس القرآن ، وكذلك يدرس فيه العلم ، الفقه والتفسير والتوحيد فى الكتب القديمة ، يدرسها أمام المسجد وهو من الأزهر .

(و) رواية الشيخ عمر الأزرق بن محمد عن تعلمه فى الخلوة للقرآن والعلم

أعطاها بتاريخ ١٩٤١/١٢/٢٠ فى كسلا

- كم عمرك؟

- نحو من ٥٥ سنة لأنى مولود سنة ١٣٠٥ هـ فى كسلا .

- أنت الآن لاتزال تدرس؟

- أحلت إلى المعاش فى السنة الماضية ثم لما جلا الطليان عن كسلا واحتاجت المعارف لمدرس فى المدرسة رجعت لأعمل هذه السنة فى وظيفة مدرس .

- أين تعلمت فى صغرك؟

- فى مسجدنا أى خلوتنا بالقصارف .

- ومَنْ كان الفقيه؟

- كان يدعى حمد العربى وكان يدرس القرآن فقط فى خلوة والدى ، أما خلوة والدى كان يدرس فيها لفقيه والتفسير والحديث والنحو .

ـ ومَنْ الذى كان يدرس هذه العلوم؟

ـ هو والدى .

ـ ما نسب والدك؟

ـ هو محمد بن محمد الأزرق بن أحمد بن حمد بن محمد المجذوب . أما محمد الأزرق فهو صاحب المسجد الأصلى الذى فى القصارف .

ـ أهو فى القصارف نفسها؟

ـ فى حلة «الصوفى الأزرق» التى تقع غرب القصارف وتعتبر جزءاً منها وهى على بعد نصف ساعة بالركوبة المتوسطة .

ـ وأين تعلم والدك الشيخ محمد؟

ـ تلقى العلوم على والده الشيخ محمد بن محمد الأزرق .

ـ وجدك على من تلقى العلوم؟

ـ تلقاها على والده الشيخ محمد الأزرق .

ـ وأين تلقى الجد الأكبر (الشيخ محمد الأزرق) علومه؟

ـ تلقاها عن الشيخ أحمد ود عيسى صاحب مسجد ودعيسى ، وهذا تلقاها عن الشيخ أحمد الدردير ، بالأزهر .

ـ يظهر أن جدك الأكبر الشيخ محمد الأزرق هو الذى أسس المسجد الأول أو الخلوة؟

ـ نعم .

ـ ألا يزال هذا المسجد معمورًا؟

ـ نعم ، ومسجدنا لايزال خلوة به أحد أبناء عمنا ، وهو الخليفة . ولكن الرغبة قلت .

ـ وما الذى جاء بكم إلى القصارف؟

ـ أسرتنا أسرة المجاذيب مقرها الدامر . وبعد مقتل إسماعيل باشا بن محمد على فروا إلى الحبشة ، وبعد ذلك طلب إليهم حاكم السودان (أحمد باشا)؟ أن يرجعوا من الحبشة وأعطاهم الفرمان . فرجعوا واستوطنوا الصوفى على نهر عطبرة .

ولكن لم يحصل بينهم وبين حكام البلد (الضبانية) اتفاق فدعاهم أحمد بك أبو سن ناظر قبيلة الشكرية أن ينزلوا فى بلده . فرحبوا بهذه الفكرة وجاءوا واستوطنوا بالقصارف فى جهة الغرب .

ولما كانوا قد نزلوا أولا بحلة الصوفى على نهر عطبرة ثم تركوها ونزلوا قريبًا من القصارف أسسوا هم حلتهم وسموها الصوفى الأزرق .

ـ كيف تعلمت أولا فى الخلوة؟ وكم كان عمرك حينما بدأت التعليم بها؟

ـ كنا فى الدامر مع والدنا فى سرية المهدية ، فتعلمت فى الدامر ، ولا أذكر كم كان عمرى حينئذ .

لم تكن هناك طريقة منظمة ولكن بعد تعلم حروف الهجاء كما فى كل الخلاوى بدأت قراءة القرآن ، وكان يعلمنى فقيه اسمه الشيخ ود تكرور ، وكلمة الشيخ هى اسمه لا لقب .

ختمت وراجعت من البقرة لغاية الأعراف ، وذلك فى الدامر ، ثم جئنا إلى القصارف فى آخر المهدية ، وذلك لأن والدى كان أكبر إخوته فاضطر أيام المهدية إلى ترك الصوفى الأزرق وذلك أواخر سنة ١٣٠٤م وتركها مهاجرًا لينضم للمهدى ، وترك بقية الأسرة فى الصوفى الأزرق ورجعنا إلى الصوفى الأزرق بعد المهدية .

ثم لما عدنا للصوفى استأنفت حفظ القرآن على الشيخ محمد عرب الفقيه فى خلوتنا .

ـ ولما أتممت حفظ القرآن ابتدأت دراسة العلم على من؟

ـ والدى كان له عم يدعى أحمد الحاج على (أى أحمد بن الحاج على) والحاج على هذا أخوه هو جدنا محمد الأزرق الكبير . وكان الحاج على يدرس القرآن والجد الكبيريدرس العلم ، وكان والده قد ذهب للحجاز لما فتح المصريون طوكر أيام المهدية . وظل هناك عدة سنوات ثم عاد بعد المهدية وجاء إلى القصارف (الصوفى الأزرق) حيث تولى دراسة العلم .

كان والدى يدرس العلم أيضًا لكن أحمد الحاج على كان يدرس للمتقدمين بينما والدى كان يدرس عليه التفسير والحديث ، وكان والدى أيضًا يدرس الفقه والنحو للمبتدئين لأن العدد كان كبيرًا .

تلقيت أنا على الشيخ أحمد العلم أعنى مبادئ الفقه ومبادئ النحو ، ثم ذهبت إلى مدرسة العرفاء بأم درمان فى أكتوبر سنة ١٩١٠ ومكثت ثلاث سنوات ثم تخرجت مدرسًا بالكتاتيب ، وأيام وجودى فى أم درمان كان طلبة مدرسة العرفاء يتلقون دروس الفقه فى الظهر يوميًا على الشيخ محمد البدوى شيخ العلماء ؛ وذلك فى بيته فى العباسية ، (من أولاد الشيخ محمد البدوى الفاتح أفندى المأمور بالخرطوم وآخر يسمى الشيخ أحمد وهو شيخ طريقة) .

- صف لى حياة طلبة العلم وطريقة تدريس والدكم للطلبة بالمسجد؟

- فى الغالب يجىء الطلبة من خارج القصارف وبعضهم يكون حافظًا للقرآن والبعض لايكون والبعض الآخر لايكون قد قرأه أصلا ، وكلهم يسكنون فى المسجد فى قطاطى تسمى كل واحدة منها خلوة ، وفى كل قطية كان يسكن عدد من الطلبة إلا إذا بنى واحد منهم قطية لنفسه فإنه يسكن فيها وحده ، وكانت نفقات معيشتهم أكلاً وشربًا على الشيخ أحمد وأحيانًا كان الشيخ يكسوه الفقراء ؛ وكان أكلهم هو الطعام العادى الكسرة والملاح ؛ يجلس الشيخ على الأرض وتحته برش أو فرودة فى الغالب ، ويجلس الطلبة على برش أمامه يبتدئ الطلبة المبتدئون أولا بعد طلوع الشمس بقليل ، وأحد الطلبة يلقب «المقابل» وهو عادة أنبه الطلبة ، يقرأ المقابل المتن إلى نهاية الدرس المقرر ، ثم يقرأ الشيخ نفس المتن بعده ويقرر شرح المعنى ليسهل على الطلبة فهم شرح الكبير .

ثم يقرأ الشيخ بعد ذلك الشرح الكبير الذى على المتن ، وتحصل مناقشات من الطلبة فى بعض المرات فى الأشياء الصعبة ، فيتركون الدرس ويتوصلون لفهم المعنى بضرب الأمثال القريبة ، وهكذا حتى ينتهى الدرس ، وعادة ينتهى بعد ساعتين أو ساعتين ونصف .

ينصرف الطلبة الصغار فيجئ الطلبة الكبار ، والكبار عادة يدرسون مختصر خليل فى فقه الإمام مالك ، والطريقة هى الأولى ولكن البحث يختلف طبعًا ، يستمرهذا الدرس إلى الزوال ثم ينصرف الطلبة للصلاة (صلاة الظهر) والغداء والراحة ، ويصلى عادة أحد الطلبة بكل الطلبة حتى بالشيخ نفسه .

وبعد صلاة الظهر يبتدئ درس النحو (لأن درس الصباح كان درس فقه وحديث وغيره من العلوم الدينية) لغاية صلاة العصر . وبعد صلاة العصر لا توجد دروس .

ـ ما حال الطلبة بعد المغرب؟

ـ توجد دائمًا فى الخلوة نار قراءة القرآن لكى يلتف حولها طلبة القرآن . ومع طلبة القرآن قد يشترك بعض طلبة العلم ولاسيما الصغار لحفظ المتون . وفى بعض الأوقات كان طلبة العلم يكتبون هذه المتون فى الليحان (جمع لوح) لحفظها .

والطلبة الكبار يكونون فى خلاويهم وعندهم نور من الزيت فى المسرجة ليقرءوا متونهم إلى صلاة العشاء وبعد صلاة العشاء .

أما طلبة القرآن فيتركون القراءة فى الألواح للحفظ لكى يصلوا العشاء ثم يعودون لقراءة الدراسة وهى قراءة ماحفظوه من القرآن فى اللوح الجديد وذلك عن ظهر قلب . لا فى المصحف .

والشيخ عادة يختار أحد الطلبة ليقرأ أمامه كل ليلة ويسمع الشيخ إلى نهاية السبع من القرآن أى سبع القرآن وذلك للطلبة الذين حفظوا هذا القدر أو أكثر .

وبعد هذا يكون الميعاد الذى يخول للطلبة الذهاب للعشاء أى أن الطلبة ينتظرون جميعهم إلى أن ينتهى الطالب من تسميع السبع ثم يذهبون للعشاء فى منازلهم إذا كانوا من سكان الحلة أما من كانوا من غير سكان الحلة فإن الشيخ يقسمهم على إخوانهم من الطلبة أو الجيران لكى يأكلوا معهم فى منازلهم .

ملاحظة : طلبة العلم يأكلون من عند الشيخ وفى بعض الخلوات يؤكل الشيخ طلبة القرآن ولكن فى حالة وجود طلبة علم وطلبة قرآن يأكل طلبة القرآن الأجانب مع إخوانهم الذين من الحلة .

ـ أتذكر أسماء الكتب التى كانت تدرس؟

ـ كانت العشماوية والعزية والرسالة وأقرب المسالك ومختصر الشيخ خليل .

وفى النحو الأجرومية والأزهرية والقطر والشذور والألفية أما فى الحديث فالموطأ والبخارى والجامع الصغير .

وأما التفسير فالجلالين بحاشية الصاوى وفى التوحيد السنوسية والجوهرة .

ـ يقال إن هذا الطالب أجازه الشيخ فما معنى هذا؟

ـ إذا عرف الشيخ أن أحد الطلبة قد أخذ نصيبًا من العلم بحيث إنه يستطيع التدريس لغيره يعطيه الشيخ إجازة التدريس .

(ملاحظة) عند الشيخ عادة إجازة من شيخه ومشيخة من شيخة وهكذا إلى المؤلف . ومعنى إجازة الشيخ طالبه بالتدريس أنه وثق من فهمه للكتاب كما فهمه الشيخ من أستاذه وهكذا إلى المؤلف وتسمى الإجازة السند .

وفى هذه الإجازة يكتب الشيخ اسم الكتب التى يمكن أن يدرسها تلميذه المجاز .

ويذكر أنه تلقى عليه تدريس هذه الكتب وأنه وصل إلى الدرجة التى تمكنه من القيام بتدريسها .

ـ ماذا كان يعطى الطلبة الشيخ نظير تعليمه لهم العلم؟

ـ كان الناس ينظرون إلى شيخ العلم نظرة احترام وتبرك ولذلك كان الناس ـ سواء من له ابن عند الشيخ أو لا ـ يحضرون الهدايا للشيخ كالبهائم والعيش والكساوى والنقود .

ـ هل كان والدك شيخ طريقة أو جدك؟

ـ لا . كانوا رجال علم فقط .

ـ هل كان من أهلكم بالدامر من زاول هذه المهنة؟

ـ نعم كان الشيخ الطيب وهو من أسرة المجاذيب أيضًا .

ـ مَنْ هو والد جدكم الأكبر محمد الأزرق؟

ـ والده هو أحمد بن محمد المجذوب (أنظر طبقات ود ضيف الله ص ٦٧) .

ويقال إن سبب تسميته بالمجذوب هو أن الجد محمد كان يتعبد فى جزيرة قرب سنار فجاء فيضان النيل وغطى الجزيرة وكان هو نائمًا عليها . ثم نزلت المياه وقام هو حيًا مجذوبًا ولذلك لقب بهذا اللقب .

يستمر طلبة العلم الكبار فى المذاكرة وقراءة الدرس الجديد إلى ساعة متأخرة من الليل وربما للصباح .

وكـان الشـيخ فى بعض الأوقـات وينصت لهـم أثناء المذاكـرة ويقـول لهم إذا تركـوا القـراءة وأخذوا فى الحديث :

يا أبنائى : اتركوا الونسة وانصرفوا للدرس فوالله إنكم لن تجدوا هذه الحال المفيدة بعد ذلك ، وهكذا كان الشيخ يراقب الطلبة أثناء المذاكرة .

ـ متى مات والدك؟

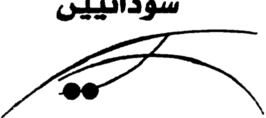
ـ عام ١٣٥٦هـ .

ـ وهل كان يدرس العلم إلى أن مات؟

ـ لا إلى سنة ١٩٣٠م حين خانه البصر . وكـان ينفق كـثيـراً من وقـتـه فى كـتـابة المسـائل العلمية بعد مطالبته ، وفى عمل المذكرات . وله طريقة غريبة فى المطالعة وهى أنه كلما عثر على شىء غريب فى الكتاب نقله وأشار إلى الصفحة والمكان والسطر حتى إنه طالع دائرة المعارف لوحده ورقة ورقة ونقل منها النوادر التى تهمه فى كتاب خاص .

■■■

الملحق (٦)
صيغ بعض إجازات لعلماء سودانيين



١ ـ إجازة بطريق الكتابة

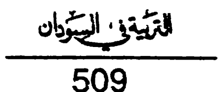
للتصريح بتلاوة بعض أذكار وأوراد الصوفية

لما كنت فى كسلا ١٩ ـ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ تقابلت مع الشيخ عمر محمد الأزرق الذى كان والده يلقى درس العلم فى مسجدهم (الخلوة) بالقضارف . وفهمت منه أن الإجازة قد يعطيها شيخ لتلميذه لم يره ولكن سمع به فقط . وذكر لى مثالا عمليا فقال إن جده حمد محمد مجذوب كان قد كتب خطابًا للشيخ على الصعيدى[1] العدوى يستجيزه قراءة ما ورد من الأذكار والأوراد عنه فى الطريقة الشاذلية . فرد عليه الشيخ على بخطاب أرانى صورته ونقلتها كما يأتى .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم من الفقير إلى الله تعالى على الصعيدى العدوى إلى عمدة البلاد و عالم العباد سيدى حمد محمد مجذوب حفه الله بألطافه الخفية وعاملنا وإياه بإحساناته الوفية وسلك بنا وبه السير فى أحسن طريق وأطلعنا وإياه على أدلة التحقيق . أما بعد فقد وصّلنى حروف محبتكم وفهمناها على أنكم ملتمسون منى إجازة لما ورد عن سيدنا أبى الحسن الشاذلى من الأذكار والأوراد . والحال أنى لست أهلا لأن أجاز فضلا عن أن أجيز ولكن أتمسك بحبله فأقول أجزتكم بذلك . هذا وقد ذهبت ياسيدى البركة من الزمان وضعف العلم وكثر الحرمان فإنا لله وإنا إليه راجعون فأسألكم الدعاء بالتوفيق وأن يحسن الختام على الإيمان والإسلام على التحقيق وقد سمعت من بعض

---

(١) الشيخ على الصعيد العدوى ولد سنة ١١١٢ ومات سنة ١١٨٩ .



مشايخنا كلمات منها مانعلم عن سيدى محمد بن الشيخ عبدالقادر الفاسى أنه قال ينبغى لكل من أراد أن يخص نعمة الإيمان بالحمد عليها فليقل فى اليوم والليلة مائة مرة (الحمد لله ، لاإله إلا الله) ليقيدها بالشكر ويأمن سليها . وذكر سيدى محمد العباسى وكان من الأولياء الجامعين بين العلم والعمل وأن من داوم على قوله : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته مائة مرة كل يوم ختم الله له بالإيمان وسهل عليه خروج الروح . وذكر لنا بعض شيوخنا وهو سيدى محمد الحريشى أن مما نص عليه بعض الأكابر واستعمله فانتفع به انتفاعًا عظيمًا أن من دعا بهذه الأسماء الأربعة وأعقبها بكلمة الإخلاص بتمامها وهى : يا فتاح يا كافى يامغنى يا رزاق لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا ويكررها ثلاثة أيام فإنه يجد لها بركة عظيمة . وذكر لنا سيدى محمد العباسى المتقدم أن من لازم على قراءة سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ثلاث مرات عقب كل صلاة فإن الله يقبل صلاته ويغفر ذنوبه ، ويستجيب دعاءه فاسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى ولذلك أطلب منكم ذلك . وأخبركم ياسيدى أنى صرت من وادى قول القائل :

لعمر أبيك ما نسب المعلا ... إلى كرم وفى الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعى الهشيم

فنرجو الله سبحانه العفو والإحسان والسلام

٢ـ صورة إجازة من الشيخ محمد الأزرق

لابن أخيه حسيب بابكر بقراءة الاسم اللطيف

فائدة فى اسمه تعالى لطيف وما فيه من معنى وتصاريف لخير الدنيا والآخرة ، فأساسه مائة وتسعة وعشرون دبر كل صلاة تقدم التسعة وتقرأ الدعوة مرة ، ثم المائة وتقرأ الدعوة وعدده الكبير على عدد (أم خوى) تقرأ واحد وتقرأ الدعوة مرة ثم الأربعين بعدها الدعوة مرة ثم الستمائة وبعدها الدعوة مرة ثم الست آلاف بعدها الدعوة ثم عشرة آلاف بعدها الدعوة لكسل

منهم من خوف أو ضيق رزق أو شدة وجع تقرأ عليه العدد يبرأ بإذن الله تعالى وكثواب الآخرة . والدعوة .

يا لطيف الصنع يا من كلما — دهـم الأمر جـلا ما دهما
يـا غـياث المستـغيثين ويـا — ماضى الحكم إذا ما حكما
نفـس الأمـر علينـا سـرعة — أنمـا الأمـر علينا عظمًا
فاستجب منا دعـانـا كرمـا — يـا كـريما أنت رب الكرمـا

ووقت القراءة تبخر باللبان الأبيض ، وقد أجزت ابنىْ الفقيه حسيب بن الفقيه بابكر بقراءة الاسم اللطيف كما أجازنى شيخى قاله بفمه ورقمه بقلمه الفقير الحقير محمد الملقب بـ الأزرق بن أحمد ولد المجذوب لسبعة عشر جمادى الآخر سنة ١٢٧٥هـ .

ختم
محمد الأزرق

٣ـ هذه إجازات الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى وابنه الشيخ محمد التى أخذها من شيوخ الأزهر لما كان مجاوراً هناك

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم حمدًا لمن فتح قلوب ذوى المعارف لفهم أسراره ونور بصائرهم بنور جلاله وكساهم حلل أنواره فهم الوارثون للعلوم والمعارف من حضرة الرسول مع اقتفاء آثاره والمنحازون منه ببث العلوم والمعارف فصح سندهم فى ذلك وتابعهم فى ذلك سالف وخالف فالسعيد من تعلق بأذيالهم واقتفى آثارهم ، وإلا فهو تألف ، وصلاة وسلاما على من قال علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل فكفى بذلك شرفا وياحبذا فلك الفضل والتعظيم وعلى آله والأصحاب والأتباع وذوى الفضل الجزيل ، وبعد فلما كان السند من مهمات الدين وشأن الجهابذة المخلصين طلب أخونا العمدة العلامة اللوذعى الفهامة الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى وابنه الشيخ محمد أن أجيزهما بما تلقيته عن الجهابذة الأعلام على عادة المحبين فأجزتهما بذلك ، وإن كانت لست أهلا ما هناك ضارعًا

إلى المولى الكريم أن ينفع المسلمين موصيا بالتقوى فإنها السبب الأقوى وألا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه وأن لا ينسانى من صالح دعواته فى خلواته وجلواته ، وصلاة الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، الفقير إلى الله تعالى أحمد أبوالسعود الإسماعيلى المالكى الصعيدى المقيم بالأزهر عفا الله عنه .

(وله ختم وتاريخه غير ظاهر وكذا الإجازة لم تكن ذات تاريخ)

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد استجازنى كل من أخينا الفاضل والهمام الكامل بركة الوقت وصالح الزمان الحقيق لكماله بأن يشارك إليه بأطراف البنان أرجو من الله أن ينفعنى ببركته وشريف همته الممنوح من العطايا بأمداد المولى البارى الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى السنارى وولده العالم العامل والفاضل والكامل الشيخ محمد بما أجازنى به مشايخى الكرام الذين من جماعته ماتضمنه هذا الثبت لظنه أنى أهل لذلك وأنى من فرسان تلك المسالك فقلت وبالله التوفيق أجزت كلا منهما بما تجوز لى وعنى روايته من معقول ومنقول أدام الله لهما السرور والقبول راجيًا أن لا ينسيانى من الدعوات فى الخلوات والجلوات والناجى منا يأخذ بيد أخيه يوم لا ينفع مال ولا بنون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . كتبه بيده الفقير على المصرى المعروف بالمحلانى الشافعى مذهبا الأحمدى طريقة غفر الله له ولوالديه وبأحسن إليهما وإليه وجميع المسلمين آمين ولاحول ولا قوة إلا بالله العى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(وختمه على العربى تاريخه سنة ٦٧ هـ ولم يكن تاريخ للإجازة)

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم والحمد منك ونصلى ونسلم على سيدنا خير من دل عليك وعلى أصحابه وسلم الهادين التالعين لهم باحسان إلى يوم الدين أما بعهد فقد طلب منى الشيخ الفاضل

الصالح والكامل الناجح الشيخ أحمد بن عيسى السنارى ، وولده العالم الفاضل محمد أن أجيز كلا منهما فى قراءتنا بالأزهر الأنور المعمور بذكر الله ، وسمع كل منهما منا العلوم منقولها ومعقولها ، فقلت أجزتهما بما صحح لى مبنى وسمعاه على شروط الإجازة ا لمقررة المشهورة وفى بابها المحررة موصيا لهما بتقوى الله العظيم وأن لاينسيانى فى خلواتهما من صالح دعواتهما وعلى الله اعتمادى وهو حسى وكفى ، وسلام على عباده الله اصطفى . وقال له الفقير أحمد ابن حمد تبوه العدوى حامدًا ، مصليًا ، مسلمًا .

(وختمه أحمد بن على بن حمد كبوه المالكى)

(٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن أجاز من استجاره وشكرًا لمن أجاب من داء وأفازه فله الحمد على نعمه التى لاتحصى وله الشكرعلى منته التى لاتسقتصى سبحانه لا إله غيره ولاخير إلا خيره رب العالمين وبر للعاملين وهو أجل من أن يثنى عليه وإنما هى أعراض دالة على كرمه منحها لنا على لسان رسوله لتعبده لأنها على أقدارنا لا على قدره ، وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد وآله وصحبه مدى الأبد ، أما بعد ، فيقول محمد عليش قد تفضل الله على بصحبة الشاب الصالح المبارك الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ عيسى السنارى المشاهير بالعلم والصلاح والبركة مدة طويلة وشاركت فى كتب كثيرة من فنون العالم الشرعية وما يعين عليها وحين قصد الرجوع إلى بلده طلب منى إجازة لحسن ظنه فأجبته وأجزته راجيًا البركة لى وله قائلا أجزت أخى المذكور ، بما سمعه منى وغيره مما أجازنى به أشياخى ضاعف الله لى ولهم الأجور موصيًا بملازمة تقوى الله وتقديمها كل ما تميل إليه النفس وتهواه سائلا المولى الكريم أن يفيض علينا خيره الجسيم وأن يوفقنا للعمل بما علمناه ويمن علينا بعلم ما جهلناه وأن ينجينا من الأهوال ويصلح لنا الأحوال وأن يمن علينا بحسن الختام بجاه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعلى سائر النبيين والحمد لله رب العالمين .

(بدون تاريخ ولكن تاريخ الختم ١٢٦٨)

ختم

محمد عليش

(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد الفرد العلى الماجد الصمد والصلاة والسلام على الرسول السند سيدنا محمد وعلى آله أصحابه أولى الإغاثة والمدد ، وبعد فلما كان الإسناد من الدين وقد جرى عليه السلف من المتقدمين والخلف من المتأخرين ، وقد قيل إن من لا سند له كاللقيط الذى لا أب له استجازنى العالم الفاضل والهمام الرحيم الكامل الاخ فى الله تعالى الشيخ أحمد بن عيسى الأنصارى السنارى وولده محمد بما تجوز لى روايته ، فقلت قد أجزت المذكور وولده بما فى هذا السند كما أجازنى به أشياخى العارفون والأئمة الهداة المحققون موصيًا لهما بما أوصى به نفسى من تقوى الله العظيم والنصح لعباد الله المسلمين بمتابعة النبى الكريم ؛ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وخلقنا بأخلاقه الطاهرة كنية راجى عفو الله الفقير محمد خير الله العدوى على عفى عنه .

(وختمه أيضا محمد خير الله العدوى على ولم يظهر تاريخه ولم يكن بالإجازة تاريخ أيضا)

(٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمابعد فقد أجزت الأخ فى الله الهمام الأمجد والإمام المفرد الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى السنارى وولده الفاضل الكامل الشيخ محمد بجميع ما تجوز لى روايته أو تصح عنى درايته من فروع وأصول ومنقول ومعقول كما أجازنى بذلك أشياخى لا سيما بما حواه ثبت شيخنا الأمير عليه وعلى بقية أشياخى سحايب رحمة ربنا القدير متع الله الوجود ببقاء المجازين ونفع بهما فى الدارين وأحسن لنا ولهما وجميع أهل العصر من المسلمين الختام بجاه الرسول الإمام الفقير مصطفى المبلط الشافعى خادم العلم بالأزهر عفى عنه وله ختم أيضًا .

(ولم يكن بها تاريخ وكذا تاريخ الختم ليس بظاهر)

(٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد فقد أجزت الأخ فى الله الهمام الأمجد والإمام المفرد الشيخ أحمد بن عيسى الأنصارى وولده الفاضل الكامل الشيخ محمد فى جميع ما تجوز لى روايته واتضح عنى درايته من فروع وأصول ومنقول ومعقول كما أجازنى بذلك أشياخى لا سيما بما حواه ثبت شيخنا الأمير الكبير وولده سيدى محمد الصغير عليهما وعلى بقية الأشياخ رحمة ربنا القدير متع الله الوجود ببقاء المجازين ونفع بهما فى الدارين وأحسن لنا ولهما وجميع أهل العصر من المسلمين الختام بجاه الرسول الختام عليه أفضل الصلاة والسلام الفقير إلى الله أحمد السنهورى وختمه أحمد السنهورى .

(وتاريخه غير بظاهر ولم يكن للإجازة تاريخ)

(٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم الدين أما بعد فيقول محمد عليش قد منّ الله تعالى علىّ بصحبة الشيخ المبارك أحمد بن الشيخ عيسى السنارى المشهورين بالعلم والصلاح والبركة مدة مديدة وشاركنى فى كتب عديدة فى فنون من العلوم الشرعية وآلاتها ولما أراد العود إلى وطنه التمس منى الإجازة بها ظنًا منه أنى من أهل ذلك وأنا متيقن أنى لست ممن سلك تلك المسالك ، ولكن جبر خاطره ورجاء بركته حملانى على إجابته فقلت أجزت أخى المذكور بما سمعه منى وغيره مما أجازنى به أشياخى ضاعف الله لهم الأجور موصيا له بملازمة التقوى فإنها للفلاح السبب الأقوى وألا ينسانى من صالح دعواته فى جلواته وخلواته ضارًا للولى الكريم أن يمن علينا بالخير العميم وأن ينجينا من الفتن والأهوال وأن يصلح لنا ولإخواننا الأحوال وأن يختم لنا بخاتمة السعادة وأن يجعلنا ممن لهم الحسنى وزيادة الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلامًا وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

ختم محمد عليش سنة ٦٨ هـ

(وهى كأختها بدون تاريخ)

٤ـ وهذه إجازات الشيخ عبدالرحمن بن أحمد البدوى

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد والشكر للقادر الصمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد السيد السند ذى المقام المحمود والدرجة الرفيعة وعلو السند وعلى آله وأصحابه السالكين على منهجه القويم الذين من اهتدى بهديهم فقد هدى إلى صراط مستقيم أما بعد فلما كان اتصال السند من الأمر المطلوب المرغوب المحبوب ، وكان ممن جد واجتهد فى طلب العلم ولدنا الفاضل النجيب اللاذعى الألمعى ذو الفهم والذكاء العبيب عبدالرحمن بن أحمد البدوى الأنصارى نسبًا السنارى موطنًا طلب منى أن أجيزه بما تلقاه عنى لظنه أنى أهل بذلك والله أعلم وبما هناك فقلت جبرًا لخاطره وإن لست من أهل هذا الشأن وكيف يحوم الضعيف حول ميدان الفرسان قد أجزت الشيخ المذكور بما تلقاه عنى مما يعرفه بشرط ألا يتعداه وألا يقوم على حكم حتى يعرف حكم الله موصيًا له بالتقوى فإنها السبب الأقوى وألا ينسانى من دعواته فى خلواته وجلواته نصح الله به العباد ووفقه لطرق السداد الفقير إليه تعالى .

أحمد المحبوب المالكى الأزهرى خادم العلم بالأزهر عفى عنه وهنا ختمه

(لم يكن بها تاريخ وبالطبع ربيع سنة ٨٦)

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم لك الحمد والمنة يامدّ المستجيز من كل أمة والشكر على تمام النعمة يا مغيث المستند إليك فى كشف كل غمة ومنك أفضل الصلاة و التسليم على محمد ذى القدر الجسيم وعلى آله وأصحابه الذين شرفهم بأنفس النفائس فحازوا سائر أصناف الفضل وأنواعه وأجناسه أما بعد فلما كان مقام العلم فى غاية التضخيم والخائض فى بحور درره على غاية من التشريف والتكريم وكان ممن خاض بحوره وألبس ثياب الوضوح مكنونه ومستوره مولانا العمدة الفاضل الهمام الكامل من حازفى قصبات السبق أعلى رتبة وأخذ من مساجلة الأفاضل بأبهى نوبة وحاك من فنون بدايع المعانى صبرًا وصاغ من كنوز لطائف ا لمبانى دررًا

العالم العلامة والدراكة الفهامة بركة الوقت والزمان الجدير بأن يشار إليه بأطراف البنان أرجو من الله تعالى أن ينفعنى ببركته وعالى همته الممنوح من المزايا والنعمة والعطايا بإمداد المولى البارى الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى من مدينة سنار انتسب الحائز فضيلتى الحسب والنسب وكذا جناب ابنه حضرة أخينا الهمام الفريد الكامل الرشيد ذى المجد والجلالة الوارث للعلوم عن غير كلالة العمدة الأفضل والتعلمة الأكمل صاحب الفهم الثاقب والفكر الصائب العالم الفاضل حاوى الكمالات والفواضل الهمام الألمعى والشباب اللوذعى العلامة المجيد مولانا الشيخ محمد التمسامنى الإجازة ظنًا منهما أنى أهلك لذلك مع أنهما أحق وأولى منى بما هنالك وما ذاك إلا لصدق نيتهما وحسن طويتهما فأجبتهما حسب عادة سابقيه ولا حقيه وذلك بعد أن لازمانى فى عدة فنون وأخذا عنى جملة كتب من شروح ومتون وأجزتهما بكل ما تجوز لى به الرواية وما تلقيته عن أشياخى ضاعف الله أجورهم رواية ودراية لاسيما بالإفتاء والتدريس للطلاب بشرط تقوى الله فيما عول عليه العلما الأنجاب كما أجازنى بذلك أساتذتى العظام ومشايخى الجهابذة الأفاضل الفخام موصيًا لهما بتقوى الله فى السر والعلن فى كل مكان وعصر وزمن وألا يفيدا حكمًا إلا بعد التبصر وكمال الروية والتدبر وأرجوهما أن لا ينسيانى من دعواتهما الصالحة الممتزجة بإخلاص كل عضو وجارحة فى سائر لحظاتهما من تقلبتهما وسكناتهما رزقهما الله القبول وكساهما خلعة الوصول وأحسن لى ولهما الختام بجاه النبى عليه الصلاة والسلام وآله البررة الكرام وأصحابه الطاهرين العظام وما لاح بدر التمام وفاح مسك الختام رقمه العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير الراجى عفو ربه المبدى حسنين أحمد جلبى الحفنى الشهير بالملط الصعيدى إقليما البوتيجى بلدا عفى الله عنه بمنه وكرمه آمين .

فى ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٧١هـ

(وختمه راجى لطفه الخفى حسنين أحمد الحنفى)

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

بحمدك يا من ورث الكتاب الذين اصطفى وأجاز أهله فجعلهم أهله وكفى والصلاة والسلام على سيد الأول والآخر بحر مسجور العلوم الأزلية الزاخر وعلى آله الحافظين شتته وصحبه

المقتفين سنته ما اتصل إسناد وفاض إمداد وبعد فلما كان العلم أكمل الكمال وسلوك طريقة أفضل الأعمال وكان ممن شب فى طلبه وشام برقة ونال البردة من جليه الشاب الألمعى والملاذ اللاذعى عبدالرحمن بن أحمد البدوى وقام مدة بالجامع الأنور جمال الدنيا الأزهر فحاز ما كتب الله تعالى له من فنونه طرفًا وجالس الصغير وحضر على الفقير المبسوط والشرح الكبير طلب منى الإجازة رزقني الله وإياه التقوى والإنابة فأجبته وإن كنت أهلا لذلك إسعافًا له والله أعلم بما هنالك مجيزاً بكل ما صح لى وعنى روايته من كل منقول ومعقول وفروع وأصول كما أجازنى بذلك مشايخى كالشيخ المرزوقى مفتى مكة المشرفة وأخيه الشيخ شطا الولى الصالح والشيخ يوسف الصاوى بالمدينة المنورة بأنواره عليه الصلاة والسلام وغيرهم كالشيخ السنوسى فى الكتب العشرة والسنن والمسانين وغيرها مما اشتمل عليه كتاب الأوليات وثبت الشيخ الأمير وغالب المسلسلات بالقيانة على الأسودين والمصافحة ومناولة السبحة وغير ذلك موصيًا له بوصية الله تعالى للأولين والآخرين ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا فإن الله مع المتقين وأن يستزيد من العلم ما حى وأن يكون تعلمه وتعليمه محضًا للوجه الكريم وتخلقًا بالاسم العليم وأن يهدل أفنان فنونه قطوف العمل رهبًا ورغبًا ولايجعلها لجمع الدنيا فيكون مع عبدة الأوثان لجهنم حطبا مديمًا ذكر الله تعالى مع الحضور فى كل شأنه وأن يتخلق بالرحمة الواسعة لجميع العباد وأن يحاسب نفسه مع الأنفاس قبل الحساب على رءوس الأشهاد وأن يُعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ويجعل الآخر غاية أربه ويديم المراقبة الحاملة على آداب الإحسان مع الخلق والناس ولايكون عن خلال الوصى ساهيًا ولا ناسيًا وأن يحسن الظن بجميع الأنام ويدعو للمسلمين بحسن الختام الفقير إلى الله تعالى عمر أحمد المالكى الشريف .

(وختمه عمر أحمد تاريخ سنة ٨٥ ولا تاريخ للإجازة وبالطبع سنة ٨٦ فى ربيع)

(٤)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى اختار من خلقه لخدمة شرعه صفوة عباده وأمدهم بعنايته وجعلهم من أهل محبته ووداده ووفقهم لطاعته والفكر فى ملكوته وزودهم بزاده وجعلهم بمداومة مراقبته طاهرين ظاهرًا وباطنًا بصفاء القلوب وذكرهم فى الملأ الأعلى عنده وذلك لديهم غاية المطلوب وجعل كل

شيء يستغفر لهم من الأملاك والأفلاك حتى الحيتان فى الماء وقد خصهم عز وجل بالذكر وأثنى عليهم فقال عز من قائل ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [فاطر : ٢٨] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولاشريك له شهادة عبد يرجو أن يكون من أهل سعادة وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله المخصوص بأكمل الأخلاق والمبعوث من أشرف بلاده وعلى آله وأصحابه الذين وضحوا لنا معالم الشريعة وجاهدوا فى الله حق جهاده وعلى سائر أتباعه وأحبابه وأحزابه وأزواجه وأولاده أما بعد فإن خدمة العلم الشريف عالية المنازل تختص بها الأخيار وتوصف بها الأبرار هذا وإن من أخيرهم وأفضلهم الأخ الصالح والعالم العلامة المبارك الناجح الفاضل السيد المراعى بعين عنايته المنان الفقيه النبيه الشيخ عبدالرحمن ولد العلامة الصالح الفقيه البدوى السودانى، من أهل ناحية الخرطوم قد قدم علينا بمصر القاهرة وتلقى علينا من العلم المنقول والمعقول ما تيسر له بحول الله تعالى بالجامع المعمور بالأزهر الأنور وطلب من الفقير إجازة هى سلسلة للعلوم كما هو معهود معلوم عند الجهابذة ذوى الإدراك والفهوم فأجزته بما تجوز له روايته وانتهت إلى درايته من المعقول والمنقول لما رأيت منه من حسن الحال والصلاح والقبول والله مولانا تعالى المسئول أيتولانا وإياه بالرعاية والعناية وحسن النية والقبول ويصلحنا وإياه ويوفقنا لما يحبه ويرضاه بجاه حبيبه ومصطفاه إنه سميع قريب مجيب وأوصى أخى وإياى بتقوى الله العظيم والتعلق بجناب نبيه المصطفى الكريم فإن ذلك هو العروة الوثقى والسبب الموصل إلى النعيم المقيم وألا تنسانا أيها الأخر بدعائك ونحن نحمد الله كذلك وعلى الله قصد السبيل وما توفيقى إلا بالله العلى العظيم والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وآخر دعوانا أن الحمد لله وصلى الله تعالى على محمد حبيبه ومصطفاه كتبته وأنا الفقير محفوظ بن أبى القاسم المغربى المالكى الخلوتى الأزهرى خادم العلم الشريف بالأزهر وكان الله بمنه وقع عام سنة ١٢٨٦ ٢٨ ربيع أول سنة ١٢٨٦ .

(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم التواب وصلى الله على النبى الأواب وعلى آله ذوى النفوس المرضية وصحبه ذوى الهمم العالية أما بعد فلما كان الجامع الأزهر والمسجد الأنور محلا لاكتساب

العلوم والمعارف وموضعا لتحصيل الفوائد واللطائف وكان ممن اكتسب منه المعارف واللطائف العمدة الفاضل والعالم الكامل ولدنا الشيخ عبدالرحمن السنارى وأراد التوجه لبلده لأجل زيارة أهله وصلة رحمه طلب منى أن أجيزه بما تلقاه عنى رجاء البركة فقلت قد أجزته بما تلقاه بشرط ألا يقدم على أمر حتى يعلم فيه حكم الله موصيًا له بالتقوى فإنها هى السبب الأقوى وألا ينسانى من صالح الدعوات فى الخلوات والجلوات والحمد لله وكفى وسلام وعلى عباده الذين اصطفى كتبه الفقير لربه تعالى إسماعيل الحامدى .

٢١ سنة ١٢٨٦هـ المالكى خادم العلم الشريف بالأزهر عفا عنه

(٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أجاز من استجازه بوافر الهبات والشكر للإله الذى أجاز من استجازه واعر العقبات وموصول الصلوات ومسلسل التسليمات على مرفوع الرتبة العالية سيدنا محمد وآله وصحبه أولى الهمم السامية ، أما بعد فقد استجازنى الشاب الناجح المبارك الصالح الشيخ عبدالرحمن أحمد البدوى الأنصارى فأجزته بما أجازنى به أساتذتى الكواكب الدرارى كشيخنا الولى المقرب الأستاذ الأكبر الشيخ ثعيلب عن شيخه الشهاب أحمد الملوى والشهاب الشيخ أحمد الجوهرى حسبما تضمنه ثبتاهما وكشيخنا الأمير الصغير بما حواه ثبت والده الكبير كشيخنا الشيخ حسن القويسنى بما تضمنه إثبات شيوخه كجمعة البحيرمى وغيرهم من الجهابذة وأفاضل الأساتذة :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

أجزته بما تجوز لى روايته أو تصح عنى درايته من فروع وأصول ومعقول ومنقول موصيًا له ولنفسى بتقوى الله والإخلاص له وابتغاء رضاه الفقير إبراهيم السقا الشافعى خادم العلم والفقراء بالأزهر .

وهنا ختم طره غير الإمضاء وفق يارحيم إبراهيم السقا

٢٨ ربيع أول سنة ١٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وكفى الصلاة والسلام على النبى المصطفى و على آله ذوى النفوس المرضية وصحبه ذوى الهمم العالية ما اتصل إسناد وفاض امداد أما بعد فلما كان اتصال السند من الأمر المطلوب المرغوب المحبوب وكان بمن جد واجتهد فى طلب العلم ولدنا الفاضل النجيب اللوذعى الألمعى ذو الفهم والذكاء اللهيب عبدالرحمن بن أحمد البدوى الأنصارى نسبا السنارى موطنا طلب منى إجازة بما تلقاه عنى لظنه أنى أهل ذلك والله أعلم بما هناك فقلت جبراً لخاطره وإن كنت لست من أهل هذا الشأن وكيف يحوم الضعيف حول ميدان الفرسان قد أجزت الشيخ المذكور بما أجازنى مشايخى عن مشايخهم من كل معقول ومنقول عن تفسير وحديث وفقه وتوحيد وآلة الجميع موصيا له بتقوى الله لأنها السند الأقوى فى كل شأن وألا ينسانى من دعواته فى خلواته وجلواته والله يحفظنا وإياه من الشيطان والنفس والهوى وكل آفة دنيوية وآخروية تجاه النبى خير البرية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم الفقير إليه تعالى السيد محمد الحفنى الزفزاقى الأشعرى المالكى الخلوتى خادم العلم والفقر بالأزهر وختمه محمد الحفنى الزفرا فى تاريخه سنة ١٢٧٧ .

(٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرف هذه الأمة بالإسناد وميزهم بها من بين سائر العباد والصلاة والسلام على سيدنا محمد كل هاد وعلى آله وصحبه وأولى الفضل والسداد أما بعد فلما كان الإسناد من الدين واعتنابه به مضى من المتقدمين وكان من اقتفا أثرهم كما هو دأب المخلصين أخونا العالم الفاضل الشيخ عبدالرحمن بن أحمد البدوى الأنصارى نسبًا السنارى موطنا طلب منى أن أجيزه بمرو يأتى من معقول ومنقول راجياً من الله حسن القبول فأجبته لما طلب وأجزته بما تجوز لى روايته مما تلقيناه عن أشياخنا ومما أجازونا به من حديث وتفسير وغير ذلك بشرط التحرى والاعتماد على النصوص أوصيه بما تواصى به الأوائل والأواخر ولا حاجة إلى التنصيص على الظواهر أسأل الله أن ينفع به المسلمين وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين الفقير إليه محمد حسين الشافعى الأزهرى عفى عنه .

٢٤ فى ربيع أول سنة ١٢٨٦

محمد حسين (وهنا ختم طره)

(٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رفع قدر العلماء بين المخلوقات وخفض أعدادهم بتقريرهم الأحكام فى سائر الجهات ونصبهم علامة على إشادة فى جميع الأوقات وجزم بهم أهل الطغيان والضلالات والصلاة والسلام على أشرف الكائنات سيدنا محمد المؤيد بجلائل المعجزات وعلى آله الأئمة الأعلام وأصحابه الذين هم نجوم الإسلام أما بعد فإن الإسناد من الدين وقد تمسك به أهل المعرفة واليقين من جهابذة العلماء المتقدمين والمتأخرين فاقتدى بهم تحفة أقرانه وزينة المحدثين ولدنا الشاب الصالح والكوكب المنير الواضح الشيخ عبدالرحمن أحمد البدوى والأنصارى نسبا السنارى بلدا المالكى مذهبًا عاملت إياه بلطفة الخفى وقد استجاز أشياخه حين أراد التوجه إلى البلاد وذلك بعد عكوفه فى الأزهر لتلقى العلوم من علمائه فأجازوه كما هو المعتاد فاستجازنى فى جملتهم أفاض الله على وعليه من بركتهم فقلت قد أجزت الفاصل المذكور ضاعف الله لى وله الأجور بكل ماتلقاه من وصحت له روايته عنى من معقول ومنقول بشرط التحرى والضبط واتباع المنقول موصيًا له بتقوى الله تعالى فى جميع الأحوال والتباعد عما فيه من زيغ ومذمة وضلال نفعه الله ونفع به الأنام ونظمنى وإياه فى سلك أهل قربه على الدوام آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الفقير صالح الجباوى الخلوتى الشافعى بالأزهر عفى عنه آمين الفقير إليه سبحانه مسعود النابلسى الحنفى الأزهرى عفى عنه وكلاهما بختمه عفى عنه وكلاهما بختمه .

٢٨ ربيع أول سنة ١٢٨٦

(٩)

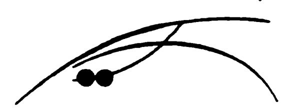
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين بفضله العظيم حمداً لمن أفاض الوجود بماسبق فى علمه الشامل و الكرم بالرحمة والجود عقب السجود فى حضرة الجبروت الكامل فبرزت الأعيان إلى العيان على ما أراده نوعان عالم وجاهل ، فالسابقون السابقون أولئك المقربون بالمعارف

والفضائل والثانى ثانى عنان نفسه عن ثمرة جنة أنسه ذاهبًا بها إلى حضيض الجهل السافل فالحمد لله على ما أولانا والصلاة والسلام على سيدنا أخرانا أولانا المبعوث بالهدى الأبهر والحظ الأوفر الأزهر وعلى آله وصحبه وقرابته وحزبه أما بعد فقد استجازنى الفاضل الصالح الكامل الناجح الشيخ عبدالرحمن أحمد البدوى الأنصارى نسبًا السنارى . موطنا فأجزته إجازة عامة بما تلقيت عن مشايخى الأعلام الرؤساء الفخام جعله الله ملجأ للأنام ومرجعًا عند اختلاف أولى الأفهام الفقير إلى الله تعالى .

في ربيع سنة ١٢٨٦
من الانبابى خادم العلم بالأزهر
محمد عبده الأنبابى

■■■

الملحق (٧)
قانون امتحان من يطلب التدريس بالأزهر
رقم ٢٤ ص ٨٦ ١٩٣٩ (أوامر عربي)



قانون امتحان من يطلب التدريس بالأزهر الصادر به الأمر العالى لنظاة الداخلية فى ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨٨ (أول فبراير سنة ١٨٧٢ وهو المعروف بقانون الشيخ المهدى) .

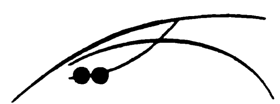
عرض لطرفنا إنهاكم الرقيم ١٤ ذوالقعدة سنة ١٢٨٨ نمرة ٢٤ وعلمنا منه أنه لما صدرت لكم إفادة معيتنا بالنظرة الداخلية بالاتحاد مع حضرة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر فيما استنسبه فى شأن من يتطلب التدريس من أهل الجامع وما يجرى فى خصوص الاستشهاد عنه لمعرفة لياقته من علمه ومايحصل بعد ذلك من امتحانه بمعرفة العلماء الأفاضل المنتخبين لذلك مع ما تراءى لدينا فى وقتها من موافقة أجعال التدريس على ثلاث درجات بحسب ما لهم الإلمام به من العلوم ، وأنه يعمل الترتيب اللازم ويعرض لطرفنا قد رؤى بالاتحاد مع الأستاذ المومى إليه فى تمييز درجات من يصير امتحانهم عن طلب التدريس بعد تحرير الشهادات الابتدائية ممن توثق بهم بالتطبيق للأصول المربوطة من طرف مشيخة الجامع هو أنه عند الامتحان بمعرفة العلماء المنتخبين لما ذكر ينظر فى حال الشخص الذى يحرى امتحانه فان تبين إليهم أن له وقوفاًعلى علم الفقه والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والأصول والتوحيد والحديث والتفسير والمنطق جميعها أو غالبها وله ملكة يقتدر بها على السلوك والتعليم فى هذه العلوم أو أغلبها يجعل فى الدرجة الأولى . ومن يظهر أن له وقوفاً على غالب هذه الفنون دون بعضها وله ملكة يقتدر بها على فهم وتفهيم ما تلقاه على وجه الصواب إلا أن ملكته لا تساوى ملكة صاحب الدرجة الأولى ويجعل فى الدرجة الثانية . ومن يظهر أن له وقوفاً على بعض هذه الفنون دون غالبها وله ملكة يقتدر بها على فهم وتفهيم هذا البعض يجعل فى الدرجة الثالثة . وأنه بمقتضى

الشهادة التى تعطى عند ذلك من العلماء المنتخبين يكتب له الإذن بالتدريس والإعلان اللازم من مشيخة الجامع بتوضيح الدرجة التى وصل إليها ويتقدم للداخلية حتى بعد عرضه لطرفنا يتحرر البيورلدى اللازم للمأذون المذكور من الدرجة التى امتاز بها وأنه أن بلغ أحد العلماء الذين صار امتحانهم إلى الدرجة الأولى ينعم عليه بكسوة شريف إظهارًا لمزيد شرفه .

وأما أرباب الدرجة الثانية والثالثة عند بلوغ أحدهم الدرجة الأولى بامتحان آخر يعوض عنه ليعطى له بيور لدى وكسوة وتشريف ، وحيث إن الذى تراءى فى هذا الخصوص وقع لدينا موقع القبول والاستحسان فأصدرنا أمرنا هذا لكم للمعلومية به وإعلانه من طرفكم لم يلزم واعتماد الإجراء على مقتضاه .

■■■

الملحق (٨)
وثائق من عهد محمد على بالسودان



وثيقة رقم ١

محفظة (١) ذوات. وثيقة رقم ٢١٥

من محمد على باشا إلى عثمان بك

إلا أنه تبين أيضا عدم إجراء المقتضى إلى الآن بالنظر لمشغوليتكم ولكن إن شاء الله تعالى فيما بعد تنظموا مسألة طلب الأموال من القرى المذكورة كما يجب بالمذاكرة مع أهل الخبرة وتقبضوها على الوجه المذكور لأن يا عثمان بك إذا ذاقوا أهالى السودان نتيجة آثار الزراع والصناع الذين أرسلوا فيما مضى من هذا الطرف إلى تلك النواحى ستزداد رغبتهم إلى العمران ، وعلى الأخص إذا نظمت ورتبت مسألة التيلة والقطن وأعمال الخيط من القطن وتشغيل الأنوال كما ينبغى فمن المواد المعلومة لديكم إلى أى حد يبلغ العمران . ولاشك أن الأهالى ستدفع الأموال المطلوبة التى عليها بكل فرح وسرور لازدياد رفاهتها إذا أجريت الترتيبات اللازمة نحو زراعة الأصناف السالفة الذكر . وإذا نظمت حركة تشغيل الأنوال بخيط القطن . وهذا إن لم أمكن بهذا العام سيكون بالعام المقبل إن شاء الله الرحمن .

وثيقة رقم ٢

محفظة ١٩ بحريرا. ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢

صورة محضر مجلس المشورة الذى انعقد فى يوم السبت الثامن من محرم سنة ١٢٤٢ . بحضور صاحب الدولة البك الدفتردار وحسن أغا ناظر الموشى وحسين بك ورستم أفندى ناظر

القماش ومحمود أفندى ناظر القسم الثانى للفابريكات وراتب أفندى وكيل ناظر الكيلارية وأمين أفندى وكيل الأصناف وأمين أفندى ناظر المبانى الأميرية وعبدالرازق أغا مأمور التقارير والمعلم حنا الطويل .

وتلى فيه التقرير الذى حرره خورشيد أغا المأمور بتنظيم أمور سنار عند وصوله إليها بعد أن اجتمع مع مأمورى المصالح وعقد معهم مجلسًا وداولوا فى الأمور الجدية وغير الجدية من حيث المصلحة وقدمه إلى الذات الرحيمة الخديوية ، وقد لخص مضمون كل بندقية فيما يأتى .

البند الأول

عرض خورشيد أغا مأمور سنار على مجلسه ما يلى . لقد استحضرنا معنا ثمانية من كبار مشايخ الأقاليم البحرية ومائة من صغارهم معهم مائة خولى ونحن سنبذل ما فى وسعنا ومقدرونا فى عمران هذا الإقليم ولكننا نراه خاليًا وفى غاية من الخراب والوقت لايسمح بأن نتجول فى أنحاء البلاد كل نطلع على درجة الخراب نظرًا لحلول موسم الأمطار فكل واحد منكم أقام فى هذه الديار سنة أو سنتين أو ثلاث سنين ، فأنبئونا بمعلوماتكم فى هذه الخصوص . فقال الحاضرون بالمجلس جميعًا إن عموم هذه البلاد خراب فى الوقت الحاضر ثم سكتوا . فأستأنف الموما إليه الكلام فقال . أجل ، قد علمنا أن الخراب قد استولى على البلاد ، فما أسباب الوصول إلى إعاشه (تموين) الجنود المعسكرين هنا والصناع الكثيرى العدد وكيف نتوصل إلى عمران هذا الإقليم؟ فأجابوه أن أئذن لنا فى الذهاب حتى نستشير فيما بيننا ثم نأتيك بتفصيل ما يتم ثم انطلقوا فعقدوا مجلسًا بمنزل القائمقام إبراهيم أفندى ، ثم رجعوا إليه فأتوه بالجواب .

فكان ملخص كلام المعلم ميخائيل . أما مسألة عمران الجزيرة وتحصيل الأموال الأميرية فلم يقبض شىء من مال سنة إحدى وأربعين حتى الآن . ولن يمكن تحصيل شىء منه بعد ذلك مادامت البلاد خربه . وأما مال سنة اثنتين وأربعين فإذا نزلت الأمطار هذه السنة كالمعتاد قديمًا ورجع الهاربون لعمرت الجزيرة ولو كفى الناس ظلم العساكر وسخرتهم ودرئ عنهم تعدى العربان وأذاهم ولم يطلب منهم المال بموجب الترتيب القديم ، بل وزع بمعرفة خورشيد أغا على السواقى والحرف والجزر وعلى قرى (حسن) على حسب قدرة كل شخص وبمقتضى القانون توزيعًا لائقًا

وحسبت الذرة والسمن والقماش المأخوذة منهم لحاجة الجنود من المطلوبات الأميرية من الجزيرة وحلفايه والبحر الأبيض بموجب الدفتر الذى نظمه حنا الطويل وأما سنة ثلاث وأربعين فإذاروعيت فيها الإعانة والمساعدة أيضا وأنشئت سواق بالأقاليم وزرع قطن ونيله فاشتريا من الرعاية بأثمان مناسبة فى مقابل المطلوبات الأميرية فإنه يمكن قبض ثلث الأموال الأميرية بموجب الدفتر القديم . وعلى هذا يمكن قبض نصف المال الأميرى فى سنة أربع وأربعين .

وملخص كلام موسى كاشف : لا يصح تحصيل مال سنة إحدى وأربعين ولا يمكن قبضه مع استمرار الأقاليم على الخراب ، وأما سنة اثنتين وأربعين فإن الرعايا لايقدرون على سد الأموال الأميرية حيث لم يبق عندهم شىء من الذهب والقرانة وما يشاكلهما فإذا نزلت الأمطار بغزارة ورجع الهاربون وحصل المال على النسق المذكور وآنفا فيمكن قبض سدسه بموجب الدفتر القديم ويمكن قبض ربعه فى سنة ثلاث وأربعين ، وأما إذا أصبحت السواقى فى سنة أربع وأربعين وعمل فيها بالجد والاجتهاد فيمكن إذن قبض نصف المال الأميرى فوافق تقريره تقرير المعلم إلا فى قوله يمكن قبض ربع المال فى سنة ثلاث وأربعين فقد خلفه هنا .

وملخص كلام عثمان أغا ناظر المهمات . لايمكن قبض مال سنة إحدى وأربعين وأما سنة اثنتين وأربعين فيمكن فيها قبض سدس المال الأميرى كما قرر المعلم ، ويمكن قبض ثلثه فى سنة ثلاث وأربعين كذلك يمكن تحصيل ثلثه فى سنة أربع وأربعين والسبب فى ذلك أنه إذا رجع الهاربون من مختلف الأنحاء إلى بلادهم وأقاموا بها وطولبوا بسدس المال الأميرى لسنة اثنتين وأربعين وبثلثه لسنة ثلاث وأربعين ولم يطالبوا بثلثه فى سنة أربع وأربعين ، بل طولبوا بالنصف فإنهم يزعمون أن الأموال الأميرية يضاف إليها شىء كل سنة فيعتريهم خوف ويلجئوم إلى الفرار مرة ثانية و لايمكن حينئذ عمارة البلاد .

وملخص كلام صالح أغا : ليس لدينا أمل فى تحصيل مال سنة إحدى وأربعين فإذا إذا وثق الفارون بأوراق الأمان(العفو) التى كتبت إليهم ورجعوا وانهمرت الأمطار بغزارة فقد يمكن تحصيل شىء من الذرة منهم لأجل المأكولات وفى سنة ثلاثة وأربعين عندما يسمع بقية الهاربين أن أحداً لم يطالب إلا بكمية من الذرة مثل سنة ١٢٤٢ يعودون إلى بلادهم ويعمرونها

ويمكن حينذاك أن يقبض منهم ثلث المطلوب فإذا كانت سنة أربع وأربعين ورجع كل الفارين وأنشئت السواقى واجتهد فى عمارة الأقاليم اجتهاداً بليغًا فيمكن حينئذ قبض نصف المال الأميرى فوافقه القائمقام إبراهيم أفندى على كل من هذا ولما قرئت هذه الآراء على المجلس سأل البك الدفتردار حنا الطويل فى أى تاريخ فتحتم الضرائب التى وزعت بعد فتح سنار مباشرة وكم هو عدد الضرائب التى قبضت؟ فأجابه حنا الطويل قائلاً : إن الضرائب التى فرضت أولا فى ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين بأن فتح خراج سنة ست وثلاثين . فقال البك الدفتردار : أنا أيضا نزلت إلى سنار فى شوال سنة ثمان وثلاثين ففتحت خراج سنة سبع وثلاثين فى ربيع الأول سنة تسع وثلاثين . وقد فتح عثمان بك أيضا خراج سنة ثمان وثلاثين فى ربيع الأول سنة ستة وأربعين ، وأما مال سن ثلاث وأربعين فإنما يمكن تحصيل أربعة آلاف كيس من بعد مساعدة البلاد وأعانتها فعلى تقرير المذكور يمكن تحصيل ستة آلاف كيسه من مال خراج سنة أربع وأربعين بعد بذل الإعانة وصرف الجهد على الوجه المشروح . (ثم وجه البك الدفتردار) سؤالا إلى موسى كاشف فقال : لو اقتضى الأمر فتح المال الأميرى لسنة إحدى وأربعين من أى تاريخ كنت بادئًا فتحه؟ فأجابه الكاشف المذكور يمكننا أن نترك هذه السنة و نفتحه فى آخر زراعه السنة المقبلة . فقال محمود أفندى . إنى موجه إلى موسى الكاشف سؤالاً وهو أن موسى الكاشف يقول إن الضرائب لم تطرح بعد عهد المرحوم عثمان بك . وقد أخذ محمود بك شيئًا ضئيلا أى خمسين ريالا أو ستين من الجزيرة ، وقد كتب فى تقريرهم أنه لو وجد لديهم نحو اثنى عشر كاتبًا ودونت الحسابات لحصل على شىء كثير ، ولو شدد على موسى الكاشف لذكر كل شىء فهؤلاء يريدون من جهة إيصال الفردة ويجيبون جوابًا حاسمًا أنها ليست موجودة ثم يبحثون فى الحساب من جهة أخرى ، فإنهم إذا ضبطوها كما ينبغى ولم يأخذوها بغير نظام وجعلوا لها قاعدة فاظن أنه يمكن كف الظلم عن الفقراء بفضل تلك الفايدة المستحسنة كما يمكن تحصل هذه الضريبة بحسب مقدرة كل شخص إنما يجب على موسى الكاشف أن يجيب على أسئلتى واحدة بعد واحدة .

ثم حضر مصطفى أفندى المورلى فجىء بالطعام ورفعت الجلسة .

أجاب موسى الكاشف : يحب الوقوف على حالة تلك الديار منذ عهد عثمان بك حتى الآن إذا وافق المجلس على ذلك فتستريح البلاد ويستريح الجنود أيضًا أما الحكام كانوا هناك منذ مدة عثمان بك لغاية الآن فلم يبحثوا عن حالة البلاد ولم يقوموا بأى عمل فلم تعمر البلاد وظلت آخذة فى الخراب يومًا يوم أعنى بذلك أنه عند انفصال أى حاكم وتعيين آخربدلا منه لم تكن تجرى محاسبة بينهما ولا كان الحاكم المنفصل يسلم البلاد إلى خلفه . فإذا كان المأمور الذى سيأتى بعد الآن يبحث عن حالة الجهة طبقا لأصول الحكومة ثم يدخل الأمور تحت ضابط ويربطها بقاعدة فيرجى للبلاد أن تعمر ولذلك قد طلب استخدام كتاب فإذا تم هذه التفتيش كما يريد مولانا فإن الكتاب المرسلين إلى تلك الديار سيوزعون على المحال التى تحتاج إليهم لاحتياج البلاد إلى أمثالهم لأن الإقليم ملك فسيح وقد كان علم الكتابة مهملاً فى العهد القديم وقد طلبا الآن كتابًا للحاجة الماسة بهم ولضبط أمور الديوان .

فرد محمود أفندى قائلاً : إن الفحص والسؤال مفوضان إلى رأى خورشيد أغا وله أن يفحص ويسأل كما تريد ولكن موسى الكاشف قال فيما قال إن المأمورين لم يفحصوا أحوال البلاد لأنهم كانوا أكالين . فمن هم الأكالين؟ هذا هو موضوع سؤالنا .

فقال موسى الكاشف : إن فى مقدمة غب الأكالين هناك السر عسكر ويليه الكشاف ويأتى القائم مون فى الصف الثانى . والمشايخ فى الصف الثالث وكل من يليهم أكالون .

فقال محمود أفندى فعل هذا قد علمنا ورأينا أسباب خراب البلاد . وقد رخص خورشيد أغا فعلية كاملة أن يفحص ويفتش فإذا علم لديه وثبت أن شيئًا أخذ من الفقراء ظلمًا فعليه أن يرده على أصحابه فإن لم توجد أصحابه فيجب حفظه فى الخزينة تحت المطلوبات التى باسم صاحبه ويجب الاعتناء والاهتمام بإجراء هذا العدل فإذا جرت الأمور على هذا المنوال تيسر حال الفقراء وأمكن أخذ شىء منهم يناسب أحوالهم لأنه لو ترك المشايخ كبارهم وصغارهم على نحو هذا الإهمال فيحتمل أن تضيع أشياء كثيرة توازى مال السنة . فإنى أظن أنه عند إبادة هذه الحال لو روعيت القاعدة الحسنة التى سبق بيانها وأخذ منهم شىء على حسب الوقت والحال فإن ذلك لايضر العمران .

ثم وجه السؤال إلى موسى الكاشف فأجاب : «نعم إن الضايع يكون بقدر المال» .

وقال حسن أغا : «إن المفهوم من مضمون التقرير الوارد من خورشيد أغا والذى علم من بيانات موسى الكاشف أن لمأمورى تلك الجهات وضباطها وكشافها وشيخ البلد مطلوبًا من خزينة ولى النعم من جهة العلوفة (لمرتب) فإذا ثبت عليهم شىء بعد فحص ذلك فيجب أن يقيد على حساب علوفتهم ، ويحتسب منها فلعلهم يرجعون بعد ذلك عن مثل هذا النهب ويثابرون على خدمتهم ويعمرون بلادهم ، وأما إذا بقى المنهوب غنيمة عند فيكون الطريق الذى سلكوه طريق الخراب حيث لايمكن الاهتداء به . وإنى لا أظن أنه لو أذن لخورشيد أغا فردعهم عن الظلم ، فلا ريب فى أن البلاد تأخذ فى العمران .

وقد انصرف رستم أفندى وراتب أفندى وأمين أفندى وكيل الأصناف وعبدالرزاق أغا قبل انتهاء الجلسة وبدون استئذان فأوفد المجلس جاويشا وبعثه فى طلبهم ليحضرهم ، فحضر أمين أفندى ثم رستم وراتب أفندى .

قال أمين أفندى ناظر المبانى الأميرية : بما أن خورشيد أغا قد نشأ بتربية مولانا صاحب المرحمة فقد اختير وكلف بحفظ الفقراء وحراستهم ، فالأولى أنه يحقق المومأ إليه فى الذين يسلكون هذا السلوك السىء ، وفيمن سلكه قبلهم ، فإذا ظهر فى ذمتهم شىء فليحصل ما يمكن تحصيله ، وأما ما لايمكن تحصيله فالأمر مفوض إليه فى البت فى وإدخاله تحت قاعدة .

وقال مصطفى أفندى : الذى أعرفه أن سنار على مسافة بعيدة تبلغ مسيرة خمسمائة ساعة ، وأن حنا الطويل ليحيط بأحوالها علما ، فيكون عبثا أن نتكلم قبل أن ندعوه إلى الكلام . فيجب أولا على موسى أغا أنه يبين الأحوال التى طرأت على سنار إلى المعلم المذكور ويفهمها له جيدا ، وعلى المعلم أن يستمع إليه ويدلى برأيه مقيداً كل هذا فى محضر ، ثم يعرضه على مسامع أعضاء المجلس حتى يبدى كل عضو آراءه على حسب ما سمع . ويجب أن يكون لمأمور البلد فى مسافة كبيرة كهذه مطلقاً فى تصرفاته فيثبت مايثبت ويمحو مايمحو ، أى أن يكون حرا فى تنفيذ آرائه و تدابيره ، خيرها وشرها ، لأنه هو المسئول عنها فيجب أن تصدر رخصة كاملة للمأمور المرخص له ولاينبغى أن يستشير السدة السنية فى شىء من الأمور الملكية .

فقال عبدالرزاق أغا : إن أمين أفندى لمصيب فى كلامه ، فأوافق عليه ، كما أواق على بيانات مصطفى أفندى .

ثم إن البك الدفتردار وأعضاء المجلس سألوا المعلم حنا الطويل قائلين : ماذا تقول فيما جاء فى التقرير والكتاب اللذين كتبهما خورشيد أغا؟ وهل يمكن قبض المال هذ السنة من خزانة سنار وما حولها من القرى أم لا يمكن قبضه؟

فقال المعلم حنا الطويل : إذا كانت الحالة على ما كتبوه ، وقد كتبوا أنه يوجد فى كل قرية رجل أو رجلان أو ثلاثة ـ فما الذى يمكن تحصيله منهم يسمى مال؟ فإن المأمور هو الذى يحيط بهذه المسألة ويعلم إمكان تحصيل المال وعدم إمكانه .

فأجاب موسى الكاشف قائلا : حيث إن المعلم الطويل أجاب بمثل هذا الجواب فإنى سائله عن أمر واحد ، أنه لو عمرت القرى كما تركها مثل ما هو مقيد بالكشف الممهور بختمه فهل يمكن التحصيل بموجب ما جاء فى هذا الكشف الذى أورد فيه خمسمائة ريال أو ألف ريال تخمينا؟

فقال المعلم حنا الطويل رداً عليه : نعم ، نحن وإن كنا وزعناه فيما تقدم على تلك القرى بهذه الصورة فلم نكن فعلنا ذلك عبثا ، بل وزوعناه على حسب قدرة كل واحد منهم وموجوداته . فإذا كان الموجود على ما كان وكما كان فيمكننا القيام بالإجراءات بموجب ما عملناه ، وأما إذا كانت القرى قد خربت فهذا شأن آخر .

وقال موسى الكاشف : إن الموجودات التى رآها هى عبارة عن أرقاء ومواش نعرض على القرية فردة قدرها ألف ريال ، والأرقاء والمواشى التى رآها هو لا توجد الآن فى تلك القرية ؛ فإذا سألتم عن إيرادها الآن فلا تجدون سوى قليل من الزراعة التى تقتصر على شىء من الذرة والقطن ، فكيف يحصل منها ألف ريال هذه؟

قال المعلم : إذا كانت الأرقاء والمواشى التى رأيتها ليست موجودة الآن وانحصر الأمر فى زراعة الذرة والقطن ، كما كان الأمر مبسوطًا برأى المأمور يلاحظ أن عبدالرازق أغا ترك الجلسة مع تركوها ولم يذكر أنه أعيد .

ثم قال البك الآخر : يستدل من التقرير الذى أرسله مأمور سنار أن أحوال تلك الجهات مختلة ، فلذلك قرروا أن مال خراج سنة إحدى وأربعين لايمكن تحصيله . فيحسن على ظنى أن نفوض إليه أمور البلاد . كالنظر فى عمارها وخرابها ومثل تحصيل الأموال والسعى والاجتهاد فى أمر إصلاح البلاد .

فقال محمود أفندى : «بما أن آراءنا قد اتفقت فأنا أوافق على ما تم» وقال أمين أفندى : «هذا هو المطابق لرأينا فقد وافقت عليه» . ثم وافق عليه راتب أفندى وكيل ناظر الكيلارية ، وأمين أفندى وكيل الأصناف ، ورسم أفندى ناظر القماش ، والمعلم طوبيه ، فقرر المجلس ذلك ، وقال حسن أغا : «إنى أوافقكم فى تفويض الأمور إلى رأيه على هذا المنوال» .

البند الثانى

جاء فى تقرير خورشيد أغا أنه لما أطولب المعلم ميخائيل بإحضار دفتر الإيراد وسئل عن المقدار الذى يبلغه الإيراد السنوى أحضر المعلم هذا الدفتر وقد قرر أنه بموجب ترتيب المعلم حنا الطويل إيراد نفس جزيرة سنار يبلغ ١١١٠٠ كيسه وإيراد المحل الذى يقال له حلفا به يبلغ ٢٩٤ كيسه والإيراد الورد من العربان والذين بجهة البحر الأبيض يبلغ ٣١٤ كيسه وأن المجموع يبلغ ١١٧٠٨ أكياس .

فقال محمود أفندى إن هذا الإيراد قد قرر بمعرفة حنا الطويل فى دفاتر سنار فى عهد فتحها قد يتفق مع هذا الوقت وحيث إن خورشيد أغا مأمور مرخص وهو عبد مخلص فأظن أنه يحسن تفويض الأمر إليه والترخيص له فى عمارة البلاد مهما أمكنه ومهما وسعه .

وقال الخواجة طوبيه : إن هذا لحسن جداً ، ووافق عليه أمين أفندى ناظر المبانى الأميرية وقال رستم أفندى أيضًا : «وأنا أوافق عليه» ووافق على ذلك حسن أغا وأمين أفندى وسائر أعضاء المجلس وتقرر :

البند الثالث

ورد فى تقرير خورشيد أغا أنه لما أعيد السؤال عن النفقات قيل إن نفقات العساكر الجهادية المقصورين ورئيس الأدلاء عيسى أغا وإسماعيل أغا رئيس الهوارية والكاشفين أولى مائة

التذكرة المشايخ والخولية والصناع وسائر الموظفين والمعلمين الذين ذهبوا مع خورشيد أغا تبلغ ثمانية آلاف وستمائة كيس وكسوراً عدا مرتب خورشيد أغا السنوى والمأكولات وعليق الدواب وعدا أثمان الريش والصمغ والمراد اشتراؤهما وعدا نفقات الشيخ خليفة الذى بجهة أبوحمد ولما طلب دفتر الإيراد المتحصل من العربان غير العربان الذين بجهة البحر الأبيض قيل إنه لا يؤخذ شيء من العربان سوى من عربان البحر الأبيض وأن أخذ ذلك منهم يتوقف على استقرار الحكم فى هذه الجهات فإذا أديرت إدارة حازمة أمكن التحصيل وإلا فيفرون ويطرأ على المطلوب نقص .

فقال محمود أفندى : إن ما جاء فى هذا التقرير محوّل على موسى الكاشف لإيضاحه شفويًا .

فإذا نسأله : كان مقصوده من حضوره إلى هنا هو طلب نقود لأجل نفقاتهم أم هم قادرون على إعاشة أنفسهم؟

قال موسى الكاشف : إنى لم أحضر هنا لأسأل وإنما حضرت لأطلعكم على شئون الجهة فإن خورشيد أغا وقد ولى مأموراً لما تعرض أحوال الجزيرة مفصلة على مسامع مولانا حتى الآن فلما دخل الجزيرة شاهد أحوالها رأى العين وعلمها بالتفصيل فاختارنا وأوفدنا إليكم وقال لى «أنبئ أهل المجلس كما رأيت وسمعت وفهمت . فعندما يعرضوا نتيجة مداولتهم على أعتاب ولى النعم وجب العمل بالأمر الذى سيصدر فى هذا الشأن وبما أنه لا يمكن تحصيل شيء مدّة سنة أو سنتين لكون الجزيرة خربة فلو أرسلت حملات إلى بلاد قضارف وعطش وحسنة ومكثت هنالك نحو خمسة أو ستة أشهر وحصلت جانبًا من المال وصرفت منه شيء لأجل نفقات العساكر وأعينت الجزيرة حينئذ منقبل الديوان فنأمل إن شاء الله تعالى أن تعمر الجزيرة . وقد سمع أهل المجلس أفادتنا فإذا استحسنوها يكون الرأى رأيهم .

وسأل البك الدفتردار الكاشف المذكور أنت تقول إنكم تستطيعون تموين الجنود فبأى وسيلة يمكن تموينهم؟

فقال الكاشف المذكور يمكن تحصيل ثلاثة آلاف كيسه من قرى قضارف وعطش وحسن فيمكن إعاشتهم بها .

فرد البك الدفتردار . ذكر فى هذا التقرير أنه عندما سأل خورشيد أغا عن هذه المسألة قيل له إن المبلغ الذى يمكن تحصيله من هذه الأماكن فى سنة هو نفس المقدار الذى يحصل من الجزيرة وبما أن إيراد الجزيرة يبلغ إحدى عشر ألف كيسه فأين يذهب الباقى؟ ومع ذلك فإن ما يسمونه قضارف كان قد أقام بها كبير قواس صاحب المرحمة ولى النعم خمسة أشهر فى مائة وعشرين جنديًا وأخذ ثمانين كيسه إذ كانت القرية عامرة . وبعد مرور سنة بينما كنت أطارد عربان الشكرية أقمت فى تلك الجهة حوالى عشرة أيام لأخذ الذخاير ولما أيقنت أنه لايمكن الحصول على شىء من البلد لم أطالبهم بشىء سوى الذخيرة . وأما إقليم حسن فقد ذهب إليه زكريا أغا أحد كردات ولى النعم ، بمعية قبودان بولاق فمكثا به شهرين وحصلا إحدى وثلاثين كيسه ثم رجعه وعندما ما وصلنا إلى سنار علمنا أن أخا حسن كان حاكمها فهرب بعد أن استخلف حسن . وعندما ذهب أحمد أغا إلى الجهات العليا ، رافقه حسن هذا إلى شرق جبال فازاوغلى ولكن لم يستطيعا أخذ شىء من النقود إنما عادا بمائة وخمسين رقيقًا . وأما عطش فهو إقليم واقع على نهر دندر على بعد خمس مراحل من سنار وكان أهله تابعين للحبشة قبل وصول العثمانيين إليهم فلما لوحظ أنهم من أتباع الحبش كف عن السفر إليهم وبقوا على ما كانوا عليه . وليست واردت تلك البلاد بالشىء الكثير على ما سمعنا بل يمكن تحصيل مائتين وخمسين كيسه إلى ثلاثمائة أى تلك البلاد بالشىء الكثير على ماسمعنا بل يمكن تحصيل مائتين وخمسين كيسه إلى ثلاثمائة أى أنى أظن أن هؤلاء العساكر لو قاموا وسافروا إلى تلك الجهات لأمكنهم فقط أن يتعيشوا منها دون الحصول على أى نقدية .

فقال حسن أغا : إن البك ذهب من قبل إلى تلك الديار وشاهد أحوالها فلا بد من أنه يكون أكثر إطلاعًا من غيره على جميع الأمور بقى أن بقعة عطش تابعة للحبشة كما هو ظاهر من كلام البك فأظن أنه يحب التفكير التام فى سوق جنود إليها ثم العمل بما يقتضيه ذلك التفكير .

ثم قال البك الدفتردار : أما بقعتى حسن وقضارف فهما داخلتان فى حوزة حكمه فهو مختار فى العمل فيهما كما يرى لكونه مأمورًا وأما بقعة عطش فإن الزحف أو عدم الزحف عليها أمر متوقف على الإرادة السنية الخديوية لكونهما قطعة أخرى تابعة للحبشة ولكن فى عدم الزحف عليها محذورًا حيث تكون مأوى وملجأ للهاربين .

وقال حسن أغا إنى أوافق على رأس البك من كون أمرها منوطا برأى مولانا ولى النعم . فوافق رستم أفندى وسائر أهل المجلس على ذلك فقرروه .

البند الرابع

جاء فى تقرير خورشيد أغا أن العشرين خبيراً فى زراعة الأفيون الذين هناك يبلغ مرتبهم الشهرى عشرة كسات وبما أن الأفيون لم ينتج نتجًا حسنًا لحرارة الجو ومخالفة الرياح فقد تقرر إرسال عشرة منهم إلى مصر ثم عدل عن ذلك القرار واستحسن إبقاء أربعة منهم وتوزيع الستة عشر الباقين على الرؤساء للعمل فى معيتهم .

فوافق على ذلك عبدالرازق أغاوأمين أفندى وعلى أفندى .

وقال البك الدفتردار : لا ندرى لبعد المسافة هلى كانوا سقوه وقاموا بتنقيته وخدمته كما ينبغى؟ ولقد زرعوه فى موضع يبعد عن مقام خورشيد أغا بثمانى مراحل فلابد من أن المأمور لا يحيط به علما ولا يمكنه الاعتناء به ، ولقد سئم خبراء الأفيون حتى أجابوا بجواب قاطع أنه لا ينتج وحيث إن هؤلاء الخبراء مقيمون الآن هناك فالأحسن أنه ينتدب خورشيد أغا رجلا ليشرف عليهم فلننظر بعد التجربة أمكن إنتاجه أم متعسر ، فيعلم أمر حينئذ .

فوافق عليه مصطفى أفندى ورسم أفندى وحسن أغا وموسى الكاشف يوم ٩ محرم سنة ١٢٤٢ .

البند الخامس

قرئ هذا البند من أصل التقرير وفيه إعادة العمال كنشارى البلاط والعاملين فى الجيس والحير إلى مصر لعدم فائدتهم حيث لم ينجحوا فى إنهاء شيء وقد وافق البك الدفتردار وسائل أهل المجلس على إرسالهم إلى مصر لعدم الفائدة منهم .

البند السادس

قرئ ملخص هذا البند من التقرير وفيه عدم صلاح نتاج البن فى السودان وقد قيل إن عدم صلاح نتاجه يحتمل أن يكون ناشئًا من كون تقاوية عتيقة ولكن خبير زراعة البن أجاب بعدم إمكان نتاجه إجابة قاطعة حتى تقرر إعادة ذلك الخبير إلى مصر .

وبعد قراءة هذا البند قال أحدهم . حيث إن الخبير قال إنه لا ينتج ووافقه خورشيد أغا على ذلك فلابد أنه اقتنع بعدم نجاح هذه الزراعة فالمناسب على ما أظن رجوعه إلى مصر بدلا من أن يمكث هناك بدون فائدة ويكلفنا نفقات زائدة بدون ثمرة .

ووافقه على ذلك مصطفى أفندى ورستم أفندى وبقية الأعضاء

البند السابع

قد جاء فى التقرير ما يلى : إن الدباغين والمرسلين من مصر لم يوفقوا للقيام بشىء من العمل حتى الان وأن لزوم الجهادية من الجلود مازال دباغوا السودان يطونه وأن أسطوات مصر يطلبون بعض أشياء ولوازم من مصر للقيام بعملهم وأنها لو جلبت فإن فائدتها لاتكاد تفى بنفقاتها وقد سبق أن أرسل إلى مصر معدل هذه المسألة كما أرسل كشف مبين فيه الأشياء والآلات الخاصة بالدباغة ففى حاله لزوم بقاء وهؤلاء الأسطوات بهذا الطرف وجب إرسال المواد الكيمائية والأجزاء اللازمة وإلا فيفاد عن عندم لزوم بقائهم .

فلما قرئ بذلك قال عبدالرازق أغا ، حيث إن الجلود الخاصة بالجنود الجهادية تعطى من قبل أسطوات الأهالى ويمكن قضاء حاجتهم بذلك وأن اسطوات مصر لا يقدرون على العمل فى السودان فإنى أظن أن الأحسن رجوعهم إلى مصر حتى تعمر البلاد بدلا من مكثهم بدون فائدة .

فوافقه البك ومصطفى أفندى وغيرهما وقال حسين أغا وأنا أيضا أوافق على عدوتهم اتقاء الوقوع فى نفقات كهذه لا فائدة فى تحملها . وتقرر .

البند الثامن

وقرئ ما جاء فى هذا البند من التقرير وهو سؤال عما إذا كان يستحسن إرسال مائة وخمسين نفساً من أهل السودان إلى مصر كى ينشأوا ويتعلموا الصنعة ثم يرجعوا فيستخدموا .

قال أمين أفندى ناظر المبانى الأميرية حيث إنه قد قيل إن عدد الباقين فى السودان هو ستمائة وثلاثة أشخاص فإذا جاء منهم وخمسين إلى مصر فكم إنسانًا يبقى هناك وكيف يكفى هذا العدد؟

فصدق البك وقال إذا ذهب منهم المائة والخمسون فكيف يكفى الباقون للزراعة؟

فوافق على ذلك مصطفى أفندى وعبد الرازق أغا ورستم أفندى وغيرهم : وتقرر .

وقال محمود أفندى . نعم إن من المناسب أن توفد رجال ليتعلموا الصنعة ولكن إذا بعث مائة وخمسون فكم يبقى من الستمائة ومن الذين يقيمون بالقرى وكيف يكون حال الزراعة وكيف يمكن تعيش هذه البلاد؟ فأنا أيضًا أصادقكم على هذا الرأى .

وقال حسن أغا : إنى سائل موسى الكاشف عن شىء . إنكم كنتم هناك قبل ذهاب خورشيد أغا فلم تفيدونا حينئذ عن خراب تلك البلاد واحتياجها إلى العمار وأنتم تتكلمون الآن عن ذلك؟ فأجاب الكاشف قائلاً : قد سبق أن عرضنا هذا الأمر مرات عديدة وأتت الإجابات إلى محمد بك ولكن محمد بك لم يطلعنا عليها ولم يقم هو أيضًا بعمل ما فبقى الأمر على حاله .

البند التاسع

جاء فى التقرير الأسئلة والأجوبة الخاصة بالبحث عن المعادن الموجودة بجبال سنار . وقد ورد فيها أن فى جبال هذه الديار أنواعًا مختلفة من المعادن ولكنها لم تعرف بعد لعدم وجود الخبراء . وأن معدنًاخبيرًا يدعى الخواجة (بروكى) كان أرسل أمرًا أن سنار مع درويش أغا المشرف على تلك المهمة وأنه قدم بعد وفاة المرحوم عثمان بك فأهملت المسألة فى عهد محمد بك وأن منجم الذهب يقع على مسافة ثمانى عشرة مرحلة من سنار فلا يمكن الوصول إليه بقليل من العسكر بل يحتاج إلى اصطحاب خمسمائة جندى وإنه إذا صدر الأمر الخديو بالذهاب إليه فإن خورشيد أغا سيقوم بنفسه أو يوفد عيسى أغا قبل حلول موسم الأمطار وأنه أرسل كشفًا عن نفقات المعدن المذكور ودويش أغا .

فوجه حسن أغا سؤالاً إلى البك عما إذا كان المستحسن إرسال خمسمائة نفس مع هذا المعدن أم إذا كان الأولى تأجيل ذلك؟

فاجاب البك : لا أدرى حيث إنى لم يسبق لى السفر إلى تلك الجهات .

وقال رستم أفندى أن أهم المسائل عمران البلد فأظن أن الأحسن الاهتمام بعمار البلاد أولا ثم التوجه إلى ذلك الموضع بعدئذ .

وقال محمود أفندى : إن خورشيد أغا رجل بسيط معروف بالبحث فى هذا القبيل من الأمور وجدير بالوصول إلى غورها فإذا فوض هذا الأمر إليه فهو أدرى بتحققه أو عدم تحققه فيبادر إلى العمل بمايرشده إليه عقله .

وقال مصطفى أفندى فلو أنهم بدلا من أن يذهبوا إلى المنجم مع خمسمائة جندى زرعوا الأراضى للحصول على طعامهم وشرابهم وعمروا البلاد لكان الخير لهم ولكان ذلك أحسن منجم . فإذا حضر المعدنون بعد أن تعمر البلاد فليس بعزيز على فضل الله تعالى أن يحصل على هذه الفائدة أيضًا إن شاء الله تعالى .

فصدقه عبدالرازق أغا . ثم جايرسليمان أغا فصدقه أيضًا .

ولما وجه حسن أغا السؤال إلى حنا عما إذا كانت ترجى فائدة من هذا المنجم أم لا ترجى . وصدقه حسين بك .

البند العاشر

ورد فى التقرير أنه جرى البحث فى ذهب سنار المأخوذ من سنار وضواحيها على حساب المطلوبات الأميرية ووضع سؤال عن سعر أوقيته بحساب الفرانة (الريال) فقال المعلم ميخائيل إن الأوقية منه كانت تباع وتشترى بعشرين فرانه منذ فتح السودان حتى عهد المرحوم عثمان بك ، فخفض المرحوم عثمان بك من سعرها أربع فرنسات قرره ستة عشرة فرانه . فهو يتداول إلى الآن بهذا السعر . وسئل عما إذا كان للديوان فائدة من هذا السعر فأجاب أنه ليس للديوان من ذلك فائدة إذ إنه يعطيه بالسعر الذى يشتريه به بل يصيب الرعايا من ذلك خسارة قدرها أربع فرانات . وأما التجار الجلابون فيشترونه بسعر سبع عشرة فرانة فينقلونه إلى جهات الحبشة والمكاوى و سواكن ويبيعونه هناك بسعر خمس عشرة فرانة فقال خورشيد أغا حيث إن الخسارة تلحق بالرعايا وأن الربح يعود على التجار فإذا تقرر سعره عشرين فرانة كما كان من قبل فإن الرعايا لايعطون هذا الذهب للتجار بل يقدمونه للديوان ليستفيدوا من فرق الأربع الفرانات وبذلك توفى جميع المطلوبات الأميرية . وقد صدقه الجميع وتقرر سعر أوقية الذهب عشرين

فرانة وكتبت أوامر إلى الحكام كافة وأعلن لهم الأمر فلما انتهوا من قراءة ما تقدم وافق أمين أفندى ومصطفى أفندى ورستم أفندى وسليمان أغا ، وغيرهم من أهل المجلس وقرره .

قال البك الدفتردار : إن أوقية الذهب تزن عشرة دراهم كما أنها تساوى تسعة باليالديزات . فإذا حسبنا سعر اليالديز ثلاثة و . . . . ثلاثين قرشا فتكون قيمتها مائتى قرش . وأن العشرين فرانة تساوى ثلاثمائة قرش على حساب خمسة عشر قرشًا للفرانة . وقد أصابوا إذا سعروا أوقية الذهب بعشرين فرانة كما كان فى عهدنا وفيما قبل .

وقد وافق محمود أفندى وعبد الرزاق أغا ورستم أفندى ومصطفى أفندى وأمين أفندى وغيرهم على رأى البك فى تثمين الفرانة خمسة عشر قرشًا وتسعير أوقية الذهب عشرين فرانة ثم قرروا ذلك .

البند الحادى عشر

جاء فى التقرير الوارد أنه لما بحث فى مقدار استحقق الجنود الموجودين أجاب أهل المجلس أن للجنود الجهادية مطلوبًا لسبعة أشهر لغاية هذا التاريخ بخلاف ما أخذوه على الحساب وأن لعيسى أغا مطلوبًا لعشرين شهرًا وإن لكل من أصحاب التذاكر استحقاقًا لاثنى عشر شهرًا وأن الصناع لهم استحقاق لستة عشر شهرًا بالتقريب . ثم قيل . هل يمكن أن نحصل هذه المرتبات من بقايا السنة السابقة وندفعها لأصحابها ، فأجابوا بقولهم . من نستطيع أن نحصلها مادامت البلاد خربة؟ إلا أنه إذا أراد الله وأغاثنا بالأمطار فى العام المقبل وعاد الهاربون وعمرت البلاد وزرعت الأراضى واجتهد فى ذلك فإن الإيراد إنما يكفى المرتبات المستحقة بعد ذلك فتتحسن الحالة حينذاك فلما قرئ هذا قال مصطفى أفندى . إن هذه المسألة لا يصح الاستعجال فى الإجابة عنها بل هى تحتاج إلى تفكير عميق .

وقال البك الدفتردار . حيث إنهم تعهدوا كما ذكر آنفا ، وقالوا لو إننا حملنا على جهات حسن وقضارف وعطش يمكن أن ندبر ما يكفى تموينا هذه السنة وحيث إنهم يريدون السير إلى تلك الديار ويرون إمكان الحصول على المال فى الجزيرة فهم أن يسافروا إليها كى يدبروا ما يكفى مؤونتهم .

قال محمود أفندى إن موسى الكاشف ملم بأحوال تلك البلاد إلمامًا تامًا فنسأله عما إذا كانوا سيحتاجون إلى نفود من هذا الطرف (من مصر) أم يمكنهم الاكتفاء بما يجدونه عندهم .

فقال الكاشف : إن مولانا قد سلم إلينا جزيرة سنار ، فكيف يكون لنا أن نسأل مصر نقوداً فعلينا أن نجتهد ما استطعنا فى كفاية أنفسنا بفضل ولى النعم .

البند الثانى عشر

جاء فى التقرير أن المشايخ الكبار والصغار والخوليه وحسين أغا حاكم الخط الذين أتوا مع مأمور سنار قد أنزلوا فى أخطاط بلاد سنار وجالوا فيها وحرروا كشفا عن الفلاحين الموجودين فى كل خط وقرية وعينوا درجة الخراب التى لحقت بالإقليم فى السنوات الأخيرة فأرسل الكشف إلى الأعتاب العالية مع موسى كاشف وإن فى شرق هذا الإقليم على ساحل النيل ثلاثة أخطاط تشمل مائة وأربعين قرية يعرف الأول منها بخط (أبوهراز) والثانى (ولد عباس) والثالث بخط (الهلالية) وأنه قد فر جميع أهل تلك القرى فى عهد الحاج أمين أغا رئيس الأولاء وأنه لا يوجد فرد واحد من المشايخ ولا من الرعايا فى أى تلك القرى وأن من الهاربين من يقيم الآن بالوضع الذى يقال له عطش وأن منهم من قطن بين العربان وأنه إذا جلب هؤلاء الناس بفضل الله تعالى وبرعاية ولى النعم وعمرت تلك الأخطاط فإنه سيطلب مشايخ وخولية بقدر كفاية ثلاثة أخطاط .

فلما فرغ من قراءة ما تقدم قال محمد أفندى . قد تعين علينا واجب من بعد الآن وهو أننا إذا أرسلنا رئيساً أو ناظراً إلى محل ينبغى أن ننظر أهو من أصحاب الخصال العالية أم هو رجل مرتش فنختاره من أصحاب حسن السير والسلوك الذين يوافق أفعالهم أقوالهم .

وقال البك الدفتردار ، فليسرع هؤلاء فى عمار البلاد ، فإذا احتاجوا إلى مشايخ وخولية فعليهم أن يعرضوا أمرهم على الأعتاب فإن مولانا صاحب المراحم يرسل إليهم مشايخ وخولية .

فصدقه محمود أفندى ورستم أفندى وأمين أفندى ناظر المبانى وعبد الرازق أغا .

البند الثالث عشر

جاء فى التقرير أن خورشيد أغا قال لأهل المجلس . سمعت أن هناك موضعاً بمسافة خمس مراحل من سنار يقبل له عطش وإنه كان فى حكم جزيرة سنار أصلا وأن فتحه لم يتيسر حينما فتحت سنار لعدم مساعدة الوقت فبقى على حاله وأن المطلوبين تسلطوا على أهله فأطاعوهم وعاهدوهم على أن يعطوهم شيئاً ضئيلا من الخراج وأن الهاربين من هذا الطرف يلجئون إليه

فيقيمون به زاعمين أنه دار أمان وراحة . فهل هذا صحيح؟ فقال الشيخ بشير والشيخ خليفة . نعم هذا حق فهو معمور جداً فإذا استولينا عليه فلا يستطيع أحد أن يفر كما نتمكن من إعادة الهاربين فتعمر سنار ولو فرض أن فر أحد إليها فإن أهاليها ابرن إيواءه بينهم فتحصل منافع من عدة وجوه قال خورشيد أغا . فهل تحصل فائدة من جهة المؤونة؟ فأجابوا بأنه يؤخذ من تلك الديار ما يؤخذ من الجزيرة فى سنة وصادق الجميع على ذلك فيعرض (خورشيد أغا) بناء على ما تقدم أنهم قرروا إجماعًا تسخير تلك الديار باصطحاب ألفى جندى منهم ستمائة خيال من الفرسان الموجودين وأربعمائة من خيالة الشابقية وألف من الجنود الجهادية .

وبعد الفراغ من تلاوة ما تقدم قال حسن أغا . لقد سبق ذكرهذا الموضوع فى التقرير واتخذ القرار اللازم فى شأنه وحيث إنه متفق مع المشايخ والعربان وأهل الوقوف فليس من المعقول أن يتعهد هذه المسألة ويكتبها فى تقريره قبل أن يشاور الذين سبق لهم الإقامة فى تلك الديار . بقى أنهم اعترفوا بامكان تحصل مال من عطش بمقدار المال الذى يحصل من الجزيرة فى سنة ، فعلى هذا فإن المصلحة بيعدة بالنسبة إلينا قريبة بالنسبة إليهم فنحن نستحسن ما يستحسنونه أن يأخذوا معهم ألفى رجل وما يكفيهم من القود والذخائر .

فقال محمود أفندى . أما أنا فأمتنع الآن عن الموافقة على ذلك لأن مسألة عطش تحتاج إلى شىء من التفكير .

ثم قال محمود أفندى : إن جزيرة سنار لم يبق لها سكان بالنسبة إلى سعتها حيث إنه قد ذكر فى كشوفها أنه بقى فى مائة وخمس وأربعين من قراها خمسمائة وتسعة وتسعون نفسًا ، فلانرى من هذه الجهة وسيلة توصل إلى عمار ماخرب منها ولم ندر ما إذا كان الذين يسمونهم بالهاربين يبلغ عددهم كم ألف نفس؟ وقال موسى الكاشف فى تقريره أن هلك كثير من الناس جوعًا وبسبب الجدرى وقد أخذتنى الحيرة من أجل ذلك ، فلو كان أهل الجزيرة خمسين ألف نفس فإن ذلك ليس كما نأمل ولا يوافق أصولنا ولم أر فائدة فى اختيارنا هذه المقادير من النفقات والتكاليف ولو فرضنا أن هناك كثرة عظيمة فى الإنسان والمواشى فلا ريب أن فى تربية الآدميين وتنشئة المواشى نفعًا . وقد بذل الجهد والمساعى فى عمار تلك الديار ولكن الموظفين الموجودين هناك قد أهمهم أمر رجوعهم إلى مصر قائلين فى أنفسهم (متى نرجع إليها؟) وأما الأهالى فهم يفكرون أيضًا فى عودة الموظفين فيقولون (لابد أن يرجعوا؟) فوقع التقصير من قبل الطرفين فى الاهتمام بالأمور

فيجب أن يسأل موسى الكاشف عن حقيقة لايوجد إلا عدد قليل من الرجال والحيوانات.فإذا كان الأمركذلك فيجب التفكير فيه وإعمال الذهن فى اتخاذ طريقة أخرى بجميع نواحيها ، ولكنى أيقنت بما يوحى به عقلى القاصر أن هذا الكاشف كذب . فلو فرضنا أن عدد الباقين يوزى واحد فى المائة على أقل تقدير لكان معنى ذلك أن عدد سكان الجزيرة كان ستين ألفًا هذا ما دعانى إلى طلب التفكير جديًا فى الموضوع ومع ذلك فالرأى للمجلس .

وقال البك الدفتردار . يقولون إنهم هلكوا بسبب المجاعة والجدرى فيجب أن يقع مثله بكردفان ولكن لم يظهر مثل هذه الشكاوى من جانب كردفان وحيث إن الفردة لم تدفع سنتين فمم نشأت هذه الضائقة وهذا الضنك؟ فقد حيرنى عدم اهتدائى إلى علم أسباب ذلك .

وقد وصلت الساعة إلى النصف بعد الغروب أى وصل المجلس مداولته على التوالى من الساعة الثانية صباحًا (عربية) إلى ذلك الوقت وقد فض المجلس .

الإمضاءات

البك الدفتردار	حسن أغا	حسين بك	محمود أفندى	راتب أفندى
	ناظر المواشى		ناظر الفابريقات	وكيل ناظر الكيلارية
رسم أفندى	أمين أفندى		أمين أفندى	عبد الرازق أغا
ناظر القماش	ناظر المبانى الأميرية		وكيل الأصناف	مأمور التقارير
	على أفندى		سليمان أغا	
	ناظر الحرير		وكيل ناظر الغلال	

وثيقة رقم ٣

دفتر رقم ٦٦ معيه تركى

ترجمة الأمر الكريم رقم ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع أول سنة ٢٥١

من الجانب العالى إلى خورشيد باشا

حضرة أمير الأمراء الكرام وكبير الكبراء الفخام وصاحب المجد والاحتشام خورشيد باشا مدير الأقاليم السودانية الجسيمة التى هى إحدى الأقاليم المصرية الممنوح له لقب حكمدار تلك الأقاليم منعمًا عليه برتبة الميرميران الجليلة دام إقباله .

اعلم أن توجيه همتك إلى العناية بسكنة هذه الأقاليم التى كلفت بتنظيم أمورها تنظيمًا حسناً وبإدارة شئونها إدارة طيبة وكذلك نجاحك فى القيام بخدمات تشكر عليها فى هذا السبيل بفضل الكفاءة التى هى صفة خالدة تلازم شخصك دوامًا وبفضل النبوغ الذى يشرق فى جبينك دائماً قد زاد فى عطفى الخاص عليك حتى أصبح إعجابى بك مضاعفًا فوجب أن أكافئك بمكافأة إظهاراً لهذا الإعجاب فأصدرت أمرى هذا إليك لتبشيرك بأننى مع إبقائك مديرًا لهذه الأقاليم كالأول قد أنعمت عليك برتبة الميرميران الجليلة وبوسام رفيع مرصع بالجواهر من هذه الرتبة فإذا علمت أن هذا الإنعام مما يشرح صدرك ويعلى صيتك ويرفع اسمك حتى يصل إلى عنان السماء فأرنى نشاطك فى هذا السبيل أيضا من بعد الآن تقديرًا لهذا العطف الجليل الذى بزغت شمسه عليك بهذا البزوغ الجميل ، وقم بجولات متواصلة فى فيافى البلاد السودانية ليلا ونهاراً كالأنجم السيارة السبعة فى سبل تمشية أمور البلاد وتمشية وحسنة والعناية بها كل العناية أسس كافة الأهالى بسياسة طيبة واجعل الاهتمام ببسط العمران والرفاهية فى هذه الأقاليم كالأقاليم المصرية نصب عينيك كما هو المنتظر منك من بعد الآن حتى تستحق به المزيد من عطفى الذى مازال متجليًا عليك من القديم بلاشك فينبغى أن تعمل بهذا الأمر فتجنب المخالفة .

وثيقة رقم ٤

سجل رقم ٢٢٠ عابدين

صورة الوثيقة رقم ٥٢ فى ٨ ذى الحجة سنة ١٢٥١

إلى مأمور دنقلة

اطلعت على كتابكم العربى العبارة المحتوى على أنكم باشرتم إعداد المدرسة التى ستفتح فى دنقلة وأن أولاد الترك هم أبناء سنتين وأربع الذين جمعتموهم من أولاد العرب مائة وأربعة أولاد وأن بعض الأشياء اللازمة للمدرسة المذكورة غير موجود وأنكم تريدون ماتحتاج إليه المدرسة لمدة سنة وبما أنكم أشرتم إلى أن أولاد الترك غير صالحين لأخذهم للمدرسة لصغر أسنانهم فقد رأينا أن نصرف النظر عن تلك المدرسة وعن إرسال ما هو لازم ولها عن

أولئك الصبيان الذى جمعتوهم فكفوا يدكم عن جمع الأولاد ولا حاجة إلى ذلك المكتب (المدرسة) .

فى ٨ من ذى الحجة سنة ١٢٥١

وثيقة رقم ٥

ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨٩ بتاريخ غرة جماد الثانى سنة ١٢٥٢

من الجناب العالى إلى مأمور دنقلة

لقد أطلعنا على العريضة المؤرخة فى ١٨ جمادى الأولى التى بعث بها إلينا قاضى الشرع والعلماء بدنقلة وطلبوا فيها إنشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية وتتلى الخطبة وإقامة مدرسة لتعليم الصبيان . فنطلب منك أن تعلموا على إنشاء الجامع وإقامة المدرسة إلى جانبه .

وثيقة رقم ٦

دفتر ٢٢٠ عابدين

ترجمة المكاتبة التركية ٣٤٠ بتاريخ ١١ من ذى القعدة سنة ١٢٥٢ .

من الجناب العالى بالفشن إلى على أغا مأمور دنقلة .

لقد أطلعنا على خطابكم المؤرخ فى ٨ رمضان سنة ١٢٥٢ الذى أشرتم فيه إلى أن يمن أغا (هكذا) رئيس متطوعة السر دليلان الحاج إسماعيل أغا المقيم بدنقلة قد أنشأ جامعًا ومدرسة بدار الشايقية كما أنشأ مزرعة عبارة عن فدان وساقية للإنفاق من أثمان محصولها على الجامع والمدرسة ثم طلبتم إصدار إرادتنا بإقامة الشعائر الدينية فى الجامع وإعفاء المزرعة من التكاليف الأميرية ونحن نود أن نعرف ما إذا كان الأغا المذكور قد أقام الجامع والمدرسة حقًا وصرف على إقامتهما من ماله الخاص أم أنه يريد ـ بحجة الجامع ـ أن يجعل له من هذه المزرعة إيرادًا حسنًا إذا ما أغفيت من التكاليف الأميرية فعليكم بموافاتنا بالحقيقة .

حاشية : إذا كان الأغا المذكور قد قام بنفقات بناء بالجامع والمدرسة والمزرعة حقًا ، فما هو المبلغ الذى أنفقته فى هذا السبيل؟ وكيف كان الانفاق؟

وثيقة رقم ٧

صورة المكاتبة رقم ٣٤٣٢ بتاريخ ١٤ من ذى القعدة سنة ١٢٦٠ من شبرا

إفادة إلى وكيل ديوان المالية

أطلعنا على كتابكم الشريف المؤرخ فى ١٠ ذو القعدة سنة ١٢٦٠ رقم ١٣٧ وفيه تقولون إن حضرة الباشا صاحب منظم أمور السودان قدم له الفقيه إبراهيم عيسى عريضة قال فيها إنه لما كان حضرة الخديو فى السودان أنشأ مسجد بموجب الإرادة بناء على طلبة لتعليم العلم لمن يرغبون فيه وخصص له من الحكومة مائة وخمسون قرشا راتبًا شهريًا ولكن أخذت الفقراء تكثر فلم يعد ذلك المرتب يكفى لمصروفات ذلك المسجد وأنه يريد علاوة على ذلك المرتب وأنه يطلب أن ينظر فى هذا الطلب الواقع من الفقيه المذكور وإعلامه بالذى تحصل عليه الموافقة وأنتم اكتبوا لحضرة الباشا المومى إليه واسألوه عن مقدار من فى المسجد المذكور من الفقراء «الطلاب» واسألوه عن المقدار الذى يلزم ترتيبه بالنسبة لمقدار من هم فيه وأن يخصص هو ما يراه موافقا ويخبركم له لتوافقوا عليه فإذا جاءكم بالجواب منه فاكتبوا لنا به كما أمر بذلك حضرة ولى النعم .

وثيقة رقم ٨

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٤٨ بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٦٣

إرادة إلى مدير المالية

اطلعت على شرح وكيلكم المحرر بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٦٣ ونمرة ١٦٩ الذى يقول فيه إنه استعلم من حضرة الشيخ صائم عن مسألة الرواق المذكور فى العريضة المقدمة من محمد على وزملائه السناربين المجاورين فى الأزهر . فأجاب بأن السناريين المجاورين يلتمسون فى إنشاء رواق خاص لهم فى الأزهر للإقامة فيه أسوة بالصعايدة والمغاربة وسائر الأجناس . ولما كان فى عدد الأروقة الموجودة فى الأزهر عبارة عن اثنين وعشرين رواقًا . وكل رواق منها مخصص لجنس من المجاورين لم يعد فى الإمكان إنشاء رواق جديد خاص بالسناريين . وأن اشتراء محل جديد

لجعله رواقًا لهم يتوقف على إرادتنا بناء عليه قد اقتضت إرادتى اشتراء محل جديد وتخصيصه رواقًا للمجاورين السناريين أسوة بأمثالهم من طوائف المجاورين .

محمد على

وثيقة رقم ٩

دفتر ٤٠٨ صادر معية سنية

صورة المكاتبة رقم ١١١٠ بتاريخ ربيع الأول سنة ١٢٦٣

إرادة إلى حكمدار السودان

اطلعت على كتابكم العربى العبارة وما معه من الأوراق المؤرخ فى ١٣ محرم سنة ١٢٦٣ رقم ٥ الخاص بطلب بناء عشر حجرات لسكنى الفقراء وعمل سور للجامع الذى أنشئ فى قرية كترانج فى مديرية الخرطوم من الطوب النيئ وإنه إذا عمل ذلك من الطوب الأحمر يكون أقوى وأمتن وأن تكاليف ذلك تبلغ ثمانية آلاف قرش وقد وافقت إرادتنا على إقامة السور وبناء الحجرات المذكورة من الطوب الأحمر بمبلغ ثمانية آلاف قرش وكتبنا لكم هذا الكتاب لتباشروا العمل .

وثيقة رقم ١٠

محفظة رقم ٢٦٥ عابدين ملف متفرقات سنة ١٢٥٤

صورة الوثيقة العربية رقم ١٥٤ حمراء بتاريخ ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٥٤

من إسماعيل بن عبدالله إلى حضرة صاحب الدولة العلية العثمانية (الخديو الأعظم)

حضرة صاحب الدولة العليا العثمانية والمملكة البهية الخاقانية ببتا

من بسط على رعيته بساط الحمد والأمان وأفاض عليهم نجال العدل والإحسان وحمى حوزة الملة الحنيفية باساد المبارك وأردى أعداء الدين فى مهاوى المهالك صاحب النصر والتمكن والعز والسعد المكين وهو الأمير الأعظم والنيسوب الأكرم مبيد الصفات والمشركين قامع بشوكته

الفجرة المتمردين ناصب صراط العدل المستقيم شمس فلك السعادة المشرقة على كل بارد خصيم سيد الوزرا بقصد الأمر اماجأ الفقر غياث الورث أفندينا المؤيد المنصور ولى النعم أفندينا الحاج محمد على باشا أيده الله تعالى آمين .

بعد مزيد من السلام وأجل التحية والإكرام اللائق لجنابكم الأعظم أما بعد بلغنا خير قدومكم بأرض جزيرة سنار وحمدنا الله بقدومكم وصحة سلامتكم وتأييد دولتكم ومرادنا القدوم إلى مواجهتكم السعيدة وطلعتكم البهية وحصل لنا عذر وجعلنا مكتوبنا نائبًا عنا وإن سألت عن حالى فإنى رجل صاحب طريقة ودرس منقطع على باب الله فالحمد الله منذ قدموا أولادك بأرض السودان حصلت لنا الراحة والإكرام التام وكل ذلك بسبب إقبالك وإكرامك لأهل الدين وحفظ حرمهم ويرجون الله سبحانه وتعالى أن يكون ثواب ذلك كله راجعًا لك ومنذ ملكك عم بلاد السودان لم تخرج من خاطرنا متوجهين لك بالدعاء فى سائر الأوقات فى الصباح وفى المساء وإن شاء الله ببركة الدعاء يبلغك مقصودك وشرف علمكم كفاية والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ختم/ من الشيخ إسماعيل عبد الله

وثيقة رقم ١١

دفتر رقم ٢٨٠ شورى المعاونة ملكية

ترجمة الوثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٥٥

إرادة إلى الباشا الكتخدا

عندما طفنا أخيراً أرجاء السودان وتفقدنا أحوال العباد والبلاد ألفينا أن الأقسام والمناطق قد ترك أمرها لجماعة من الكشاف وأن البلاد ينقصها الكثير من الكتاب والأكفاء الذين فى مقدورهم مواجهة الأمور والأحوال الطارئة ومعالجتها وقد عرض علينا أحمد باشا حكمدار السودان حاجة السودان إلى الكتاب الأكفاد فكتبنا من الخرطوم إلى ديوان معاونتنا فى هذا الشأن ولم بلغنا أسوان فى طريق عودتنا إلى مصر وجدنا هناك أكثر من ٤٠ كاتبًا أوفدوا من مصر للخدمة فى السودان .

غير أننا لانزال نرى أن الحاجة ماسة إلى بعض الأكفاء لاستخدامهم من مراكز الحكومة والمصالح المهمة ليتسنى بذلك ترقية البلاد وإصلاح العباد ولا أهمية للمال إذا ما صرف فى هذا السبيل . هذا وإنا نرى من صواب الرأى أن توفدوا إلى ديوان معاونتنا سيحى أفندى الموظف بديوان التفتيش لاستخدامه هناك .

وثيقة رقم ١٢

دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة ـ جهادية

وثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥

من قلم الملكية فى الإسكندرية إلى مدير المدارس

بعد عودة ولى النعم من السودان جاء ستة أشخاص من أبناء وجهاء تلك البلاد كما هو مذكور فى جريدة الوقائع المصرية فلما عرض مجيئهم على الجناب العالى صدر أمره الكريم بتعليمهم علم الزراعة وأن يرسلوا إلى المدرسة التجهيزية فى الحال ليتعلموا فيها العلم المذكور بمشيئة الله تعالى وأمر بلزوم العناية بهم وتمييزهم على غيرهم من تلاميذ المدرسة الآخرين وأن يخصص لهم خادم يقوم بمايلزم لهم ولو أن لكل عشرة تلاميذ فى المدرسة خادم وألا يفرق بينهم وأن يكونوا معًا وأن يعنى بتعليمهم القراءة والكتابة بكل وجه ممكن حتى إذا أتقنوها يبدأ بتعليمهم علم الزراعة وأن يجرى إعلامه بذلك عنهم وعملا بمنطوق هذا الأمر السامى لقد أرسلنا أولئك الأولاد الستة إليكم مع القواس مصطفى الفونيه .

وهذا ما لزم إعلامكم به ،

وثيقة رقم ١٣

دفتر رقم ٢٢٤ رقم ٥١٢

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٥١٢ بتاريخ ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٢٥٥

من الجناب العالى «قلم الملكية» إلى حكمدار السودان .

بتاريخ ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٢٢٥ وصل خطابكم المؤرخ فى ١٩ جمادى الأولى ١٢٢٥ رقم ٢٩ الذى أشرتم فيه إلى مزايدة التزام جمركى الخرطوم وبريد سواقى بربر وجاعلين وإلى

الخلع التى ألبست للشيوخ ، ولما كنا نعتقد أن الزراعة والتجارة هما دعائم عمران البلاد وعمار الحكومة فقد سرنا أن تعملوا على ترتيب السواقى فنعم العمل ما عملتم وكذلك إلباس الخلع فهو أيضاً عمل محله أما خطتكم الخاصة بالجمارك فلا غبار عليها فى الوقت الحاضر ونحن كما أسلفنا نعتقد أن الزراعة والتجارة هما دعائم العمران والرخاء وأن الحواجز الجمركية من شأنها أن تشل حركة الزرعة والتجارة ولذ عولّنا على وضع خطة قديمة لهذه الجمارك حتى تصل الطرق ممهدة أمام التجارة ولما كانت الدولة الصديقة تضع الآن مشروع معاهدة جمركية دولية فلا بأس فى الوقت الحاضر من تيسير أمور الجمارك وفقًا لخطتكم ريثما نطلع على المعاهدة الجمركية المندى وضعها بيد الدول ونتخذ الإجراءات التى نراها ضرورية إذ ذاك .

■■■

الملحق (٩)
نشاط المبشرين التعليمى
بالسودان

محفظة رقم ١٩ بحريرا

صورة الوثيقة العربية رقم ٩٧ بتاريخ ٢٢ رمضان سنة ١٢٦٤

من خالد خسرو وحكمدار ممالك السودان

معروض عبدكم :

أنه بأثناء العودة من المرور إلى الخرطوم تبين أنه حضر واحد من بحرى يسمى كاسولانى البطريق واشترى أملاك بالناحية المذكورة وجارى بها البنا باستجداد مكاتب وكنيسة ، عدا ذلك تحرر من طرفه لحضرة سليمان باشا مدير الخرطوم سابقًا ، يطلب ستة أولاد عيال مذكورين نصارين متوفين من القبط والروم متخلفين من الخدم الرقيق وباقين بطريق أمهاتهم من مدة سنوات ماضية وقاصد أخذهم رغمًا من دون تحقيق الأصول الشرعية ، كما علم من الإفادة الواردة من حضرة المدير المومى إليه رقم ٥ شعبان سنة ١٢٦٤ نمرة ٣٤٥ عربى العبارة . بناء على ذلك قد صار الاستفسار من المديرية عن طريقة حضور البطريق إلى بلاد السودان . وماهو منطوق الأوامر الشريفة الصادرة فى شأنه ، وعن كيفية تمليكه بمشترى الأملاك وبناء المكاتب والكنيسة فوردت الإفادة من المدير عربى العبارة رقم ٥ الجارى نمرة ٤٢٨ ولفها أوراق اشتملوا هذا الخصوص منهم تبين صحة مشترى الأملاك وتصليح وترميم محلات للبناء وإقامة الصلاة حسب طريقهم فى واحد محل بالمنزل ، وأنه مزمع استجداد كنيسة كما يعلم من زوراق القضية المعروضين لفه وخلاف ذلك بلغنا من أحد التجار بالخرطوم أن البطريق قاصد استجداد محلات بالناحية المذكورة مثل كنيسة ومكاتب تبلغ تكاليفهم مائتين ألف فرانسه . ومحلات

آخر ما بين حدود الحبش وأرض السودان ومحلات بجهات شلك بالوجه القبلى بالبحر الأبيض وهذا يكون أجراه من بعد توجهه المحروسة يحضر اللوازم المقتضية وبعودته يجرى اللازم . وبالنظر لمنطوق الإرادة السنية الصادرة بيده عمومى توريكا رقم ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ وجد نمط منطوقها الشريف عن توجه البطريق المومى إليه يمر بأقاليم ويدور فى بلاد السودان ولا أحد يتعرض إليه بتفتيش الصناديق والمهمات فى جهات الجمارك . وما يلزم إليه بالثمن طرفه بناء على التماس جناب قنصل الإنجليز وخلاف ذلك لم وجد أوامر صادرة فى حقه تعلم بالمديرية . حينئذ خاطبنا البطريق بتاريخ ١١ الجارى نمرة ١٧٣٤ لا ربما يكون بيده أوامر شريفة ليكون الأجرى على موجبهم ، فورد من طرفه جواب رقم ١٠ منه نمرة ١٠٧ عربى مطول العبارة بكلام ظن فى غير محله وليس هو رد الصادر إليه ، ومنه أنفهم عد إيجابه بمقتضى القانون وحصل له زعل من أجل الاستلام من طرفه عن ماهو يقتضى . وصورة الصادر إليه أول وثانى وذات جوابه معروض معه ومن كون عبدكم يقيم بمحل الواقعة وتبين لنا هؤلاء المحظورات والبطريق متوجه إلى المحروسة ومتروك ثلاثة أشخاص وكلاء بالخرطوم مقيمين بمنزله . ولابد بوصوله يعرض منه لجناب القنصل من طرف المومى إليه تعرض الكيفية للأعتاب العالية لقصد استجداد المحلات المثنى عنها . ولا ربما يكون العرض بطريقة أخرى خلاف ما ذكر ويتمسكوا بصدور الأوامر الكرام عندها يصير توسيع البناء واستجداد المحلات بالجهات الشارعين فى إجرائها . وهذا ينتج من جملة ملاحظات الترجمان المعين بمعية البطريق حصل منه تفاوه بالكلام غير اللائق بديه أن مديرية الخرطوم كما هو مندرج بالمذاكرة الصادر عليها شرح مدير الخرطوم رقم ٢١ رمضان سنة ١٢٦٤ نمرة ٤٨٠ . ومن كون بلاد السودان فهى بلاد بعيدة وبمثل هذا الشخص يتجارى على الكلام غير اللائق على يد جمهور من الأهالى وغيره فهذا يخل بالإدارة في الأحكام . وحيث هذا ينتج منه القال والقيل ويخشى من عواقب المسئولية أمام أعتابكم السنية ولابد بحضورهم إلى الخرطوم ثانى دفعة أو حضور أمثالهم يتجاروا على كلام بمثل ذلك ويحصل منه سراية فى المستقبل فوجب إعراض القضية لصوب أعتابكم السنية . وأمر هذا منوط بالرأى الأعلى . وبمقتضى العبودية تجاسرنا بالإعراض وأوراق

القصية سبعة خلاف هذا معروضين له إذا تعلقت الإرادة السنية بتشريفهم بأنوار الطالعة يحاط بالمسامع الزكية تلك الكيفية . والأمر لمن له الأمر .

من الخرطوم ٢٢ رمضان سنة ٦٤ / ورد فى ٢٣ محرم سنة ٦٥

حكمدار ممالك السودان

خال خسرو

صار تلاوتها بالمجلس وقر الرأى بالاستغنى .

وصار الاستغنى

محفظة رقم ١٩ بحريرا

صورة المرفق العربى «أ» للوثيقة العربية رقم ٩٧

صورة المحرر من سعادة المدير سابقا إلى سعادة الحكمدار

فى ٥ شعبان سنة ١٢٦٤ نمرة ٣٤٥

بيان أسماء مذكورين أولاد نصارى وواردة بشأنهم مخاطبة من جناب كاسولان البطريق رقم ٢٩ رجب سنة ١٢٦٤ .

أولاد ميخائيل جرجس منهم الولدين بطرف أحمد إبراهيم عيسى والبنات بالخرطرم .

خادم تسمى	خادم تسمى
عطمش	فاطمة
وولدها خليل	وولدها إبراهيم
بنت تسمى	المجموع = ٦
سارة	

أولاد الجزائرلى الأرمنى من الخياط متوفى

خادم واحد يسمى	بنت تسمى
يعقوب مقيم بطرف	ألماظة بطرف
أحمد الخياط	والدتها

وعلى موجب ذلك كتب عرض لسعادة الحكمدار مفيده أن بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٦٤ ورد لنا جواب من كاسولان البطريق المقيم بالخرطوم رقم ٢٩ رجب سنة ١٢٦٤ ، وبأعلاه أوضح عن

أسماء ستة أولاد المرقومين أعلاه يقوله إنهم عيال مذكورين نصارى وأروام ومقيمين مع أمهاتهم ويريد حضورهم لأجل إدخالهم بدين والديهم . ومن كون لهم معلوم بطرفنا إن كان تلك الأولاد مسلمين أو خارجين من دين الإسلام ولأجل الوقوف على حقائقهم خاطبنا وكيل المديرية بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٦٤ على أن يحضر العيال المذكورين بحضور البطريق وحضرة القاضى ومن يلزم ويصير استجوابهم أمام الحاضرين فإن كانوا خارجين عن دين الإسلام يسلموا إليه وإن اتضح لدى الحاضرين أنهم مسلمون يعطى تقريراً بأختام الحاضرين وتحضر الإفادة فبأمس تاريخه من بعد تحرير المخاطبة لوكى لالمديرية حضرلطرفنا فتح الله وكيل البطريق وتكلم كلام من باب التأسير وقصدوا أخذ الأولاد بدون استجواب ولزيادة التأكيد ولربما يكون فتح الله المذكور حضر وتكلم من باب رأيه فقد أرسلنا لهم كتاب طرفنا مخصوص لأجل الاستفسار منهم عما ذكر فعرفوه إن كان يوجدوا مسلمين أو من غير مسلمين لم يصير تركهم بل يأخذونهم وربما أن ذلك مما يتعلق بالشريعة المحمدية بتاريخ ٥ شعبان سنة ٦٤ تحرر منا لحضرة مفتى أفندى وأوضحنا له الكيفية وطلبنا منه الإفادة بما يوافق إجراه في حق أولئك الأنفار فوردت منه الإفادة حاصلها أن السؤال من الأولاد لابد منه لحديث كل مولداً يولد على الفطرة حيث يعرب عنه لسانه والصبى الذى يعتبر إسلامه هو من أكمل سبعة سنين وأزيد مثل هذا عاقل يصح إسلامه ويعتبروا ما الذى عمره دون السبعة سنين من الأولاد لا يعتبر إسلامه لأنه غيره قل وتبعاً لأبيه فى الدين فبناء على ما ذكر ومن كون البطريق المذكور ضد الإسلام فيهم بدون سؤال وبالشريعة توضح كما قيله . وحيث العرض لسعادتكم إعلاما بذلك وما يوافق يصدر عنه الأمر وها هو الإفادة الواردة من حضرة المفتى مرسولة من طيه بأمركم يجرى الموافي أفندى .

محفظة رقم ١٩ بحريرا

صورة المرفق العربي «ب» للوثيقة العربية رقم ٩٧ . ٨١٤ عموم

الخرطوم ـ مديرى دولتلو سنى الهمم سلطانهم حضرتلرى

إنه لما كنا بجهات المرور بالوجه القبلى لأجل التفتيش على معدن الذهب وخلافة طبق منطوق الأوامر الشريفة وبنهاية زمن المرور صارت العودة بإذن الله تعالى إلى الخرطوم وبأثناء الإقامة بالناحية المذكورة وتبين أن حضر من الوجه البحرى جناب موزيقا نتر البطريق واشترى

أملاك بالخرطوم وقاصد بناء مكاتب لتعليم الرجال والنساء حسب طريقته وكذا قاصد بناء كنيسة بالمنزل الذى اشتراه . وبمقتضى القوانين أجرى المماثل ذلك يكون على مقتضى أوامر عليه وهذه القضية ليس معلومة بطرفنا . وحيث سبق الاستفسار من طرفكم عن الأوامر الذى أحضرها البطريق المومى إليه فأفدتوا رقم ٢٥ شعبان نمرة ٤٥١ على أن بالكشف من قيودات حضرة المدير سلفكم وجد ترجمة إرادة خديوية صادرة عمومى بيد البطريق مؤرخة فى ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ وأرسلتوا صورة الترجمة لطرفنا ولدى التأمل فى منطوقها المنيف اتضح أن جناب قنصل الانجليز التمس من الأعتاب الخديوية توجه البطريق المثنى عليه لأجل يمر على أقاليم الصعيد ويدور فى بلاد السودان وصدرت الإرادة بعدم المعارضة إليه وإلى أتباعه ومنع التفتيش الصناديق والمهمات التى صحبته بطرف جهات الجمارك ، ولم مشيراً بالإرادة عن إقامته بأحد الجهات وتمليكه بالأملاك وبناء المكاتب والكنيسة كما ذكر ، بناء عليه من كون حضوره بالمديرية ونحن بالمرور هلترى أجرى تلك بمعرفة المديرية ووردت منه مخاطبة فى شأن هذا الخصوص وتصرح إليه بالأجرى أم كيف وإن كان كذلك بناء على أى أمر فينبغى الكشف من القودات فإن وجد دليل لما ذكر نسخ صورته حرفيًا وأرسلوه لطرفنا ، وأن كان لايوجد دليل بما أن حضرة سليمان باشا المدير السابق لم يزال موجود بالخرطوم فاجرون المخابرة مع حضرته عن تلك القضية وبالوقوف على الكيفية تورد الإفادة ، كذا أرسلوا معتمدين من المديرية يتوجهون لمنزل البطريق وينظرون المكاتب الذى جارى بناهم مع الكنيسة وهل صار إتمامهم من البنا أم كيف ، وإن كان يحصل توقيف من البطريق بعدم المطالعة على تلك المحلات ومنع الذى ترسلوهم مخصوصين لمناظرة ذلك حالا بوقته فيدونا ليجرى المقتضى ، إنما أمر هذه القضية ينبغى لها التوفيق والتأمل لمنطوق الإرادة السنية الصادرة عمومًا وإن كان مآلها الشريف كالمدون بالترجمة المقدم ذكرها فاجرون العمل على الوجه المشروح بموافقة الأصول وإن كان منطوقها بوجه آخر تحضر الإفادة هذا ما لزم .

غرة رمضان ١٢٦٤

خالد خسرو

كذا إن كان بيد البطريق أوامر خلاف الإرادة المترجمة ومصرح بهم عن إجراء تمليكه والبنا كما ذكر فيدونا وإن كان لايوجد بيده أوامر ولا مستند قوى لإجراء ذلك فأجروا اللازم كما نوضح عنه أما المخصوصين الذين ترسلوهم لأجل الكشف عن أماكن البنا فإذا منعهم البطريق عن إجراء ما ذكر فيلزم رجوعهم لطرفكم يخبروكم بالكيفية . ولا يصير دخولهم بالمنزل من غير طريقة ووجهاه من الوجوه لا يصل منهم شرابه ولاتعدى إلى البطريق بل يعودوا يخبروا حضرتكم بطريقة منعهم وبوقته فيدونا لذا لزم الحشيه .

خالد خسروا

فى ظهر الوثيقة

دولتلوسنى الهمم كريم الشين سعادة أخينا العزيز مدير الخرطوم

ما يدونه شرح سعادتكم رقم غرة الجارى صار معلوم والحال أنه بحضورنا من شندى وجدنا جناب الطريق نازل بمنزل سعادتكم وتركناه مقيم هناك وتوجهنا ولد مدنى وبحضورنا من ولد مدنى بلغنا أنه أشترى منزل حضرة عثمان بك أما عن كيفية البنا وعدما فهذا لا لنا معلومية به ولأجل أعلام سعادتكم بما ذكر حرر هذا ودمتم .

٣ رمضان سنة ١٢٦٤

لوا باشا سليمان

دولتلو عالى الهمم أفندى مدير الخرطوم سابقا

بتاريخه ورد لنا الأمر باطنه من سعادة الحكمدار رقم غرة رمضان سنة ١٢٦٤ الحاصل أن تبين لسعادته أن جناب موريقا ستر الطريق المحضر من بحرى وموجود الآن بالخرطوم قد اشترى أملاك بالناحية المذكورة وقاصد بناء مكاتب لتعليم الرجال والنساء حسب طريقته وكذا قاصد بناء كنيسة بالمنزل الذى اشتراه ـ ومشيراً سعادة الحكمدار الإرادة الصادرة فى حق البطريق لم مشيراً بها عن إقامته بإحدى الجهات وتمليكه بالأملاك وبناء المكاتب والكنيسة ومقتضى البحث بالمديرية عن الأمر المسرح فيه باجرا البنا ـ ومن وكون بالمديرية فلم وجد دليل صادر فى

حق البنا ونحن لم مدروك بطرفنا كيفية المنزل الذى اشتراه جناب البطريق وراغب البنا فيه كما ذكر ـ فلذلك اقتضى شرحه لسعادتكم الأمل من بعد تلاوة الأمر باطنه إذا يكن لعنايتكم دراية فى هذا الخصوص تحضر عنها الإفادة هنا دام بقاكم أفندى .

غرة رمضان سنة ١٢٦٤

مير مدير الخرطوم
موسى حمدى

محفظة رقم ١٩ بحريرا

صورة المرفق العربى «خ» للوثيقة العربية ٩٧ سودان ٤٢٨ عموم

سودان حكمدارى دولتلو حمتلو ولى النعم أفندى

بتاريخه ورد لنا أمر العناية المسطر باطنه رقم ٥ رمضان سنة ١٣٦٤ استعجالا لما صدر قبلا بخصوص الأملاك الذى اشتراها البطريق بالخرطوم وقصد بناء مكاتب لتعليم الرجال والنساء حسب طريقته مع بناء كنيسة بالمنزل الذى اشتراه ـ واشرتوا سعادتكم إن كان لا يوجد أمر صادر فى حق البنا يجرى المخابرة مع حضرة المدير السابق عن هذا القضية مع إرسال معتمدين من المديرية لمنزل البطريق وينظر فى المكاتب الذى جارى بناهم مع الكنيسة إن كان صار تمامهم من البنا أم كيف وينظر أيضًا إن كان بيد البطريق أوامر خلف الإرادة المترجمة ومسرح بهم عن إجراء تمليكه والبنا أم لا وتعطى الإفادة لدولتكم ـ والحال أفندى إن لم وجد دليل بالقيودات لوجود أوامر بيده خلف الترجمة المعروض صورتها لدولكم قبل تاريخه . وبالمخابرة مع حضرة المدير العمومى إليه عن تلك المادة ـ فوردت منه الإفادة رقم ٣ رمضان سنة ١٢٦٤ الحاصل أن بلغ سعادته أن البطريق اشترى منزل حضرة عثمان بك أما كيفية البنا وعلمه لايدرك معلوميته بطرفه ـ وقد أجرينا الاستفسار ممن لزم فوجدنا واحد يسمى محمد عبدالعال بنا وصار حضوره وسئل منه عن ذلك فأعطى جواب بختمه حاصله على أنه بناء داير على معايشة وقد أحضروه للتشغيل بالمنزل وأوضح عن كيفية ما صار تصليحه واستجداده ـ وأفاد أن الديوان الذى فى الحوش الفوقانى نظرهم أن كل يوم الأحد يجتمعوا ويصلوا فيه والديوان المذكور لم استجد به شىء على الأول عدا التبليط بالتربية وتصليح الشبابيك ـ وأيضا على ما بلغه منهم أن مقصدهم بنا كنيسة بعد ما يحضروا لوازمها من الوجه البحرى وجميع ما أوضعه مبين بجوابه من تلاوته تدرك الحقيقة

فبناء على ما ذكر وجب الإعراض لعالى دولتكم والأمر الأول بالجواب المعطى من المذكور مرسول من طيه أمر العناية يجرى الموافق دام بقاكم أفندى .

٥ رمضان سنة ١٢٦٤

مير مدير الخرطوم

موسى حمدى

ورد فى ٦ رمضان سنة ١٢٦٤

٨٣٥ عمومى

خرطوم مديرى دولتلوسنى الهمم سلطانم حضرتلوى

أن الترجمان المعين صحبة جناب البطريق الموجود الآن بالخرطوم حضر بطرفنا وتبين من كلامه أن البطريق قاصد التوجه إلى بحرى قريبًا من بعد كم يوم قلائل ـ وحيث سبق لحضرتكم المخاطبة بتاريخ غرة رمضان ١٢٦٤ نمرة ٨١٤ بما يقتضى عن تحقيق الأملاك وبناها بالخرطوم لذمة البطريق المومى إليه ولتاريخه لم ورد من طرفكم الإفادة المقتضية ـ ومعلومكم إذا توجه بحرى ولا صارنهو تلك القضية بحضوره ربما يحصل وقفه فيما هو لازم ـ بناء عليه اقتضى تحريره لحضرتكم لكى بوصوله إن كان ما أجريتوا المقتضى لذلك نبهوا بسرعة نهوه كما سبقت المخاطبة وفيدونا عاجلا ليجرى المقتضى هذا ما لزم تحريره .

من الخرطوم ٥ رمضان سنة ١٢٦٤

خالد خسرو

محفظة رقم ١٩ بحريرا

صورة المرفق العربى رقم «د»

للمكاتبة ٩٧ بتاريخ ٥ رمضان سنة ١٢٦٤

سؤال إلى محمد عبد العال البنا

إنه بمقتضى الأمر الصادر من سعادة الحكمدار رقم غرة رمضان سنة ١٢٦٤ يقضى استجوابكم عن كيفة البنا الحاصل بمنزل حضرة عثمان بك مشترى جاب البطريق ولزم السؤال

إليكم تفيدونا الحقيقة وإن كان استجداد بنا لزوم أى شىء كذا إذا يكون صار تصليح محلات ما كيفيتها ولزوم أى شىء توضحوا الإفادة ليجرى اللازم .

الجواب عن ذلك أن جناب البطريق كان اشترى منزل حضرة عثمان بك وعبدكم صنعته بنا وداير على معاشى وقوت عيالى فطلبونى اشتغل فى المنزل وكيفية ما صار استجداده وتصليحه فهو أن بداخل منزل الحريم كان فيه خزنة وحمام ومحل راحة صار تصليحهم خزنة بجوار ديوان الحريم وفيه أيضا أودة كان مكسور فيها أربعة رصاصات فقد انشال سقفها وعمل لها سقف جديد وبالحواش البرانى الذى كانه فيه إسطبل وصار هدمه وبقا يسيح بحر الحوش وكذا بالحوش البرانى كان فيه أربعة محلات انشال سقوفهم وكل محلين صار عمله أوده وكان فيه محل قهوة بالحوش انشال وعمل له سقف جديد وجميع المنزل صار بلطه وبعضه بالمشكة وتلك الأوض فلما سمعنا أنهم لتوابعهم ونظرناهم راقدين فيهم وبالمنزل لم صار تجديد بنا فى الحوش الفوقانى غير أنه لما توفى واحد منهم علموا له تربة بالطوب الأحمر فى بطن الجنينية ومن فوق التربة على وسطها فيه أشبه بأوضه على طول وعرض التربة وفوق البحر صار استجداد إسطبل وركوبة واثنين جرن من داخلها للعبيد والمراسلة وحيث الجرن من بحرى على شاطئ البحر فحل وركبوه من طوب أحمر وعرضه خمسة أذرع وطوله ستة أذرع ومرامهم سقف تلك المحل وبنا فوقه محل آخر كما الرسم الحالى وعلما سمعنا أنه لزوم قعودهم أو أن القصد كذا مقصدهم أنشأ واحد بشكل الترابلة بالحسه وأما الديوان الذى فى الحوش الفوقانى نظرناهم كل يوم حد يجتمعوا ويصلوا فيه والديوان المذكور لم استجد فيه شىء على الأول عدا التبليط بالترسة وتصليح الشبابيك أيضاً بلغنا منهم أنهم قصدهم بنا كنيسة بعد ما يحضروا لوازمها من الوجه البحرى هذا ما نعلمه ونظرناه أوضحناه .

فى تاريخه

ختم

محمد عبدالعال

أقر محمد عبدالعال أن التقرير المشروح أعلاه هو تقريره من غير زيادة ولا نقصان .

الفقير

إبراهيم عبدالدافع

إبراهيم المفتى

محفظة ١٩ بحريرا

صورة المرفق العربى رقم «هـ» للمكاتبة رقم ٩٧

صورة خطاب محرر من سعادة الحكمدار إلى جانب كاسولانى البطريق رقم ٦ رمضان سنة ١٢٦٤ نمرة ١٦٩٧ سابرة مضمونة أنه بأثناء العودة من جهات المرور إلى الخرطوم تبين أن جنابكم مقيمين بالناحية المذكورة ومن مدة بلغنا أنكم اشتريتوا أملاك بالخرطوم وقاصدين بنا كنيسة ومكاتب بالمنزل الذى أنتم مقيمين فيه ومعلومكم المماثل لذلك يكون أجراه على مقتضى أوامر عليه وهذه القضية ليس معلومة بطرفنا فقد صار الاستفسار من المديرية عن هذا الخصوص فالآن وردت الإفادة رقم ٥ رمضان سنة ١٢٦٤ نمرة ٤٢٨ من حضرة المدير والورود فى تاريخه الحاصل أن لم موجود بالمديرية أوامر ولا دليل لمشترى الأملاك وبناء المحلات المتقدم ذكرها بمعرفتكم بل موجودة فقط صورة ترجمة إرادة خديوية صادرة عمومى بيدكم رقم ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ منطوقها المنيف أن جناب القنصل الإنكليز التمس من الأعتاب الخديوية توجهكم لأجل المرور على أقاليم الصعيد والتدوير فى بلاد السودان وصورة الإرادة بعدم المعارضة إليكم وإلى أتباعكم ومنع تفتيش الصناديق والمهمات الذى صحبتكم بطرف جهات الجمارك ولم مشيرًا بإرادة عن إقامتكم بإحدى الجهات وتملكون الأملاك وبناء المكاتب والكنيسة كما ذكرنا بنا عليه من كون جنابكم تفهمون طريقة الأصول والقانون فإذا كان مقصودكم أجرى أوجه مثل ما ذكر وما يكون بمقتضى أوامر عليه وكان واجبًا الاستفهام قبل الأجرى من المديرية أو من جهات الاقتضاء وأنتم لم أجريتم من ذلك شىء كما تبين من الإفادات الواردة من المديرية فلذا لزم تحريره لجنابكم وصورة ترجمة الإرادة الواردة إلينا من المديرية مرسولة لفة بوصوله وفهم منطوقها الشريف أولا فيدونا عن أسباب مشترى الأملاك بالخرطوم من دون علم خبر من المديرية وهل بيدكم أوامر عليه مصرح بهم ما أنتم قاصدين اجراه فى البنا وعمل الكنيسة كما أفادوا أرباب الخبرة بديوان المديرية أم كيف فإن كان كذلك أرسلوا لطرفنا الأوامر أو صورتهم لأجل يعلم الحقيقة وإن كان لم موجود بطرفكم ذلك فما هو استنادكم وارتكانكم على أى شىء حتى تجرون العملية كما تقدم يلزم الإفادة ثانيا خاطبتو حضرة مدير الخرطوم السابق بطلب ستة عيال

من أولاد النصارى الذين والديهم متوفين وأمهاتهم من الرقيق قصدتوا أخذهم من محلات وجودهم ولا فهم طلبكم ذلك بناء على أى شىء فإن كان بيدكم أوامر موجهة لأخذ ما يكون داخل الحكومة ويرد تحت إرادتكم كذلك فيدونا من بعد ورود الإفادة من طرفكم عن هذا وهذا يعرض لجهة الاقتضاء هذا ما لزم .

صورة خطاب من سعادة الحكمدار لجناب المذكور رقم ١١ سنة ١٢٦٤ نمرة ١٧٣٤ مضمونه أنه بمقتضى الواجبات خاطبناكم بتاريخ ١٦ الجارى بقصد الاستفهام عن حضوركم والإقامة بالخرطوم ومشترى الأملاك وتجديد المحلات بناء على أى شىء ليكون معلوم فما كان من جانبكم ألا حررتوا جواب رقم ١٠ شعبان سنة ١٢٦٤ مطول العبارة بكثرة الكلام غير المقتضى ولا سألتوا عنه بخطابنا فقط ومنه أنفهم أنكما ظانين بظن ليس فى محله وحيث صار معلوم من جوابكم عدم المعلومية لرد خطابنا بمقتضى القانون وكلامكم من الظن والزعل من غير طريقة فيها هو قد تحرر الأعراض اللازم لمحل الاقتضاء وجوابكم أرسل طيه لينظر فيه ويجرى الموافق ولأجل الإشعار تحرر هذا .

محفظة ١٩ بحريرًا

صورة المرفق العربى «و» للمكاتبة العربية رقم ٩٧ بتاريخ ٩ رمضان سنة ١٢٦٤

من : كاسولانى   إلى : حكمدار السودان

الجناب المكرم محبنا العزيز حكمدار السودان

ورد لنا خطابكم رقم ٦ رمضان سنة ١٢٦٤ نمرة ١٦٨٧ وجميع ما فيه صار معلومًا والحال قد استغربنا للغاية على معنة خطابكم ولا كان مقصودنا تحرير رده وإنما حيث نعلم أن لم عليكم لوم بذلك وتلك المخاطبة لم هى من بادئ رأيكم من بعض الأشخاص الذين شاروا عليكم لأجل مصلح نفسهم - أعنى - أن ينظروا فيما بعد السودان تحت حكومة خلاف هذه - حيث إنهم معشمين بواسطتكم توليد الزعل والقهر فيما بين مملكتنا والحكومة المصرية وبالأخص فى وقت مثل هذا لا سيما تعلموا وتفهموا أكيدا أن رغبة سيدكم المحبوبة والاتفاق مع الجميع ولا مقتضى

إلى أسماعكم كلام الأشخاص حتى إنه يبقى إلى زعولة الحكومة مع بعضها - فمن حيث ذلك اقتضى تحريره لجنابكم - أولاً نحن لم محتاجين إرسال ترجمة الإرادة السنية لأجل نفهم مضمونها حيث نحن فاهمينها جيداً وبالأخص صار تفسيرها لنا من سعادة الخديو الأعظم - ولأجل معرفة الجميل مع المذكور إن شاء الله تعالى لم يحصل منا الإهمال لسمعه الشريف وإفهامه عن أحوال حقيقة حال بلاده هذا لأجل منفعته وحصول الخير والأعمار إلى رعيته الذى سبحانه وتعالى عز وجل جعلهم له منخضعين تحت عدالة حكومته - ثانيًا لم عرفنا سبب زعلكم معنا من خصوص شرايت البيت حيث لم فعلنا زيادة عن الأفرنج المقيمين بهذا الطرف كون مشترى البيت صار بموجب الأوراق المقتضية كما فعلوا الغير فى مماثل ذلك - أفهمونا ما هو سبب زعلكم يا هل ترى مرامكم تجعلونا أقل من الأفرنج كون موجود معنا أمر شريف والغير لم موجود معهم ذلك وأنه على مقتضى الأمر ظاهر وباين الاعتبار والإكرام الحاصل لنا من سيدكم الخديو المعظم فبالحقيقة لهم ممكناً نصدق أن هذا الفكر فكركم كون على حسب ظنى جنابكم تفهمون طريقة الأصول والقانون وهل بت هذا لم هو من مبادئ رأيكم بل أشار عليكم من البعض الذى يريدون منفعتهم وحصول عدم الراحة إليكم - ثالثا جنابكم تذكروا أن نحن قاصدين بنا كنيسة ومدرسة بالمنزل المقيمين فيه وإن لم يمكنا أجراً ذلك من غير أوامر - والحل من هذا الخصوص لم لكم حق ولا طريقة أن تشكوا من هذه ولا لكم وسيلة بالكلية كون تعلمون أن أحداً الآن لم صار أجراً ما ذكرتوا - وبوقت أجرا ما يلزم من البنا الضرورى لحينئذ يتقدم لكم أو لخلافكم عن الذى يكون موجود بالحكومة ما يرضيكم بمقتضى الأوامر الشريفة باجرا مقصودنا فى البنا وخلافه - رابعًا من خصوص الأولاد الذى طلباهم من حضرة المدير السابق فمن واجبنا المحدد إليه يعلم - حيث المدير المذكور أوعدنا شفاها بأن يعطينا الستة أولاد المذكورين ومن بعد امتنع ولا أعطانا الأولاد وأخبرنا بأن لم يمكنه ذلك خوفًا من واحد شخص ومن معنى كلامه بأن لنا الشخص الذى خايف منه وبوقتها حررنا إلى حضرات القناصل كون المذكورين بموجب القانون ينالوا العدالة من صاحب السعادة الخديو الأعظم الذى أغلب الأوقات وكلاء فى البعد ينكروها - ثم ومقتضى إفهامكم أخيراً بأن نحن متوجهين إلى المحروسة لأجل قضاء بعض مصالح ما بين حضرات القناصل وما بين الأعتاب الخديوية وراجعين بالثانى إلى

الخرطوم وفى مسافة غيابنا رفقانا مقيمين فى المنزل تعلقنا ـ ثم وإذا كان مرامكم تحقيق حقنا واعلموا إذا كان يحصل مشقة وضرر لأحد فلم يكون علينا لوم حيث إن الواجب على الإنسان إذا سول لابد أن يجاوب عن المقتضى عنه الإفهام

٩ رمضان سنة ١٢٦٤ كاسولانى بطرك

من الخرطوم ماو ريكستير

إنه أمس تاريخ فى وقت إرسال هذا لدن خطابكم المؤرخ ٦ رمضان ١٢٦٤ قد حضر لنا خطاب أخير مؤرخ ٩ رمضان سنة تاريخه ولما نظرنا فيه وجد مضمن الاستعجال على رد الجواب وصار لنا غاية العجب كون شبهوتا لأقل منكم ـ اعلموا وثم اعلموا بأنكم غلطانين كثيراً كون نحن ليش من رعاياكم ولا لكم حكم علينا فلازم تلاحظوا إلى عواقب الأمور وحاسبوه إلى الكلام والمعنى الذى يحصل منكم لئلا فيما بعد يحصل لكم قهر وندامة .

١٠ رمضان سنة ١٢٦٤ كاسولانى بطرك

ماور يكستير

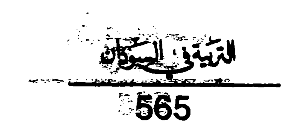
محفظة ١٩ بحر برا

صورة المرفق العربى رقم (ز) للوثيقة رقم ٩٧ بتاريخ ٢١ رمضان سنة ١٢٦٤

من : مدير الخرطوم موسى حمدى إلى : ولى النعم

سودان حكمدارى دولتلو ولى النعم أفندى

نعرض لمعالى دولتكم أفندى ورد لنداعى أمر العناية رقم ٢٠ سنة ٦٤ حاصل ما به تشيروا عن استجواب سليمان الكاشف الوارد عن الحقيقة ما أبداه فتح الله الترجمان من الكلام بوقت حضوره بالمديرية نقلاً عن كلام البطريق وينظر أيضاً من كان حاضراً معه بوقت كلام الترجمان ويجرى استجوابهم عما يعلموه وبالانتهاء يصير نسخ صورة الإفادة المحررة قبلاً من حضرة المدير السابق بتاريخ ٥ شعبان سنة ٦٤ نمرة ٣٤٥ ـ والحال أفندى بمقتضى الأمر جرى نسخ صورته بهذه القائمة وتحرر عليها السؤال اللازم إلى سليمان الكاشف فأفاد أن يوم من ذات يوم حضر



بطرفه فتح الله الترجمان فى قضية أولاد النصارى ـ وفى أثناء إقامته كان حضر محمد مظلوم أفندى ومعه واحد بلطجى وأخبره أن فتح الله ضرب العسكرى ومعه جماعة فى شأن مركب تعلق عبدالعال المهندس للقتضى حجزها لسفر البقسماط المزمع إرساله إلى جبل دوك ـ والعسكرى المضروب يضرر من ذلك فما كان من سليمان الكاشف أخبره فتح الله أن هذا لفصل غير موافق ولا يصح ضرب العسكرى وضباطه موجودين ففتح الله للذكور أخبره أضربكم أنتم ومديركم وحكمداركم وذلك كان بحضور الخواجة .

وعبدالقادر آغا ومحمد مظلوم أفندى ومصطفى أفندى مأمور تحقيق الذمات بالمديرية وحسن على كاتب بالمديرية ـ ولدى استجواب الحاضرين كما توضح أسماؤهم صادقوا على حصول ذلك الكلام من فتح الله وأوضحوا أيضا أن المذكور لغاية مبالغته فى الكلام أخبر أن معه فرمان من محمد على وكذلك محمد على لم أعطاه بجودته بل غصبا عنه ـ وبما أن تلك اللفظة لم ذكر عنها سليمان كاشف بجوابه تحرر له السؤال فأفاد أن ذلك وقع من فتح الله وأخبر الكاتب عنها وحصل منه سهو فى عدم ذكرتها وناظر الفرمان فوجده محتوى على تشهيل لوازماتهم وركابهم بالأجرة منهم حسب الجارى ـ فبناء على ذلك وجب الإعراض لدولتكم على ذات تلك المذكرة الذى عملت أصلا بدون نقل صورة لها بطرفنا تشريفها بإمعان النظر الشريف كفاية ولنا بهذه صورة الإفادة السابق إعراضها من حضرة المدير السابق دام بقاكم أفندى .

ورد فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٦٤

بيده

مير مدير الخرطوم

موسى حمدى

صورة أمر صادر من سعادة الحكمدار رقيم ٢٠ رمضان سنة ١٢٦٤ نمرة ٨٩٧

مآله أنه بتاريخ ٧ شعبان ١٢٦٤ وردت إفادة من حضرة المدير سابقًا رقم ٥ نمرة ٣٤٥ الحاصل أن جناب كاسولانى البطريق قاصدا استلام ستة أولاد عيال مذكورين نصارى من دون تحقيق لموافقة الأصول الشرعية وأوضح محذوراته على أن البطريق أرسل الترجمان تابعه بالمديرية

واتكلم بكلام مدرج لإفادة المذكور وبوقتها عطيت الإفادة اللازمة لحضرة المدير العمومى إليه وتكررت من بعدها جملة خطابات فى حق هؤلاء الأولاد وحيث مقضى الوقوف على حقيقة ما أبداه الترجمان المذكور من حضوره بالمديرية واتكلم نقلا عن كلام البطريق فلزم تحريره لحضرتكم كى بوصوله حققوا ذلك من سليمان كاشف وكيل المديرية بذاك الوقت وانظروا من كان حاضرًا ومن كلام الترجمان واستجوبوه أيضا عما يعلمه ونهاية الوقوف على الحقيقة يحضر لطرفنا الإفادة مع نسخ صورة الصادر من حضرة المدير سابقًا وبالتاريخ والنمرة والمتقدم ذكرها وأرسلاها لطرفنا بالإفادة عما تجروه ليكون معلومًا .

فخر الأماجد الكرام حضرة سليمان كاشف حاكم إقليم الحلفاية والبحر الأبيض ٢٠٢ عموم .

ينبغى من بعد مطالعتكم أمر سعادة أفندى الحكمدار المنسوخ صورته بأعاليه فيدوا عما أبداه الترجمان تابع البطريق وقت حضوره بالمدرية وتكلم نقلا عن كلام البطريق فى حق الأولاد عيال النصارى الفاطن أحدهم من دون تحقيق بموافقة الأصول الشرعية حيث كنتم ذاك الوقت وكيلا بالمديرية فينبغى توضحوا ما قاله الترجمان المذكور ومن كان حاضرًا معكم بوقته حصول هذا الكلام لأجل من بعد ورود الإفادة منكم يجرى المقتضى .

٢٠ رمضان سنة ١٢٦٤

مير مدير الخرطوم

موسى حمدى

دولتلو رحمتلو ولى النعم أفندى مدير الخرطوم

نعرض لسعادتكم أفندى ما تدون بأمر السعادة المسطر أعلاه رقم ٢٠ رمضان سنة ٦٤ صار معلوم داعيكم والحال أفندى أن يوم من ذات الأيام كان حضر بطرفنا فتح الله الترجمان تابع البطريق فى قضية أولاد النصارى وفى أثناء إقامته كان حضر محمد مظلوم أفندى ومعه واحد بلطجى وأخبرونا أن فتح الله المذكور ضرب البلطجى هو وجماعة فى قضية مركب تعلق عبدالعال المهندس بوقته العسكرى المذكور صار يتضرر من الضرب الذى حصل لدى المذكورين

واحنا أخبرنا فتح الله المذكور هذا الفعال غير موافقة فكيف يضرب العسكرى والحكام موجودين فى البلد فلو كان حصل منه شيئًا كان الواجب أعلام ضباطه حيث المذكور عسكرى سودان فلربما يتحمق من الضرب ويأخذ عساكر من جنسه ويعلموا معكم أفعال غير موافقة فبوقته فتح الله المذكور أخبرنا أنكم أنتم ومديركم وحكمداركم تنضربوا فلما نظرنا حصل من هذه التجاسر فأخبرناه كلامكم على غير صحة لم تقدروا تضربوا أحدًا وذلك كان بحضور الخواجة صن مسمار وعبدالقادر آغاه ومظلوم أفندى ومصطفى أفندى مأمور التحقيق وبحضور حسن على كاتب بالمديرية هذا ما حصل من فتح الله المذكور أفندى ،

سليمان الكاشف

حاكم إقليم الحلفاية والبحر الأبيض

السؤال إلى عبدالقادر آغا والخواجة صن مسمار ومظلوم أفندى والشيخ حسن غانم .

يقتضى بعد إفهامكم ما أفاد عن سليمان كاشف أبو داود فيما أنكم كنتم حاضرين مع الكاشف بوقتما حصل التعدى بالكلام من الترجمان فتح الله تابع البطريق فيقتضى أن تفيدوا عما تعلموه فى هذه القصة وما حصل من الكلام بحضوركم ليجرى اللازم ،

مير مدير الخرطوم

موسى حمدى

جواب محمد مظلوم أفندى :

اطلعنا على أمر السعادة المسطر أعلاه وهو أفندى ونحن أرسلنا واحد بلطجى يسمى أحمد من ٨ جى بلوك ٤ جى أورطة اجى آلاى وصحبته الريس حسن بشير وكيل ريس العموم لأجل تجهيز مراكب لونق البقسماط المرسل لجبل دوك فما كان أنهم وجدوا المركب تعلق عبد العال المهندس فقصدوا ضبطها فى ضمن المراكب المطلوبة فما كان من فتح الله قدروس وكيل البطريق وجماعته مسكوا البلطجى المذكور ضربوه ومن بعد ضربه حضر بطرفنا البلطجى وأخبرنا بذلك وبوقته أخذناه وتوجهنا به إلى وكيل المديرية فبينما ما نحن فيه من قط العبارة إلا وقد رأى فتح الله المرسوم بنفسه وأخبره وكيل المديرية هذا الفعال غير موافق فما كان من فتح الله المذكور

أخبر وكيل المديرية أضربكم أنتم ومديركم وحكمداركم وكذلك محمد على لم أعطانا إياه بجودته بل غصبا عنه وكان ذلك بحضور الأسماء الموضح أسماءهم بجواب سليمان كاشف وهذا جوابنا ،

محمد مظلوم

جواب عبدكم

إن ما قرره محمد مظلوم أفندى المعاون فهو عين الصحة وصار ذلك بحضورنا هذا جوابنا والأمر مفوض لصاحبه ،

حسن على

جواب عبدالقادر آغا والخواجة حرمار ومصطفى أفندى

قد حضرنا بديوان المديرية ووجدنا فتح الله وكيل البطريق واقف أمام وكيل المديرية ومشابك مع محمد مظلوم أفندى فى قضية ضرب العسكرى ووكيل المديرية أخبر فتح الله المذكور ضربكم إلى العسكرى غير موافق فما كان من فتح الله المذكور أخبر وكيل المديرية أضربكم أنتم ومديركم وحكمداركم حيث معنا فرمان من محمد على ومحمد على لم أعطانا إياه بجودته بل غصبا عنه ،

الخواجة	عبدالقادر آغا	ختم
حرمان (ختم)	بيده	مصطفى أفندى

السؤال إلى سليمان الكاشف

لما أفدتوا إن فتح الله الترجمان تكلم معك بأنه يضربكم ومديركم وحكمداركم وذلك بحضور الخواجة حرمان وعبدالقادر آغا ومصطفى أفندى وحسن وكاتب المديرية لما سئل منهم صدقوا على ذلك ماعدا أوضحوا أن المذكور من مبالغته فى الكلام أخبرأن بيده فرمان من محمد على ، ومحمد على لم أعطاه بجودته بل غصبا عنه وأنتم لم أفادتوا عن ذلك فيقتضى أن تفيدوا هل ما أوضحوه الشهود فى قضية الفرمان صحيح أم لا ليجرى اللازم ،

مير مدير الخرطوم

موسى حمدى

جواب سليمان الكاشف

بما أشرتوا على سعادتكم صار معلوم والحال أفندى أنا فتح الله المذكور من بعد ما تكلم معنا بالضرب نحن ومديرنا وحكمدارنا أخبر أن معنا فرمان من محمد على ومحمد على لم أعطاه لنا بجودته بل غصبا عنه وتلك اللفظة فيه لا بالنا وأخبرنا الكاتب عنها وحصل منه سهو فى عدم ذكرتها ونحن أيضا نظرنا الفرمان الذى معهم فوجدناه محتوى عن تشهيليهم فى الوكولة وقضا اللوازمات والأجرة تؤخذ منهم حسب الجارى هذا جوابنا ،

بيده

سليمان الحاكم إقليم الحلفا

ختم

سليمان

دفتر ١٨ عابدين وارد تلغراف

صورة التلغراف العربى رقم ٨٣٢ بتاريخ ٧ محرم سنة ١٢٩٠

من رئيس الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم إلى المعية السنية

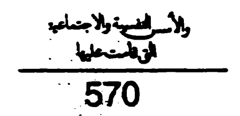
ريس عموم الكنائس الكاثوليكية بالسودان حضر بربر وبرفقته جملة معلمين وأرباب صنايع ومعلمات راهبات ولعدم وجود ذهبيات بطرفنا لأجل إحضارهم من بربر فنروم من مراحم سعادة ولى النعم صدور الأمربتعيين وابور لأجل إحضارهم .

دفتر ١٩ عابدين وارد تلغرافات

صورة التلغراف العربى رقم ٥٠٠ بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٢٩٠

ومن وكيل أشغال عموم قبلى السودان إلى خيرى باشا

يوم الإثنين ٨ الجارى حضر إلى الخرطوم واحد ريس كنايس الكاثوليك بالسودان أشبه بوكيل أسقف وصحبته ثلاثة رهبان بخلاف اثنين كانوا موجودين هنا من سابق وثمانية عشر بنات بما فيهم الريسة منهم أربعة من أجناس الشوام وغيره وأربعة عشر سودان أصولهم من هذه



الجهات وعلى ما قيل بأنهم قاصدين إنشاء مدارس بالخرطوم وكردفان بالبحر الأبيض ومقتضى توزيع هؤلاء عليهم وما يتم فى ذلك بعد الآن يعرض عنهم لسعادتكم وللإحاطة وجب العرض أفندم .

دفتر رقم ٢١ معية عربى

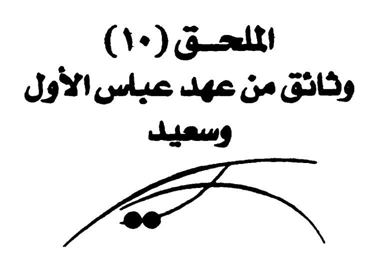
صورة الإفادة رقم ٣٠ ص ٣٨ بتاريخ ١٤ ربيع الثانى الموافق ٢٨ إبريل سنة ١٨٧٧

من المعية السنية

إعلان بختم سعادة المهردار صورته بما أنه متوجه إلى الخرطوم عن طريق السويس وسواكن اثنين قسيس وثلاث راهبات من الإرسالية الكاثوليكية تحت حماية النمسا فينبغى أنه لقدومهم إلى أية جهة من جهات الحكومة الخديوية تصير لهم الرعاية التامة والاحترام . وإذا استدعت الأحوال مساعدتهم فى بعض تسهيلات تقتضيها سفريتهم يصير مساعدتهم فى نجازها بحيث إذا ترتب على ذلك مصاريف يكون تأديتها على طرف المومى إليهم ولزم الإعلان بذلك وهذا حسب ما تعلقت به الإرادة السنية .

■ ■ ■

الملحق (١٠)
وثائق من عهد عباس الأول
وسعيد



محفظة رقم ١ تفتيش عموم وقبلى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٨٩ بتاريخ ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٢٦٥

من الجناب العالى إلى مدير الوجه القبلى

صاحب العزة مدير الوجه القبلى العام جعفر بك

اطلعت على صورة هذا القرار الصادر من المجلس الخصوصى بتاريخ ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٦٥ ، وقد واقفنا نحن أيضا على تنفيذ مقتضاه واعلموا أنكم وليتم بموجبه مديرًا عامًا للوجه القبلى ، فاعتنوا بأمور المديرية المذكورة اعتناءً تامًا ، واحذروا واجتنبوا العمل بخلاف ذلك ، وقد وقعنا هذا الشرح فى بيان الأشعار والأخطار ،

فى ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٢٦٥ عباس حلمى

قرار المجلس الخصوصى

بتاريخ ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٦٥

بما أن الأقاليم السودانية أرض جسيمة متسعة الأطراف ، وأن مديرى مصافاتها وحكمدارها العام يجب أن يكونوا من أصحاب الفطنة والغيرة بما تقتضيه طبيعة المصلحة ليتمكنوا من تنظيم مصالحها وأشغالها الكثيرة وتنفيذها كما هو مفهوم ، وبما أن المديرين الموجودين بتلك الديار قد ظهر فتورهم وتسامحهم فى الإدارة من مدة وبدا فيها آثار التعطيل فى الأمور حتى ترتب على ذلك جنوح حكمدارها حضرة صاحب السعادة خالد باشا إلى الرخاوة والدنى فى أعماله ، خلافًا للقانون كما هو

معلوم وقد سبق أن نصيب أربعة مديرين من أفراد الآلايات على فيزاو وغلى سنار والتاكه وكردفان وأرسلوا إليها ، ولما تشاور المجلس الخصوصى و تبادل الأفكار فى انتخاب من هو أحرى لمنصب الحكمدارية وجد حضرة صاحب العزة لطيف باشا مدير الوجه القبلى صاحب رشد وهمة وهو من أصدق عبيد مولانا ولى النعم فاختاره حكمدارًا مرخصًا (مستقلا) للأقاليم السودانية ولما كانت الأقاليم القبيلة واسعة أيضا فقد بحث من رجل قدير يقوم بإدارتها ، فثبت لديه أن حضرة صاحب العزة اللواء جعفر بك متعهد جفالك نبروه سابقا ـ جدير وأهل لها فاختاره مديرًا للمديرية المذكورة ، ولما كانت الأقاليم المذكورة لم تعرض أحوالها وميزانيتها بنسبة قابلية أراضيها ولاقياسًا على قدرة أهلها مما أوجب شتات سكانها وتفرقهم ، كما أن الموظفين والجنود لم يخفف ترتيب عددهم على حسب إيراد ذلك الإقليم وميزانيته ، فقد قرر المجلس الخصوص استصدار أمر عال إلى حضرة صاحب العزة لطيف بأن يسافر إلى الأقاليم السودانية عندما يصل إليه هذا ، القرار فيفرض أولا مالها وضرايبها حقا وعدلا بعد النظر فى قابلية كل جهة واختيار قدرتها ، ويرتب موظفين وجنودًا لكل مديرية بنسبة إيرادها وميزانيتها . ويسارع إلى إشعار المجلس بميزانية الإيراد والمصروف التى يصفها ، وأن يبذل همته وجهوده فى قضاء جميع مصالح المديرية الواجب قضاؤها بالعدل والنصفة كما أمر به ، وأمر إلى الحكمدار السابق خالد باشا بالعودة إلى مصر عند وصول القرار ، وإلى حضرة جعفر بك ليعلم أنه قد نصب مديرًا عامًا للوجه القبلى فيعتنى بتصريف أمور تلك المديرية ، وإلى حضرة صاحب السعادة مدير المالية ليقيد سنويتى حضرتى جعفر بك ولطيف باشا فى جهتهما عملا بالأصول الجارية .

مدير التجارة	كاتب الديوان الخديو	مدير المدارس
مأمور الضبطية	برهان مدير المالية	رئيس مجلس الأحكام
رئيس مجلس عسكرية	مدير الجهادية	كتخدا الخديو

دفتر ٢١٣٣ مدارس تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٦٧ صحيفة ١٢٠

بتاريخ ٦ من رجب سنة ١٢٦٦ كتب رده فى ١٣ منه نمرة ٧٢

من المعية السنية إلى ديوان المدارس

قد رأى المجلس الخصوص أن تؤسس مدرسة بالأقاليم السودانية إنقاذًا لأولاد أهلها والمستوطنين بها من جحيم الجهل حتى يمتازوا باكتساب العلوم والمعارف على أن يقبل ويقيد

فيها مائتان وخمسون غلامًا واستحسن المجلس أن يولى رفاعة بك ناظرًا على هذه المدرسة فيرسل إليها وأن يصطفى مدرسوها من ههنا باختبار البك المشار إليه ، فنرجو أن تفهموه مهمته هذه وتضعوا بيانًا عن المدرسين الذين سينتخبهم وعما تبلغ لوازم تلك المدرسة سنويًا وشهريًا من مأكولات وملبوسات وغيرها طبق الترتيبات الجارية بالمدارس المصرية ، ولاسيما الأصول الجارية بمدرستى المبتديان والتجهيزية . وترسلوه سريعًا إلى المجلس لكى يطلع عليه فيصدر فيه قراره اللازم .

دفتر رقم ٢١٣٤ ديوان المدارس تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٧٢ ص ١٩٥ بتاريخ ١٣ من رجب سنة ١٢٦٦

ورد الأمر السامى فى ١٧ منه

من ديوان المدارس إلى المعية السنية

أطلعت مخلصكم على كتابكم السامى المحرر فى ٦ من رجب سنة ١٢٦٦ وعلمت من مضمونه أنه يراد إنشاء مدرسة بالخرطوم بمقتضى رحمة الذات السامية الأصبغية والرأفة الباهرة الخديوية الشاملتين جميع الرعايا والبرايا ليكتسب فيها أولاد أهل الأقاليم السودانية والمستوطنين بها العلوم والمعارف على أن تكون نهج مدرسة المبتديان والتجهيزية ويقبل فيها مائتان وخمسون غلامًا من أولاد مشايخ دنقلة والخرطوم وسنار والتاكه وغيرها من الملحقات ومن أولاد الأتراك المستوطنين بتلك الديار وأحفادهم وأن يولى رفاة بك ناظرًا على المدرسة المذكورة ويبعث إليها وأن يبغ البك المشار إليه مهمته ، وأن يرسل بيان يشمل المعلمين المزمع اصطفاهم ويذكر فيه مقدار ما يصرف فى تلك المدرسة شهريًا وسنويًا من الطعام والملابس وسائر اللوازم طبق الترتيبات المتبعة فى المدارس المصرية وأن يرسل بيانًا يتضمن ترتيبها ونظامها وفق الأصولية المتبعة فى مدرستى المبتديان والتجهيزية وقد تشاورنا فى ذلك بالديوان واجتبينا المعلمين من بين أكفاد الرجال ووضعنا بيانًا عن سائر الخدم وعن الملابس والفرش والجرايات والمرتبات الشهرية فرفعناه إلى أعتاب جناب الخديو فوافقت عليه إرادته السامية كما أرسلنا كشف الترتيبات طيا إلى سعادتكم وستعلمون سعادتكم عند الاطلاع عليه أن أثمان الأشياء المذكورة

قد قدرت وفق رائج أسعار القاهرة وأن المدرسين الذين ذكرت فيه أسماؤهم قد كلفوا تدريس الطلبة والقيام بمهمة الضبط والربط معًا وأنه ينبغى انتداب الكاتب والوزارة ووكيل الخرج والغسال والسقاء والطباخ والخدم الآخرين من تلك الديار وأنه قد أعتبرت التلاميذ مبتدئين والحالة هذه مخصص لهم على السواء مرتب شهرى قدره ستة قروش إذ إنهم لا يكونون إلى ابتداء دخولهم إلا مبتدئين ولا يستطيعون الدخول فى عداد الطلبة التجهيزية إلا بعد نحو أربع سنين ولما كان استصدار الأمر بتنفيذ ما هو موافق وإرساله إلى ديوان المدارس من الأمور الموكولة إلى سعادتكم بادرنا إلى إرسال هذا الإشعار .

دفتر رقم ١٩٥٨ قرارات المجلس الخصوص

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤ صفحة ١١٩

فصل المدارس بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦

من المعية السنية إلى حكمدار السودان وإلى رفاعة بك

قد اطلعت على هذا القرار الصادر من المجلس الخصوص فى ١٥ من رجب سنة ١٢٦٦ فنال موافقتى على تنفيذ مقتضاه فنشعركم بوجوب المبادرة والاعتناء بالعمل بمقتضى القرار .

قرار المجلس الخصوصى

لما كانت الأقاليم السودانية من البلاد الجسيمة ، ولم يكن قد أنشئت فى تلك الديار المتسعة مدرسة يربى فيها أولاد مشايخها وغيرهم من أهلها وأولاد الأتراك الذين ذهبوا إلى تلك الديار وتوطنوا بها منذ أعوام خلت ، وكذلك أحفادهم ليتعلموا فيها الفنون والقراءة والكتابة ، فيزدادوا ثقافة وفطانة ، ولما كان المجلس الخصوص قد تشاور فى جلسته التى عقدها أخيرًا ، فقرر أمر إنشاء مدرسة لتلك البلاد بغية إنقاذ أولادها من ظلمات الجهل وتنويرهم بأنوار المعارف بمقتضى مراحم الذات الخديوية والمكارم الآصفية التى شملت جميع الرعايا والبرايا ، قد قر الرأى وعلى أن تفتح هذه المدرسة فى عاصمة الخرطوم وأن يكون نظامها موافقا لأصول المدارس المصرية وعلى نمط ترتيب مدرستى المبتديان والتجهيزية ، وأن يقبل ويسجل فيهانحو مائتى وخمسين غلامًا من أولاد المشايخ والأهلين القاطنين بمديريات دنقلة والخرطوم وسنار والتاكه وملحقاتها وكذلك من

أولاد الأتراك الذين توطنوا بتلك الديار وأحفادهم ، وعلى أن يولى عليها ناظر ملم بأصول المدارس ليتمكن من ترتيبها كما ينبغى وتنظيمها على أحسن وجه فاستحن المجلس اختيار الأميرالاى رفاعة بك الذى بديوان المدارس ناظراً للمدرسة المذكورة وإرساله إلى تلك الديار . وانتخاب المعلمين الذين تحتاج إليهم المدرسة برأى البك المشار إليه ، وكتب إلى حضرة صاحب العزة الباشا مدير المدارس فى ٦ من رجب سنة ١٢٦٦ ورقم ١٦٠ بأن يبلغ رفاعة بك المشار إليه مهمته ويطلب إليه أن يشعر المجلس بالمعلمين الذين يصطفيهم وينتدبهم ، وأن يضع مشروعًا يبين فيه مقدار المأكولات والملابس وسائر اللوازم التى تصرف لهذه المدرسة شهريًا وسنويًا على نحو الترتيبات المتبعة فى المدارس المصرية وأن يرسل هذا المشروع موضوعًا على نهج مدرستى المبتديان والتجهيزية كما أسفلنا . وقد أنبأنا حضرة المدير المشار إليه فى كتابه رقم ٧٢ المحرر فى ١٣ من رجب سنة ١٢٤٧ أن المعلمين اللازمين لتلك المدرسة قد انتخبوا من بين أكفاء الرجال . وأنه قد وضع مشروع (ترتيب) يبين فيه الموظفون الآخرون ومقادير القرش والملابس والجرايات والمرتبات ، فرفع إلى الأعتاب فنال موافقة إرادة ولى النعم ، وأن الأشياء اللازمة للطلبة المذكورين التى جاء بيانها فى المشروع قد قدّرت أثمانها على حسب أسعار القاهرة ، وأن على المعلمين الذين ذكرت أسماؤهم فى المشروع أن يقوموا بتدريس الطلبة وبمهمة الضبط والربط والوزان ووكيل الحرج والغسال والسقاء والطباخ وغيرهم من الخدم ينبغى انتدابهم من تلك الديار ، وأن التلاميذ إذ يكونون مبتدئين عند دخولهم المدرسة فيستطيعون الدخول فى عداد تلاميذ التجهيزية فى ظرف ثلاث سنوات أو أربع فقد اعتبروا مبتدئين ، والحالة هذه ، وخصص لكل منهم مرتب شهرى قدره ستة قروش وقد أرسل إلينا المشروع المذكور فاطلعنا عليه وتبين لنا أن مجموع النفقات المدرسة المذكورة السنوية تبلغ ثلاثمائة وثمانية وثلاثين ألفا وثلاثة وثلاثين قرشًا وتسعا وثلاثين بارة (٣٣٨٠٣٣. ٣٩/٤٠) قرشًا ، فوافق المجلس على تنفيذ مقتضى الترتيب المذكور وقررا استصدار أمر إلى رفاعة بك المشار إليه بأن يستصحب حين يبلغه القرار ، الأحد عشرمعلمًا والطبيب ، الذين انتدبوا من ههنا ، وذكرت أسماؤهم فى المشروع السالف ذكره فيسرع بهم إلى صوب مهمتهم ويبادر إلى تأسيس المدرسة المذكورة وينظمها وفق المطلوب السامى عند وصوله إلى الخرطوم بعد أن يخابر حضرة الباشا حكمدار السودان وأن لا يألوا جهدا فى التأكيد على المعلمين وفى البحث والتحرى ، وأن لاتعد عيناه عن التلاميذ وأن يرغبهم فى

العمل ويبذل همته فى سبيل تقدّمهم فى اكتساب العلوم والمعارف ، وأمر إلى حضرة صاحب العزة الباشا مدير المدارس فى سباق نحو قيد البك المشار إليه وقيود المعلمين والطبيب الذين سبق ذكرهم من سجلات جهات استخدامهم ويرسل كشوف مرتباتهم وجراياتهم إلى حضرة صاحب السعادة الباشا حكمدار السودان ليقيدوا فى محال استخدامهم بتلك الديار جريًا على الأصول وأمر إلى حضرة صاحب السعادة حكمدار السودان بأن يخصص محلا مناسبًا للمدرسة المذكورة حين يصل البك المشار إليه إلى الخرطوم فيقيد البك المشار إليه والمعلمين والطبيب السالف ذكرهم بموجب الكشف الذى سيرسل من ديوان المدارس وأن يختار الخدم والموظفين الآخرين الوارد ذكرهم فى الترتيب من أهل تلك الديار ، وأن يقيد للمدرسة المذكورة بتشاور مع الناظر المشار إليه طلب من أولاد مشايخ الجهات السابق ذكرها وأهليها ومن أولاد الأتراك المتوطنين بتلك الديار منذ قديم الزمان وأحفادهم على الوجه الذى أسلفنا كما جاءوا حتى يبلغ عددهم مائتين وخمسين طالبًا ، وأن يقيد طعامهم ولباسهم ومرتباتهم ولوازمهم الأخرى على الوجه الذى بين فى كتاب الترتيب ابتداء من تاريخ قدومهم ويحضرها ويصرفها لهم فى آوتها ، كما قرر (المجلس) إرسال صور من المشروع (الترتيب) المذكور إلى المشار إليهم طى هذا القرار .

١٥ من رجب سنة ١٢٦٦

الإمضاءات

دفتر ٢١٣٣ تركى صحيفة ٥٧

ترجمة الوثيقة رقم ٤ بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ وتاريخ ورودها ١٨ رجب سنة ١٢٦٦

أمر كريم

إلى ديوان المدارس

اطلعت على قرار المجلس المخصوص الصادر فى ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ فى ترتيب الناظر وسائر الموظفين الذين عينوا للمدرسة المراد تأسيسها بالخرطوم ووافقت على تنفيذ مقتضاه وقد حررنا هذا لنشعركم بوجوب العمل على تنفيذ ذلك بموجب القرار .

وقد كتب جواب للمالية بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٢٦٦ ونمرة ٥١

سجل ٢١٣٤ مدارس تركى

سجل الوثيقة رقم ٧٩ بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٢٦٦ صحيفة ٢٠٤

من ديوان المدارس إلى المعية الخديوية

١ ـ القائمقام محمد بيومى أفندى .

٢ ـ صاغقول أحمد طائل أفندى .

٣ ـ الملازم الثانى على عثمان أفندى .

٤ ـ الملازم الثانى أمين أفندى .

٥ ـ الشيخ رجب .

٦ ـ الشيخ مكاوى .

٧ ـ الملازم أول على محمد أفندى .

٨ ـ الملازم الثانى إبراهيم محمد أفندى .

٩ ـ الملازم الثانى محمد مرسى أفندى .

١٠ ـ الشيخ إسماعيل .

١١ ـ الشيخ أحمد .

١٢ ـ سليمان السيوطى أفندى طبيب .

لما كان من مقتضى قرار المجلس الخصوصى المتوج بالإرادة السنية المؤرخة ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ الوارد على خطابكم الكريم المؤرخ ١٨ رجب سنة ١٢٦٦ أن هؤلاء الأساتذة الأحد عشر والطبيب والمدونة أسماؤهم أعلاه إلى الخرطوم حيث قد عينوا للتدريس فى المدرسة التى ستفتح هناك على أن يقوم منهم رفاعة بك الذى عين ناظراً لهذه المدرسة فإنى أرجو مخاطبة جهات الاختصاص بشأن توفير ما يلزم لهم من وسائل النقل من قوارب وجمال لركوبهم ونقل أمتعتهم من مصر إلى أسوان أسوة بالذين يوفدون إلى تلك الجهة .

ورد رده فى ١١ رجب سنة ١٢٦٦ نمرة ١٨٩

دفتر ١٥٢ مدارس عربي

ص ٢٥٦٣ رقم ١٨٦٥ إلى شيخ الجامع الأزهر في ٢٠ رجب سنة ١٣٦٦

حضرة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر حيث إن الشيخ مكاوى والشيخ رجب عينوا إلى مدرسة الخرطوم خوجات بموجب الإرادة الآصفية فلزم تحريره لسيادتكم نروم وإرسالهم لديوان المدارس .

دفتر ١٥٣ مدارس عربي

ص ٢٦٥٦ رقم ١٩٦٢ من الديوان إلى ناظر مدرسة الخرطوم في ٢٨ رجب ١٢٦٦

إن الشيخ أحمد الواعظ الذى تعين خوجة بمدرسة الخرطوم لغاية الآن وها هو صاير البحث عنه فلم صار الحصول عليه ، وحيث بالمخابرة مع حضرة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن ذلك أفاد أنه وافق وتوجه الشيخ محمد النكاوى بدلا عنه ، ولذا حضرتكم التمستوا ذلك لدواعى عدم الحصول على وجود الواعظ فقد حررنا إلى المالية بصرف الترحيلة اللازمة إليه ولزم تحريره وكى يصير قيده بالمدرسة بوظيفة الشيخ أحمد الواعظ بمرتبات الواعظ المذكور الواردة له فى الترتيب الشهرى .

دفتر ١٥٣ مدارس عربي

ص ٢٥٦٠ رقم ٣٥٦ إلى الترسانة في ٢٢ رجب سنة ١٢٦٦

المهمات المشروحة أعلاه مرسولة إلى مدرسة الخرطوم برفقة حضرة رفاعة بك ناظر المدرسة فلزم تحريره كى إن كانت الذهبية التى عطيت إليه تساع المهمات المشروحة أدناه يصير وضعهم بها ، وإذا كانت لم تسع ذلك فحالا يصير تعيين المركب اللازمة لشحن ذلك ، ويصير تسليمها لحضرة البك المومى إليه أنما لا يتأخر الأجرى فى ذلك ولا درجة واحدة .

دفتر ١٠٢ ديوان مدارس عربي

ص ٢٥٧٣ رقم ٣٠٥ إلى المهمات الحربية في ٢٢ رجب ١٢٦٦

الأصناف المشروحة أدناه لازمة إلى مدرسة الخرطوم فبوصوله حالا يجرى صرفها لرافعه ويؤخذ منه سند بالاستلام من غير توقيف ولا تأخير .

دفتر ٢٠٩ مدارس عربي

ص ٢٤٩٥ من ديوان المدارس إلى ناظر مدرسة الخرطوم

فى غاية جمادى الثانية سنة ١٢٦٨

جواب إلى مدرسة الخرطوم صورته أنه بالنظر لما هو مشهور فى حضرتكم من بذل السعى والاجتهاد والهمة وحسن الالتفات فى تعليم التلامذة لأجل إكسابهم المعارف والعلوم والتربية قد جاء تعيين حضرتكم على نظارة هذه المدرسة بذلك يصير الحصول على ماهو مأمول فى حضرتكم وتلامذة هذه المدرسة تكسب التربية والمعارف . ولقد صار لحضرتكم مدة من عهد ما توجهتوا لهذه الجهة ولم كان يحضر من طرفكم إفادة عما صار فى بحر هذه المدة من التعليمات وبيان ما اكتسبوه التلاميذ فى العلوم وما مقدار عددهم وبيان درجات كلا منهم أيضا حتى كان يعلم لهذا الطرف كيفية الجارى بالمدرسة والتحصيلات ويجرى العرض عنه كما هو المرغوب ، وحيث من الاقتضى الوقوف على كيفية الجارى بالمدرسة من التحصلات ويجرى العرض عنه كما هو المرغوب وحيث من الاقتضى الوقوف على كيفية الجارى بالمدرسة فى التحصيلات بالضبط والربط اقتضى تحريره لحضرتكم لكى بوصوله تفيدونا مفصلا عن مقدار عدد التلامذة الموجود بالمدرسة . وبيان العلوم التى اكتسبوها فى ظروف هذه المدة مع إرسال جدول لبيان درجات كلا منهم موضح فيه بيان الدروس فى أوقاتها كى بورود الإفادة عما ذكر مع الجدول ينظر فيه ويجرى العرض عن ذلك للأعتاب الآصفية .

دفتر ٢٣٢ مدارس عربي

ص ٢١٧٩ رقم ١ من ناظر الخرطوم إلى ديوان المدارس

فى غرة شعبان سنة ١٢٦٨

رد ما تحرر إليه فى غاية جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ نمرة ١٦٩٥ بخصوص الإفادة عن كيفية ماهو صاير بالمدرسة نفيد أغلب التلامذة يتهربوا بمعرفة اتصالهم بالجبال البعيدة . وغير ممكن الحصول على حضورهم . وفضلاً عن ذلك أنهم ناس غلايظ العقول . وأنه صار وفاة ثلاثة من

الخوجات المعلمين ويريد النظر حيث المدرسة صارت اسم بدون جسم ، ويريد النظر وعدم فضولها بهذه الحالة .

دفتر ٢١٥ مدارس عربي

ص ٣٧٥٢ من ديوان المدارس إلى ناظر الخرطوم

فى ٥ شوال سنة ١٢٦٨

جواب صورته أنه لما ورد لهذا الطرف خاطب حضرتكم المؤرخ فى غرة شعبان وورده فى ١٨ منه وبه أوضحتوا ما لزم من خصوص عدم إدارة المدرسة لغاية الآن ، وعدم ورود الأنفار التلامذة لها وأن مهمات المدرسة مثل الطرابيش وغيرها صار توزيعهم إلى الأليات الجهادية بمعرفة سعادة الحكمدار سابقا صارمعلوم والحال بوروده قد صار العرض عن ذلك للأعتاب الآصفية وصدرت الإرادة العلية إلى سعادة حكمدار السودان بفتوح المدارس وإدارتها وصدر لنا النطق العلى شفاها بذلك . وأن المهمات التى كانت موجودة بالمدرسة وصار توزيعها على الأليات الجهادية . علم من الإفادة الواردة ، برقيم ١٨ رمضان سنة ١٢٦٨ أن المبلوسات التى تلزم إلى العساكر بتلك البلاد جارى تداركها وصرفها من هناك ولم يترسل من هذا الطرف ففى تاريخه قد تحرر من هذا الطرف السعادة الحكمدار إيعاده توزيع المهمات التى كانت بالمدرسة وتوزعت على الألايات يعطى لحضرتكم بدلها من الحكمدار يصير تداركه وجلبه من محل وجوده وتوريده إلى المدرسة . واقتضى تحرير هذا لرفعتكم إشعارا بذلك كى تطلبوا المهمات من الحكمدارية بدلا من الذى توزعت على الألايات ثم يكون منكم بذل الهمة والاجتهاد فى حضور الأنفار تطلبوها من سعادة الحكمدار ، ثم يكون منكم المبادرة فى إرسال الإفادات لهذا الطرف أول بأول عن كيفية حركات وأصول المدرسة ليعلم لهذا الطرف مقدار ما ورد من التلامذة وكيفية الجارى من التحصيلات ويحرر ما يلزم .

دفتر ٢٤٩ مدارس عربي

ص ٢٣٨٥ رقم ٦٠٠ إلى ناظر الخرطوم فى ٩ ربيع الأول ١٢٦٩

إلى رفاعة بك ناظر مدرسة الخرطوم صورته أنه فيما تقدم لما ورد جواب حضرتكم المؤرخ ١٦ من ذى الحجة سنة ١٢٦٨ ووروده ٢٨ منه نمرة ٦٩ وبه تفيدوا أنه لما ورد إلى الخرطوم حضرة

الحكمدار الآن وتقابلتوا معه وأخبرتوه عن قضية المدرسة وما هو مرغوب الإرادة الآصفية من قبل سرعة إنجازها وفتوحها وأنه حصل من حضرته التشبس والاجتهاد فى إجراء ما هو لازم لفتح المدرسة المذكورة وأنه شرع فى عقد مجلس بالخرطوم وحرر من طرفه لحضرات المديرون والمشايخ والعمد بالحضور إلى الخرطوم وأنه مأمول حضورهم فى آخر الشهر المحرر فيه جواب حضرتكم السالف ذكره لآخر ما أورتوه من خصوص الخمسة أشخاص الذين توفوا من المدرسة صارمعلومه . فبوروده قد صار عقد جميعة بديوان المدارس مركبة من حضرات البكوات المهندسين وناظر قلم هندسة وناظر مدرسة الطب البشرى ومن لزم من عمد الحكما لأجل أن يصير انتخاب خمسة أشخاص بدلا من المتوفين يكونوا من أرباب المعارف ذى المفهومية والاستعداد مجرين الأطوار والجمهور قد صار انتخاب خمسة أفندية المشروح أسماهم أعلاه لكونهم وجدوا من أرباب المعارف والمفهومية مجرين الأطوار مستعدين وصار العرض للأعتاب الآصفية عما صارت استنسابة بالجمعية فصدر النطق العالى بالموافقة وحصلت الممنونية أيضا للأعتاب من الاجتهاد الواقع من خصوص فتوح المدرسة ، وبناء عليه قد صار استجلاب الأفندية المذكورين من محلاتهم وصار رفتهم وتحرير الكشوفات اللازمة ببيان مرتباتهم شهرى . وصار إرسالها معهم إلى ديوان المالية لأجل صرف الترحيلة اللازمة لهم وإصدار المكاتبة المقتضية لحضرة الحكمدار عن قيدهم بالمدرسة وتحرر أيضا المكاتبة المقتضية لحضرة وكيل الديوان الكتخدارى عن سرعة توجههم لذلك الجهة ولزم تحريره لحضرتكم إعلامًا بذلك كى بحضور الأفندية المذكورين لطرف حضرتكم يصير إلحاقهم بالمدرسة نظارة رفعتكم بدلا من الذين توفوا كل أحد فى وظيفته كما هو مؤشر أعلاه من حضرتكم بذل الجهد والهمة فى تحصيلات التلامذة العلم كما هو المأمول والمشهور من حضرتكم حيث إنه ولابد أيضا بمرور هذه المدة أى من تاريخ الجواب الذى ورد من حضرتكم لغاية الآن تكون التلاميذ وردت إلى المدرسة بناء على الاجتهاد الواقع من حضرة الحكمدار فى فتوحها كما توضح بجواب حضرتكم . ومع هذا إن شاء الله تعالى حضرتكم فى ظرف سنتين يكون حاصل التقدم إلى التلامذة فى التعليمات ويحصل لحضرتكم الشرف جل مرغوب الإرادة العلية فتوح هذه المدرسة وتقدم تلامذتها فى التعليمات والتربية يكون من حضرتكم غاية الاهتمام فى ذلك ويكون أيضًا من حضرتكم المبادرة بأخبار ديوان المدارس أول بأول عما هو جارى بالمدرسة وكيفية أحوالها وحركاتها ومقدار التلامذة التى

تواردت لها مع مابه تقدماتهم وتحصيلاتهم بجداول يجرى تحريرها وتحضر لديوان المدارس أول بأول كما هو جارى لمدارس المحروسة .

أنفار متوفين	الذين تعينو بدلاً من المتوفين
بيومى افندى	عبدالله افندى حسن
الشيخ إسماعيل فرغلى	خليفة أفندى محمود
محمد أفندى موسى	مصطفى أفندى السراج
على افندى عثمان	أحمد عبدالبر
سليمان افندى الحكم	مصطفى أفندى السبكى

دفتر ٢٤٧ مدارس عربى

ص ٢١٥٦ رقم ٥٠٣ إلى المالية فى ٨ ربيع الأول ١٢٦٩

أنه فيما تقدم لما ورد جواب من حضرة رفاعة بك ناظر مدرسة الخرطوم ببلاد السودان بديوان المدارس رقم ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٢٦٨ ووروده ٢٦ محرم سنة ١٢٦٩ وباستنسابه من أن الذى توفى بمدرسة الخرطوم أربعة خوجات وواحد حكيم قد صار العرض عنه بذلك للأعتاب الآصفية فصدر النطق العالى بانتخاب وتوجيه خلافهم إلى المدرسة المذكورة وبناء على ذلك قد صار عقد جمعية بديوان المدارس بحضور حضرات البكوات المهندسين وناظر قلم هندسة وناظر مدرسة الطب البشرى ومن لزم من عمد الحكما وبالجمهور قد صار انتخاب الخمسة أفندية المشروح أسماؤهم أعلاه بدلا من الخمسة الذين توفوا فى المدرسة . ولقد صار العرض عنهم للأعتاب فصدر النطق العالى الآصفى باستنساب ذلك وعن سرعة توجه وإرسال الأفندية المذكورين إلى المدرسة المذكورة وعلى مقتضى ذلك قد صار استجلاب الأفندية المذكورين من محلاتهم وصار رفت كلا منهم لغاية صفر سنة ٦٩ وتحرر كشفين من ديوان المدارس ومن ديوان السكة الحديد ببيان مرتبات كلا منهم ولزم تحريره لسعادتكم وهاهما الكشفين المذكورين مرسولين رفقه هذا لكى يصير التنبيه بصرف ترحيلة ثلاثة شهور لكل منهم من خزينة المالية على مقتضى الأصول الجارية وتصدر المخاطبة اللازمة للحكمدارية من ديوان المالية عن قيد المذكورين بالمدرسة بموجب

الكشوف المذكورة ويتوضح بما يلزم عن الترحيلة حسب الأصول الجارية قد تحرر بتاريخه لديوان كتخدا عن سرعة إرسال الأفندية المذكورين لتلك الجهة حسب الجارى .

٣ مذكورين مرفوتين من ديوان المدارس لغاية صفر سنة ٦٩

وكشف ببيان مرتباتهم شهرى رفق هذا .

١ قائمقام مصطفى السبكى الحكيم .

١ ملازم أول أحمد عبدالله مهندس .

١ يوزباشى عبدالله أفندى حسن مهندس .

٣ مذكورين مرفوتين من السكة الحديد لغاية صفر ٦٩ وكشف ببيان مرتباتهم شهرى رفق هذا .

١ صاغقول أغا خليفة محمد أفندى

١ يوزباشى أول مصطفى أفندى السراج .

دفتر ٣٢١ (مدارس عربى)

ص ٩٢٠ رقم ٤ من ناظر الخرطوم فى ١١ ربيع الأول ١٢٧٠

من المذكور (ناظر المدرسة الخرطوم) رد الصادر له نمرة ٢٩٥ فى ٥ صفر سنة ١٢٧٠ بخصوص حصول الاجتهاد فى تعليم التلاميذ يذكر أنه حصل الاجتهاد وإن شاء الله فى شهر شعبان سنة ٧٠ يصير تقدم للتلاميذ وعمل امتحان بحضور أرباب العرفان ويصير توجهه إلى المدارس .

دفتر ٣٢١ (مدارس عربى)

ص ٨٣٩ رقم ٤٥٢ من المالية فى ١٧ ربيع الأول سنة ١٢٧٠

شرح على الوارد له من حكمدارية السودان نمرة ٣٠ بأن حضرة رفاعة بك ناظر مدرسة التلامذة بالخرطوم محجوز استحقاقه من أجل نهو جرد الكتبخانة بالمحروسة وإن كان عطى له الإفادة من المالية بناء على ما ورد من المدارس فى ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٦٧ محدد فيها ميعاد عن نهو الجرد فى مدة سبعة شهور وأنه لضرورة احتياجه صرف مبلغ ٣٠٠٠ قرشًا من المديرية من استحقاقه ويريد إذا كان تم جردها وترسل له إفادة .

دفتر ٥٩ صادر معيه عربى

صورة المكاتبة العربية رقم ٢١ ص ٣٢٢ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٦٧

من المعية إلى حكمدار السودان

شرح صورته أن يوزباشى إبراهيم أفندى سالم الذى كان باشمهندس القليوبية وقع منه جنحة ومن أجلها حكم عليه من مجلس الأحكام بتنزيله رتبة وإبعاثه مدرسة المهندسين بالخرطوم ، وقد ورد الآن للديوان برفق هذه الإفادة وكيل المدارس نمرة ٣٥٢ يرغب ابعاثه لذاك الطرف للاستخدام بالمدرسة المذكورة واستحصاله على العلوم وكشف استحقاقه بيده . وحيث الأمركما ذكر فمرسول لطرف حضرتكم الشخص المذكور بواسطة مديرية قنا وأسناكى بوصوله يلحق كما ذكروا رد إفادة بوصوله ومعه خمس أوراق .

يلاحظ أنه مذكور بالكتب الصادر من المعية إلى المالية بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٦٧ أن اليوزباشة المذكور مرسل إلى ورشة المهندسين بالخرطوم ومعه مكاتبة نمرة ٧٨٣ ص ٧٦٩ سجل ٦١ صادر معيه ولو أنه يعود فيقول لقد حرر فى تاريخه لحضرة حكمدار بلاد السودان باستلامه حال وصوله وإلحاقه بالمدرسة المذكورة .

دفتر ٧٠ وارد المعية عربى

صورة المكاتبة رقم ٣٥٢ ص ٢٦٥ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٦٧ ورد فى ١٧ منه .

من المدارس إلى المعية

جواب وأرسل معه يوزباشه إبراهيم أفندى سالم باشمهندس من القليوبية الذى حكم عليه بمجلس الأحكام بتنزيله إلى رتبة ملازم أول وإبعاثه إلى مدرسة المهندسخانة بالخرطوم لأجل الاستخدام وتحصيل العلوم ، وصار رفت استحقاقه من المدارس وبعد تسليم ما كان بعهدته أرسل بإفادة للمالية لأجل إرساله من طرفها كون بلاد السودان تابعة للمالية يفاد ارتجاعه بالقول أنه يرسل لبلاد السودان بمعرفة المدارس . وهذا الحالة تكون تابعة ديوان المدارس يريد النظر وصار الأمر إما بإرساله من المالية أو يصير إرساله طرف الديوان الكتخداوى بالإفادة اللازمة وكشف استحقاقه بيده ومعه خمس أوراق .

دفتر ٨٤ صادر معية

صورة المكاتبة العربية رقم ٥٠ ص ٨٣٠ بتاريخ ٦ من ذى القعدة سنة ١٢٦٨

من سعادة كتخدا باشا إلى حكمدار السودان

جواب صورته أن حضرة العالم الفاضل الشيخ محمد السنوسى من أهالى كردفان كان مقيمًا بالجامع الأزهر لتحصيل العلوم البهية ثم العودة إلى بلاده ليتحدث فيها بعلمه وينشر فيها نوافح عواطر الطريقة النقشبندية التى تلقاها عن حضرة الأستاذ المعظم فخر السادات الأشراف السيد محمد منتصر النقشبندى وقد أخذ تلامذته وكتبه وتوجه بهذا فعند قدوم حضرته إليكم أحسنوا ملاقاته وعاملوه بما يجب لقدر فضله وأبلغوا عليه الوصية إلى سائر الحكام الذين يصادفهم فى طريقه حتى ينفذ من صدور الحكمدارية راضيًا داعيًا بالخيرات إلى صاحب السعادة وفهم حضرتكم بما يلزم لذلك يكفى .

دفتر ٩٤ وارد معية عربى

صورة المكاتبة رقم ٧٣ ص ٥٩٩ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ٦٨

من حكمدار السودان إلى المعية

جواب يذكر أنه فى صباح يوم الخميس ١٣ رمضان وصار وفاة بيومى أفندى قائمقام مدرسة الخرطوم وبتاريخه تحرر من الحكمدارية إلى مديرية الخرطوم عن ضبط مخلفاته وأجرى المقتضى منها يريد أرى المقتضى لضبط أملاكه ومخلفاته الموجودة بجهة المحروسة .

دفتر ٩٤ وارد معية عربى

صورة المكاتبة رقم ٣٨ ص ٥٩٩ بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ١٢٦٨

من حكمدار السودان إلى المعية

جواب يذكر أن رفاعة بك ناظر مدرسة الخرطوم أفاد أن أحمد أفندى طائل صاغقول أغاسى بالمدرسة قدم عرض بخصوص المرض الحاصل عليه وكتب إلى مفتيش الحكما بالسودان بما لزوم

فوردت الإفادة بأنه غير ممكن شفاه بالسودان لشدة الحرارة وأنه مستحق التوجه بالديار المصرية لأجل خفة أمراضه يريد العرض عن ذلك وصدور الأمر بما يستصوب والعرض طيه .

دفتر ١٠١ صادر معية

صورة المكاتبة العربية ٣١ ص ٧١٥ بتاريخ ١٨ شعبان سنة ١٢٦٩

من المعية السنية إلى حكمدار السودان

جواب صورته من حيث أن مبيع ومشترى المصاحف المطبوعة من الأمور غير الجائزة شرعًا ومن الوجوب منع ذلك كليا فقد تحرر عمومًا بالتأكد على من يلزم بمنع ذلك ومن الجملة هذا لحضرتكم لكى يصير التأكيد بمنع البيع والشراء فى المصاحف المطبوعة يصير ضبطه ويجرى معه ما تقتضيه الأصول .

صورة المكاتبة العربية رقم ١١٠٧ عرض بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٦٩

من سعادة الكتخدا إلى حكمدار السودان

شرح صورته قد تقدم هذا من حضرة الشيخ أبوبكر محمد كان من علماء الجامع الأزهر والآن قد وجه النية على التوجه إلى وطنه لينشر على أهل الجهة من ثمرات العلوم ـ الشريفة التى حصلها على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة ويرجو أن يؤذن له ببناء مسجد فى بلده الداخلة فى خط سفادى وبالخطبة وإقامة الجمعة فيه تلك الجهة من ذلك وبما أن الشيخ المومى إليه قد علم فضله فقد أذن بأجرى ما ذكر ومن حيث إن حسن الانتفاع بعين المساعدة إلى أهل الفضل هو من الوجوب فينبغى أن تبذلوا الوصية الواجبة إلى من يلزم واحترامه ومزيد إكرامه .

دفتر ١١٣ وارد معية عربى

صورة المكاتبة رقم ٨ ص ٣٠٨ بتاريخ غرة جمادى أول سنة ١٢٦٩

من حكمدار السودان إلى المعية

جواب مطول العبارة وغاية ما يذكر أنه جارى منه الاجتهاد فى تخفيف مصاريف إقليم السودان بحضور من لزم وحيث ورد له إفادة من طرف رئيس مجلس دعاوى الخرطوم بالإخطار عما صدر له

باستجداد كاتب علاوة على كتاب المجلس يسمى حسن أفندى البنهاوى بماهية شهرى ٦٠٠ قرش من ابتدى ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٢٦٨ وأوضح على أنه أخطر مجلس الأحكام بذلك وحيث إن المجلس المذكور لم ظاهر منه ثمرة للميرى ولا مزية ولم صار نحو قضايا سوى الدعاوى الفارغة وبما أنه بمقتضى منطوق الفرمان مرخص له فى إدارة أشغال لإقليم كذا ورد له خطاب من المدارس فى ٩ ربيع أول سنة ١٢٦٩ نمرة ٧ بالإخطارعن إرسال أربع خوجات وواحد حكيم إلى المدرسة الخرطوم بدل المتوفيين وهذا وهذا جميعه بدون لزوم وفقط واستجداد مصروفات على هذا الإقليم بدون فائدة يريد النظر فى ذلك وما يستصوب يفاد عنه ليجرى العمل بموجبه .

دفتر ١١٧ وارد معية

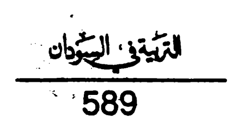
صورة المكاتبة العربية رقم ٣٥ ص ٥٩٤ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦٩

ورد فى ٢٤ من ذى القعدة سنة ١٢٦٩

من سليم باشا صائب حكمدار السودان إلى المعية السنية

جواب يذكر أنه بقدومه إلى الحكمدارية صار فتح مدرسة التلامذة وإدارة العملية بها طبق مرغوب إرادة ولى النعم الأصفى وما وجد من اللزومات المقتضية جارى التدارك فى استحضاره وأما الأصناف الموضحة أدناه ليس لها وجود بمخازن ذاك الطرف ومعتاد جلبها من المحروسة يريد صدور الأمر بجلب ذلك وإرسالهم إلى الخرطوم رفق من يعتمد ـ لتوصيلهم بحوافظ الأثمان مع إرسال أربعة دفتر لزوم عملية المدرسة منهم دفترين إلى الرفت والأمد واثنين لعملية الحسابات مع إرسال مائة وستة ورق أبيض أى ألف فرخ .

عدد	
٢٥٠	طربوش بمواعيده .
٢٥٠	طقم جوخ آلاى محيط طرد المبتديان والتجهيزية .
١	طقم مطبخ كفاية إلى ٢٥٠ نفر من القزان إلى القروان حكم مرتب المدارس المصرية .
١٣٥٠	أرز أبيض بالأقة كفاية مرتبهم سنة كاملة .
١٨٥١	



دفتر ١٢١ وارد معيه

صورة المكاتبة العربية رقم ٢ ص ٢ بتاريخ ٦ من ذى الحجة سنة ٦٩ وورد فى ٧ منه

من ديوان المدارس إلى المعية السنية

جواب رد الصادر له فى ٢٩ من ذى القعدة سنة ٦٩ نمرة ١٤٣٠ بخصوص الأصناف اللازمة إلى التلاميذ بمدرسة الخرطوم يذكر أن بالكشف من حسابات طرفه وجد أن حين إرسال رفاعة بك ناظر المدرسة مع الخوات التى ترتبت معه لذاك الوقت إلى بلاد السودان برسم هذه المدرسة قد صار تدارك الأصناف الموضحة بالكشف لصقه وجرى إرسالهم إلى المدرسة رفقة البك المومى إليه فإن كان توزع منهم شىء بمعرفة الحكمدارية فى تلك المدة لجهة أخرى يطلب منهم بدلها وأما عن الأرز المطلوب وطقم المطبخ هذا يوجد بالدفترخانة وشون الغلال فيجرى مايلزم بمعرفة المالية كذا مايلزم لهذه المدرسة سوى كان من دفاتر أو ورق للزوم عملية الكتابة بالمدرسة أو غير ذلك يجرى مايلزم لتداركه وإرساله بمعرفة المالية يريد اجرى ما يلزم حسب الأصول ومعه كشف وشقه .

دفتر ١١٩ وارد معيه

صورة المكاتبة العربية رقم ٦٠٧ عرض ص ٩١٩

بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٢٦٩ ورد فى ٢ من ذى الحجة سنة ١٢٦٩

من حكمدار السودان إلى المعية السنية

جواب ذكر أنه تقدم إليه أعراض من على بن المرحوم حسن أفندى قائمقام ٣ جى بياده سابق عن إلحاقه بمدرسة الخرطوم المستجدة أو اتصال معاشه بأية خدامة قد تحرر لناظر المدرسة المذكورة بإلحاقه ضمن التلامذج فوردت الإفادة بأن المذكور يبلغ عمره نحو العشرين سنة ولا يليق إلحاقه ضمن التلامذة وإنما وجده حسن الخط ذو دراية فى القراءة فاستصوب أنه يكون ريس فرقة تلامذة برتبة اسبران ثانى بماهية شهرى ١٠٠ قرش ومرتبات نفر ويكون مساعد إلى الخوجة الخطاط الموجود الآن بالمدرسة وأوضح أيضا عن لزوم اثنين رويسا فرق خلاف الشخص المذكور بمماثلة الجارى بالمدارس المصرية وأراد - ترتيبه أولى من حضور مثله من المحروسة وبلائحة ترتيب مدرسة الخرطوم لم مذكور عن ترتيب رويسا فرق يريد النظر ويفاد للأجرى بموجبه ومعه العرض .

دفتر ١٠٧ صادر معيه

صورة المكاتبة العربية رقم ٤٠٣ ص ١٥٦٧ بتاريخ ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٦٩

من المعية السنية إلى مجلس الأحكام .

شرح صورته ورد هذا الخطاب والعرض لفه من طرف حضر حكمدار السودان رقم ٢٤ شوال سنة ٦٩ نمرة ٦٠٧ عرضحالات ـ يستأذن به عن ترتيب مقدمه على بن المرحوم حسن أفندى قائمقام ٣ جى بياده سابق رئيس فرقة تلامذة بمدرسة الخرطوم بماهية شهرى مائة قرش وكذا عن ترتيب اثنين رويسا فرق مثل المذكور كما الجارى بالمدارس المصرية نهاية ما توضح بالإفادة باطنه بالنظر إليه كافى عن الإعادة وحيث إن ترتيب رويسا الفرق المذكور كما يفيد حضرة الحكمدار وهو من المستجدات المقتضى رؤيتها بمجلس الأحكام فلزم شرحه لدولتكم نؤمل روية ما توضح عن ذلك بالمجلس وما يستصوب نحو ذلك يصدر عنه أمر سعادتكم والعرض طيه .

محفظة (١) معية تركى

صورة الوثيقة رقم ١١٩ ورقة بتاريخ ١٠ صفر سنة ١٢٧٠

من عبدالقادر وكيل الحكمدارية ومدير كردفان إلى الباشمعاون

يشير إلى العريضة المقدمة من الشيخ إبراهيم أمين من ناحية الخندق بالتماس ترميم المسجد المتخرب الموجود فى هذه الناحية وإلى الأمر العالى الصادر بتحقيق ذلك ويشعر بأنه ظهر لدى السؤال من مديرية دنقلة أنه يوجد فى هذه الناحية مسجد متخرب وظهر أن تكاليف الترميم وحفر بئر للميضة تبلغ ٨٧٥ قرشاً ويلتمس عرضه على الأعتاب .

معروض قوللرى دركه

إن مقدم هذا بخصوص أن بناحية خندق صورى عجلة الشريف كنوز من طرف دنقلة ببلاد السودان وبتلك البلدة مسجد بنوه الصحابة مدة ظهور الإسلام للصلاة والعبادة من الذكر و تلاوة القرآن ودراسة العلم إلى الآن والحال قدم بنيان المسجد ولم له وقف ولا إيراد من شىء والذين مقيمين لخدامه المسجد ذرية الذى أنشأوه المذكورين قرناً بعد قرن ونحن من الذرية المذكورة فمن

احتياج المسجد المذكور لشيء يترتب له احتياج فرشه وأستار للأولياء الذى أنشأوه وملحودين به وهما الشيخ محمد والشيخ هلالى والشيخ الكنزى المذكورين الذى ليس لهم أستار (ستائر) كسوة على مقاماتهم الشريفة ولم لنا مقدرة على كسوتهم وأنهم تلقوا منا ليلاً فى المنام على هجر تلك المحل وأمرونا بإحيائه والتوجه إلى المحروسة وبالإعراض عن إحياء محلهم الشريف بأمر المراحم ونحن عاجزون لم فينا مقدرة على عمارة المكان وإحياء كسوته وفرشه وعمارته وغير ذلك مما يعين على العبادة به ومثل ما علمونا بالإعراض فعلنا ولم كان ببالنا ذلك وبالمسجد ساقية تسمى ساقية أمين محمد أحمد أحد الخدمة لزوم المياه للوصول بالميضة والمرتفعات متعرضين لها نريد الأمر أيضا منع المتعرضين لها وجميع ما يرى موافق فى إصلاح تلك المسجد يصدر به الأمر الكريم على هذا ونحن سلمنا الرأى للمراحم ومثل ما يريد نحن من تحت الأمر وكلا المسجد إمام يجعل له شهرية أو سنوية ومثل ما يصدر الأمر يكون العمل به للمسجد والخدم ونريد إرسال مصحف شريف تلاوة القرآن بالمسجد إلى روح ما فيه من الأولياء أو كتاب علم لعلم الدين بالمسجد وأخذ بيدنا فرمان إنعام من التعرض لنا وأننا حضرنا من مدة أربعة أشعر سفر بالطريق من أجل الاعتراض قهراً عنا من شدة الأذان من الأولياء أصحاب المسجد بالسعى فى العمار وفقد ما فى يدنا فنريد زاد يوصلنا إلى بلادنا ولم يكون فى يدنا إلا درهم فضة فتجاسرنا بتقديم هذا إلى المراحم العلية كى يصدر أمر كريم بإجراء ما ذكر والأمر لمن له الأمر .

بنده

الشيخ إبراهيم بن أمين

دفتر رقم ٤٨٤ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٤٩١ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠

إرادة سنية

إلى حكمدار السودان رقم ٢ ص ٢٦٤

قد كتبنا إليكم هذا الإخطار فى سياق تخلية سبيل الأشخاص المكتوبة أسماؤهم فى الكشوف الثلاثة المرسلة طيا . ولما كان هولاء متهمين بإجرام دون قتل والاشتهار بالسرقة وقطع الطريق فإذاكان لديكم مجرمون من أمثالهم ولم تدخل أسماؤهم فى هذه الكشوف فنشعركم

بوجوب الإفراج عنهم أيضاً وأما القتلة . . واللصوص المشهورون وقطاع الطريق فعليكم أن تبقوهم كالأول . مع إخطاركم بإلغاء مدرسة الخرطوم .

جاء رده فى ٩ صفر سنة ١٢٧١ رقم ٧

كتاب من حكمدار السودان على سرى باشا مرافق لهذا

صورة كتاب على سرى باشا حكمدار السودان المرسل إلى كتخدا الخديو

فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٧٠ نمرة ٦٧ .

لقد ألغيت مدرسة الخرطوم وفصل ناظرها ومدرّسوها وغيرهم من المستخدمين تنفيذاً للأمر السامى رقم ٢ الصادر فى ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ فخلى سبيلهم إلا أن الضرورة لما كانت تدعو إلى بقاء الناظر المشار إليه ههنا ريثما تنتهى حسابات المدرسة المذكورة فختم دفاترها قد اختار حضرته المهندس على أفندى من بين مدرستى المدرسة ليبقى ههنا وكيلا عنه . ولما كان المهندس المشار إليه صفر اليد بحيث لا يستطيع الحصول على الزاد الذى يمكنه من الوصول إلى تلك الديار قد رضى واختار البقاء هنا ريثما تنتهى الحسابات المذكورة على أن يصرف له مستحقه للمدة التى تمضى خلال قضاء تلك الحسابات ولوازمه السفرية فيرسل إلى القاهرة أسوة بأمثاله فاستبقيناه ريثما يقضى الحسابات المذكورة . وكتبنا إلى المختصين وأكدنا عليهم إتمامها فى أقرب وقت لكى توضح الدفاتر اللازمة فترسل إلى القاهرة ويختمها الناظر المشار إليه فترسل إلى ديوان المدارس الذى هو مرجع قوبلها غير أنه ليس لدينا مهندسون كما لايخفى على دولتكم يقومون بإنشاء المبانى التى تدعوالحاجة إلى بنائها بالأقاليم السودانية وغير ذلك من الأعمال التى تختص بالهندسة أو يتخذون الوسائل الهندسية فى الجيش عندما يراد سوقه إلى جهة وكنا منذ فتحت هذه المدرسة نستخدم مهندسيها فى الإشراف على مثل هذه الأعمال عند ظهورها . فلكم الخيرة بعد الاطلاع على ما قدمناه فى إبقاء ذلك المهندس الذى سيتولى إتمام الحسابات على استمرار وفى إرسال غيره والمرجو أن تقصوا ما طاب لكم من كلتا الصورتين فتخصصوا مهندساً لهذه الديار على كل حال وتتكرموا بتبليغنا ما يتم .

فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٧٠	حكمدار السودان
ورد فى ١٧ منه	على سرى

محفظة رقم ٣ معية تركى

ترجمة الوثيقة رقم ٢٨٩ بتاريخ ٨ من ذى الحجة سنة ١٢٧٠

من على سرى باشا حكمدار السودان إلى الجناب العالى

تهنئة من عبد مطيع

لما بلغنا أمر سموكم الخديو رقم ١ الصادر فى ٢٣ شوال سنة ١٢٧٠ مبشراً ببقاء حكم الديار المصرية فى عهده لياقتكم بالأرث والاستحقاق وأن سكان الأقطار المصرية قد قرت أعينهم بهذه المناسبة فغشيتهم أنوار السرور والابتهاج عم جميع عبيدكم الموظفين والعلماء والرعايا والأجانب سرور عظيم وفرح مستديم وأزيع هذا الخبر السار باطلاق المدافع وإرسال المنشورات إلى الجهات وتليت الدعوات من حميم القلوب إجلالا لمقدمكم السعيد بازدياد العمر وكمال العز ودوام السطوة والهيئة لذات سموكم الخديوية وقد حملنا هذا الطرب العظيم وهذه المسرة السامية بلطف ماجاءنا من الرحمن على أن نصرف من النقود المجموعة فى الخزينة العامرة الخديوية من النقود والأموال لمن فى بلاد السودان من جنود ومستخدمين صغارهم وكبارهم مرتبهم لغاية شهر شوال سنة ١٢٧٠ الذى هو تاريخ تشوقنا بورود الإرادة السنية الخديوية فصرفناه لهم وأتبعنا ذلك بحثهم على المثابرة على الدعاء لسموكم بمزيد العمروالدولة . ثم أقيمت زينة بمدينة الخرطوم عاصمة الحكمدارية ثلاثة أيام ولياليها بإيقاد القناديل وإشعال المشاعل وإطلاق المدافع والفشنطات والصواريخ فابتهج عبيدكم الرعايا والمستخدمين جميعًا . وبعد هذه المسرات أبلغنا مأمورى المديريات السودانية وضباط الآلايات كبارهم وصغارهم عطف سموكم النابع من بحر اللطف والإحسان بترقيتهم على حسب مراتبهم فزادهم سروراً وولاء وقد أقام كل عبيدكم من الأمراء الكرام والضباط العظام المقيمين بالخرطوم موائد تكريم بحسب ترتيب درجاتهم بدءاً من عبدكم هذا شكرا ومحمدة بمناسبة هذه المسرات الغالية . وقد دامت هذه الحفلات أيامًا على التوالى تسعيداً لتولية سموكم على الديارالمصرية بلفط الله تعالى وبركاته فنالت سعادة وشرفًا ومباهاة وتبودلت مراسم المحبة والزينة وضوعفت المسرات الباهرة وتكررت وتجدد الشوق وقويت الهمم بمقتضى شرف العبودية فى تدعيم المصالح والخدمات المبرورة الخديوية وترقيتها فأرسلنا

إلى خزينة المالية مبلغ الألف وست المائة والخمس والعشرين قطعة من الذهب السنارى المجتمع فى خزينة الخرطوم العامرة وهو من تمرات البلاد السودانية مودعًا إلى عبدكم رفاعة بك ناظر المدرسة الخرطوم سابقًا الذى عزم العودة إلى أعتابكم السامية خاضعًا لإرادتكم السنية الخديوية ذلك ليكون برهانًا ليمن مقدم سموكم . وقد كان عاق إرساله إلى الخزينة المالية منذ مدة مديدة وسنوفق إن شاء الله تعالى ببركات أنفاسكم الطاهرة للاهتمام من كل وجه بالحصول على أسباب كمال الأمن والرفاهية لأهل السودان فى عهدكم السعيد فنرجو من الألطاف الإلهية أن يعطى أغنياء أهل السودان وذوو الثراء منهم ضرائبهم أولا فأولا فنتقدم إلى سموكم مبلغًا من الذهب أكثر من هذا المبلغ فاذا أحطتم بذلك علمًا فإن الأمر لحضرة من له الأمر ،

دفتر رقم ١٤٥ وارد معية

بتاريخ ٣ ذو القعدة سنة ١٢٧٠ وورد فى ١٦ من ذى الحجة سنة تاريخه

صورة المكاتبة العربية رقم ٣٤ ص ٩١

من حكمدار السودان إلى المعية السنية

جواب وبه يذكر أن ورد له إفادة من رفاعة بك ناظر مدرسة التلامذة بالخرطوم يتضرر من حجز استحقاقه والمضايقة الحاصلة له من عدم كفوها وفى الواقع أن الخمسة أكياس المرتب صرفها إليه وإلى عياله بالوجه البحرى ليس هو كفوا لإدارة معاشه يريد فك استحقاقه المحجوز أو إذا وافق يصرف له نصف المحجوز وما يستصوب يصدر به الأمر ومعه شقه .

دفتر رقم ١٨٨٠ أوامر

بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٧١ صورة المكاتبة العربية رقم ٣ ص ١٨

أمر كريم

إلى حكمدارية السودان

إرادة سنية منطوقها قد عرض إلينا ما كتب به من طرفكم فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٧١ رقم١ بخصوص المسجد الذى كان جدده المرحوم والدنا فى ناحية سنار حيث إنه لم يوجد بها

مسجداً للصلوات غيره الذى وجد الآن مستحق إلى الترميم وطلبتم مقايسة عما تبلغ إليه تكالف تعميره وأنه حيث وجد خاليا من الفرش ومحتاجًا إلى القيادة ولم يكن له شيئًا من الإيراد ليصرف منه فى هذه اللوازم قد سألتم عن إتمامه ذلك فى السنة حتى علمتم أنها تبلغ ثمانمائة اثنين وسبعين قرشًا وخمسة وعشرون فضة فأذنتم بصرف جانب من ذلك ثمن الحصر وثمن نصف مرتب السنة من الزيت وأوقفتم الباقى على الاستئذان صار ذلك معلومًا ومن حيث إن هذا المسجد من جملة الخيرات الجارية إلى المرحوم والدنا عملا بقوله تعالى ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فأجرى ترميمه حتى يصلح إلى إقامة الصلوات فيه وتتلى فيه الخطبة وترتيب المبلغ المذكور سنويًا إلى ثمن الخضر والزيت لإقامة الشعائر الإسلامية هو من الأمور الثوابية التى يرجى قبولها فيقتضى أن تباروا بأجرى ذلك كما تعلقت به إرادتنا .

من إسكندرية

دفتر رقم ١٦٠٩ وارد معية

صورة المكاتبة العربية رقم ص ٢١ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٧١ ورد فى تاريخه

من ديوان المدارس إلى المعية السنية

شرح رد الصادر له فى ١٧ من ذى الحجة سنة ١٢٧٠ نمرة ٤ بخصوص استحقاق رفاعة بك يذكر أن فى غرة ذى القعدة ١٢٧٠ كتب لحكمدار السودان بحجز عشرة آلاف قرش من استحقاقه وفك حجز استحقاقه وهذا بالإفادة ومع شقه .

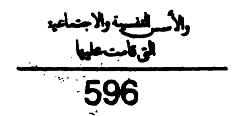
محفظة رقم ٤ معية تركى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٠ بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٧١

من حسين صبرى وكيل الديوان الخديو إلى كاتب ديوان جناب الخديو

سيدى حضرة صاحب السعادة كاتب ديوان الجناب العالى

يقرل حضرة صاحب العزة الباشا حكمدار السودان فى كتابه هذا رقم ٦٧ المسطور فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٧٠ أن مدرسة الخرطوم قد ألغيت عملاً بالأمر السامى الخديو رقم ٢ الصادر فى ٢٧ من شوال سنة ١٢٧٠ وفصل ناظرها ومعلموها وسائر موظفيها فتخلى سبيلهم به ويسأل عن المهندس على



أفندى أحد مدرسى المدرسة المذكورة الذى أختاره الناظر المشار إليه وكيلا ليمكث هناك ريثما تتم حسابات المدرسة وتختم دفاترها هل يبقيه ثم على استمرار أما ماذا يكون مصيره فإذا أطلعتم عليه وأحطتم بما فيها فارفعوه إلى الأعتاب السنية وبلغونا الإرادة السنية التى ستصدر من أجله .

فى ١٩ محرم سنة ١٢٧١ وكيل ديوان خديو

حسين صبرى

كتبت إرادة إليه رداً على هذا فى ٢٤ محرم سنة ١٢٧١

دفتر ١٦٠٩ وارد معية

صورة المكاتبة العربية ٢٣ ص ٧٧ بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٢٧١

من مجلس الأحكام إلى المعية السنية

شرح رد الصادر له ١١ محرم سنة ٧١ رقم ١٦ بخصوص مطلوب مدرسة الخرطوم يذكر أنه رؤى إبقاء الإرسال وقت تاريخه عن الأرز وهذا بالإفادة .

محفظة رقم ٥ معية تركى

ورقة ٢٩ رقم الوثيقة ٥٢٥ بتاريخ ٢١ ربيع الثانى سنة ١٢٧١

من حسن فؤاد إلى كاتب ديوان الخديو

بناء على إلغاء مدرسة الخرطوم وتخيير من فيها من المعلمين بين البقاء ثمة أو الرجوع إلى جهاتهم المخصوصة ورد من حكمدار السودان أن الملازم الثانى محمد إبراهيم أفندى اختار البقاء فى الخرطوم وصار ترقيته لدرجة ملازم أول فاقتضى إحاطة الجناب العالى علما بذلك .

دفتر ١٨٨٠ أوامر

صورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص ٣١ بتاريخ ٧ صفر ١٢٧١

أمر كريم

إلى مجلس الأحكام المصرية

أمرعال منطوقه قد علم لدينا ما كتب به من المجلس فى ١٩ محرم سنة ١٢٧١ نمرة ١ أن ديوان المدارس قد سأل عن إرسال وعدم إرسال الأشيات التى كانت مجهزة على ذمة الإرسالية

إلى مدرسة الخرطوم التى كان فيها رفاعة بك ولداعى عدم إحاطة علم المجلس بإبطال وعدم إبطال تلك المدرسة فيلتمس الإفادة عما تعلقت به إرادتنا بخصوصها ومن حيث إن تلك المدرسة لم يظهر لها أدنى ثمرة والبك المومى إليه حاضر إلى المحروسة فالأولى الانتفاع بما كان تجهز لها فيما يرجى صلاحه إلى المصلحة وينبغى أن يتحرر بذلك إلى جهات الأقيض لأجل الإحالة من المصروفات المتعلقة بها من غير فائدة كما تعلقت به إرادتنا .

من إسكندرية

دفتر رقم ٤٩٢ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣١٠

ص ٤٨ بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٧١ ورد ردّها فى ٢١ ربيع آخر ١٢٧١ رقم ٢٩

من الجناب العالى إلى وكيل الديوان الخديو

اطلعت على شرحكم الموقع فى ١٩ من محرم سنة ١٢٧١ والذى ذكرتم فيه سؤال الباشا حكمدار السودان عن المهندس على أفندى أحد مدرسى مدرسة الخرطوم الملغاة الذى استبقى هناك للحاجة الداعية إلى وجوده هل يستبقيه عنده على الاستمرار أم ماذا يعمل؟ ثم أستأذنتم فى شأنه . وقد علمنا من سياق إشعاركم أن الحاجة تدعو إلى إبقاء الأفندى إليه بتلك الديار فوافقتم على بقائه بمرتبه ومخصصاته الحالية إذا شاء البقاء واستخدامه كما كان فى الزمن السابق ، فإن لم يشأ المكث والبقاء على هذه الحالة فبإضافة مناسب إلى مرتبه الأصلى على أن يبقى برغبته فبادروا إلى تنفيذ مقتضى أمرنا .

محفظة رقم ٤ معية تركى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٠ بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٧١

من حسن صبرى وكيل الديوان الخديو إلى كاتب ديوان جناب الخديو

سيدى حضرة صاحب السعادة كاتب ديوان الجناب العالى :

يقول حضرة صاحب العز الباشا حكمدار السودان فى كتابه هذا رقم ٦٧ المسطور وفى ٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٠ إن مدرسة الخرطوم قد ألغيت عملاً بالأمر السامى الخديو رقم ٢ الصادر فى

٢٧ من شوال سنة ١٢٧٠ وفصل ناظرها ومعلموها وسائر موظفيها فخلى سبيلهم به ويسأل من المهندس على أفندى محمد أحد مدرسى المدرسة المذكورة الذى اختاره الناظر المشار إليه وكيلا ليمكث هناك ريثما تتم حسابات المدرسة وتختم دفاترها هل يبقيه ثم على الاستمرار أم ماذا يكون مصيره . فإذا أطلعتم عليه وأحطتم بما فيه فارفعوه إلى الأعتاب السنية وبلغوا الإرادة السنية التى ستصدر من أجله .

فى ١٩ محرم سنة ١٢٧١

وكيل ديوان خديو

حسن صبرى

كتبت إرادة إليه رداً على هذا فى ٢٤ محرم سنة ١٢٧١

محفظ رقم ٣ مديريات قبلى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٧٩ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٣

من محمد سعيد باشا إلى مدير أسيوط وجرجا (كل المصالح والمديريات)

أينما كانت رغبتنا وغايتنا تقدم البلاد السودانية و عرافها التى هى من أجزاء بلادنا ، ولكن والحق يقال صرنا آسفين كل الأسف لكون تلك البلاد لم تدخل تحت رابطة ولا انتظام ، ولما كانت هذه الحالة من الأحوال التى لايجوز السكون عليها فقد عزمت على أن أذهب بنفسى إلى تلك البلاد أولا بقصد النزهة والسياحة وثانيًا بقصد الوقوف على أحوال تلك البلاد ومعرفة أطوار أهلها فى بلادهم وثالثًا لأضع وأؤسس النظم والقوانين التى تكفل لتلك البلاد عمرانها ورفاهة أهلها ومن فيها من الرعايا وصممت النية على أن أذهب فى هذا الموسم لصلاحه للذهاب أكثر من أى وقت آخر ، ولهذا فقد ألفت محلاً وقتيًا فى القلعة تحت رئاسة حضرة صاحب العاطفة ابن أخى إسماعيل باشا لرؤية الدعاوى والقضايا . . . إلخ .

وصل محمد سعيد باشا إلى أبى حمد فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٣



دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى ص ١٦

صورة المكاتبة العربية رقم ٨ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣

أمر كريم

إلى مديرية كردفان

قد عرض علينا ما أعرضتموه بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٧٣ نمرة ١ فى خصوص الشيخ إسماعيل الولى بكردفان الذى له أولاد وتلامذة سالكين فى سبيل الرشاد بتعليم الصبيان القرآن العظيم ومواظبين على تحصيل العلوم والتدريس ومجدّين فى إقامة شعائر الدين ، ولم يكن لهم من الإيراد للتعيش سوى أطيانهم وسواقيهم التى لم يكن عليهم أموال من السابق ولداعى صدور أمرنا بما أجراه فى مدارس الأطفال وترتيب المالية على السواقى بجهات السودان أعرضوا بالتماس رفع ذلك من مكارمنا لإعانتهم على إقامة الشعائر والتدريس والتعليم وتريدوا صدور أمرنا بما تصير المعاملة به وبما أن من شيمتنا إكرام أهل العلم والتجنب إلى مواظبتهم فى نشر العلوم وأحياها وأقصى مرغوبنا وأجل آمالنا إقامة شعائر الدين على الدوام ، وحيث كانوا أولاد الشيخ المومى إليه بهذه الصنعة فمكارمنا تقضى بالالتفات إليهم ليزول عن فكرتهم ما يستحق عليهم ويداوموا على ما هم عليه من أمور الدين فيقتضى أن تنظروا ما لهم من السواقى والأطيان بموجب السندات المعطية من السابق المثبتة ذلك ولا يطلب منهم أموال عنها بحيث إنهم على مر الأيام يسلكوا فى التعليم والتدريس وإقامة الشعائر كما يجب .

وأصدرنا هذا إليكم لتجروا العمل بمقتضاه كما أقتضته مكارمنا .

سجل رقم ١٨٨٩ ص ١٣

جزء أول الأوامر العالية الصادرة للدواوين والمجالس عربى المعية

عرض بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٧٤

أمر كريم شرح على عرض مقدم من خلف الله حمد صورته عرض لدينا هذا الانها المقدم من خلف حمد تبشكى من التعرض للواقع له فى خصوص أطيانه وأملاكه ومن الحسن والنمر وبما أن أولاد النمر تقدم أصدرنا أمرنا إلى مدير الخرطوم بطردهم وتبعيدهم عن إقامتهم بجهات

الحكومة وبهذه المناسبة لن يتبقى هناك موجب للتعرض إلى مقدمه ومتى كانت تلك الأطيان والأملاك تعلقه وفى يده حجج بها فالعدالة لا تجور أخذها منه كما أن مواد الأطيان قد تصرح فى أمرنا السابق صدوره المدة التى من بعدها لايكون معارضة لواضع اليد فيما بيده فقد أصدرنا أمرنا هذا إليكم لتنظروا وتجروا مايلزم لمنع الشكوى كما تعلقت به إرادتنا .

سجل رقم ١٨٨٩ ص ١٣

جزء أول الأوامر العالية الصادرة للدواوين والمجالس عربى المعية

بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٧٤

أمر كريم شرحًا على عرض مقدم من خلف أحمد حمد المذكور تليه صورته مقدمه يلتمس مساعدته بترتيب شيء للإعانة على مصاريف المحل المفتوح بقراءة القرآن وتدريس العلوم وقد اقتضت مكارمنا أن ينظر إلى ما يقوم بهذا المحل من المصاريف الضرورية ويعطى له كم فدان نظير ذلك بلا مال وأصدر أمرنا هذا إليكم لكى ، بمعرفتكم تجروا ترتيبه على هذا الوجه .

دفتر ٩٢ جزء ثانى وارد الأقاليم بالداخلية سنة ١٢٧٥

تابع مديرية دنقلة وبربر

نمرة ١٠ صفحة ١٣٨ بتاريخ ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢٧٥

جواب ما تحرر له فى ٢٨ صفر سنة ١٢٧٤ نمرة ٨ يذكر أنه صار تحويل السواقى والأطيان التى كانت مجعولة مسموح للمشايخ والذين تظاهر صداقتهم وخلصوا الأموال لغاية تولى سنة ١٢٧٤ فجارى لهم صرف ما أستحقوه على واقع ما كان مرتب من المسموح المقاسمة ما بين الشيوخ والعمد والملوك وبالانتهى يتحرر الكشف اللازم ويعرض للداخلية غير أنه حاصل أوهام فى لفظة ما كانت مرتب أطيان يضاف بالمال نعم أمكن التصريح ويريد النظر فى خصوص تلك المرافيع والرزق والمرتبات المرتبة إلى الفقر أصحاب المساجد وصدقة وكلما وافق أن كان يفضل منهم كما كان جارى فى السوابق أو بتمويل الرزق واستقطاع المرافيع والمرتبات يصدر الأمر باعتماد الأجرى وطيه كشفين وورقتين .

دفتر ٩٧ جزء ٦ وارد الأقاليم بالداخلية سنة ١٢٧٥

ص ١٣ نمرة ٥٣ بتاريخ ١٣ صفر سنة ٧٦

جواب بأن قبلا صدر أمر الداخلية رقم ٢٦ صفر سنة ١٢٧٤ نمرة ٨ بناء على أمر كريم رقم ٢٣ صفر سنة ١٢٧٤ نمرة ١٨ بأن ما كان كمرتب على المسموح إلى المشايخ والمصاطف بالأقاليم المصرية صدرت الأوامر الكرام بربطه على الزمان ابتداء من توتى سنة ١٢٧٤ أى منا كان مرتب أطيان يضاف بالمال وما كان مرتب غرش فى غرش يصير قطعة وحيث بمديرية دنقلة وبربر وسواق وأطيان ومرافيع ومرتب شهرى إلى أولاد بشير عقير من أهالى حله أمالطيور فكانت صارت المكاتبة المالية وبعد عرض للداخلية بتاريخ ٢٥ ربيع الثانية سنة ٧٥ نمرة ١٠ ، وأرسل كشفين ببيان كل قلم يبلغ كمية الجهتين سنويًا مبلغ ١٣٤١٦٣,١٨ أربعة وثلاثين ألفًا ومائة وثلاثة وستين غرش وثمانية عشرة فضة ويريد كلما وافق أجراه يصدر عنه الأمر .

دفتر ١٨٩٣ صادر الأمر

صورة الأمر الكريم نمرة ٢ ص بتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٧٦

أمر كريم

إلى : مديرية سنار والخرطوم :

عرض لدينا أنهاكم الرقيم ٢٥ محرم سنة ١٢٧٦ نمرة ٣٩ بشأن العمارة اللازمة للمسجد الكائن بالخرطوم والإمام المقتضى ترتيبه لذلك المسجد بماهية شهرى مائتين وخمسين حيث وافق إرداتنا أجرى عمارة المسجد المحكى عنه وخصم التكاليف بالإبعادية مع ترتيب ماهية الإمام لذى يصير ترتيبه بالماهية المرقومة من طرف الميرى فقد أصدرنا أمرنا هذا إليكم لاعتماد الأجر بموجبه .

من قصر النيل

دفتر رقم ١٩٦١ صادر قرارات المجلس الخصوصى

صورة الوثيقة رقم ١٥ ص ١٢ بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٧٦

قرار صورته ورد إفادة إلى الداخلية من حضرة مدير دنقله وبربر رقم ٢٢ آخر سنة ٧٦ نمرة ٦ عرض ومن مطالعتها علم بأن خدمة الجامع الشريف الكائن بأوردى دنقلة وهم الشيخ أحمد الإمام والشيخ أحمد عبدالعاطى المؤذن ويوسف هجرسى الوقاد والكناس منهم الشكوى من استقلال ماهيتهم كون الإمام مرتب له شهرى ٤٢ قرشًا والمؤذن ٤٠ قرشًا والوقاد مرتب له ١٠ قروش من دون مؤونة والتمسوا ضم شىء على ماهياتهم وقد أوضح حضرة المومى إليه بأن هذا المبلغ جارى صرفه للمذكورين من متحصلات أجر وقوفات الجامع البالغ قدرها فى الشهر الواحد نحو المائتين غرش مع أن هذا القدر لايكن كافى لمشترى لوازم الجامع وعماراته وماهيات خدماه فهو بقصد حصول السواب لجنتمكان أفندينا الكبير وإذا كان لم يصير ترتيب ماهيات الخدمة من طرف المدير وأجر موقوفاته تكون خاصة بالمصروفات الضرورية من مفروشات وعمارات ونحو ذلك ففى بحر سنتين أوثلاثة يحصل له تخرب وقد تراءى بطرف حضرته أن الإمام يربط له شهرى ١٠٠ قرش والمؤذن خمسين والوقاد أربعين والجملة مائة وتسعين قرشًا شهريًا ويكون صرف ذلك من طرف الميرى وأجر موقوفات الجامع تكون خاصة للزوم مصروفاته الضرورية كما توضح ويرغب النظر فيما ذكر وبالمداولة والمذاكرة عن ذلك بالمجلس الخصوصى رؤى بأنه مادام الأشخاص المتقدم ذكرهم حاصل الشكوى من استقلال ماهياتهم وحضرة مدير دنقلة صدق على صحة شكواهم فقد استصوب بأن الإمام يكون ماهيته شهرى ستين قرشًا وأما المؤذن ما دام أنه مرتب له أربعين قرشًا فقد تراءى بأن هذا القدر كفاية ولا يلزم زيادة شى على ذلك . وأما الوقاد والكناس يكون عشرين قرشًا جملة ذلك ١٢٠ قرشًا وأن تلك القدر لم يزل يصرف من إيراد المسجد وإنما من حيث الإيراد بالجهة المذكورة جزوى فإن وافق الإرادة العلية يجرى بناء قدر عشرة دكاكين بالجهة المذكورة على طرف الميرى ويصير تأجيرهم ويتحرر بهم وقفية من طرف سعادة ولى النعم علاوة على الأماكن الأصلية المخصصة للمسجد المذكور لأجل دوام إقامة الشعائرفى هذا المسجد من إيراداته ومع كل ذلك فما يصدر به الأمر العالى يتبع إجراء هذا ما رؤى موافق واستقر عليه رأى المجلس

ناظر مالية   ناظر ديوان الأوقاف   ناظر ديوان خارجية

رئيس مجلس أحكام مصرية

دفتر ١٨٩٣ صادر الأوامر

صورة الأمر الكريم ٢ نمرة ٥٢

من أمر كريم   إلى مديرية دنقلة وبربر ٢٦ رجب سنة ٧٦

عرض لدينا قرار المجلس الخصوصى هذا الوارد بإفادة من الداخلية رقم ٢١ رجب سنة ٧٦ نمرة ٣٤ عرضحالات بزيادة ثمانية عشر قرشًا على ماهية إمام الجامع الكائن بأوردى دنقلة ليكون بستين قرشاً شهرى وعشرة قروش على ماهية الوقاد والكناس ليكون بعشرين قرشًا شهرى وأن يكون ذلك من إيراد الوقف ويصير بنا عشرة دكاكين بتلك الجهة من طرف الميرى ويصير وقفها على الجامع المذكور وعلاوة على الأماكن الأصلية المخصصة له لأجل دوام إقامة شعائره وقد وافق إرادتنا ذلك وأصدرنا أمرنا هذا إليكم للأجرى بمقتضاه .

من القلعة السعيدية

دفتر ١٨٩٣ صادر الأوامر

صورة الأمر الكريم نمرة ٤ ص ٢٣٠

من أمر كريم   إلى مديرية التاكه

فى ٢٤ شعبان سنة ٧٦

تقدم كان ورد من المدير سلفكم إفادة عن وجود أطيان بالمديرية زراعة مائة سنة وثمانين نفر خلفا وعلما وزعت التصريح بعدم مطالبتهم بالأموال وبعد ذلك لما صار تغيبكم بتلك المديرية وردت إفادتكم بأنه لما علم لكم سابقة العرض من سلفكم بما ذكر أجريتم تحقيق كيفية الأنفار المذكورة وتبين أن منهم ستين نفر خلفا ومعها وبيدهم مكاتبات من الحكمداريين والمديرين منهم ومن التحقيق الذى أجريتموه تبين علمًا وفقهًا وخلفًا وطعم مساطب لإطعام ومبيت الواردين والمترددين وطعم مساجد جاريين فيها التدريس وتلاوة القرآن والباقين ١٢٦ نفر هم من ضمن الأهالى وكانوا أعرضوا للمدير سلفكم بأنهم خلفا وهو أدرجهم ضمن أنهاه ولما علم ذلك بمعيتنا وتحرر لكم كشف واضح عن أطيان كل فريق مع صورة المكاتبات التى وجدت تحت يد

بعضهم فالآن وردت إفادتكم رقم ٢٨ ربيع ثانى سنة ٧٦ نمرة ٢ ومعها كشف موضح فيه صورة المكاتبات الموجودة بين الستين نفر وإجمالى زراعة كل فريق ، وبعرضهم لدينا علم أن الستين نفر الذى بيدهم المكاتبات المحكى عنها منهم ٤٣ نفر معها وعلمًا وخلفًا كما يظهر من صورة المكاتبات التى بأيديهم ونفر عشرة أخوات السيد عمر قاضى المديرية وأولادهم والأوراق التى بأيديهم تدل على معافاتهم من الطلب والتحويل إكرامًا لأخيهم نظرًا لإقامته بوظيفة القضا وتلاوة القرآن وتدريس العلم وسعيه فى إحضار بعض مشايخ قبائل بنى عامر الذى كانوا عصوا بالجيش وسبعة أنفار أخوات المتوفين محمد ايله ناظر المديرية سابق وأخيه الفقيه حامد الذى كان معاون بالمديرية والمكاتبات التى بأيديهم تدل على معافاتهم نظرًا لما سبق منهم ومن أخواتهم المتوفين من الصداقة بالاتحاد والمعازاه مع العساكر بمده أنشأ المديرية وزراعة الستين نفر المذكورة ثلثماية وثمانية عشر فدان ونصف وثلث والذى تبين أنهم ليسوا خلفا ولافقهًا زراعتهم ربعمائة خمسة وخمسين فدان وثلث وقد وافق إرادتنا أن المائة ستة وعشرين نفر الذين هم ليسوا فقهًا ولا علمًا هؤلاء يصير مطالبتهم بأموال الأطيان زراعتهم مع ما يخصهم من المطالب أسوة بأمثالهم وأما الستين نفر الذى بيدهم مكاتبات الحكمدار والمديرين سمحت مكارمنا بعدم مطالبتهم بأموال الأطيان زراعتهم البالغ قدرها ثلثماية وثمانية عشر فدان ونصف وثلث ومعافاتهم أيضا من الأشغال والمطالب وأصدرنا أمرنا هذا إليكم للاجرى بموجبه كما هو مطلوبنا .

من القيارى

دفتر ١٨٩٣ صادر الأوامر

صورة الأمر الكريم ٨ ص ٤٨

من أمر كريم إلى مديرية سنار والخرطوم

فى ١٧ شوال سنة ٧٦

لما كان سلفكم أعرض لدينا بأن الأشخاص العلماء والفقهاء المقررين لتعليم القرآن والعلوم وبعض النواب بالجهات لداعى انقطاعهم إلى ذلك فكان جارى توزيع مال الجدعات التى كانت

بعضهم فالآن وردت إفادتكم رقم ٢٨ ربيع ثانى سنة ٧٦ نمرة ٢ ومعها كشف موضح فيه صورة المكاتبات الموجودة بين الستين نفر وإجمالى زراعة كل فريق ، وبعرضهم لدينا علم أن الستين نفر الذى بيدهم المكاتبات المحكى عنها منهم ٤٣ نفر معها وعلمًا وخلفًا كما يظهر من صورة المكاتبات التى بأيديهم ونفر عشرة أخوات السيد عمر قاضى المديرية وأولادهم والأوراق التى بأيديهم تدل على معافاتهم من الطلب والتحويل إكرامًا لأخيهم نظرًا لإقامته بوظيفة القضا وتلاوة القرآن وتدريس العلم وسعيه فى إحضار بعض مشايخ قبائل بنى عامر الذى كانوا عصوا بالجيش وسبعة أنفار أخوات المتوفين محمد ايله ناظر المديرية سابق وأخيه الفقيه حامد الذى كان معاون بالمديرية والمكاتبات التى بأيديهم تدل على معافاتهم نظرًا لما سبق منهم ومن أخواتهم المتوفين من الصداقة بالاتحاد والمعازاه مع العساكر بمده أنشأ المديرية وزراعة الستين نفر المذكورة ثلثماية وثمانية عشر فدان ونصف وثلث والذى تبين أنهم ليسوا خلفا ولافقهًا زراعتهم ربعمائة خمسة وخمسين فدان وثلث وقد وافق إرادتنا أن المائة ستة وعشرين نفر الذين هم ليسوا فقهًا ولا علمًا هؤلاء يصير مطالبتهم بأموال الأطيان زراعتهم مع ما يخصهم من المطالب أسوة بأمثالهم وأما الستين نفر الذى بيدهم مكاتبات الحكمدار والمديرين سمحت مكارمنا بعدم مطالبتهم بأموال الأطيان زراعتهم البالغ قدرها ثلثماية وثمانية عشر فدان ونصف وثلث ومعافاتهم أيضا من الأشغال والمطالب وأصدرنا أمرنا هذا إليكم للاجرى بموجبه كما هو مطلوبنا .

من القيارى

دفتر ١٨٩٣ صادر الأوامر

صورة الأمر الكريم ٨ ص ٤٨

من أمر كريم　　　　إلى مديرية سنار والخرطوم

فى ١٧ شوال سنة ٧٦

لما كان سلفكم أعرض لدينا بأن الأشخاص العلماء والفقهاء المقررين لتعليم القرآن والعلوم وبعض النواب بالجهات لداعى انقطاعهم إلى ذلك فكان جارى توزيع مال الجدعات التى كانت

مربوطة عليهم فى السابق على أهال النواحى نظراً لحصول النفع إليهم من اكتساب أولادهم العلوم وتلاوة القرآن وأنه لكون التحويل جارى إلا أنه على حسب الزراعة لاعلى الجدعات قد فوض الرأى لما تقتضيه إرادتنا فأصدرنا أمرنا إليه بأن من كون ترتيب شيء لهؤلاء وأمثالهم لايكون إلا معلومية صحة قيامهم بالتعليم واشتغالهم بذلك فإذا كانوا الأشخاص المذكورين فى الواقع محلاتهم مفتوحة للتعليم وقائمين بهذه الشعائر فيربط لكل منهم مقداراً معلوم سنوى بحسب مايرى فى كيفيته وحالته ويبقى يخصم مما عليه وبعد ذلك ورد إفادة من وكيل المديرية رقم ٤ شعبان سنة ٧٥ نمرة ١١ ومعها كشف بما ترتب للمذكورين شهرى ولمناسبة تقليدكم بالمديرية المذكورة أرسل لكم الكشف المحكى عنه بالمكاتبة اللازمة من معيتنا لتنظروه وتفيدوا عما تروه فالآن وردت إفادتكم رقم ١٩ رجب سنة ٧٦ نمرة ١٦ ومعها كشف بأسماء جملة أشخاص وما ترتب لهم شهرى وقدره ثلاثة آلاف وستمائة وتسعون غرش ماهية وثلاثون إردبًا وثلثاى أذرة من ذلك ألف ومائتان وعشرون غرش وست عشر إردبًا وثلثاى مرتب مدة الحكمدارية ومدة سلفكم والباقى قيمة ما ترتب للمستجدات والبعض مما كان أدرجه الوكيل بالكشف السابق وروده والبعض مستجد أوضحتم أن من صار استبعادهم ممن كان أوضحهم وكيل بالمديرية فهو لمناسبة أن مربوط لهم رفوعات من المطالب العامة جارى خصمها لهم سنوى وترموا استحصال أمرنا عما تعتمدوا إجراء لعمل اللازم لأهليها فمادام تحقق لكم أن الأشخاص الذى أوضحتموهم بالكشف الوارد طى أنها كم فى الواقع أن محلاتهم معدة للتعليم وقائمين بهذه الشعائر فيربط لهم ما استنسبتم ترتيبه إليهم شهرى وقدره ثلاثة آلاف وستمائة وسبعون قرشًا واثنان وثلاثون أردبًا وثلثاى أذرة وأصدرنا أمرنا هذا إليكم للأجرى بموجبه كما اقتضته مكارمنا .

جزء أول قيد وارد الدواوين والمحافظات والمديريات

المعية عربى ١٦٦٠ نمرة ١٣٨ ص ٥٧ نمرة ١٥ بتاريخ ١٠ ربيع ثانى سنة ٧٧

مديرية دنقلة وبربر

جواب يذكر أن فى العهد السابق كان جارى رفع مالية سواقى وجدعات من أصل مربوط الزمام وسواقى وأطيان تزرع بلا مال وليس واردة بالزمام لأرباب المساجد المفتوحة لتلاوة القرآن

والعلم الشريف إحساناً من جنتمكان أفندينا الكبير ومبلغ ٥٠٠ قرش مربوط بأمر عال ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٧٣ إلى أولاد بشير المقيد من أهالى حله أم الطيور وفى ٢٣ صفر سنة ٧٤ صدر أمر عال بقطع ما كان مرتب قرش من قرش ومرتب الأطيان يضاف بالزمام كما جرى بالأقاليم البحرية وبما أن هذا هو إحسان وإذا صار قطعه وطلب من أرباب الرزق الأموال فربما يكون هذا بضد مرغوب ولى النعم فقد تحرر كشفين ببيان ذلك وبلغ مقدارهم سنوى ٣٠٢٦٣,١٨ قرش خلاف شوقى رزق معطية لمذكورين بمقتضى أوامر كريمة تزرع فى الأراضى البور بلا مال وفى هذا الزمن ليس جارى زراعتهم لعدم الاقتدار وسبق العرض عن هذا وهذا للداخلية وأخيراً فى ١٣ صفر سنة ٧٦ نمرة ٥٣ ولغاية الآن لم كان ترد إفادة يريد النظر والعرض للإعتاب ويفاد والكشفان طيه .

دفتر رقم ١٨٩٧ صادر أوامر

صورة الأمر الكريم رقم ١ ص ٢٥ بتاريخ ٦ من ذى الحجة سنة ٧٧

أمر كريم

إلى مديرية سنار والخرطوم

لقد عرض لدينا إفادتكم الواردة لمعيتنا رقم ٢٠ رمضان سنة ٢٧٧ رقم ١٠ عرض بناء على الأنهال المقدم من أحمد مكى امام الجامع بالخرطوم الملتمس به ترتيب ماءونه إليه شهرى حسبما هر مرتب لأقرانه أرباب المساجد وبالتحقيق اتضح أن ماهيته المربوطة إليه شهرى مائتين وخمسين قرشاً وأمثاله الفقهاء الذى بمناسبة ماهيته مرتب لكلا منهم شهرى أربعة أرداب حب ذرة خلاف الماهية ولكون أحمد مكى المذكور رجل فقير وصاحب تدريس وقايم لشعاير الدين وأداء الصلوات بالجامع ويعلم أولاد المسلمين وبشهود له فى ذلك وعلى أنه مستحق ربط الماءونة إليه كأمثاله ترغبوا النظر فى ذلك فقد اقتضت إرادتنا ترتيب الأربعة أرادب حب ذرة إلى المذكور من تاريخه كما هو مرتب لأفراد أرباب المساجد ولزم إصدار أمرنا هذا إليكم لأجرى العمل بمقتضى ذلك كما سمحت به مكارمنا .

من مربوط

دفتر ۱۸۹۹ أوامر بحرى

صورة المكاتبة، العربية رقم ١٦٠ ص ٥٤ بتاريخ ١٣ شعبان ١٢٧٨

أمر كريم

إلى حضرة سلطان دارفور

بعد حمد مزلف القلوب ومسبب الأسباب والصلاة والسلام على الواسطة فى كل باب وعلى آله وصحبه الوسيلة فى الأمور الصعاب فأنه قد وصل إلينا مكتوبكم الكريم المبنى عن اعتدال المزاج السليم رفقه الشيخ محمد على قرانى النقشبندى والمقيم بمديرية دنقله وبربر وحصل من تلاوته الحظ الأوفر وحيث علم لدينا مما أورد تموه أن المذكور من أهل الطريقة النقشبندية ومعتاد على تعليم ونفقة الأطفال وهذا من المحسنات فقد صار أمر من طرفنا إلى مدير دنقلة وبربر الداخلة حكومتنا بترتيب المعاش الكافى إليه ابتغاء لمرضاة الله تعالى المعول فى كل الأمور عليه واقتضى ترقيم ذا لجنابكم ليكون معلومًا ولديكم ولتداوموا على تسيار وسائل المحبة المأمول عدم نقصها ولا وزن حبة ودمتم فى أمان الله والسلام عليكم ورحمة الله .

دفتر ۱۸۹۸ أوامر عربى رقم ٧

صورة الأمر العربى ص ١٠٨ بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٢٧٨

أمر كريم

إلى مديرية دنقلة وبربر

أن حامل أمرنا هذا الشيخ محمد على قرانى النقشبندى أنهى إلينا بأنه معتاد على تعليم الأطفال والتمس أن يترتب له شىء من إحساننا ليستعين به على معاشه وتعليمه الجارى تعليمهم وقد سمحت إرادتنا بترتيب مايقوم بمعاشه وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتنظروا ما يناسب ترتيبه إليه وتجرون ترتيبه وقيده باسمه ابتغاء لمرضاة الله وجاه خاتم أنبيائه .

من المكس

نمرة ٢٦

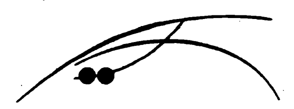
٢٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٧٩

من موسى باشا حكمدار السودان   إلى الخديو

جواب (من الحكمدار) يذكر أن الصيارف والمعاونين وخلافهم الجارى حضورهم من جهة مصر يصرف عليهم تراحيل وافرة على طرف الديوان وليحصل تغيير الأهوية عليهم . وملحوظ بأن أهالى الديار لهم قابلية للعلم يريد أن وافق أن أولاد العمد والأعيان كل من يرغب منهم التعليم فى فن التحريرات والحسابات يربط لهم ماهيات من ثلاثين قرشًا لغاية ٧٥ لأجل استخدامهم بدل الذين يصير حضورهم ويصرف عليهم تراحيل وأجر يعرض عن ذلك للأعتاب وما يوافق يصدرعنه الأمر .

■■■

الملحق (١١)
عهد إسماعيل
ويشمل وثائق عن التعليم الأميرى



دفتر رقم ١٩٠٤ أوامر كرام عربى صادرة إلى الأقاليم

صورة الأمر العربى رقم ٢ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩

أمر كريم منطوقه

قد علمنا ما بانهاكم الرقيم ٢٥ جمادى أولى سنة ١٢٧٩ نمرة ٢٦ من الاستئذان عن إدخال كل من يرغب من أولاد العمد والأعيان والأهالى فى دواوين المديريات ديوان الحكمدارية بقصد التعليم فى فن الكتابة من حسابات وتحريرات ويتخصص لهم ماهيات من ثلاثين غرش لحد خمسة وسبعين غرش حتى إنه فى زمن قريب يتحصلوا على اكتساب ذلك الغنى ومنهم يؤخذ مايلزم إلى وظائف الكتابة وللمعاونين بحسب اللزوم ليكون أوفق من طلب من يطلب إلى تلك الوظائف من هنا مع المخاطرة عليهم من تغيير الأهوية فضلا عن صرف مصاريف وأجرة على إيصالهم إلى السودان لغاية ما أنهيتموه بهذا الخصوص ولقد وافق إرادتنا أن تجرونه على الوجه اللائق . وبما أنه من أقصى الآمال انتشار حالة التمدن والرفاهية وحسن التواطن والعمارية ومن لزوم ذلك استحصال الرعايا من اكتساب العلوم ليمتازوا بها ويكونوا دائما مجبولين على حب الوطن ومتشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم فى المعارف والفنون فلذلك قد سنح لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم بحيث يترتب به خوجات تركى وعربى ممن يثبت مهارتهم فى ذلك ليعلموا قدر خمسماية نفر تلامذة من أهالى تلك الجهات وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتبذلوا مزيد اعتناكم فى ترتيب ذلك المكتب وتعينوا بيان الدروس التى يلزم دراستها فيه على حسبما يليق لأجل تحصيل ماذكر مع إشهار مما يلزم من التشويق والترغيب إلى الأهالى فى استحصال هذه الثمرات المدنية وإذا كان غير متيسر وجود بعض الخوجات بطرفكم فاطلبوا

مايلزم من المحروسة وبانتهاء ترتيبه تعرضوا لدينا كيفية ما رأيتموه بالبيان الواضح مع توضيح بيان الماهيات والمصاريف التى تترتب لحسن إدارته ليعلم كما هو مطلوبنا .

حاشية . إذا كان بحسب أحوال السودان تجدوا أن يعمل مكتبين بدل المكتب المذكور عنه بمن أمرنا فلا بأس وإذا كان يوجد أشخاص من أولاد الترك المستوطنين بالسودان يرغبون إلحاقهم بالمكاتب من ضمن التلامذة السالف الذكر عن تعدادهم فلا مانع من ذلك .

أقاليم

محفظة ٢٠ معية تركى

ترجمة الوثيقة رقم ٥٠٨ فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩

من موسى حمدى حكمدار السودان الأسبق إلى حضرة باشمعاون الخديو

أنه بناء على ما أعرضناه على الأعتاب الخديوية بكتابنا المحرر فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٧٩ بنمرة ٢٦ بإلحاق من يرغب فى الإلتحاق بديوان الحكمدارية وداوين المديريات من أولاد عمد السودان وأعيان أهالية لكى يتعلموا فن الكتابة ويلموا بالحسابات وبتخصيص مخصص لكل منهم قدره ثلاثون إلى خمسة وسبعين قرش وأنهم يكتسبون بهذه الصورة علومًا فتظهر قبليتهم فى استخدامهم فى وظائف الكتابة أو المعاونة قد وصل إلينا فى ١٨ رمضان سنة ١٢٧٩ بنمرة ٢ مشعرًا بأن تنفيذ هذه المسألة بالوجه المناسب قد اقترن بالموافقة الخديوية إذ قضى بافتتاح مدرسة الخرطوم من قبل الحكومة وتنظيم أمورها وقبول نحو خمسمائة تلميذ لتعليمهم وممارستهم وتعيين معلمين للغتين العربية والتركية وطلب أولئك المعلمين من مصر عند الحاجة وعرض كمية الماهيات وسائر المصاريف اللازمة لإدارة تلك المدرسة بعد الانتهاء من إعدادها بحسن الخاتمة إذ إن نشرة فائدة التمدن والرفاهية وتعميمها من أقصى أمل الجناب العالى وجاء فيه أيضا لزوم إنشاء مدرستين بدلا من مدرسة واحدة إذا مست الحاجة إلى إنشائهما نظرًا لأحوال السودان وإدخال من يرغب فى الدخول فيها من أولاد المستوطنين بالسودان أيضا فى ضمن التلاميذ السالف ذكرهم . هذا وبموجب منطوق ذلك الأمر الجليل سنشرع فى إلحاق من يرغب من أولاد العمد والأهالى وأبناء الترك العارفين بالقراءة والكتابة على قدر الإمكان من الذين تعلموا القرآن وختموه بمعية الكتاب فى دواوين الحكمدارية ومديرياتها . وحيث إن صدور أمر ولى

النعم العالى بإنشاء تلك المدرستين ناشئ حتمًا عن حسن آماله الخديوية فى حق عبيده ورعاياه وتنمية الخير لهم فلا شك أن ذلك موجبًا للتقدم وانتشار التمدن وسببًا فى استجلاب الدعوات الخيرية لذاته العلية وبما أن تصريحه العالى بإنشاء مدرستين نظرًا لوسعة السودان يدل على قصده السامى تعميم التمدن والتقدم المأمول حصولهما . وبما أن من المعلوم أن بلاد السودان عبارة عن ديار متسعة وأن المديريات بعيد بعضها عن بعض وأن قصر خمسمائة التلميذ السالف ذكرهم على مدرسة أو مدرستين يوجب تمتع أهل المديرية التى بها تلك المدرسة وتجديدها من جملة مراحم ولى النعم وإحساناته السنية فلو أسست خمس مدارس صغيرة فى مديريات الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والتاكه بدلا من المدرستين العظيمتين وتعلم فى كل منها مائة تلميذ كل تشمل ثمرات التمدن وانتشار العلوم والفنون النافعة ببركة إحسان ولى النعم فإنى أظن أن الناس كلهم يرغبون فى تعليم أولادهم فنجتنى حينئذ ثمرات التمدن والتقدم ويعم نفعها .

إن قبائل دينك العبيد المستوطنين فى شرقى النيل الأبيض على مسافة خمسة أو ستة أيام بحرًا كانوا قد اعتادوا كل سنة فى موسم الخريف الاعتداء على خلال جهات سنار ونهب الأموال وقتل النفوس ولكن قد جاء أخو محمد خير إلى المثنى عليكم كما عرضنا بإفادتنا العربية المحررة فى ١٢ رجب سنة ١٢٧٩ بنمرة ١١ واستأمنا فى أخيه محمد خير والذين اتبعوه وأطاعوه من أفراد قبيلة دنكة العبيد وبلغ رغبتهم فى تعيين محمد خير المذكور شيخًا لهم فبناء على ذلك عينا محمد خير المذكور شيخًا وفرضنا عليه مالاً سنويًا قدره مائة كيس وألزمناه بدفعه إما نقدًا وإما يسدده بتوريده عاجًا (سن فيل) على أن يكون القنطار من سعر ألف قرش . وجاء وكيل من قبيلة شلك وشيوخها وهى قبيلة تقطن الجهة الغربية من النيل الأبيض فى الساحل المقابل لتلك القبيلة (أى الدنيكة) وقد استأمنوا أيضًا ودخلوا فى دائرة الإطاعة وتعهدوا تأدية مائتى كيس سنويًا إلى الحكومة بموجب الشروط التى قبلتها القبيلة الأخرى . وحيث إن من المأمول أن يتمدنوا شيئًا فشيئًا وتتسع ثروتهم وتجارتهم لكثرة تردد السواحين والتجار عليهم . فيجب إيجاد ديوان مديرية مختصر على بضعة كتاب وتعيين مدير برتبة بكباشى أو قائمقام وتخصيص مائة فارس وأربعمائة أو خمسمائة جندى من الجهادية واستخدامهم فى أمر المحافظة وقد كانت هناك مديرية مستقلة أسست بأمل إدخال تلك القبائل فى دائرة الإطاعة ولكنها قد ألغيت فى العهد السابق حينما حضر المرحوم إلى السودان فى ضمن المصالح التى ألغيت بعد

أن أداروها مدة قصيرة ولم يطلعوا على ميزانيتها ومقابلة إيراداتها ومصروفاتها فإذا أعيدت تلك المديرية على الوجه الذى قدمناه فيستوجب ذلك عمار تلك الجهات وتزايد إيرادها فى المستقبل وكمال أمن تلك القبائل والتجار والسواحين الواردين والمترددين عليهم . وقد كانت أنشأت دولة النمسا كنيسة فى جهة البحر الأبيض لأمالة تلك القبيلتين إلى اعتناق ملتها والغتها بعد حين لما رأت عدم استطاعتها لا مالتهم إلى ديانتها فمن المحتمل أن يترسلوا مثل تلك الأسباب مرة أخرى فإن نجحوا فى ذلك فسيكون سببًا فى فتح باب للقيل والقال فى المستقبل بحجة أنهم هم الذين مدنوهم ، فإن القبائل المذكورة وإن كانوا متوحشين فأنهم يميلون إلى الإسلام طبعًا وخلقًا وينقادون للحكومة إدارة فالحكومة أحق بأن تقوم بأمر تمدينهم فإذا أرسل إليهم معلمون من فقهاء السودان المعروفين بحسن السلوك والأخلاق المتميزين بالإدراك والفطانة وخصص لهم ماهيات مناسبة وقاموا بتعليمهم قواعد دين الإسلام الشريفة وأنشئت لهم مدرسة غربية ضم رأينا أن ذلك أمر حسن لايخلو من الفائدة فاعرضوا على الأعتاب السنية المسائل التى قدمناها من إنشاء مدارس فى خمس مديريات وإنشاء مديرية لقبيلتى (دنيكة) و (شلك) بالبحر الأبيض مع افتتاح مدرسة لهم وتكرموا بأنبائنا عما إذا كانت تقترن هذه المسائل بموافقة العلية كى نعد مايجب إعداده من الترتيبات وتقدمه مع كشف الكتب والأدوات وسائر اللوازم .

حكمدار السودان

فى ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ — ختم

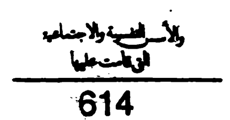
صدرت إرادته فى ١٠ من ذى القعدة سنة ١٢٧٩ — موسى حمدى

دفتر رقم ٥٢٦ معية تركى «قسم ثان»

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ بتاريخ ١٠ من ذى القعدة سنة ١٢٧٩ صفحة ٨٢

من إرادة — إلى موسى باشا حكمدار السودان

قد عرض علينا كتابكم المفصل والمؤرخ فى ٢٠ رمضان نمرة ٢ الذى تبحثون فيه عن أمرنا العربى الصادر لكم بخصوص تعليم الكتابة والقراءة لأولاد العمد وخلافهم واستخدامهم فى دواوين الحكومة وتأسيس مدرسة فى الخرطوم تستوعب مقدار خمسماية تلميذ حيث إن تزايد الحضارة والعمران فى الأقاليم السودانية من أقصى آمالنا والذى تقترحون فيه تأسيس خمس مدارس فى مديريات الخرطوم



وبربر ودنقلة وكردفان وتاكه تسع كل منها مائة تلميذ بدلا من إنشاء مدرسة واحدة فى الخرطوم وهذا لأجل تعميم اكتساب العلوم والثقافة بين أهالى السودان وأنكم قد قمتم بتعيين الشخص المدعو محمد خير شيخًا على عربان ودينكه القاطنين فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض وبترتيب عوايد ميرية عليه بمبلغ مائة كيس سنويًا ؛ فلذا تطلبون تشكيل مديرية صغيرة فى جهة البحر الأبيض وتأسيس مدرسة فيها وتعيين مائة نفر من الخيالة وخمسمائة نفر من عساكر الجهادية للمحافظة عليها حيث إن وكيل بلدة القبيلة المسماه شلك القاطنة هناك ومشايخها جاءوا إلى طرفكم وقدموا الطاعة وتعهدوا بتأدية مبلغ مائتين كيس للميرى فى كل سنة وحيث إن تأسس خمس مدارس فى المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس المصلحة بناء عليه بادروا إلى إجراء ايجابه وأسعوا فى تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم بأحسن وجه . وأما مسألة القبيلتين المذكورتين اللتين عزما الخضوع والطاعة فكما بينا فى أمرنا الصادر لكم بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٧٩ نمرة ١١ يجب أن تنبهوا عليهما وتفهموهما أن القضايا البسيطة التى ستحدث بين جماعتهما سيجرى النظر فيهما بمعرفة مشايخهما . وأن القضايا المهمة ستولى الحكمدارية أمر الفصل فيها وأن تتخذوا الإجراءات المستلزمة لاطمئنانهم وراحتهم من كل الوجوه والمؤدية إلى جلب اعتمادهم ورضاهم . . وحيث إنه غير خاف بأن الاعتناء فى أمر إعاشة هاتين القبيلتين والاستمرار فى حسن معاملتهما سيؤدى إلى تشويق وترغيب القبائل الأخرى فى طلب الأمان وعرض الطاعة بناءعليه وبحسن تدبيركم بادروا إلى إجراء اللازم فى هذا الخصوص واعتنوا بتحصيل الأموال المقررة عليهم بدون إلقاء النفور فى قلوبهم ، أما كيفية تشكيل مديرية صغيرة فى جهة البحر الأبيض وتأسيس مدرسة فيها والحالة هذه ليست من الأمور الضرورية وأنه فيما بعد سنبلغكم باللازم إجراؤه فى هذا الشأن لذلك لزم الإشعار .

دفتر رقم ١٣٦ وارد معاونة

صورة المكاتبة العربية رقم ٢٩ ص ٢١ بتاريخ ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠

ورد فى ٢٤ صفر سنة ١٢٨٠ أقاليم

جواب يذكر أنه بمقتضى الأمر العالى الصادر له فى ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ نمرة ٢ قد أنشا خمسة مكاتب تلامذة بالخرطوم وكردفان والتاكه ودنقلة وبربر ويرتب لمكتب الخرطوم ٢٠٠

تلامذة وباقى المكاتب كل منهم ٧٥ وتحرر للمديرين بذلك ، وقبول التلامذة واستحضار ما يلزم لهم ، والذى ورد بمكتب الخرطوم ١٢٤ وقد تحرر كشفا بما استوجب ترتيبه لكل مكتب وراسله مع هذا لأجل النظر ، إنما لازم ترتيب خمس خوجات ترك يكونون ذوى معرفة فى تعليم التركى نحو وصرف الخط الثلث والرقعة وهو لأنه لا يوجدوا بالسودان بل مقتضى حضورهم من بحرى ومعهم الكتب الموضحة بالكشف طيه لأجل التعليم فإن وافق ذلك يجرى إرسال هذا وهذا ومعه كشفان .

سجل رقم ١١٦ صادر المعاونة

صورة المكاتبة العربية رقم ١٦ بتاريخ ٢٦ صفر سنة ١٢٨٠

من المعاونة السنية إلى ديوان المدارس

جواب صورته أنه لما تعلقت الإدارة السنية بانشاء مكاتب بجهات السودات لتعليم التلامذة وصدر بذلك الأمر العالى لسعادة حكمدار السودان الآن وردت إفادة من الحكمدار المومى إليه رقم ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠ ومعها كشف بترتيب خمسة مكاتب ، واحد بالخرطوم والثانى بكردفان والثالث بجهة بربر والرابع بدنقلة والخامس بالتاكا ، فأما مكتب الخرطوم يحتوى على خمسة وسبعين تلميذ ورتب لهم الخدم والخوجات اللازمة لتعليم القرآن الشريف والدروس العربى وطالب إرسال خمسة خوجات ترك من جهة المحروسة لكل مكتب واحد بحيث يكونوا من أرباب المعارف فى تعليم التركى والنحو والصرف والخط والثلث والرقعة وأن يرسل معهم أيضا الكتب اللازمة لهم مع إرسال ثلاثمائة واحد وخمسين نسخة من ثلاثة عشر كتابًا عربيًا متعلقين بعلم النحو والصرف وأوضح بيانهم بكشف منسوخ صورته طى هذا وجب مقتضى تعيين الخوجات المذكورين وإرسال لطرف المومى إليهم ومعهم الكتب التى تلزم لهم من النسخ العربى المحكى عنها ، اقتضى تحريره لسعادتكم لتجروا انتخاب الخمسة خوجات المرقومين ومداركة مايلزم لهم من الكتب وإبقائهم بكشف مرتباتهم لطرف الحكمدار والمومى إليه مع النسخ العربى السالف ذكرها حسبما هو لازم أفندم .

أقاليم

سجل ١٩٠٤ أوامر عربي ص ٦٤

صورة الأمر الكريم رقم ٢٣ بتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٠

أمر كريم منطوقه قد أحطنا علمًا بما بانهاكم الرقم ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠ نمرة ٢٩ الناشئ عن أمرنا الصادر لكن رقم ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ نمرة ٢ بتجديد مكتب بالخرطوم أو مكتبين لتعليم قد نفر خمسمائة تلامذة بأنكم رتبتم خمسة مكاتب منهم مكتب بالخرطوم فى ابتدى محرم سنة ١٢٨٠ يحتوى على نفر ٢٠٠ مائتين تلامذة ثم والأربعة مكاتب الأخرى رتبتوهم بالأربعة مديريات السودان وهم مديرية كردفان ومديرية بربر ومديرية دنقلة ومديرية التاكه كل مكتب منهم ٧٥ نفرًا خمسة وسبعون تلميذًا لأجل السهولة فى التعليم وانتشار التمدن واكتساب الفنون بجهات السودان ورتبتم إلى الخمسة مكاتب المذكورة ما لزم ترتيبه من ماهيات الخواجات والتلامذة والخدم وملبوسات التلامذة ونحوه بما يبلغ مقداره شهرى ٣٨ فضة ١٩٩٠٦ قروش تسعة عشر ألف قرش وتسعمائة قرش وستة قروش وثمانية وثلاثين فضة كالبيان الموضح أدناه بباطن هذا الكشف الممهور منكم ، وهذا خلاف ماحررتو للمديريات بتجهيزه من بعض المهمات اللازمة للتلامذة مثل ألواح وأزيار وعدا ذلك ترغبوا ترتيب وإرسال خمس خوجات ترك من المحروسة لكل مكتب واحد بحيث يكونوا من أرباب المعارف فى تعليم التركى النحو والصرف والخط والثلث والرقعة وأن يرسل معهم أيضا الكتب اللازمة لهم مع إرسال ٣٥١ عدد تلامذة ثلاثمائة واحد وخمسين نسخة من ثلاثة عشر كتاب عربى متعلقين بعلم النحو والصرف والمنطق واللغة ونحوه كالموضح بيانه بالكشف الثانى الوارد منكم . فجميع بذلك صار معلومًا لدينا . وحيث إن أقصى آمالنا هو انتشار حالة التمدن واستحصال الرعاية على اكتساب العلوم ليمتازوا بها ويكونوا دائمًا مجبولين على حب الوطن ومتشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم فى المعارف والفنون فما أجريتموه فى ترتيب الخمسة مكاتب المذكورة قد قورن بمساعدتنا وقد صدرت المكاتبة من معيتنا لديوان المدارس بانتخاب الخمسة خوجات وإرسالهم بالكتب السالف ذكرها وكشف ماهيات كل منهم ولزم إمداده لكم على هذا الكف اعتماد للأجرى وقبول ما جرى ترتيبه كما أوضحتم يكون معلومكم .

أقاليم من الجزيرة

دفتر ٥٣٧ معية تركى

ترجمة الإرادة السنية رقم ١ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٠

الإرادة السنية الصادرة إلى موسى باشا حكمدار السودان .

قد علمنا من كتابكم المفصل المحرر فى ٩ من ذى الحجة سنة ١٢٧٩ نمرة ٢ أنكم بعثتم على كاشف السر سوارى مع خمسمائة جندى على أولاد يمير الخونة الذين اعتادوا الاعتداء على الغزى الداخلة فى حدود الحكومة والعربان المقيمين بها واستحلوا الإغارة عليهم ونهب أموالهم ومواشيهم واستباحوا قتل النفوس وأسر الأحرار وبيعهم وأنهم قاتلوهم إذ لاقوهم فالجئوهم إلى الفرار إلى قلل الجبال وأسروا منهم مائة وخمسين نفسًا وأن فيهم زوجة المتوفى على نمر الكبير وولد لها من زوج غيره وزوجة عمارة بن العلا وزوجة أخيه محمد وكريمتيه وأنه قد أغتنم منهم ثلاثمائة بقرة وخمسة عشر جملا وأن العادة الجارية سابقًا فى أمثال هذه الغزوات كانت تقضى بترك الغنائم وشطر من عدد الأرقاء للجنود فى مقابل الخسائر التى تصيبهم ولكن الآن ينبغى أن يترك لهم فقط الأبقار والجمال كافة لضألة أثمانها بخلاف النفوس البشرية المغتنمة إذ إن الحرية المعلنة لاتجيز الاسترقاق وقد جاء فيه أيضا أنه ينبغى تجنيد من يستطيع أن يقوم بالخدمة العسكرية من ذكور الأسرى وتزويج إناثهم اللاتى يصلحن للتزوج من العساكر وإدخال الأطفال الذين لا يصلحون للخدمة العسكرية ولاالفرق الموسيقى للمدراس واستخدام البنات الصغيرات اللاتى لايصلحن للتزوج فى بيوت أناس معروفين بطريقة مناسبة بعد أن تعطيهم الحكمدارية تذاكر التحرير (الإعتاق) والاعتناء بهذه الصورة بأمر تربيتهن وأما النساء اللاتى لايرجون زواجًا فإنه ينظر فى أمر إسكانهن فى بيوت العمد بتلك الجهات مع تخصيص خمسة أرباع من الذرة شهريًا لكل منهن وأما ثلاث أزواج الملاتمر الكبيرالمتوفى وولديه اللاتى سلف ذكرهن فإنه يخصص لكل منهن عشرون قرشًا شهريًا غير ماذكر آنفًا من مخصص الذرة وأنه لو عاد ذكور أقاربهن وتابوا واستأمنوا ورغبوا فى الإقامة فى أوطانهم الأصلية فإنهم يؤمنون إذا ويسلم إليهم نساؤهم .

قد علمنا كل ماذكر بعد قراءة ذلك الكتاب ووافقنا على تنفيذه فاعملوا بموجبه .

سجل رقم ١٣٩ وارد معاونة

صورة الوثيقة بصفحة ١٨ بتاريخ ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠

من ديوان المدارس إلى المعاونة السنية

جواب رد الصادر له ١٦ بخصوص الخمس المكاتب اللازم إنشاؤهم بجهات السودات لتعليم التلامذة . يذكر أن بالبحث عن الخوجات اللازمين قد وجد أشخاص يعلمو التركى والنحو والصرف والخط الثلث والرقعة إلا أن البعض منهم يعلم ذلك جميعه ماعدا خط الثلث والبعض يعلم خط الثلث ماعدا الرقعة فإنه يعلم فيها بقدر الإمكان وبالممارسة معهم عن جهتهم أو فضو بالتوجه وأن يترتب لكل منهم ماهيات من ألف غرش لحد ألف ومائتان وخمسون قرش شهرى وقد ترأى موافقة قبول التماسهم ويريد العرض وصدور الأمر بما يوافق .

دفتر رقم ١٢٧ صادر معاونة

صورة الوثيقة رقم ٢ ص ١٢ بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠

من سعادة طلعت باشا إلى ديوان المدارس

شرح صورته وردت إفادة سعادتكم بحينه رقم ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ نمرة ١ بشأن الخمسة خوجات تورك السابق مكاتبة سعادتكم بتعيينهم لزوم الخمسة مكاتب الذين صار إنشاؤهم بالسودان وكما توضح أنه صار تعيينهم وارتضوا بالتوجه وأن يترتب لكل منهم ماهيات من ألف غرش إلى ألف ومائتين وخمسين غرش وأن هذه الماهية ليست كثيرة بالنسبة لبعد المحلات وأن توجههم لحد محلات خدماتهم يكون من طرف المدير لآخر ما توضح وحيث مقتضى معلومية أسما الخوجات المذكورين ومقدار الماهية التى تتخصص لكل منهم مع ما حصل فى مادة الكتب السابق طلبها لإرسالها معهم اقتضى الشرح لسعادتكم لترد الإفادة عن ذلك لتحرر اللازم أفندم .

حاشية : بما أنه لا يخفى سعادتكم أن المستخدمين الذين يتعينوا لجهة السودان من بحرى مقدر لهم ضم السفرية علاوة على ماهيتهم بعبرة المرتب لهم من الماهية لكن من حيث

الخوجات المذكورين تراضوا من هنا على فتوجههم بمقادير الماهيات البادى ذكرها فبالضرورة لا يحسب لهم عليها شىء ولهذا لزم التنبيه .

سجل رقم ١٣٩ وارد المعاونة السنية

وثيقة رقم ٥ صفحة ١٨ بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠

من ديوان المدارس   إلى المعاونة

جواب رد الصادر له نمرة ٢ يذكر أنه أوضح أسماء الخوجات ومقدار ماهيتهم إنما توجههم لحد محلات خدامتهم بالسودان يكون على طرف المدير وأما ٣٥١ كتاب السابق طلبها فإنه وجد البعض منها بالكتبخانة والباقى صار قطع بزاره مع أربابه وتوضح من الخوجات أسمًا الكتب اللازمة وقدرها ستة وتخصص لمكتبة الخرطوم مع كل كتاب منهم خمسين والأربعة مكاتب تخصص لكل منهم من كل كتاب خمسة وعشرين وبلغ مقدار الكتب نسخة ٩٠٠ والذى لم وجد بالكتبخانة صار قطع بزاره مع أربابه وهذا توضح بيانه بالكشف طيه ولكون الكتب من اللازم أن تكون بطرف الحكمدارية والصرف منها بحسب اللازم يريد صدور الأمر لمن يلزم بتوجيه الخوجات مع الكتب وصرف الترحيلة وترصل له إفادة لاستحضار الكتب وتسليمها وما يصير فى خصم أثمانها .

بيان الخوجات المتوجهة إلى الخمسة مكاتب بماهية شهرى :

١٠٠٠ محمد شاكر أفندى استانه لى يتوجه مكتب الخرطوم .

١٠٠٠ حافظ محمد على أفندى خربوط لى دنقلة .

١٠٠٠ محمد أفندى بوده لى بربر .

١٠٠٠ حافظ خليل أفندى اسكلبكى التاكة .

١٠٠٠ إسماعيل يوسف أفندى خربوط لى كردفان .

٥٠٠٠

سجل ١٢٧ صادر معاونة سنية

وثيقة رقم ٣ صفحة ١٢ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠

من المعاونة السنية إلى ديوان المدارس

جواب صورته ورد إلى المعاونة أفادة حضرتكم الرقمية ٢٣ الماضى نمرة ٥ المشتملة على بيان الخمسة أشخاص خوجات الذين صار تعيينهم إلى المكاتب بالسودان وعلى بيان الكتب اللازم إرسالها معهم إلى الحكمدار اللصرف منها بحسب اللزوم وتريدوا بها أجرى المقتضى فى صرف ترحيلة المذكورين وتوصيلهم إلى تلك الجهة وعنما تتخذوه فى خصم أثمان الكتب يكون على أى جهة لآخر ما بها والحال أما عن الترحيلة اللازم صرفها للمذكورين وعن توصيلهم مع الكتب إلى الجهة المذكورة قد تحرر عنه بتاريخه إلى المالية بما اقتضى وأما عن الكتب بما أن لزومها هو للمكاتب الكائنة بالسودان ومصروفات المكاتب وماهيات خدامها يتعلق بذاك الجهة فقيمة أثمانيهم يخصم بها على الحكمدارية ويتحرر لها الأسعار من حضرتكم من ذلك لقيد الكتب المذكورة بها والصرف منها كما ذكر لزوم تحرير هذا لحضرتكم للاجرى حسبما ذكر مع إرسال الخوجات والكتب إلى المالية لصرف الترحيلة وإرسالهم على وجه ما توضح أفندم .

(حاشية) الكتب المذكورة يصير وضعها داخل صناديق لأجل حفظها وعدم إتلافها بالطريق ولهذا لزم التنبيه .

سجل ١٢٧ صادر معاونة سنية

وثيقة رقم ٨٢ صفحة ٧٢ بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠

تابع نظارة المالية

من المعاونة إلى نظارة المالية

شرح صورته الإفادة المسطرة باطنه وردت لديوان المعاونة من حضرة مدير المدارس وناظر الخارجية رقم ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ نمرة ٥ تشتمل على بيان الخمسة أشخاص خوجات الذين صار تعيينهم إلى المكاتب بالسودان البالغ قدر مرتبهم شهرى خمسة آلاف غرض باعتبار

كل شخص ألف غرض شهرى من دون أن يحسب لهم ضم السفرية وعن بيان الكتب اللازم إرسالها إلى الحكمدارية الواضح بيانها بالكشف طيه للصرف منها بحسب اللازم ومرغوب أجرى المفتضى لصرف الترحيلة للمذكورين وتوجههم مع الكتب إلى الحكمدارية لآخر ما توضح مطابقته كافى وبما أن الترحيلة اللازم صرفها إلى المذكورين عادة صرفها هو من المالية ففى تاريخه تحرر لحضرة مدير المدارس عن إرسال الخوجات المذكورين إلى المالية مع الكتب لاجرى المقتضى فى صرف الترحيلة إليهم حسب أمثالهم وإرسالهم منها إلى الوابورات والعمليات ليجرى توصيلهم مع الكتب إلى السودان ولزم شرحه لسعادتكم للمعلومية ولكن بخصوص المذكورين يصرف لهم الترحيلة ويجرى إرسالهم للوابورات لتوصيلهم مع الكتب لحل مأموريتهم حسبما ذكر والكشف طيه .

حاشية . ثم ومن المالية يتحرر إلى الحكمدارية عن مقدار ماهيات الخوجات المذكورين وعن قدر الترحيلة التى تصرف لهم ليجرى خصمها عليهم من استحقاقهم بها لهذا لزم التنبيه هذا مع التحرير من المالية لمديرية اسنا ما جرى ما يلزم لنقلية المذكورين والكتب على الجمال اللازمة ونحوه لحد الخرطوم حسب الجارى مع أمثالهم ومع ذلك قد ذكر فيما تحرر للمدارس بأن الكتب المذكورة يصير وضعها داخل صناديق لحفظها وأثمانها يخصم بها على الحكمدارية .

دفتر رقم ١٩١٠ أوامر عربى

صورة المكاتبة رقم ١٧ ص ٨٨ بتاريخ ١٩ صفر سنة ٨١

من المعية إلى حكمدار السودان

بشأن تنظيم جهات البحر الأبيض . وهو عبارة عن لائحة تشتمل على مقدمه و١٨ بندًا وخاتمة البند الثالث يتعلق بمعاملة سكان هذه الجهات بالحسنى .

البند السادس

بما أنه من اقتضا ما يلزم أعماله من مبانى وغيره بتلك الجهات يحتاج العمال لتدارك حجم غفير من أرباب الصنايع المتعلقة بالعبارات . فمن بنايين ونجارين ومهندسين وما أشبه وساير ما

يحتاج الحال لأعماله فو إن كان يوجد بالعساكر إلى هناك بعضا ممن يكن لهم المام بذلك إلا أنه ربما كان ذلك غير كاف لإنجاز وتشهيل ما يلزم أعماله بحالة اللزوم أو قد لا يوجد من يدرى فى بعض الصناعة دون الأخرى فلأجل تسهيل الأمر فى ذلك ووجوب انتشار الصنايع بتلك الجهة وتعلماتها لأهليته ونوال انتفاعهم بها قد سمحت الإرادة السنية بأن من يتوجهون إلى تلك الجهات من أرباب الصنايع بحسب ضرورة تفرض لهم الماهيات أو الأجر الكافية الزايدة عما يكتسبوه خلافهم من الفريق لا يتوجهوا وهذا مراعاة لعدم تضررهم وموجب لجذب قلوبهم فى تلك الجهات بحيث إنه يتوجههم بآلات عددهم يتفرقوا على المحطات التى تجعل مراكز للعسكر والضباط لأجل أن يجرون عمليات صنايعهم فى المبانى وآلات الزراعة التى تجرى هناك وتلك العمليات وساير مصاريفها تكون من طرف الميرى حتى تتجدد حركة الأخذ والعطا منهم وهذا مع استيلاف وتشويق الأهالى فى دخول من يرغبون دخولهم من أولادهم للتعليم وتعاطى مشغولات تلك الصنايع وإرشادهم إليها بالرفق والترغيب لأجل سعة استعمالها واشتغالهم فيما يوجب أمور تكسبهم حسبما سلف الذكر ولأجل إقدام الأهالى فى تعليم أولادهم وانتفاعهم فكل من دخل من أولاد الأهالى بتلك الصنايع يتخصص له قد ما يناسب تقديره له من الماهية أو اليومية ويتلاحظ حسن التعليم بمعرفة من يعمل من أرباب الصنايع ولأجل ألا يهمل أمر سرعة تعليمهم بقدر الطاقة بمعرفة المعلمين فكذا لا يأس من تقدير جعل معين للمعلمين يتقدر على تعليم النفر الواحد فى الصناعة الواحدة مكافأة له لإتقانه إلى التعليم وعند ظهور استوفى التعليم لأى نفر كان بالصناعة التى يتعلمها وامتحان وظهور استعداده يصرف للمعلم مال يكون سبق تقديره له ثم ومن يتعلم من أولاد الأهالى يستعمل فى تشغيل صناعة ويعان من طرف الحكومة بما يثبت أقدامه لرسوخ الاشتغال فى تلك الصناعة حتى يتمكن انهماكه فيها ورواج حال معيشته منها .

البند العاشر

من حيث إن تعليم من يمكن تعليمه من أهالى هناك بلسان العربى والتكلم به هو من أحسن الأسباب الموصلة إلى المقصود وهذا التعليم يكون لأطفالهم أقرب وأنجح وأقربه ما كان بواسطته تعليم القراءة والكتابة فلا بأس من إرسال ما يمكن إرساله من الخوجات زيادة على

أمام لأورطة لأجل أن يتفرقوا فى المحطات ويعلموا الأطفال القراءة والكتابة بالعربى بقدر ما يلائم أحوالهم وتعمل الماهيات والتعيينات الكافية إلى الخوجات والأطفال وكل من تعلم وظهرت براعته فى ذلك يصير مكافأته ومكافأة خوجته بقدر ما يبعث فيهم زيادة الرغبة فى التعليم والتعلم .

دفتر رقم ٥٧٧ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية ٧ ص ٣٩ بند ديوان المدارس

بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٥ ورد فى ٧ منه

من ديوان المدارس إلى المعية السنية

يشير إلى الإفادة الواردة من ناظر المبتديان بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٨٥ المذكور بها أن مائة نفر من التلاميذ السودانيين بالمدرسة المذكورة بعضهم مسنون وأغبياء الذهن وبعضهم أحداث وذوى عاهات وليس فى بقائهم بالمدرسة إلى الوقت الحالى أية فائدة كما أنهم ليس من المأمول أن يتقدموا فى العلوم ويستأذن فى إرسالهم إلى الجهادية لاستخدامهم فى خدمات تتناسب وحالتهم .

كتب له أمر فى ١٠ محرم سنة ٨٥

دفتر رقم ٥٧٣ معية تركى

ترجمة الأمر الكريم ٦ ص ٦٣ بتاريخ ١٠ محرم سنة ١٢٨٥

من الجناب العالى إلى ناظر المبتديان

قد أطلعنا على كتابكم المؤرخ ٦ محرم سنة ١٢٨٥ رقم ٧ الوارد إلى معيتنا الذى جاء فيه أنكم رأيتم من المناسب إرسال مائة نفر من التلاميذ السودانيين الموجودين بمدرسة المبتديان إلى الجهادية على أن يستخدموا فى الخدمات التى تتناسب أحوالهم نظرا لعدم حصول فائدة ما لغاية الآن من اقامتهم فى تلك المدرسة لكون بعضهم كباراً فى السن وبعضهم أغبياء وبعضهم

صغارا فى السن ومعلولين ولعدم إمكان حصول ثمرة ما من إبقائهم فى تلك المدرسة من بعد الآن .

وبما أن إدخال مثل هؤلاء الأنفار المعلولين إلى الجهادية ليس موافقًا فقد رأينا أن إرسالهم إلى فرقة التلاميذ الذين يتعلمون الحرف والصناعات بدلاً من إرسالهم إلى الجهادية سيكون أنسب لهم . وعليه فقد أصدرنا أمرنا هذا إليكم للعمل كذلك .

حاشية : يجب إرسال المعلولين كما هو مذكور فى أمرنا إلى فرقة الحرف والصناعات كما يجب إرسال صحاح البنية والأغبياء من المائة نفر المذكورين إلى ديوان الجهادية حسب ما رأيتم .

محفظة رقم ٤٦ معية تركى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٠ بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦

من . جعفر حكمدار السودان إلى . مهردار الحضرة الخديوية

حضرة صاحب السعادة مهردار الحضر الخديوية :

تفتقر الأقطار السودانية إلى السلك الدينى والتقدم الفقهى لانعدامه فيها كما أنه لا يوجد فيها طلبة علم يليقون لوظائف القضاء والنيابة والإمامة ونشأ من عدم الالتفات إلى هذا السلك فيما مضى ومن عدم إعارته الاهتمام الواجب أن أكثر أهالى السودان إلى وقتنا هذا لم يتمكنوا من تصحيح ديانتهم وشرائعهم ولما كانوا لا يرجحون كفة الدين على الملاعب والملاهى غير المشكورة أصبح من المتعذر وجود قضاة ونواب وواعظين ومدرسين ومن العسير إحضار مثل أولئك المدرسين والعلماء من مصر بمرتبات قليلة وقد تمكنا بكل صعوبة من إيجاد ثلاثة فقهاء لتعليم أصول الدين وتلقين الإسلام إلى أهالى سبعة حلل من أهالى جبل الداير أحد جبال كردفان الذين تشرفوا بشرف الإسلام فى هذه السنة المباركة فى ظل الحضرة الخديوية وإرسالهم إلى تلك المنطقة ولا ينقطع ورود نفوس كثيرة من سكان الجبال المتوحشة الموجودة فى جهة البحر الأبيض للتشرف بشرف الإسلام وإزاء ذلك نرى لزاما علينا نحيل البصر إلى الطريق الدينى وقد

كان المتبع فى العهد القديم صرف مرتبات ومؤنة إلى بعض الجهلة من الفقهاء فى سبيل التقدم العلمى وكانت تصرف إليهم شهريًا ونظرًا لأن أكثر أصحاب المرتبات جهلاء فإنهم استحقوا تلك المرتبات بالشهادات الكاذبة واغتالوا المرتبات المنصرفة إليهم وإلى طلبتهم بدون وجه حق فأصبحوا بدون طلبة لأنهم لم يصرفوا شيئًا من تلك المبالغ فى تعليم الطلبة ولو وجد لدى البعض منهم طلابًا فأنهم لا يزيدون عن بضعة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة إلى العاشرة وهؤلاء يتركون المكتب قبل أن يكملوا قراءة جزء عم ويذهبون للعمل كرعاة جمال أو مزارعين . لذلك التمس إعطائى تصريحًا لأقوم بالتفتيش على أعمالهم والبحث فى مؤهلاتهم العلمية وقطع مرتبات من لا علم لهم ونقلها إلى من يفوقونهم لأنى أخاف أن يزعجوا المعية بشكواهم الكثيرة بدعوى أن الحكمدار قطع عنهم إحسانات ولى النعم الجارية عليهم منذ سنين عدة بموجب أوامر عالية ويجب انتخاب مدرس بعد الامتحان علاوة على المرتب القديم لكل من بربر ودنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وكردفان وفاشورة وربط مرتب لهم من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قرش شهريًا وصرف مؤونة من الذرة من إردب إلى ثلاثة وتحديد عدد الطلبة لكل معلم وإعفاء الطلبة من دفع الضرائب والأموال والمطلوبات الأميرية الأخرى إذا ما تركوا الاشتغال بالزراعة والتجارة وتعيين أحد العلماء المبرزين فى الخرطوم بعد امتحانه ليكون ناظرًا وملاحظًا على الجميع بعنوان شيخ العلماء وإعطائه مرتبًا قدره ٥٠٠ قرش شهريًا وثلاثة أرادب من الأذرة وتعيين أحد الفقهاء المتقدمين ليكون قارئًا وحافظًا بعنوان شيخ الفقهاء بمرتب قدره ٢٠٠ قرش شهريًا وأردبين من الذرة .

فإذا وافق الجناب العالى على ذلك التمس استصدار الأمر العالى اللازم لذلك .

نمرة ١٩ فى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦

حكمدار السودان
نور أظهر - عبده جعفر

يا صاحب السعادة

قد بادرت إلى كتابة هذه الحاشية ليكون فى علمكم أن المصاريف التى ستضاف فى سبيل تقوية السلك العلمى ستسدد من الوفورات الأجرى على شرط عدم حصول عجز فى الميزانية الخاصة بمالية السودان لغرض ذلك .

نور أظهر - عبده جعفر

دفتر رقم ١٨٣٩ معية عربي قيد وارد العرضحالات

صورة المكاتبة العربية رقم ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧

جواب يذكر أنه الآن جارى تقدم تلامذة المدارس الأميرية الموجودة بمراكز مديريات السودان فى تعليم فن الكتابة والقراية وأخذ منهم جملة تلاميذ البعض تخصص لتعليم فن التلغراف والبعض استحصل على فن الكتابة بالدواوين والبعض جارى تعليم فن الهندسة وبما أن خوجات المدارس ونظارها فى أغلب الأوقات بعرضوا بالتماس مكافأتهم على خدماتهم وهو (الحمدار) بوعدهم بما يزيد ترغيبهم وتشويقهم لزيادة التفاهم لتعليم التلامذة ولكون جميع الخوجات مرتب لهم ماهية مكفى شهرى لكل منهم ٢٥٠ قرشاً والنظار موجود فيهم لغاية خمسمائة غرش والجميع مستحقين الزيادة فيروم أنعرش للأعتاب السنية عن علاوة تبنى على استحقاق الخوجات من ثلاثماية غرش لغاية خمسمائة غرش بحسب استعداد ووظايف كل منهم ومائة غرش على ماهيات النظار أيضا مع ترتيب إردب ذرة واحد مأونة لكل من الخوجات والنظار فكلما يصدر به النطق الكريم يفاد عنه للأجرى بموجبه وفى طيه اعتراضين مقدمين من خوجات وناظر مدرسة الخرطوم فى هذا الخصوص لمناظرتهم .

دفتر رقم ١٩٣٣ أوامر عربي

صورة الأمر الكريم رقم ٢ ص ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الأخر سنة ١٢٨٧

من الجناب العالى إلى حكمدار السودان

أمر منطوقه قد علم لدينا من إفادة سعادتكم المؤرخة ١٤ ربيع الأول سنة ٨٧ نمرة ١ أن تلاميذ المدارس الأميرية التى بمراكز مديريات السودان تقدموا فى الكتابة والقراءة حتى إن بعضهم الحق بعملية التلغراف والبعض استحصل على الكتابة الديوانية . والبعض جارى تعليمه فن الهندسة ولمناسبة أن الماهيات المرتبة لكل من الخوجات ـ مائتان وخمسون قرشًا مكفى والنظار فيهم لغاية خمسمائة قرش وتكرر منهم التماس مكافأتهم على خدماتهم فلهذا وكونهم الجميع يستحقوا الزيادة فقد أوعدتهم بها واستحسنتم أن تكون العلاوة للخوجات من ثلاثمائة قرش لغاية خمسمائة قرش بحسب استعداد ووظايف كل منهم ومائة قرش على ماهيات النظار

وإردب واحد ذرة لكل من الخوجات والنظار لبذل مجهودهم والتفاتهم لأداء وظايفهم لآخر ما في الإفادة وقد حصل لنا غاية الممنونية من تقدم أولئك التلامذة لما يستلزم على هذا من انتشار المعارف بالجهات السودانية وانتظام أهاليها في سلك التمدن كما هو أقصى آمال الحضرة الخديوية . وعلمنا أن هذا ناشئ عن حسن مساعيكم الخيرية . وبذل مجهود الخواجات في حركة التعليم وقيام النظار بأداء واجبات الضبط والربط وحيث إنهم بهذا صاروا يستحقوا المكافأة على حسن صنيعهم فقد وافق لدينا ما استحسنتموه من علاوة المائة قرش شهري على ماهية كل من النظار واجعال ماهية الخوجات من ثلاثمائة قرش إلى خمسمائة قرش بحسبما تروه في استعداد كل منهم ووظيفته مع - ترتيب وصرف الإردب ذرة في كل شهر لكل من النظار والخوجات المذكورين ومع هذا يصير تفهيمهم بأننا مسروورون من قبلهم وأنهم إذا استداموا على ما هم عليه من حالة الاجتهاد وصرف الأفكار في التعليمات مازال تحصل لهم المكافأة وحسن الالتفات ولهذا لزم إصداره لسعادتكم للمعلومية والأجرى كما ذكر .

من الإسكندرية

محفظة ٤٧ معية تركي

ترجمة الوثيقة المكاتبة التركية رقم ٦٥٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧

من حكمدار السودان إلى مهردار خديو

حضرة صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية

إن تلاميذ مدارس المبتديان «الابتدائية» المنشأة في الخرطوم وبربر ودنقلة منذ سنتين أو ثلاث سنوات قد تقدموا في القراءة والكتابة بعون العناية الربانية وببركة أنفاس الحضرة الخديوية وقد أخذنا منهم فريقا بلغوا سن الرشد لتعليمهم فن التلغراف فأكملوا التعليم في مدة ثلاثة شهور ورتبوا على درجات ثلاثة . تلغرافجي أول وثان وثالث ثم استخدموا بالفعل في المحطات وقد أخذنا أيضا عشرين نفراً منهم بعد أن يتعلموا الهندسة ومبادئ الحساب في بضعة شهور سيوزعون على البواخر لتعلم فن هندسة البواخر بسبب أنهم في مصر لا يلحقون بالبواخر موظفون بدلاً من الذين ينقصون منها ومع أن الأطباء في السودان قلة والموجودين منهم أصبحوا

عاجزين وأشرفوا على الكهولة فقد كنا طلبنا نحو عشرة أطباء من رتبة اليوزباشى والملازم لمساعدة أولئك الأطباء إلا أن مجلس الصحة لم يصرح بإعطاء هذا العدد القليل من الأطباء وتذرع ببعض الكشوف والملاحظات ولذلك أخذنا عشرين تلميذاً لتعلم علمى الطب والصيدلة أسوة بالتلاميذ الذين يخصصون لتعليم العلوم والصناعات الأخرى خصوصًا وأن الصاغ الطبيب محمد سكرى أفندى طبيب المستشفى العام بالخرطوم المتخرج من فرنسا قد تعهد بتعليم هؤلاء التلاميذ يوميًا وتدريس كتب الطب الإفرنجية والغربية لهم تعليمًا جيدًا فى مدة وجيزة وقد شهد الأطباء الموجودين هنا بكفايته التامة لهذا العمل وبما أنه انقضت عليه مدة طويلة تربو على العشرين سنة وهو برتبة الصاغ فإنه يلتمس دائمًا ـ الأنعام عليه برتبة البكباشى من مراحم الحضرة الخديوية والجميع يشهدون باستحقاقه للرتبة المذكورة وفى حالة موافقة ذلك للرأى العالى فإن من أخص آمالى أن تتفضلوا فتعرضوا على الأعتاب السنية الإنعام على المذكور برتبة البكباشى تشجيعًا له . يا صاحب السعادة . قد أرسلنا طى هذا عريضة لضابط برتبة الصاغ لأجل أربع بلوكات للجنود المحافظين لإجراء اللازم .

خاتم
حكمدار السودان
«نور أظهر عبده جعفر»

دفتر رقم ٥٨٤ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢ ص ٥٨ بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٧ (١٦ يناير سنة ١٨٧١)

من المعية السنية   إلى حكمدار السودان

قد وردت افادتكم المؤرخة ١٩ شعبان نمرة ١ تقترحون فيها انتخاب عشرين تلميذًا يختارون من تلامذة المدارس هناك وإيفادهم إلى مصر ليتعلموا فنى الطبابة والصيدلة وذلك بناء على ندرة الأطباء فى بلاد السودان .

ولما عرض مقترح سعادتكم على السدة العلية صدر النطق الكريم بأن الأطباء والصيادلة الذين يوكل إليهم الشئون الصحية يجب أن يكونوا صادقين ومهرة فى فنهم وغير خاف على

سعادتكم أنه لا يمكن تخريج أطباء أكفاء فى مدة وجيزة وأن الأطباء المحتاج إليهم فى السودان على وشك الانتخاب والإيفاد من قبل ديوان الداخلية .

وأما التماسكم الخاص بترقية أحمد سعد أفندى إلى رتبة الصاغ فقد وافق الإرادة السنية ورقى المومى إليه إلى تلك الرتبة . وقد أرسلت عريضة على هذا مزدانا عاليها بالتصديق العالى .

صورة الإفادة الواردة للحكمدارية من حضرة رئيس مجلس الصحة بالمحروسة -

رقم ٩ بتاريخ ٢٠ شوال سنة ٨٧ «مرفق المكاتبة رقم ٨٧٤»

أنه بحسب مقتضيات مصلحة الصحة العمومية ولزوم تكميل الإيضاحات الموجودة بالمحل لاعتمادها فى كشوفات المولودين والمتوفيين شهرى فى تاريخ دور عمومى لكافة الجهات عن تحرير كشفو بتعداد الأهالى بما فيه تعداد النساء والأطفال والأجانب وبالجملة لمديريات جهات السودان الموضح بيانها أعلاه عن تحرير الكشوف المطلوبة بمقدار تعداد الأهالى بما فيه تعداد النساء والأطفال ويضاف عليهم تعداد الأجانب الموجودة وترسل لهنا لأجرى مقتضاها ولزم تحريره - لسعادتكم بقصد التأكيد على المديريات المذكورة بسرعة تحرير الكشوفة اللازمة بوجه ما توضح آنفا وتقديمها إلى المجلس لأجرى المقتضى نحوها لضرورة لزومه أفندم .

محفظة ٤٧ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٨٧٤ بتاريخ غاية الحجة سنة ١٢٨٧

من حمدار السودان   إلى مهردار خديو

حضرة صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية .

وردت إفادتكم المالية رقم ٣ بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٧ المتضمنة أنه لدى عرض عريضتنا رقم ١ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ الخاصة بالتماس الموافقة على انتخاب ٢٠ تلميذاً من التلاميذ الموجودين هنا وتعليمهم علم الطب بسبب قلة الأطباء فى السودان على السدة السنية صدر الأمر الكريم بأن الأطباء والصيادلة اللازمين للشئون الصحية فى السودان سينتخبون من نظارة الداخلية لأن الواجب والأهم هم تسليم شئون الأمور - الصحية إلى أطباء ماهرين وأن

التلاميذ لا يمكن أن ينشئوا فى مدة قليلة . وقد أحطنا علما بأن الأطباء والصيادلة سيجرى انتخابهم وإرسالهم بواسطة نظارة الداخلية وقد وردت فى أثناء ذلك مكاتبة عربية رقم ٩ بتاريخ ٢٠ شوال سنة ٨٧ من مجلس الصحة إلى الحكمدارية وستعلمون من الإطلاع على الصورة المرفقة أن مجلس الصحة يريد معاملة الأقطار السودانية كالأقطار المصرية على قدم المساواة من وجهة الشئون الصحية ويريدنا أن نقوم بعمل إحصاء للنفوس وقيد المواليد والوفيات فى كل محل مع أنه يحصل إلى وقتنا هذا أن عمل أحصاء للنفوس أو قيد المواليد والوفيات وليس فى الإمكان عمل ذلك لأن السودان أكبر من القطر المصرى إضعافًا من جهة مساحة الأراضى وعدد السكان ولا يوجد فى كل بقعة منها حكام وأطباء ، بل الأمر مقصور على وجود طبيب كهل فى عاصمة كل مديرية ومن الأمور الواضحة أنه ليس فى استطاعة طبيب واحد موجود فى كل مديرية أن يتطلع بأعباء عملية الكشف على القتلى فى النواحى والبلدان والأقسام وقيد المواليد والوفيات وحصرهم وإجراء عملية التلقيح ضد الجدرى التى هى بصفة خاصة تعتبر فى كل مملكة من الفرائض الواجبة وإجراء غير ذلك من الشئون الصحية وهذا أمر معلوم لمجلس الصحة وعليه فإن كانت هذه الإجراءات الجديدة التى يتطلبها مجلس الصحة مطلوب إجراؤها بموجب أمر عال فإنه يجب إمعان الفكر وشحذ القريحة والتأمل كثيرًا فى إجراء ذلك وإخراجه من حيز الفكر إلى حيز العمل ويجب فى مبدأ الأمر إقامة جنود كثيرين وتعيين حكام وموظفين بكثرة بالقدر الكافى فى كل قسم وجبل وقبيلة وبدنه فى السودان وترتيب وتخصيص أطباء وصيادلة كثيرين أما فى حالة الموافقة على تأجيل هذا المشروع الخطير فى الوقت الحاضر فالمأمول أن يكون الأطباء المقرر انتخابهم بواسطة نظارة الداخلية أكفاء وكافية وأما بالنسبة لمسألة التلقيح ضد الجدرى فقد ظهر مما حصل عليه التلاميذ السودانيين الجارى تعليمهم هنا فى مدة الشهرين الماضيين أنهم سيمكنهم أن يتعلموا مبادئ الطب وكيفية عمل التلقيح بالتحام فى مدة وجيزة قد لا تزيد فى كل حال على سنة واحدة والأمر لمولانا .

خاتم

حكمدار السودان

«نور أظهر عبده جعفر»

جواب رقم ٤ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨

ص ٥٢ من الدفتر رقم ١٨٥٩ من دفتر قيد الإفادات الواردة من الأقاليم والمحافظات

بنمرة عموم بديوان المعية السنية من عموم دنقلة وبربر إلى المعية السنية

جواب رد الأمر الكريم الصادر له فى ١٥ رجب سنة ١٢٨٨ عن ترتيب أربعة بلوكات بالمديرية يذكر أنه بوصوله إلى مركز المديرية وجد بلوكتين موجودين بمديرية بربر ودنقلة فيها بلد واحد وعلى مقتضى الأمر أجرى نشو البلد الرابع من أولاد العساكر الجهادية الموجودين بدنقلة لما فيهم ٥٥ نفر صار فرارهم من المدرسة لأنه بتفقد التلاميذ الموجودين فيها وجد من ضمنهم تلامذة تقدموا فى السن من عشرين سنة لغاية ثلاثين ولا يفهمون شىء فى النحو والصرف والتركى وفقط يفهمون شىء قليل فى العربى وأسباب ذلك عدم التفات الخوجة التركى الذى هو ناظر المدرسة المرتب له ألف غرش ومشغوليته فى صيد السمك وغيره ولذلك صار إدخالهم فى الجهادية . وأما التلامذة الصغيرين صار إبقاؤهم بالمدرسة وتأكد على الخوجات بتعليمهم . كما أن الخوجة التركى الموجود بمدرسة بربر المربوط له شهرى ألف غرش ليس حاصل منه ثمرة فى التعليم ومراراً يتنبه عليه بالالتفات ولم يحصل ثمرة فالأوفق أن يصير الاستغنى عن الاثنين خوجات المذكورين والاكتفى بالعربى ومعلمين القرآن . فإن وافق ذلك يفاد وإلا يرسل له اثنين بدلهم من الذين يؤمل فيهم تعليم التلامذة أو ما يوافق يفاد عنه .

دفتر رقم ١٨٥٣ معية عربى ص ١٠

الوثيقة رقم ٣ بتاريخ ٢١ من ذى القعدة سنة ١٢٨٨

من المعية إلى عموم دنقلة وبربر

جواب بختم سعادة مهردار خديو صورته وردت إفادة حضرتكم رقم ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨ نمرة ٤ بحاصل ما أجريتموه عن تشكيل ملك رابع بناء على الأمر العالى السابق صدوره عن ترتيب أربعة بلوكات جهادية بدنقلة وبربر ومن ضمن ما بها أوضحتوا بأن خوجات التركى بمدرستى دنقلة وبربر غير حاصل منهم ثمرة فى تعلم التلامذة ولا الالتفات لذلك ويرغبوا إما إرسال اثنين بدلهم أو الاستغنى عنهم بالخوجات العربى المخصصين لتعليم النحو والصرف ومعلمين القرآن لآخر ما ذكرتموه . عرض

فضلاً للأعتاب السنية فصدر النطق العالى بعدم الاقتضى لتعليم اللغة التركية للتلامذة المحكى عنهم اكتفاء بتعليمهم مبادئ النحو والحساب فقط وأنه لا هناك لزوم للاثنين خوجات التركى الموجودين هناك والحالة هذه بناء عليه اقتضى تحريره لحضرتكم للأجرى حسب الإرادة السنية .

دفتر رقم ١٨٥٩ معية عربى

صورة المكاتبة التركية رقم ١٨ ص ٥٠ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٨٨

من مدير عموم قبلى السودان   إلى المعية السنية

جواب يذكر أنه لمناسبة لزوم جملة ماكينات ودواليب ومكابس بجهات عموم قبلى السودان للمشروع الجارى فى اتساع زراعة الأقطان ولزوم جملة مهندسين ميكانيكية لتركيبهم وادارتهم والمهندسين الذين بيحضروا من المحروسة بيتوفوا بأسباب تغيير الأهوية فإن استصوب فرز مائة شبان من الأهالى إن كانوا من تلامذة مدرسة الخرطوم أو من أولاد العساكر وخلافهم ويرسلوا إلى المحروسة لتعليمهم بمدارس العمليات الميكانيكية والزراعية وبعد تمام تعليمهم يرسلوا للسودان لتوزيعهم فى محلات اللزوم والاستغنى منهم عن من يحضر من المحروسة يفاد .

دفتر رقم ١٨٥٣ معية عربى

صورة المكاتبة العربية رقم ٧ ص ٣٤ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨

من المعية السنية   إلى سعادة ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان

جواب بختم سعادة مهردار خديو صورته

بإفادة سعادتكم رقيمه ١٣ شوال سنة ١٢٨٨ نمرة ١٨ يرام الاستئذان من الأعتاب السنية عن فرز مائة نفر من شبان أهالى جهة طرفكم سواء كان من تلامذة مدرسة الخرطوم أو من أولاد العساكر وخلافهم وإرسالهم لهذا الطرف لتعليمهم فى مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية وإعادتهم لطرفكم للانتفاع بهم والاستغنى عن طلب مهندسين من هذا الطرف للمناسبات التى توضحت عن ذلك . وحيث إنه بالعرض عما ذكر للأعتاب الكريمة صدر النطق العالى بموافقة ما رأيتموه سعادتكم وأنه لا مانع من إرسال المائة نفر المحكى عنهم إلى الداخلية من الشبان المنظور فيهم القابلية للتعليم ويؤمل النجابة لأجل أنه بمعرفتها يجرى توزيعهم على

المدارس المذكورة للتعليم على وجه ما توضح فبناء عليه لزم تحبيره لسعادتكم بتبليغ ما تعلقت به الإرادة السنية للأجرى بموجبه وبتاريخه تحرر للداخلية أيضًا بما ذكر .

من عابدين

دفتر رقم ١٨٥٢ معية تركى

صورة المكاتبة العربية رقم ١٩ ص٨٣

بتاريخ ٢٥ من ذى الحجة سنة ١٢٨٨

من . المعية السنية   إلى . ديوان الداخلية بختم سعادة مهردار خديو

جواب صورته حضرة الباشا مدير عموم قبلى السودان أرسل لهنا مكاتبة رقم ١٣ شوال سنة ١٢٨٨ نمرة ١٨ يستأذن بها عن إرسال مائة نفر من شبان أهالى جهة طرفه إلى هنا لتعليمهم فى مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية . وإعادتهم للانتفاع بهم هناك والاستغنى عن طلب مهندسين من هذا الطرف لمناسبة ما يحصل لهم من التمرض والوفاة ويعرض تفصيلات ما اشتملت عليه تلك المكاتبة للأعتاب السنية صدر المنطق العالى بموافقة الأجرى كما ذكر . وأنه بحضور أولئك الأنفار يصير توزيعهم بمعرفة الداخلية على المدارس لتعليمهم على وجه ما توضح وبناء عليه قد كتب فى تاريخه لحضرة المدير المومى إليه بفرز وإرسال المائة نفر المحكى عنهم من الشبان الذين يؤمل فيهم قابلية التعليم والنجابة وإبعاثهم للداخلية ولزم تحرير هذا لسعادتكم للمعلومية بما تعلقت به الإرادة السنية وعند حضور أولئك الأنفار يجرى إلحاقهم بالمدارس للتعليم حسبما مر توضيحه أفندم .

من عابدين

دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى

صورة الأمر الكريم رقم ٦ ص ٣٩

أمر كريم

إلى مدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر .

أمر كريم منطوقه حيث إنه موجود فى سواكن مسجد متخرب لازم له عمارة كما أنه مقتضى أعمال ثلاثة مكاتب لتربية وتعليم الأطفال أحدهم فى سواكن . الثانى فى مصوع

والثالث فى بوغوص وأعمال جامع صقر مستقل فى جهة بوغوص وتعمير الكنيسة الموجودة بتلك الجهة أيضا فيقتضى المبادرة بأجرى هذه العمليات حسب لزومها وصرف تكاليفها من النقود والتى أعطيت لكم فى هذه الدفعة بدون مدخل لإيراد جهة طرفكم وأصدرنا أمرنا هذا لكم للأجرى بموجبه كما اقتضى إرادتنا .

حاشية . النقود التى أعطيت إليكم فى هذه الدفعة هى مبلغ خمسة آلاف ليرة إنكليزى فلزم التحشية ليكون معلوم .

٢٨ من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ عابدين

دفتر رقم ١٦

صورة المكاتبة رقم ٤٤٢ من المجلس (بختم سعادة المستشار)

إلى المالية فى ٩ محرم سنة ١٢٩٠ .

جواب صورته تقدم ورد إفادة من المعية السنية رقم ١٦ شوال سنة ١٢٨٨ نمرة ٢٢ ومعها جدول يشتمل على ترتيب ماهيات الخدم الذى استنسب ترتيبهم حضرة مدير التاكا والمعاشات والتعيينات والملبوسات .

صدرت إفادة من المعية رقم ٢٢ صفر سنة ١٢٨٩ نمرة ٤٦ بأنه صدر الأمر العالى للمدير المومى إليه بعلاوة مائتى قرش على ماهية الشيخ أحمد حجاج شيخ القارئين ولإبلاغ ماهيته شهرى خمسمائة قرش وترتيب خمسمائة قرش أيضًا إلى الشيخ محمد العنبل وثلاثمائة قرش إلى الشيخ البخيت على النيل مشايخ قسم بنى عامر وأن يجرى علاوة ذلك بالترتيب .

دفتر رقم ١٨٦٤ معية

صورة المكاتبة العربية رقم ٢٥ ص ١١٥

بتاريخ ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٩٠

من . شرقى السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر إلى . المعية السنية

جواب يذكر أنه لما صدر الأمر العالى بمنع مبيع الرقيق وعدم مروره من جهة إلى أخرى كتب لجهات الإدارة بالأجرى حسب منطوق الأمر المشار إليه . وقد جرى ضبط ٢٢ نفر بجهة سواكن

و٣٠ نفر بجهة مصوع و١٥٠ نفر بجهة مديرية التاكة والموافق منهم للعسكرية صار إلحاقه بها والإناث صار تزويجهم للعساكر والذين عمرهم أقل من عشرة سنين ذكور وإناث جارى أعمال مدرسة لتعليمهم وصار منع مرور ومبيع الرقيق بالكلية . وبلغه أنه كان محضر من جهة الحبش ثلاثة قوافل رقيق ولما تبالغ لهم ضبطه وعدم مرور هذا توقفه القوافل قدر شهر لظنهم أنه يمكن المرور فيما بعد ولما تأكد بطرفهم منعه بالكلية أجروا تصريفه جهة الحبش مثل عدوة وجهاتها بأقل قيمة إنما جهات السواحل متسعة ويلزم لذلك مركب مخصوص لأجل المرور على جميع السواحل كما سبق العرض منه .

(ملحوظة) حفظ حيث تعين وابور صغير من مصلحة الليمانات والفنارات وتحرر إلى سعادة قومندان الوابورات المعين بالسويس فى ١٨ شوال سنة ١٢٩٠ نمرة ٢٩ بإرساله إلى منسنجر بك .

دفتر رقم ١٨٧٥ معية عربى

صورة المكاتبة رقم ٦٥ ص ٣ بتاريخ رجب سنة ١٢٩٠

من عموم قبلى السودان   إلى المعية السنية

جواب يذكر أن ستة أشخاص أعجام متغيبون بالخرطوم من مدة جعفر باشا الحكمدار سابقًا ولم يبرحوا لجهة أخرى منهم أربعة أشخاص لهم صرف يتعايشون منها والاثنان الآخران لم لهم تكسب يتعايشا منه أحدهما اسمه الشيخ على من أهل العلم وذى معرفة فى الخط والثانى يسمى ميرزا حسين على معلومية وحظه موافق ، والاثنان مستقيمان الأحوال ومن عهد حضورهم لم حصل منهما شىء مخالف وملتمسين استخدامهما لتعليم التلامذة الخط لأجل تعيشهم كونهما فقرا جداً ولمناسبة أنه لم يوجد من يحسن الخط مثلهما فإذا ربط لكل منهما ٢٥٠ قرشًا شهريًا إحسانًا ويجروا تعليم تلامذة المدرسة الخط يكون ذلك باعث لتعليم التلامذة ويكون أحدهما بالخرطوم والثانى بمدرسة سنار . وراسل خطهما الاثنين مع هذا لأجل النظر والعرض للأعتاب السنية .

دفتر صادر الدواوين بديوان الداخلية

جزء أول من ابتدى ١٨ رجب سنة ١٢٩٠ نمرة ٢٩٠ ص ٤٣ رقم ١١

بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٠

من الداخلية إلى خيرى باشا

جواب صورته الأوراق والمقايسات والرسومات المرسولين طيه يتعلقوا بمادة بنا المدرستين اللازم إنشاؤهما بمصرع وسواكن وترتيب التلامذة والخوجات والخدمة الذين يكونون بهما إلى آخر ما ورد عنهم فى المكاتبات وكان من قلم الأشغال رقم ١٥ الجارى نمرة ٧ وحيث إن ما بهم مقتضى عرضه للأعتاب الخديوية فلزم تحريره لسعادتكم . إرسالهم عدد ١٣ من طيه لتقديم العرض عن ذلك للأعتاب السنية وبما يصدر به الأمر العالى يتبع أجراه .

دفتر رقم ١٩٤٨ أوامر عربي

صورة المكاتبة العربية رقم ٤ ص ٤ بتاريخ ١٧ شعبان سنة ١٢٩٠

من أمر كريم إلى عموم قبلى السودان

أمر كريم منطوقه قد علمنا من إنها كم نمرة ٦٥ أنه موجود بالخرطوم شخصان أعجام متغيبان من مدة أحدهما يدعى الشيخ على أهل علم وذو معرفة بالخط وثانيهما يسمى ميرزا حسين خطه موافق وعلى معلومية أيضا وبحسب لزوم تعيين خوجات بمدرستى الخرطوم وسنار لتعليم التلامذة حسن الخط وكون لما علم لهما ذلك التمسوا استخدامهما لأجل تعيشهما فلهذا وما تفهمون من استقامة أحوالهما تستأذنوا عن إلحاقهما بتلك المدرستين ويربط لكل منهما ماهية شهرى مايتين وخمسين غرش لآخر ما انهيتموه وحيث إن استئذانكم هذا قورن بمساعدتنا فلا بأس من استخدام هذين الشخصين بتلك المدرستين بالماهية التى استنسبتم قيدهم بها ولزم إصدار أمرنا هذا إليكم بما ذكر للأجرى بموجبه .

من عابدين

دفتر رقم ١٥٤٩ أوامر شفاهية

صورة المكاتبة العربية رقم ٤٢ ص١٣ بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٠

من سعادة خيرى باشا إلى المستشار بنظارة الداخلية

إنه لدى العرض للمسامع الزكية وردت به مكاتبة الداخلية رقم ٢٣ شعبان سنة ٩٠ نمرة ١١ والأوراق مرفوقها بشأن المدرستين المقتضى إنجازهما بصوع وسواكن فصدر النطق العالى بأن هذه المادة كان عرض عنها شفاها للأعتاب الكريمة من دولتلو الباشا ناظر الداخلية ومن سعادتكم وبمصادفة حضور جناب منسنجر بك وقتها حصلت المذاكرة معه فى هذا الخصوص والبك المومأ إليه أعرض شفاها عن إمكان أعمال المدرستين المذكورتين مهمات وأدوات تتيسر من تلك الجهات وفقط الذى يلزم إرساله من هذا الطرف هو صنف الكرستة لا غير وبناء على ذلك أعطيت له التنبيهات اللازمة من طرف الأعتاب السنية بما اقتضى عن هذا الخصوص وبوقتها صدر النطق السامى لدولتلوا الباشا ولسعادتكم أيضا بعدم الاقتضى للنظر فى الأوراق الموجودة بالداخلية المتعلقة بذلك وأن يجرى حفظها وبهذه الكيفية ما بقى هناك اقتضى لإعادة المذاكرة فى ذلك بناء عليه اقتضى تحريره لسعادتكم والرسم وإفادة الداخلية والمقايسة والأوراق مرسولين طيه للأجرى حسبما صدر النطق السامى قبلا عن ذلك .

دفتر رقم ١٨٧٠ معية عربى

صورة المكاتبة العربية رقم ٤٢ ص ٧٩ بتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩١

من المعية السنية إلى مصلحة السكة الحديد

جواب بختم سعادة مهردار الخديوى وردت للمعية السنية مكاتبة سعادتكم بتاريخ ١٠ صفر سنة ١٢٩١ نمرة ٥٦ المرغوب فيها استحصال صدور أوامر كريمة من إيجاد تعليمخانتين تغلراف إحداهن بالخرطوم والثانية بكسله ويؤخذ لهم تلامذة من مدارس هناك لتعليمهم فن التلغراف بالكيفية التى توضح عنها لأخذ ما يلزم منهم للتلغرافخانات المزمع استجدادها بجهات السودان أولى من الإرسال من هنا لآخر ما اشتملت عليه المكاتبة المثنى عنها عرضت تفصيلاته للمسامع الزكية فصدر النطق العالى بعدم استحسان ذلك وأنه يلزم تعليم التلامذة بهذا الطرف

وكل ما يلزم للجهات المذكورة يرسل إليهم بحسب المطلوب من التلامذة الذين يكونوا تمموا تعليماتهم وتمرنوا على الأشغال وصار فيهم استعداد كافى لإدارة أشغال التلغراف بناء عليه لزم تحريره لسعادتكم تبليغ الإرادة السنية أفندم .

من عابدين

صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية

إلى حكمدار السودان ص ٩ بتاريخ ٣ ربيع الثانى سنة ٩١

مقيد بدفتر ١٨٧١ معية ص ٦٩

جواب يذكر أنه ورد إفادة من حضرة سلامة بك باشمهندس التلغرافات بأنه ضرورى إيجاد تعليمخانتين تلغراف أحدهم بالخرطوم والثانية بكسله وأخذ تلامذة من مدارس هناك لتعليمهم فن التلغراف بمعرفة وكيل تلغراف كل جهة تحت ملاحظة مهندس القسم حسبما هو مبين بالبند الثانى من الفصل العاشر من نظامنا من التلغراف الصادر عليها الأمر العالى حتى بوجودهم يؤخذ منهم ما يلزم لكل تلغرافخانة من التلغرافات المزمع استجدادها بالجهات المذكورة لأجل الحصول على المنفعة العمومية فإن كان يوافق ذلك بالمعية السنية تصدر الأوامر لحكمدار السودان ومدير شرقى السودان لفتح التعليمخانتين المحكى عنهم وتعليم التلامذة منهم لأجل أخذ ما يلزم منهم عند الاحتياج أولى من الإرسال من المصلحة ويفاد .

الوقائع المصرية نمرة ٦١١

بتاريخ ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢/٢٠ يونية سنة ١٨٧٥م صفحة ٢

وردت إلينا إفادة من نظارة المالية السنية بناء على إفادة واردة إليها من حضرة عزتلو بك مدير مديرية بربر بالسودان وهى تتضمن أن حضرة ناظر مدرستها القائمة بدروسها العربية حرر نبذة مفيدة بهية بها يصف امتحان تلامذتها وما حصلوه فيها من الآداب والمعارف وما هم عليه من النجابة والمحافظة على اكتساب اللطائف وقد أرسلت فى طى الإفادة والمراد نشرها فى الوقائع المصرية حسب العادة ولا ريب أن مثلها مما تتشوف النفوس إليه ويحق أن تستزين به الطروس فإنها تنادى بلسانى والمقال هلموا إلى التقدمات واكتساب المعلومات وكيف هى بالمهمة المسلمية

الداورية وقد سرت إلى تلك الأقطار السودانية التي كانت فيها غير معروفة وها هي النبذة الموصوفة [illegible]

الحمد لله الذى مازال يحض عباده على فعل الخيرات ليعلم المجاهد والقاعد والصلاة والسلام على أفصح الفصحاء سيدنا محمد خاتم الرسل الأماجد وعلى آله وأصحابه الممتحنة قلوبهم للتقرى فى الرخاء والشدائد والحائزين قصبات السبق فى ميدان العوائد والفوائد وبعد فيقول راجي الفيض من رب المراحم الفقير إليه سبحانه وتعالى محمد أحمد هاشم الناظر والخواجة العربى بمدرسة مديرية بربر مازال مانوسا فى أرجائها فى أعز ناد ومحضر . إن من أحسن العوائد الجميلة والفوائد الخديوية الجليلة المنضدة فى جيد هذه الأزمان المقلدة بها نحور الولايات الحسان اختبار الباب تلامذة المدارس فى كل عام فى عهد هذا الخديو الجليل الذى بدا غرة في وجه الأيام أبقاه الله وأدامه وأحسن بتوفيقه نظامه وجمل الدنيا بكل وصف منه كامل تتحلي بسيرة حليته الأواخر والأوائل فإن اعتناءه بأنباء الأوطان حسن جميل وتربيته بهم بالآداب والمعارف في المدارس على رأفته بهم أقوى دليل ولا غرو أن تباهت بمثل هذه المآثر العصور والأعوام وتلألأت أنوارها التمدنية فى وجه جميع الأقطار بين كل الأنام حيث عمت شفقته جميع الأمصار والأوطان حتى فاضت على جميع بلاد السودان فنشأت فى رياض مدارسها الجواري والولدان وتمايل فيها كل على بساط الأنس تمايل التشوان منذ رباهم بالعلوم من مكارمه السمية وعواطفه الرحيمة الخديوية السنية حتى كادت هذه البلاد بما نالته من فيض مصر تقوم بجمع ما يرومه فيها من المصالح ولى الأمر خصوصا مدرسة كوره بربر البهية فأنها قد اشتملت على ذوى العقول الزكية الذين تغذوا بالمعارف والعلوم والآداب وانتظموا فى سلك النبلاء الأنجاب وانتخب منهم جماعة لمصلحة السكك وغيرها مما هو لازم لمصالح نظام الملك وكل ذلك إنما نانته بيمن سعادة خديويها على الهمم عزيز مصرنا مسنى الشيمة ولى النعم الذى من جملة آثاره العلمية الداورية انتخاب حضرة سعادتلو إسماعيل أيوب باشا للحكمدارية السودانية المنظم ممالكها أحسن تنظيم المتمم أحكام سياستها أى تتميم ومن الدليل على حسن تدابيره السياسية قهره بالسطوة الخديوية المملكة الدارفورية معضدا ساعده بالضبعة الهاشمية الزبيرية حين سطا على أهلها بأسور فى أيديهم المدافع والبنادق النارية وسيوف لامعة فيها الموت الأحمر لأنها مسقية بسموم المنية فوقع فيهم الرعب وتفرقوا شغريفر من غير تكره وردية وانتشروا

فى الجهات شذر مذر بحملة العسكر المصرية وصاروا كايدى سبا لا تؤويهم من الفيافى برية وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والإمدادات الإلهية بيد أن السعد خادم والنصير خاف بالحضرة الداورية التوفيقية والفخر والعز مقرونان بعسكر الجهاد الملحوظين بنظارة الضبعة الحسينية الكاملة وذلك مما يفتخر به بين الدول ويذكر أفعال الأبطال فى الوقائع الأول . ومن أجمل فوائد إحسانه وأعظم عوائد بره وامتنانه اجتماع مجلس امتحان فى هذه السنة هنا استنار بشموس الذوات والعظماء وأشرقت أرجاؤه بأنوار بدور السادة العلماء مشمول برعاية مولانا القاضى حين النيل المجدى الأجل ومذ استقر المجلس بأهله وانضم كل إلى جنسه وشكله آن وحابه وقت الامتحان لمعرفة ما أكسبه التلاميذ من الآداب والعلوم وما حصلوه من المنطوق والمفهوم فامتحنهم فى الكراسة وبعضها ذوو العرفان فكان أول متدم إليها تلميذ يدعى محمد حسين بركاره فسألوه فأجاد وأتى بالسداد على وفق المراد من بعد أن القى مقالة سنية تلقوها منه بكمال القبول وغاية الممنونية قال فيها ها نحن واقفون بين يديكم للامتحان داعين لحضرة جناب الخديو الأعظم صاحب الإحسان وحضرات أنجاله الكرام والذوات العظام والعلماء الأعلام شاكرين للمعلمين والملاحظين والمربين والحاضرين ثم أعقبها بقصيدة نونية من إنشائه مثنيا على ذلك الجناب العالى شاكراً لآلائه وها هى لتعلم درجة التعلم بتلك المدرسة وما فيها من التقدم .

أغرى الفؤاد شوارد الغزلان	من كل ريم مثل غصن البان
فطلبت حسن وصالها فتمنعت	وغدت تعاهدنى على الهجران
طفقت تحاورنى الكلام وتنثنى	عنى مصممة على السلوان
فدهشت بين دلالها وجمالها	لله حسن قد أذاب جنانى
حتى تبدى مغرما بفراقها	متوقدا من جمرة الحرمان
ان كان عادتك الصدود فمالنا	لا تكتفى بتواصل العرفان
لم ذا الجفا فينا ولم تتفضلى	مع أن هذا الفضل فى الإيوان
دام السرور بمحضر العلماء مع	كل الذوات وسائر الأعيان
إذ غردت ورق الفصاحة بالهنا	وترنم القمرى على الأفنان
والوقت زاد صفاؤه وبهاؤه	بحضور كل مبجل ذى شأن
والمرء أفضل كسبه بين الورى	علم يفوق به على الأقران

فالحمد لله الذى أجرى لنا　　أسبابه فى عهد ذى الإحسان
ذاك الخديوى من به مصر زهت　　واليوم باهت صائر الأوطان
وتمدنت أقطارها وبلادها　　بتعلم الفتيات والفتيان
فالبر عادته وعادة أصله　　والفخر شيمته مدى الأزمان
مولى أطاع جنوده ببراعة　　وفراسة تبدو على الفرسان
وتنوّرت كل الجهات بفضله　　وبعدله عمرت وحسن أمان
واليمن أقبل والسرور قرينه　　والسعد خادمه بكل مكان
والأنس بادر لائمًا أعتابه　　والبشر أثنى شاكرًا بلسان
أحيا العلوم جميعها بمدارس　　تزهو بما فيها من التبيان
وعيونه للواردين تقاطرت　　بمدارس السودان للظمآن
وببربر عمت معالمها لذا　　تاهت بمدرسة جناها دان
ألقاه رب العرش مع أنجاله　　بالنصر مقرونا وحسن تهانى
إذ ذلك التشريف من أمرائنا　　هو أصله لتبين الأذهان
بحضور أرباب الفضائل والعلا　　لاسيما القاضى بذا الديوان

ثم تتالت التلاميذ وكل منهم ينشد البيت أو البيتين فى مدح حضرة الجناب الخديو الكريم ومدراسة السمية فيسأل فى أعراب ذلك فيجيب بالأجوبة السديدة السنية فأول من تلا الأول حسين أحمد وأنشد :

لقد زانت مدارس بالعيان　　وباهى أهلها بالامتحان
فيا فخر الخديو عزيز مصر　　ببهجتها على طول الزمان

ثم تلاه حسين عبد الكريم وأنشد :

مدارس أشرقت بين البلاد　　بأنوار الخديو رى الأيادى
يدوم ممتعا فى كل عصر　　بأنجال سموا فوق المراد

ثم تلاه حسين عامر وأنشد :

لقد زان المدارس بالعلوم　　خديوينا المؤيد للفهوم
أدام الله كل الفخر فيه　　بأنجال علوا قوم النجوم

ثم تلاه رستم محمد رشدى وأنشد :

أدام الله فينا للخديو علا ما لاح برق فى الظلام

بتوفيق ينظم كل وقت مدارسه لطلاب الأنام

ثم تلاه محمود محمد وأنشد :

مدارس بربر أصحت تباهى بمدح للخديو عزيز مصر

فتدعو أن يدوم قرير عين بأنجال يفاخر كل فخر

ثم تلاه محمد أحمد وأنشد :

لقد زانت مدارس كل قطر بما نالته من فضل وفخر

فلازالت بفضل خديو مصر وبالأنجال تحوى كل بدر

ثم تلاه محمد محمد حسين وأنشد :

أدام ربى خديوى مصر ما سجت ورق المدارس فوق الماس الخضر

وما ترنم قمرى به طربا مفردا فوق غصن وأرق نضر

ثم تلاه عبد الرحمن محمد وأنشد :

لقد باهت مدارس فى البلاد بفضل للخديو على العباد

ثم تلاه عثمان محمد رشدى وأنشد :

ببربر قد بدا فضل الخديو بتنظيم المدارس والعلوم

ثم تلاه الشيخ أحمد عثمان وأنشد :

من الفضل الخديو بالتوالى لقد بدت المدارس فى جمال

يعيش الدهر مسرورًا يباهى بأنجال تساموا فى العضال

ثم تلاه عبد الرحمن سعد وأنشد :

بسودان علت من غير شك مدارس للخديو عزيز ملك

وقال أيضًا :

ببربر قد بدا فضل المدارس بفضل خديونا رب البنارس

وبالفراغ شكرهم جميع من حضروا وأثنوا على ما أتوا به من الفكر حيث وجدوهم ما بين معرب وحاسب وقارئ وفقيه وشاعر وعروضى ولكيب وكاتب . وحرروا جدولا بدرجاتهم الامتحانية وأرسل بتحقيقه ما أكتسبوه من الفنون إلى الحكمدارية فصدر أمرها بنقل عشرة تلامذة ممن برعوا إلى أقلامها لاستيفاء الأصول الخطابية والحسابية . ولما حضر الأمر بمديرية بربر صادف حلول ركاب مديرها ذى الجناب الأفخر المشهور له فى السياسة بالتدبير والسداد حضرة عزتلو مصطفى بيك مراد فزمر بترتيبهم لاكتساب التعليمات فأقيم حسين عبد الكريم ورستم محمد رشدى بالتحريرات وحسين عامر وعبد الرحمن محمد بورشة المال بالحسابات ومحمود محمد وعثمان محمد رشدى بورشة الاستحقاقات ومحمد أحمد بورشة مراجعة المساحات وتحرير الكشوفات وحسين أحمد بورشة قلم الإدارة العلية ومحمد محمد ثابت بورشة يومية المديرية وحسين محمد بركات بورشة المساحة التابعة لمصلحة المال . فهؤلاء عشرة تلاميذ نجباء ترتبوا فى مراتب الكمال والملاحظ زيادة تقدمهم فى مدة قليلة وترقيتهم إلى الدرجات العالية الجليلة حيث برعوا فى مدة ثلاث سنوات فى العلوم الأدبية لاسيما علم العربية ويشهد برقيهم فى هذه المدة من غير شك من تقدموا قبل ذلك من أقرانهم فى مصلحة السلك فالحمد لله على تمدن أبناء السودان بالهمم العالية الإسماعيلية وإمدادات النعم السنية الداورية وعلى الدوام يتزايد فى مدارسهم التقدم وحسن التعليم والتعلم وربما يستغنى بهم عن كلفة جلب كتاب مصريين حيث كانوا لأية وظيفة مستعدين ولاتزال على مر الأزمان والأيام تدعو للحضرة الخديوية فى المبدأ والختام حفظه الله وأدامه وبلغه مراده ومرامه آمين آمين بجاه الأمين صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم .

دفتر رقم ١٧ (معية عربى)

قيد وارد الإفادات من جهات الأقاليم والمحافظات والسايرة

صورة المكاتبة رقم ١٤ مرور ص١١٢

من حكمدار السودان إلى المعية السنية

جواب يذكر أن الثمانية والأربعين كاتب السابق الوعد عن إرسالهم من المحروسة إلى دارفور لم أرسلوا جميعاً والذى أرسل منهم غير لائق لأشغال الكتابة ولهذا يجيز على أخذ جملة كتبة

من الملحوقين بباقى مديريات السودان وألحقهم بالأشغال الضرورية بمديرية دارفور لحين الاستحصال على الكتبة اللازمين شىء من شىء والآن ورد له إفادة من الحكمدارية يطلب واحد وستين كاتب لمديرية الفاشر وخمسة وثلاثين كاتب لمديرية دامره لإلحاقهم بهم بدل النقصان وذلك خلاف اللازم لباقى مديريات السودان ولكون غير مدروك الآن إرسال كتبة على قدر هكذا من المحروسة فيروم صدور الأمر للمالية بتعيين أربعة أو خمسة كتبة يكونوا صغيرين ومستدركين فى الأشغال الحسابية وإرسالهم للحكمدارية لإقامتهم هناك وتعليم فن الكتابة بمعرفتهم للتلاميذ والفقها الذين يرغبو وكل من استدرك منهم فى الأشغال يجرى إرساله لجهات دارفور وجهات خط الاستواء وباقى فروع الحكمدارية بدل النقصان والحصول على نهو الأشغال المتأخرة وبذلك يكتفى الحال .

ومعه ٤ ورقة .　　　　٧ شوال سنة ١٢٩٣

ملاحظة : تحرر للداخلية بتاريخ ١٢ شوال سنة ٩٣ بنمرة ٩٣ .

دفتر رقم ١٤٨

١٢ شوال سنة ١٢٩٣ (٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧٦)

من المعية　　　　إلى الحكمدارية

جواب بختم سعادته صورته الخمسة كتاب المستعدين لتعليم فن الكتابة لمن يتعلموا بجهات السودان الذى طلبتوهم سعادتكم بالإفادة الرقيم ٧ شوال سنة ١٢٩٣ نمرة ١٤ مرور تحرر عنهم للداخلية بأجرى المقتضى عنهم وللمعلومية لزم الإحاطة أفندم .

دفتر رقم ١١ معية صادر

صورة المكاتبة رقم ٩٣ ص١٦٦

من المعية السنية (خيرى باشا)　　　إلى الداخلية

جواب من سعادة مهردار خديو صورته وردت إفادة من سعادة حكمدار السودان رقم ٧ شوال سنة ٩٣ ص١٤ مرور حاصلها أنه لعدم إرسال جميع الكتبة ، التى كانت لازمة من المحروسة

لجهات السودان وعدم لياقة من أرسلوا منهم وأخذ جملة من الموجودين وإلحاقهم بمديريات دارفور بقدر ضرورة إنجاز الأشغال نوعا فإنه مطلوب الآن نحو عدد ١٠١ نفر بمديريات دارفور بدل النقصان وهذا خلاف اللازم لباقى الجهات وأنه لداعى ما هو منظور لسعادته من تعذر إرسال كتبة من المحروسة قدر هكذا تراءى له استنساب تعيين وإرسال أربعة أو خمسة كتبة تعطى من المحروسة بحيث إنهم يكونوا مستعدين ومستدركين فى الأشغال الحسابية وأنه بواسطة انتخابهم بحالة معلومة الاستعداد يجرى إرسالهم للحكمدارية لأجل إقامتهم هناك وتعليم فن الكتابة والحسابة بمعرفتهم للتلامذة ومن يوجدوا من فقهاء السودان الذين يكون لهم رغبة فى ذلك حتى إن كل من حصل منهم على الاستعداد يصير إلحاقه بالجهات إلى أوضح عنها بدل النقصان وحيث إن هذا مما ينظر فيه ويجرى المقتضى عنه بمعرفة الداخلية ويتحرر عنه منها لسعادة الحكمدار لزم تحريره لدولتكم بذلك وهاهى الإفادة الحكى عنها والأوراق المتعلقة بها الجميع ٥ مرسولين طيه وقد صار إخطار سعادة الحكمدار بذلك أفندم .

١٢ شوال سنة ١٢٩٣ (بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧٦)

■■■

الملحق (١٢)
عهد إسماعيل
الخلاوى والمساجد

دفتر ١٢٥ وارد معاونة

وثيقة قرم ١١ ص ٤٧ بتاريخ ٢٣ شعبان سنة ١٢٧٩

من حكمدار السودان   إلى المعية

جواب يذكر أنه ورد له إفادتين من مدير كردفان أحدهم بأن الجامع العتيق الكائن بالأبيض مركز المديرية حصل له خلل من نزول الأمطار ولعدم وجود أوقاف له فى السابق كان جارى عمارته من طرف أهل الخير وعمل مقايسة عنه بمعرفة معاون وناظر عمارات المديرية ومن لزم بلغ مقدارها خمسين ألف قرش من ثمن طوب وأخشاب ومهمات وأجرة فعله وغيره خلاف أجرة البنائيين الذين يحضروا من الخرطوم لعدم وجود بنائين هناك والثانية بأن الجامع الكائن بحلة أبو صفية حصل له تلف أيضًا وأنشأه المرحوم المقدم مسلم قبل دخول المديرية بالحكومة وأنه بمدة المرحوم محمد بك الدافترادار ترك إليه سبعة حلالات من غير مالية للمساعدة فى عمارته وفيما بعد لما ربطت على الحلالات المذكورة المطاليب إلى الميرى صار ترك الجامع من دون عمارة حتى حصل له التلف وعمل مقايسة عنه بمبلغ ٤١٤٠٠ قرش خلاف أجرة البنائين أيضا ويرغب حضرته تعميرهم إحسانًا من لدن المراحم الخديوية لأجل إقامة شعائرهم .

دفتر ١٩٠٤ أوامر عربى

تاريخ ٢ من ذى القعدة سنة ١٢٧٩

أمر كريم منطوقة قد علم لدينا أنهاكم المرقوم فى ٢٣ شعبان سنة ٧٩ نمرة ١١ أنه فى مديرية كردفان مسجدين حصل بهما خلل من نزول الأمطار ومستحقين العمارة لأجل إقامة الشعائر الإسلامية وأن

أحدهما المسمى بالجامع العتيق الكائن بجهة الأبيض محل مركز المديرية كانت الأهالى تساعد فى عمارته والآخر الكائن بحلة أبو صفية كان أنشأه قبل دخول المديرية فى الحكومة والمرحوم محمد بك الدفتردار كان ترك سبعة حلالات بلا مال مساعدة لعمارته وبعد ذلك صار ربط المطاليب على تلك الحلالات بمعرفة المديرين السالفين وبقى المسجد هكذا ولعدم إيجاد أوقاف ولا إيراد للمسجدين المحكى عنهما يرغب المدير إجرى عمارتهما من طرف الحكومة ولعدم وجود مهندسين بالمديرية صار تحرير مقايستين عن العمارة اللازمة إليهما بمعرفة معاون وناظر عمارات المديرية ومن لزم من عمدها ويبلغ قيمة ما يلزم صرفه على تعميرهما ٩١٤٠٠ قرش خلاف أجرة البنائين الذين يحضروا للعمارة من الخرطوم وتردموا استحصال أمرنا بما تجرونه وحيث إن الإعانة على إقامة الشعائر الإسلامية بتعمير هذين المسجدين وتهيئتهم إلى إقامة الصلوات هو من الخيرات التى جبلت سجيتنا على حب أجراها فقد سمحت إرادتنا بأجرى عمارة المسجدين المذكورين بواقع المقايسات التى عملت عنهما مع ما يزيد عليهما نظير أجرة البنائين الذين يحضرون من الخرطوم بحيث تحصل الدقة والملاحظة الكلية فى صرف ما يلزم صرفه على عمارتهما ومتانة وضبط البنا وبانتهاء العمارة وحصر المصاريف يخصم بها على الإيفادية إحسانًا من لدنا . إنما من كون المقايسات المذكورة لم تعمل بمعرفة مهندسين فلازما حصول الدقة والملاحظة فى صرف لوازم العمارة حسبما ذكر حتى لا يصرف شىء فى غير محله ولأجل إقامة الشعائر فى تلك المساجد واستمرار إقامة الصلوات بهما فقد سمحت إرادتنا أيضا أنه بمعرفتكم ينظر ما يلزم ترتيبه سنوى من أجرة خدم دائمة ومؤذنين وثمن قرش وزيوت للقيادة ونحوه وبمعلومية مقدار ما يبلغ فى السنة الواحدة تنظروا ما يوافق ربطه من الأشياء التى يتحصل منها سنوى قيمة تلك المصاريف للمساجد المذكورة سواء كان أطيان أو عقارات مما يقتضى لترتيب إيقافه عليهما وتعرضوا ذلك لطرفنا بالتفصيل لنصدر لكم أمرنا بما تعتمدوه فى ذلك ولزم إصدار أمرنا هذا إليكم لاعتماد الأجرى بمقتضاه كما هو مطلوب .

إقليم

دفتر رقم ١٦٩٤ وارد العرضحالات دواوين ومديريات

صورة المكاتبة العربية رقم ٥ صفحة ٩٣ بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أن عبد الرحمن خليفة الفقرا ببندر الخرطوم قدم له عرضحال ملتمسًا به عمارة مسجد الأرباب الكائن ببندر الخرطوم على طرف الديوان ولما صار الاستعلام من مديرية جزيرة

سنار والخرطوم عن وجود زوقاف إلى المسجد المذكور أم لا فوردت الإفادة نمرة ٤٩٧ حاصلها أن المسجد المذكور معد لقراية القرآن وتدريس العلم وغيره وليس له أوقاف بل الجارى فى تصليح ما يسقط منه أهل الخير وأنه لم يكن موجود جامع خلافه وروى ضرورة عمارته فتحرر للمديرية عن تحرير مقايسة عن عمارته بالطوب الأحمر والمونة فوردت إفادتها نمرة ٥٠٩ ومعها مقايسة ابتدائية عن قيمة التكاليف وبلغ مقدار ذلك ٢٠ بارة و٤٦٩٣ قرشا وأرسل المقايسة والعرض وشقة يريد منه بعد النظر يصدر الأمر .

دفتر رقم ١٢٦ وارد الأقاليم بالمعاونة عربى

صورة المكاتبة العربية رقم ٢٦ ص ٢١ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٨٠

ورد فى ٢٤ صفر سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أن الفقيه محمد حمد خليفه الشيخ الأغبض بحلة الهلالية بمديرية جزيرة سنار والخرطوم زعرض بأن المسجد الكائن بالحلة المذكورة تهدم من طول المدة وكثرة الأمطار والتمس عمارته من إحسان ولى النعم وبالنظر لكون الجامع المذكور من الآثار القديمة ومقامة به شعائر الإسلام عمل عن تكاليفه مثايستين أحدهم من الطوب الأحمر والمونة بمبلغ ٣٠ بارة ٢٩٨٠ قرشًا والثانية من الطوب التى والطين بمبلغ ١٤٨٢ قرشًا ومرسلهم مع هذا لأجل النظر وصدور الأمر بأجرى العمارة وإضافة المصاريف بالأبعادية .

دفتر رقم ١٩٠٤ أوامر عربى

صورة الأمر الكريم رقم ٣١ ص ٦٤ بتاريخ ٥ ربيع الزول سنة ١٢٨٠

أمر كريم

منطوقه قد عرض لدينا أنها كم الرقيم ٢٠ محرم سنة ١٢٨٠ نمرة ٢٦ الذى به أوضحتم بأن المسجد الكائن بحلة الهلالية بمديرية جزيرة سنار والخرطوم قد هدم لداعى قدمه وكثرة نزول الأمطار بتلك الجهة ولكونه من الآثار القديمة ومقامة لله الشعائر الإسلامية من الصلاة وتلاوة القرآن الشريف ونحو ذلك فقد عمل مقايستين عن تكاليف عمارته إحداهم عن البنا بالطوب الأحمر والمونة والآخر عن البنا بالطوب النى والطين وصار مراجعتهما بمعرفة عبد البر أفندى

المهندس ووجدوا على صحة وتلتمسوا صدور أمرنا بعمارة المسجد المذكور وحيث طبعتنا جبلت على عمارة المساجد وإقامة الشعائر الإسلامية بهم فاقتضت إرادتنا عمارة هذا المسجد بالطوب الأحمر والمونة على مقتضى المقايسة البالغ قدرها ٣٠ باره ٢٩٨٠ قرشا الفان وتسعمائة وثمانون قرشاً وثلاثون فضة واقتضى إصدار أمرنا هذا إليكم لتجروا المقتضى لعمارة المسجد المرقوم على الوجه المشروح بالانتهى يجرى خصم هذا المبلغ بالأبعادية على طرف الديوان وطيه المقايسات وأنهاكم الوارد عن ذلك حتى بموجبهم وأمرنا هذا يعتمد الخصم كما هو مطلوب .

أقاليم من الجزيرة

دفتر ٥٢٩ معية تركى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ بتاريخ ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٨٠

من الجناب العالى إلى حكمدار السودان

قد أطلعنا على مكاتبتكم رقم ٥ المؤرخة ٧ محرم[1] سنة ١٢٨٠ المحررة باللغة العربية التى تعرضون فيها عن وجود مسجد قديم معروف باسم مسجد أزباب فى بندر الخرطوم مخصص منذ القدم لتلاوة القرآن الكريم وتدريس العلوم الشريفة وقد تداعى بناؤه وأنه لما وضعت مقايسة لعمارة المسجد بالطوب الأحمر والجير اتضح أن التكاليف ستبلغ ٤٦٠٠ قرش وكسور وتستأذنوننا فى تعمير المسجد على حسابنا وكذلك اطلعنا على الأوراق المتعلقة بهذا الموضوع . وحيث إن من أمانينا تعمير مثل هذه المساجد الشريفة فإننا نأمركم ببناء هذا المسجد وتعميره بحسب المقايسة الموضوعة وخصم المبالغ التى ستصرف فى هذا السبيل من الديوان بصفة إحسان من لدنا . والمكاتبة الواردة منكم والمقايسة ومرفقاتها مرسلة لكم بالتالى .

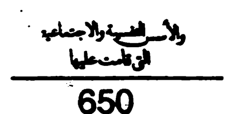
دفتر ١٧٠١ وارد معية عرضحالات دواوين وأقاليم

وثيقة رقم ٧ ص ١٠٢ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أنه تقدم له أعراض من مصطفى إبراهيم الأصونلى القاطن ببندر بربر ينهى به أنه بنا زاوية وقف للصلوات وتعليم أولاد المسلمين القرآن والعلم الشريف ويلتمس النظر فى ربط

---

(١) هكذا فى الأصل مع أن تاريخ الوارد ٦ محرم .



شيء كأمثاله أرباب المساجد وبالاستعلام من المديرية فوردت الإفادة منها علم بأن الزاوية فهى صغيرة معدة للصلوات وبجوارها راكوبة للقراية وتعليم الأطفال وواحد سبيل ببيره والموجودين بها من الأولاد ٢٢ نفر ومشهودصا فى حق المذكور باستقامته أحواله ولا يكون له حركة خلاف الصلوات وأن المحلات الموجودة بطرفه المتسعة مربوط للبعض شهرى ٢٥٠ قرشا وعدد ٤ أرادب حب ذرة للإعانة على مأكولات الفقراء والبعض أنقص من ذلك لأجل التفات المذكورة على التدريس وتعليم الأولاد استصوب بأن يربط ٧٥ قرشا وعدد ١ إردب حب ذرة وأرسل ثلاثة أوراق من طيه يرام النظر وصدور الأمر بما يوافق لاتباع الأجرى .

دفتر ١٧٠١ وارد معية عرضحالات الدواوين

صورة المكاتبة العربية نمرة ٨ ص ١٠٢ بتاريخ ٢٠ رجب سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أنه تقدم له أعراض من الفكية يس خليفة الولى الصالح محمد أرباب يلتمس فيه عمارة الجامع الموجود بناحية البشاقرة كونه معد لقراءة القرآن والتدريس وبالاستعلام وردت له الإفادة بأن الجامع المذكور مشهور بالتدريس وأنه من المساجد القديمة والذى يستحق لعمارته بموجب مقايسة محررة بختم ناظر عمارات الميرى المهندس مبلغ ٢٠ بارة و٥٢٤١ قرشا خلاف عشرة أحمال قش بالوجه فراسل من طيه عدد ٣ ورقة بما فيهم المثايسة يرام النظر وصدور الأمر لاتباع الأجرى .

جزء أول وارد معاونة سنية (عربى) ١٤٧

ص ١١٦ نمرة ٣ مرور بتاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أن بناحية شركيلة التابعة مديرية أسوان اثنين حريمات طاعنين فى السن وهما عائشة وآمنة لهم مسجد ومقيمين فيه لتعليم أولاد المسلمين القرآن وأعرضوا ملتمسين النظر لمعاشهم وبالاستفهام عنهم اتضح أنهم منقطعين لتلاوة القرآن وتعليم أولاد المسلمين فلإعانتهم على ذلك ترتب لهم شهرى إردب واحد حب ذرة من مديرية كردفان وهذا بالأخطار .

دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية نمرة ٢ ورقة ١١٧ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠

أمر كريم

إلى حكمدار السودان

قد أطلعنا على المكاتبة العربية الواردة منكم رقم ٧ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠ التى تطلبون فيها ترتيب مرتب ٧٥ قرشًا وإردبًا من الذرة شهريًا إلى الزاوية التى بناها الشيخ مصطفى إبراهيم الأصونلى أحد الفقراء المتوطعين فى بربر بناء على التماسه ترتيب مبلغ بصفة إعانة حيث إن تلك الزاوية مخصصة لتعليم القرآن والعلوم الدينية وينتسب لها ٢٢ نفرا لتلقى العلوم الشريفة والتى تذكرون فيها أن المساجد الشريفة الكبيرة الموجودة بالسودان مرتب لها مرتبات لغاية ٢٥٠ قرشا وأربعة أرادب بصفة إحسان من الحكومة إعانة لها لمعيشة الفقراء . وبما أن أملنا الوحيد هو قيام الشعب بتحصيل العلوم وتعليمها وصلاح حالهم ودخولهم إلى سبيل المدينة بتعليم القراءة والكتابة وحيث إن إنشاء مثل هذه الزوايا والأعمال الخيرية مما يستوجب سرورنا نأمر بتوسع زاوية الشيخ مصطفى إبراهيم وتجديد بنائها لتكون مثل الزوايا الأخرى التى بالسودان على نفقة الحكومة واحتساب المصاريف وخصمها من الإحسانات على جانب الديوان . ونأمر أيضا بصرف ٢٥٠ قرشا شهريًا إلى ما شاء الله وكذلك صرف أربعة أرادب شهريا بصفة إحسان للزاوية المذكورة لفقراء الأهالى الذين سيقصدونها لتعليم القرآن والعلوم الشريفة أسوة بالمساجد الكبيرة . فنأمركم بتنفيذ ذلك كما أننا نطلب منكم أن تبلغوا الشيخ مصطفى المذكور سرورنا وممنونيتنا وتطلبوا منه أن يعنى عناية كبيرة بتعليم القرآن وتدريس العلوم للأهالى فى مقابل هذا الالتفات السامى .

دفتر ٥٢٩ معية تركى

بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠

أمر كريم

إلى حكمدار السودان

أطلعنا على كتابكم العربى الوارد بتاريخ ٢٠ من رجب سنة ١٢٨٠ ورقم ٨ الذى ذكرتم فيه أن المدعو ياسين خليفة محمد أرباب ولى (الله) التمس ترميم المسجد الواقع فى قرية البشاقرة

التابعة لمديرية سنار والخرطوم وأن الجامع المذكور المخصص لقراءة القرآن الكريم وتدريس العلم الشريف لما كان من المساجد القديمة المشتهرة تحقق لكم أنه يستحق الترميم فعلمتم بالمقايسة أنه يمكن ترميمه بإنفاق مبلغ قدره خمسة آلاف ومائتان وواحد وأربعون قرشا وعشرون باره وعشرة أحمال من القش وأن ترميمه على نفقة إحساناتنا منوط بإرادتنا وأطلعت أيضا على الورقتين والمقايسة الواردة طيه وبما أن الأمر هو كما أبلغتم فإن إرادتنا قد وافقت على ترميم الجامع المذكور بموجب المقايسة السالفة الذكر ودفع مبلغ خمسة آلاف القرش والكسور الذى مر ذكره إلى جانب الديوان محسوبا على إحساناتنا وكتبنا هذا الكتاب لتنفذوا ما ينبغى تنفيذه على الوجه الذى تقدم وأعدنا إليكم طيه المقايسة المذكورة والورقتين الأخريين .

دفتر رقم ١٤٧ وارد معاونه

صورة المكاتبة العربية نمرة ٥ مرورص ١٢٠ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أن واحداً يدعى الفكى خلف الله من ناحية الكتياب بقسم الزيداب بمديرية بربر كان أعرض للمرحوم بالتماسه مساعدته فى ربط إنعامية إليه لإعانته على مصاريف محله المفتوح لقراية القرآن وتدريس العلوم وصدر الأمر لمدير دنقلة سابق فى ٢٤ محرم سنة ١٢٧٤ نمرة ١٣ بإعطاء كام فدان بلا مال نظير ذلك ولمناسبة تأدية الشهادة من المدير المومى إليه عن وجود ١٥٠ نفر بمسجد الفكى المذكور منهم ٥٧ نفر من المديريات الآخر فى طلب القرآن ومأكولاتهم من عنده والباقى من أهالى بلدة خلاف طلبة العلم فعطى له ٥٠ فدان رزقه ولا اقتنع بهم الفكى المذكور ولما صدر الأمر بأن المسموح الذى كان مرتب للمشايخ والمصاطب بالوجه البحرى صار ربطه على الزمام أى ما كان مرتب أطيان يضاف بالمال وما كان مرتب غرش يصير قطعه ولعدم إقناع الفكى المذكور بالخمسين فدان المذكورة لم كان جرى شىء ، بل كان كل سنة جارى تجيبه بمبلغ ١٢٥٠ قرشا نظير ذلك وموقوف خصمه ولما أعرض الفقى المذكور من عدم راحته فى ذلك وصار مناظرة محله بمعرفة مدير بربر ووجد أن محله ومسجده مازال معمور بالتدريس إلى الآن وعنده ١٧٣ نفر طلبة قرآن و٥٣ طلبة علم والذين منهم أهاليهم بالحلة ٢٥ نفر والباقى من أهالى المديرية والمديريات الأخر ومأكولاتهم من طرفه والمذكور مستقيم للتدريس

وفاتح له مضايف وأمثاله مربوط لكلا منهم شهرى ٤٠٠ قرش وعدد ٤ إردب ذرة والمذكور فايق عنهم فى وجود التلامذة لكنه صار مستحق المعاملة مثلهم ميرفع من عليه الخمسين فدان المذكورة ويرغب النظر فى ذلك ويفاد عما يجريه .

دفتر ١٣٧ صادر معاونة ص ١٧٢ نمر ٢٨

٢٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٠

شرح صورته قد وردت إلى المعاونة السنية إفادة سعادتكم يمينة رقمة ٢٦ رمضان ١٢٨٠ نمرة ٣ مرور بشأن الإردب الواحد الذرة الذى صار ترتيب صرفه شهرى إحسانًا إلى عائشة وآمنة حافظات كلام الله المقيمين بناحية شركيلة ومشتغلين بتعليم الأولاد القراءة مساعدة لهم على معاشهم هم والفقراء الذين بالمسجد المقيمين به المذكورتين وحيث إنه بالعرض عن ذلك للأعتاب السنية صدر النطق العالى بموافقة ترتيب وصرف الإردب الذرة المحكى عنه شهرى إلى الحرمتين المذكورتين إحساناً من لدن الحضرة الخديوية فاقتضى شرحه لسعادتكم لاعتماد الأجرى حسبنا تعلقت به الإرادة السنية أفندم .

حاشية وثمن الإردب الذرة المذكور الذى يصرف شهرى يخصم على طرف الديوان .

قيد وارد عرضحالات الدواوين

سجل رقم ١٧٠١ معية عربى

الوثيقة رقم ١٣ ص ١١٢ بتاريخ غرة ذى الحجة سنة ١٢٨٠

جواب يذكر أنه تقدم له أعراض من الفقية عبد القادر البدوى نايب الشرع الشريف بقسم عبود يلتمس فيه عمارة جامع موجود بناحية عبود كونه معد لقراية القرآن وأنه بالاستعلام من مديرية سنار وردت له الإفادة بناء على ما أفاده به قاضى ومفتى العموم بأن الجامع المذكور مشهور بالتدريس وأنه من المساجد القديمة . والذى يستحق لعمارته موضح بالمقايسة المعمولة بمعرفة مهندس عمارات الميرى بما جميعه مبلغ ٥٦٣١ جنيهًا خلاف أجرة نقل الجير من محل وجوده إلى محل الجامع المذكور وحيث تلك الجامع معمور بالذكر والتدريس فراسل المقايسة وأوراق القضية عدد ٣ يرام النظر وصدور الأمر بما يوافق .

دفتر نمرة ١٩١٠ أوامر عربى

صورة المكاتبة العربية ١٤ ص ٧٣

بتاريخ ٣ من ذى الحجة سنة ١٢٨٠

أمر كريم

إلى :

عرض لدينا إنهاؤكم الرقم ٨ شوال سنة ١٢٨٠ نمرة ٥ مرور الذى به أوضحتم أنه فى العهد السابق كان عطى ٥٠ فدان طين بلا مال إلى الفقية خلف الله من ناحية الكتياب بقسم الذبداب بمديرية بربر بمقتضى أمر المرجوم الصادر إلى مديرية دنقلة فى ٢٤ محرم سنة ١٢٧٤ قمرة ١٥ لاعانته على مصروف محله المفتوح لتلاوة القرآن الشريف وتدريس العلوم ومؤونة الأشخاص المشتغلين عنده فى ذلك ولمصادفة الأمر السابق صدوره فى شهر من ذى القعدة سنة ٧٤ بضبط المسموح وتضرر الشيخ المذكور من استغلال ما ترتب كاف فى كل سنة جارى بحسبه ١٢٥٠ جنيها نظير ذلك وموقوف خصمه والأطيان المذكورة واردة ضمن كشف الرزقة والمرافيع قد تظلم الآن فى ذلك لكم وبالنظر لكونكم لما حققتموا أمره تبين لكم أن محله لم يزل مفتوح للتدريس وازدادت به الأنفار الطلبة عن أول حيث به ١٧٢ نفر طلبة قرآن و٥٣ نفر طلبة علم وجميع مأكولاتهم من طرفه وأغلبهم أغراب عن المديرية الكائن فيها منزل الفقية المذكور وأن أمثاله مربوط لكل منهم شهرى ٤٠٠ جنيه وذرة عدد ٤ إردب وهو أكثر صرف عنهم استنسيتوا معاملته فى المرتب كأمثاله وتلتمسوا صدور أمرنا بما يوافق نحو ذلك وحيث إن سجيتنا جبلت على استدامة مجرى الأمور الخيرية وأعمار المحلات المعدة لتلاوة العلوم بما يوجب ازدياد عمارتيهم لكثرة انتشار العلوم والانتفاع بها وتسهيل أمر التعيش على طلبة العلوم رجاء لنيل الثواب الجزيل اقتضت إرادتنا ربط ٤٠٠ قرش أربعمائة غرش شهرى إلى ذلك المحل واستمرار صرفها على الفقيه المذكور مع إعطاء الخمسين فدان البادى ذكرها ورفع مالها سوى للانتفاع بما يتحصل منها وخصم المبلغ المجبية عليه بالحسابات حتى بذلك يحصل تسهيل وتيسير أمر تعيش الفقيه والطلبة وإعانتهم على الاشتغال بتدريس العلوم الدينية مع ملاحظة عمارته المحل المذكور دواما وعدم تعطيله من الاشتغال بتدريس العلوم وتلاوة القرآن المعظم ونقرر إصدار أمرنا هذا إليكم لاتباع الأجرى على مقتضاه .

سجل رقم ١٤٧ ج (١) وارد الأقاليم بالمعاونة السنية

المكاتبة رقم ١٢ مرور ص١٥٣ بتاريخ ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٢٨٠

جواب يذكر انه موجود ثلاثة مساجد قدم مشهورين بالتدريس اثنين منهم بمديرية كردفان أحدهم مسجد الوالى الصالح أبو صفية والثانى مسجد السيد المكى بن الشيخ إسماعيل الولى والثالث الشيخ محمد توم بمأمورية سنار وفيزوغلى وأرباب أولئك المساجد من بيوت صلاح . وأهل علم ومنقطعين للعبادة وتدريس العلم وتعلم أولاد المسلمين القرآن العظيم ومعتكفين بمساجدهم لا يطلعون منها ولا حاجة لهم الدوارة والموجودين من الأولاد للتعليم بمسجد كل منهم بنون زيادة عن المائة نفر وأنهم لا طلبوا من ترتيب شىء كباقى أرباب المساجد الموجود بمساجدهم نحو الخمسين نفر المرتب لهم إنعامات على طرف الميرى وبالنظر لما شاهده من حسن أخلاقهم واختصارهم بمجلاتهم للعبادة والتدريس وتلاوة كلام الله القديم وكون أحد المساجد المعمورة من قديم بمناسبة هؤلاء وأربابهم مشهورين بالعلوم ومنقطعين هو عائد ثوابه لسعادة أفندينا ولى النعم فيرغب من بعد عرض ذلك للأعتاب الكريمة أن يحسن ربط ما هو لازم لهم من الماهيات . والتعيينات من ضعف الذرة بمناسبة ما هو مربوط لأصحاب المساجد الأخر فيصدر له الأمر .

دفتر رقم ١٧٠١ معية عربى
وارد عرضحالات الدواوين والأقاليم

صورة المكاتبة العربية رقم ١٤ ص ١٨٧ بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٨١ نمرة ٢٨ مرور

جواب يذكر أنه تقدم له عرض من الفقيه صادق عبد القادر خطيب وإمام الجامع الكائن بسنار ومتضرر فيه من استقلال الماهية المربوطة له ولخدمة الجامع ، وأنه تحور مع طاقة إلى مأمور بندر سنار عن أوقات تلك الجامع والمربوط لخدماه ، ووردت له الإفادة بأن هذا الجامع كان أنشأه لى سنة ١١٧٧ بعد الألف سبعة وأربعون وفى سنة ٥١ صار استبدال بنا هذا الجامع على مقتضى أمر كريم جنتمكان أفندينا الكبير وخصصت مصاريفه على طرف الديوان وأوقافه فهو منزل بسنار تركه واحد صاغ قول أغاسى وقفه إلى الجامع وست شجرات لأمنهم منفعة فاستصوب بطرفه أن يربط إلى خطيب وإمام الجامع شهرى ٥٠ قرشًا ومؤونة ١ إردب والمؤذن ٤٠ قرشًا وحب ذرة إردب وللخادم ٣٠ قرشًا وحب ذرة إردب وما يلزم له من الفروشات والقيادة تكون من طرف الميرى يرام النظر وصدور الأمر بما يوافق يتبع الأجرى والعرض معه .

دفتر قرم ٥٢٩ معية تركى

الوثيقة رقم ٦ أصلى ص ١٤٦ بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٢٨١

أمر من الجناب العالى إلى حكمدار السودان

أطلعت على كتابكم العربى الوارد بتاريخ غرة ذى الحجة سنة ١٢٨٠ ورقم ١٣ وعلى المقايسة والورقتين التى جاءت طيه . وعلمت منه أن الشيخ عبد القادر النائب الشرعى بقسم عنود التمس فى عريضته التى قدمها ترميم الجامع الشريف الواقع بناحية عبود إحدى نواحى السودان وأنه قد تحقق لديكم أن الجامع المشار إليه يستحق الترميم لكونه مخصصا لتلاوة القرآن الكريم ودراسة العلم الشريف ، ولأنه من المساجد القديمة الذائعة الصيت فقام مهندس العمارات الأميرية وناظرها بوضع مقايسة ترميمه وعلم أنه يتم بصرف مبلغ قدره خمسة آلاف وستمائة وواحد وثلاثين قرشاً وعشرين بارة غير أجرة الجير . وأن ترميمه يصرف هذا المبلغ من إحساناتنا منوط بموافقة إرادتى . ولقد وافقت رغبتى على ترميم الجامع المذكور من قبل الحكومة بموجب المقايسة المذكورة ورفع المبلغ المار ذكره البالغ خمسة آلاف وستمائة وواحد وثلاثين قرشاً وعشرين بارة وكذلك أجرة نقل الجير إلى جانب الديوان محسوباً على إحساناتنا . فكتبنا إليكم هذا الأمر لتتخذوا الإجراءات اللازمة . وأعدنا طيه المقايسة المذكورة وتلك الورقتين .

دفتر رقم ١٩١٠ أوامر عربى

مكاتبة نمرة ١٦ ص ٨٨ بتاريخ ١٨ صفر سنة ١٢٨١

أمر عال منطوقه قد عرض لدينا إنهاؤكم الرقيم ٢٨ الحجة سنة ١٢٨٠ نمرة ١٢ مرور ومنه علمنا وجود الثلاثة مساجد المرقومين أعلاه بمديريات كردفان وبمأمورية سنار وفيزاوغلى وصحابهم منقطعين منهم للعبادة وتدريس العلوم وتعليم القرآن العظيم وتلموجود فى كل مسجد ما يتوف عن المائة نفر فقرا لطلب العلم وتعليم القرآن ولمشاهدتكم اختصار أصحاب أولائك المساجد فيهم واشتغالهم فيها ذكر وعدم براحهم منها لجهة ما تلتمسوا التصريح من لدنا بأن يربط لهم من الماهية وصنف الذرة أسوة بأمثالهم إعانة لهم على ما هم فيه من العبادة والتدريس وتعليم العلوم والقرآن وحيث إن سجايانا جبلت على إجراء ما فيه استدامة مجرا المواد الجيرية

وإعمار المحلات المستعدة لتدريس العلوم وتلاوة القرآن بما يوجب زيادة عمارهم والانتفاع بهم وتيسير أمر تعييش الطلبة رجاء لنوال الثواب الجزيل فقد اقتضت إرادتنا بأنكم تنظروا لما هو مرتب من الماهية وصنف الذرة لأصحاب المساجد أمثال هؤلاء بالسودان وتجرون الربط لهم بمثلهم وصرف ما يترتب لهم فى أوقاته وخصمه الأبعادية بإحساننا من لدنا ولزم إصداره اليكم لاعتماد الإجراء بمقتضاه كما هو مطلوبنا .

فى الجزيرة

بمديرية كردفان

(١) مسجد الولى الصالح أبو صفية .

(١) مسجد السيد المكى بن الشيخ إسماعيل الولى .

(١) بمأمورية سنار وفيزاوغلى مسجد الولى الصالح الشيخ محمد توم .

دفتر رقم ١٧٠١ معية عربى

صورة المكاتبة رقم ١٥ ص ١٨٧ بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨١

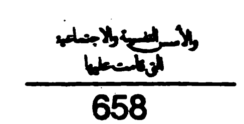
جواب ومعه أربع أوراق وعرض مقدم من نايب الشرع بناحية المسلمية بمديرية الخرطوم ملتمسا به تعمير المسجد الكائن بالناحية يذكر أنه من الاستعلامات اتضح أن تشوه هو فى سنة ٤٩ من مال أحد تجار الناحية لغاية وفاته ولا يكن له أوقاف وآل إلى السقوط وأن الفقراء الموجودين به للقرامية ٣٩ نفر وقد عمل مقايسة وبلغ مقدارها ٢٣ بارة و١٥٨٢٣ قرشا وأن هذه الناحية بندر وأرسل المقايسة مع الأوراق المذكورة يرام النظر وصدور الأمر بما يصير أجراه .

دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى

ترجمة الأمر الكريم رقم ٢ ص ١٩٧ بتاريخ ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٨١

من الجناب العالى   إلى حكمدار السودان

أطلعت على كتابكم العربى الوارد إلى ديوان معاونتنا بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٨١ ورقم ٢٨ وعلمت منه أن صادق عبد القادر الإمام والخطيب فى الجامع الشريف الواقع الشعار المخصص له



ولسائر خدم الجامع المذكور وأنكم لما استعلمتم فيه مأمور إدارة سنار علمتم من الكتاب الوارد منه جوابا أن المسجد المذكور مبنى منذ القدم وأنه لما خرب عام ١٥٢١ بنى بمقتضى الإرادة السنية التى أصدرها جدى الأمجد الرحيم مولانا الأكبر فعمر منذ ذلك الوقت بالأذكار والصلوات وإنه ليس له وقف ولا مورد سوى بيت خرب ونحو سبعة أشجار ليمون فلا يأتى كل ذلك بفائدة تذكر ، وأن الخدم السالف ذكرهم ليس لهم عمل ولا كسب سوى الخدمات التى يؤدونها فى الجامع فلا يكفى أقواتهم مبلغ الخمسة والستين قرشا المخصص لهم وإنكم لما تحققتم من ذلك رأيتم أن تخصصوا لإمام المسجد وخطيبه مرتبًا شهريًا قدره خمسون قرشا وإردب ذرة وللمؤذن أربعين قرشًا شهريًا وسدس إردب ذرة وللخادم ثلاثين قرشا وسدس إردب ذرة وأن تنفق نفقات فرش الجامع وتنويره ليلا من قبل الحكومة ولقد وافقت إرادتى على تخصيص المرتب الذى قدّرتموه لإمام الجامع المذكور وخدمه وكذلك الذرة ليكون ذلك مدار إقامة الشعائر الإسلامية فيه وعلى تخصيص المبلغ الذى تقدّرونه لفرشه وتنويره ليلا على أن تصرف هذه المبالغ على الاستمرار طبق الأصول إلى ما يشاء الله تعالى فنفذوا مقتضاه .

دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣ ص ١٩٧ بتاريخ ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٨١

أمر من الجناب العالى إلى حكمدار السودان

أطلعت على كتابكم العربى الوارد بتاريخ ٢٣ من صفر سنة ١٢٨١ ورقم ١٥ الذى ذكرتم فيه أنه الشيخ يوسف خضر النائب الشرعى فى ناحية المسلمية التابعة لمديرية الخرطوم التمس ترميم المسجد الواقع فى القرية المذكورة . وأنه تحقق لديكم أنه من المساجد التى تستحق الترميم لأنه مخصص لتلاوة القرآن الكريم وتدريس العلم الشريف فعلمتم بعد المقايسة أنه يمكن إصلاح وترميم المسجد بإنفاق مبلغ خمسة عشر ألفا وثمانمائة وثلاثة وعشرون قرشا وثلاثة وعشرون بارة وأن ترميمه يصرف هذا المبلغ منوط بإرادتنا .

وبما أن ترميم أمثال هذه الجوامع والمساجد الشريفة تسهيلا للإكثار من وسائل إقامة الشعائر الإسلامية مما ننشده ونبتغيه فقد كتبنا أمرنا هذا بأن نتخذ الإجراءات اللازمة فى ترميمه على نفقة الحكومة بموجب المقايسة المذكورة ويرفع مبلغ الخمسة عشر ألفا وثمانى المائة والثلاثة

والعشرين قرشا والثلاثة والعشرين بارة الذى سلف ذكره إلى جانب الديوان طبق الأصل . وأعدنا إليكم طيه المقايسة المذكورة وأربع قطع الزوراق التى جاءت معها .

دفتر نمرة ١٧٠٢ وارد معية عرضحالات الدواوين والأقاليم

صورة المكاتبة العربية رقم ٢ صفحة ٥١

بتاريخ غرة جمادى الآخرة سنة ١٢٨١

جواب رد الصادر له تركى بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٨٠ على أنهى عبد الرحمن ناطق من أهالى خط مروى الناهى بأن له جامع وانهدمت حيطانه واندرست من مدة وقايته . ويلتمس بناه على طرف الميرى ومرغوب الإفادة يذكر أنه تأشر من طرفه إلى باشكاتب المديرية فأعطى إفادة بقلمه بأنه لم يترتب شيء إلى الجامع وأن الجوامع الموجودين بالمديرية فمنهم جامع الأودرى مبنى من الميرى وله أوقاف يصرف منها مرتب الخدمة وما يلزم من الترميمات ومصروفات الجوامع المذكورة بالفروع البعض منهم لا يكن له شيء . وتحرر من طرفه محاكم خط مروى بالكشف وعمل المقايسة فوردت له الإفادة بعدم وجود بنائين بطرفه فأرسل أحمد أفندى معاون المديرية وردت له الإفادة منه ومعها مقايسة بمبلغ ٦,٩٥٩ قرش عن البنا بالطوب الأخضر وإذا صار بناه بالطوب الأحمر تكون الزيادة ثلاثة آلاف قرش وأجر مراكب لإحضار خشب وغيره لزوم الحريق فيكون مصاريف الجامع وتكاليفه بالطوب الأحمر ٩٩٥٩ قرش وورقة ثانية عن رسم البنا وأرسل معه ٣ عدد وثيقة يرام النظر بأجرى ما يوافق .

دفتر رقم ٥٢٩ ممعية تركى أوامر وعرائض

صورة ترجمة الوثيقة رقم ٨ صفحة ٢١٦ بتاريخ ٦ من ذى القعدة سنة ١٢٨١

أمـر

إلى . حكمدار السودان

اطلعت على هذه العريضة المقدمة من المدعو الشيخ أحمد الريح من أهل بندر المتمة التابعة لمديرية بربر وقد أصدرنا إليكم أمرنا هذا لتعاينوا الجامع الواقع بنلك البندر الذى ذكر أنه خرب وترموه وفق الأصول إذا كان محتاجا للمرمة حقيقة وتخصموا المبلغ الذى سينفق فى مرمته إلى

جانب الديوان وأن تنظروا إلى الشيخ المذكور ومواد رزقه فتخصصوا له شيئًا من الحكومة إحسانًا إن كان محتاجًا ومستحقًا للمساعدة .

دفتر رقم ١٢٥٤ وارد عرضحالات الداخلية

ترجمة الوثيقة التركية رقم ١ ص ٢١ تاريخ الوارد

١١ من ربيع الأول سنة ١٢٨٢

من حكمدارية السودان إلى ديوان الداخلية

يقول ردا على شرح المعاونة الموقع فى ٢٣ من رجب سنة ١٢٨٢ أن مدرستى مقدمى العريضة القاطنين جهة خلة الفيش التابعة لمديرية بربر كانتا عامرتين منذ قديم الزمان وأن مدرسة الشيخ الأمين محمد الخوجلى فيها الآن مائة وثلاثة وخمسون تلميذا يتلون القرآن الشريف ويتعلمونه وأن فى مدرسة الشيخ محمد عبد الله الخوجلى سبعة وخمسين طالبًا يدرسون العلوم وأنه يرى تخصيص أربعمائة قرش شهريا لمدرسة الشيخ الأمين الخوجلى وكذلك ستة أرادب ذرة شهريًا بدلاً من الطين وتخصيص مائة وخمسين قرشا شهريا لمدرسة الشيخ محمد عبد الله الخوجلى وأربعة أرادب ذرة كل شهر إلا أن ذلك منوط بصدور الأمر . وأنه أرسل أربع الأوراق الخاصة بهذه المسألة على كتابه .

تعليق : كتب كتاب إلى المعية السنية وأرسلت الأوراق طيا .

دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية نمرة ١٠ ص ٢٤٧ بتاريخ ٢٣ ربيع زول سنة ١٢٨٢

أمر كريم

إلى حكمدار السودان

سبق أن كتب من معيتى إلى مديرية دنقلة استعلام عما جاء فى العريضة التى قدمها إلى رجل من أهالى المديرية المذكورة يدعى الحاج عبد الرحمن ناطق وقد علمنا من الكتاب العربى المفصل الذى جاء ردًا عليه بتاريخ غرة جمادى الآخرة سنة ١٢٨٠ أن الجامع الذى يلتمس

المذكور ترميمه من قبل الحكومة مهجور منذ أمد كما ليس له مورد مالى وأن المقايسة التى عملت تدل على أن ترميمه يحتاج إلى مبلغ ستة آلاف وتسعمائة تسعة وخمسين قرش ٦٩٥٩ قرش إذا رم بالطوب النى وإلى مبلغ ٩٩٥٩ قرش إذا رم بالطوب الأحمر وقد وافقت رغبتى على ترميمه بالطوب الأحمر على ألا يتجاوز نفقاته مبلغ تسعة آلاف وتسعمائة قرش والكسور الذى مر ذكره أن لم يكن فى الناحية التى هو فيه جامع غيره أو كان فيها جامع آخر وكان بعيدًا فلا يستغنى عن ترميم هذا المسجد وصرحت لكم بتخصيص شىء وبقدر معرفتكم من أجل لوازمه فأصدرت أمرى هذا لتتخذوا الإجراءات اللازمة وأرسلت إليكم طيه العريضة المذكورة والمقايسة والورقة الأخرى التى جاءت معها .

دفتر رقم ١٢٥٧ صادر عرضحالات الداخلية

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ ص ٤ بتاريخ ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢

من الباشا الناظر (ناظر الداخلية) · إلى المعية السنية

سبق أن قدم الشيخ أبو صالح عريضة إلى حكمدار السودان ذكر فيها أن منقطع لتدريس العلوم وتعليم أولاد المسلمين فى مسجد والده الأستاذ أحمد أبى الطيب الواقع فى جهة حلفاية التابعة لمديرية الخرطوم والتمس تخصيص شىء يقتات به وفقراء الطلبة . وقدّم الشيخ محمد عبد الله الخوجلى والشيخ الأمين محمد الخوجلى المدرسان فى المدرستين الواقعتين فى جهة حلة الغيش التابعة لمديرية بربر عريضة إلى المعاونة السنية فأحيلت إلى الحكمدارية . ولقد جاء من وكيل حكمدارية السودان سابقًا كتاب عربى بتاريخ ٩ من ربيع الأول سنة ١٢٨٢ ورقم ١ وكتاب تركى بتاريخ ١١ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٢ ورقم ١ ذكر فيهما أنه علم من التحقيقات التى قام بها ثم أن الشيخ أبا صالح المشار إليه رجل من أهل الديانة ومن المنقطعين للتعليم وأن فى مسجده أربعة وخمسين من فقراء طلبة العلم وأن يقترح أن يخصص للشيخ المذكور مائة وخمسين قرشا ولفقرائه جميعًا مائة قرش وأربعة أرادب ذرة وسدس أردب مثلما يخصص لشيوخ أمثال هذا المسجد وفقرائها بمقتضى الأوامر . وأنه لما كان فى مدرسة الشيخ الأمين محمد الخوجلى مائة وثلاثة وخمسون تلميذا يقرءون القرآن الكريم ويتعلمونه كما أن فى مدرسة

الشيخ محمد عبد الله خوجلى سبعة وخمسين طالبا مواظبين وكان الشيخان المشار إليهما مكبين على تعليمهم يقترح أن يخصص لمدرسة الشيخ الأمين الخوجلى مثلما خصص لمسجد الشيخ خلف الله حمد أى أربعمائة قرش شهريًا وستة أرادب ذرة بدلاً من خمسين فدان الطين ، ولمدرسة الشيخ محمد عبد الله الخوجلى مثلما خصص للزاوية الشيخ مصطفى إبراهيم أى مائتان وخمسون قرشا شهريا وأربعة أرادب ذرة إلا أن إجراء ذلك منوط بصدور الأمر . ولما كانت الأمور المذكورة من اختصاص المعية السنية بادرنا بإبلاغكم حقيقة الحال وأرسلنا الكتابين المذكورين والأوراق المتعلقة بهما طى هذا .

دفتر قيد وارد العرضحالات عربى رقم ١٣٦٦

ص ٣ بتاريخ ١٩ جماد أول سنة ١٢٨٢ توفى سنة ١٥٨٢

جواب بناء على الوارد له من مدير دنقلة نمرة ١٥٣ بالشقة لغة على عرض مستخدمين الجامع الكاين بخط دنقلة بالمديرية إدارته من مدة الصحابة الكرام وكان تعميره بمدة المرحوم عباس باشا على طرف الديوان وأحضرت فيه الكتب للتدريس فيه ولكون الحاج إبراهيم الأمين من أهالى مورى مستخدم بالجامع المذكور كناس وفراش ووقاد وجارى ملو السبيل للمترددين فمرغوب ترتيب شىء لحصوله على القوت الضرورى بما أنه فقير جدا ومشايخ الناحية صادقوه على قوله . وقد ترتب له ، وللمستخدمين بتلك الجامع ١٠٠ قرش شهرى ويرغب صدور الأمر بما يستصوب للأجرى على مقتضى ما يصدر به الأمر .

دفتر رقم ٥٢٩ معية عرضحالات

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣ ص ٢٧٣ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢

إرادة من الجناب العالى   إلى حكمدار السودان

كتب وكيل حكمدارية السودان سابقًا إلى ديوان الداخلية كتابة تركيا وعربيًا بتاريخ ٩ و١١ من ربيع الأول سنة ١٢٨٢ ورقم ١ قال فيه إن الشيخ أبا صالح بن الأستاذ الشيخ أحمد أبى الطيب المدفون بجهة حفاية التابعة لمديرية الخرطوم أبلغ ديوان الحكمدارية أنه منقطع لتدريس العلوم وتعليم الأطفال فى مسجد أبيه الأستاذ المشار إليه ، والتمس تخصيص مرتب يستعين به

هو وطلبة العلوم على قوتهم إحسانا منا ، وأن الشيخ محمد عبد الله الخوجلى والشيخ أمين الخوجلى لدائبين على التدريس والتعليم فى المدرستين الواقعتين فى جهة حلة الغيش التابعة لمديرية بربر التمسا فى العريضة التى قدماها إلى ديوان المعاونة فأحيلت إلى الحكمدارية تخصيص مرتب لهما على الوجه الذى تقدم فعلم من التحقيق الذى أجرته الحكمدارية أن الشيخ أبا صالح السالف الذكر مكبّ على التدريس والتعليم وأن فى مسجد أبيه أربعة وخمسين من فقراء الطلبة وأن الحكمدارية ترى تخصيص مائة وخمسين قرشا شهريا للشيخ أسوة بأمثاله ومائة قرش وأربعة أرادب وسدس إردب ذرة للفقراء وأنه علم أيضا أن فى مدرسة الشيخ الأمين محمد خوجلى مائة وثلاثة وخمسين تلميذاً يتعلمون تلاوة القرآن الشريف كما أن مدرسة الشيخ محمد عبد الله خوجلى فيها سبعة وخمسون طالبًا يدرسون العلم الشريف فاقترحت الحكمدارية أن يخصص لمدرسة الشيخ الأمين خوجلى مرتب قدره أربعمائة قرش شهريًا أسوة بأمثاله ومن الذرة ستة أرادب ولمدرسة الشيخ محمد عبد الله خوجلى مرتب شهرى قدره مائتان وخمسون قرشا ومن الذرة أربعة أرادب وأن الحكمدارية أناطت إنجاز ذلك بصدور إرادتى . وقد رفع إلى سعادة الباشا ناظر الداخلية والخارجية بذينك الكتابين وتلك الأوراق طى كتابه رقم ٢ المكتوب فى ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٢ ولقد وافقت إرادتى على تنفيذ ما أشعرت به الحكمدارية من تخصيص المرتب الشهرى لذلك المسجد وتينك - المدرستين فأصدرنا أمرنا هذا لتتخذوا الإجراءات اللازمة فى قيد المرتبات المذكورة ابتداء من تاريخه وصرفها لأصحابها وأعدت إليكم الكتابين والأوراق طيه .

دفتر رقم ٥٢٩ معية عرضحالات بند حكمدارية السودان

ترجمة الوثيقة رقم ٤ ص ٢٧٣ بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٨٢

أمر من الجناب العالى إلى حكمدارية السودان

كتبت الحكمدارية كتابا إلى ديوان الداخلية بتاريخ ١٧ من جمادى[1] الأول سنة ١٢٨٢ ورقم ١١ ذكرت فيه أن الحاج إبراهيم الأمين خادم الجامع الشريف الموجود فى خط الخندق الواقع فى مديرية دنقلة من عهد الصحابة الكرم قدم عريضة ذكر فيها فقره والتمس تخصيص

---

(١) هكذا فى الأصل مع اختلاف التاريخ .

مرتب له فرأت المديرية أن يخصص للمذكور ولإمام الجامع ومؤذنه مبلغ مائة وخمسون قرشا شهريا من الإحسانات منوطًا ذلك بأمرنا فأرسل صاحب السعادة الباشا ناظر الداخلية والخارجية ذلك الكتاب وتلك به العريضة إلى المعية طى كتابه المكتوب فى ٤ من رجب سنة ١٢٨٢ ورقم ٩ فرفعت إلى أعتابنا وقد وافقت وغبتى على تخصيص مرتب شهرى لخدام الجامع المذكور قدره مائة قرش وفق ما جاء فى الشرح الموقع بأعلى العريضة المذكورة من المديرية المشار إليها خطابًا إلى الحكمدارية بتاريخ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢ ورقم ٢٥٣ فأصدرنا إليكم أمرنا هذا لتتخذوا الإجراءات اللازمة فى تنفيذ ذلك ابتداء من تاريخه وأعدنا إليكم العريضة طيه .

دفتر ٥٦٥ معية تركى وارد عرضحالات

ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ١٧ بتاريخ ١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٢

من حكمدار السودان   إلى المعية السنية

يكتب أنه يرى من المستحسن أن يخصص لمقدم العريضة وهو الشيخ الأمين محمد أحد زمرة المدرسين الذين ببندر الخرطوم مرتب شهرى من إحسانات ولى النعم قدره مائة وخمسون قرشًا .

(قد كتب إليه رده برقم ٦ وتاريخ ١٣ من ربيع الأول سنة ١٢٨٣)

ترجمة الوثيقة رقم ٦ ص ٣٠٩

من الدفتر رقم ٥٢٩ معية تركى بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٣

من الجناب العالى   إلى حكمدار السودان

علم من شرحكم الوارد إلى معيتى بتاريخ ١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٢ ورقم ٣ موقعًا على العريضة التى قدمها إليكم الشيخ الأمين محمد أحد زمرة المدرسين الذين بالخرطوم ذاكرًا فيها فقر حاله وملتمسًا تخصيص مرتب شهرى له من إحساناتنا أن الشيخ المشار إليه ماهر فى العلوم الفقهية مهارة كاملة كما أنه مشتهر بالزهد والصلاح وأنه محتاج إلى إحساننا جدير به وأنكم تستأذنون فى تخصيص مرتب شهرى له قدره مائة وخمسون قرشا من إحساننا قد اقترن التماسكم هذا بإرادتنا وأذنا فى ربط مرتب شهرى قدره مائة وخمسون قرشا وصرفه إحسانا من لدنا فأصدرت أمرى هذا وأرسلته إليكم لكى تتخذوا الإجراءات اللازمة فى إنجاز ذلك .

محفظة رقم ٤٢ معية سنية

صورة ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٩٨ بتاريخ ٢٧ رجب سنة ١٢٨٤

من حكمدار السودان   إلى سكرتير خاص الجناب العالى

حضرة صاحب السعادة سكرتير خاص الجناب العالى :

لا يخفى على الجميع أن المسلك العلمى والتقدم الفقهى نادر فى جهات السودان لعدم وجود علماء وفقهاء كالقضاة والمفتين والأئمة الواجب تعيينهم فى كل مركز ولعدم وجود مدرسين وواعظين لتعليم الشعب أصول الدين وأحكام الشريعة ووعظهم ، والعدد القليل من أولئك العلماء الذين يقصدون السودان لم يحصل منهم نفع بالدرجة المطلوبة لعدم ائتلافهم بالشعب والمناخ فعملنا على بذل ضروب الترغيب لحمل بعض الذين حفظوا القرآن من أهالى السودان وحصلوا على بعض المبادئ النحوية والفقهية للانتساب إلى الجامع الأزهر لمدة ثلاث سنوات لإكمال علومهم وثقافتهم . وفى أثناء عودتنا الأخيرة إلى سواكن أظهرا ولدا المرحوم الشيخ عمر القاضى العام السابق لمديرية تاكه المدعوان الفقيه أحمد والفقيه عثمان رغبة من تلقاء نفسيهما فى الانتساب إلى الجامع الأزهر وعمر أولهما ٢٢ عاما وثانيهما ٢٠ عاما وقد حفظا تماما وأحاطا ببعض المسائل الفقهية بفضل رعاية عمهما الفقيه أبو بكر قاضى تاكه الحالى فأحضرناهما إلى مصر معنا فى هذه المرة وسلمناهما إلى حضرة الشيخ العروسى وأوصيناه بهما خيراً . ولما كان من العسير أن يعيشا بمرتب الجامع وهو عبارة عن رغيف واحد فى اليوم فإننا نرى منعا لنفورهما وتثبيط عزائمهما وخوفا من عدم رغبة غيرهما فى الالتحاق أن يخصص مرتب يومى لكل منهما قدره قرشان بصفة من لدن ولى النعم إعانة لهما على المعيشة ففى حالة الموافقة نرجو سعادتكم عرض الموضوع على الأعتاب الكريمة .

٢٧ رجب سنة ١٢٤٨   حكمدار السودان

نور أظهر عبده جعفر (ختم)

إشارة : كتب له الرد فى ٥ شعبان سنة ٨٤ تحت رقم ٣ .

دفتر رقم ٥٧٦ معية تركى

ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤ ص ١٥ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٨٤

من المعية إلى حكمدار السودان

قد عرضنا على أعتاب ولى النعم أفادتكم المفصلة الواردة هذه المرة بتاريخ ٢٧ رجب سنة ٨٤ الوارد فيها أنه بناء على أمر الجناب العالى الخاص بلزوم تشويق وترغيب الأشخاص المسلمين بعلوم الفقه والنحو من أهالى السودان فى الحضور إلى الجامع الأزهر وملازمتهم الإقامة فيه عدة سنين أو ثلاث سنوات لتكميل علومهم وهذا لأجل نشر وتعليم أصول أحكام الشريعة والديانة فى الأقطار السودانية حيث إنه يندر وجود العلماء والفقهاء منها بناء على ذلك الأمر قد أخطرتم معكم هذه المرة نجلى المرحوم الشيخ عمر قاصى عموم مديرية (تاكة) السابق وذهبتم بهما إلى الجامع الأزهر وحيث إن إعانتهما برغيف واحد الذى هو المرتب الوحيد لطلاب الجامع المذكور سيؤدى إلى نفورهما كما أنه سيوجب كسر رغبة أمثالهما فى المجىء إلى مصر لذلك رأيتم من اللائق تخصيص مرتب يومى بمبلغ قرشين لكل منهما ليكون مداراً لمعيشتهما وحيث إن الجناب العالى وإن كان وافق على تخصيص مرتب يومى بمبلغ قرشين لكل من الشخصين المذكورين حسب التماسكم إلا أنه أصدر نطقه الكريم بلزوم صرف هذه اليوميات من إيرادات الأقاليم السودانية بناء عليه قد حررنا هذه الإفادة وأرسلناها إلى طرفكم لتبادروا إلى مخابرة نظارة الداخلية بخصوص إجراء اللازم فى هذا الباب .

دفتر رقم ٥٨٣ معية سنية تركى

ترجمة المكاتبة رقم ٣ ص ١٤ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦

إرادة إلى حكمدار السودان

قد أطلعنا على إفادتكم المفصلة والمؤرخة ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ وحيث إنه وإن كان قراركم الخاص بتعيين الأساتذة المرتبين لأجل نشر المعارف والعلوم فى محله إلا أننا نحيطكم علما بأنه بعد إنشاء الجوامع فى مصل هذه الجهات والنواحى التى دخلت تحت إدارة الحكومة وتبعيتها وبعد إنشاء مدرسة واسعة فى جانب كل جامع من الجوامع المذكورة لأجل نشر العلوم والمعارف يلزم انتخاب الذين سيكونون أساتذة لهذه المدارس من أصحاب الأهلية الكفاية ، وحيث إن رؤساءهم

بالطبع سيكونون من زمرة العلماء فالأصوب أن يكون تلقيهم بعنوان رئيس الأساتذة أو بعنوان آخر بدلا من أن يكون بعنوان (شيخ) بناء عليه بادروا إلى إجراء اللازم على هذا الوجه .

دفتر رقم ١٢٨٢

ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ٢٠ صادر داخلية عرضحالات تركى

بتاريخ ١٦ رجب سنة ٢٨٦

من الباشا الناظر (ناظر الداخلية)   إلى حضرة كاتب الديوان الخديوى .

قدم أولاد الأستاذ الشيخ الطيب وتلاميذه الذين بالسودان عريضة ذكروا فيها وفاة أبى صالحة خليفة الأستاذ المذكور والتمسوا تخصيص الأنعام المرتب له من زمن لأخيه المدعو الشيخ عبدالرحمن . ولقد كان خصص للمتوفى المشار إليه مائة وخمسون قرشا شهريًا ولتلاميذه مائة قرش وأربعة أرادب وسدس من الذرة بحكم الإرادة السنية ٣ الصادرة فى ٢٢ من جمادى الأولى سنة ٢٤٨ وقد أبلغ حضرة الأفندى قاضى السودان الحكمدار . أن العلماء الخلفاء بتلك الديار قد اعترفوا باستحقاق الشيخ عبد الرحمن المشار إليه ولياقته لتقلد الخلافة بدلا عن المتوفى المذكور .

وقد تبين لدى الحكمدارية من ناحية حال المذكور أنه أهل لإقامة الشعائر الإسلامية بالمسجد ولتعليم العلم ونشر الصلاح فجاء من حضرة صاحب العزة الأفندى وكيل السودان العام شرحه الملصق برقم ٤ وتاريخ ٤ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ يلتمس فيه تعيين الشيخ المشار إليه مكان الشيخ المتوفى بالمرتب المذكور ولما كان البت فى هذا الأمر منوطًا بالإرادة السنية بادرنا برفعه وإبلاغه وأرسلنا الأوراق الواردة طيًا .

دفتر ٥٨٣ معية تركى

ترجمة الإرادة التركية رقم ١٢ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٦

إرادة   إلى ناظر الداخلية

لقد ذكرتم فى إفادتكم المؤرخة فى ١٦ رجب سنة ٨٦ رقم ٣ «عرض» التى نوهتم فيها عن العريضة المقدمة من زولاد وتلامذة الأستاذ الشيخ الطيب بالسودان وعن المكاتبة الواردة من

إليك وكيل عموم السودان إلى نظارة الداخلية فى هذا الصدد أنه بناء على إرادتنا المؤرخة فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ٨٢ الصادرة إلى حكمدار السودان كان قد خصص مبلغ ١٥٠ قرشا شهريا إلى أبى صالحه خليفة الأستاذ المذكور المتوفى كما خصص ١٠٠ قرش وأربعة أرادب ذرة إلى تلاميذه وانتظم بإرادتنا أمر قيد الـ ١٥٠ قرشًا المنحلة باسم الشيخ عبد الرحمن أخى أبا صالحة المذكور وتعينه مكان أخيه نظرًا للياقته وجدارته ونحن نوافق على قيد هذا المبلغ باسم الشيخ عبد الرحمن الآنف الذكر كما توافق على تعيينه مكان أخيه .

محفظة ٤٦ وثيقة ٣٦١

ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان فى ٨ رمضان سنة ١٢٨٦

من حكمدار السودان نور أظهر عبده جعفر إلى صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية

حضر صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية

المواد الثلاثة المبينة فى الجانب الأيمن تقضى المصلحة بعرضها على الأعتاب السنية فأرجو بعد عرضها التكرم بإبلاغى عما يصدر به النطق السامى عن كل مادة . كما أنى أرجو لدى عرض أسماء الأشخاص الملتمس الأنعام عليهم برتب فى المادة الثالثة أن تعرضوا التماسًا بالأنعام على نجل عبدكم البكباشى محمد سيد بك من أعضاء مجلس السودان برتبة القائمقام لأنه مستحق فى نظر والده الترقية إلى رتبة القائمقام . وقد ألجأتنى عبوديتى إلى الجرأة بعرض ذلك .

٨ رمضان سنة ١٢٨٦

خاتم

حكمدار السودان

نور أظهر عبده جعفر

تابع الوثيقة رقم ٣٦١

ترجمة أول المواد المطلوب عرضها على الأعتاب السنية

بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٨٦

أتشرف بأن أعرض بأننا سنشرع فى الوقت الحاضر فى بناء مسجد ومكتب فى جهتين أو ثلاثة طبقًا للأمر العالى رقم ٣ الصادر بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ الخاص بترتيب

المعلمين والمدرسين والفقهاء اللازمين لنشر أنوار العلوم الشرعية وتعيينهم وإنشاء جامع ومكتب في كل ناحية من النواحي التي دخلت حديثًا تحت إدارة الحكومة وذلك بناء على ما عرض مني وأعرض أنه لا يوجد مساجد في بندر الخرطوم اللهم إلا الجامع الموجود فيها من الأصل الذي بناه المرحوم خورشيد[1] باشا السناري على حساب الحكومة ومع أن أهالي الخرطوم كانوا لا تزيد أن قبل ثلاث سنوات على العشرين ألف نسمة إلا أنهم في الوقت الحاضر يبلغون ٦٠ ألف نسمة وهذا يعد دليل علني على عدل ورحمة وشفقة الجناب العالي التي شملت جميع الأهالي وقد اتسعت مساحة المباني والمساكن المنشأة حديثًا وزادت أضعافا عما كانت عليه في السابق ولذلك اشتدت الحاجة إلى بناء جامع جديد آخر ولما كانت لوازم البناء من الأخشاب والأحجار والطوب والجير والحمرة يمكن إعدادها بواسطة العساكر السودانية بدون كلفة ونقلها على المراكب الأميرية ويتضح من ذلك أن البناء سوف لا يحتاج إلى مصاريف أكثر من ٥٠٠ كيس من النقود تقريبا للصرف منها على أجور الفعلة والبنائين فإذا صادف ذلك ارتياح الجناب العالي وحاز موافقته يتكرم باستصدار الأمر العالي للشروع في إنشاء الجامع المذكور على ذلك النحو كما أننا نتمنى إرسال عشرة بنائين خبيرين قديرين ومهندسين معماريين من مصر إلى الخرطوم لعدم كفاية البنائين المتعلمين والمهندسين المعماريين في السودان .

إمضاء
جعفر مظهر

تابع الوثيقة رقم ٣٦١

ثانية المواد المطلوب عرضها

بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٨٦

أعرض أن السيد الحسن الميرغني من مشايخ الطريقة الخلوتية المكي الأصل الشريف النسب الذي التزم جانب الحكومة أثناء العصيان الذي قام به الآلاي السوداني الرابع في التاكة سابقًا

(١) سمي السناري ؛ لأنه كان ناظر منطقة سنار أي مديرها من قبل تولية الحكمدارية .

وقام بدعوة الجنود الثائرة إلى طريق الإطاعة سابقًا وأظهر غيرة واجتهادًا فى إخماد الفتنة والذى كان اتصل خبره بسمع الجناب العالى وقتئذ وقد توفى فى مركز التاكة منذ عهد قريب وترك ولدين بالغين وفتاتين وزوجاته وكان مرتب له من لدن الحكومة ٢٥٠ قرشا شهريا من القديم وأربعة أرادب من الأذرة وقد سلك ولداه الطريق الممدوح الذى كان يسلكه أبوهما وهما يصرفان أوقاتهما فى تعليم الشريعة والطريقة وتعليم الطلبة وفى عظة العامة ومصاريفهما كثيرة وفى حالة الموافقة اقترح ترتيب المائتين والخمسين قرشا التى كانت مرتبة لوالدهما مع ضم جزء عليه والأربعة الأرادب من الذرة طعما لأختيهما وأمهاتهم إكرامًا طعم ليكونوا على الدوام متمرنين على رفع الدعوات الخيرية بدوام عمر الجناب العالى .

جعفر مظهر
(إمضاء)

ثالثة المواد المطلوب عرضها

الزبير عبد القادر نجل الشيخ عبد القادر من أعيان ووحده السودان القدماء موظف فى مجلس السودان بوظيفة عضو بماهية قدرها ١٥٠٠ قرش شهريًا وهو فى حد ذاته رجل مرب ومتمدين وهو مشهور فى السودان بعالم الكتابة والميقات . ففى حالة الموافقة اقترح الإنعام على الزبير عبدالقادر أفندى المار ذكره بالرتبة الرابعة لأن تشريف بضعة أناس من الوطنيين بشرف المصالح الأميرية فى ظل الحضرة الخديوية لا يخلو من الفائدة فى تشجيع العموم والعوام .

ونظرًا لما رأينا من صداقة وإخلاص حسن أفندى صبرى المعاون وكاتب المرور الموجود فى معيتى الذى يتقاضى راتبًا شهريًا ٢٠٠٠ قرش فإنى اقترح الإنعام عليه بالرتبة الرابعة .

كذلك أعرض أن البكباشى محمد معنى أفندى وكيل مديرية الخرطوم الذى استحق منذ مدة الإنعام عليه برتبة القائمقام هو عبد صدوق غيور يستحق أن يكون مشرفًا بين أقرانه بالرتبة المذكورة فى ساحة الجناب العالى .

إمضاء
جعفر مظهر

دفتر رقم ٥٨٣ معية تركى

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٠ ص ٢٢ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٨٦

أمر كريم

إلى ناظر الداخلية

حيث إن عمران جزيرة سواكن فى إطراد وقد أخذ الكثيرون من الأحباش يتجولون فى أنحائها .

وحيث إن أكثر الأحباش على المذهب القبطى ومن المناسب أن تنشأ هناك كنيسة للأقباط أسوة بالمسلمين الذين لهم جامع فى هذه الجزيرة فإننا نأمر أن تقوموا بما يجب نحو ذلك .

دفتر ٥٨٣ معية تركى

ترجمة المكاتبة رقم ٦ ص ٢٥ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٨٦

من الجناب العالى إلى حكمدار السودان

لقد اطلعنا على مكاتبتكم المؤرخة ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ رقم ٤ التى التمستم فيها منح كل من الزبير عبد القادر أفندى عضو مجلس السودان وراتبه الشهرى ١٥٠٠ قرش وحسين صبرى أفندى المعاون بمعيتكم وكاتب المزور راتبه الشهرى ٢٠٠٠ قرش الرتبة الرابعة بناء على مقدرتهما ومنح رتبة القائمقام إلى البكباشى محمد معنى أفندى وكيل مديرية الخرطوم ولنجلكم محمد سعيد بك عضو مجلس السودان نظرًا لجدارتهما ولياقتهما .

وعليه فنحن نوافق على منحهم هذه الرتب ونأمر بقيدهم بهذه الرتب ومخصصاتها اعتبارًا من تاريخ أمرنا هذا .

دفتر ٥٨٣ معية تركى

ترجمة المكاتبة رقم ٧ ص ٢٥ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٨٦

من الجناب العالى إلى حكمدار السودان

لقد اطلعنا على مكاتبتكم المؤرخة فى ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ رقم ٤ التى نوهتم فيها عن اتساع بندر الخرطوم وكثرة سكانه واستأذنتم فى بناء جامع هناك على نفقة الحكومة وقدرتم الأجرة التى ستصرف للعمال والبنائين بنحو ٥٠٠ كيس تقريبًا .

وحيث إن الخشب والحجارة والطوب والحمرة وما إليها من المواد اللازمة لبناء الجامع يمكن تدبيرها عندكم بسهولة فقد استكثرنا ٥٠٠ كيس التى قد رقموها للعمال والبنائين فاعملوا على بناء جامع بأقل من هذا المبلغ وإذا كان من الممكن إرسال أحد مهندسين البناء من هنا فإنه يتعذر إرسال البنائين فدربوا بعض الناس على البناء واستخدموهم .

دفتر رقم ٥٨٤ معية سنية تركى

ترجمة الوثيقة رقم ١١ ص ٢٣ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٨٦

من المعية السنية إلى ديوان الداخلية

قد وردت إفادة مؤرخة ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ من حضرة صاحب السعادة حكمدار السودان تتضمن الاستئذان بإنشاء جامع ببندر الخرطوم على نفقة الحكومة وإرسال مهندس معمارى وذلك نظراً لاتساع البندر المذكور وكثرة الأهلين القاطنين به ولما عرضت الإفادة المذكورة على السدة العلية صدر الإذن الكريم بإسعاف ما يطلبه سعادة الباشا الحكمدار وإبلاغ ذلك إليه فبناء عليه نبلغكم هذا لانتخاب ذلك المهندس وإيفاده إلى تلك الجهة وإخطار الجهات المختصة بإجراء اللازم .

دفتر رقم ١٨٥٨ معية عربى

صورة المكاتبة صفحة ٧٥٠ نمرة ٤٥٦ سايرة بتاريخ ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٢٨٨

من مديرية دنقلة وبربر إلى المعية

جواب رد الصادر له فى ١٨ شوال سنة ٨٨ نمرة ٤٢ بالاستعلام عن العشرة جدعات الناهى عنهم الشيخ محمد عبد الله من طلبة العلم بناحية الغيش يذكر أنه كان مرتب إلى المذكور عشرة جدعات سنوى بمبلغ ٢٠٠٠ قرش بواقع كل جدعة ٢٠٠ قرش من ابتداء سنة ١٢٥٠ كأمر المرحوم خورشيد أغا حكمدار السودان سابقًا ولم يوضح تاريخ الأمر ولا محل وجوده ولما توفى المذكور صار ربط ذلك لولده الذى هو والد مقدم العريضة كونه قايم بوظيفة والده وهو أيضًا توفى . وحيث إن مالية الجدعات صار أبطالها من سنة ١٢٧٧ وربط المالية على الأطيان من وقتها لم سبق دفع شىء من تلك المبلغ وأوراق تلك المدد المربوط بها هذا المرتب لا لها وجود

بالدفترخانة وفقط الذى اتضح بهذه المادة فهو من الاستكشاف من أوراق المرافيع الجارى فيها المكاتبات هذا أو بالتحرى عن أحوال مقدمه أفيد عن كونه ذو لياقة وعالمية ولا يزال مقيم فى القراية لزيادة التعليم وقد انتصب للتدريس . ومسجد والده وجده موجود وله حق القرابة فيه وهذا بالإحاطة وطيه ورقتين .

قيد وارد عرضحالات من الدواوين والمحافظات والمجالس وغيره

المعية عربى دفتر ١٨٥٨ نمرة ١٤١ ص ٧٠ تاريخ الجواب

٦ من ذى الحجة سنة ٨٨ نمرة ٤٩٥ سايره

من مديرية دنقلة وبربر

جواب رد الصادر للحكمدارية الملغية فى غرة شعبان سنة ٨٧ نمرة ٢ بالاستعلام عما أنهاه أوسيد[1] بن الفقيه إبراهيم حمدنه العالم بخط مردى بشأن المرتب الذى كان لمسجد والده وصار قطعه والخراج الذى رتب على الساقية التى هى رزقه بلا مال يذكر أنه كان فى العهد السابق مرتب للمسجد سنوى أربعة أرادب حب ذرة وساقية رزقه تزرع بلا مال وكان جارى لغاية سنة ١٢٦٥ ولما أن أرباب المرتبات بخط مردى لم طالبوا بصرف المرتبات من سنة ٦٢ لغاية سنة ٦٤ وفى سنة ٦٥ رغبوا صرفها فصدر أمر الحكمدارية فى ١٧ من ذى القعدة سنة ٦٦ للمديرية بأنه مادام قضى ثلاث سنوات ولم استولوا المرتبات لعدم الاحتياج فيصير إضافة مرتب الثلاث سنوات جهات لجانب الميرى وقطع المرتب المجعول للمساجد بخط مروى من ابتداء سنة ٦٥ وبمقتضاه جرى العمل فى قطع المرتب . وأما الساقية الذاكر عنها مقدم العرض فمقتضى أمر المعية الصادر لمديرية دنقلة فى ٩ جمادى الثانية سنة ٧٧ نمرة ١٦ المشار به أن كل من توفى قيد حصر مرتبه لجانب الميرى قد صار تمويل الساقية بالزمام من توتى سنة ١٥٨٧ وجارى تحصيل ماليتها للميرى كأسوة السواقى هذه . . وأما المسجد السالف الذكر فإنه عمار وجارى فيه تدريس العلوم وغيره والقايم بشعائره الفقيه أوسيد بن إبراهيم ويرام الإحاطة وكلما وافق ليصدر به الأمر وطيه خمسة أوراق .

صدر أمر كريم على هذا العرض بتاريخ ١٣ ربيع أول سنة ٨٩ عرائض

---

(١) لعله يقصد الفقيه أسيد .

دفتر رقم ١٩٤٢ أوامر عربية

صورة الأمر الكريم ص ٧٣ رقم ٢ فى ٧ صفر سنة ١٢٨٩

من أمر كريم   إلى مديرية كردفان

أمر كريم منطوقه قد علمنا من إنهائكم الرقم ١٧ من ذى الحجة سنة ١٢٨٨ نمرة ٤ أنه بمقتضى ما كان صدر من جعفر باشا الحكمدار سابقًا جارى بنا جامع فى حلة الشيه أبو صيفه إنما لم يحصل إتمامه نظرًا لقلة المياه ومضى وقت الأمطار والذى صرف عليه ثمانية وعشرون كيسه وكسور حسب المبين بالمقايسة التى أرسلتموها وأوضحتم بأنه وأن كان أكثر اللازم موجود والشيخ المومى إليه وأولاده أهل صلاح ومنقطعين لتدريس العلوم لكنه لمناسبة أن أجرى بنا مثل تلك يحتاج استحصال أمرنا عنه تروموا التصريح من لدنا بما يتبع ، وحيث قورن بمساعدتنا إتمام بنا هذا الجامع على واقع المقايسة التى عملت عنده وبالانتهى والكشف الاختامى وحصول المراجعة اللازمة حسب الأصول يخصم بتكاليفه على طرف الديوان بحسابات المديرية فأصدرنا أمرنا لكم بذلك والمقايسة والشقة مرقومها وإنهاءكم مرسولين طيه للأجرى على الوجه المشروح حسبما تعلقت به إرادتنا .

من عابدين

أمر كريم

دفتر الأوامر الكريمة الصادرة بنمرة قلم عرضحالات المعية السنية إلى الدواوين والمحافظات والأقاليم وغيره فى توتى سنة ١٢٨٨ إلى ٢٠ ربيع الأخر سنة ١٢٩٨

دفتر رقم ١٩٤١ (إلى مديرية دنقلة بربر)

ص ٢٠ نمرة ١

١٣ ربيع أول سنة ١٢٨٩

أمر كريم منطوقه قد علمنا من إنهاءكم الوارد لمعيتنا الرقيم ٦ من ذى الحجة سنة ١٢٨٨ نمرة ٤٩٥ والعرض ولأوراق المرفوقين معه بأنه فى العهد السابق كان مرتب إلى مسجد الفقيه

إبراهيم حمدتو العالم بخط مردى سنوى أربعة أرادب حب ذره وساقية تزرع بلا مال وهذا نظير خدمته فى إقامة شعائر المسجد الذى كان به وبعدها لما توفى المذكور وجرى إضافة كامل المرتبات بتلك الجهة وتحولت الساقية بالزمام كأسوة بالسواقى هناك اتباعًا لما صدر من المعية فى العهد السابق رقم ٩ جماد آخر سنة ١٢٧٧ نمرة ١٦ فولده المسمى أوسيد قدم عرض الآن يلتمس فيه إعادة ما كان جارى ترتيبه لوالده لأجل الإعانة على عمارية المسجد وإقامة الشعائر بواسطة أوسيد إبراهيم المذكور وترغبوا صدور أمرنا بما يتبع إجراه ومن حيث إن الإعانة على عمارية المساجد واستدامة إقامة الشعائر الإسلامية هو من مألوف سجايانا لمداومة مجرا الخيرات فوافق لدينا إعادة ترتيب الأربعة أرادب حسب ذرة سنوى من الآن باسم الفقيه أوسيد المذكور إعانة له على قيامه بتلك الشعائر وتدريس العلم والقرآن بتلك المسجد وعماريته وبذلك لزم إصداره لكم لاعتماد الأجرى بموجبه كما اقتضته إرادتنا .

من الجزيرة

دفتر رقم ١٨٦٤ معية

صورة المكاتبة ص ٢٣

من مديرية دنقلا وبربر إلى المعية السنية

جواب يذكر أنه وجد جملة أشخاص متحزبين ومتجمعين وملقبين بطائفة الخيمية منسوبة لواحد من أهل مكة اسمه الشيخ محمد عثمان له أولاد متوطنين بجهات السودان ولهم طريقة خصوصية ولها مقدمين ملقبين بالخلفا وخليفة الخلفا وكل خليفة له أربعة أو خمسة تلامذة وحاصل منهم أحداث تخيلات وتمويهات على عقل العوام والنساء توصلوا فيها بنهب وسلب أموال العالم من نقود وغلال ومواشى وغيره ويجتمعوا النساء مع الرجال فى محل واحد يتلوا عليهم الخلفاء مؤلفات شيخه ويمروا سوية أيضا فى النواحى مع كونهم شبان ولا يؤمن عليهم فى حصول الأفعال المنكرة حال الاجتماع والاختلا وأنه لأجل منع الضرر من الأهالى ومنع البدع والمخالفة للشريعة الغراء وكون حضرات العلماء والمفتيين افتوا بمنع المنكرات حرر لجهات المديرية بالاستفهام عن مقدار الموجود بهم من الخلفاء المذكورين ولما علم أنهم ١٤١ نفر ولكل

منهم تلامذة من أهل الوطن الذى لا كسب لهم سوا كونهم دايرين على الأبواب لتحصيل ما تقدم ذكره حرر إلى حكام جهات المديرية مؤكداً بمنع ذلك وإلزام الخلفاء واتباعهم بتعمير سواقى مستجدة من الأطيان المحلولة لأجل اكتسابهم معاشهم وانتفاع الميرى منهم بواقع كل أربعة أنفار أو خمسة ساقية خصوصية الواحد وخمسين خليفة الموجودين بخط مردى صار إلزامهم بتعمير واحد وخمسين ساقية وتعين لهم شيخ مخصوص وأخذت عليهم الضمانات اللازمة بالتعمير ودفع الأموال الميرية أولى من تركهم دايرين فى الدنيا هملا لاتباع المفاسد ويخشى من وقوع الضرر فى الحال والمستقبل وهذا بالأخطار للمعلومية .

دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى

صورة الأمر الكريم رقم ٦ ص ٦٨

فى ١٩ رجب سنة ١٢٨٩

من أمر كريم إلى مدير عموم قبلى السودان

أمر كريم منطوقة علمنا من أنهاكم الرقيم ١٠ شوال سنة ١٢٨٩ نمرة ٢٤ والكشف الوارد معه أنه موجود بطرفكم أشخاص مربوط لهم مرتبات نقدية وغلال إحسانا البعض بأوامر والبعض بأذونات من الحكمدار سابقًا وأن المدير سلفكم رفت بعضهم واستنسب أن من يرغب منهم تعمير ساقية بالأطيان البور فتكون معافية من المالية إحسانًا لمساعدتهم على التعيش وهكذا ترآى لكم من الأشخاص الباقية مرتباتهم أن المستحق استمرار قيده منهم الثلاثة أشخاص الموضحة أسماؤهم أدناه البالغ مقدار مرتباتهم شهرى ثمانمائة وخمسين قرش وخمسة أرادب ونصف حب ذرة بعد توفير مائة وخمسين غرش من ماهية أحدهم الشيخ الأمين محمد وهذا لمناسبة انقطاعهم للوظائف المعينين بها وعدم قدرتهم على التكسب وأما باقى أرباب المرتبات المحكى عنهم لكونهم مزارعين وعلى اكتساب وبمكنهم التعيش من نفسهم أجريتم تنزيل مرتباتهم من الترتيب الجارى أعماله وأن من يرغب منهم تعمير ساقية بالأطيان البور يعامل كما تراءى للمدير السالف الذكر وتروموا استحصال أمرنا بما يوافق وحيث إن ما رأيتموه من ذلك هو فى محله لزوم إصدار أمرنا هذا لكم لاعتماد الأجرى على الوجه المشروح حسبما وافق إرادتنا .

فى ٦ من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ من عابدين

ماهية	ذرة	
٣٥٠	٣	الشيخ الأمين محمد رئيس العلماء ومميز الطائفة العلمية والفقهية بجهات السودان .
٣٠٠	٢	الشيخ محمد أحمد رئيس ومميز الوظائف القرائية والحفاظ .
٢٠٠	-	الشيخ محمد النقيب واعظ ومدرس للأهالى بجامع الخرطوم .
٨٥٠	٥	

دفتر ١٨٧٣ معية عربى

صورة المكاتبة رقم ١ ص ٢٦ بتاريخ ٢٣ محرم سنة ١٢٩٠

من المعية السنية إلى مدير عموم شرقى السودان

شرح بختم سعادة كاتب ديوان خديوى صورته هذا الانهى تقدم للمعية السنية من ثلاثة أشخاص بما يستفاد منه أنهم من أهالى سواكن ومرتبين أئمة بالمساجد القايلين عنها الموجودين بتلك الجهة وأن اثنين منهم مرتب لكل منهما شهرى ٥٣ قرشاً وثالثهم ٤٠ قرشاً ويتضررروا من قلة هذا المرتب مع ما أورده من أن المساجد المذكورة مرتب لقيادتها زيت منهم مسجدين فى كل يوم نصف رطل لكل مسجد والثالث رطل وأنه بيصرف لهم بدل الزيت نقدية اعتبار ثمن لرطل الواحد قرش صاغ بسعر الزمن السابق مع أن ثمن الرطل الآن يساوى ستة قروش صاغ ويسترحموا النظر لما لهم لآخر ما ذكر من مطالعته يعلم وحيث من الأقضى الوقوف هنا عن حقيقة ما ينهوم ومعلومات حضرتكم فى ذلك وعن المرتب لهؤلاء ومقداره وما يكون مرتب لأمثالهم المساجد الموجودين بتلك الجهة مع التوضيح عن ترتيب ذلك بناء على أى شيء لزم شرحه لحضرتكم لنرد الإفادة عما ذكر تفصيلا بالإيضاح الكافى للمعلومية وأجرى اللازم أفندم .

دفتر رقم ١٨٦٥ وارد عرضحالات الدواوين

صورة المكاتبة العربية رقم ١ ص ١١٨ بتاريخ صفر سنة ١٢٩٠

شرح رد الصادر له فى ٢٣ محرم سنة تاريخه رقم ١ عرض بالاستعلام عما أنهوه ثلاثة أئمة مساجد بسواكن بشأن المرتب لهم ولأمثالهم ، يذكران المرتب لتلك المساجد وخدماها فهو من مدة الأستانة قبل إحالة محافظة سواكن للحكومة الخديوية . ولم يكون موجود بسواكن مساجد

خلاف الثلاثة المذكورين وجامع محمد بك الشناوى المستجد الذى ربطه لإمامه الأن شهرى ماثة قرش بمقتضى أمر كريم صادر للخصوص ، وراسل كشف بمرتبات المساجد المذكورة وجدناها للاطلاع عليه . وهذا بالإحاطة .

بارة	قرش	
١٥	١٩٠	مسجد الحنفى وإمامه الشيخ محمد نور حسين .
١٥	١٩٠	مسجد المحمدى وإمامه السيد محمد حسين نقيب الإشراف .
٣٠	١٩٣	مسجد الشافعى وإمامه الشيخ محمد محمود .

دفتر رقم ١٨٦٨ صادر عرضحالات المعية

صورة المكتبة العربية رقم ٨ ص ١١٨

بتاريخ ٢٤ من ذى الحجة سنة ١٢٩٠

شرح بختم سعادة عرضحالجى خديو صورته بعد إطلاع سعادتكم على ما ينهيه مقدمه إبراهيم محمد عوض الكريم من البحر الأبيض بمديرية الخرطوم والوقوف على حقيقة ما ينهيه ترد الإفادة عن كيفية ما أوراه هل حقيقة موجود مجاورين بالجامع القايل عنه ومشتغلين بالتدريس كما ينهى أو أنهم مشتغلين بخلاف ذلك أم كيف وهل المسجد المذكور له مرتبات أم لا بناء عليه لزم شرحه لسعادتكم لترد الإفادة عما ذكر أفندم .

ملتمس ربط إحسان من فيض المكارم الخديوية للمساعدة به على إقامة شعائر المسجد المحكى عنه .

دفتر رقم ١٨٦٨ صادر عرضحالات المعية

صورة المكاتبة رقم ٩ ص ١١٨

بتاريخ ١٨ محرم سنة ١٢٩١

إلى حكمدار السودان

جواب بختم سعادة كاتب خديو صورته العرضحالين المرفوقين طيه وردوا للمعية السنية بالبوسطة أحدهم من المهدى مصطفى إمام الزاوية ببربر والثانى من شخص يدعى الشيخ

حبيب المجذوب أحد العلما بتلك المديرية وصاحب زاوية هناك يستفهم منهم إن كان مرتب لهم وللزاويا المذكورة بعض مرتبات نقدية وذرة من طرف الميرى لإقامة شعائر الزاويا المذكورة والآن صار قطعها بقصد إعطاء بدلها أطيان للزراعة ويتضرروا من ذلك ويلتمسوا إعادة المرتبات المذكورة لعدم إمكانهم أجرى الزراعة .

وحيث إنه فيما سبق كان ورد من سعادتكم إفادة رقم ١٠ شوال سنة ٨٩ نمرة ٢٤ وطيها كشف ببيان مرتبات أشخاص بجهة طرفكم من نقدية وغلال مرتبة إحسانًا البعض بأوامر والبعض بأذونات من الحكمدار السابق وأن الذى رأيتموه سعادتكم فى تلك ـ المرتبات هو استمرار قيد ثلاثة أشخاص منهم نظرًا لانقطاعهم للوظايف المقيمين بها ، وعدم قدرتهم على التكسب . وأما باقى المرتبات لكون أربابها مزارعين ومكنهم التعيش من نفسهم أجريتم تنزيل مرتباتهم من الترتيب الجارى أعماله وأن من يرغب منهم تعمير ساقية بالأطيان البور يعطى له لآخر ما ذكر وبناء عليه صدر الأمر العالى لسعادتكم رقم ٦ من ذى الحجة سنة ٨٩ نمرة ٦ بالاعتماد فلهذا وما أوردوه مقدمين العرضحالين المحكى عنهم من التضرر من قطع المرتب بالكيفية التى أوضحتموها وعدم إمكانهم أجرى الزراعة لم ينفهم أن كان المنظور لسعادتكم فيهم هو خلاف ما قالوه وأن فى إمكان المذكورين أجرى الزراعة إذا أخذوا سواقى وعمروها ويكون هذا هو سبب لقطع مرتباتهم ومرتبات الزوايا المحكى عنها ولم يترتب على ذلك توقيف وتأخير إقامة الشعائر الإسلامية بالزوايا كما كان الغرض الأصلى من ربط تلك المرتبات أم كيف بناء عليه اقتضى تحريره لسعادتكم حتى بعد النظر فى ذلك بالدقة ترد الإفادة الكافية بالتوضيح للنظر وأجرى اللازم والعرضحالين من طيه أفندم .

دفتر رقم ١٨٦٨ صادر عرضحالات المعية

صورة المكاتبة رقم ١٠ ص ١١٨

بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٢٩١

جواب بختم المشار إليه صورته العرض المرفوق معه تقدم من الأمين محمد خوجلى ومحمد عبد الله خوجلى من أهل العلم المقيمين ببربر بما يتفهم منه أنه كان مرتب لهم وللمدرستين المقيمين بهم بعض مرتبات نقدية ودره من طرف الميرى للإعانة على مصروفات المدارس

المذكورة والآن صار قطعها بقصد إعطاء بدلها أطيان للزراعة ويتضرروا من ذلك ، ويلتمسوا إعادة المرتبات المذكورة لعدم إمكانهم الزراعة لآخر ما أنهوه وحيث إنه فيما سبق حصل التشكى من مثال المذكورين بشأن قطع ما كان مرتب لهم وللزوايا ـ تعلقهم وتحرر لسعادتكم فى ١٨ محرم سنة ٩١ نمرة ٩ عرض بالاستفهام عما لزم فلهذا وكون أن ما أعرضوه مقدميه هو بمماثلة ما سبق التحرير عنه بالتاريخ والنمرة السالف ذكرهما اقتضى تحريره لسعادتكم لورود الإفادة عن ذلك أيضا حسب سابقة الحكاية عن أمثالهم لينظر ويجرى اللازم أفندم .

دفتر رقم ١٨٧٦ وارد العرضحالات ص ٦٧

وثيقة رقم ١١ عموم

بتاريخ ٣ ربيع أول سنة ١٢٩١

جواب رد الصادر له فى ١٨ محرم سنة ٢٩١ نمرة ٩ عرض على ما أنهوه مذكورين ببربر بالتصرر من قطع المعاشات التى كانت مرتبة إليهم وأعطاهم بدلها أطيان الزراعة يذكر أن ترتيب معاش أحدهما الشيخ حبيب المجذوب أحد العلماء بتلك المديرية هو كان بمقتضى إذن من سعادة جعفر باشا الحكمدار سابق لمدير بربر رقم ٢٦ ربيع ثانى سنة ١٢٨٣ رقم ٧٣ مرور والثانى الذى هو المهدى مصطفى يقتضى أمر عالى رقم ٢٧ رمضان سنة ٨٠ رقم ٢ عرض وحيث قبل تشكل الحكمدارية هذه الدفعة كان استصوب إعطاء أطيان لأرباب الإحسانات لتعيشهم فى مقابلة ما كان مربوط لهم لحثهم على الزراعة ، وكان استثنى من ذلك شخصين وهما الفقيه الأمين محمد مميز العلماء بذاك الصرف لكونه ضرير وربط له ٣٥٠ قرشًا شهرى بدل ٥٠٠ قرش التى كانت مربوطة له والثانى الشيخ محمد السقا لداعى كونه من أهالى المحروسة ومتوطن بالخرطوم وموظف بوظيفة شيخ القراء وعلى ذلك صدر الأمر العالى بالاجرا وهذه الدفعة عندما صارت إحالة باقى مديريات ذاك الطرف عليه وتشكيل الحكمدارية قد صار الاجرا بباقى المديريات فى حق زرباب الإحسانات بالنسبة لما توضح وبالجملة هذين الشخصين وبما أن هؤلاء الأشخاص ومثالهم جاعلين هذه وسيلة فقط لتحمل الميرى بتعيشهم مع أنهم ليسوا عاجزين بل الواجب عليهم الأشغال بالزراعة لتعيشهم والذى يحدث له زاوية أو جامع بقصد الثواب لنفسه فلا له أن يكلف الميرى بمصاريفهم وفضلاً عن هذا فإنه موجود بكل مديرية مدرسة متحمل الميرى

بمصاريفها وتلك المدارس هى كافية لتعليم الأطفال ونشر العلوم . فلذا لأى وجه يتضرر المذكورين وإذا صار الالتفات لما أبدوه فضرورة جميع من كان مربوط لهم إحسانات يتركوا زراعة الأرض التى أعطيت لهم هذه الدفعة ويتشكوا فى ذلك إذ طبعا يرجحوا ما كان مربوط لهم بدون اشتغالهم بالحراثة والزراعة المعايد منها منفعة العامة خصوصا هذه الجهات محتاجة لزيادة المصاريف الضرورية للمستخدمين والعساكر والأولى إذا زاد شىء يصير صرفة على هؤلاء المشتغلين بخدمات الحكومة ويرام عدم الالتفات لما أبدوه لامذكورين وطيه الأوراق عدد ٤ .

دفتر رقم ١٨٧٦ وارد العرضحالات ص ٦٧

وثيقة رقم ١٥ بتاريخ ١١ صفر سنة ٩١

دفتر من ١٨ رجب سنة ١٢٩٠ إلى ٢٦ رجب سنة ١٢٩١

جواب رد الصادر له فى ٢٤ صفر سنة ١٢٩٠ نمرة ٨ عرض بالاستعلام عما أنهاه إبراهيم محمد عوض الكريم من أهالى قسم البحر الأبيض بالقول أنه أجرا عمارة بيوت ومحلات بالتدريس وقراءة القرآن ومن الجملة نشا جامع لإقامة الصلوات وصار فيه طلبة علم ومجاورين يذكر أن الشخص المذكور هو من أفراد الأهالى وما أوراه بإعراضه لم يرى فيه سوى إجراره على الطمع فى مال الميرى إذ هو وأمثاله لم يكن لهم جوامع حقيقية ولا مساكن معدة بجهات إقامتهم ، بل جاعلين لهم عشش ويزعموا بأنها جوامع لتمكنهم من أغراضهم فى استحصالهم على المعاض بوسيلتها كما أن ربط المعاش له مما يوجب تمادى خلافة على ذلك وعدم التفاهم لمزارعهم بالارتكان على ما يربط لهم ويحصل التأخير فى سداد مال الميرى المطلوب منهم وهذا بالإحاطة .

دفتر رقم ١٨٧٦ وارد العرضحالات

الوثيقة رقم ٢٧ عموم شرح ما قبله بتاريخ ١٧ ربيع أول سنة ١٢٩١

دفتر من ١٨ رجب سنة ١٢٩٠ إلى ٢٦ رجب سنة ١٢٩١

جواب الصادر له من ١٣ صفر سنة ٩١ نمرة ١٠ بالاستعلام عما أنهوه الأمين محمد خوجلى ومحمد عبد لله هوجلى المقيمين بمديرية بربر ومتضررين من قطع المعاشات التى كانت مرتبة إليهما وعطى لهما بدلها أطيان للزراعة يذكرانه قبل الآن كان حصل التشكو من أشخاص بمماثلة ماذكر وعرض للمعية فى ٣ ربيع أول سنة ٩١ نمرة ٢١ بما هو لازم وحيث إذا صار

الالتفات لما أبدوه المذكورين فأمثالهم يسارعوا فى تقديم الشكوى إذ طبعا يرجحوا الاستولى على ما كان مربوط لهم بدون اشتغالهم بالزراعة مع أن هذه الجهات محتاجة لزيادة المصاريف الضرورية للمستخدمين والعساكر والأولى إذا زاد شىء يصرف على هؤلاء ويرام الإحاطة بذلك وعدم الالتفات لما يبدو من سلف ذكرهم وطيه ورقتين .

دفتر رقم ٥ معيه سنية عربى

صورة المكاتبة العربية رقم ١ مرور ص ١٦

بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩١

من حكمدارية السودان　　　　إلى المعية السنية

جواب يذكر أنه تقدم إليه عرض من الفقية سراج الدين بن يعقوب أمام المسجد الكائن بناحية أم شقة بدار فور يلتمس ترك الخمسة حلال المقيدين له من سابق بمقتضى أوراق من أمراء دارفور سلف وخلف لمساعدته على لوازمات المسجد القائم فيه الصلاة والتدريس ولتعيش الاثنين وثلاثين نفس المشتغلين معه بالتدريس فى الجامع المذكور ولكون الشخص المذكور هو من المعتبرين ونافذ الكلمة بادرفور ومقبول عند أغلب الأهالى وقابل العساكر الخديوية بالامتثال والطاعة ومجتهد فى تأمين الأهالى والعربان وتطمينهم وجذب قلوبهم للطاعة وتحصيل ما هو لازم منهم لتعيينات العساكر فصار إخباره بإبقاء الخمسة حلال المحكى عنهم معه كما كانت من سابق مساعدة له على لوازمات المسجد فيكون إيرادهم عبارة عن جانب دره يؤخذ منهم لتعيش الكلية وتعهد بتوسيع الجامع وبناء منارة له مما يتحصل من إيراد الخمسة حلال المحكى عنهم ويروم العرض للأعتاب الخديوية وما يصدر به يفاد ومعه ثلاثة أوراق .

دفتر ٢ أوامر عربى

صورة الأمر الكريم رقم ٦

بتاريخ ٢٢ شوّال سنة ١٢٩١

أمر كريم　　　　إلى حكمدارية السودان

أمر كريم منطوقه عرض لدينا أنهاكم الرقيم ١٥ شعبان سنة ١٢٩١ نمرة ١ مرور بشأن ما أعرضه إليكم الفقيه سراج الدين بن يعقوب إمام المسجد الموجود بالبلدة المسماة أم شنقة عن

الخمسة حلالات المتروكة له من سابق بموجب مكاتبات فى يده من أمراء دارفور ويلتمس استمرار معافاتهم هو واثنين وثلاثين نفر لمساعدته على المسجد القائم فيه الصلوات وتدريس العلم ـ وكما علم أنه بالنظر لما حصل من سعيه واجتهاده فى صوالح الحكومة وما علمتموه بأن إيراد تلك الحلالات هو عبارة عن جانب دره يؤخذ منهم ـ لتعيش الطلبة المشتغلين بالتدريس وأن الأشخاص الراغب معافاتهم هم مشتغلين بالعلم كما وأنه تعهد بتوسيع المسجد وبناء مأذنة له هنا يتحصل من إيراد الحلالات المذكورة قد اخترتموه بإبقاء تلك الحلالات على ما كانوا عليه لمساعدته بذلك على لوازمات المسجد وتروموا استحصال أمرنا بما يتبع أجراه وحيث إنه وافق إرادتنا أبقى الخمسة حلالات المحكى عنهم والحالة هذه مؤقتًا كما ذكر وفيما بعد ينظر فى خصوصهم لزم إصدار أمرنا هذا لكم بذلك حسب ما تعلقت به إرادتنا .

من عابدين

دفتر رقم ٥ معيه سنية «عربى» وارد الإفادات

صورة المكاتبة العربية رقم ٨ مرور ص ٤٨

بتاريخ ٨ من ذى القعدة سنة ١٢٩١

من حكمدار السودان إلى المعية

جواب يذكر أنه أعرض للمعية فى شوال سنة ٩١ نمرة ٦ بأن ولد سلطان دارفور لما بلغه وفاة والده هرب من الفاشر وأخذ ما أمكن أخذه من الأموال وغيرها والآن بالتفحص ممن لهم دراية من أهالى وفقهاء دارفور عن فاملية أميرهم قد صار الحصول على هذه النسبة المحتوية على من حكموا دارفور من هذه العائلة من أولهم لآخرهم وهو أنه ـ قبل الإسلام كانت دارفور محكومة بملوك سودان من المجوس من قبيلة تسمى «داجوا» ، وآخر ملك منهم يسمى تنجر وفى سنة ٨٥٢ من الهجرة حضر شخص يسمى أحمد المعفو من عربان رفاعه الموجود منهم الآن قبايل بمديرية سنار ومعه جانب وافر من قبيلته ـ وتولى هى دارفور وكردفان وأقام فيهما دين الإسلام وفى سنة ٨٧٧ هـ خلفه رفاعه ولده وفى سنة ٨٩٧ تولى شاوردن شيت ولد رفاعه وفى سنة ٩١٣ تولى إبراهيم الدليل أخى شاوردن المذكور وهذا الأخير ترك ولدين أحدهم يسمى بحرجد عائلة

مسبعات والثانى يسمى صابون رئيس عائلة كتجارة . وهاتان العائلتان تملكان دارفور وكردفان الواحدة بعد الأخرى ، وصابون المذكور هو الذى قسم دارفور إلى خمسة أقسام وفضل هذا التقسيم مستديم من بعده إلى هذا الآن فأول قسم يسمى بدار الفاشر وما حولها والثانى دار التكنياوى ، وثالث قسم دارابادوما والرابع دارابا أومه والخامس دارابو شيخ وتولية صابون المذكور كانت فى سنة ٩٦٧ ثم من بعده ولده إدريس جال فى سنة ٩٨٧ وفى سنة ١٠٠٠ تولى كور ولد إدريس وفى سنة ١٠٠١ تنذم أخى كور وفى سنة ١٠٢٠ سولبوته أخى تنذم وفى سنة ١٠٣١ عبد الرحمن سرف أخى سلبوته وفى سنة ١٠٦٤ روم سام أخى عبد الرحمن وفى سنة ١٠٩٦ ولا تومه ولد روم سام وفى سنة ١١٠٠ سولوت بن أخى ولا تومه هذا الاسم يسمى سولون هو بلسان فور وعربيته سليمان وفى سنة ١١١٣ تولى موسى ولده وفى سنة ١١١٦ محمد بولاد أخى موسى وفى سنة ١١١٩ رجع موسى للحكم بالثانى وفى سنة ١١٢٨ أحمد بكر بن موسى وفى سنة ١١٤١ إسماعيل أبو حرانه أخى أحمد بكر وفى سنة ١١٥٤ محمد حرانه ابن أخيه وفى سنة ١١٥٩ عمر ليل أخى محمد حرانة ، وفى سنة ١١٦٧ أبو القاسم عم عمر وفى سنة ١١٧٦ تيراب أخى أبو القاسم وهذا الأميركان توجه لمحاربة هاشم رئيس عائلة مسبعات أمير كردفان وهزمه وتعقبه إلى أن وصل إلى أم درمان وهى على شاطئ النيل الغربى من الخرطوم وفى غيابه كان أوكل ولده إسحاق محله وفى أثناء عودته فى باره وهى قرية من قرى كردفان فأمراء الجيوش الذين كانوا معه ولوا أخيه عبدالرحمن الرشيد بدله وحضروا به إلى دارفور فلما استشعر بذلك إسحق قام من محله ومعه جيوش عديدة لمقاتلته حيث هو الآخر عند وفاة أبيه كان صار توليته أمير بواسطة من كانوا معه من أمراء دارفور واستمر القتال والشقاق بينهم مدة سنتين ، وأخيراً قد انهزم إسحاق وقتل بجرار جبال مره وتأيد الحكم إلى عبد الرحمن عمه فى سنة ١٢٠٤ ، وهو الذى أسس بلدة الفاشر وجعلها مقر لحكومة دارفور ، وذلك فى سنة توليته إذ الملوك الذين قبله كانوا يسكنوا القرى المجاورة لجبل مره والقرى التى بداخله وفى سنة ١٢١٤ تولى محمد الفضل بن عبد الرحمن المذكور وفى مدة الأمير استولت الحكومة الخديوية على كردفان ودخلت مقر حكومتها المسمى الأبيض فى ٢١ من ذى القعدة سنة ١٢٣٦ على يد محمد بك الدفتردار رئيس العسكر الذين حضروا وقتها من المحروسة بعد المحاربة مع عساكر دارفور وقتل المقدوم مسلم الذى كان حاكم كردفان وقتها وفى سنة ١٢٥٦ تولى محمد الحسين

بن محمد الفضل المذكور وفى سنة ١٢٩٠ خلفه إبراهيم ولده وهذا آخر أمراء دارفور وقتل بالمحاربة الذى وقعت بينه وبين عساكر الحكومة الخديوية المصرية ببلدة منواشى فى يوم الأحد ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ ودفن بجامعها وهذا بالإخطار للمعلومية .

دفتر رقم ١٥ معيه وارد الإفادات عربى

صورة الوثيقة رقم ٢٦ ص ٩٥

بتاريخ ٩ ربيع أول سنة ٩٣ وورد فى تاريخه

من الحقانية　　إلى المعية

جواب يذكر أنه ورد له إفادة من مجلس الأحكام بناء على التلغراف الوارد له من حكمدارية السودان بأن قاضى محكمة سنار توفى ولعدم وجود وكيل له لرؤية الأحكام الشرعية بتلك المحكمة تعطلت أشغالها ورغبت الحكمدارية التصريح لها بتعيين الشيخ إبراهيم عيسى ولد المنوفى وكيلا مؤقتًا لحين تعيين من يلزم لحسن الشهادة فى حقه من قاضى السودان فمن الحقانية تصرح للحكمدارية بذلك فى التلغراف وكتب لقاضى أفندى المحكمة بانتخاب من يكون فيه اللياقة لذلك ووردت الإفادة بأنه باتخاذ الرأى مع حضرات أعضاء المجلس الشرعيين استقر الرأى على انتخاب وتعيين الشيخ محمد مكى الأصوائى الحقيقى من أهل العلم بالجامع الأزهر للوظيفة المذكورة لما فيه من اللياقة والاستعداد وليكون تعيينه وإجازته فى تعاطى الأحكام الشرعية بها من قبل الحضرة الخديوية لا يكون لا بالأمر فيروم العرض للأعتاب السنية عما ذكر .

ملحوظة : صدر له أمر عال فى ٢٥ ربيع الثانى نمرة ١٧ وحفظ .

دفتر قيد صادر العرضحالات توتى سنة ١٥٩٢

صورة المكاتبة رقم ٥٣ ص ١٨٥

بتاريخ ٧ من ذى القعدة سنة ١٢٩٣

بختم سعادة مهردار خديو صورته مقدمه أحمد النقيب ابن الشيخ محمد ساتى صبرنسى من أهالى دنقلة تيشكى بأعراضه هذا من مطالبته بمال الأطيان الموقوفة على المسجد والمكتب

الكائنين ببلده وكما يقول أنه سابق صدور أمر من المرحوم سعيد باشا للمالية فى ١٢ رجب سنة ١٢٧٨ نمرة ١٧٣ بالتجاوز عن ربط مال عليها لآخر ما أنهاه من مطالعته يعلم وحيث إن الاقتضى الوقوف هنا على حقيقة ما زنهاه لزم شرحه لحضرتكم لترد الإفادة عن ذلك .

أرسل الرد من دنقلة إلى المعية فى ٥ من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ نمرة ١ عرضحالات .

دفتر رقم ١٥ قيد وارد الإفادات

صورة المكاتبة رقم ١ ص ٧

بتاريخ ٥ من ذى الحجة سنة ٩٣ سنة ١٨٧٧ إفرنكية

جواب رد الصادر له رقم ٧ الماضى نمرة ٥٣ على إنهاء من أحمد النقيب بن الشيخ محمد ساتى صبرنسى من أهالى المديرية فى خصوص الأطيان المعطاة إلى والده وقفا للمسجد والمكتب يذكر أنه بالتحرى عن ذلك أتضح سابقة تقديم أعراض من الفقيه محمد ساقى على ديوان المالية ينهى فيه أن جامع جده موقوف له أطيان ١٧ فدانًا وكسور وبوقت تشريف السودان بحلول الركاب العالى تقدم منه أعراض للأعتاب فى خصوص ذلك وصدر الأمر بعدم أخذ مال على الأطيان المذكورة والمديرية متعرضة بأخذ مال عليها وعرض منها للمعية السنية فى ٢٨ جمادى ثانية سنة ١٨٧٨ نمرة ١٣١ عن ذلك وصدر لها أمر عال رقم ١٢ رجب سنة ٧٨ نمرة ١٧٣ بالتجاوز عن ربط المال على ذلك المقدار دينا عليه تحرر من المالية لمديرية دنقلة فى ١٧ رجب سنة ٧٨ نمرة ٤ وأرسلت طيه صورة الأمر العربى وصورة ما عرض منها للمعية باتباع الأجرى حسبما صدر به الأمر وعملا بذلك صدر أذن للحسابات فى ٥ من ذى القعدة سنة ٧٨ نمرة ١٦٨ بعدم ربط مال على الأطيان وعدم وُدخالها بالزمام ولما صدر أمر الحكمدارية أهيرًا بأعمال جدول ببيان السواقى الرزق بالمديرية والأطيان المعطية بدل معاشات كان تحرر جدول بما ذكر واندرجت فيه الأطيان المذكورة بما فيه أطيان محمد ساقى على وكتب عنه للحكمدارية فى ٢٥ جمادى أولى سنة ٩١ نمرة ١١٤ ، ومنها عرض للمالية فى ٢٧ رجب سنة ٩١ فصدرت مكاتبة المالية للحكمدارية رقم ٥ جمادى الثانية سنة ٩٢ نمرة ٤٩٧ بما يفيد أنه صارت مطالعة الكشف بها ومع سبوق صدور أمر للمديرية من معية المرحوم سعيد باشا بتاريخ ٩ جمادى ثانية

١٢٧٧ نمرة ١٦ بعدم إقرار المديرية على رفع شيء من مال تلك السواقى بل والسواقى غير المربوطة يجرى ربطها بالزمام ما كان يصح ترك مالها ارتكانا على مقولة أعطاها حتى نشأ عن هذه الارتكانات تراكم الأموال من سنة إلى سنة فصار اللازم الآن تدارك الأمر فى الحصول على تسديد تلك المبالغ إذ إن الأحوال لا تساعد على ترك أموالها ولا يصح السكتة فيها هذا مع استمرار التحصيل كما يفى بمكاتبة المالية وعملا بما ذكر جرى اللازم نحو ربط السواقى الرزق بالزمام وبالجملة أطيان محمد ساقى المذكور جرى ربطها بالزمام من ابتداء سنة ١٢٧٧ ابتدى مساحتها وجارى مطالبة تحصيل مالية هذا وهذا وأنه صار نسخ صورة الأوامر وما صدر من المالية ونتيجة ما صار فى مخصوص تلك الأطيان بقائمتين ورق من طيه ما يفهم .

دفتر رقم ١٢ جزء أول قيد إفادات العرضحالات صادر سنة ١٨٧٧

صورة المكاتبة العربية رقم ٢ ص ٦٨

بتاريخ ٢٨ جماد أول سنة ٩٤

جواب بختم سعادة المشار إليه صورته الأوراق المرفوقة بهذا تقدمت للمعية السنية بإفادات من مديريرة دنقلة رقم ٥ الحجة سنة ٩٣ نمرة ١ ومن نظارة المالية رقم ١٦ جماد أول سنة ٩٤ نمرة ٣ يشتملوا على مادة ١٣ ف وكسور بجزيرة أبو تركى بتلك المديرية يدعى فيهم أحمد النقيب من أهاليها بأنهم وقف على المسجد الذى كان مقيم به والده الشيخ محمد ساقى مدة حياته لإقامة الشعائر وتعليم الأطفال وطعام الواردين والمترددين وأنه فى عهد المرحوم سعيد باشا كان صدر أمره برفع ما لهم من الزمام وبعدها كان حصل درج الأطيان المذكورة ضمن جدول تحرر من المديرية وتقدم للمالية بواسطة الحكمدارية فى مدة سلفة ببيان السواقى والأطيان المعطية بدل معاشات والمالية أشارت بارتجاع ما للجدول لكروه بالزمام وتحصيل الأموال والمدعى يرغب إعادة رفقهم ضمن الزمام حسب الأمر السالف ذكره لآخر ما هو مسطر بالأوراق مما يفهم تفصيلا به لدى الإطلاع وحيث إن هذه المادة مما يحتاج درسها بطرف سعادتكم اقتضى تحريره وكامل الأوراق فيه لإعادة النظر فى ذلك وإن كان يتراءى لسعادتكم شيء فيها وترد الإفادة عنه بوقتها تتقدم للعرض للاعتاب السنية أفندم .

حاشية ـ من مفردات الأوراق ينفهم أن الشخص الذى لم حصل الإقرار عليه من المديرية على إقامته فى أداء ما كان عليه والده مدة حياته من خدامته المسجد وغيره بل يفهم أن له إخوة آخر وصار التراضى على صلاحية أحدهم المدعو عبد الرضى حسبما ينفهم من مطالعة الأوراق طيه وقدرهم عدد ٨ ولزيادة الإيضاح لزم التحشية .

٢٩ جماد الثانى سنة ٩٤

شرح بختم سعادة المشار إليه صورته حيث إنه ما ينهوه مقدمينه الأمين محمد خوجلى وعبد الله من خدمة العلم الشريف بحلة الغبش بمديرية بربر فى شأن تظلمهم من قطع مرتباتهم وإعطائهم بدلها من الأطيان بالكيفية القايلين عنها لآخر ما أنهوه مما يتعلق رؤيته بالحكمدارية فاقتضى شرحه لسعادتكم بالإحالة أفندم .

دفتر رقم ٣١ وارد معية عربى

ص ٦٤ رقم المكاتبة ١٩

تاريخ الجواب ٢٧ شوال سنة ٩٥ تاريخ الورود غرة الحجة سنة ٩٩

من حكمدارية السودان إلى المعية

جواب يذكر أن ميزانية إيرادات ومصروفات جهات السودان باعتبار سنة واحدة وكشف الدين المطلوب من السودان لغاية ١٧ أكتوبر سنة ٧٨ وبمعية العساكر الذين بالجهات السودانية وكشف المسجونين السابق الوعد عن تقديمهم للمعية مرسولين مع هذا ومن مطالعة الميزانية يتضح أن الإيراد بلغ ، ١٧ ياردة ١٧ قرشا ٥٧٩٧٢٥ جنيها والمصروفات ٢٤ ٧٦ ٦٧١٨٤٩ ولو أن المصروفات والحالة هذه تزيد عن الإيراد ٧ ٣٥ب ٩٧١٧٤ص لكنه بالنسبة للتعديلات الجارية الآن منظور أن الإيراد قريبًا يوازى للمصروفات كذا لدين المطلوب من جهات السودان ٣٢٧١٦٨,٦٩,٢٩ جنيها داخلة قيمه ما هو مطلوب من الحكمدارية للمالية والجهادية وحسن على بك ومطلوب التجار الذين أبيع عليهم السن بمصر وقيمة الاستحقاقات والتركات المتأخرة لأربابها ولولا ذلك لم يتبق إلا ما يكن مطلوب لبعض الجهات والنجار بالسودان كذا كشف المسجونين واضح فيه بيان الأشخاص الذين حضروا من جهات المحروسة وهؤلاء بيصرف عليهم

مبالغ من السودان فمع الموافقة يؤذن بأن يحسش للحكمدارية مصاريف لكل نفر خمسة جنيه سنوى كما أنه من جهتى سواكن ومصوع حارين صرف فحومات وأدوات لوابورات البوستة الخديوية فترغب التصريح باحتساب أثمان ما ذكر عليها .

عدد

١ ميزانية عن الإيرادات والمصروفات باعتبار سنة .

١ كشف بيان الإيرادات مدة سنة .

١ كشف بيان المصروفات باعتبار سنة .

٣

١ كشف مقدار الدين المطلوب من جهات أسوان لغاية ١٧ أكتوبر سنة ٧٨ .

١ يومية عن موجود العساكر بجهات السودان .

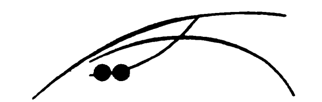
١ كشف ببيان المسجونين .

٣ الجملة ٦ عدد .

ملحوظة ـ تحرّر لمجلس النظار غرة من ذى الحجة سنة ٩٥ نمرة ٦ الوارد مرسل .

■■■

الملحــق (١٣)
وثائق مقتبسة من الوقائع المصرية
عن التعليم فى عهد إسماعيل وتوفيق



الوقائع المصرية نمرة ٢١٣
بساتين التجربة التى ينبغى فعلها بالقطر المصرى

بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٥ ـ ٤ يولية سنة ١٨٦٨

لحضرة عزتلو فيجرى بك بترجمة عظيمة الجدا لحضرة فتوتلو أحمد أفندى ندا وهى :

بساتين التجربة عبارة عن أرض واسعة قابلة للزراعة يملكها شخص أو جملة أشخاص وهى معدة لتعلم الزراعة والفلاحة عملا . وموضوعه فى محل مناسب للزراعة والصحة قريبًا من ترعة أو شاطئ بحر ليسهل سقيها . ونقل متحصلات الزراعة منها . وهى قسمان : أحدهما لتربية الحيوانات الأهلية وزراعة نباتات العليق والمرعى . والثانى لزراعة نباتات الحبوب المختلفة والنباتات التى تستخرج منها الألياف المعدة لصناعة المنسوجات كالكتان والتيل والقطن إلخ . والنباتات الزيتية والتى تستعمل للصباغة وقصب السكر وأحيانًا تزرع فيها أشجار الغابات وشجر التوت وأشجار الفواكه خصوصًا شجر البرتقال وشجر الليمون وشجر الكرم وشجر الزيتون . وهذه البساتين المهمة ينبغى إدارتها بمعرفة تلميذ تمم دراسته بمدرسة الزراعة المصرية ويكون منوطًا بتعليم بعض الزراعين الذين يصيرون قراما على غيرهم عند خروجهم من هذا البستان . والمقصود من إنشاء هذه البساتين تحسين متحصلات الزراعة وازدياد مقدارها حجما ووزنا ومنع تولد التغيرات التى تعترى المزروعات وينبغى لقوام أن يتعلموا كيفية تجهيز أنواع الأسبخة وكيفية حفظها وأن يستعملوا لكل زرع ما يناسبه من الأسبخة المذكورة بالمقدار المناسب وأن يتعلموا كيفية تربية الحيوانات وحفظها .

والمقصود من البستان المعد لتربية الحيوانات الأهلية انتخاب الحيوانات وتربيتها وجودة حفظها وإعطائها الغذاء المناسب لها وتكثرها بالطرق المناسبة وينبغى تنويع أغذية الحيوانات بحيث تكون سهلة الهضم مقوية للعضلات فتكسبها أشكالاً بهية وتولد فى الحيوانات المعدة للذبح مقدارًا عظيمًا من الشحم .

وقبل إدخال الزراعين الذين يتعلمون هذه الصناعة ينبغى أن يكون لهم إلمام بمعرفة القراءة والكتابة وأن يعرفوا طرفا من الحساب وكيفية مساحة الأرض وبعد مكثهم بالبساتين نحو ثلاث سنوات وتأدية الامتحان اللازم والإجابة فيه عن الأسئلة التى تعطى لهم يجعلون قواما على غيرهم فى المزروعات .

وينبغى أن تكون تلك البساتين فى محال مختلفة من القطر المصرى أحدهما فى اطفو والثانى فى أكناف قنا والثالث فى أكناف جرجا والرابع فى أكناف أسيوط والخامس فى أكناف المنيه والسادس فى أكناف قليوب والسابع فى وسط البحيرة .

ولأجل ازدياد المزارعين خصوصا فى الصعيد ينبغى أن تجلب أشخاص من السودان يتعودون على زهوية القطر المصرى شيئًا فشيئًا بأن يمكثوا بالبستان الذى يجعل باطفو . ثم ينقلوا فى البساتين التيبعدها على التعاقب . فبعد مضى نحو عشرين سنة تتعوّد أولادهم على الأهوية حتى يصلوا نحو القاهرة متعلمين ما يلزم للزراعة . وينبغى أن يتعلموا القراءة والكتابة بالبستان المذكور وتجعل لهم قوانين زراعية يتبعونها بهذه الكيفية تعود على أهل السودان بمنفعة عظيمة بتعليمهم أصول التمدن وتداخلهم مع زراعى القطر السودان بمنفعة عظيمة بتعليمهم أصول التمدن وتداخلهم مع زراعى القطر المصرى الذين هم أكثر تمدنا منهم . وهؤلاء الأشخاص إذا رجعوا إلى بلادهم يدخلون فيها ما تعلموه من الزراعة والخصال الحميدة التى اكتسبوها وبهذه الكيفية ينتشر التمدن بالسودان شيئًا فشيئًا وتزداد متحصلات الزراعة فتكثر التجارة والرفاهية والراحة العمومية .

الكلام على بستان التجربة الذى ينشأ فى اطفو

وهو المعد لتعليم بعض السودان

يوجد على الجهة الشرقية من أطفو أرض متسعة تنسب إلى وادى عبابدى ومقدارها نحو ٣٠٠٠ فدان وهى منحدرة نحو أرض النيل . وهذه الأرض مكوّنة من طفل ضارب للصفرة مارا

على أرض النيل . وهى مناسبة لإنشاء بستان للتجربة الذى ذكرناه . ولأجل زراعة الأرض المذكورة ينبغى أن يجعل بها ١٢٠٠ شخص من السودان سن الواحد منهم من ١٢ إلى ١٥ سنة يأتى ٢٠٠ منهم على التعاقب . وعند وصولهم إلى أطفو ينبغى أن يتعلموا كيفية صناعة ضرب الطوب النيء لبناء مساكنهم والشونات والمخازن اللازمة والإسطبلات وزاوية من الأجر للعيادة على مقتضى رسم مخصوص . وينبغى تقسيمهم إلى ست فرق كل واحدة منها ٢٠٠ نفر . ويجعل عليهم ٢٠ أونباشه وعشرة جاويشية تؤخذ من السودان المتمرنين بالآلايات وواحد من الخولة المصريين . وإدارة هذا البستان يناط بها ناظر ذو دراية كافية مصحوب بما يلزم له من الضباط والكتبة والقوام وحكيم بيطرى وطلومبة حريق ونجار وحداد وصانع عجلات ومدابغى وما يلزم من الأشخاص لصناعة الزبد والجبن والزيوت وإذا اقتضت الحاجة قاضيا أو طبيبًا أو مهندسًا يجلب من المحل الأقرب للبستان المذكور .

وعند دخولهم بالبستان ينظفون أجسامهم بالاغتسال فى بحر النيل ويحلقون رءوسهم ، ثم تعطى لهم الملابس الجديدة اللائقة بهم . ثم يلقح لهم الجدرى بمعرفة الطبيب . وبعد استراحتهم فى الخيام يشرعون فى تعلم الطوب النيء الذى يبنون به مساكنهم ، ثم يجهزون مقدار آخر من القوالب اللازمة لمساكن المائتين الذين يأتون بعدهم وهكذا .

وينبغى للسودانيين المذكورين متى استوطنوا أن يتزوجوا بنساء من جنسهم أو صعيد مصر وهو الأحسن لأن أولادهم تكون أكثر قبولا للتعود على زهوية القطر المصرى .

وكل فرقة يكون بها أحد القوام لحفظ الحيوانات الأهلية والعليق والآلات الزراعية وطرمبيطى من الجهادية لينبههم على القيام من النوم والنداء والفطور والذهاب إلى البستان ويكون بها إمام للعبادة وتعليم الأطفال القراءة والكتابة ويكون بها حلاق أيضا .

ويأخذون ملابسهم وأغذيتهم من القيم الخولى بحضور الناظر الذى يقيد ما يأخذونه فى الدفتر ومتى تأهلوا يأخذون خراجهم بدون طبخ كل أسبوع . وللناظر أن يعطى جزاء للأشخاص الذين يتميزون عن أقرانهم بمفهوميتهم أو غيرتهم أو اجتهادهم فى الشغل أو بعض شجاعة تظهر منهم بأن يعطى لهم طربوشا أو نعلا أو منديلا من القطن . وأعظم جزاء يعطى لهم محجن .

وهذه الهدايا التى تعطى لهم لا يلبسونها إلا فى يوم الجمعة أو فى الأعياد . ويمنعون من أن يوجد بمنزلهم شيء من أنواع الشفرات أو العصى .

وينبغى للأونباشية والجاويشية أن يفتشوا أنفارهم ليعلم من أصيب منهم بالحرب أو نحوه لينبهوا عليه القوم ثم الناظر فيدخله الاسبتالية .

والزوجة تكون منوطة بأشغال المنزل ونظافته وملابس العائلة . وينبغى أن تأتى كل يوم بالماء اللازم لمنزلها من بحر النيل لا من ماء الآبار لأنه يستعمل للرش وتنظيف الأوانى فى الأوقات الخالية من الشغل خصوصًا فى فصل الصيف . ويجب على الزوجة أن تغزل جانبًا من القطن أو من الصوف وأن تتعلم كيفية صناعة المنسوجات التى من قماش أو من صوف . فبهذه الكيفية تصير كل زوجة ذات غيرة على منزلها . متممة للقاعدة المؤسس عليها بستان التجربة من أن البطالة إحدى الرذائل .

ثم يتناول فيجارى بك تربية الأطفال فيقول فى هذه البساتين .

وأولاد السودان الذكور والأناث الجيدى الصحة متى صار سنهم أربع سنوات يشتغلون بجمع الوقود الموجود بأكتاف البستان لاستعماله فى إنضاج الخبز ونحوه . ويجمعون الحشيش الذى قلع من البستان ليستعملوه فى تغذية ما عندهم من المعز والضان والدجاج ونحو ذلك . فبذلك تزداد وسائط تعيشهم .

والصبيان من صار منهم خمس سنوات يجتمعون سواء عند الأمام ساعتين صباحًا وساعتين وقت العصر ليعلمهم القراءة والكتابة ثم قواعد الحساب الأربعة . وهى الجمع والطرح والضرب والقسمة . ومتى صار منهم ثمان سنوات يتعلمون الإملاء ويداومون عليها إلى سن العشر سنوات فيتقدمون فى التعليم . فيتعلمون بعد ذلك الأجرومية العربية ثم الحساب واستعماله فى المحاسبة ومساحة الأراضى . وفى سن الاثنى عشرة سنة يبتدئون فى الشغل بأيديهم فى بستان التجربة . ويداومون على ذلك إلى سن الخمسة عشرة سنة .

وبعد السن المذكورة يؤخذ منهم للعسكرية كغيرهم من الأهالى . ومتى خرجوا من العسكرية يدخلون بستان التجربة فى سن العشرين سنة فيأخذ كل منهم جانبًا قليلاً من الأرض كنصف فدان أو فدان يزرعه لعائلته .

وبنات السودان متى صار سنهن سبع سنوات يتعلمن ما يلزم من الخياطة والطباخة ونحوها بحيث إنهن متى وصلن إلى سن الزواج يكون لهن إلمام بإدارة منازلهن لهم .

الوقائع نمرة ٩٣١

امتحان مدرسة الخرطوم

٢٤ شوال سنة ١٢٩٧ ـ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٠

أنه لما كان من المآثر الحميدة المعتاد إجراؤها فى كل عام امتحان تلامذة مدرسة الخرطوم المعمورة فى ظلال الساحة الخديوية بجزيل الأنعام أدام الله أيامها ونشر بالنصر أعلامها ليتبين مبلغ إكتابهم فيما هم به مشتغلون من أنواع العلوم والمعارف وتتميز درجات الفائقين فيها عما عداهم بنيل لطائف الوظائف . فلذا بيوم الإثنين المبارك الموافق ١٨ شعبان سنة ١٢٩٧ قد انعقد بها مجلس عظيم ومحفل فخم تجلى عقد نظامه بسعادة الباشا الماجد وكوكب العدل المتصاعد من ذاقت به رعيته طعم الراحة والأمان حضرة محمد باشا رؤوف حكمدار عموم السودان وجعله من العلماء والأعلام والذوات الفخام ورؤساء المجالس المعترين وقناصل الدول المحتشمين وبعض الضابطان العظام من الجهادية الكرام . وبمحضر هذا المحفل الجليل الشأن قد صار إجراء عملية الامتحان فأبدت نجباء تلامذتها ما دل على يمن وسعود طالع الحضرة الفخيمة الخديوية وحسن مساعى ومقاصد الطلعة البهية التوفيقية من نفائس علم العربية وأحاسن اللطائف الأدبية ومحكم الصناعة الإعرابية ومتقن القواعد الحسابية . وقد تلى اثنان منهم أحدهما محمد نور إبراهيم والثانى حسن على أغا مقامتين حريريتين فأبانا عما ينشرح له الصدر وتقر به العين من تعبيرات فائقة ومعان رائعة ولطائف رقيقة وطوائف دقيقة وفهم سائل وعزم سام عرفا الحاضرين أخوة حام لسام . فمد الجميع أكف الضراعة والابتهال ببقاء حضرة الخديو الأعظم مؤيداً بالإجلال ممتعًا بكرام الأنجال حيث رأوا فى ظلاله من هؤلاء التلامذة السنة ما لم يروه منهم قبل وكانوا عنه فى سنه وما ذاك إلا من يمن الطالع وخلوص نيته وحسن مقاصده وصفاء سريرته وشدة الحرص من أمنيته وحكمداره سعادة محمد باشا رؤوف على الاقتداء بإثارة فى توسيع دائرة علوم الوطن وتقدم أبنائه بسعة القطن حتى لدى تشريف سعاديه مدينة الخرطوم بادر فيما يوجب نتائج تلك المصلحة المائدة بنفع العموم فرتب باشخوجة لهذه المدرسة المعمورة

حضرة ذى الفضائل المأثورة اللوذعى النجيب والبارع الأديب الشيخ أحمد محمد جداوى الأسوانى الذى كان قاضيا لعموم دارفور حتى يحسن اجتهاده صارت فى درجة هذا التقدم على الفور وتبسمت ثغور أنوار حدائق معارفها عن عطير تلك الأنفاس الأزهرية وتنسمت أزاهيرها عن عبير تلك النفحات الندية وحيث كان تقدم أبناء الوطن فى المعارف هو من أكبر المنن التى لا تخفى على أى عارف . وقد كان ذلك اليوم يوما جليلاً وموسمًا فخيمًا جزيلاً تجلت به بشائر الأفراح على الجميع ونظروا فيه من المآثر الحميدة الخديوية أحسن صنيع مع تشنيف الأسماع بمقالات وقصائد ترتاح لها الطباع سيما المقالة التى أنشاها باشخوجتها الفضل وتليت على لسانه قبل الامتحان حثا للتلاميذ على التقدم والتحلى بالفضائل وقصيدته المتلوة بعدها على لسان التلامذة النجباء الأذكياء الفضلاء .فشكرا إلى جناب الخديو الأعظم وسعادة أمينه الحكمدار المفخم .

نحمدك يا من بتوفيقك حليتنا بأنواع المعارف والعلوم وجليت لنا عن مخدرات المعانى فى مشيدات المبانى بأنوار المفهوم إذ العلم أشرف حلية يتحلى بها الإنسان وأفخر فضيلة تجاز بها قصبات السبق فى ميدان التبيان عند الرهان ويوم الامتحان . ونشكرك يا من أوليتنا جزيل الإنعام وأزلت عنا رجس الكفر وشرحت صدورنا بنور الإسلام حيث أرسلت إلينا رسولا رءوفًا رحيما عطوفا رفق بالمسكين وخفض جناحه للمستكين وبه انحنى الباطل واندثر واستقام الحق وظهر فآمنا به وصدقناه وانتظمنا فى سلك أمنه واتبعناه سيدنا محمد الهادى إلى سبيل الرشاد والواسطة العظيم فى إيصال الخير لنا فى المبدأ والميعاد صلى الله عليه وعلى آله الكرام وأصحابه الذين نالوا بصحبتهم له أرفع مقام ما أينعت أزهار الفنون من رياض المدارس وكرع من صافى مناهلها العذبة كل تلميذ ممارس . أما بعد فاعلموا معشر التلاميذ ومجمع الأذكياء الجهابذة إن العلم أبهى مطلب تطوى لتحصيله القدار وأسنى مأرب تقتحم لأجله الأخطار لذلك حث عليه الصادق الأمين فقال : اطلبوا العلم ولو بالصين وإن من أجمل النعم المسبغة عليكم وأكمل المواهب المسداه إليكم أن سهلت لكم طرق تحصيله وكفيتم مؤن افتنائه وحصوله حتى تمتعتم بالاقتطاف من أزاهير رياضه وتضلعتم بالشرب من رحيق حياضه بلا مكابدة مشقة ولا مقاساه ألم شقه فى ظلال ساحة مليك سعدت به رعيته وطابت سريرته فحسنت سيرته حضرة الخديو الأمجد وعزيز مصر المؤيد القائم بواجبات الوطن أحسن قيام والصارف أفكاره فى راحة الأنام

والصالح العام من هو بكل مجد حقيق جناب أفندينا محمد باشا توفيق ملك جميع مساعيه حميدة وآراؤه كلها صائبة سديدة ورجال حكومته هم الرجال الذين يحق أن تناط بهم الأعمال أعطى القوس باريها ورقى المنصب لمستحقيها حيث أمر علينا أفخر أمير وقلد ولاية هذه الأقاليم السودانية لمن هو بها جدير سعادة الباشا الأكرم والحكمدار لأفخم من هو برغبته مشفق عطوف واسمه كمسماه رؤوف فتزينت بوجوده السودان ونامت قطانها بظل الأمان كان العدل فيها اسما فأوجد مسما ورسما فجسمه وأحياه من ثبات وعقل وكمال ومنطق أسحر من السحر الحلال وأخلاق حميدة كالخلوق تعبق مسكا وتشوق وشيم عنبرية الأرج وحلم قل فيه هو البحر ولا حرج ومذهب صفا صفاء النبروخلص من الصلف والكبر حتى مالت إليه الأهواء ورفع له بالحمد الولاء فاغتنموا أيها النجباء صفو هذه الأيام الغر وقابلوا منى حضرة الخديو بجزيل الشكر إذ هو أساس كل خير وصلاح ومنبع كل فلاح ونجاح أبقى لنا الله جنابه العالى ونصر بوجوده الأيام والليالى ومازالت العلياء ملقيه إليه التقاليد والسعد ملازما له جملة العبيد هذا ولما كان من المآثر الحميدة والعوائد الأكيدة امتحانكم فى كل عام يحضر الذوات الكرام لتتبين منكم الحقائق ويتميز العائق من المائق فها هو ذلك اليوم الجليل قد حان حينه وتأرجت لكم رباحيته وتشرفتم فيه بمقدم سعادة الحكمدار الجليل عليكم وسعيه المشكور إليكم ومجمع ذوات كبراء وأعيان وأمراء فياله من يوم تجلت فيه بشائر الأفراح وعاد بأنس أشهى من الراح للأرواح فشمروا فيه عن ساعد الاجتهاد وجيبوا عن ما تسألون فيه بذهن وقاد فمن أجاب فاز بحظ موفور ورمق بعين الإجلال والسرور فى حمى ساحة الحضرة الخديوية والمكارم التوفيقية أدام الله أيامها ونشر بالنصر أعلامها .

وافى زمان الأنس والتبشير ... والعز والإقبال والتيسير
وبدت بكل مسرة أيامنا ... وصفت ليالينا من التكدير
والروض أينع زهره إذ نسمت ... ريح الصبا فيه بنشر عبير
وسرى من النسرين أبهر عبهر ... والياسمين سما بأبهج نور
والآس ماس مباهيا بشميمه ... وزها الأقاح مقهقها بثغور
وتراقصت طربا غصون البان من ... سجع الحمام ونغمة الشحرور
وأدار كاسات الحميا أهيف ... يجلو محياه دجا الديجور

يفتر عن در تنضد باسما ... وإذا تكلم جاء بالمنثور

ورضا به ماء الحياة لمغرم ... فعلت به الألحاظ فعل خمور

لاح الشقيق بجده متأرجا ... بأريج ريحان وورد جورى

وإذا انثنا فضح الغصون وإن رنا ... حققت سحر الفاتر المسحور

فانهض بنا يا صاح نغتم فرصة ... سمح الزمان بها وصفو حبور

واركض بميدان السرور ولا تخف ... من بغى باغ واعتداء فجور

فالدهر مبتسم الثغور مساعد ... ببلوغ أمالى ويسر عسيرى

وإذا اعترتنى شدة فتخلصى ... منها بأكرم عادل ووقور

ما أمه المظلوم يرجو نصرة ... إلا وألفاه أعز نصير

والمستجير به على نوب الزما ... ن يجده أكرم منقذ ومجير

الماجد البر الرءوف محمد ... فخر الزمان ميسر المعسور

شهم علا هام السماك بهمة ... وسما على الجوزاء بالتدبير

أخلاقه أنفاس روض غب ما ... وأفاه صوب المزن بالتكبير

وشذا سجاياه وبارع علمه ... يغنيك عن ند وعن كافور

فطن جدير بالمفاخر والعلا ... تحلو المدائح فيه بالتكرير

سلنى إذا ما كنت تجهل قدره ... فأنا الخبير بقدره الموفور

هو كوكب بحر هزبر مفرد ... حصن ولا ينبيك مثل خبير

لا عيب فيه غير أن حبيبه ... يسلو به عن أنس كل عشير

لو أنفق المداح مدة عمره ... فى مدحه ما كافؤا بعشير

قرت به السودان عينا وازدهت ... بسنا علاه ومجده بالمأثور

أحوالها انتظمت بأقوم منهج ... والعدل فيه سار خير مسير

حظيت بطالع حظه قطانها ... وبيمنه ابتهجت بشرح صدور

حيث أقتدى بمليك مصر أمدها ... اكليل تاج الملك خير أمير

توفيق باشا المرتقى أوج العلا ... بجليل عزم فائق وشهير

هو كوكب الأفضال والفضل الذى ... منه اقتباس ضياء كل منير

ملك له فوق المجرة همة ... وثباته أزرى بقدر ثبير

يقظ خبير بالأمور خلاحل ... ورع محق لا يدين لزور

عم البرية عدله حتى غدا ... لا فرق بين الباز والعصفور

فــرع تأثل فى المكارم واعــتــلا وعــلا على استـكبـار كل كـبـيـر
من فـتـيـة طابت مـغـارس فظلهم وعلى الأثيـر لهم مـشـيـد قـصـور
قل للذى قـد رام يحكى فـضله قـصـر فليس البـحـر مـثل غـديـر
ذا واحـد جـمـع المحاسن وانثنى فـيـهـا فـريدا عن وجـود نظيـر
الله أكــبــر جل شــأن جــلاله وعـلا على التـشـبـيـه والتنظيـر
نشـر الفـواضل فى الأنام تفـضـلا وطوى لذكــر حــاتم المشــهــور
وزهت حكومـتـه بعـدل مـا رهت بمثــاله الأحكام من ســابور
وبه المدارس أينعت ثمــراتهــا وتبـــسـمت عن عــاطرات زهور
والـيــوم زاد سناءها تشــريفــا بسنا رؤوف وســعــيــه المشكور
فــتــضــاعـفت ببـهــائه أنوارها وتأرجت أرجــاؤها بعطيـــر
لله يوم قـــد تكامل صـــفـــوه وبه الســـرور لزائر ومـــزور
جمع الذوات الأكرمين وقد بدت فــينا تلوح بشــاشــة المســرور
حــيث المدارس بالعلوم تنورت وســنــاهــم نــور عــلــى تــنــويـر
فــجــريت يا برا رؤفــا خــيــر مــا يجـرى به كل أمـرئ مـأجـور
فـلأنت أفـخـر مـا جـد يدعى له صــافى الســريرة بالثناء جـديـر
وأدام توفـــيــق الخــديو مليكا مــا غــردت بالأيك ورق طيــور
وأقـبـل عـروسـا بنت فكر ألبست بحـلاك أفـخـر سندس وحـريـر
رقت مـعــانيــهــا وراقت وازدهت ونظامـهــا قـد حط قـدر جـريـر
تبـغى القـبـول وذا أجل مـرامـهـا حيث انتهت فى غاية التـوقـيـر
ثـم الصــــلاة على النبى وآلـه الســائرين بســيـــره المبـــرور
مـا قاله الاسوانى أحـمـد ناظمـا وافى زمـان الأنس والتـبـشـيـر

الوقائع رقم ١١٩٤

٢٣ رمضان سنة ١٢٩٨ ـ ١٨ أغسطس سنة ١٨٨١

فى يوم الإثنين المبارك ٢١ شعبان المعظم سنة ١٢٩٨ احتفل فى هذه المدرسة لامتحان تلامذتها كما جرت به العادة المألوفة فى كل عام فكان هذا الاحتفال جميل الهيئة جليل المنظر حضره جمع غفير من رؤساء الحكومة الكرام ووجوه العلماء الأعلام وعدد كثير من الذوات

الفخام وتحلى جيد هذا المحفل بواسطة هذا العقد النقيد سعادة محمد رءوف باشا حكمدار السودان . ولما أن تم الاحتفال على هذا الوجه الفائق افتتح التلميذ الأول (طه افندى زكى) الامتحان بتلاوة خطبة رائعة وقصيدة فائقة وهما من إنشاء حضرة الفاضل أحمد أفندى جداوى الأسوانى أول خوجات المدرسة (سنثبت الخطبة بتمامها ومن القصيدة ما لا يضيق عنه مقام الجريدة) ثم بعد أن فرغ من تلاوتها قام هو والتلميذ الثانى ، (حسن أفندى صبرى) فأبرزا بديع تخيلات الحريرى إلى حيز الوجود وأرقيا صنيع مخترعات مقاماته إلى مقام الشهود فبينا ما فى المقامة الفقهية من العجائب وكشفا عن غوامض ما أحرزته فتواها من الغرائب فكان أحدهما سائلا والثانى مجيبا وكلاهما موفق ومصيب . وقد ابتهج سرورا بذكائهما جميع الحاضرين وشهدوا لهما بأنهما من أنجب المشتغلين ، ثم سئلا فى علم العربية عن جملة أبيات من شواهدها وعن كثير من قواعدها ، ثم فى اللغة الفرنساوية والفنون الحسابية فأجابا فى كل ذلك بما دل على أنهما من البارعين وصدحت لهما الموسيقى بنغمات الفرح والإعجاب ، ثم قام بعدهما بقية التلاميذ وسئلوا واحدا واحدًا فيما حصلوه من العلوم واللغات فكانت إجابة الجميع بما تقر العين وتسر الفؤاد وتدل على أن مستقبل هذه المدرسة سيكون له نبأ عظيم وكان الفراغ من اختبار جميع الطلبة فى الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء فقام كل الحاضرين فرحين مسرورين بما شاهدوه من براعة هؤلاء التلامذة مثنين على معلميهم وأساتذتهم وحضرة الناظر بالثناء الجميل على ما بذلوه من الهمة والنشاط فى التعليم داعين للجناب الخديو المعظم ولرجال حكومته الكرام بأن ينفع بعنايتهم الوطن وأن يديم شمس وجودهم فى آفاق هذه البلاد فيتحقق لأبنائها الراحة والإسعاد وأن يمتع جنابه الكريم ببقاء أنجاله ما لاح بدر الكمال وفاح مسك الختام .

وهذه هى الخطبة التى تلاها التلميذ الأول فى بدء الامتحان .

حمدا لمن أطلع فى سماء المدارس شموس الهدى وبدور العرفان وسقى حدائقها الزاهية قطر الندى فأنتجت شذور الذهب وقلائد النقيان ولاحت بوارق السعد على أسارير ولدانها وفاحت نوافق الرند من أزاهير رياها وريف أفنانها وصلاة وسلاما على من عمت أنوار توفيقه الأكوان واستوى فى الاغتراف من بحر فضله كل قاص ودان سيدنا ومولانا محمد وعلى آله هداة الأمة وأصحابه مصابيح الظلمة ما خطب على أغصان بان قس البيان وأبان عما أنس الأوائل ذكر سحبان ، أما بعد فأنا معشر تلامذة مدرسة الخرطوم المتنافسين فى المعارف والعلوم نرفع أكف

الابتهال والضراعة ونتوسل إلى الله المخصوص بالشفاعة أن يقيم بقاء ولى نعمنا الذى ارتضع فيق التوفيق وارتشف رحيق التحقيق فلاح فى سماء المعالى بدرًا وكان بعد العسر يسرًا فجعل للمعارف فى زمانه موسما وأثبت العدل فى جبين أوانه باسما ووضع الأشياء فى مواضعها وعطى المناصب لأهلها ورعى الناس بكمال الرأفة ودعاهم إلى الصدق والألفة حتى نامت رعاياه فى ظلال الأمان وانعقدت المؤخاة بينهم فى جميع البلدان وأعاد للوطن شبابه وخلصه مما شابه وغرس فى رياضه أحمد المغارس وعم أرجاء جهاته بتشييد المدارس علما منه بأنها نجاحه وثروته وفلاحه فازدهت البلاد رافلة فى حلل السرور باسمة فى أقحوان الثغور وما صارت مدرستنا هذه غرة فى جبهة مدارس السودان وسعى إليها الطلبة من كل فج ومكان وراق فيها التعليم والتعلم وشهد لها ذوو الفضل بكمال التقدم إلا فى عصر جنابه العالى وأيامه الملألئة الليالى فلئن فأخرنا بهذا العصر سالف الأعصار وشمخنا برياض مفاخره اليانعة الأزهار وافتخرنا برأفة واليه بالرعية ومن مقاصده الخيرية فيحق لنا أن نباهى ونفاخر وتكون لنا المفاخر:

فما كل روض بالمسرات يانع	ولا كل عصر بالتهانى يهادينا
ولا كل وال بالسداد موفق	كتوفيق والينا العزيز أفندينا
جمال جبين الدهر والملك الذى	حمى المال والأعراض والملك والدين
وقد خضعت هام الأسود لعزمه	وروع بالإرهاب روع أعادينا
عزيز حميد كامل متثبت	سراج منير فاق جاها وتمكينا
تفرع من قوم كرام أماجد	ولكنه در به عقدهم زينا
له الله من راع رعانا برحمة	وبالخير والإصلاح دواما يراعينا
برأفته فزنا وقد راق عيشنا	كما فى رياض المجد طابت مجانينا
له النصر والتأييد ما صاح بلبل	وأبدى على نضب الغصون أمانينا

هذا ولما كان الامتحان العام من المآثر المعتادة فى كل عام فها هو قد آن ذلك اليوم الموعود والموسم السعيد المشهود وتشرفتم يا معشر أخوانى التلامذة بمحفل رحاله العظام وعقد دره الباهر النظام المؤلف من رؤساء الحكومة الكرام وأمرائها الفخام والعظماء، والعلماء والذوات وأرباب الاحتشام متحليا بواسطته الفخيمة ودرته اليتيمة الساطعة أنوارها كالفرقد رأته سعادة الحكمدار أبى الحسين محمد صاحب الآراء الحميدة السديدة والأفكار الراجحة المفيدة الذى هو من عهد

ما ولى علينا أميرا وطلع فى سماء الحكمدارية قمرًا منيرًا والسودان فى حظ وافر وصفو عيش وطيب خاطر قد ظهر بحسن سياسته جماله وتعطر بنشر عاداته صباه وشماله وراقت برأفته شئون أهلية وانتظمت فى سلك التمدن أحراره ومواليه . فالأمل منكم أيها التلامذة أن تطلقوا جياد أفهامكم فى حومة هذا الميدان وتسارعوا إلى إجابة سائلكم بثبات جأش وطلاقة لسان حتى يتبين غور قرائحكم ويتميز منكم راجحكم ويتضح ما حصلتموه من العلوم واقتطفتموه من ثمرات المفهوم فى ظلال الحضرة الخديوية والدولة المحمدية التوفيقية ألهمنى الله وإياكم السداد فى الإجابة وأرشدنا طريق الإصابة وأدام ولى نعمتنا وأنجاله ووفق لما فيه نجاح الأمة وزراؤه ورجاله بجاه سيد الأنام من هو للرسل ختام آمين .

وهذا ما اخترنا نشره من القصيدة الافتتاحية فمن غزلها :

فى رياض قهقهت أزهارها	عندما الطل بدمع العين جاد

ومنه :

يا سمير الأنس قم هيا بنا	تنتهز صفو أو يقات جياد

ومنها وهو الدخول على الموضوع :

واتبع سيل التصابى والهوى	لا تخف من بقى أرباب الفساد
فزمان الظلم ولى مدبرا	وصفا الوقت وذا العيش ارتفاد
ومتى ما قد ألمت شدة	فعلى توفيق مصر الاعتماد
كوكب الفضل الذى عم الورى	وبه راقت مسرات العباد

ومن غرر مديحها :

سيد فرع قد حوى	كل مجد طريف وتلاد
هدم الشر بماضى عزمه	وشعار الدين أحياها وشاد
ولغير المجد ما قد صبا	وبتقوى الله والإخلاص ساد
هو ذات رُكبت من شرف	وصلاح وفلاح ورشاد
من يقسه بملوك سلفت	قاس والله نضارًا برماد
شمل القطر بخير وندى	وكساه العز من بعد الحداد
وكريم ورءوف شاهد	بعموم الفضل من كل واد

ومنها وهو الختام :

دمت مسروراً عزيزاً بالغا	من أقاصى المجد ما فوق المراد

وقد استقبل تلامذة هذه المدرسة سعادة الحكمدار عند قدومه على محفل الامتحان بقصيدة كلها غرر ونثبت منها بعض ما يصل إليه الإمكان :

وأصيل الوقت رما ذهبا	وجرت بجداه الأنهار
لا غرو فتلك حلا وال	هو للسودان حكمدار
بر ورءوف فى الجدوى	لكن فى المعرك جار
فى نشر العدل له باع	ويراع ثبت أمار
بحر الأفضال ومعدنه	لكن ما فيه أكدار

ومنها :

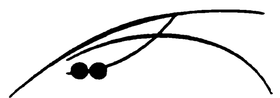
زهت السودان بمطلعه	واخضرت منه الأشجار
وخواطر أهليها انشرحت	والعيشة صفو مدرار

ومنها :

اليوم المدرسة ابتهجت	ولها قد قرت زنظار
كانت بالعلم لنا نورا	وبكم حلتها الأنوار
أهلا بجنابكم أهلا	يا نعم الزائر والجار
الله تعالى يحفظه	ويبلغه ما يختار

■■■

الملحق (١٤)
وثيقة تعيين الشيخ
محمد أحمد جداوى قاضيا شرعيا بدارفو
الذى صار فيما بعد باشخوجة
اللغة العربية بمدرسة الخرطوم



دفتر رقم ٦ معية عربى

صورة المكاتبة ٣٤ ص ٨١

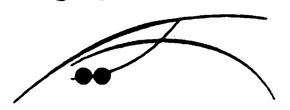
من نظارة الداخلية إلى المعية

جواب يذكر أنه لما كتب للأحكام عن انتخاب أربعة قضاة دارفور من ذوى اللياقة والاستعداد وردت إفادته بأنه نظرا لما استصوب بالمجلس الخصوصى من إحالة تعيين القضاة المذكورين وما يلزم لهم من الكتبة على الوجه القبلى تحرر منه لجهات الاقتضى بذلك لمناسبة صدور نطق عالى من تعيين واحد قاضى لعموم تلك الجهة وتكون إقامته بناحية فاشر التى هى المركز قد طلب من حضرات العلما تعيينه وأجابوا بموافقة تعيين الشيخ أحمد محمد جداوى الأسوانى من أهل العلم بالجامع الأزهر للجهة المذكورة بماهية شهرى ٢٠٠٠ قرش وأنه استصوب بالأحكام تعينه قاضى عموم تلك الجهة بالماهية المرقوم ومرغوب التفويض له من ولى الأمر لسماع القضايا الشرعية بما فيها مواد القتل وإقامة النظار على الأوقاف وتزويج الأيتام وإقامة الأوصية والتصريح له بالإذن لمن يلزم فى عقد الأنكحة ولهذا يروم العرض للأعتاب السنية عما ذكر .

فى ٢٦ محرم سنة ١٢٨٢ .

■■■

الملحـق (١٥)
أمران كريمان بتعيين
غردون باشا ورءوف باشا كل منهما حاكما
عامـا للسودان



دفتر رقم ١٩٤٨ أوامر عربى

صورة الأمر العربى رقم ٩١ ص ٤٧ بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١

من أمر كريم إلى عزتلو قولونيل غردون مأمور جهة خط الاستوى .

أمر كريم منطوقه أنه بحسب الشهود فيكم من الياقة والأهلية قد عيناكم مأمورا على جهة خط الأستوى التابعة للحكومة وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية إنما كافة لوازماتها التى يقتضى الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هذه يجرى تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابلة محاسبة المالية بذلك كما أمرنا الحكمدار المومى إليه بأمرنا الصادر له فى تاريخه ومرسول لكم طى هذا لتوصيله إليه عن يدكم . وبما أن أمور التجارة فى ذاك الطرف هى يد واحدة يقتضى أن الذى تتحصلوا عليه من تلك الجهات من أنواع التجارة بعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعيينات ترسلوا إلى حكمدار السودان لقبوله من أصل ما يصرفه من أثمان اللوازمات التى تطلبوها منه وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختباركم أحوالها تجروا ترتيبها بحسبما يترآى لكم وتستحسنوه سواء كان باجعال مديريتين أو إجعال أقسام أو نحو ذلك مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عماريتهم وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم فى سلك الإنسانية شيئًا فشيء وهكذا مما يلزم إجراه على حسب التعليمات التى أعطيت لكم بالفرنساوى وها هو موجود هناك رءوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف وتحرر له أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم وأمرناه

به أن يكون هو والعساكر تحت أمركم فيما يجب إجراه فى صالح المصلحة ولو أن المومى إليه وما معه من العساكر صار لهم مدة زائدة فى تلك الجهات ولذلك منظور فى إرسال خلافهم من هذا الطرف لتغييرهم ، لكنه فى مسألة إرسال البدل يكون المومى إليه والعساكر منقادين لأوامركم حسب أصول وقوانين الجهادية وعلى هذا وما هو منظور فيكم من حسن الغيرة والأهلية مؤهلين الاستحصال على ما فيه عمارية جهات خط الاستواء المحكى عنها وراحة أهاليها وحسن توطنهم وتأليفهم على الدخول فى تلك الإنسانية شيئًا فشىء كما هو مطلوبنا .

حاشية : إنه بعد توجهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم عن مصاريف تلك الحكمدارية على حسب الترتيب المذكور تطلبوا من الحكمدار وتعينوا الأوقات والمواعيد اللازم تدارك وإرسال اللوازمات المذكورة فيها بحيث إذا كانت الإيرادات على فرض لا تكفى المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه ويحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم .

من عابدين

الأمر العالى بتعيين رءوف باشا حكمدارا للسودان

الصادر فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٧ و٢٧ مارس سنة ١٨٨٠

إنه نظر لثقتنا بما أنتم متصفون به من الأهلية لأداء المأمورية المهمة المفوضة لأمانتكم والحالة هذه لا نرى لزوما للإسهاب فى شرح وتفصيل ما يجب اتخاذه وإجراؤه من الوسائط والأعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التى نحن ناظرون إليها بعين الأهمية وهى تقدم وانتظام أحوال مملكة واسعة مثل السودان وبذل ما يجب من المساعى للوصل إلى توطيد أسباب عمارتها وتمدن ورفاهية أهاليها بتوسيع نطاق دائرتى التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منابع الثروة العمومية ، إنما نرى من اللزوم استجلاب دقة نظركم إلى بعض مواد مهمة وهى الآتى ذكرها :

أولاً: مالية السودان

وكما لا يخفى أن لفظة المالية تشمل كل ما يلزم ويمكن تقريره وتجعله من الأموال والعوائد بطريقة لا يتأتى منها الإضرار بحالة الأهالى ولا الإجحاف بحقوق الخزينة وكذا تقدير ما يلزم من المصاريف بالنسبة لحلة البلاد واحتياجاتها بشرط أن تكون كافلة لحسن إدارة المصالح

العمومية بصورة منتظمة وعلى هذا فأول واجب عليكم هو تنظيم ميزانية مستوفية عن كافة إيرادات ومصروفات الحكمدارية ببيان أنواعها ومفرداتها بغاية الضبط والدقة وحصر ما يكون موجوداً من الديون بأنواعها وأسماء أربابها وكيفية الوصول إلى سدادها . هذا ومن اللازم أن الحكومة تكون عالمة بكافة أحوال السودان إجمالاً وتفصيلاً وبالمثل أنواع الضرائب والعوائد وسائر الأموال المقررة والجارى تحصيلها وكيفية استعمالها وصرفها فينبغى أن ترسلوا صورة من هذه الميزانية إلى نظارة المالية واستمرار ذلك سنويا وأن تقدموا إلى النظارة المشار إليها فى كل ثلاثة أشهر حساب إيرادات ومصروفات الحكمدارية بالبيان الكافى وذلك كما هو جار بكافة مصالح الحكومة . وبما أن كافة ما يتعلق بالمواد المالية والحسابية مرجع الأمر فيها إلى نظارة المالية فجميع ما يقتضيه الحال من المخابرات والاستئذانات فى هذا الشأن يكون خاصّا بالنظارة المشار إليها .

ثانياً: الإدارة الملكية

يلزم تنظيمها وإجراؤها على صورة تلائم أحوال تلك البلاد وما يختص بهذا القسم من المخابرات وما يتراءى لزوم تغييره وتبديله من المواد والنظامات ذات الأهمية وعزل وتنصيب أرباب المناصب الرقيعة مثل : المديريين ووكيل الحكمدارية وما يتعلق بالإدارة الملكية والأحوال الداخلية ما من شأنه استحصال أوامرنا عن جميع ما ذكر من هذه الأنواع فينبغى أن تكون المخابرة عنه مع نظارة الداخلية . وأما ما يتعلق بالأمور القضائية سواء كانت شرعية أو نظامية تجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه إنما ما يختص بهذا القسم من المخابرات أو ما ترون لزوم إجرائه من الإصلاحات يجب أولاً المخابرة عنه مع نظارة الحقانية . ثم أن الرخصة التى كانت ممنوحة لأسلافكم بتنفيذ ما يصدر من الأحكام الشرعية كانت أو سياسية فى المواد القضائية الحقوقية والجنائية قد أبقيناها لعهدتكم أيضا ما عدا أحكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها .

ثالثاً: القسم العسكرى:

من المهم عند وصولكم إلى مركز الحكمدارية أن توجهوا أنظاركم والتفاتكم إلى تنظيم وإصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الأمن والنظام العام ثكافة

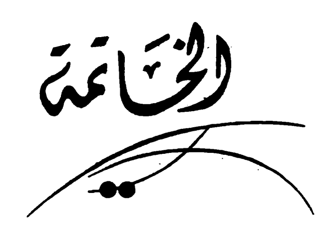
أنحاء المملكة خصوصا تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها فى الحالة الراهنة مع ما يترتب عليه الأمن والاطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لأنكم عارفون جيدا بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا فى هذه المسألة وهى أننا لا نقصد أى تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أى فتوح جديد إنما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة إذا وقع أدنى تعد على حدودنا . فهذه الأفكار هى التى تكون أس أعمالكم فى ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة إجراء القانون العسكرى وكافة ما يتعلق بهذا القسم من المخابرات والاستئذانات هو خاص بنظارة الجهادية ـ هذا ومع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لأسلافكم بتنفيذ أحكام القانون العسكرى فى الجنايات وسائر الأحوال حسب ما تصدر به مضابط المجالس العسكرية ـ فإن حكم العزل أو تنزيل رتبة أو ترقى الضابط جميع ذلك لابد من العرض عنه لطرفنا بواسطة نظارة الجهادية .

رابعًا: منع تداول بيع الرقيق

من المعلوم أن مسألة «منع تداول بيع الرقيق» هى فى غاية الأهمية : أولا أن بيع الرقيق أمر مخالف للإنسانية ومخل باحترام بنى آدم المنصوص عليه بالتكريم . ثانيًا من الواجب المتعين علينا إبقاء شرائط المعاهدة المعقودة بين حكومتنا الخديوية والحكومة الإنجليزية فى إبطال تجارة الرقيق . ولو أن ما نعلمه ونثق به من أفكاركم فى هذه المسألة وما أنتم عازمون عليه من المساعى الحميدة لمحو آثار هذه التجارة الذميمة لا يستوجب تكرار . إنما رأينا من الواجب علينا أيضا إثبات ما نحن عليه من شدة العزم والثبات فى هذه المسألة لتوفقوا أعمالكم فى ما تتخذونه من الوسائط المؤثرة والاحتياطات اللازمة لذلك لكى لا يسمع من الآن فصاعدًا بحصول أمر مغاير من هذا القبيل فى كافة البلاد والطرق المودعة تحت إدارتكم .

هذا وحيث إن الأقطار السودانية بعيدة عن مركز الحكومة الخديوية ومن الاقتضاء الوقوف على الوقوعات المهمة التى تحصل سواء كانت بالحدود أو بخلافها فتبادروا بالأخبار عنها بوقت وقوعها إلى طرفنا وإلى نظارة الداخلية بالتلغراف . وبناء عليه أصدرنا هذا لكم للمعلومية والإجراء على مقتضاه كما هو مطلوبنا .

■ ■ ■



الخاتمة

لم أستطع أن أبدأ موضوع هذه الرسالة قبل أن أمهد له بتمهيد طويل ولكنه ضرورى ، وقد شمل هذا التمهيد مرحلتين مهمتين فى تاريخ السودان ، أما المرحلة الأولى فهى مرحلة المسيحية فى بلاد النوبة وكيف وصلت تلك البلاد ، ومن أى الجهات دخلت إليها ، وأما المرحلة الثانية فهى مرحلة تعريب السودان وانتشار الإسلام فيه ، وهذه المرحلة تقابل ما يسمى بالإنجليزية Historical Backgroud . وإذ كنت أتحدث فى الرسالة عن التعليم الإسلامى بالسودان وعن الثقافة الإسلامية بالسودان ، وعن الصوفية فى السودان ، فلا أقل من أن أعرض للإسلام فى السودان ، وهو موضوع لا أظن أحداً تناوله من قبل بالعربية .

وقد أدركت حين شرعت فى الكتابة عن التعليم بالسودان أن ظهور السودان الإسلامى كان معاصراً لحادثتين خطيرتين فى تاريخ الإسلام أجمع ، هما سقوط بلاد الأندلس وزوال الإسلام منها ، وانتشار سلطان الأتراك العثمانيين على البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، كما أدركت أيضا أن الثقافة الإسلامية بالأمم المجاورة للسودان حين ظهور الإسلام فيه ، كانت فى طور من الاضمحلال والتأخر لا يصح أن يغفل ذكره عند التعرض للتربية والثقافة الإسلامية بالسودان .

لهذا جندت كل العوامل التاريخية والاجتماعية والنفسية التى أثرت فى نوع التعليم بالسودان ، ظهوره وتطوره ، وعالجت كل نوع معتمداً على الصحيح من الوثائق والحجج المخطوطة والشفهية ، وشرحت العوامل الداخلية والخارجية التى أثرت فى ظهور خلوة القرآن والعلم ، ومسجد القرآن والعلم ، وانتشار العلم والثقافة الصوفية ودرجة هذا الانتشار فى أجزاء السودان ، والظروف المحلية التى ساعدت على ذلك ، وكنت دائمًا أقارن بين الحركة العلمية فى السودان وما يقابلها من حركات علمية فى البلاد الإسلامية الأخرى ذات الصلة بها .

والقارئ لهذه الرسالة يتبين له أن الحياة العلمية فى السودان أثناء القرون الثلاثة ـ السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ـ تشبه إلى حد ما الحياة العلمية فى البلاد الإسلامية الأخرى الشبيهة بالسودان ، مع فرق ضرورى عظيم هو أن السودان كان حديث العهد بالإسلام أثناء هذه القرون ، إذا قورن بغيره من البلاد الإسلامية ، وأن ثقافته الإسلامية نشأت بدائية فى عهد كان فيه التقليد أساس كل شيء .

وإذا كان السودان قد تأثر بما كان سائداً فى بقية البلاد الإسلامية من علوم وثقافة وصوفية ، وأفاد كثيراً من منتجات هذه البلاد : فإنا لا نستطيع أن نقول ـ اعتمادا على ما وصل إلينا من وثائق ـ إنه ساهم بأى نصيب إنتاجى فى هذه الثقافة ، فقد كان طيلة هذه القرون معتمدًا على غيره ، وما كان من إنتاج بعض علمائه فى تأليف بعض الكتب الدينية أو اللغوية فقد كان انتاجًا محليًا لاستهلاك محلى . وللسودان عذره طبعًا ؛ لأنه كان فى حال عزلة جغرافية ، كما كان أيضا مبتدئًا ، وقد ابتدأ بعد أن قطع غيره شوطًا طويلا جدًا .

والقرن التاسع عشر يتميز بطابع خاص هو طابع خلق وحدة سياسية وجغرافية جديدة ، تكونت من جزيرة سنار وشرقى السودان وكردفان ثم دارفور ، وطابع فتح الطرق بين السودان وغيره من بلاد العالم الإسلامية وغير الإسلامية ، وطابع دخول حضارة جديدة فيها كثير من الحياة والنشاط ، وثقافة جديدة ـ وإن كانت فى صميمها إسلامية ـ هى الثقافة المصرية التى تأثرت بالتطور العلمى والفنى فى أوروبا . وكان ولاة مصر جميعهم صادقى العزم على النهوض بكل مرافق السودان فكانوا لذلك أسخياء فى مشروعاتهم . وشهد السودان من معاهد العلم الحديثة ، ومن رجال التربية والتعليم والقضاء والدين ، ما لم يشاهده فى أى عصر مضى . وفتحت أمام أبناء السودان المعاهد بمصر ، وكانت النوايا متوافرة على أن يعمم بالسودان من التعليم ما يتناسب مع استعداد أهله ، ولا يضن عليه بشيء منه .

فالقرن التاسع عشر إذًا يتميز بمدارس حكومية ؛ وببعثات علمية إلى مصر ، وبتشجيع السودانيين على التعلم فى الأزهر ومنحهم المطعم والمسكن والمكافآت المادية ، كما يتميز باهتمام الوالى بالمعاهد الأهلية الدينية ، وبذله المساعدات المالية فى صور مختلفة ، من نقود ، لحبوب ، لأراض تزرع من غير خراج ، لأوسمة وألقاب شرف .

ولو استمرت الحال كذلك لكان السودان قد شابه مصر أو قاربها فى نهضتها التعليمية : ولكن جاءت الثورة المهدية فوضعت حدا لكل مجهود بذل ، وكل جهود كان ينوى بذلها ، وتغيرت الحال وأزيل ما كان قائماً . واستمرت من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٩٩ فخربت ودمرت وذهب مع الريح كل ما بناه المصريون فى نحو ستين سنة ، لا بل قاسى التعليم الأهلى الدينى ما قاسى لأنه لم يتفق مع التعاليم المهدية .

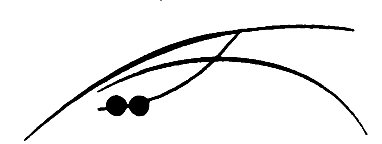
ثم بدأ فى السودان عهد جديد ـ لا نستطيع أن نحكم عليه الآن ـ ولكنه عهد جديد يسمى العهد الثنائى ، جاء هذا العهد بالقضاء على المهدية ، وأول هذا العهد هو نهاية الرسالة .

وسيشعر القارئ أو الزائر للسودان ، الآن ، أنه بالرغم من توالى القرون وتغير الظروف الاجتماعية والسياسية قد ظل التعليم الدينى الأهلى محافظًا على روحه الأصلية ، وأنه إلى جانب التعليم المدنى ، عامل نافع فى نشر الثقافة الإسلامية .

■■■

معجم الكلمات

السودانية غير المألوفة فى اللهجة العربية المصرية



التربية في السودان

715

الإعـانة .... ضريبة على القطن المنسوج محليًا .

البـادى .... التلميذ يقرأ القرآن لأول مرة .

البُـقُـر .... جمع بقرة ، وهى الأرض المنخفضة المسطحة يغمرها الفيضان المرتفع .

التـلـيـة .... مراجعة القرآن مرة ثانية للحفظ .

الثخينة .... نوع من البتاوة ثخين كالبتاو الذى يعمل فى بعض بلاد الصعيد وهو شائع الاستعمال فى جهة دنقلة .

التـمنة .... نصف الربع من القرآن .

الجُخُس .... العجل الصغير .

الجدعة .... تعادل تقريبًا ثمانية أمتار طولا .

الجـرُوف .... جمع جَرف وهو الشاطئ قليل الانحدار من النهر يغمره الماء عند الفيضان ، ثم ينحدر عنه بعد ذلك .

الجـــزء .... من القرآن هو جزء من ثلاثين .

جـزيرة الهُـوىْ .... هى جزيرة سنار . وقد اختلفت الآراء فى سبب هذه التسمية .

الحـــبل .... ثلاثة أذرع وقبضة وعمامة (انظر قبضة وعمامة) .

الحـــزب .... نصف الجزء وهو أربعة أرباع .

الحـفـيـر .... المكان المنخفض من الأرض الذى يجتمع فيه ماء المطر .

حوّرنالك ده .... جعلناه حوارك أى تلميذك .

حيــران .... جمع حُوار وهو التلميذ فى الخلوة للقرآن أو العلم .

الخــبطة .... مقياس من رأس السبابة إلى المرفق .

الختـمـة .... قراءة الكتاب مرة ، كختمة القرآن ، وختمة مختصر خليل .

الخــروبة .... نصف الثمنة من القرآن .

الخـلـوة .... مكان التـعـبـد ، أو مكان الضـيـافـة ، أو مكان تعليم القـرآن والعلم كالكتاب .

الخميرة .... المختمر من الطعام .

الــدارس .... التلميذ الذى تقدم فى حفظ القرآن والجمع دُرّاس .

دبـاليـب .... جمع دبليب وهو التعـيين من الطعام يعطى للتلميـذ الواحد للأكلة الواحدة فى الخلوة .

الدراسـة .... ترتيل التلميذ ما حفظه من القرآن عن ظهر قلب .

دقـيـقـة .... ناعمة .

دلاقـين .... جمع دلقون وهو الخرقة من الثياب .

دلّى القـرآن ...... راجعه مرة ثانية للحفظ بعد أن ختمه مرة أولى .

الدوكـة .... الفرن الذى يخبز فيه الكسرة (البتاوة) .

الـــذراع .... هو مقياس من المرفق إلى نهاية الوسطى .

رأس .... الواحد من العبيد .

راكـــوبة .... السقيفة تبنى من القصب ليجلس عليها التلاميذ أمام حجرة من حجرات الخلوة .

الرباطابى .... الكلمة مكونة من الرباط + أبى . وفى السودان كلمـة «أب» معناها الأسرة أو القبيلة أو البدنة . والياء فى النهاية علامة النسب والمعنى الشخص المنسوب لقبيلة رباط .

رهيــفــة .... هى البتاوة الرقيقة تخبز على الدوكة .

السـاقـيـة .... ثمانية أفدنة فى الجزر وعشرة فى الأرض الثابتة .

سبحة دقاقة ألفية . . . أى سبحة يسمع صوتها وتدق حين يستعملها صاحبها ، وفيها ألف حبة .

سبع الدراسة . . . . . . سبع القرآن يُسمّعه فى الليل حول النار «نار القرآن» التلميذُ الذى حفظ القرآن قبل انصراف كل التلاميذ للنوم ولمنازلهم .

السلطية . . . . نوع من الحراب .

السخرة . . . . ضريبة عامة تقدر على أساس ثروة الفرد .

شراب القوم . . . . . . التصوف .

الشرافة . . . . الزيقة والحلية يعملها التلميذ عندما يصل إلى سورة من السور المشهورة ، والحفلة التى تقام بهذه المناسبة .

الشرموط . . . . لحم البقر يجفف فى الشمس ويدق ثم يحفظ ليعمل منه الإدام .

الصعيد . . . . البلاد الواقعة جنوبى الخرطوم وهى تشبه صعيد مصر بالنسبة لارتفاعها .

الضيفان . . . . جمع ضيف .

العـادة . . . . ضريبة تفرض على السكان فرضا وإكراها فى إحدى المناسبات المهمة كزواج الملك أو السلطان .

العبد لاب . . . . . . نسبة إلى عبد الله ود عجيب وأب بمعنى أسرة .

العَرضة . . . . هى عرض التلميذ اللوح على الفقيه ، وتسميعه عن ظهر قلب وأذن الفقيه له بمحوه .

الضيوف الذين يفدون عند الشيخ للضيافة والمبيت كأن لهما «عشما»

العُشّام . . . . فى الشيخ .

العصيدة . . . . دقيق يطبخ . وتسمى اللقمة إن كانت مصنوعة من دقيق ذرة الفتاريتة أو القصابى . أما إذا كانت من الدخن فتسمى عصيدة دخن .

العمامة . . . . مقياس مقداره قبضة برفع الإبهام .

الـعَـنَـج	يطلق هذا الاسم على سكان السودان من النوبة العليا قبل غزو الفونج لهم ، ويتميزون بأنهم طوال الرقاب .
العـود	ثلاث خبطات (راجع الخبطة) .
العَـوْدة المرة	عـودة الطالب لحـفظ القـرآن مـرة ثانيـة بعـد أن قـرأه مـرة واحـدة ولم يحفظه ، وهى مرة لمرارتها على النفس .
الفتاريته	نوع من الذرة .
الفـجـة	الجزء من الأرض يجلس فيه الطلبة لأكل الطعام .
الفدافيد	جمع فدفد وهو القرط .
الفرخـة	أنثى الرقيق والذكر فرخ .
الفِـــرَك	ثوب للمرأة تستر بها نصفها الأيسر .
الفطيـرة	العصيدة من القمح .
الفـقـيـر	طالب العلم والولى ، وكذلك قد يطلق على الفقيه تساهلا .
الفـــونج	اسم يطلق على الجنس الذى غـزا ملوك النوبة العليـا وقـهـرهم وأزال سلطانهم باشتراكه مع عرب القواسمة .
القـبضة	أو القدحة وعاء الطعام الكبير ، وتسمى القداحة أيضًا .
القـصب	سيقان الذرة .
قـلـقـل الأرض	فككها وأعدها للزراعة .
القـــواد	السائس للحصان .
القـــوز	المكان المرتفع من الأرض تقوم عليه الحلة ، وكان سكان السودان حين يرتحلون من مكان لآخر ينتجعون القيزان (جمع قوز) ويهبطون فيـها ، وينصبون خيامهم أو يبنون منازلهم . وفى السودان عدد من القرى كل واحدة تسمى بالقوز .
كرامة الأربعـاء	شىء من النقود أو الحبوب أو الطعام يأخذه التلميذ للفقيه يوم الأربعاء على سبيل الأجر .

الكســرة . . . . الطعام الذى يؤكل .

الكُكارة . . . . كرسى من الخشب خاص يجلس عليه الملوك أو رؤساء القبائل أو شيوخ الصوفية .

اللقمـة . . . . العصيدة مصنوعة من دقيق ذرة الفتارية أو القصابى .

المَتَــرة . . . . ضريبة لنفقات السلطان خاصة .

المحلقات . . . . اسم جنيهات الذهب عند الهدندوة وسكان شرقى السودان .

مجلس التفتيحة . . . كان الشيخ يطالب أحسن التلاميذ بأن يقرأ المتن من الدرس الجديد . وهذا قبل البدء فى الشرح . ويسمى المجلس الذى ، يقرأ فيه المتن بمجلس التفتيحة .

المحــاية . . . . حوض مخصوص به ماء يمحى به القرآن من الألواح .

المريســة . . . . نوع من الشراب مسكر يصنع من الذرة .

المســيد . . . . مسجد العلم (الكلمة محرفة من المسجد) .

المقـابل . . . . التلميذ الذى يختاره الشيخ ليقرأ المتن فى مجلس التفتيحة .

المــك . . . . الملك يقابل شيخ القبيلة أو الأمير أو رئيس العشيرة والجمع مكوك وهى محرفة من ملك .

مكاتيب السلطنة . . . الخطابات التى كانت ترسل من السلاطين للشيوخ : شيوخ العلم أو الصوفية .

المُــلاح . . . . السائل الذى يؤتدم به كالمرقة .

نار القرآن . . . . جرت العادة فى السودان أن يستمر التعليم بالخلوة أثناء الجزء الأول من الليل . وكانت توقد لذلك نار تسمى «نار القرآن» وإذا كانت النار لقراءة العلم تسمى «نار العلم» وإذا كانت لاستقبال الضيوف تسمى «نار الكرم» .

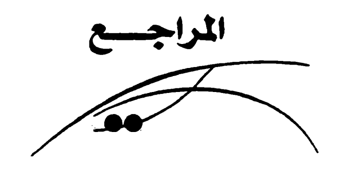
النــزول . . . . ضريبة يجمعها السلطان عندما ينزل فى مكان غير المكان الذى كان فيه .

النُّحـاس . . . . لكل ملك أو مك أو سلطان طبل خاص مصنوع من جلد مشدود على وعـاء من نحـاس . ويضـرب هذا النحـاس فى المنـاسبـات كـالتـتـويج أو موت ملك أو حرب .

الويكاب . . . . الويكاب . . . . . . نوع من المرقة يصنع من الماء والرماد أى رماد سيقان الذرة بعد حرقها .

■■■

المراجـــع



استعنت فى كتابة هذا الكتاب بمراجع عربية وتركية وأخرى أوروبية . ولذلك يمكن تقسيمها كما يأتى :

(أولاً) المراجع العربية والتركية .

(ثانيًا) المراجع الأوروبية .

المراجع العربية والتركية

١ ـ روايات شفهية .

٢ ـ مخطوطات لم تنشر بعد .

٣ ـ صحف ودوريات عربية .

٤ ـ مراجع عامة .

٥ ـ كتب عربية .

أولاً ـ المراجع العربية والتركية

١ ـ الروايات الشفهية

لما كان كثير من صور الحياة فى السودان قد تغير أو زال ولم يدوّن بعد وكثير من الحوادث التاريخية والتقلبات الاجتماعية قد حدث فى عهود قريبة ، ولم يمض عليه من الزمن ما يجعله تاريخًا منشورًا ، لم أجد بدًا من الاتصال ببعض الرواة الثقاة الذين اشتهروا فى السودان بصدق روايتهم أو خبرتهم الشخصية فى موضوع بذاته . وهؤلاء كانوا خير معين لى على جلاء كثير

من الموضوعات والحوادث . ومع أننى سجلت أخبارهم كما سمعتها لم أتخذها قاعدة مسلمة وحجة لا تنقض ، بل كنت فى بحثى أناقشها وأدحضها بغيرها من الأدلة الصادقة إذا لم تكن الرواية قوية .

وقد وضعت كل هذه الروايات الشفهية من ملحق خاص من مجلد الملحقات فلتراجع .

٢ - مخطوطات لم تنشر

١ - تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ، تأليف إبراهيم ود عبد الدافع وزيادات الزبير ود ضوه .

٢ - نظرة تاريخية فى نشأة المذاهب الأربعة لأحمد تيمور .

٣ - الدويلات الإسلامية فى سودان وادى النيل لمحمد الشاطر بوصيلى .

٤ - نسبة الركابية للشريف الطاهر بن عبد الله الركابى .

٥ - الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز .

٦ - مناشير السيد المهدى لمحمد أحمد المهدى .

٧ - وثائق من قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك وتشمل :

١ - دفاتر مدارس عربى .

٢ - دفاتر مدارس تركى .

٣ - دفاتر إرادات أو أوامر للمدارس .

٤ - دفاتر معية تركى صادر .

٥ - دفاتر معية تركى وارد .

٦ - دفاتر أوامر عربى .

٧ - دفاتر المجلس الخصوصى .

٨ - محافظ المدارس .

٩ - محافظ ذوات .

١٠ - محافظ المعية عربى .

١١ ـ محافظ المعية تركى .

١٢ ـ محافظ بحر برا تركى .

١٣ ـ دفاتر تلغراف صادر .

١٤ ـ دفاتر تلغراف وارد .

١٥ ـ دفاتر معية عربى وارد .

١٦ ـ دفاتر معية عربى صادر .

١٧ ـ محافظ تفتيش عموم قبلى .

١٨ ـ محافظ مديريات قبلى .

١٩ ـ دفاتر وارد الأقاليم بالداخلية .

٢٠ ـ دفاتر المعاونة (صادر ووارد) .

٢١ ـ دفاتر معية قيد وارد العرضحالات .

٢٢ ـ دفاتر صادر الدواوين بديوان الداخلية .

٢٣ ـ دفاتر أوامر شفاهية .

٢٤ ـ دفاتر عرضحالات المعية .

٢٥ ـ دفاتر صادر عرضحالات الداخلية .

٢٦ ـ دفاتر معية تركى وارد العرضحالات .

٢٧ ـ دفاتر وارد الإفادات عربى .

٣ـ صحف ودوريات عربية

١ ـ مجلة الرسالة .

٢ ـ مجلة المستمع العربى .

٣ ـ مجلة الرابطة العربية .

٤ ـ مجلة الجمعية الجغرافية الملكية .

٥ ـ مجلة مرآة السودان .

٦ ـ مجلة حضارة السودان .

٧ ـ جريدة النيل (السودانية) اليومية .

٨ ـ الوقائع المصرية . وتبدأ بالعدد ٥٦ المؤرخ فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ ، وتنتهى بالعدد ١١٩٤ المؤرخ فى ٢٣ رمضان سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٨١ .

٤. المراجع العامة

١ ـ دائرة المعارف الإسلامية .

٢ ـ دليل المتحف القبطى .

٣ ـ جامع العلوم .

٤ ـ وفيات الأعيان .

٥ ـ معجم الأدباء .

٥. كتب عربية

إبراهيم فوزى . . . . السودان بين يدى جردون وكتشنر .

ابن أبى الفضائل . . . . المفضل نشرة بلوشى .

ابن أبى أصيبعة . . . . طبقات الأطباء .

ابن بطوطة . . . . الرحلات .

ابن جبير . . . . الرحلات .

ابن خلدون . . . . تاريخ ابن خلدون .

مقدمة ابن خلدون .

ابن عبد الحكم . . . . فتوح مصر .

ابن عبد ربه . . . . العقد الفريد .

ابن عطاء الله السكندرى . . . . لطائف المنن .

ابن فرحون . . . . الديباج المذهب .

أبو العلا عفيفى . . . . الملامتية والصوفية وأهل الفتوه .

أبو يوسف . . . . الخراج .

أحمد الدردير . . . . الخريدة البهية .

أحمد أمين . . . . ضحى الإسلام .

أحمد بابا . . . . نيل الابتهاج بتطريز الديباج .

أحمد عزت عبد الكريم . . . . تاريخ التعليم فى عصر محمد على .

تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد .

تاريخ التعليم فى عصر إسماعيل .

إسماعيل القبانى . . . . سياسة التعليم فى مصر .

أمين سامى . . . . التعليم فى مصر .

تقويم النيل .

البلاذرى . . . . فتوح البلدان .

التلمسانى (أبو عبد الله محمد بن أحمد .

الملقب بابن مريم) . . . . البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان .

الجاحظ . . . . البيان والتبيين .

الجرجانى . . . . إعجاز القرآن .

السيوطى . . . . الإتقان فى علوم القران .

حسن المحاضرة .

الغزالى . . . . إحياء العلوم .

القشيرى . . . . رسالة القشيرى .

الكندى . . . . الولاة .

الماوردى . . . . الأحكام السلطانية .

المبرد . . . . الكامل .

المحبى . . . . خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

المسعودى . . . . مروج الذهب (طبعة فرنسية) .

المقريزى . . . . الخطط .

السلوك .

بتشر . . . . تاريخ الأمة القبطية ترجمة اسكندر تادرس .

بنيه . . . . أمريكا ترجمة عبد العزيز عبد المجيد .

بيتر كرابيس . . . . إسماعيل المفترى عليه ترجمة فؤاد صروف .

توفيق البكرى . . . . مهدى الله .

توفيق الطويل . . . . التصوف فى مصر إبان العصر التركى .

جورجى زيدان . . . . تاريخ آداب اللغة العربية .

حاجى خليفة . . . . كشف الظنون .

خليل طوطح . . . . التربية عند العرب .

رفاعة رافع الطهطاوى . . . . مناهج الألباب المصرية .

زكى مبارك . . . . التصوف الإسلامى .

ستودارد (لوثروب) . . . . حاضر العالم الإسلامى ترجمة عجاج نويهض .

سرهنك . . . . حقائق الأخبار .

سعد ميخائيل . . . . شعراء السودان .

سلاطين . . . . السيف والنار فى السودان ترجمة جريدة البلاغ .

شاروبيم . . . . تاريخ مصر .

شرف الدين خطاب . . . . التربية فى العصور الوسطى .

شفيق غربال . . . . محمد على الكبير .
شهاب الدين بن العمرى . . . . التعريف بالمصطلح الشريف .
شهاب الدين أحمد بن محمد . . . . . نفح الطيب .
المقرى التلمسانى . . . . أزهار الرياض فى أخبار عياض .
طه حسين . . . . الأيام .
عبد الرحمن الرافعى . . . . تاريخ الحركة القومية .
عبد الرحمن بن عبد الله السعدى . . . . تاريخ السودان (الغربى) .
عبد القادر بن عبد الله العيدروس . . . . الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية .
النور السافر من أخبار القرن العاشر .
عبد اللطيف البغدادى . . . . رحلة عبد اللطيف البغدادى إلى مصر .
عبد اللطيف السبكى وزميلاه . . . . . . تاريخ التشريع الإسلامى .
عبد الله عبد الرحمن . . . . العربية فى السودان .
عبد الله حسين . . . . السودان .
عبد الوهاب الشعرانى . . . . الطبقات الكبرى .
على مبارك . . . . الخطط التوفيقية .
قريفس وآخرون . . . . سبل كسب العيش فى السودان .
محب الدين الخطيب . . . . الأزهر ماضيه وحاضره والحاجة إلى إصلاحه ١٣٤٥هـ .
محمد أحمد محجوب . . . . الحركة الفكرية فى السودان إلى أين يجب أن تتجه .
محمد الخضرى . . . . تاريخ التشريع الإسلامى .
محمد الخطيب الشربينى . . . . الاقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع .

محمد صبرى . . . . مصر فى أفريقيا الشرقية ـ الثورة الفرنسية .

محمد عبد الجواد . . . . كتّاب القرية .

محمد عبد الله عنان . . . . تاريخ الجامع الأزهر .

محمد عثمان الميرغنى . . . . الرسائل الميرغنية فى آداب الطريقة الختمية .

محمد بن عمر التونسى . . . . تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

محمد كرد على . . . . الإسلام والحضارة العربية .

محمد لبيب البتانونى . . . . الرحلة الحجازية .

مصطفى أمين . . . . تاريخ التربية .

مصطفى بيرم . . . . رسالة عن الأزهر (ألقاها فى المؤتمر الثالث عشر للمستشرقين بهمبرج سنة ١٩٠٢) .

نعوم شقير . . . . تاريخ السودان ثلاثة أجزاء .

ود ضيف الله . . . . طبقات ود ضيف الله فى أولياء وصالحين وعلماء وشعراء السودان .

يحيى بن الحسين بن المؤيد اليمنى . . . أنباء الزمن فى أخبار اليمن نشر محمد ماضى .

II - EUROPEAN REFERENCES

1 - Unpublished Notes.
2 - Periodicals and Reports.
3 - General References.
4 - Other Books.

II - European Reference

1 - Unpublishes Notes

Egyptian Despatches from the Consulate Gene al of the U. S. A. covering the year. 1939-1879.

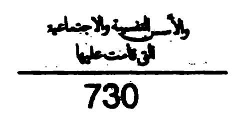
History of the Anglo-Egyptian Sudan, for the Gordon College Students, by S. Hillelson.

2 - Periodicais and Reports

The Archaeological Survey, Journal of the Royal Anthropological Institite. Journal of the Royal Asiatic Society.

The School of Oriental Studies Bulletin, issued by the American Univeristy, Cairo.

Sudan Notes and Records.



Annual Reports, Education Department (Sudan Government).
Reprt on Egypt and Canada 1840, by James Bowring.
Report on the Sudan, Khartoum, February 1883, by D. H. Stewart.

3 - General References

Encyclopaedia Britanica
Encyclopaedia of Education
Encyclopaedia of Islam
Encyclopaedia of Religion and Ethics
A guide to the British Museum
A General In roductory Guide to the Egyptian Collection in the Erinish Musrm.
Popular Enoyclopaedia
The Teacher's Encyclopaedia

4 - Other Books

Ahsanullah, K. B–History of the Muslem World.
Alvarez - Viggio Nella Ethiopia al Prete Ianni fatto, par Don Francesco (1520-27).
Angelo Sanmarco–Il Viaggie di Mohammed Aly al Sudan.
Arnold, T. H.–The Preaching of Islam.
Bermann, R. –The Mahdi of Allah.
Browne, W. G.– Travels in Africa, Egypt and Syria from 1792-1798, London 1799.
Budge, W.–The Egyptian Sudan. History of Ethiopia.
Burrkardt, J. L.–Travels in Nubia.
Cailliaud, F.–Voyage a Meroé
Carveth Read.– Origin of Man.
Chaine.–L'Egypte et le Soudan.
Cromer (Lord) – Modern Egypt.
De Leon.–Egypt under its Khedives.
Deherain, H.–Hi toire de la Nation Egyptienne.
Duduer, Ch.–500 Lieues sur le Nil.
Douglas Murray and Silvia White.–Sir Samuel Baker.
Douin, C.–Histoire du Regne hu Khedive Ismail.
Depont, O. Et Coppeleni, X.–Les Confreries Religieuses Musulmanes.
Dor Bey.–L'Instruction Publi'que en Egypte.
Dunnville, B.–Teaching Its Nature and Varieties.
Emil Ludwig.–The Nile from the Source to Egypt.
Evetts, B. T.–Churches and Monasteries of Egypt, edited and translated by him from the Arabic by Abi Saleh Al Armani.
Gibb, H. A. R.–Ibn Battuta's Travels in Asia and Africa, translated and selected by him.
Goldzeher.–Vorlesungeen ueber den Islam.
Green, J. H.–Pestalozzi
Griffith, L.–The Nubian Text.

Hamilton, J.–The Anglo-Egyptian Sudan from Within.
Heyworta Dunne, J.–Introduction to the Gistory of Education in Modern Egypt.
Hurgronje, S.–Mekka (translated from the German version) by J. H Monaham and also the German Version.
Ibrahim Salamah.–L'Easeignement Islamique en Egypte.
Jaceson, H. C.–Tooth of Fire.
Kammerer Albert.–La Mere Ro ge, L'Abyssinie et L'Arabie, depuit L'Antiquité.
Junker, W.–Travels in Africa.
Lane, E.–Manners and Castoms of Modern Egyptians.
Lane-Poole.–A History of Egypt in Middle Ages.
Macmichael, H.–A History of the Arabs in the Sadan.
Mengin (Felix).–Histoire Sommaire de L'Egypte Sous le Governement de Moh. Aly.
Mineham.–Churches in Lower Nubia.
Moh. Fuad Shukry.–Khedive Ismail and Slavery in the Suc'an.
Ohrwalder.–Ten Years of Captivity in the Mahdi's Camp, Translated by Wingate
Petheric, J.–Egypt, the Sudan and Central Africa.
Quatremere.–Memoire Geographiques er Historiques sur L'Egypte.
Reid, J. A.– Notes on the Tribes and Prominent Families in the Blue Nile Prevince.
Samuel Baker/–Ismailia.
Sidney Peel.– Reise nach Central-Africa, oder Leben und Lardtchefte (Leipzig 1855).
Welton, J.–Principles and Methods of Teaching.

■ ■ ■

